

كنوز جزيرة البنائين

قصة حوارية تربوية
في التنشئة السوية العقدية الاجتماعية
للشباب والكبار

بقلم: أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

رسوم / عبد الرحمن بكر

إخراج / أحمد حسن



١٤٠١ هـ - ١٤٠١ م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مكتبة ابن القيم

مكتبة ابن القيم
مكتبة ابن القيم



١٤٠١ هـ - ١٤٠١ م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

٢٠١٤

عنوان الكتاب:

كنوز جزيرة البنائين
قصة حوارية تربوية في التنشئة السوية العقدية الاجتماعية للشباب والكبار

المؤلف:

أ. د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

التصنيف:

الحكايات الأخلاقية والقصص

النشر:

الأول (الإلكتروني)

تاريخ النشر:

ربيع الآخر ١٤٣٦ الهجري

المصدر:

المعهد العالمي للفكر الإسلامي



تم تنزيل هذا الكتاب من موقع العقيدة.

www.aqeedeh.com

book@aqeedeh.com

البريد الإلكتروني:

مواقع مجموعة الموحدين

www.aqeedeh.com

www.mowahedin.com

www.islamtxt.com

www.videofarsi.com

www.shabnam.cc

www.zekr.tv

www.sadaiislam.com

www.mowahed.com



contact@mowahedin.com

د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

☆ ولد بمكة المكرمة في شوال عام ١٣٥٥ هـ الموافق ديسمبر ١٩٣٦م، وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي بها ١٩٤٢-١٩٥٥م، وتحصل على درجة البكالوريوس في العلوم السياسية عام ١٩٥٩م، وعلى درجة الماجستير عام ١٩٦٣م من كلية التجارة بجامعة القاهرة، وفي عام ١٩٧٢م تحصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية - جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

☆ درس العلوم السياسية بكلية العلوم الإدارية بجامعة الملك سعود (الرياض سابقاً) ورأس قسم العلوم السياسية بها ١٩٦٤-١٩٨٨م.

☆ أسهم في إنشاء جمعية الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا.

☆ مؤسس لجمعية العلماء المسلمين بالولايات المتحدة وكندا.

☆ مؤسس للمجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.

☆ الأمين العام للمؤسس للأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٩٧٢-١٩٨٠م.

☆ مؤسس وأول رئيس للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨١-١٩٨٦م.

☆ حالياً يرأس المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ عام ١٩٩٩م.

☆ مؤسس ومدير الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ١٩٨٨-١٩٩٨م.

☆ حائز على الدكتوراه الفخرية من جامعة همدرد hamdard عام ٢٠٠١م.

☆ حائز على الدكتوراه الفخرية في التربية من الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا عام ٢٠٠٨م.

☆ له العديد من الأبحاث والكتب الفكرية الإسلامية منها:

☆ نظرية الإسلام الاقتصادية، الفلسفة والوسائل المعاصرة القاهرة - الخانجي ١٩٦٠م.

☆ نظرية العلاقات الدولية في الإسلام - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٦م.

☆ أزمة العقل المسلم - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٨٦م.

☆ العنف وإدارة الصراع بين المبدأ والخيار، القاهرة - دار السلام ٢٠٠٢م.

☆ أزمة الإرادة والوجدان المسلم - دار الفكر ٢٠٠٣م.

☆ قضية ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية، رؤية اجتهادية قرآنية - دار السلام ٢٠٠٣م.

☆ الإصلاح الإسلامي المعاصر: الثابت والمتغير - نظام العقوبات الإسلامية نموذجاً - دار السلام ٢٠٠٦م.

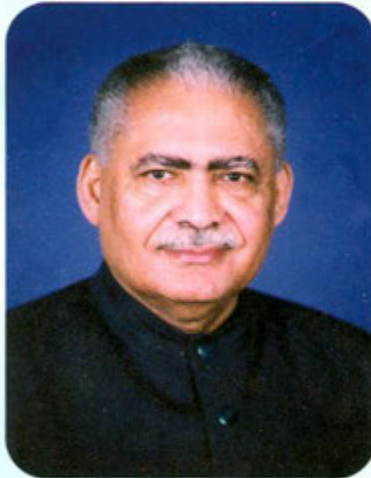
☆ إشكالية الفساد والاستبداد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي - مجلة المسلم المعاصر - العدد ١٢٢ - عام ٢٠٠٦م.

☆ جزيرة البنائين: قصة تعليمية في الفكر الإبداعي وفي التربية العقائدية والاجتماعية - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٢٠٠٦م.

☆ كنوز الجزيرة: قصة تعليمية في بناء مقومات الشخصية السوية - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٢٠٠٦م.

☆ الإنسان بين شريعتين، القاهرة - دار السلام، ط٢- ٢٠٠٧م.

☆ الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني - دار السلام ٢٠٠٩م.





كنوز جزيرة البنائين

(للشباب والكبار)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كنوز

جزيرة البنائين

قصة حوارية تربوية

في التنشئة السوية العقدية الاجتماعية
للشباب والكبار

بقلم: أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان



١٩٨١هـ - ١٤٠١م

1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الطبعة الأولى المعدلة والمصورة المعتمدة ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.

كنوز جزيرة البنائين

قصة مصورة

أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح المعهد بإعادة إصدار هذه القصة أو أى جزء منها، أو نقلها بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات سواء أكانت ورقية أو إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ولدور النشر أو أى جهة أخرى الراغبة في إصدار طبقات ورقية طبق الأصل لهذه القصة دون أى زيادة أو نقص لنشرها أو توزيعها، فإنه يمكنها الحصول على إذن إصدار هذه الطبقات من المعهد مقابل ١٦% من النسخ المطبوعة أو ما يوازي ٥% من ثمن البيع بالتجزئة. ويظل النشر الإلكتروني حق للمعهد العالمي للفكر الإسلامي وحده والذي يوفره المعهد بالوسائل الإلكترونية المختلفة بما في ذلك موقعه:

Or <http://www.eiiit.org> \URL: <http://www.iiit.org>

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

تدمك: ٦ - ٩٩ - ٥٢٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨
موضوع الكتاب: القصص التربوي
رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٣٥٨١

كورنيش المزرعة - شارع أحمد تقي الدين
بناية كولومبيا سنتر - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: <http://www.eiiit.org>

قائمة المحتويات

- المُقدِّمة ٩
- ١ - ابنُ بطوطة ضيفُ الجزيرة ١١
- ٢ - الماءُ يشقُّ وديانَ الأنهار ٤٣
- ٣ - صواعقُ السُّحبِ السوداء ٦٨
- ٤ - عندَ الفجرِ يصدحُ البلبلُ الطليق ٩١
- ٥ - الحمامةُ الحمقاءُ تلتقطُ الحبَّ من شبَّابِ الصياد ١٢٠
- ٦ - يومٌ سقطتُ ورقةُ التوتِ ومشى السلطانُ عريَّاناً ١٣٤
- ٧ - العزَّةُ والفلاحُ في حبِّ الله ١٦٧
- ٨ - أن يد الله مع الجماعة ١٨٠
- ٩ - الحمدُ لله الذي خلقتني عصفوراً ١٩٦
- ١٠ - لغزُ كنز الشيخ ٢٠٣
- ١١ - يومٌ أمطرت السماءُ ذهباً ٢١٥
- ١٢ - لا جائزةٌ للخاملِ والظالم ٢٣٢
- ١٣ - البشرُ أغبى من البقر ٢٥٨

- ٢٧٩ ١٤ - الْخُرُوفُ الْأَحْمَقُ يَطْلُبُ الْعُشْبَ مِنْ يَدِ الْجَزَّارِ
- ٢٨٧ ١٥ - رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ عَقْلِهِ
- ٣٠٣ ١٦ - خَلَطَ الْمَفَاهِيمَ وَالْخَطَابَاتِ أَنْكَى مِنْ خَلَطِ الْعَذْبِ بِالْأُجَاجِ
- ٣٣٢ ١٧ - السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ
- ٣٦٩ ١٨ - أُمِّي الَّتِي لَمْ تَلِدْنِي
- ٣٨٦ ١٩ - الشَّيْخُ شَاعِرًا
- ٤١٣ ٢٠ - حَلْ لَغْزِ الْكَنْزِ
- ٤٢٣ ٢١ - شِرَاعُ الرَّحَالَةِ يَقْصِدُ الْجَنُوبَ
- الْمُلْحَقُ التَّوْضِيحِيُّ الْأَوَّلُ:
- ٤٣١ الْمَفْهُومُ الْقُرْآنِيُّ: "أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ"
- الْمُلْحَقُ التَّوْضِيحِيُّ الثَّانِي:
- ٤٤٤ مَفْهُومُ الْقَانُونِ: إِقْلِيمِيَّةُ الْقَانُونِ، وَشَخْصِيَّةُ الْقَانُونِ.

الإهداء

إِلَيْنَا جَمِيعاً
إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمَاتِ
إِلَى جَمِيعِ الْأَبَاءِ
إِلَى جَمِيعِ الشَّبَابِ وَالشَّابَاتِ
إِلَيْنَا جَمِيعاً
أَنْ نَحْمَلَ مَسْئُولِيَّتِنَا
مَسْئُولِيَّةً
بِنَاءِ أَحْيَالِ الْغَدِ
بِنَاءِ أُمَّةِ الرُّوحِ
أُمَّةِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
أُمَّةِ التَّكَاثُلِ وَالْعَطَاءِ
أُمَّةِ الْأَعْمَارِ وَالْإِتْقَانِ
أُمَّةِ السَّلَامِ
أُمَّةِ الْإِنْسَانِ
أُمَّةِ الْإِسْلَامِ
أُمَّةِ الدَّارَيْنِ



مَقَدِّمَةٌ

أَيُّهَا الْقُرَّاءُ الْأَعْرَاءُ:

الْقِصَّةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، هِيَ قِصَّةٌ، يَدُورُ حِوَارُهَا، وَأَحْدَاثُهَا، عَلَى لِسَانِ الْأَدِيبِ الْحَكِيمِ الْفَيْلَسُوفِ "بَيْدَبَا"، صَاحِبِ الْكِتَابِ الْقَصَصِيِّ الشَّهِيرِ "كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ"، وَهِيَ امْتِدَادٌ لِلْقِصَّةِ السَّابِقَةِ "جَزِيرَةُ الْبَنَائِينَ"، لِلْفَتَيَانِ وَالْفَتَيَاتِ، لِذَاتِ الْمُؤَلِّفِ، وَالْقَصْدُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَالْمَوْجَّهَةٌ إِلَى الشَّبَابِ وَالشَّبَابَاتِ، وَإِلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، هُوَ طَرْحُ مُنَاقَشَةِ فِكْرِيَّةٍ لِمَا وَرَدَ فِي تِلْكَ الْقِصَّةِ مِنْ مَبَادِيٍّ وَمَفَاهِيمٍ وَرُؤْيَا كَوْنِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ حَضَارِيَّةٍ لِلإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ، تَهْدَفُ إِلَى أَنْ تُعِينَ عَلَى إِعَادَةِ صِيَاغَةِ مَفَاهِيمِ الْأُمَّةِ، وَرُؤْيَيْهَا الْكَوْنِيَّةِ، وَعَلَى ضَوْءِ الرُّؤْيَا الْكُلِّيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ (الْإِلْزَامِيَّةِ وَاللَّمَكَانِيَّةِ)، وَعَلَى ضَوْءِ دُرُوسِ تَطْبِيقَاتِ الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَتَجَارِبِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَبْرَ تَارِيخِهَا الثَّرِيِّ الطَّوِيلِ.

أَيُّهَا الْقُرَّاءُ الْأَعْرَاءُ:

إِنَّ مِنَ الْوَاضِحِ، أَنَّهُ مِنْ دُونِ مُرَاجَعَةِ جَادَّةٍ لِرُؤْيَا الْأُمَّةِ، وَمَنْهَجِ فِكْرِيَّهَا، وَأَسَالِيْبِ تَرْبِيَّةِ أَجْيَالِهَا، لَا يُمَكِّنُ لِلْأُمَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، أَنْ تَسْتَعِيدَ عَافِيَّتَهَا، وَدَافِعِيَّتَهَا، وَدَوْرَهَا الْهَادِيَّ الرَّائِدَ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَرْشِيدِ مَسِيرَتِهَا الْحَضَارِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ.

ولهذا؛ فإننا في المعهد العالمي للفكر الإسلامي، نعتقد أن هذه القصة، وحواراتها، ونقاشاتها، هو أمر ضروري لكل شاب مسلم، وشابة مسلمة، ولكل أب مسلم، وأم مسلمة، ولكل مثقف مسلم، ومثقفة مسلمة، بل لكل إنسان ينشد الرشد والحكمة؛ لأن من الصعب - إلا على أصحاب الاختصاص؛ بسبب تشعب المعرفة، وكثرة المشاغل والمسؤوليات على الإنسان المعاصر - أن يلم الشباب وعمامة المثقفين، بكل القضايا التي تتعرض لها هذه القصة، وأطروحاتها المتشعبة، في مصادرها الدينية، والاجتماعية، والفلسفية، والعلمية؛ لذلك كان القصد من هذه القصة أن تقدم للقارئ، كل ذلك في سفر واحد، وبأسلوب قصصي مبسط ميسر يخاطب العقل والوجدان.

لذلك نأمل أن يحرص شبابنا وشاباتنا، والآباء والأمهات، والمثقفون والمثقفات؛ على قراءة هذه القصة، وبعناية وأناة، ومناقشة قضاياها وأفكارها المهمة، وبكل الجدية، وذلك لإدراك مراميها، ولتعميق ما تتضمنه هذه الأفكار وإغنائها، من أجل العمل نحو مستقبل أفضل لأمة الإسلام والإنسانية جمعاء، بإذن الله.

مع أطيب التمنيات وخالص الدعاء بالتوفيق والرشاد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

ابن بطوطة ضيف الجزيرة

تتناول هذه القصة المفقودة من قصص الحكيم بيدبا ما سمعه بيدبا من أخبار جزيرة البنائين، من الحكيم الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة، وما دار بينهما من حديث وحوار يستهدف المفكرين والمرتبين، ويستهدف الشباب والأباء والأمهات، كما يستهدف المثقفين والإصلاحيين، ولكن بأسلوب قصصي يجعل التعامل مع ما تضمنته الحوارات من القضايا والمفاهيم سهلاً ميسراً؛ لإدراك ما فيها من ثمين الحكمة والنصح، والتبصير في هذه المجالات التي تهتم شعوب الأمة؛ لتتحسس طريقها نحو النهضة والإصلاح والعزة بإذن الله.

يقول الحكيم بيدبا: لقد أخبرني الشيخ الرحالة ابن بطوطة بالكثير العجيب من أخبار جزيرة البنائين التي قطع في سبيل الوصول إليها الفيافي والقفار، وركب أهوال أمواج البحار؛ حتى يراها، ويحظى بزيارتها، ويتعرف أحوالها بنفسه، ويقف على الأسباب التي جعلتها أكثر رخاءً وازدهاراً وأمناً وسلاماً من كثير سواها، وكيف أن ابن بطوطة بعد زيارته تلك الجزيرة لم يكن يملُ رواية أخبارها وما شاهدته فيها؛ فيما يتعلق بمؤسساتها العامة، في تكاملها، وورقي أدائها في إدارة شؤون المجتمع، بقصد العدل



الشيخ يبحر إلى الجزيرة

وَحِمَايَةِ حُقُوقِ الْمُوَاطِنِينَ، وَصِيَانَةِ كِرَامَتِهِمْ، وَالتَّعْبِيرِ الإِجَابِي عَنْ رُؤْيَتِهِمُ الكُونِيَّةِ وَقِيَمِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَإِرَادَتِهِمُ العَامَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَنْشِئَةِ أبنَاءِ تِلْكَ البِلَادِ، وَحُسْنِ تَرْبِيَتِهِمْ، وَمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ حِسِّ الحُرِّيَّةِ وَالكِرَامَةِ، وَمِنْ شَمَائِلِ الدَّمَائَةِ وَكِرِيمِ المُعَامَلَةِ، وَمَا كَانُوا يَتَحَلَّوْنَ بِهِ مِنْ الجِدِّ وَالإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ فِي التَّعَامُلِ، وَالجِدِّ وَالمُثَابَرَةِ وَالإِخْلَاصِ فِي العَمَلِ، وَمِنْ حُسْنِ الإِخَاءِ وَالمُودَّةِ وَرُوحِ التَّكَافُلِ، وَكَيْفَ أَنَّ مَرَدَّ ذَلِكَ كَانَ يَرْجِعُ فِي جَوْهَرِهِ إِلَى وُضُوحِ رُؤْيَتِهِمُ الكُونِيَّةِ وَسَلَامَةِ مَنَهِجِ فِكْرِهِمْ، وَبِنَاءِ وَجْدَانِهِمْ عَلَى أُسُسٍ سَلِيمَةٍ مَتِينَةٍ، بِمَا أَوْلُوهُ مِنْ عِنَايَةٍ بِأَمْرِ الأُمُومَةِ وَبِأَمْرِ الأُسْرَةِ، وَحُسْنِ ثِقَافَةِ الوَالِدِينَ فِي شُؤُونِ رِعَايَةِ أبنَائِهِمْ نَفْسِيًّا وَوَجْدَانِيًّا، وَغَرْسِ كِرِيمِ القِيَمِ وَالأَخْلَاقِ وَالمَبَادِي فِي نُفُوسِهِمْ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ، وَمِنْ أَهَمِّ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي حَرَّصُوا عَلَى غَرْسِهَا فِي قَرَارَةِ وَجْدَانِهِمْ، وَالَّتِي هِيَ أَسَاسُ أَخْلَاقِيَّاتِ الفُرْدِ: رِعَايَةُ الأُسْرَةِ، وَحِفْظُ كِرَامَةِ الإِنْسَانِ، وَيَأْتِي فِي مُقَدِّمَتِهَا كِرَامَةُ الأُمُومَةِ وَالأُنُوثَةِ وَالإِنجَابِ؛ فَلَمْ تَكُنِ الأُنُوثَةُ عِنْدَهُمْ بِضَاعَةً رَخِيصَةً لِلتِّجَارَةِ، وَلَا حَقَارَةً لِلإِسْتِهْتَارِ وَالإِمْتِهَانِ، بَلْ كَانَتْ جَلَالَ الأُمُومَةِ، وَمَنْبَعِ الكِرَامَةِ، وَمَهْدِ المُجْتَمَعِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا وَهُوَ يَسْرُحُ بِبَصَرِهِ إِلَى الأفقِ البَعِيدِ، يَسْتَعِيدُ ذِكْرِيَّاتِ لِقَاءِ اتِهِ مَعَ الشَّيْخِ



الفيلسوف بيدبا يستقبل الشيخ الرحالة ابن بطوطة

الرَّحَالَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ بِقَامَتِهِ الْمَهِيْبَةِ، وَأَسَارِيرِهِ الْمُنْبَسِطَةِ، وَوَجْهِهِ الْبَاسِمِ الْوَضَاءِ: إِنَّ
مِنَ الْطُفْلِ مَا سَمِعْتُ مِنَ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي شُؤُونِ التَّرْبِيَةِ مَا ذَكَرَهُ عَنِ أُمَّهَاتِ وَادِي
جَزِيرَةِ الْبَنَائِيْنَ، وَكَيْفَ كَانَ الْحُبُّ وَالتَّشْجِيْعُ وَإِثَارَةُ الرَّغْبَةِ فِي الْإِنْجَازِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْإِبْدَاعِ
عِنْدَ الطُّفْلِ وَسِيْلَةً أَسَاسِيَّةً فِي ثَقَافَتِهِمُ التَّرْبَوِيَّةِ وَتَنْشِئَةِ أَبْنَائِهِمْ.

وَيَضْرِبُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ مِثَالًا لِأَسْلُوبِ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ التَّرْبَوِيِّ الْحَكِيمِ، فَيَقُولُ:
يَنْمُو فِي جِبَالِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ شَجَرُ الرُّمَّانِ، وَبِسَبَبِ جُودَةِ تُرْبَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ وَرَوْعَةِ جَوْهَا
وَهَوَائِهَا الْعَلِيْلِ؛ فَقَدْ كَانَتْ أَشْجَارُ الرُّمَّانِ لَدَيْهِمْ تُعْطِي أَحْلَى ثَمَرٍ وَأَطْيَبَهُ طَعْمًا وَمَذَاقًا،
إِلَّا أَنَّ الرُّمَّانَ يُشْكَلُ عِنْدَ الْأُمَّهَاتِ مُشْكَلَةً أُسْرِيَّةً بِيئِيَّةً.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى أَنَّ بُقْعَ ثَمَرِ الرُّمَّانِ وَحَبَّاتِهِ مِنْ أَكْثَرِ الْأَلْوَانِ ثَبَاتًا عَلَى الثِّيَابِ
وَأَثَاثِ الْمَنَازِلِ، وَمَنْ الصَّعْبُ الْحِفَاطُ عَلَى حَبَّاتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي يَسْهُلُ تَنَاطُرُهَا عَلَى الثِّيَابِ
وَعَلَى فُرُشِ الْمَجَالِسِ وَأَثَاثِهَا، خَاصَّةً حِينَ يَتَنَاوَلُهُ الصِّغَارُ وَالْأَطْفَالُ.

وَلِكُونِ الْأُمَّهَاتِ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ -بِحُكْمِ ثَقَافَتِهِنَّ التَّرْبَوِيَّةِ الرَّفِيعَةِ- يُدْرِكْنَ أَنَّ إِصْدَارَ
الْأَوَامِرِ إِلَى الْأَطْفَالِ، حِرْصًا مِنْهُنَّ عَلَى عَدَمِ وَقُوعِ شَيْءٍ مِنْ حُبُوبِ الرُّمَّانِ عَلَى ثِيَابِهِمْ، أَوْ
عَلَى أَثَاثِ الْمَنْزِلِ، لَنْ يُجْدِي نَفْعًا؛ وَذَلِكَ لِصُعُوبَةِ تَذْكَرِ الطُّفْلِ لِلْأَوَامِرِ وَاتِّبَاعِهَا،

وَلَسُرْعَةً تَشْتَتِ انْتِبَاهِهِ، وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّحَكُّمِ الْكَامِلِ بِمَا يَفْعَلُونَ وَيُزَاوِلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالنَّشَاطَاتِ.

لِذَلِكَ كُلُّهُ لَجَّاتِ الْأُمَّهَاتُ إِلَى حِيلَةٍ لَطِيفَةٍ، تُثِيرُ انْتِبَاهَ الطِّفْلِ، وَتُثِيرُ رَغْبَتَهُ فِي آدَاءِ الْمَطْلُوبِ دُونَ أَيِّ إِحْسَاسٍ بِالْأَمْرِ أَوِ الْإِكْرَاهِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ أَنْ تَذَكَّرَ الْأُمَّهَاتُ لِلْأَطْفَالِ الصِّغَارِ أَنَّ فِي كُلِّ رُمَّانَةٍ حَبَّةً وَاحِدَةً مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ مَنْ يَحْرُصُ عَلَى أَكْلِ كُلِّ حَبَّاتِ الرُّمَّانِ لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَقَدْ أَكَلَ حَبَّةً مِنْ حَبَّاتِ رُمَّانِ الْجَنَّةِ.

وَهَكَذَا تُثِيرُ الْأُمَّهَاتُ الرَّغْبَةَ فِي نُفُوسِ أَطْفَالِهِنَّ لِأَكْلِ كُلِّ حَبَّةٍ مِنْ حَبَّاتِ ثَمَرَةِ الرُّمَّانِ بِكُلِّ الْحِرْصِ عَلَى عَدَمِ التَّفْرِيطِ فِي آيَةِ حَبَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْحَبَّاتِ.

لَقَدْ بُنِيَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ التَّرْبَوِيَّةُ اللَّطِيفَةُ الْبَرِيئَةُ عَلَى إِثَارَةِ مَفْهُومِ الْحُبِّ وَالرَّغْبَةِ بِكُلِّ إِجَابِيَّاتِهَا؛ لِدَفْعِ الطِّفْلِ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى مَا يُطَلَّبُ مِنْهُ وَيُرْجَى لَهُ، وَهُوَ مَفْهُومٌ أَسَاسٌ فِي آسَالِيْبِ التَّرْبِيَةِ الْإِنْمَائِيَّةِ الْإِبْدَاعِيَّةِ النَّاجِحَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَفَهَّمَهَا الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ بِأَسْلُوبٍ إِجَابِيٍّ فَعَالٍ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ ابْنَ بَطُوطَةَ عَنْ مِثَالٍ لِمَا رَأَى وَشَاهَدَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ أَمْثَلَةِ
التَّرْبِيَةِ السَّيِّئَةِ فِي الْبِلَادِ الْمُتَخَلِّفَةِ عَنْ طَرِيقِ الْأَسَالِيبِ التَّرْبَوِيَّةِ السَّلْبِيَّةِ الْإِمْلَائِيَّةِ
السُّلْطَوِيَّةِ، بِإِثَارَةِ مَشَاعِرِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ وَالتَّهْيِبِ فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ.

فَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: التَّرْبِيَةُ السَّيِّئَةُ يَا بَيْدَبَا هِيَ التَّرْبِيَةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْقَهْرِ
وَالْأَمْرِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَالَّتِي تَغْرِسُ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ مَشَاعِرَ الْعِزْزِ وَالتَّهْيِبِ وَالْخَوْفِ وَالْكَرْهِ،
وَتَنْتَهِي بِهِ إِلَى خُلُقِ الْعِنَادِ وَالرَّفْضِ وَالْمُشَاكَسَةِ، أَوْ تُؤَدِّي إِلَى خُلُقِ الْجُبْنِ وَالتَّهْيِبِ
وَمَشَاعِرِ الْخُضُوعِ وَالْمَذَلَّةِ، وَعَدَمِ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ، وَإِلَى خُلُقِ الْكُذْبِ وَالنِّفَاقِ؛ حَسَبَ مَا
تَدْعُو إِلَيْهِ طَبِيعَةُ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الطِّفْلِ وَالْمُرَبِّيِّ، وَطَبِيعَةُ الْأَسَالِيبِ السَّيِّئَةِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا
الْمُرَبِّيُّ فِي تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُ.

وَعَلَى عَكْسِ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرَهُ لِي مِنْ مِثَالِ أُمَهَاتِ وَادِي جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ السَّلَامِيَّاتِ
الطَّيِّبَاتِ، فَقَدْ أوردَ لِي مِثَالًا آخَرَ عَنِ التَّرْبِيَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَلْجَأُ إِلَى إِثَارَةِ مَشَاعِرِ الْخَوْفِ
وَالرَّهْبَةِ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ، بِسَبَبِ خُرَافِيَّةِ عَقْلِيَّةِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ، وَقُصُورِ مَعْلُومَاتِهِمْ
وَمَعَارِفِهِمْ التَّرْبَوِيَّةِ؛ بِسَبَبِ إِهْمَالِ تِلْكَ الْجَوَانِبِ الْهَامَّةِ فِي مَنَهِجِ ثِقَافَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ
وَتَقَاتِهِمْ.



الجاهلة تؤذي أبنائها وتجني على الأبرياء

قَالَ الشَّيْخُ: أَنْتَ تَعْلَمُ يَا بَيْدَبَا أَنَّ الْأَمْنَ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ، كَانَ -وَمَا يَزَالُ- فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ حَتَّى الْيَوْمِ، أَمْرًا مَفْقُودًا، وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ تَخْشَى الْأُمّهَاتُ بِالطَّبَعِ أَشَدَّ الْخَشْيَةِ عَلَى أَطْفَالِهِنَّ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنَازِلِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ لِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ مَرَضَى النُّفُوسِ وَشِرَارِ الْقَوْمِ.

وَلَمُوجَهَةٌ هَذِهِ الْحَالَةُ فَقَدْ لَجأتُ بَعْضُ الْأُمّهَاتِ الْجَاهِلَاتِ فِي إِحْدَى الْبِلَادِ الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي لَمْ يَحْظَ فِيهَا الْمُواطِنُونَ -وخاصَّةً الْمَرأةُ وَالْأُمّهاتُ- بِالْعِنَايَةِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعِلْمِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، إِلَى حِيَلَةٍ مُرْعِبَةٍ تُثِيرُ الْخَوْفَ وَالْهَلَعَ فِي نُفُوسِ صِبْغَارِهِنَّ؛ حَتَّى لَا يَخْرُجُوا مِنَ الْبُيُوتِ بَعْدَ حُلُولِ اللَّيْلِ وَنُزُولِ الظَّلَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْحِيَلَةُ الْخُرَافِيَّةُ الْأُسْطُورِيَّةُ السَّيِّئَةُ هِيَ حِكَايَةُ "الدَّجِيرَةِ"، وَبَعْضُهُمْ يَدْعُوهَا "السَّعْلِيَّةَ"، وَلَهَا مِنْ بِيئَةٍ مُتَخَلِّفَةٍ إِلَى أُخْرَى - وَإِنْ اتَّحَدَ الْمُحْتَوَى وَالْأَثَرُ التَّرْبَوِيُّ السَّيِّئُ - أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ حِكَايَةُ خُرَافِيَّةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ خُرَافَةِ "جَنِّيَّةٍ" شَرِيْرَةٍ تَتَخَفَى بِمَلَابِسِ النِّسَاءِ، وَتَنْطَلِقُ فِي الْحَوَارِي وَالشَّوَارِعِ الضَّيِّقَةِ، وَبَيْنَ الْبُيُوتِ، بَعْدَ أَنْ تَغِيْبَ الشَّمْسُ وَيَحِلَّ الظَّلَامُ، وَتَتَرَصَّدُ الْأَطْفَالَ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الضَّيِّقَةِ الْمُنْزَوِيَّةِ؛ لِتُوْذِيَهُمْ وَتَفْتِكَ بِهِمْ.

وَهَذِهِ "الدَّجِيرَةُ" الْخُرَافِيَّةُ الْأُسْطُورِيَّةُ لَا يَخْتَلِفُ شَكْلُهَا الْخُرَافِيُّ عَنْ آيَةِ امْرَأَةٍ، إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا أَقْدَامٌ إِنْسَانِيَّةٌ، بَلْ لَهَا فِي هَذَا الْخِيَالِ الْمَرِيضِ حَوَافِرُ حَيَوَانِيَّةٌ مِثْلُ حَوَافِرِ الْحِمَارِ، وَلِذَلِكَ يَحْذَرُ الْأَطْفَالُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَنَازِلِ فِي اللَّيْلِ حَتَّى لَا تُؤْذِيَهُمْ أَوْ تَخْطِفَهُمْ أَوْ تَأْكُلَهُمْ هَذِهِ "الدَّجِيرَاتُ".

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: وَلَكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ مَا تُثِيرُهُ هَذِهِ الْحِيلَةُ الْخُرَافِيَّةُ التَّرْبُويَّةُ السَّيِّئَةُ وَسِوَاهَا مِنَ الْمَفَاهِيمِ التَّرْبُويَّةِ الْخُرَافِيَّةِ الْجَاهِلَةِ السَّقِيمَةِ فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ مِنَ الْأَثَارِ التَّرْبُويَّةِ السَّلْبِيَّةِ، وَمَا تُوَلِّدُهُ مِنْ مَشَاعِرِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ وَالرُّعْبِ مِنَ اللَّيْلِ وَمِنَ الظُّلَامِ، الَّذِي يَغْرَسُ فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ رَهْبَةَ الْخُرُوجِ فِي اللَّيْلِ، بَلْ إِنَّ أَثَرِ ذَلِكَ يَمْتَدُّ فِي نُفُوسِ الْأَطْفَالِ وَخِيَالِهِمْ إِلَى خَوْفِ الْخُرُوجِ إِلَى غَيْرِ الْمَأْمُونِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْأَمَاكِنِ؛ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يُؤَدِّي وَلَا شَكَّ إِلَى سَيْطَرَةِ مَشَاعِرِ التَّهْيِبِ وَالْجُبْنِ، وَإِلَى قَتْلِ رُوحِ الْجُرْأَةِ وَالْمُغَامَرَةِ فِي نُفُوسِ أَبْنَاءِ أَوْلِيكَ الْأُمَّهَاتِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: مِنْ أَهَمِّ مَا أَذْكَرُهُ وَأَرْوِيهِ دَائِمًا عَنْ شَيْخِنَا ابْنِ بَطُوطَةَ وَدُرُوسِهِ التَّرْبُويَّةِ الْمِثَالِ الَّذِي رَوَاهُ لَنَا وَالَّذِي يُوضِّحُ الْأَثَارَ التَّرْبُويَّةَ الْخَطِيرَةَ لِلْأَسَالِيْبِ التَّرْبُويَّةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي يَتَسَبَّبُ بِهَا الْجَهْلُ التَّرْبُويُّ وَتُؤَدِّي إِلَى أَسْوَأِ النَّتَائِجِ، لَيْسَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَرْدِ فَقَطْ،

بَلْ يَمْتَدُّ أَثَرُهَا السَّيِّئِ إِلَى الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، عَلَى رَغْمِ أَنْ دَوَّافِعَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ السَّيِّئَةِ قَدْ
تَصَدَّرُ بِحُسْنِ نِيَّةٍ وَعَنْ أَنْبِلِ الْعَوَاطِفِ الْأَبْوِيَّةِ وَعَظِيمِ الْحِرْصِ عَلَى نَفْعِ الْأَبْنَاءِ، وَهَذَا
يَجْعَلُهَا مِثَالًا مَجَسَّدًا لِلْحِكْمَةِ الْقَائِلَةَ "عَدُوُّ عَاقِلٍ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ" وَذَلِكَ حِينَ
هَوَى الدُّبُّ بِقَبْضَتِهِ الْكَاسِحَةَ عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهِ -حُبًّا فِيهِ وَحِرْصًا عَلَى رَاحَتِهِ- لِيَقْتُلَ
الدُّبَابَةَ الَّتِي حَطَّتْ عَلَى رَأْسِهِ وَهُوَ نَائِمٌ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي قَتْلِ صَاحِبِهِ وَتَهْشِيمِ رَأْسِهِ،
وَافْلَتَتِ الدُّبَابَةُ.

وَهَذَا الْمِثَالُ لِلتَّرْبِيَةِ السَّيِّئَةِ وَالَّذِي لَمْ يُفَارِقْ ذَاكِرْتِي قَطُّ مُنْذُ أَنْ رَوَاهُ لَنَا شَيْخُنَا ابْنُ
بَطُوطَةَ، وَهُوَ مِثَالٌ يُصَوِّرُ لَنَا حَالَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْمُتَخَلِّفَةِ الَّتِي عَرَفْنَا، وَكَيْفَ أَنَّهَا
بَجَهْلِهَا وَخُرَافِيَّتِهَا وَتَشَوُّهُ رُؤْيَتِهَا وَثِقَافَتِهَا، قَدْ تَبَدَّلَ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ حَالُهَا، وَتَفَقَّدَ الْكَثِيرَ مِنْ
كَرِيمِ صِفَاتِهَا، وَهُوَ مَا حَطَّ مِنْ شَأْنِهَا، وَأَضْعَفَ بُنْيَانَهَا، وَأَذْهَبَ شَجَاعَةَ أَبْنَائِهَا وَنُبْلَ
صِفَاتِهَا، وَمَكَّنَ مِنْهَا أَعْدَاءَهَا.

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: لَقَدْ رَأَى بَأَمِّ عَيْنِهِ أَحْوَالَ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ تَتَّسِمُ بِالْقُوَّةِ
وَالنُّبْلِ وَالصِّدْقِ وَالشَّهَامَةِ، حَالَ حَالِهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّمَرُّقِ، وَحَلَّتْ صِفَاتُ سَيِّئَةٍ
مَحَلَّ الصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ السَّالِفَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ أَصْبَحَ الْكَذِبُ -بَدَلَ الصِّدْقِ- هُوَ

السِّمَّةُ الْغَالِبَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أبنَائِهَا وَشُعُوبِهَا.
قَالَ بَيْدَبَا: لَا أَكْتُمُ سِرًّا حِينَ أَقُولُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَوَّلَ أُمَّمٌ
وَشُعُوبٌ مِنْ حَالٍ إِلَى نَقِيضِهَا، وَلِذَلِكَ سَأَلْتُ الشَّيْخَ أَنْ يَضْرِبَ لَنَا مَثَلًا عَلَى ذَلِكَ يَجْعَلُنَا
نُدْرِكُ كَيْفَ يُمَكِّنُ فِي وَاقِعِ حَيَاةِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ أَنْ يَحْدُثَ مِثْلُ ذَلِكَ.
قَالَ لِي الشَّيْخُ: يَا بَيْدَبَا، إِنَّ تَارِيخَ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ يُعْطِي مِنَ الدَّرُوسِ وَالْعِبَرِ مَا لَا
يَسْهُلُ عَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَهُ إِذَا لَمْ نَقْرَأِ التَّارِيخَ وَنَسْتَلْهِمَ دُرُوسَهُ وَعِبْرَهُ؛ لِنَعْلَمَ كَيْفَ تَحْدُثُ
التَّحَوُّلَاتُ الْكُبْرَى وَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْأُمَّمِ أَنْ تَنْحَرِفَ مَسِيرَتُهَا، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَعِيدَ
عَافِيَتَهَا وَتَوَاصَلَ مَسِيرَتَهَا.

يَا بَيْدَبَا، سَأَشْرَحُ لَكَ وَإِخْوَانِكَ مِثَالًا يُوضِّحُ ذَلِكَ الدَّرْسَ، وَيَتَعَلَّقُ بِصِفَةٍ لَا تُخْطِئُهَا
الْعَيْنُ فِي سُلُوكِ الْأَفْرَادِ وَمَا تُحْدِثُهُ مِنْ آثَارٍ مُدْمِرَةٍ سَلْبِيَّةٍ حِينَ تَسْتَشْرِي بَيْنَ أبنَاءِ الْأُمَّمِ
وَالشُّعُوبِ لِتُصْبِحَ سِمَةً غَالِبَةً لِتِلْكَ الشُّعُوبِ وَالْأُمَّمِ.

هَذِهِ الصِّفَةُ -يَا بَيْدَبَا- هِيَ صِفَةُ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَهِيَ صِفَةُ -يَا بَيْدَبَا- عَلَى أَعْظَمِ
قَدْرٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ وَالتَّأثيرِ عَلَى سُلُوكِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَبِنَاءِ الثِّقَةِ وَسَلَامَةِ التَّوَاصُلِ وَسَلَامَةِ
الْأَدَاءِ فِي حَيَاةِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ، وَيَكُونُ التَّأثيرُ إيجابيًا حِينَ تَكُونُ الصِّفَةُ الْغَالِبَةُ هِيَ

الصِّدْقُ، وَيَكُونُ التَّأثيرُ سَلْبِيًّا مُدْمِرًا حِينَ تَكُونُ الصِّفَةُ الغَالِبَةُ بَيْنَ أبنَاءِ الشُّعُوبِ هِيَ الكَذِبُ.

قالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ: نَعَمْ، صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ، وَلَكِنْ كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟
قالَ الشَّيْخُ: أَنْتَ تَعَلَّمُ يَا بَيْدَبَا أَنِّي كُنْتُ وَمَا أَزَالُ كَثِيرَ السَّفَرِ وَالتَّرْحَالِ، وَلَا يَمْلِكُ الرَّحَالَةُ إِلَّا أَنْ يَرْقُبَ أَحْوالَ مَنْ يَحِلُّ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةَ مَا يَشِيعُ مِنْ صِفَاتِهِمْ.
وَقَدْ حَلَلْتُ يَوْمًا بِأَرْضِ قَوْمٍ كُنْتُ أَرَى مِنْ أَحْوالِهِمْ حِرْصَهُمْ عَلَى الصِّدْقِ، وَضَيْقَهُمْ
وَأَنْزِعَاجَهُمْ مِنَ الكَذِبِ، فَحَرِصْتُ أَنْ أَعْلَمَ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ أَمْكَنَهُمْ أَنْ يُشِيعُوا هَذِهِ
الصِّفَةَ بَيْنَهُمْ. وَكَانَ أَوَّلُ مَا تَبَيَّنْتُهُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ يَشِيعُ بَيْنَهُمْ حُبُّ المَعْرِفَةِ وَالقِرَاءَةِ وَالاطِّلاعِ،
وَتَرَى المَكْتَبَاتِ العِلْمِيَّةَ الزَّاخِرَةَ مَنْثُورَةً فِي كُلِّ حَيٍّ.

وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ لَهُمْ أُسْلُوبًا تَرْبَوِيًّا شَائِعًا بَيْنَهُمْ، وَهُوَ احْتِرَامُ الطِّفْلِ، وَاعْتِمَادُ الجِوارِ فِي
التَّفَاعُلِ مَعَهُ، وَإِعْطَاؤُهُ مَسَاحَةً لِلتَّصَرُّفِ وَالمُبَادَرَةِ وَالتَّجْرِبِ وَالمَعْرِفَةِ وَالإِبْداعِ.
لَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، حُبَّ المَعْرِفَةِ وَاحْتِرَامَ الإنسانِ هُمَا السَّبَبُ فِي
نَجَاحِهِمْ فِي الجِرْصِ عَلَى الصِّدْقِ، وَبَذَرَهُ فِي نُفُوسِ النَّاسِئَةِ مِنَ الصِّغَرِ.
فَكَمَا تَعَلَّمُ -يا بَيْدَبَا- لَا بُدَّ لِلطِّفْلِ فِي صِغَرِهِ وَسَعْيِهِ لِاسْتِكْشافِ عَالَمِهِ، مِنْ الوُقُوعِ

فِي الْأَخْطَاءِ، وَهُنَا وَجَدْتُ، بِسَبَبِ ثِقَافَةِ الْأَبَاءِ التَّرْبَوِيَّةِ، أَنَّهُمْ حِينَ يَقَعُ الطِّفْلُ فِي الْخَطَايَا فَإِنَّهُمْ يَتَحَاوَرُونَ مَعَهُ، وَيَجْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ الْخَطَايَا وَسِيلَةً لِلتَّعَلُّمِ، وَدَرَسًا لِمَعْرِفَةِ الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَايَا فِي حَيَاتِهِ؛ فَيُحْرِصُ أَلَّا يَقَعَ فِي مِثْلِهِ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّ الطِّفْلَ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْبِنَاءِ يُمَكِّنُ مِنْ إِدْرَاكِ وَجْهِ الْخَطَايَا، وَهُوَ بِطَبْعِهِ الْإِنْسَانِي سَيَحْرِصُ عَادَةً عَلَى تَلَا فِي الْخَطَايَا، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُرْغَبُ فِيهِ وَالِدَاهُ اللَّذَانِ يُبَادِلُهُمَا الْحُبَّ وَالتَّقْدِيرَ.

وَإِذَا كَانَ الْخَطَايَا مِمَّا يَسْتَوْجِبُ الْعِقَابَ، فَإِنَّهُمْ يَحْرِصُونَ أَنْ يَكُونَ الْعِقَابُ مُحْتَمَلًا يُقْصَدُ بِهِ التَّعْبِيرُ عَنْ جَدِّيَّةِ الْأَمْرِ وَعَدَمِ الرِّضَا عَنْ ذَلِكَ السُّلُوكِ، وَيَكُونُ الْعِقَابُ عَادَةً بِالْحِرْمَانِ مِنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَرْغِبُهَا الطِّفْلُ، مِثْلَ الْخُرُوجِ مَعَ الْأُسْرَةِ أَوْ الْأَصْدِقَاءِ لِمُزَاوَلَةِ الْهَوَايَاتِ وَالرَّحَلَاتِ وَنَشَاطَاتِ التَّرْوِيحِ فِي عَطَلَاتِ نَهَايَاتِ الْأُسْبُوعِ. وَلِذَلِكَ لَا يَتَرَدَّدُ الطِّفْلُ فِي قَوْلِ الصِّدْقِ حِينَ يَقَعُ فِي الْخَطَايَا، وَبِذَلِكَ يُصْبِحُ الصِّدْقُ سِمَةً فِي شَخْصِيَّةِ الطِّفْلِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ نَفْسِهِ وَمَعَ الْآخَرِينَ حِينَ يَشِبُّ وَيَكْتَمِلُ.

وَهَكَذَا -يَا بَيِّنًا- أَذْرَكَتُ لِمَاذَا تَشِيْعُ صِفَةُ الصِّدْقِ عِنْدَ تِلْكَ الشُّعُوبِ، وَلِمَاذَا يَحْرِصُونَ عَلَى الصِّدْقِ فِي تَعَامُلَاتِهِمْ، وَالشَّفَافِيَّةِ فِي آدَاءِ السُّلْطَاتِ فِي بِلَادِهِمْ، كَمَا

أَدْرَكْتُ أَيضًا لِمَاذَا يَحْرِصُونَ عَلَى بِنَاءِ مُؤَسَّسَاتِ الرِّقَابَةِ فِي أَنْظِمَتِهِمْ، وَلِمَاذَا لَا يُحِبُّونَ
الْكَذِبَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَا يَغْفِرُونَهُ لِقَادَتِهِمْ..

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ يَا سَيِّدِي أَدْرَكْتُ بِمَا ذَكَرْتَ لِي تَمَكَّنَ الْأَبَاءُ وَالْأُمَّهَاتِ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ
التَّرْبَوِيِّ السَّلِيمِ أَنْ يَنْشِئُوا أَبْنَاءَهُمْ عَلَى الصِّدْقِ، وَكَيْفَ أَمَكَّنَ بِذَلِكَ أَنْ يُصْبِحَ الصِّدْقُ
هُوَ السِّمَةُ الْغَالِبَةُ لِتِلْكَ الشُّعُوبِ فِي التَّعَامُلَاتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَيْفَ أَنَّ الْكَذِبَ فِيمَا بَيْنَهُمْ
اسْتِثْنَاءٌ مَرْفُوضٌ وَمَذْمُومٌ.

قَالَ بَيْدَبَا: عِنْدَ ذَلِكَ وَجَّهْتُ الْخِطَابَ إِلَى الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ
لَنَا إِنَّمَا هُوَ عَيْنٌ عَنِ الصِّدْقِ، وَإِنَّ لَهْفَتَنَا أَشَدَّ أَنْ نَسْمَعَ مِنْكَ كَيْفَ أَمَكَّنَ أَنْ يُصْبِحَ
الْكَذِبُ صِفَةً مِنْ الصِّفَاتِ الشَّائِعَةِ عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَشَدُّ غَرَابَةً وَأَصْعَبُ
فِي التَّصَوُّرِ.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَّالُ: هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا بَيْدَبَا، فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى غَيْرِ مَا تَظُنُّ، وَإِنَّ الْوُقُوعَ فِي
ذَلِكَ الْخَطَأِ الْخَطِيرِ يَحْصُلُ إِذَا سَادَتِ الْعَقْلِيَّةُ الْخُرَافِيَّةُ وَالثَّقَافَةُ الْجَاهِلَةُ السُّلْطَوِيَّةُ،
وَإِذَا تَضَاءَلَتِ الرَّغْبَةُ فِي الْقِرَاءَةِ وَالْإِطْلَاعِ وَطَلَبِ الْمَعْرِفَةِ.

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ زِدْتَنَا شَوْقًا أَيُّهَا الشَّيْخُ إِلَى سَمَاعِ مَا عِنْدَكَ، فَكَلْنَا آذَانَ مُصْغِيَّةً لِمَا تَقُولُ.

قَالَ الشَّيْخُ: كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكُمْ يَا بَيْدَبَا فَإِنِّي رَأَيْتُ ذَلِكَ فِي بِلَادِ عَزِيزَةَ عَلَى نَفْسِي؛ لَوْفِرَةَ مَا قَرَأْتُ عَنْهَا وَعَنْ مَاضِيهَا وَأَيَادِيهَا الْبَيْضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، وَمَا حَوَاهُ تُرَائِهَا مِنَ الْإِنْجَازَاتِ الْحَضَارِيَّةِ وَالْقِيمِ السَّامِيَّةِ، وَلَكِنِّي حِينَ جُبْتُ رُبُوعَهَا وَخَبِرْتُ قَوْمَهَا لَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ أَلْحِظَ الْبُونَ الشَّاسِعَ بَيْنَ مَا قَرَأْتُهُ يَوْمًا عَنْهَا وَبَيْنَ مَا هِيَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ فِي وَاقِعِ الْحَالِ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَهَمِّ مَا لَاحَظْتُهُ عَلَى أَبْنَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ أَنَّ الْكَذِبَ أَصْبَحَ عِنْدَهُمْ صِفَةً شَائِعَةً، وَأَنَّهُمْ لَا يَأْبَهُونَ لِلْكَذِبِ وَلَا يَسْتَغْرِبُونَهُ وَلَا يُلْقُونَ لَهُ بَالًا، وَمَا عَادَ يُغْضِبُهُمْ وَلَوْ كَانَ مِنْ قَادَتِهِمْ وَالْأَمْنَاءِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، بَلْ يَكَادُونَ لَا يَتَوَقَّعُونَ مِنْهُمْ إِلَّا الْكَذِبَ، وَلَا مَجَالَ لِلشَّفَافِيَّةِ فِي آدَاءِ قِيَادَاتِهِمْ وَمُؤَسَّسَاتِهِمْ أَوْ الْعَامِلِينَ فِي تِلْكَ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَلِذَلِكَ فَلَا فَايِدَةَ وَلَا جَدْوَى لِمُؤَسَّسَاتِ الرِّقَابَةِ إِنْ وُجِدَتْ. قَالَ بَيْدَبَا وَلَكِنْ كَيْفَ حَالُ عَامَّةِ هَذِهِ الشُّعُوبِ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ فِي التَّعَامُلَاتِ بَيْنَهُمْ؟ هَلْ الْكَذِبُ أَيْضًا شَائِعٌ بَيْنَهُمْ؟

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: يَا بَيْدَبَا مَا كَانَ لِلْقَادَةِ وَلَا لِلْمُؤَسَّسَاتِ أَنْ تَفْتَقِدَ الْمِصْدَاقِيَّةَ لَوْ كَانَ خَلْقُ الْأَفْرَادِ لَا يَتَقَبَّلُ الْكَذِبَ، بَلْ إِنْ السَّبَبُ وَالْأَسَاسُ لَا بُدَّ أَنْ يَكْمُنَ فِي تَكْوِينِ الْأَفْرَادِ، فَالْأَفْرَادُ وَإِنْ كَانَ مَاضِيَهُمْ وَمَرْوِيَّاتُ تُرَائِهِمْ لَا تَقْبَلُ الْكَذِبَ وَتَنْهَى عَنْهُ، إِلَّا أَنْ

جُمْهُورَ شُعُوبِهِمْ حِينَ خَيَّمَتِ السُّلْطَوِيَّةُ وَالْخُرَافَةُ وَالْجَهْلُ عَلَى عَقْلِيَّتِهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ،
هُيَّاتِ نُفُوسَهُمْ لِلْوُقُوعِ فِي كَارِثَةِ صِفَةِ الْكُذْبِ، لِيُصْبِحَ وَسِيلَةً سَلْبِيَّةً حَيَاتِيَّةً لِيَطْلُبَ
الْمَكَاسِبَ، وَطُوقَ نَجَاةٍ سَيِّئًا لِلتَّخْلِصِ مِنَ الْمَازِقِ.

قَالَ بَيْدَبَا: وَلَكِنْ كَيْفَ حَلَّتْ بِهِؤُلَاءِ الْقَوْمُ هَذِهِ الْكَارِثَةُ الْخُلُقِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ؟ وَكَيْفَ
وَقَعُوا فِي هَذِهِ الْخَطِيئَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُدْمِرَةِ؟

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: لَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ يَا بَيْدَبَا سَهْلًا وَبَسِيطًا وَمُغْلَقًا بِحُسْنِ النُّوَايَا
كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكُمْ فِي بَدَايَةِ حَدِيثِنَا عَنِ الصَّدِيقِ الْجَاهِلِ.

إِنَّ الَّذِي أَوْقَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى غَيْرِ مَقَاصِدِهِمْ وَسَابِقِ أَحْوَالِهِمْ، هُوَ الْجَهْلُ وَعَدَمُ
الْوَعْيِ السَّلِيمِ بِالْأَسَالِبِ التَّرْبُويَّةِ الْعِلْمِيَّةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي يَجِبُ الْعِلْمُ بِهَا، وَالتَّوَسُّلُ بِهَا
لِغَرْسِ الصِّفَاتِ وَالسُّلُوكِ الْحَمِيدِ فِي أَصْلِ نَشْأَةِ الْأَبْنَاءِ.

فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ كَانُوا فِي قَرَارَةِ نُفُوسِهِمْ شَدِيدِي الْحِرْصِ عَلَى حُسْنِ تَرْبِيَةِ
أَبْنَائِهِمْ وَاسْتِقَامَتِهِمْ، وَلَكِنْ حِينَ سَادَ الْجَهْلُ وَالْخُرَافَةُ ثَقَافَتَهُمْ وَعَقْلِيَّتَهُمْ، كَانَتْ الْمَفَاهِيمُ
السُّلْطَوِيَّةُ هِيَ حِيلَةُ الْعَاجِزِ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَى الْعُنْفِ لِإِمْلَاءِ إِرَادَتِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ مَآرِبِهِ،
وَلَا مَجَالَ فِي نُعَامِلِهِمْ مَعَ أَطْفَالِهِمْ لِلْجَوَارِ وَالْإِقْنَاعِ وَحُبِّ الْمَعْرِفَةِ وَتَشْجِيعِ الْمُبَادَرَةِ.



أَبٌّ جَاهِلٌ "يُؤَدِّبُ" طِفْلَاهُ

وَلَذَلِكَ كَانَ الْآبَاءُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ إِذَا وَقَعَ صَغِيرُهُمْ فِي خَطَأٍ فَلَجَّهْلِهِمْ بِنَفْسِيَّةِ الْوَلَدِ
وَلرَّغْبَتِهِمْ فِي مَنَعِهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ الْخَطَأِ، يَصُبُّونَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ جَامَّ غَضَبِهِمْ وَيَلْجَأُونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعِقَابِ الْبَدَنِيِّ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الضَّرْبِ وَالْأَذَى الْجَسَدِيِّ وَالنَّفْسِيِّ حَتَّى لَا يَعُودَ إِلَى
فِعْلِهَا مَرَّةً ثَانِيَةً، كَمَا يَقُولُونَ.

وَمَا يَحْدُثُ فِي الْوَاقِعِ يَا بَيْدَبَا هُوَ أَنَّ الْوَلَدَ أَنَّهُ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ لَمْ يُدْرِكْ حَقِيقَةَ مَعْنَى
خَطِيئِهِ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ دَرْسَهُ وَعِبْرَتَهُ، أَصْبَحَ غَاضِبًا مِنْ وَالِدِيهِ، رَافِضًا لِمُعَامَلَتِهِمْ لَهُ بِتِلْكَ
الْقَسْوَةِ، بَلْ قَدْ تُسَاوِرُ نَفْسَهُ رَغْبَةً الْإِنْتِقَامِ وَالتَّشْفِي لِمَا أَصَابَهُ بِمُعَاوَدَةِ الْفِعْلِ وَمَا هُوَ
أَذَى مِنْهُ؛ نِكَايَةً بِوَالِدِيهِ، وَلَنْ يَقِفَ الْأَمْرُ يَا بَيْدَبَا عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ إِنَّهُ لِلْأَسَفِ يَتَعَدَّى
ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْجَأَ إِلَى الْكُذْبِ عَلَى وَالِدِيهِ كَالْيَةِ تَلْقَائِيَّةٍ لِجِمَايَةِ نَفْسِهِ مِنْ قَسْوَةِ وَالِدِيهِ
وَأَذَاهُمْ، فَتُصْبِحُ الْخَطِيئَةُ خَطِيئَتَيْنِ وَالْخَطَأُ خَطَأَيْنِ، بَلْ إِنْ خَطِيئَةُ الْكُذْبِ أَسْوَأُ أَثْرًا
وَأَبْقَى مِنْ أَيِّ أَخْطَاءٍ قَدْ يَرْتَكِبُهَا الْوَلَدُ، وَالَّتِي فِي الْغَالِبِ يَسْهُلُ تَصْحِيحُهَا لَوْلَمْ تَقْتَرِنْ
بِالْيَةِ الْكُذْبِ احْتِمَاءً مِنَ الْعُقُوبَاتِ الْقَاسِيَةِ الْمُتَوَقَّعَةِ.

وَبِتَكَرُّرِ ذَلِكَ الْأَسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ الْخَاطِئِ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، عَلَى رَغْمِ حُسْنِ نَوَايَاهُمْ وَنُبْلِ
مَقْصَدِهِمْ، فَإِنَّ الْفَرْدَ وَالْوَلَدَ فِي ذَلِكَ الْمُجْتَمَعِ، يَتَلَبَّسُ صِفَةَ الْكُذْبِ وَالْإِسْتِهَانَةِ بِأَمْرِهِ

فِي تَصَرُّفَاتِهِ كَافَّةً، كَالِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ لِحِمَايَةِ نَفْسِهِ وَتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ وَتَضْلِيلِ الْمُتَرَبِّصِينَ بِهِ.

هَكَذَا يَا بَيْدَبَا تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الشُّعُوبُ مِنَ النَّقِيزِ إِلَى النَّقِيزِ بِسَبَبِ الْخُرَافَةِ وَالْجَهْلِ وَالشُّعُودَةِ؛ وَالَّتِي يَنْسُبُونَهَا زُورًا وَبُهْتَانًا وَجَهْلًا إِلَى نَفَائِسِ دِينِهِمْ وَثِقَافَتِهِمْ وَتُرَاثِهِمْ. قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ يَا شَيْخَنَا الْجَلِيلَ، الْآنَ أَدْرَكْنَا أَهْمِيَّةَ دَوْرِ الْأُسْرَةِ وَالتَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْأُسْرِيَّةِ، وَأَنَّ أَثَارَهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْأَفْرَادِ، بَلْ تَمْتَدُّ أَثَارُهَا إِلَى الْأُمَّمِ، كَمَا أَدْرَكْنَا الْآنَ لِمَاذَا تَفَشَلُ الْمُؤَسَّسَاتُ الْعَامَّةُ فِي آدَاءِ أَدْوَارِهَا الْمُنتَظَرَةِ مِنْهَا، مِنْ ضَبْطِ سُلْطَاتِ الْحُكْمِ، وَتَحْقِيقِ الشُّورَى وَالشَّفَافِيَّةِ وَالرَّقَابَةِ وَصِدْقِ الْأَدَاءِ؛ لِأَنَّ غِيَابَهَا مِنْ أَهَمِّ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تَحُولُ دُونِ نُهُوضِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَنُمُوِّهَا وَتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا وَغَايَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا النَّبِيلَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا، لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ تَذْكُرُوا وَلَا تَنْسَى أَنَّ "الْعِلْمَ نُورًا" وَ"الْجَهْلَ ظُلْمَةٌ"، وَ"الصِّدْقُ مَنْجَاةٌ"، وَأَنَّكَ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرَى ابْنَكَ الصَّغِيرَ شَابًّا مَرْفُوعَ الرَّأْسِ، شَجَاعَ الْقَلْبِ، يَمْتَلِئُ ثِقَةً بِالنَّفْسِ وَحَسَّ الْكِرَامَةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَرُوحَ الْمُبَادَرَةِ وَالْإِبْدَاعِ، فَعَامِلُهُ وَهُوَ طِفْلٌ بِحَسِّ الثِّقَّةِ وَالتَّكْرِيمِ وَالاِحْتِرَامِ، وَعَوْدُهُ حَبٌّ كُلِّ أَنْوَاعِ الْمَعْرِفَةِ

النَّافِعَةَ وَطَلَبَ الاقْتِنَاعَ وَلُغَةَ الْحَوَارِ، وَشَجَّعَ فِيهِ رُوحَ الْمُبَادَرَةِ وَالْإِبْدَاعِ، وَحَلَّ
الإشْكَالَاتِ، وَالتَّغَلَّبَ عَلَى الصِّعَابِ، فَكَمَا تُعَامِلُهُ صَغِيرًا - يَا بَيْدَبَا - تَجِدُهُ كَبِيرًا.
قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُفِيدِ يَا بَيْدَبَا أَنْ أَقْصَّ عَلَيْكَ أَمْرًا لَفَتَ نَظْرِي فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ، وَأَغْرَبُ
مِنْهُ يَا بَيْدَبَا مَا سَمِعْتُهُ شَرْحًا وَتَوْضِيحًا لَمَّا رَأَيْتُ.

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ اشْتَدَّتْ رَغْبَتِي أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لِمَعْرِفَةِ مَا رَأَيْتَ وَسَمَاعِ مَا سَمِعْتِ.
قَالَ الشَّيْخُ: كُنْتُ يَا بَيْدَبَا قَدْ نَزَلْتُ ضَيْفًا عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي دَارِ أَحَدِ كِرَامِ الْجَزِيرَةِ، وَكَانَ
لَدَيْهِ بَاقَةٌ مِنَ الصَّبَايَا وَالصَّبَّيَانِ، مِنْهُمْ الصَّغِيرُ وَمِنْهُمْ الْمُرَاهِقُ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَمَلَ نُضْجُهُ
وَاكْتَمَلَ عُوْدُهُ، وَمَا لَفَتَ نَظْرِي أَنَّهُ بَرَعِمٌ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ جَمِيعُ هَؤُلَاءِ مِنْ نَشَاطٍ وَحَيَوِيَّةٍ،
تَجِدُهُمْ دَائِمًا فِي حَالٍ مِنَ الْمَرَحِ وَهُدُوءِ الطَّبَعِ، الْمُرَاهِقِينَ مِنْهُمْ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ -
عَادَةً - فِي هَذِهِ السِّنِّ بَوَادِرَ رُوحِ الْاِسْتِقْلَالِ بِالْمُمَانِعَةِ وَالتَّمَرُّدِ، الَّذِي قَدْ يَصِلُ بِبَعْضِهِمْ
إِلَى حَدِّ الرَّفْضِ وَالْعِصْيَانِ.

لَمْ أَمْلِكُ يَا بَيْدَبَا بَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ مِنْ إِقَامَتِي بَيْنَهُمْ أَنْ أَوْجَهَ السُّؤَالَ إِلَى مُضِيفِي عَنِ سَرِّ
هَذِهِ الْعِلَاقَةِ النَّاعِمَةِ الْحَمِيمَةِ الْمَرْحَةِ فِيمَا بَيْنَ أَبْنَائِهِ، وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وَالِدِيهِمْ، وَخَاصَّةً
مَنْ هُمْ مِنْهُمْ فِي سِنِّ الْمُرَاهِقَةِ، بَرَعِمٌ كُلِّ مَا تَلَمَّسُهُ فِي شَخْصِيَّاتِهِمْ مِنْ قُدْرَةٍ وَيَقْظَةٍ.



البناء القويم: الوالدان يحاوران أطفالهم

قَالَ الشَّيْخُ: عِنْدَ سَمَاعٍ مُضَيَّفِي سُؤَالِي إِيَّاهُ إِلَيْهِ ارْتَسَمَتْ - يَابَيْدَبَا - عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ وَهُوَ صَامِتٌ يُوجِّهُهُ إِلَيَّ نَظْرَاتِهِ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَجْمَعُ أَفْكَارَهُ لِيُشْرِحَ لِي مَا أَشْكَلَ عَلَيَّ مِنْ أَمْرٍ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ لَمْ تَطُلْ قَالَ لِي الْمُضَيَّفُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، مَا رَأَيْتَ مِنْ أَمْرِ أَبْنَائِي وَبَنَاتِي لَيْسَ إِلَّا ثَمَرَةً لِأَسَالِينَا فِي التَّرْبِيَةِ الَّتِي نَحْتَرِمُ فِيهَا صِغَارَنَا وَنُوضِّحُ لَهُمْ وَنَسْمَعُ مِنْهُمْ وَنَحَاوِرُهُمْ وَنُشَجِّعُ فِيهِمْ حَبَّ الْمَعْرِفَةِ وَرُوحَ الْاِقْتِنَاعِ وَحَسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَشَجَاعَةَ الْمُبَادَرَةِ، وَالرَّغْبَةَ فِي الْمُحَاوَلَةِ وَالتَّجْرِبَةَ، وَحَلَّ الْمَشْكَلاتِ وَالتَّغَلُّبَ عَلَى الصَّعَابِ، كَمَا نَعُودُهُمْ، مُنْذُ نَعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ، أَنْ يَقْيِسُوا فِي مَسْعَاهُمْ وَتَعَامُلَاتِهِمْ مَعَ أَنْفُسِهِمْ أَوْ مَعَ الْآخَرِينَ، عَلَى النَّتَائِجِ لَا عَلَى الدَّعَاوَى، وَأَنْ يَسْمَعُوا بِأَعْيُنِهِمْ لَا بِأَذَانِهِمْ فَقَطْ "وَأَنْ يُعَامِلُوا النَّاسَ بِمَا يُحِبُّونَ أَنْ يُعَامِلُوا بِهِ" فَذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ أَسْرَارِ نَجَاحِ السَّعْيِ وَتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ.

نَحْنُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ بِمَا وَعَيْنَا، وَتَثَقَّفْنَا، وَتَعَلَّمْنَا، عَنْ شُئُونِ التَّرْبِيَةِ الْوَالِدِيَّةِ، وَعَنْ دَوْرِهَا الْمُهْمِّمِ، فِي تَنْشِئَةِ الْأَبْنَاءِ، فَإِنَّا نَحْرِصُ أَنْ نَجْعَلَ صِغَارَنَا فِي جَهْدٍ دَائِمٍ، وَنَشَاطٍ مُسْتَمِرٍّ، وَبِأَسَالِيْبٍ شَيِّقَةٍ، يُفِيدُونَ فِيهَا، تَعَلُّمًا وَتَدْرِيْبًا وَخِبْرَةً، وَمُتْعَةً وَتَرْوِيْحًا وَلَعِبًا؛ لِأَنَّهُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ إِنْ لَمْ نُشْغَلِ الصَّغِيرَ بِمَا هُوَ سَارٌّ وَنَافِعٌ، شُغِلَ بِمَا هُوَ مُسِيءٌ وَضَارٌّ

وَهَدَامٌ، وَحِينَهَا لَنْ يَسْتَقِيمَ الْعُودُ، وَلَنْ يَنْضَجَ الثَّمَرُ، وَلَنْ يُجِدِيَ الْأَسَى، وَلَنْ يَنْفَعِ النَّدَمُ.
وَإِذَا كَانَتْ سَلَاسَةً تُعَامِلِ الْمُرَاهِقِينَ قَدْ أَثَارَ انْتِبَاهَكَ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُ، فَلَا غَرَابَةَ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ
ذَلِكَ يَا سَيِّدِي ثَمَرَةٌ تَرْبِيَةِ الاحْتِرَامِ وَالْحِوَارِ الَّتِي ذَكَرْتُ لَكَ؛ فَنَحْنُ نَسْمَعُهُمْ وَنَسْمَعُ مِنْهُمْ،
وَنُدِيرُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لُغَةً الْحِوَارِ نَصِلَ مَعًا إِلَى آرَاءِ وَأَفْكَارٍ مُشْتَرَكَةٍ يَتَقَبَّلُونَهَا وَيَلْتَزِمُونَهَا
بِحَسَنِ الاقْتِنَاعِ وَالْكَرَامَةِ.

وَتَابَعَ الْمُضْهِيفُ الْحَدِيثَ قَائِلًا: وَسَأَضْرِبُ لَكَ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ مَثَلًا لِهَذَا الْأَسْلُوبِ
التَّرْبَوِيِّ، لَعَلَّهُ يُوضِّحُ مَا أعْنِي بِشُكْلِ أَفْضَلِ.
قَالَ الشَّيْخُ: قُلْتُ لِمُضْهِيفِي: أَسْمِعْنِي أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ هَذَا الْمَثَلَ، فَلَيْسَ كَالْأَمْثَلَةِ
وَالْأَحْدَاثِ أُسْلُوبٌ لِلشَّرْحِ وَالتَّوْضِيحِ.

قَالَ الْمُضْهِيفُ: كُنْتُ يَا سَيِّدِي إِذَا أَصْبَحَ الصَّغِيرُ مِنَ الْأَبْنَاءِ مُرَاهِقًا، يَصْعَبُ قِيَادُهُ،
وَيَمِيلُ إِلَى إِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَإِظْهَارِ اسْتِقْلَالِيَّتِهِ، فَمَا كُنَّا أَنَا وَأُمَّهُمْ نَضِيقُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ أَمْرٌ
طَبِيعِيٌّ، بَلْ وَإِجَابِيٌّ إِذَا أَحْسَنَّا التَّعَامُلَ التَّرْبَوِيَّ مَعَهُ، وَلِذَلِكَ كُنْتُ أُدِيرُ الْعِلَاقَةَ مَعَهُمْ
بِالتَّفَهُّمِ وَالصَّبْرِ، وَإِسْمَاعِهِمْ وَالسَّمَاعِ مِنْهُمْ، وَكُنْتُ أَحْرِصُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ عَلَى أَنْ أُقِيمَ مَعَ
الْمُرَاهِقِ إِطَارًا لِعِلَاقَتِنَا، فَكُلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ أَسْمَحَ بِهِ مِنْ رَغَبَاتِ الْمُرَاهِقِ وَلَا أَرَى فِيهِ ضَرَرًا

لَا يَسْهَلُ إِصْلَاحُهُ إِنْ وَقَعَ مِنْهُ خَطَأٌ، فَأَنَا أَسْمَحُ بِهِ، وَأَتْرُكُ لِلْمُرَاهِقِ خِيَارَ التَّجْرِبَةِ، وَلَا أَرْفُضُ إِلَّا مَا يَتَجَاوَزُ خُطُوطَ الضَّرْرِ الحَمْرَاءَ؛ لِأَنَّ كَثْرَةَ الْمَنَعِ تُخْمِدُ رُوحَ الْحَيَوِيَّةِ وَالْمُبَادَرَةَ لَدَيْهِمْ، وَتَدْعُو إِلَى الْعِصْيَانِ، وَكُنْتُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ أَقْرَبُ لِهَؤُلَاءِ الْيَافِعِينَ أَمْرَ عِلَاقَتِي بِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ بِمِثَالٍ مِنَ الْأَمْثَلَةِ يُدْرِكُونَهُ وَيَقْرُبُ إِلَى أَذْهَانِهِمْ مَا أَقْصِدُ إِلَيْهِ، فَأَقُولُ - عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ - لِلوَاحِدِ أَوِ الْوَاحِدَةِ مِنْهُمْ، وَهُوَ مَا حَدَّثَ فِعْلًا فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، وَالَّذِي يَتَكَرَّرُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَأَحْرَصُ عَلَيْهِ، بِصُورَةٍ أَوْ أُخْرَى، وَهُوَ يُعْطَى دَائِمًا نَفْسَ ذَاتِ النَّتَائِجِ: أَتْرَى يَا بُنَيَّ حِينَ يُصَابُ أَحَدُ الصِّغَارِ مِنْ إِخْوَانِكَ أَوْ أَخَوَاتِكَ بِمَرَضٍ، أَلَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْقِيَهُ الدَّوَاءَ الضَّرُورِيَّ لِعِلَاجِهِ؟ وَبِالطَّبْعِ يَقُولُ الْمُرَاهِقُ: نَعَمْ. فَأَقُولُ لَهُ: وَلَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الصِّغِيرَ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ وَيَرْفُضُ تَعَاطِي الدَّوَاءِ، فَهَلْ نَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَا نُعْطِيهِ الدَّوَاءَ؟

فَيَقُولُ الْمُرَاهِقُ: لَا، بِالطَّبْعِ، يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ الدَّوَاءَ، فَأَقُولُ: هَلْ نُرْغِمُهُ عَلَى أَخْذِهِ؟ فَيَقُولُ الْمُرَاهِقُ: بِالطَّبْعِ نَعَمْ، فَاسْأَلِ الْمُرَاهِقَ: وَلَكِنْ لِمَذَا يَجِبُ أَنْ نُرْغِمَهُ عَلَى أَخْذِ الدَّوَاءِ، بِرْغَمِ أَنَّهُ لَا يَرْغَبُهُ وَلَا يُرِيدُ أَخْذَهُ؟ فَيَقُولُ الْمُرَاهِقُ: لِأَنَّهُ صَغِيرٌ لَا يَفْهَمُ.



الأسرة السعيدة: ثقة وإخلاص واحترام

وَهُنَا أَقُولُ لِهَذَا الْمُرَاهِقِ: صَدَقْتَ يَا بُنَيَّ؛ الصَّغِيرُ لَا يَعْرِفُ وَلَا يُدْرِكُ مَا يَعْرِفُهُ الْكَبِيرُ؛
وَذَلِكَ لِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ الْكَبِيرُ عَادَةً مِنْ مَعْرِفَةٍ، وَلِمَا مَرَّبَهُ مِنْ خِبْرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ
مَعَكَ، فَإِنَّا أَكْبَرُ مِنْكَ، وَأَحِبُّكَ، وَأَحِبُّ الْخَيْرَ لَكَ، وَأَنَا بِحُكْمِ سِنِّي وَخِبْرَتِي وَتَجْرِبَتِي أَرَى فِي
بَعْضِ الْأُمُورِ مَا لَا تَرَى، وَأَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ؛ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْلَمَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ أَوْ تَرَاهُ إِلَّا
بِنُضْجِ السِّنِّ وَالْخِبْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ، مِثْلُكَ - مَعَ الْفَارِقِ - يَا بُنَيَّ مِثْلُ أُخْتِكَ أَوْ أُخِيكَ الَّذِي لَا
يَرْغَبُ فِي تَنَاوُلِ الدَّوَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُدْرِكُ فِي سِنِّهِ الصَّغِيرَةِ حَاجَتَهُ إِلَى الدَّوَاءِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى
الْمَرِيضِ تَنَاوُلُهُ، وَإِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَسْتَسِيغُ طَعْمَهُ.

وَأَذْكُرِيَا سَيِّدِي الشَّيْخَ أَنَّ أَحَدَ أَبْنَائِي حِينَ انْتَهَيْنَا إِلَى هَذِهِ النُّقْطَةِ مِنَ الْجَوَارِقِ قَالَ لِي:
وَلَكِنْ يَا أَبِي بَرِّغِمِ كُلِّ مَا قُلْتَ، فَإِنَّ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ - بَرِّغِمِ السِّنِّ وَالْخِبْرَةِ
وَالْتَّجْرِبَةِ - عَلَى خَطَأٍ.

أَذْرَكْتُ يَا سَيِّدِي سَلَامَةَ الْمَلْحُوظَةِ الَّتِي أَثَارَهَا الصَّغِيرُ، فَبَرِّغِمِ كُلِّ مَا ذَكَرْتُ، لَيْسَ
هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ الْكَبِيرَ أَنْ يُخْطِئَ " وَجَلَّ مَنْ لَا يُخْطِئُ".

قُلْتُ لَهُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ: صَدَقْتَ يَا بُنَيَّ وَأَصَبْتَ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ أُخْطِئَ،
وَلَكِنْ يَا بُنَيَّ؛ إِنَّ احْتِمَالَ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمُخْطِئُ، بَعْدَ أَنْ أَكُونَ قَدْ سَمِعْتُ مِنْكَ وَسَمِعْتَ

مَنِي، هُوَ فِي أَغْلَبِ الْإِحْتِمَالَاتِ وَاحِدٌ مِنْ مِئَةٍ، أَمَّا احْتِمَالُ أَنْ تَكُونَ بِعِلْمِكَ وَسِنِّكَ
وَخَبْرَتِكَ، أَنْتَ الْمُخْطِئُ، فَهُوَ بِنِسْبَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ بِالمِئَةِ، وَالأُولَى يَا بُنَيَّ أَنْ تَأْخُذَ
المُخَاطَرَةَ بِنِسْبَتِي لَا بِنِسْبَتِكَ.

وَهَكَذَا يَنْتَهِي الحَدِيثُ وَالجَوَارِئُهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ بَيْنِي وَبَيْنَ الابْنِ مِنْ هُوَلاءِ بالضَّحِكِ
وَالْمُلاطَفَةِ وَالرِّضَا، وَبالطَّبَعِ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ، فَإِنَّ شَأْنَ المُرَاهِقَاتِ مِنَ الفَتَيَاتِ، أَنْ
تَتَوَلَّى أُمَّهُنَّ تَوْجِيهَهُنَّ، وَتَهْدِيَهُنَّ، وَالتَّوَاصُلِ مَعَهُنَّ؛ لِأَنَّهَا أَعْرَفُ بِخُصُوصِيَّاتِهِنَّ،
وَمَشَاعِرِهِنَّ، وَالأَسْلُوبِ الأَفْضَلِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُنَّ، وَبِذَلِكَ فَنَحْنُ - أَنَا وَأُمَّهُنَّ -
نَتَقَاسَمُ الأَدْوَارَ التَّرْبَوِيَّةَ فِيمَا بَيْنَنَا لِنَتَجَاوَرَ بِأَبْنَائِنَا العَوَائِقَ وَالْعَقَبَاتِ فِي هَذِهِ السِّنِّ
الْحَرِجَةِ المَلِيئَةِ بِالمُتَغَيِّرَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالجَسَدِيَّةِ العَنيفَةِ المُتَسَارِعَةِ.

مِثْلُ هَذَا الأَسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ أَيْهَا الشَّيْخُ هُوَ السَّبَبُ فِيمَا رَأَيْتَ مِنْ هُدُوءِ طَبَعِ
المُرَاهِقِينَ فِي دَارِنَا وَدِيَارِنَا، وَإِجَابِيَّتِهِمْ، وَسَلَاسَةِ تَعَامُلِهِمْ، وَرُقِيِّ أَخْلَاقِهِمْ.
قَالَ الشَّيْخُ: لَقَدْ كَانَ مَا رَأَيْتُ وَمَا سَمِعْتُ - يَا بَيْدَبَا - مِثَالًا حَيًّا لِتَأْثِيرِ الأَسَالِيبِ التَّرْبَوِيَّةِ
الصَّحِيحَةِ فِي حُسْنِ تَنْشِئَةِ الأَجْيَالِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ صَدَقْتَ يَا شَيْخَنَا، وَإِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ لَنَا مِنَ الأَمَثِلَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَنْسَاهَا،

وَلَنْ نُقْصِرَ أَبَدًا فِي تَبْلِيغِهَا وَتَبْصِيرِ الْوَالِدَيْنِ وَالْمُعَلِّمِينَ وَجَمِيعِ النَّاسِ بِهَا فِي حَيَاتِهِمْ
وَحَيَاةِ أَبْنَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِ أَجْيَالِهِمْ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: وَلَقَدْ حَرَصْتُ أَنْ أَذْكَرَ فِيمَا أَرَوِيهِ مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ هَذِهِ
الْأَمْثَلَةَ التَّرْبَوِيَّةَ لِمَا فِيهَا مِنْ دُرُوسٍ وَعِظَةٍ وَعِبْرَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ؛ لِيَقْدِرُوا قِيَمَةَ
الْمَعْرِفَةِ التَّرْبَوِيَّةِ، وَالْأَيَّامَ يَسْتَمِينُوا بِأَيِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ صِغَارًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَتْرُكُ
فِي نَفْسِهِمْ آثَارًا سَيِّئَةً خَطِيرَةً لَا يُدْرِكُونَ آثَارَهَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى شُعُوبِهِمْ إِلَّا بَعْدَ اسْتِدَادِ
الْعُودِ، وَاكْتِمَالِ النُّمُوِّ النَّفْسِيِّ، وَفَوَاتِ الْأَوَانِ "وَمَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ".

وَيُؤَاصِلُ بَيْدَبَا ذِكْرِيَّاتِهِ عَمَّا ذَكَرَهُ لَهُ الرَّحَّالَةُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي لِقَائِهِ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ
جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ، وَكَيْفَ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا لَاحَظَهُ ابْنُ بَطُوطَةَ عَنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْبِلَادِ أَنَّهُمْ
لِحُسْنِ مَنَاجِجِ تَرْبِيَّتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ -كَأَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِالْمَهَارَةِ وَبِالْإِجَابِيَّةِ وَالْمُبَادَرَةِ
وَالْإِبْدَاعِ وَبِحُرِّيَّةِ التَّفْكِيرِ وَشَجَاعَةِ الرَّأْيِ وَالتَّعْبِيرِ، وَتَمْتَلِي نَفُوسُهُمْ بِمَشَاعِرِ الْأَنْفَةِ
وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، مَعَ كُلِّ التَّوَاضُّعِ، مِنْ دُونِ تَظَاهُرٍ وَلَا مَهَانَةٍ أَوْ مَذَلَّةٍ، وَلَا تَمَلُّقٍ أَوْ كَذِبٍ،
كَذَلِكَ كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِوَفْرَةِ صَنَائِعِهِمْ وَزِرَاعَاتِهِمْ، تَكَادُ لَا تَجِدُ بَيْنَهُمْ قَادِرًا عَاطِلًا عَنِ
الْعَمَلِ وَلَا مُقْصِرًا فِي الْأَدَاءِ؛ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَهُمْ ثَرْوَةٌ لَا عِبْنًا،

كَمَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى حُسْنِ تَخْطِيطِ إِدَارَتِهِمْ، وَعَلَى حُسْنِ تَرْبِيَةِ أبنَائِهِمْ، وَحُسْنِ
إِعْدَادِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ، كَمَا يُبْرهنُ أَيْضًا عَلَى رُقِيِّ مَدَارِسِهِمْ وَمَعَاهِدِ التَّدْرِيبِ عِنْدَهُمْ، تَرَى
ذَلِكَ وَتَلْمَسُهُ يَا بَيْدَبَا فِي مَكَانَةِ الْمُعَلِّمِ عِنْدَهُمْ، وَفِي حُسْنِ إِعْدَادِهِ وَتَكْرِيمِهِ مَادِيًا وَأَدَبِيًا.
لَقَدْ كَانَتْ عِنَايَتُهُمْ بِالْأُمُومَةِ، وَبِالطِّفْلِ، وَبِالنَّاشِئَةِ مِنْ أَرْوَعِ مَا رَأَهُ وَسَمِعَ عَنْهُ الرَّحَالَةُ
ابْنُ بَطُوطَةَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ؛ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مُنْشَأَةٌ تَرْعَى الْأُمُومَةَ وَالْأُنُوثَةَ يَعْلَمُهَا إِلَّا
كَانَ لَدَيْهِمْ خَيْرٌ مِنْهَا، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مُنْشَأَةٌ تَرْبِيَةٌ أَوْ ثَقَافِيَّةٌ أَوْ تَرْوِيحِيَّةٌ تُنمي طَاقَاتِ
الطِّفْلِ، وَتُنمي قُدْرَاتِهِ، أَوْ تُنمي ثَقَافَةَ الْوَالِدِينَ وَوَعْمَهُمْ وَقُدْرَاتِهِمْ التَّرْبَوِيَّةَ، إِلَّا كُنْتَ
تَجِدُهَا مُتَوَافِرَةً فِي أَحْسَنِ صُورِهَا لَدَيْهِمْ، وَهِيَ تَغْصُ بِالصِّغَارِ وَالْفِتْيَانِ الَّذِينَ يُمَارِسُونَ
عَلَى مَدَارِيومِهِمْ، وَفِي كُلِّ أَيَّامِ السَّنَةِ، شِتَاءً وَصَيْفًا، خَرِيفًا وَرَبِيعًا، كُلَّ الْوَانِ النَّشَاطَاتِ
وَالْمَهَارَاتِ، فِي الْمَدَارِسِ، وَفِي الْمَكْتَبَاتِ، وَفِي النَّوَادِي وَالْمُخَيَّمَاتِ، وَفِي الْمُدُنِ وَالْأَرْيَافِ،
وَفِي بُطُونِ الْأُودِيَةِ، وَعَلَى قِمَمِ الْجِبَالِ، وَعَلَى أَمْوَاجِ الْبِحَارِ وَشَوَاطِئِ الْأَنْهَارِ.
يَا بَيْدَبَا حِينَ تَرْقِي نَوْعِيَّةَ الْمُرَبِّي الْمُعَلِّمِ، الْمُدْرَبِ، وَحِينَ تَرْقِي نَوْعِيَّةَ الْإِدَارَةِ
الاجْتِمَاعِيَّةِ وَمُؤَسَّسَاتِهَا، تَرْقِي يَا بَيْدَبَا نَوْعِيَّةَ الْمُجْتَمَعِ، وَحِينَ يَحْتَاجُ الْمُجْتَمَعُ يَا بَيْدَبَا
إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُهَنْدِسِينَ وَالْخُبْرَاءِ فَسَوْفَ يَأْتُونَ إِلَيْهِ وَيَتَقَاطَرُونَ عَلَى أَبْوَابِهِ.

وَحِينَ يَنْحَطُّ يَا بَيْدَبَا الْمُرَبِّي، الْمُعَلِّمِ، الْمُدَرِّبِ، وَحِينَ تَنْحَطُّ نَوْعِيَّةُ الْإِدَارَةِ
الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، فَإِنَّ نَوْعِيَّةَ الْمُجْتَمَعِ تَنْحَطُّ، وَتَنْحَطُّ نَوْعِيَّةُ مُؤَسَّسَاتِهِ
الْتَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، وَتَنْحَطُّ مُؤَسَّسَاتِ إِدَارَتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ،
وَعِنْدَهَا يَهْرُبُ النَّوَابِغُ مِنْ أَبْنَائِهِ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُهَنْدِسِينَ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي يَجِدُونَ فِيهَا الْإِدَارَةَ
الْقَوِيْمَةَ، وَلُقْمَةَ الْعَيْشِ الْكَرِيْمَةَ، وَيَنَالُونَ فِيهَا بَعْضَ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ كَرَامَةٍ وَتَكْرِيْمٍ.
يَا بَيْدَبَا إِنَّ مَا تَخْسَرُهُ الْمُجْتَمَعَاتُ وَالشُّعُوبُ الَّتِي تَنْحَطُّ فِيهَا مَكَانَةُ الْمُرَبِّي وَمَكَانَةُ
الْمُعَلِّمِ لَا تَخْسَرُ فَقَطُ مَا أَنْفَقَتْهُ تِلْكَ الشُّعُوبُ عَلَى تَعْلِيمِ الْهَارِبِينَ مِنْ خُبْرَائِهَا وَعُلَمَائِهَا
وَنَوَابِغِهَا، وَلَكِنَّ الْأَذَى أَتَى تَفْقِدُ عُقُودِ السِّنِينَ الَّتِي انْقَضَتْ فِي إِعْدَادِهِمْ، وَالَّتِي تَضِيغُ
مِنْ عُمْرِ هَذِهِ الشُّعُوبِ، وَسَتَنْقُضِي الْعُقُودُ قَبْلَ أَنْ تُعَوِّضَهُمْ، إِنْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ
تُعَوِّضَهُمْ، وَإِنْ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُحَافِظَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ تُفِيدَ مِنْهُمْ.



الجَمَّار والجَمَّار: راحة ومودة بالليل وعمل وكد بالنهار.

"الماء يشقُّ وديان الأنهار"

قال بيديبا: لَمَّا تَحَدَّثَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةَ عَنِ الْأُسْرَةِ وَالْمَرْأَةِ وَنَجَاحِهَا وَمَكَانَتِهَا فِي الْجَزِيرَةِ سَأَلْتُهُ إِحْدَى السَّيِّدَاتِ الْحَاضِرَاتِ: كَيْفَ تُعَامِلُ النِّسَاءَ وَالزَّوْجَاتِ الرَّجَالَ وَالزَّوْجَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ؟ فَأَجَابَهَا الشَّيْخُ جَوَابًا عَجِيبًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْغَرَابَةِ وَالْفُكَاهَةِ وَالْمُتَعَةِ، وَقَالَ:

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ إِنَّ الزَّوْجَاتِ فِي جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ يُعَامِلْنَ رِجَالَهُنَّ كَمَا يُعَامِلُ الْحَمَّارُ (أَيُّ صَاحِبِ الْحَمَارِ) حِمَارَهُ الَّذِي يَمْلِكُهُ وَيَتَكَسَّبُ مِنْ وَرَائِهِ.
قال بيديبا للشَّيْخِ الرَّحَّالَةَ وَهُوَ يَسْمَعُ هَذَا الْجَوَابَ الْمُضْحِكَ الْمُفَاجِئَ الْعَجِيبَ: مَا أَظُنُّكَ إِلَّا مَازِحًا أَيُّهَا الشَّيْخُ! فَأَنْتَ تَمْتَدِّحُ الْجَزِيرَةَ وَأَهْلَهَا، وَالْأُسْرَةَ وَالْمَرْأَةَ وَرِجَالَ الْجَزِيرَةِ، فَكَيْفَ تَقُولُ مَا تَقُولُ بِحَقِّ الرَّجَالِ، مِنْ أَنَّهُمْ يُعَامِلُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الرَّائِعَةَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ؟

قال ابنُ بطُوطَةَ: أَنْتَ مُحِقٌّ أَيُّهَا الْحَكِيمُ فِي اسْتِغْرَابِكَ مِمَّا سَمِعْتَ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَلَّا تَعْجَلَ حَتَّى تَعِيَ وَتَفْهَمَ دِلَالَةَ مَا أَقُولُ؛ فَفِيمَا ذَكَرْتَهُ لَكَ حِكْمَةٌ بِالِغَةِ لَيْتَ كُلُّ النِّسَاءِ فِي هَذَا الزَّمَانِ يَعِينَهَا وَيُدْرِكْنَ قِيَمَتَهَا، وَخَاصَّةً مَا نَرَى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ حَالِ الشَّبَابِ

وَالزَّوْجِ، وَمَا يَنْشَبُ بَيْنَهُمْ مِنْ نِزَاعَاتٍ أُسْرِيَّةٍ وَشِجَارَاتٍ وَحَمَاقَاتٍ لِأَسْبَابٍ وَإِشْكَالَاتٍ
عَجِيبَةٍ وَتَافِهَةٍ يَنْتَهِي كَثِيرٌ مِنْهَا -مَعَ الْأَسْفِ- إِلَى الطَّلَاقِ وَشَقَاءِ الْأَبْنَاءِ وَالْأَبَاءِ.
قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ لِلشَّيْخِ: لَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ فَأَفْصِحْ عَمَّا تَقْصِدُ، وَسَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَإِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي جَمِيعًا مِنَ الْمُنْصِتِينَ الصَّابِرِينَ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: لَعَلَّكَ تَذَكَّرِيَا بَيْدَبَا كَيْفَ كَانَتْ تَتِمُّ الْمُواصَلَاتِ فِي الْعُصُورِ
الْمَاضِيَةِ، بَلْ الْيَوْمِ، فِي كَثِيرٍ مِنْ قُرَى بَعْضِ الْبِلَادِ الْفَقِيرَةِ؛ فَقَدْ كَانَ يَتِمُّ نَقْلُ الْأَحْمَالِ
عَلَى ظُهُورِ الْحَيَوَانَاتِ كَالْجَمَالِ وَالْبِغَالِ، وَكَانَتِ الْحَمِيرُ؛ لَصَبْرِهَا وَقُوَّةِ تَحْمُلِهَا، وَهُدُوءِ
طَبْعِهَا، وَقِلَّةِ كُلْفَةِ عَلْفِهَا وَطَعَامِهَا، أَكْثَرَ الْحَيَوَانَاتِ اسْتِخْدَامًا لِلنَّقْلِ وَالتَّنْقُلِ فِي تِلْكَ
الْقُرَى.

وَكَانَ "الْحَمَارَةُ"، أَيُّ أَصْحَابِ الْحَمِيرِ، يَقْتَنُونَ الْحَمِيرَ لِتَأْجِيرِهَا فِي الْأَسْوَاقِ لِأَصْحَابِ
الْحَاجَةِ، وَيَعِيشُونَ مِنْ مَرْدُودِ عَمَلِهَا.

لِذَلِكَ كَانَ صَاحِبُ الْجِمَارِ يَخْرِصُ يَوْمِيًّا عَلَى الْعِنَايَةِ بِالْجِمَارِ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ
وَنَظَافَتِهِ وَمَوْضِعِ نَوْمِهِ؛ يُحَافِظُ عَلَيْهِ وَعَلَى صِحَّتِهِ لِلْعَمَلِ الْيَوْمِيِّ الشَّاقِّ، الَّذِي
يُسَخِّرُهُ لَهُ (وَيَتَعَيَّشُ) مِنْ دَخْلِهِ، وَقَدْ لَا يَعْتَنِي صَاحِبُ الْجِمَارِ بِنَفْسِهِ قَدَرِ عِنَايَتِهِ

بِحِمَارِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْتَنِ بِهِ وَأَصَابَتْهُ الْأَمْرَاضُ فَلَنْ يَعْمَلَ، أَوْ قَدْ يَهْلِكُ، فَيَضِيعُ مَعَهُ رَأْسُ مَالِهِ وَمَصْدَرُ رِزْقِهِ.

وَكَانَتْ عَجَائِزُ الْجَزِيرَةِ يَا بَيْدَبَا، فِي بَدَايَةِ حَيَاةِ بَنَاتِهِنَّ الزَّوْجِيَّةِ وَصَدْرِ شَبَابِهِنَّ الْغَضِّ، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ مَرْحَلَةٌ ضَعْفِيهَا وَحَاجَتُهَا وَحَاجَةُ صِغَارِهَا؛ لِأَنَّهَا مَرْحَلَةُ الْإِخْصَابِ وَالْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ وَتَرْبِيَةِ الصِّغَارِ عِنْدَ النِّسَاءِ- يَنْصَحُهُنَّ الْمُتَزَوِّجَاتُ مِنْهُنَّ أَنْ يَجْعَلْنَ أَوْلَوِيَّتَهُنَّ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْعِنَايَةَ بِأَسْرِهِنَّ وَأَزْوَاجِهِنَّ، وَأَنْ عَلَى الْمَرْأَةِ- إِلَى جَانِبِ عِنَايَتِهَا بِأَطْفَالِهَا- أَلَّا تُهْمَلَ زَوْجَهَا، وَأَنْ تُعْتَى بِهِ حِينَ يَعُودُ إِلَى دَارِهِ فِي الْمَسَاءِ عِنَايَةَ "الْحَمَّارِ" بِحِمَارِهِ؛ لِيُصْبِحَ كَحِمَارِ الْحَمَّارِ فِي غَدِهِ قَادِرًا نَشِيطًا مُقْبِلًا عَلَى عَمَلِهِ؛ فَيَكُونُ أَقْدَرَمَا يَكُونُ لِكَسْبِ قُوْتِ صَاحِبِهِ وَقُوْتِ أَهْلِهِ وَتَوْفِيرِ حَاجَتِهِمْ.

وَهَكَذَا كَانَتْ الزَّوْجَاتُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ يَعِشْنَ بِهَذِهِ السِّيَاسَةِ الْحَكِيمَةِ، وَبِهَذِهِ الْحِكْمَةِ الذَّهَبِيَّةِ مَعَ أَزْوَاجِهِنَّ فِي سَعَادَةٍ؛ لِأَنَّهِنَّ يَنْكَبِينَ-اسْتِجَابَةً لِأَوْلَوِيَّاتِ فِطْرَتِهِنَّ- عَلَى رِعَايَةِ أَبْنَائِهِنَّ وَأَسْرِهِنَّ وَأَزْوَاجِهِنَّ، فِي إِخْلَاصٍ وَحُبٍّ وَوِيئَامٍ؛ وَلِأَنَّهِنَّ يَحْرِصْنَ فِي غَيْرِ شَطَطٍ عَلَى رَاحَةِ أَزْوَاجِهِنَّ فِي اللَّيْلِ حِينَ يَعُودُونَ مُجْهِدِينَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ؛ فَيَهْشِشْنَ وَيَبْشِشْنَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَيُنَادِمُهُمْ، وَيُؤْنِسُهُمْ، وَيَأْتَسُنَّ بِهِمْ، وَيَسْعَيْنَ بِحُبٍّ وَهَمَّةٍ فِي

تَلْبِيَةِ حَاجَاتِهِمْ، فَلَا يَأَلُ الْأَزْوَاجُ مِنْ جَانِبِهِمْ جُهْدًا فِي إِرْضَاءِ زَوْجَاتِهِمْ، وَالسَّعْيِ لِمَا فِيهِ حَاجَتُهُنَّ وَحَاجَةُ أَطْفَالِهِنَّ، وَهُوَ مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ فَضْلِيَّاتُ النِّسَاءِ بِمَثَلِ "دَارِجٍ"، وَهُوَ عِبَارَةٌ حَكِيمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ، تُعَبِّرُ عَنْ أَهَمِّيَّةِ فَهْمِ الزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ؛ لِيُصْبِحَ "فِي اللَّيْلِ خَفِيرٌ حَارِسٌ وَفِي النَّهَارِ أَجِيرٌ".

وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَبَاءُ أَيْضًا فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ يَدْعُونَ لِبنَاتِهِمْ عَقَبَ الصَّلَوَاتِ "أَنْ يُجْعَلَ سُوقُ بنَاتِهِمْ نَارًا، وَأَنْ يُجْعَلَ شَارِبُهُمْ حِمَارًا"; لِأَنَّ الطَّلَبَ فِي السُّوقِ أَهْمٌ لِصَاحِبِ البِضَاعَةِ مِنَ العَرَضِ، وَلِذَلِكَ كَانَ التُّجَّارُ وَمَا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: "حُسْنُ السُّوقِ، وَلَا حُسْنُ البِضَاعَةِ"، وَلَا تُخْطِئُ الفَهْمَ يَا بَيْدَبَا، فَالْمَقْصُودُ بِالجِمَارِ هُنَا هُوَ ذَلِكَ الكَائِنُ القَوِيُّ الصَّبُورُ، وَلَيْسَ مَا يَتَّهَمُ النَّاسُ بِهِ الجِمَارِ فِي كَثِيرٍ مِنَ البِلَادِ مِنْ ظَنِّ البِلَادَةِ وَالغَبَاءِ؛ فَقَدْ جَعَلُوا الصَّبْرَ وَالجَلْدَ بِلَادَةً وَغَبَاءً، فَمَا أَشَدَّ ظُلْمَ النَّاسِ لِلحَمِيرِ، وَمَا أَشَدَّ ظُلْمَ النَّاسِ لِلصَّبُورِ الحَلِيمِ العَامِلِ فِي صَمْتٍ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ، وَكَمَا يَقُولُ العَامَّةُ يَا بَيْدَبَا "يَا مَا فِي السِّجْنِ مَظَالِيمٌ".

وَقَفَ أَحَدُ الشُّبَّابِ فِي أَقْصَى الصَّفِّ الأوَّلِ ضَاحِكًا وَقَالَ: صَدَقْتَ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ؛ فَلَوْلَمْ يَكُنْ لِلْمُتَزَوِّجِينَ مِنَ الرِّجَالِ صِفَاتُ "الحَمِيرِ" وَذَكَائِهِمْ لَمَا تَزَوَّجُوا.

أَصَابَ الشَّيْخَ وَكُلُّ مَنْ كَانَ فِي الْقَاعَةِ نُوبَةً مِنَ الضَّحِكِ بِسَبَبِ ذَلِكَ التَّغْلِيْقِ الْفُكَاهِيِ
السَّاحِرِ.

لَمْ يَتَمَالِكْ بَيْدَبَا وَهُوَ يَرَى مَا أَصَابَ "الْحَمِيرَ" مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ إِلَّا أَنْ عَلَّقَ
قَائِلًا: مَا أَشَدَّ أَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ظُلْمَنَا لِلْحَمِيرِ، سَوَاءً أَكَانُوا مِنَ الْهَائِمِ أَمْ مِنَ الْبَشَرِ!
عِنْدَ ذَلِكَ قَالَتْ امْرَأَةٌ مُسِنَّةً: نَعَمْ، أَيْهَا الْمُعَلِّمُ بَيْدَبَا؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ يَظْلِمْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ، وَلَا يُقَدِّرْنَ لَهُمْ جَدَّهُمْ وَجَلَدَهُمْ وَاجْتِهَادَهُمْ فِي حَمْلِ أَعْبَائِهِنَّ وَأَعْبَاءِ أَبْنَائِهِنَّ،
إِذَا قَضَى عَلَيْهِمُ الْكُدَّ وَالتَّعَبُ وَ"النَّكْدُ"، أَسِفْنَ وَنَدِمْنَ حِينَ لَا يُجْدِي الْأَسْفُ وَلَا النَّدَمُ.
هُنَا قَالَ الشَّيْخُ: إِذَا تَجَاوَزْنَا الْأَسَى وَالتَّنَكُّتَ وَالتَّضْحِكَ فَإِنَّا يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّ
الْأَزْوَاجَ فِي جَزِيرَةِ الْبَنَائِيْنَ هُمْ سُعْدَاءٌ بِأَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَةَ "الْحَمِيرِ"، وَنَجِدُ الزَّوْجَاتِ
سَعِيدَاتٍ بِكُونِهِنَّ زَوْجَاتِ "الْحَمِيرِ"؛ حُبًّا وَرِعَايَةً مِنَ النِّسَاءِ، وَعَمَلًا وَبَدَلًا مِنَ الرِّجَالِ.
وَتَابَعَ الشَّيْخُ ابْنَ بَطُوطَةَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: إِنَّا يَا بَيْدَبَا نَظْلِمُ "الْحَمِيرَ"؛ لِأَنَّ لِلْحَمِيرِ فِي
الْحَقِيقَةِ صِفَاتٍ رَائِعَةً، وَإِنَّ خَيْرَ الْأَزْوَاجِ لِأَهْلِهِ مَنْ كَانَتْ لَهُ صِفَاتُ "الْحَمِيرِ"، وَلَيْتَ
جَمِيعَ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يُدْرِكْنَ ذَلِكَ، وَيُعَامِلْنَ أَزْوَاجَهُنَّ كَمَا يُعَامِلُ الْحَمَارُ حِمَارَهُ،
وَهُوَيَا بَيْدَبَا أَمْرٌ مُمَكِّنٌ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ جُلِّ الرِّجَالِ الْجَيِّدِينَ يَا بَيْدَبَا هِيَ صِفَاتُ "الْحَمِيرِ"؛

فَالْحَمِيرُ حَيَوَانَاتٌ قَوِيَّةٌ، صَبُورَةٌ، ذَكِيَّةٌ، ذُكُورَةٌ، مُثَابِرَةٌ، هَادِئَةٌ الطَّبَعِ، شَدِيدَةٌ التَّحْمَلِ، لَيْسَ فِي طَبْعِهَا الْعُنْفُ وَالْمُشَاكَسَةُ، حَتَّى أَنْ أَصْحَابَهَا يُلْقُونَ مَقُودَهَا عَلَى ظُهُورِهَا؛ فَتَمْضِي فِي طَرْقِهَا وَهِيَ عَارِفَةٌ دُرُوبَهَا الَّتِي تَعُودُوتُهَا، مِنْ دُونِ حَاجَةٍ إِلَى سَائِسٍ أَوْ دَلِيلٍ.

وَالْحَمِيرُ يَا بَيْدَبَا لَا تَغْضَبُ إِلَّا إِذَا بَالَعَ الْمَرْءُ فِي إِيْدَائِهَا، عِنْدَ ذَلِكَ تَغْضَبُ، وَتُصْبِحُ عَنِيدَةً وَصَعْبَةً الْقِيَادِ، وَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهَا الْأَذَى فَلَنْ تَتَرَدَّدَ فِي رَفْسِ الشَّخْصِ الَّذِي يُؤْذِيهَا بِحَافِرِي خَلْفَيْتَيْهَا الْقَوِيَّتَيْنِ؛ تَنْتَقِمُ مِنْهُ وَتُبْعِدُهُ عَنْهَا.

كُلُّ الرَّجَالِ الْأَسْوِيَاءِ الَّذِينَ حَسَنْتَ تَرْبِيَّتَهُمْ يَا بَيْدَبَا لَهُمْ صِفَاتُ الْحَمِيرِ، وَلَدَيْهِمْ الْقَابِلِيَّةُ لِأَنْ يَنْقَادُوا لِرِزْوَاجَتِهِمْ، وَأَنْ يَعْملُوا جَاهِدِينَ عَلَى حَمَلِ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ وَتَلْبِيَةِ حَاجَاتِهِمْ وَحَاجَاتِ أَبْنَائِهِمْ، كُلُّ ذَلِكَ مُمَكِّنٌ لَوْ عَرَفَتِ النِّسَاءُ كَيْفَ يَتَعَامَلْنَ مَعَ الرَّجَالِ، وَلِذَلِكَ مِنَ الْمُهْمِمْ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ يَسْعَى إِلَى الْوَتَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَحْرِصَ أَبْنَاؤُهُ عَلَى تَفْهِيمِ الْفِطْرَةِ وَالطَّبَائِعِ وَالْحَاجَاتِ لِكُلِّ جِنْسٍ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ فَيَعْمَلُ الْمُجْتَمَعُ وَالْمَرْبُونَ عَلَى تَنْمِيَةِ الثَّقَافَةِ الْأُسْرِيَّةِ وَالْوَالِدِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ صُلْبِ بَرَامِجِ التَّرْبِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ؛ لِيَعْرِفَ الْأَزْوَاجُ وَالْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاؤُا كَيْفَ

يَتَعَامَلُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، فِي الْمُجْتَمَعِ، وَفِي الْأُسْرَةِ، وَكَيْفَ يَتَعَاوَنُونَ وَيَتَكَامَلُونَ، وَكَيْفَ يُنْصَفُونَ الشَّرَكَاءَ، وَكَيْفَ يُنْصَفُونَ مِنْهُمْ؛ لِكَيْ يَحِلَّ الْحُبُّ وَالتَّعَاوُنُ وَالْوِنَاءُ بَيْنَ أَعْضَاءِ الْأُسْرَةِ وَأَبْنَاءِ الْوَطَنِ.

هُنَا وَقَفَ أَحَدُ الشَّبَابِ، وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ مَلَامِحُ ابْتِسَامَةٍ مَآكِرَةٍ، لَمْ تَخْفَ عَلَى فِطْنَةِ الشَّيْخِ. اسْتَأْذَنَ الشَّابُّ فِي الْحَدِيثِ. رَحَّبَ الشَّيْخُ بِالِاسْتِمَاعِ إِلَى الشَّابِّ، وَعِنْدَيْهِ وَجَّهَ الشَّابُّ حَدِيثَهُ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الشَّيْخُ وَالْحَكِيمُ بِيَدْبَا، وَلَكِنْ مَنْ يَرْقُبُ وَجْهَ الشَّابِّ بِدِقَّةٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بِرُكْنِ عَيْنِهِ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ تَجْلِسُ النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ، وَكَأَنَّ فِي حَدِيثِهِ شَيْئًا مِنَ الْإِغَاظَةِ لَهُنَّ، قَالَ الشَّابُّ: يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ، إِذَا كُنَّا كَمَا تَفَضَّلْتَ عَلَيْنَا أَنَّنَا نَحْنُ الرِّجَالُ الْأَزْوَاجُ، هُمْ أَوْلَيْكَ "الْحَمِيرُ" "النُّبَلَاءُ"، فَمَنْ هُنَّ النِّسَاءُ؟ وَكَيْفَ تَصِفُهُنَّ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ، فَنَحْنُ لَسْنَا أَقَلَّ تَطَلُّعًا لِمَعْرِفَةِ مَعْدِنِ النِّسَاءِ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تُطَلِّقَ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَوْصَافِ "النَّبِيلَةَ".

هَمَّ الشَّيْخُ بِالْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِ الشَّابِّ، إِلَّا أَنَّ فَتَاةً لَا يُخْطِئُ مَنْ يَرَاهَا أَنْ يَرَى مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ قَسَمَاتُ وَجْهِهَا الْجَمِيلِ مِنْ مَلَامِحِ الْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ، وَالتِّي تَكْمُنُ خَلْفَ سِمَاتِ الْهُدُوءِ وَالْوَدَاعَةِ وَالْحَيَاءِ الْأَسْرِ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: هَلْ يَأْذَنُ لِي شَيْخُنَا الْجَلِيلُ أَنْ أُجِيبَ عَمَّا تَسْأَلُ عَنْهُ الْأَخُ الْفَاضِلُ.
نَظَرَ الشَّيْخُ مَلِيًّا مَسْرُورًا إِلَى الْفَتَاةِ قَائِلًا: نَعَمْ أَيُّهَا الْأُخْتُ، لَا بَأْسَ أَنْ تُجِيبِي عَمَّا تَسْأَلُ
عَنْهُ أَخُونَا الشَّابُّ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: أَيُّهَا الْأَخُ الْفَاضِلُ، نَحْنُ النِّسَاءُ، نَرَى أَنَّ أَسْرَنَا، هِيَ أَوْلَوِيَّةُ جَهْدِنَا فِي
حَيَاتِنَا، وَخَاصَّةً فِي مَرَحَلَةِ شَبَابِنَا، وَزَهْرَةَ عُمْرِنَا، فَنَحْنُ "الْجَوَارِي وَالْإِمَاءُ"، وَنَحْنُ
اللَّوَاتِي نَسْعَى وَنَسْهَرُ وَنَشْقَى، بِلَا تَعَبٍ وَلَا مَلَلٍ؛ لِحَبْلِ الرَّاحَةِ لِأَبْنَائِنَا وَأَزْوَاجِنَا، وَلِكُلِّ
مَنْ يَتَعَلَّقُ بِنَا، مِنْ أَحْبَابِنَا وَأَفْرَادِ أَسْرِنَا.

نَعَمْ أَيُّهَا الْأَخُ الْفَاضِلُ نَحْنُ "الْأُمَّهَاتُ"، فَنَحْنُ فِي حُبِّنَا وَإِخْلَاصِنَا وَعِنَايَتِنَا بِدَافِعِ
فِطْرَتِنَا السَّلِيمَةِ أَكْثَرَ عَطَاءٍ مِنْ "الْإِمَاءِ" وَالْجَوَارِي "اللَّائِي لَا حَيَاةَ هَنِيئَةً وَادِعَةً
مُسْتَقِرَّةً مِنْ دُونِنَا، فَنَحْنُ الْأُمَّهَاتُ وَالْأَخَوَاتُ وَالْبَنَاتُ، نَحْنُ عِنَايَةٌ فِي الطُّفُولَةِ، وَدَعْمٌ
وَسَنْدٌ وَمَوَدَّةٌ فِي الرُّجُولَةِ، وَحَدَبٌ وَرَحْمَةٌ فِي الشَّيْخُوخَةِ، تِلْكُمْ هِيَ "الْأُمُّ" وَهِيَ "الزَّوْجَةُ"
وَهِيَ الْإِبْنَةُ"، وَنَحْنُ يَا أَخِي الْفَاضِلُ رَاضِيَاتٌ مَسْرُورَاتٌ بِأَنَّنا "الْأُمَّهَاتُ الْإِمَاءُ لِأَبْنَائِنَا
وَأَزْوَاجِنَا وَإِخْوَانِنَا وَأَخَوَاتِنَا وَأَهْلِينَا". وَنَحْنُ حِينَ يَتَقَدَّمُ بِنَا الْعُمْرُ، وَقَدْ أَدِينَا وَاجِبَاتِ
التَّرْبِيَةِ وَالْعِنَايَةِ بِالصِّغَارِ، تَكُونُ أَوْلَوِيَّتِنَا هِيَ الْعَمَلُ؛ لِكَيْ نَسْنُدَ -مَعَ أَزْوَاجِنَا- أَبْنَاءَنَا
وَنُعِينَ جُهُودَهُمْ فِي بِنَاءِ حَيَاتِهِمْ وَحَمْلِ أَعْبَاءِ أَسْرِهِمْ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ التَّفَتَّتِ الْفَتَاةُ إِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الشَّابُّ وَقَالَتْ:
هَلْ أَجَبْتُكَ وَبَقِيَّةَ الْإِخْوَةِ أَيُّهَا الْأَخُ عَنْ سُؤَالِكَ؟ وَهَلْ رَأَيْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
"خَدَمًا لَنَا"، فَنَحْنُ لَكُمْ "إِمَاءٌ"، إِنَّهَا قَسَمَةُ إِلَهِيَّةً عَادِلَةً، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَقُومَ
بِدَوْرِهِ وَيُؤَدِّيَ وَاجِبَاتِهِ لِخَيْرِ الْجَمِيعِ وَهَنَاءِ الْجَمِيعِ، أَلَا تَرُونَ بِهَذَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّنَا نَسْتَحِقُّ
أَنْ نَكُونَ وَإِيَّاكُمْ "شَقَائِقُ" وَ"شُرَكَاءُ"؟

وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَتِ الشَّابَّةُ مَقْعَدَهَا مُسْتَمِعَةً إِلَى الشَّيْخِ.
سُرَّ الشَّيْخُ بِمَا سَمِعَ، وَانْفَرَجَتْ أَسَارِيرُهُ لِيَقُولَ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ أَيُّهَا الْأَخْتُ، إِنَّنِي مَا
كُنْتُ لِأَجِيبَ أَخَانَا الشَّابُّ بِأَفْضَلٍ مِمَّا ذَكَرْتَ وَأَجَدْتَ وَأَوْجَزْتَ، فَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ،
وَزَادَكَ حِكْمَةً وَتَوْفِيقًا.

تَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ لَقَدْ ذَكَرْتَ الْأَخْتُ الْفَاضِلَةَ كَلِمَتَيْنِ
مُهْمَتَيْنِ يَجِبُ أَنْ نَتَنَبَّهُ إِلَى دَلَالَتِهِمَا، وَعُمُقِ مَعْنَاهُمَا، وَمَنْ دُونَهُمَا تَخْتَلِطُ الْأُمُورُ، وَنَضِلُّ
السَّبِيلَ، هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ هُمَا "الْفِطْرَةُ" "السَّوِيَّةُ"، "فَالْفِطْرَةُ السَّوِيَّةُ" هِيَ
الَّتِي تَجْعَلُ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ - ذُكُورًا وَإِنَاثًا - مُتَسَاوِينَ فِي الْكِرَامَةِ وَجَمَاعَةً مُتَكَافِلَةً كَمَا أَنَّهَا
أَيْضًا تَجْعَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا يُؤَدِّي دَوْرَهُ مُتَكَامِلًا مَعَ الْآخَرِينَ، نَكُونُ أَفْرَادًا أَسْوِيَاءَ،

وَأَعْضَاءَ فِي جَسَدِ جَمَاعَةٍ سَوِيَّةٍ. وَإِنَّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي نُفُوسِنَا وَكَيَانَاتِنَا مِنْ تَفَاوُتٍ لَيْسَ عَبَثًا، وَمِنْ دُونِ هَذَا الْإِخْتِلَافِ وَالتَّفَاوُتِ فَإِنَّنَا لَنْ نَتَّكَمَلَ، وَسَوْفَ يَضِلُّ سَعِينَا وَتَشْقَى نُفُوسُنَا وَنَكُونُ أَضَلَّ مِنَ الْعَجَمَاوَاتِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ لَنَا عُقُولًا نُمَيِّزُهَا الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَأِ، وَالْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَالنَّافِعَ مِنَ الضَّارِّ، كَمَا أَنَّ لَدَيْنَا الْقُدْرَةَ عَلَى الْخِيَارِ، وَهُوَ مَا يُمَيِّزُنَا عَنِ الْعَجَمَاوَاتِ، فَنَحْنُ السُّعَدَاءُ إِنْ اهْتَدَيْنَا "بِفِطْرَتِنَا السَّوِيَّةِ"، وَنَحْنُ الْأَشْقِيَاءُ إِنْ انْحَرَفْنَا عَنِ "فِطْرَتِنَا السَّوِيَّةِ"، فَكُونُوا أَيْهَا الشَّبَابُ "عَبِيدًا لِزُوجَاتِكُمْ" عِنْدَهَا تُصْبِحُ الْفَتَيَاتُ "إِمَاءً لِزُوجِهِنَّ" أَوْ كَمَا قَالَتِ الْأُمُّ الْحَكِيمَةُ وَهِيَ تَنْصَحُ ابْنَتَهَا، "كُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا".

إِنَّ جَوْهَرَ طَبَعِ الْأُمُومَةِ وَالْأُبُوءَةِ فِي النُّفُوسِ يَا بَيْدَبَا هُوَ الْحُبُّ وَالتَّضْحِيَةُ لَدَى الْأُمِّ، وَهُوَ الْعَطَاءُ وَحَسُّ الْمَسْئُولِيَّةِ لَدَى الْأَبِ، وَإِذَا سَاءَتِ التَّرْبِيَةُ وَضُيِّعَ هَذَا الْجَوْهَرُ فِي طَبَائِعِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَزُيِّفَتِ الْأَدْوَارُ يَا بَيْدَبَا، وَتَفَلَّتِ الشَّبَابُ وَالشَّابَّاتُ، وَاسْتَهْتَرُوا فِي سُلُوكِهِمْ وَمَسْئُولِيَّاتِهِمْ، تَهَدَّمَتِ الْأُسْرَةُ، وَشَقِيَ الْأَبَاءُ وَالْأَبْنَاؤُ مَعًا، وَزَالَتِ قِيَمُ الْكِرَامَةِ رَوَابِطُ الْحُبِّ وَصَلَاتُ التَّرَاحُمِ وَمَشَاعِرِ الْوُدِّ وَالْإِحَاءِ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ عَلَى مَا نَرَى يَا بَيْدَبَا تَتَسَعُّ الشُّرُوحُ فِي أَسَاسِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ لِتَنْتَهِيَ إِلَى التَّهْدِيمِ وَالضِّيَاعِ.

يَابَيْدَبَا؛ مَا أَحْكَمَ الْمَثَلَ الشَّعْبِيُّ الْقَائِلَ "يَا آخِذَةَ الْقِرْدِ عَلَى مَالِهِ، يَرُوحُ الْمَالُ وَيَبْقَى الْقِرْدُ عَلَى حَالِهِ" فَهُوَ مَثَلٌ مِنْ أَمْثَالِ بَعْضِ الْبِلَادِ يُلَخِّصُ فِي الْفَاضِلِ قَلِيلَةً مَبْدَأَ تَرْبُويًا هَامًا فِي نَصِيحِ الْفَتَيَاتِ وَأَوْلِيَاءِ أُمُورِهِنَّ بِشَأْنِ اخْتِيَارِ الزَّوْجِ وَرَفِيقِ دَرْبِ الْحَيَاةِ لِبَنَاتِهِمْ وَأَبَاءِ أَحْفَادِهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ لِلْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِ اللَّبِّ وَالْجَوْهَرِ، وَلَيْسَ الْإِنْهَارُ بِسَرَابِ الْحَشْوِ وَالْمَظْهَرِ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ كَمَا تَعْلَمُ يَابَيْدَبَا رَفِيقُ حَيَاةٍ، وَعَشِيرُ فِرَاشٍ وَدَارٍ، وَأَبٌ وَقُدُوةٌ وَمَرْبٌّ وَمُرْشِدٌ لِلصِّغَارِ؛ وَلِذَلِكَ فَاخْتِيَارُ الزَّوْجِ لَا يَقِفُ يَابَيْدَبَا عِنْدَ الْمَالِ وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ خُلِقَ وَدِينٌ وَتَوَافَقٌ، سِنًا وَثِقَافَةً وَشَخْصِيَّةً، وَمَنْ كَانَ ذَا خُلُقٍ وَدِينٍ وَثِقَافَةٍ وَلَيْنِ جَانِبٍ، فَلَنْ يُعْدَمَ الْقُدْرَةَ وَالْجِدَّةَ لِتَدْبِيرِ عَيْشِ دَارِهِ وَصِغَارِهِ، وَمَا أَقَلَّ حَاجَاتِنَا الْإِنْسَانِيَّةَ الْمَادِيَّةَ - فِي الْحَقِيقَةِ يَابَيْدَبَا - إِنْ نَحْنُ تَحَلَّيْنَا بِحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَحِكْمَةِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ، وَبِالْقَدْرِ الضَّرُورِيِّ الْمُنَاسِبِ لِلْحَاجَةِ وَالْحَالِ، وَتُخْطِئُ الْفَتَيَاتُ اللَّوَاتِي لَا يَرْضَيْنَ الْبَدْءَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ انْتَهَى أَبَاوَهُنَّ مِنَ الْمَكَانَةِ وَالرَّفَاهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يُحَقِّقُوهُ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ وَعَنَاءٍ، وَعُمُرٍ مَدِيدٍ.

لِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ يَجِبُ أَنْ نَحْرِصَ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا عَلَى تَنْمِيَةِ جَوْهَرِ طَبَعِ الْأُمُومَةِ وَالْأَبُوءَةِ الْفِطْرِيِّ فِي نُفُوسِهِمْ، وَتَرْشِيدِهِ، يُحَسِّنُوا أَدَاءَ أَدْوَارِهِمْ فِي بِنَاءِ أَسْرِهِمُ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ



العنف: إهدار للكرامة وتربية العبيد

بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَحَتَّى لَا نَرَى بَيْنَ أَبْنَائِنَا "الذَّئَابَ" وَ"الثَّعَالِبَ" وَ"الْخَنَازِيرَ" وَلَا بَيْنَ
بَنَاتِنَا "الْأَفَاعِي" وَ"العَنَاكِبَ" وَ"العَقَارِبَ" وَلَا "سَائِبَاتِ المَعِيرِ".

إِنَّ النِّجَاحَ فِي الْحَيَاةِ يَابِدْبَا هُوَ بِالدَّرَجَةِ الْأُولَى أَمْرُ تَرْبِيَةٍ وَتَوْعِيَةٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَدْرِيْبٍ
وَمَهَارَاتٍ، وَهُوَ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِالْأُسْرَةِ وَالدَّارِ، إِنْ نَحْنُ أَحْسَنَّا إِعْدَادَ أَبْنَائِنَا
وَبَنَاتِنَا لِحُسْنِ الْعِشْرَةِ وَحُسْنِ تَرْبِيَةِ الصِّغَارِ.

قَالَ بَيْدْبَا: نَعَمْ، لَقَدْ صَدَقَتْ أَيْهَا الشَّيْخُ، لَيْتَ أَبْنَاءَ زَمَانِنَا وَبَنَاتِنَا يُدْرِكُونَ جَوْهَرَ
فِطْرَتِهِمْ وَطَبَائِعِهِمْ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى إِرَاحَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، كُلُّ وَاحِدٍ يَسْعَى وَيُخْلِصُ فِي
حُسْنِ آدَاءِ دَوْرِهِ وَحَمْلِ مَسْئُولِيَّاتِهِ وَتَكَامُلِ آدَائِهِ، وَكُلُّ يُعْطِي الْحَقَّ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ دُونِ
إِرْهَاقٍ وَلَا شَطَطٍ، فَيُحَقِّقُ ذَاتَهُ وَيُسْعِدُ نَفْسَهُ وَمَنْ حَوْلَهُ، لَوْ تَحَقَّقَ هَذَا فِي مُجْتَمَعَاتِنَا
بِفَضْلِ التَّرْبِيَةِ الْوَالِدِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي صُلْبِ ثِقَافَةِ آبَاءِ الْمُسْتَقْبَلِ
وَأُمَّهَاتِهِ، فِي مَعَاهِدِ الدَّرْسِ وَالتَّعْلِيمِ، وَلَا سِيَّمَا الْمَرَا حِلِ الْعُلْيَا مِنْهُ، حِينَ يَكُونُونَ عَلَى
أَبْوَابِ الزَّوْاجِ وَبِنَاءِ الْأُسْرَةِ... لَوْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَحِرْصْنَا عَلَيْهِ يَا بَيْدْبَا لَمَا رَأَيْنَا مَا نَرَى بَيْنَ
كَثِيرٍ مِنْ شَبَابِ هَذَا الزَّمَانِ، مِنْ أَلْوَانِ الشِّقَاقِ وَالنِّزَاعِ، وَتَفْشِي الْعُنْفِ، وَتَهْدِيمِ الْأُسْرِ،
وَشِقَاءِ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ.

قال الشيخ ابن بطوطة: ما تقوله صحيح يا بيدبا، ولكن ذلك ليس كل شيء؛ فإن هناك أيضا حقوقا واجبات، على المجتمع أن يؤدّيها للنساء والأمهات، وهي تتعلق بفترة ما بعد فترة الخصوبة والأمومة والحمل والوضع والتربية الأسرية، أي فترة ما بعد حوالي سن الخامسة والأربعين، إلى حوالي الخامسة والستين أو السبعين من العمر؛ حين تتحرر المرأة في هذه المرحلة من جلّ أعباء الأمومة، وقد انقطع عنها الحمل، ونما ريش صغارها، وهي ما تزال في أفضل أحوالها قدرة وخبرة وتجربة، ويصبح العمل والإسهام الاجتماعي في مرحلة ما بعد الأمومة أولويتها، هو وأفضل شيء، وأتمن شيء يمكن أن تملأ به حياتها، وتسهم به في رفاهة مجتمعها وتقدمه.

ولذلك، على المجتمعات التي يهتمها -حقا يا بيدبا- حماية المرأة، ورعاية الأمومة، ورعاية الأسرة وروابط الرحم، وسلامة النسيج الاجتماعي وقوته؛ أن تضع من البرامج والتشريعات ما يوفر في مرحلة الأمومة "حاجات الأمومة" وأمنها؛ حيث تكون الأمومة أولوية، وما يفيض من الوقت والطاقة يكون للعمل الميسر المعين على تلبية حاجات الأمومة ومشاعليها ومسئولياتها، كما يوفر أيضا للمرأة في مرحلة ما بعد الأمومة "تحقيق ذاتها" وتوفير الظروف لمشاركتها البناءة في خدمة مجتمعها، وذلك بتوفير

مَجَالَاتِ الْعَمَلِ، وَبِرَامِجِ إِعَادَةِ التَّأْهِيلِ اللَّازِمِ لِدُخُولِهَا سُوقَ الْعَمَلِ، وَأَنْ تُحْتَسَبَ لَهَا
عِلَاقَاتُ خِبْرَةِ الْأُمُومَةِ وَتَضَحِيَّاتِهَا، وَخِبْرَةُ إِدَارَةِ أَعْمَالِ الْمَنْزِلِ وَالْأُسْرَةِ وَتَعْقِيدَاتِهَا، فَيُعَدُّ
سِنُّ الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ - كَمَا هُوَ فِي جَزِيرَةِ السَّلَامِيِّينَ وَوَادِيهِمْ - هُوَ أَوْلَوِيَّةُ الْعَمَلِ، وَسِنُّ
مَرْحَلَةِ دُخُولِ جُمْهُورِ النِّسَاءِ سُوقِ الْعَمَلِ، وَهَذَا يَمُدُّ الْمُجْتَمَعَ بِطَاقَةِ إِنْسَانِيَّةٍ نَاضِجَةٍ
مُؤَهَّلَةٍ رَاقِيَةٍ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُشْبِعُ هَذَا الْأَمْرُ حَاجَاتِ نَفُوسِ هَؤُلَاءِ السَّيِّدَاتِ
وَتَطْلُعَاتِهِنَّ الْفِطْرِيَّةَ، وَيُحَقِّقُ لِهِنَّ ذَوَاتِهِنَّ، وَيُشْغِلُ بِشَكْلِ إِيْجَابِيٍّ مُفِيدٍ مَا تَوَافَرَ لِلنِّسَاءِ
مِنَ الْوَقْتِ بَعْدَ انْقِضَاءِ مَشَاغِلِ الْأُسْرَةِ وَالْأُمُومَةِ بِكُلِّ خِبْرَاتِهَا وَخُصُوصِيَّاتِهَا، وَتَوْفِيرِ
فُرْصِ الْعَمَلِ لِهَذِهِ الشَّرِيحَةِ مِنَ النِّسَاءِ . يَا بَيْدَبَا لَيْسَ لَا خِدْمَةَ فَقَطْ لِهَؤُلَاءِ النِّسَاءِ
وَإِفَادَةَ لِلْمُجْتَمَعِ مِنْهُنَّ وَمِنْ طَاقَاتِهِنَّ وَقُدْرَاتِهِنَّ، بَلْ إِسْهَامًا أَيْضًا فِي تَخْفِيفِ أَسْبَابِ
الْمُشْكَلَاتِ الْأُسْرِيَّةِ النَّاجِمَةِ عَنْ تَدَخُّلَاتِ "الْحَمَوَاتِ" الْمُتَفَرِّغَاتِ، وَمَا يُسَبِّبُهُ ذَلِكَ مِنْ
تَنْغِيصَاتِ لِحَيَاةِ الْأَزْوَاجِ الشَّبَابِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ يُرْبِكُ شُؤْنَهُمْ، وَيَنْكِدُ عَيْشَهُمْ،
وَعِنْدَيْدِ فَقَطْ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ السَّاحِرُ "حَمَاتِكَ تُحِبُّكَ"، وَكَأَنَّ ذَلِكَ رَابِعُ الثَّلَاثِ
الْمَسْتَحْيَلَاتِ "الْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ وَالْخُلُّ الْوَفِيُّ" كَمَا يَقُولُونَ. لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَنْسَى
الْحِكْمَةَ الْقَائِلَةَ "إِذَا بَلَغَ ابْنُكَ الرُّشْدَ فَعَامِلُهُ مُعَامَلَةُ الْأَخِّ، أَوْ كَمَا يُعَبَّرُ عَنْهَا بِاللُّغَةِ

الدَّارِجَةِ "إِذَا كَبُرَ ابْنُكَ خَاوِيَةً" أَي يَكُونُ لَهُ مِنْكَ النُّصْحُ، وَلَهُ وَحْدَهُ اتِّخَاذُ الْقَرَارِ
وَالْمَسْئُولِيَّةِ فِيمَا يَأْخُذُ أَوْ يَتْرُكُ، وَلَا عَلَيْكَ مِنَ الْعَوْنِ إِلَّا مَا تُطِيقُ، وَيَجِبُ يَا بَيْدَبَا أَنْ لَا
نَسَى "أَنَّ اللَّهَ - كَمَا يَقُولُونَ - قَدْ خَلَقَ الْعُقُولَ فِي سَاعَةِ رِضَى، الْمَجْنُونِ رَاضٍ بِعَقْلِهِ".
وَأَهْمٌ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا أَنَّ عَمَلَ الْمَرْأَةِ وَإِسْهَامَهَا فِي نَشَاطِ الْمُجْتَمَعِ فِي هَذِهِ
الْمَرْحَلَةِ، يُوفِّرُ لَهَا أَيْضًا أَمْنًا وَضَمَانَاتٍ إِضَافِيَّةً؛ هِيَ فِي هَذِهِ السِّنِّ وَالَّتِي قَدْ تَكُونُ
-مَادِيًا وَمَعْنَوِيًا- فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ حِفَاطًا عَلَى كِرَامَتِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ أَمَامَ مُسْتَجِدَّاتِ
الْحَيَاةِ وَالظُّرُوفِ الَّتِي قَدْ تَتَهَدَّدُ أَمْنُ الْمَرْأَةِ، وَاسْتِقْرَارُ حَيَاتِهَا وَرَفَاهِيَّتِهَا كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهَا
الْعُمُرُ؛ حَيْثُ إِنَّ نَفْعَ عَمَلِ الْمَرْأَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ وَقَدْ لَا يَقِفُ أَثَرُهُ عِنْدَ حَاجَةِ الْمَرْأَةِ
وَحِفْظِ كِرَامَتِهَا، بَلْ قَدْ يَمْتَدُّ أَثَرُهُ أَيْضًا إِلَى عَوْنِ مَنْ تَهْفُونَ نُفُوسِهِمْ إِلَى عَوْنِهِنَّ مِمَّنْ هُمْ
أَهْلٌ لِلرِّعَايَةِ مِنَ الْأَبْنَاءِ وَالْأَحْفَادِ وَالْأَقَارِبِ وَأَهْلِ الْجَوَارِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ.

وَالْعَجِيبُ أَيْضًا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ أَنَّ مَا يَحْدُثُ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ هُوَ عَكْسُ
ذَلِكَ؛ حَيْثُ يُثْقَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ كَاهِلَ الْمَرْأَةِ بِالْعَمَلِ فِي شَبَابِهَا وَأُمُومَتِهَا؛ وَهَذَا مَا
يَضَعُ الْمَتَاعِبَ وَالْعِرَاقِيلَ أَمَامَ دَوْرِ الْأُمُومَةِ الْأَسَاسِ فِي حَيَاتِهَا فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَيُؤَدِّي إِلَى
تَفْكِكِ الْأُسْرَةِ، وَسُوءِ تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ وَإِهْمَالِ كَثِيرٍ مِنْ شُؤُونِهِمْ، بَلْ إِلَى عَدَمِ الرَّغْبَةِ فِي

الأُمومة والإنجاب، ثُمَّ نَجِدُ الْمُجْتَمَعَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقْدِفُ بِالْمَرْأَةِ إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْعَطَالَةِ، بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ فَتْرَةُ الْأُمومةِ وَمَشَاغِلُهَا الْهَامَّةُ وَالْخَطِيرَةُ فِي حَيَاةِ أَبْنَاءِ الْمُجْتَمَعَ وَاسْتِقْرَارِهِمْ؛ فَيُخَفِّفُ أَعْبَاءَهَا، وَيُسِّرُ لَهَا إِعْمَالَ جُزْءٍ مِنَ الْوَقْتِ، وَتُحَالُ إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْمَعَاشِ الْمُبَكَّرِ، بَرغمِ أَنَّهَا مَا تَزَالُ فِي أَوْجِ عَطَائِهَا وَقُدْرَاتِهَا الْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، بَلْ لَعَلَّهَا فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ أَقْدَرُ جَسَدِيًّا وَنَفْسِيًّا مِنْ نُظَرَائِهَا الرَّجَالِ عَلَى الْعَمَلِ؛ وَذَلِكَ بِفِعْلِ أَصْلِ مَتَانَةِ بِنَاءِ جَسَدِ الْمَرْأَةِ، وَمَا يَحْدُثُ لَهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ فَتْرَةِ الْأُمومةِ مِنَ التَّغْيِيرَاتِ "الْهُرْمُونِيَّةِ" فِي هَذِهِ السِّنِّ؛ حِينَ تَقِلُّ "هُرْموناتُ" الْأُنُوثةِ عِنْدَهَا، وَتَزْدَادُ "هُرْموناتُ" الذُّكُورَةِ؛ وَهَذَا يُقْوِي شَخْصِيَّتَهَا وَحَزْمَهَا وَإِجَابِيَّةَ أَدَائِهَا، عَلَى عَكْسِ الرَّجُلِ الْمُرْهَقِ الَّذِي يَعْتَبِرُ الْقِيَمَ عَلَى حِمَايَةِ الْأُسْرَةِ وَتَقْوِيمِ عُودِ الْأَبْنَاءِ وَحُسْنِ إِدَارَةِ شُؤْنِهِمْ وَلِذَلِكَ تَبْدَأُ تَقِلُّ عِنْدَهُ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ هُرْموناتُ الذُّكُورَةِ، وَتَزْدَادُ عِنْدَهُ هُرْموناتُ الْأُنُوثةِ؛ فَيَزِيدُ ذَلِكَ فِي نُضْجِ الرَّجُلِ، وَلِيْنِ جَانِبِهِ لِأَبْنَائِهِ وَأَحْفَادِهِ حَتَّى تَلْمَسَ عَطْفَهُ وَحَنَانَهُ فِي سُرْعَةِ دَمْعِ عَيْنَيْهِ، عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ الْأُمُّ فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ، وَذَلِكَ بِتَأْثِيرِ "هُرْموناتِ" الْأُنُوثةِ.

يَا بَيِّدْبَا؛ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ السَّلَامِيَّةِ أَنْ تُعْنَى - بِسَبَبِ أَصْلِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ فِي

مُنطَلَقَاتِهَا- بِالْأُسْرَةِ وَالْأُمُومَةِ، وَأَنْ تَهْتَمَّ بِأَخْلَاقِيَّاتِ الْأُسْرَةِ، وَحِمَايَةِ حُقُوقِ الْمَرْأَةِ
وَالْأُمُومَةِ، وَبِسَلَامَةِ الرِّوَابِطِ وَالْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَتَانَتِهَا، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ
أَوْلِيَّاتِهَا لِإِعَادَةِ الْبِنَاءِ، وَأَنْ تُقَدِّمَ لِدَاتِهَا وَلِعَالَمِ الْيَوْمِ الرُّؤْيَا الْحَضَارِيَّةَ الْبَدِيلَةَ الَّتِي
تَقُومُ عَلَى الْمَبَادِي وَالْأُسُسِ الرُّوْحِيَّةِ لِلْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّوِيَّةِ؛ بَعِيدَا عَنِ حُمَى
النِّزَوَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَالتَّفْسُخِ وَالْإِنْجِلَالِ الطِّبِيِّ الْحَيَوَانِيِّ الصِّرَاعِيِّ الْمُدْمِرِ، الَّذِي
يَقُومُ عَلَى التَّظَالُمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالَّذِي يَتَنَكَّرُ لِلْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرُّوْحِيَّةِ السَّوِيَّةِ، وَيَتَاجَرُ
بِالْمَرْأَةِ وَبِأُنُوثَتِهَا، مِنْ دُونِ رَادِعٍ مِنْ أَخْلَاقٍ، وَلَا حِسَابٍ لِلْعَوَاقِبِ فِي الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ؛
لِتُصْبِحَ الْمَرْأَةُ سِلْعَةً وَدُمِيَّةً تَجُوبُ الْحَانَاتِ وَالشُّوَارِعَ وَالْمَكَاتِبَ وَشَاشَاتِ الدِّعَايَةِ
وَالْإِعْلَانِ؛ تَعْرِضُ فِتْنَتَهَا وَغَوَايَتَهَا لِمَنْ يَدْفَعُ لَهَا مُقَابِلًا أَكْبَرَ، لِقَاءَ التَّضْحِيَّةِ بِعَقَّتِهَا
وَكَرَامَتِهَا وَأُنُوثَتِهَا، بَعِيدَا عَنِ حُبِّ الطِّفْلِ، وَرِعَايَةِ الزَّوْجِ وَدَفْءِ الْأُسْرَةِ وَالِدَّارِ، يُدْمِرُونَ
بِذَلِكَ شَبَابَهَا وَنَضَارَتَهَا وَخُصُوبَتَهَا وَطَاقَاتِ الْأُمُومَةِ فِي كَيَانِهَا.

يَا بَيْدَبَا إِذَا تَحَصَّلَ الرَّجُلُ عَلَى الْجِنْسِ وَسَهَّلَتْ لَهُ سُبُلُهُ خَارِجَ نِطَاقِ الزَّوْجِيَّةِ
الْفِطْرِيَّةِ فَقُلْ عَلَى الْأُسْرَةِ السَّلَامَ.

قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ لِلشَّيْخِ: لَقَدْ أُوفِيْتُ وَأَجْزَيْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا،

فَقَدْ أَدْرَكْنَا الْآنَ جَدِيَّةَ مَا تَقُولُ، وَأَهْمِيَّةَ مَا تَقْصِدُ إِلَيْهِ مِنْ وُجُوبِ اهْتِمَامِ الشُّعُوبِ
وَالْمُفَكِّرِينَ السَّلَامِيِّينَ - بِرَعْمِ كُلِّ زَيْفِ الْقَوْلِ وَتَدْلِيْسِهِ بِوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ وَإِغْرَاءِ الْمَالِ
-بِتَقْدِيمِ الرُّؤْيَا الْبَدِيلَةَ عَوْضًا عَمَّا يَرُوجُ لَهُ الْمَادِيُونَ وَتُجَارُ الْمُتَعَةِ الْحَرَامِ، مِنْ الْفَسَادِ
وِظْلَمِ الْمَرْأَةِ، وَإِهْدَارِ الْمَسْئُولِيَّاتِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، سَاءَ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَكَ يَا شَيْخَنَا
الْجَلِيلِ أَنْ تُتَابِعَ بَقِيَّةَ حَدِيثِكَ الشَّيْقِ الْمُفِيدِ عَنْ أَحْوَالِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي، فَكُلْنَا فِي
الْمَجْلِسِ آذَانَ مُصْغِيَةً.

أَجَابَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ بَيْدَبَا قَائِلًا: دَعِ الْأَمْرَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ يَا بَيْدَبَا إِلَى يَوْمِ الْغَدِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكَفَانَا مَا تَحَدَّثْنَا بِهِ الْيَوْمَ فِي مَجْلِسِنَا هَذَا.

يَقُولُ بَيْدَبَا: فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَرَكْنَا مَجْلِسَ الشَّيْخِ وَقَدْ أَزْدَادَ شَوْقِي وَشَوْقُ إِخْوَانِي
وَأَخَوَاتِي إِلَى مُتَابَعَةِ حَدِيثِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ عَنِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي.

وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذْنَا فِي الْإِنْصِرَافِ بَعْدَ مُصَافَحَةِ الشَّيْخِ بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، لَا احْتِرَامًا
وَإِجْلَالًا لَهُ فَقَطْ، وَلَكِنْ خَشْيَةً وَرَهْبَةً أَيْضًا مِنْ قِطَّةِ الشَّيْخِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ بَيْنَ
يَدَيْهِ تَرْقُبُ مَا يَجْرِي فِي الْمَجْلِسِ وَكَأَنَّهَا كَلْبٌ حَارِسٌ أَمِينٌ مُكَلَّفٌ بِحِرَاسَتِهِ وَرِعَايَتِهِ
وَالْتَبَيُّنِ مِنَ التَّرَامِ مَنْ يَوْمُ مَجْلِسِ الشَّيْخِ لِلْآدَابِ الْمَرْعِيَّةِ فِي مَجْلِسِهِ، وَإِلَّا كَانَ نَصِيبُ



طالبة الشيخ في مجلس العلم محترمين كل على حدة

المُخَالَفِ تَكْشِيرَةً عَنِ أَنْيَابِ حَادَّةٍ جَمِيلَةٍ، وَنَظْرَةٍ غَضَبٍ مِنْ عَيْنَيْهَا الْمُسْتَدِيرَتَيْنِ
الْمُلَوَّنَتَيْنِ اللَّامِعَتَيْنِ.

يَقُولُ بِيَدَبًا: لَا شَكَّ أَنَّ قِطَّةَ الشَّيْخِ هِيَ إِحْدَى عَجَائِبِ مَا رَأَيْنَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فِي ذِكَائِهَا
وَجَمَالِهَا، أَنَّنَا نَكَادُ نَظُنُّ مِنْ تَعْبِيرَاتِهَا الذَّكِيَّةِ الْجَمِيلَةِ أَنَّهَا تَفْهَمُ مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ، وَمَا
أَجْمَلَهَا وَهِيَ تَتَقَدَّمُهُ وَهُوَ يَلْجُ إِلَى الْمَجْلِسِ، وَتَتَقَدَّمُهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَتَجْلِسُ
بَيْنَ يَدَيْهِ بِكُلِّ الْيَقِظَةِ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ.

وَمَنْ عَجَائِبِ هَذِهِ الْقِطَّةِ أَيُّهَا الْقَارِئُ أَنَّهَا كَانَتْ فِي كُلِّ جَلْسَةٍ تَجُولُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ بَيْنَ
صُفُوفِ الْحَاضِرِينَ وَكَأَنَّهَا تَتَفَقَّدُ النِّظَامَ وَمَدَى مُنَاسَبَةٍ تَصْرُفَاتِ الْحَاضِرِينَ لِأَدَابِ
مَجْلِسِ الشَّيْخِ، وَكَانَتْ تِلْكَ فُرْصَتُنَا لِكَيْ نَمَرِّبَ أَيْدِينَا عَلَى فَرْوِ ظَهْرِهَا الْأَبْيَضِ النَّاعِمِ؛
تَدْلِيلًا لَهَا وَالْفَهْمَ بِهَا، وَهِيَ تَتَلَفَّتْ إِلَيْنَا يَمَنَةً وَيَسْرَةً بِنَظْرَةٍ رَضَى وَحُبِّ، وَقَدْ هَدَّاتُ
خُطُوتِهَا الدَّالَّةِ الرَّزِينَةِ مِنْ دُونِ أَنْ تَتَوَقَّفَ عِنْدَ أَيِّ وَاحِدٍ مِنَّا، بَلْ إِنَّهَا تَقِفُ أَحْيَانًا عِنْدَ
بَعْضِنَا، وَكَأَنَّهَا تَحْتَجُّ عَلَى جِلْسَتِهِ أَوْ هَيْئَتِهِ، وَتَمُدُّ يَدَهَا إِلَيْهِ ضَاغِطَةً بِهَا عَلَى ذِرَاعِهِ أَوْ
فَخِذِهِ؛ تَنْبِيْهَا أَوْ تَأْنِيْبًا، لَا يَسَعُ الْجَالِسُ مَعَهَا إِلَّا أَنْ يَعْتَدِلَ فِي جِلْسَتِهِ، أَوْ يُصْلِحَ مِنْ أَمْرِ
مَا تَهْدَلُ مِنْ هِنْدَامِهِ.

يَقُولُ بِيَدَبَا لَقَدْ كَانَتْ قِطَّةُ الشَّيْخِ إِحْدَى مُتَعِ جَلَسَاتِ مَجْلِسِ الشَّيْخِ، وَعَضُّوًا
مُؤْنَسًا مَحْبُوبًا فِي الْمَجْلِسِ، يَنْشُرُ حَوْلَهُ جَوًّا مِنْ الْحُبِّ وَالْأَلْفَةِ، وَقَدْ كَانَ مِنْ حُبِّ
الشَّيْخِ لَهَا أَنَّهُ لَا تُفَارِقُ مَجْلِسَهُ، وَلَا تَأْكُلُ إِلَّا مِنْ يَدِهِ، وَلَا يَخْدُمُنَا الْأَعْوَانُ بِشَيْءٍ مِنْ
الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ إِلَّا كَانَ نَصِيحِيهَا قَدْحًا مِنَ اللَّبَنِ يُقَدِّمُهُ الشَّيْخُ لَهَا بِكُلِّ رِقَّةٍ؛ فَيُمَرِّرُ يَدَهُ
عَلَى ظَهْرِهَا النَّاعِمِ الْجَمِيلِ؛ تَعْبِيرًا عَنْ مَحَبَّتِهِ لَهَا، وَإِيذَانًا لَهَا بِتَنَاوُلِ نَصِيحِيهَا مِنَ اللَّبَنِ
الرَّائِقِ اللَّذِيذِ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَقَفَ الشَّيْخُ وَأَخَذَ إِلَى صَدْرِهِ قِطَّةَ الذَّكِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْمُدَلَّلَةِ، وَنَظَرَ
إِلَى بِيَدَبَا، وَإِلَى الْحَاضِرِينَ مِنْ طُلَّابِ عِلْمِهِ، نَظْرَةً تَفَكَّرَ عَمِيقٍ، وَقَالَ يُخَاطِبُهُمْ: هَلْ
تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ لِمَاذَا تَخْلُو هَذِهِ الدَّارُ مِنَ الْفِئْرَانِ وَالْحَشْرَاتِ، بَرَّغَمِ أَنَّنا
إِلَى جِوَارِ حُقُولِ زَرَاعِيَّةٍ وَاسِعَةٍ؟

السَّبَبُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّ فِي هَذِهِ الدَّارِ قِطَّةً سَاهِرَةً عَلَى حِرَاسَتِهِ لَا تَغْفُلُ عَيْنَاهَا
الْجَمِيلَتَانِ عَنْ حِرَاسَتِهِ وَمُرَاقَبَةِ كُلِّ شَارِدَةٍ وَوَارِدَةٍ، فَلَا تَسْتَطِيعُ الْفِئْرَانُ وَالْجُرْدَانُ، أَوْ
الْأَفَاعِي وَالْعَقَّارِبُ، أَوْ الْعَنَاكِبُ وَالْحَشْرَاتُ، التَّسَلُّلَ إِلَى الدَّارِ وَإِيذَاءَ مَنْ فِيهَا.
صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً وَهُوَ مَا يَزَالُ يُطِيلُ النَّظَرَ السَّاهِمَ الْمُتَفَكِّرَ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ أَيُّهَا

الإخوة والأخوات، بُؤسًا للدار التي ليس بها دُونَ مُبَرَّرَ قِطَّةٍ جَمِيلَةٍ مُحِبَّةٍ، تَسَهَّرُ عَلَى حِرَاسَةِ أُسْرَةِ الدَّارِ وَمُدَاعِبَةِ صِغَارِهِ، وَهِيَ تُوفِّرُ لَهُمُ العِشَّ الأَمِنَ المُرِيحَ. بَيْتٌ أَيُّهَا الإخوةُ والأخواتُ يَخْلُو مِنْ أُمَّ رُؤُومٍ وَزَوْجَةٍ مُحِبَّةٍ مُخْلِصَةٍ، هُوَ بَيْتٌ خَرَابٌ، وَمِنْ دُونَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ وَهَذِهِ الأُمِّ لَا يَحْلُو العِيشُ، وَلَا تَطِيبُ النُّفُوسُ، وَلَا يَسْعَدُ الصَّغِيرُ وَلَا الكَبِيرُ.

قالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَلَعَلَّ شَبَابَنَا يَعِي هَذِهِ الحَقِيقَةَ وَيَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ يَبْنِي الحَيَاةَ.

وَهُنَا وَإِلَى يَمِينِ بَيْدَبَا تَقَدَّمَتْ سَيِّدَةٌ مُسِنَّةٌ فِي هَيْئَةٍ مِنَ الوَقَارِ وَالْحِشْمَةِ وَقَالَتْ: أَسْتَسْمَحُ شَيْخَنَا الكَرِيمَ لِأَعْبَرَعَمَّا يَجُولُ فِي نَفْسِي تَصْدِيقًا لِمَا تَكَرَّمَتْ بِهِ مِنْ صَادِقِ القَوْلِ؛ لِكَيْ يَكُونَ فِي بُؤْرَةٍ وَعِيِ أبنائنا وَشَبَابنا.


قالَ الشَّيْخُ: حُبًّا وَكِرَامَةً، تَفْضَلِي أَيُّهَا الأُخْتُ بالقَوْلِ، كُنَّا آذَانُ صَاغِيَةٍ. قَالَتْ السَّيِّدَةُ الوُقُورَةُ: يَا سَيِّدِي إِنَّ الرَّجُلَ هُوَ أَبِي، وَهُوَ أَخِي، وَهُوَ زَوْجِي، وَهُوَ ابْنِي، وَلَا مَعْنَى لِلحَيَاةِ، وَلَا طَعْمَ لَهَا، مِنْ دُونِهِمْ، فَكَيْفَ لي -كأمرأةٍ- أَلَا أَحَبُّ أَبِي وَأَخِي وَزَوْجِي وَأَبْنِي. وَأَنَا يَا سَيِّدِي -كأمرأةٍ- أُمُّ الرَّجُلِ، وَأَنَا أُخْتُ الرَّجُلِ، وَأَنَا زَوْجَةُ الرَّجُلِ، وَأَنَا ابْنَةُ

الرَّجُلِ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ الْحَبِيبَةَ لِأَبٍ وَأَخٍ وَزَوْجٍ وَابْنٍ، وَكَيْفَ لَا نَبِيٍّ أَسْرَنَا رَجَالًا وَنِسَاءً،
عَلَى الْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ وَالتَّعَاوُنِ، فَكُلُّ مِنَّا بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ وَسِعَتِهِ.
يَا سَيِّدِي، عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَعْمَلَ، وَأَنْ يُخْلِصَ، وَأَنْ يَبْذُلَ بِقُدْرِ طَاقَتِهِ وَأَوْلَوِيَّةِ
أَصْلِ خَلْقِهِ وَتَكْوِينِهِ؛ فَالْخَلْقُ يَا سَيِّدِي لَيْسَ عَبَثًا وَلَا هَذَرًا.

يَا سَيِّدِي، لَا تَقُومُ الْحَيَاةُ، وَلَا تَقُومُ الْأُسْرَةُ، وَلَا تَقُومُ الدَّارُ، وَلَا تَقُومُ الْأُمَّمُ، وَلَا تُبْنَى
الْأُوطَانُ، إِلَّا بِالرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، فَكُلُّهُمُ رَاعٍ، وَكُلُّهُمُ مَسْئُولٌ عَنِ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
عَوْنٌ لِلْآخِرِ، وَبَعْضُهُمْ عَوْنٌ لِبَعْضٍ، وَأَيُّ شَيْءٍ غَيْرُ ذَلِكَ وَهُمْ وَضِياعٌ، وَغُرْبَةٌ وَشَقَاءٌ،
لِلْكَبَارِ قَبْلَ الصِّغَارِ، وَلِلصِّغَارِ قَبْلَ الْكِبَارِ.

نَعَمْ يَا سَيِّدِي يَجِبُ أَنْ نُنَبِّيَ وَعِيَّ أَبْنَانِنَا بِاللُّبِّ وَالْجَوْهَرِ، لَا بِالْمَظَاهِرِ وَالْقَشُورِ، فَلَا
تَضِيغُ حَيَاتُهُمْ، وَلَا حَيَاةٌ مَنْ تَتَعَلَّقُ بِهِمْ حَيَاتُهُمْ، هَبَاءً وَهَدْرًا، وَأَسْفًا وَنَدَمًا، بَعْدَ أَنْ
تَكُونَ قَدْ تَهَدَّمَتِ الدَّارُ، وَتَقَدَّمَ الْعُمْرُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُرُّ الثَّمَرِ، حِينَ لَا يَنْفَعُ الْأَسَى وَلَا
يُفِيدُ النَّدَمُ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي، لَقَدْ عَبَّرَتِ عَنِ الْحَقِيقَةِ، الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَعِيشَهَا أَبْنَاؤُنَا،
وَيُصْلِحُونَ بِهَا مَا تَهَدَّمَتْ مِنْ بُنْيَانِ مُجْتَمَعَاتِنَا، وَيَرْسِمُونَ بِهَا الْبَسْمَةَ الصَّادِقَةَ عَلَى



شِفَاهِنَا، وَيُعِيدُونَ بِهَا دِفْءَ السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ إِلَى قُلُوبِنَا، وَمَا قُلْتِهِ يَا سَيِّدَتِي هُوَ مَسْكُ
الْخِتَامِ لِمَجْلِسِ الْيَوْمِ.
وَهُنَا مَاءَتِ الْقِطَّةُ الَّتِي لَمْ يُفَارِقِ الشَّيْخُ نَاطِرِيهَا؛ إِذْ أَنَا بِالرَّاحَةِ وَالْإِنْصِرَافِ.

صَوَاعِقُ السُّحُبِ السَّوْدَاءِ

قَالَ بَيْدَبَا: جَلَسْنَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي فِي مَجْلِسِ الشَّيْخِ، وَمَا زِلْنَا نَذْكُرُ حَدِيثَهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ، عَنِ الرَّؤْيَةِ الْبَدِيلَةِ بِشَأْنِ الْمَرْأَةِ وَإِنْصَافِهَا، وَحِفْظِ كَرَامَتِهَا بِالتَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ، وَبِالتَّشْرِيعَاتِ الصَّائِبَةِ، وَبِالتَّرْتِيبَاتِ الْفَعَّالَةِ؛ وَهَكَذَا اسْتَمَعْنَا إِلَى الشَّيْخِ فِي هَذَا الْيَوْمِ وَهُوَ يُتَابِعُ حَدِيثَهُ الْمُهِرَ الشَّجِيَّ عَنِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي؛ فَهُوَ كَانَ يَحْمِلُ إِعْجَابًا شَدِيدًا بِنِظَامِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي الَّذِي كَانَ - كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ - نِظَامًا رَائِعًا يُثِيرُ الدَّهْشَةَ وَالْإِكْبَارَ؛ وَذَلِكَ لِتَكَامُلِ مُؤَسَّسَاتِهِ، وَخُلُوقِهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالْإِتَاوَاتِ وَالرِّشَاوِي وَالْمَحْسُوبِيَّاتِ، وَإِهْدَارِ الْمَالِ الْعَامِّ، أَوْ مِنْ تَسَيُّبِ الْعَامِلِينَ، أَوْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِوَجِبَاتِهِمْ، أَوْ ضَعْفِ إِحْسَاسِهِمْ بِمَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَمَرْجِعِ ذَلِكَ وَلَا شَكَّ مَرْجِعُهُ فِي الْأَسَاسِ - كَمَا لَمَسَ الشَّيْخُ - إِلَى إِنْصَافِ الْعَامِلِينَ، وَالْوَفَاءِ لَهُمْ بِحُقُوقِهِمْ، وَإِلَى حُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيبِ الْجَيِّدِ، وَإِلَى الْإِعْلَامِ الْمُسْتَقِلِّ الْمُبْدِعِ الْمُسْتَنِيرِ، الَّذِي يُوعِي جُمْهُورَ الْأُمَّةِ لِمَصَالِحِهَا وَإِلَى جُهُودِ مُؤَسَّسَاتِ الدَّعْوَةِ وَالْخِدْمَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى بَذْرِ الْقِيَمِ وَالْمَبَادِي السَّلِيمَةِ وَمَشَاعِرِ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ فِي نَفُوسِ النَّاشِئَةِ، فَهَذِهِ الْمُؤَسَّسَاتُ تُنَيِّي - إِلَى جَانِبِ مُؤَسَّسَاتِ التَّشْرِيعِ وَالْمُرَاقَبَةِ - أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ

وَالْوَعْيِ وَالشَّفَافِيَّةِ؛ وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُعْطَى الْفُرْصَةَ لِلْخَفَافِيشِ وَضِعَافِ النُّفُوسِ لِأَنَّ
تَنْشُرَ أَمْرَاضَهَا النَّفْسِيَّةَ، وَمَصَالِحَهَا الْأَنْبِيَّةَ، وَلِتَعْمَلَ عَلَى تَخْرِيبِ النُّفُوسِ وَالْعُقُولِ،
وَالِاسْتِيْلَاءِ الظَّالِمِ عَلَى المَوَارِدِ، وَتَخْرِيبِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعْرَبًا فِي
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ أَنْ تَنْعَدِمَ البَطَالَةُ، وَأَنْ يَنْعَدِمَ العُنْفُ وَالْجَرِيمَةُ فِي المُجْتَمَعِ أَوْ يَكَادُ، وَأَنْ
تُلْمَسَ آثَارُ الإِحْسَاسِ بِالأَمْنِ فِي كُلِّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ فِي مُدُنِ الْجَزِيرَةِ وَأَرْيَافِهَا.

قَالَ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا: لَقَدْ ذَكَرْنَا الرَّحَالَهَ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ
الْوَاضِحِ لَهُ أَنَّ تَأْثِيرَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ الْقِيَمِيِّ، النَّابِعِ مِنْ إِرَادَةِ الشَّعْبِ، إِلَى جَانِبِ الإِعْلَامِ
المِهْنِيِّ الحُرِّ التَّزْيِيهِ المُسْتَقِلِّ، المُعْبَرِ عَنِ إِرَادَةِ الشَّعْبِ، كَانَ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ سَلَامَةِ
قَرَارَاتِ الشَّعْبِ وَاخْتِيَارَاتِهِ، لِتَأْتِي قَرَارَاتُهُ وَاخْتِيَارَاتُهُ خَيْرَةً رَشِيدَةً تَضْبُطُ سَيْرَ إِدَارَةِ
السُّلْطَةِ، وَتُرَشِّدُهَا؛ بَعِيداً عَنِ مُمَارَسَاتِ الإِسْتِبْدَادِ وَالفَسَادِ، حَتَّى تَتَوَخَّى العَدْلَ،
وَتَحْمِي الثَّرَوَاتِ وَالمَوَارِدِ، وَتَشْجَعِ الإِبْدَاعَ وَالعَمَلَ وَالإِثْقَانَ، وَتُنْعِي رُوحَ التَّكَاوُلِ،
وَتَحْمِي الوَطْنَ، وَتُوفِّرَ الأَمْنَ وَالسَّلَامَ وَالرِّفَاهَ لِلْجَمِيعِ.

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ سَعَدَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ أَيَّمَا سَعَادَةِ بِالأَيَّامِ الَّتِي قَضَاهَا فِي
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ؛ وَذَلِكَ يَعُودُ إِلَى وَفَرَةِ مَوَارِدِهَا، وَجُودَةِ إِنْتَاجِهَا، وَإِلَى كَرَمِ أبنَائِهَا، وَكَرَمِ

خُلِقِهِمْ، وَنَظَافَةَ مُعَامَلَاتِهِمْ، وَنَظَافَةَ مُدُنِهِمْ وَبِلَادِهِمْ، وَجَمَالَهَا وَجَمَالَ طَبِيعَتِهَا الَّتِي حَافَظُوا عَلَيْهَا، وَأَحْسَنُوا تَخْطِيطَهَا؛ لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا أَصْحَابُهَا، وَهُمْ شُرَكَاءُ فِيهَا وَفِي خَيْرَاتِهَا، إِنَّ طُرُقَاتِهَا وَمُوَاصَلَاتِهَا لَا تَخْتَنِقُ بِالزَّحَامِ، وَلَا يُصَابُ فِيهَا الْمَرْءُ بِالْأَفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ بِسَبَبِ تَسْرُبِ الْعَوَادِمِ وَأَدْخِنَةِ الصِّنَاعَاتِ وَمُخْلَفَاتِ الْمَشِيعَاتِ وَالْكِيمَاوِيَّاتِ.

قَالَ بَيْدَبَا: وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ أَكَّدَ لِي الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ أَنَّ جَزِيرَةَ الْبَنَائِينَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَخْتَلِفُ فِي طَبِيعَتِهَا عَمَّا يَعْرِفُهُ الْكَثِيرُونَ فِي بِلَادِهِمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِالْجَمَالِ وَالْمَوَارِدِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِمِثْلِهَا عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي لَا يَخْلُو بَلَدٌ مِنْ بِلَادِ اللَّهِ مِنْهَا، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ صُورُهَا وَوُجُوهُ عَطَائِهَا، وَيَزِيدُهَا الْإِخْتِلَافُ وَالتَّبَايُنُ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الْبِلَادِ تَنوعًا وَتَكَامُلًا وَجَمَالًا.

وَلِذَلِكَ؛ لَيْسَتْ الْأَرْضُ فِي مُكَوِّنَاتِهَا وَتَضَارِيسِهَا هِيَ الْفَرْقُ الَّذِي يُمَيِّزُ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ، وَالْكَثِيرَ مِنَ الْبِلَادِ الْمُتَحَضَّرَةِ مِثْلِهَا - كَمَا يَذْكَرُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ - بَلْ هُوَ الْمُوَاطِنُ وَمَا يَحْظَى بِهِ مِنْ تَرْبِيَةٍ وَتَعْلِيمٍ، وَخِبْرَةٍ وَتَدْرِيْبٍ وَمَا يَتَحَلَّى بِهِ مِنْ رُؤْيَةٍ كَوْنِيَّةٍ فِطْرِيَّةٍ إِيْجَابِيَّةٍ سَوِيَّةٍ، وَمِنْ قِيَمٍ وَأَخْلَاقٍ وَمَبَادِيءٍ، يُحَقِّقُ بِهَا ذَاتَهُ وَيَبْنِي بِهَا سُلُوكَهُ وَقُدْرَاتِهِ وَمُؤَسَّسَاتِهِ،

يَحْتَرِمُ بِهَا حُقُوقَ الْإِنْسَانِ وَكَرَامَتِهِ؛ لِيَحْيَا الْجَمِيعُ فَرْدًا وَجَمَاعَةً حَيَاةً حُرَّةً كَرِيمَةً؛ يُوفِّرُ فِيهَا الْمَوَاطِنَ حَاجَاتِهِ، وَيُبْدِعُ فِي إِنْتَاجِهِ، وَيُخْلِصُ فِي عَمَلِهِ، وَيُتَقِنُ فِي آدَائِهِ، وَيَحْمِي أَهْلَهُ وَأَوْطَانَهُ، لَا تَنَالُهُ مَهَانَةٌ وَلَا يُحْرَمُ اللَّقْمَةُ وَلَا يَخْشَى الْعَجْزَ أَوْ الْفَقْرَ وَالْعَوْرَ.

هُنَا تَوَقَّفَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ عَنِ الْحَدِيثِ مُنَادِيًا غُلَامًا لَهُ لِيَأْتِينَا كَمَا عَوَّدَنَا فِي كُلِّ لِقَاءٍ بِشَيْءٍ مِنَ التَّمْرِ وَشَرَابِ الزُّهُورِ، عَلَى عَادَةِ قَوْمِهِ فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَإِسْعَادِهِ؛ تَعْبِيرًا بِكَرَمِ الضَّيَافَةِ عَمَّا يَحْمِلُونَ لَهُ مِنْ مَشَاعِرِ الْمَوَدَّةِ، وَتَرْحَابِ الصُّحْبَةِ وَالْمَقَامِ؛ إِذْرَاكًا مِنْهُمْ لِمَا قَدْ يُحْسُّهُ الْغَرِيبُ عَنْهُمْ، وَخَاصَّةً مِنْ خَوْفِ الْمَجْهُولِ، وَمَشَاعِرِ الْغُرْبَةِ، وَحَاجَتِهِ إِلَى الْعَوْنِ وَالْأُلْفَةِ؛ بَعِيدًا عَنِ الدِّيَارِ وَالْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ.

قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ لِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ شُكْرًا عَلَى كَرَمِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَلَكِنِّي لَا أُخْفِي عَلَيْكَ أَنَّي تَلَفْتُ يُمْنَهُ وَيُسْرَةَ فِي مَجْلِسِكَ فَلَمْ أَرَمِنْ عَادَاتِكَ وَعَادَاتِ مَنْ مَعَكَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - مَا يَشِيعُ بَيْنَ أَبْنَاءِ هَذَا الزَّمَانِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ، وَيَذْكُرُهُ أَصْحَابُ الْحِكْمَةِ وَالطِّبِّ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ مَدْمَرٌ لِلصِّحَّةِ، وَذَلِكَ هُوَ دَاءُ "التَّدخينِ" أَوْ مَا يَدْعُونَهُ "عَادَةُ التَّدخينِ" وَيَصْنَعُونَ مَا دَتَهُ خَاصَّةً فِي الْبِلَادِ الْمُتَخَلِّفَةِ - كَمَا عَلِمْنَا - عَلَى هَيْئَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ جُلُّهَا مِنْ وَرَقِ شَجَرَةِ "التَّبغِ" الَّذِي يَحْرِقُونَهُ، وَيَنْفُثُونَ دُخَانَهُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَأُنُوفِهِمْ، وَنَتِيجَةً

لِذَلِكَ فَهُمْ يَسْتَنْشِقُونَ مَوَادَّهُ الْمُؤْذِيَةَ وَفَحَمَهُ الْمُحْتَرِقِ فِي رِئَاتِهِمُ الَّتِي تَسْوَدُ وَتَتَشَوَّهُ بِفِعْلِ دُخَانِ هَذَا الْكَرْبُونِ الْقِطْرَانِيِّ الْأَسْوَدِ الْمُحْتَرِقِ الَّذِي يَدْخُلُ وَكُلُّ مَا يُصَاحِبُهُ مِنْ مَوَادِّ كِيمِيَائِيَّةٍ مُؤْذِيَةٍ إِلَى كُلِّ حُوَيْصَلَةٍ هَوَائِيَّةٍ فِي رِئَةٍ مَنْ يَسْتَنْشِقُونَهُ، وَهُمْ - وَأَنْتَ وَلَا شَكَّ تَعْرِفُ ذَلِكَ خَيْرًا مِنِّي أَيُّهَا الشَّيْخُ - يَأْخُذُونَهُ كَمَا ذَكَرْنَا، عَلَى شَكْلِ "سِيَجَارٍ" أَوْ "سِيَجَارَةٍ" أَوْ عَلَى شَكْلِ مَا يُسَمُّونَهُ "الْغَلْيُونُ" أَوْ مَا يُسَمُّونَهُ "الْجَوْزَةَ" وَ"الشَّيْشَةَ" أَوْ "الْأَرْجِيلَةَ"، وَهُمْ يَا لِلْعَجَبِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِغَبَاءٍ وَنَهْمٍ عَجِيبٍ، وَيَتَفَنَّنُونَ فِي صُنْعِ كُلِّ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدْوَاتِ، وَيُدِيرُونَهَا فِي جَلَسَاتِهِمْ، وَيَسْهَرُونَ اللَّيَالِي فِي اسْتِنْشَاقِ سُمُومِهَا بِخِيَاشِيمِهِمْ وَرِئَاتِهِمْ، وَيَلْوِثُونَ بِدُخَانِهَا وَسُمُومِهَا مَجَالِسَهُمْ وَأَمَاكِنَ عَمَلِهِمْ وَبَيْتَاتِهِمْ، وَيَجْنُونَ بِهَا عَلَى مَنْ لَا يَدْخُنُ مِثْلَهُمْ مِمَّنْ يُبْتَلَى بِصُحْبَتِهِمْ أَوْ يَحْضُرُ مَجَالِسَ تَدْخِينِهِمْ.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ: سَامَحَكَ اللَّهُ يَا بَيْدَبَا! هَلْ خَطَرَ بِبَالِكَ أَنْ أَكُونَ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْحَمَاقَةِ وَالْغَبَاءِ؟ فَرِحَالَةَ مِثْلِي لَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمَ كُلُّ مَا تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ التَّدْخِينِ، وَيَعْلَمَ مَا يُسَبِّبُهُ التَّدْخِينُ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْخَطِيرَةِ لِلرِّئَةِ وَالصَّدْرِ، وَمِنْهَا الْأَمْرَاضُ السَّرَطَانِيَّةُ النَّاشِئَةُ عَنْ هَذِهِ الْمَوَادِّ الْكَرْبُونِيَّةِ الْمُحْتَرِقَةِ السَّامَّةِ، الَّتِي يَدْفَعُ الْجُهَّالُ أَمْوَالَهُمْ لِشِرَائِهَا لِيَكُونَ جَزَاؤُهُمْ كُلَّ هَذِهِ الْأَفَاتِ الصِّحِّيَّةِ.

إِعْلَمْ يَا بَيْدَبَا أَنَّكَ حِينَ تَرَى مِثْلَ هَذِهِ الظُّوَاهِرِ الخَطِيرَةِ الضَّارَّةِ مُتَفَشِّيةً فِي مُجْتَمَعِ
 مِنَ المُجْتَمَعَاتِ؛ تَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أخطرُ مِنْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ انْتِشَارُ الإِدْمَانِ وَالْعُنْفِ
 وَالتَّفَكُّكِ الأُسْرِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ بِسَبَبِ الطَّلَاقِ وَالْعُنُوسَةِ، وَانْتِشَارِ المَفَاسِدِ الأَخْلَاقِيَّةِ؛
 وَتَتَفَشَّى كُلُّ هَذِهِ المَاسِي، وَمَا هُوَ أخطرُ مِنْهَا فِي المُجْتَمَعِ؛ بِسَبَبِ ضَعْفِ الوَعْيِ وَفَسَلِ
 الأُسْرَةِ وَالمُدْرَسَةِ وَالإِعْلَامِ فِي آدَاءِ أَذْوَارِهَا فِي تِلْكَ المُجْتَمَعَاتِ، فَالتَّدْخِينُ وَأَمْرَاضُهُ يَا
 بَيْدَبَا دَلِيلٌ مُهِمٌّ عَلَى ضَعْفِ الوَعْيِ، وَسُوءِ التَّرْبِيَةِ، وَعَلَى وُجُودِ أَمْرَاضِ خَطِيرَةٍ أُخْرَى،
 تِلْكَ هِيَ الحَقِيقَةُ مَهْمَا زَيَّفَتْ تِلْكَ المُجْتَمَعَاتُ حَقَائِقَ وَاقِعِهَا، وَأَنْكَرَتْ حَقِيقَةَ
 أَمْرَاضِهَا، وَسُوءِ إِدَارَةِ أُمُورِهَا، وَضَعْفِ ثِقَافَةِ مُوَاطِنِهَا، وَتَدَنِّي وَعْيِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ.
 دَعْنِي يَا بَيْدَبَا أَذْكَرُ لَكَ تَجْرِبَةً تُعَبِّرُ عَنِ أَهْمِيَّةِ التَّرْبِيَةِ الأُسْرِيَّةِ فِي بِنَاءِ وَعْيِ أبنَائِهَا
 وَحِمَايَتِهِمْ، وَهَمُّ عَنْهُمْ بَعِيدٌ مِنَ الزَّلَّاتِ وَالمَخَاطِرِ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ صَدَاها مِنْ أذُنِي وَلَمْ تَغِبْ
 صُورَتُهَا وَصُورَةُ ذَلِكَ الفَتَى مِنْ ذَاكِرْتِي.

كَانَ بَطْلُ هَذِهِ القِصَّةِ يَا بَيْدَبَا فَتَى مِنْ أبنَاءِ أَرْضِ جَزِيرَةِ السَّلَامِيِّينَ، رَحَلَ فِي طَلَبِ
 العِلْمِ، وَكُنْتُ سَعِيدًا بِجِوَارِهِ؛ لِدمائِهِ خُلِقَ وَنَظَافَةُ لِسَانِهِ، وَهُدُوءِ طَبْعِهِ، وَأَنْصِرَافِهِ
 إِلَى عَمَلِهِ وَدَرْسِهِ.

لَقَيْتُهُ يَوْمًا وَرَأَيْتُهُ سَاهِمًا غَارِقًا فِي فِكْرِهِ كَأَنَّهُ كَانَ يُعَانِي مِنْ شَيْءٍ يَهْمُهُ وَيُعَكِّرُ صَفْوَهُ،
فَدَعَوْتُهُ إِلَى صُحْبَتِي لِنَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنْ مَشْرُوبِ الشَّايِ وَمَشْرُوبَاتِ الزُّهُورِ، نُرَوِّحُ بِهَا عَنْ
أَنْفُسِنَا وَيُحَدِّثُنِي بِبَعْضِ مَا يَهْمُهُ وَيُرَوِّحُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، سَأَلْتُهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَقْرَبْنَا الْمَقَامَ
وَقَدْ تَنَاوَلْنَا شَيْئًا مِنَ الْمَشْرُوبَاتِ السَّاخِنَةِ الَّتِي أَشْعَرْتَنَا بِشَيْءٍ مِنَ الرَّاحَةِ، وَدَارَبْنَا
الْحَدِيثَ وَقَدْ رَأَى قَلْبِي لِحَالِهِ إِلَى مَا كَانَ يَشْغَلُ بَالَهُ.

قَالَ لِي الْفَتَى: لَا تَقْلُقْ يَا شَيْخَنَا الْعَزِيزِ بِشَأْنِي فَمَا يُقْلِقُ بَالِي أَمْرٌ بِإِذْنِ اللَّهِ أَمْرٌ هَيْنٌ وَغَيْرُ
ذِي بَالٍ، وَإِنْ كَدَّرَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ صَفْوِ بَالِي، وَذَلِكَ لِمَا أَرَاهُ مِنْ ضَحَالَةِ وَعْيِ النَّاسِ
وَخَاصَّةً شَبَابِ الصَّفْوَةِ الَّذِينَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا عِدَّةً أُمَّتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ، وَلِذَلِكَ أَرْجُو أَيُّهَا
الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَلَّا تَقْلُقَ بِشَأْنِي وَمَا أَحْسَهُ مِنْ قَلْقٍ وَضَيْقٍ.

قُلْتُ لِلْفَتَى وَقَدْ أَثَارَ فِي نَفْسِي مَزِيدًا مِنْ حُبِّ الإِسْتِطْلَاعِ، وَالَّذِي زَادَ مِنْ قَلْقِي وَتَطَلُّعِي
لِمَعْرِفَةِ مَا أَهَمَّهُ وَكَدَّرَ خَاطِرَهُ مِنْ سُلُوكِ النَّاسِ عَامَّةً وَصَفْوَتِهِمْ خَاصَّةً: لَا عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ،
أَخْبَرْنِي عَمَّا يَشْغَلُ بَالَكَ، فَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ أَمْرٌ مِهِمْ فِيهِ دَرْسٌ وَعِظَةٌ؛ لَعَلِّي أُعِينُكَ عَلَيْهَا
وَأُفِيدُ مِنْهَا.

قَالَ الْفَتَى: أَنْتَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الشَّيْخُ أَنَّنِي هُنَا بَعِيدٌ عَنِ الْأَهْلِ وَغَرِيبٌ عَنِ الدِّيَارِ، وَمِنْ

الطَّبِيعِيَّ أَنْ أَهْتَمَّ بِتَعْرِفِ أَحْوَالِ النَّاسِ مِنْ حَوْلِي، وَأَنْ أَتَّخِذَ مِنْهُمْ صُحْبَةً لِلْمُؤَانَسَةِ
وَالْتَّرْوِيحِ؛ وَفِي يَوْمٍ تَوَاعَدْتُ مَعَ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الزُّمَلَاءِ لِلِقَاءِ وَالتَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ فِي أَحَدِ
الْمُتَنَزَّهَاتِ، وَحِينَ اسْتَقَرَّرْتُ فِي الْمَقَامِ مَعَهُمْ، أَتَى النَّادِلُ بِوِعَاءٍ "جَرْدَلٍ" مَمْلُوءٍ بِالثَّلْجِ
تَتَوَسَّطُهُ زُجَاجَةٌ خَضْرَاءُ وَضَعَهَا عَلَى مَايِدَتِنَا، وَبِالطَّبْعِ لَمْ أَلْبَثُ أَنْ خَمَّنتُ أَنَّ مَا
بِالزُّجَاجَةِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَشْرُوبَاتِ الْخَمْرِيَّةِ الْمُسْكِرَةِ، بِرَغْمِ أَنَّي لَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ رَأَيْتُ
وَاحِدَةً مِنْهَا رَأَى الْعَيْنِ، وَلَكِنْ لِأَنِّي كُنْتُ مُنْذُ الطُّفُولَةِ مِمَّنْ يُحِبُّونَ الْقِرَاءَةَ الْمَوْسُوعِيَّةَ
بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا، لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أَعْرِفَ ذَلِكَ مِمَّا يَرْدُ فِي بَعْضِ الْقِصَصِ مِنْ وَصْفِ
مِثْلِ هَذِهِ الْمَشْرُوبَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ: وَاصَلَ الْفَتَى حَدِيثَهُ وَقَالَ: وَحِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْمَشْرُوبَ، انْتَصَبْتُ وَاقِفًا
وَقُلْتُ لِأَوْلِيكَ الزُّمَلَاءِ: إِنِّي لَا أَرْغَبُ فِي مَجْلِسٍ يُشْرَبُ فِيهِ أَيُّ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِ الْخَمْرِ.
قَالَ الْفَتَى: نَظَرَ إِلَيَّ الزُّمَلَاءُ بِأَنْدِهَاشٍ لِمَا سَمِعُوهُ مِنِّي، وَأَجَابُونِي بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: وَلَكِنْ
لِمَاذَا؟

قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ: سَأَسْأَلُكُمْ سُؤَالَ وَاحِدًا، إِذَا أَجَبْتُمْ عَنْهُ عَرَفْتُمْ السَّبَبَ الَّذِي
دَفَعَنِي إِلَى قَوْلِ مَا سَمِعْتُمُوهُ.

قَالَ الْفَتِيَانِ: وَمَا هُوَ هَذَا السُّؤَالُ؟ هَاتِ السُّؤَالَ وَسَوْفَ نَجِيبُكَ عَنْهُ.
قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ، هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ إِنِّي إِذَا شَرِبْتُ شَيْئًا مِنَ الْمُسْكِرَاتِ أَنْ أَتَصَرَّفَ
تَصَرَّفًا، مَا كُنْتُ أَتَصَرَّفُهُ وَأَنَا لَمْ أَشْرَبِ الْمُسْكِرَ؟
قَالُوا: نَعَمْ، هَذَا أَمْرٌ مُمَكِنٌ.

قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ: وَهَلْ أَنَا مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْحَمَاقَةِ بِحَيْثُ أَضَعُ نَفْسِي فِي مَوْضِعٍ يَصْدُرُ
عَنِّي فِيهِ مَا لَا أُرِيدُ أَوْ أُرْغَبُ فِي فِعْلِهِ وَأَنَا بِكَامِلِ إِرَادَتِي وَوَعْيِي؟!
قَالُوا -وَهُمْ يَأْمُلُونَ أَنْ يُغْرَوْنِي بِالشَّرْبِ وَأَنَا فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْأَمْرِ بِأَسْلُوبِ الْخُطُوءَةِ خُطُوءَةً
كَمَا يَقُولُونَ، فَالْفَ الشَّرَابِ وَأَسْتَهِينُ بِهِ: لَا بَأْسَ، تَذَوِّقُهُ فَقَطْ، وَخُذْ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا تُكْثِرْ.
قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ: لَا، لَنْ أَتَذَوِّقَ الشَّرَابَ وَلَنْ أَشْرَبَهُ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا. عِنْدَهَا قَالَ
لِي السَّبَابُ: وَلَكِنْ لِمَاذَا لَا تُجَرِّبُ؟ فَإِنْ أَعْجَبَكَ شَرِبْتُ، وَإِنْ لَمْ يُعْجِبْكَ تَرَكْتُ.
قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ: لَا، وَلَا هَذِهِ.

فَقَالَ السَّبَابُ: وَلَكِنْ لِمَاذَا؟

قَالَ الْفَتَى: قُلْتُ لَهُمْ: لَا، لَنْ أَجَرِّبَ الشَّرَابَ؛ لِأَنِّي إِنْ جَرَّبْتُ شَيْئًا - مِنْ بَابِ حُبِّ
الِاسْتِطْلَاعِ - فِيمَا لَا أُرْغَبُهُ عَقْلًا، فَأَنَا أَمَامَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنَّهُ لَا يُعْجِبُنِي، وَيَرْفُضُهُ

ذَوْقِي، فَأَنَا فِي غَيِّ عَنْ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ، وَإِنَّمَا أَنْ يُعْجِبَنِي وَأَجِدُ فِيهِ لَذَّةً، بَرِغْمِ أَنْ عَقْلِي يَرْفُضُهُ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنِّي لَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْعُودَةَ إِلَيْهِ حِمَاقَةٌ، وَضَعْفُ إِرَادَةٍ، وَإِهْدَارُ لِلْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ وَالْمَسْئُورِيَّةِ، وَمِنَ الْمُؤَسَفِ أَنَّهُ فِي حَالَةِ تَجْرِبَةٍ مَا تَرَعَّبُ فِيهِ، مِمَّا فِيهِ لَذَّةٌ، أَنَّ الْمُجَرَّبَ لَنْ يَأْسَفَ عَلَى أَنَّهُ جَرَّبَ مَا لَا يَصِحُّ لَهُ أَنْ يُجَرِّبَهُ فَقَطُّ، بَلْ سَتَبَقَى فِي نَفْسِهِ حَسْرَةُ الْجِرْمَانِ مِنْ لَذَّةِ خَاطِئَةٍ آثِمَةٍ سَيَفْتَقِدُهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنِّي لَنْ أُجَرِّبَ مَا يَرْفُضُهُ عَقْلِي وَضَمِيرِي وَلَا أَرْغَبُ فِي مُزَاوَلَتِهِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا إِنْ كَانَ يُعْجِبُنِي طَعْمُهُ أَوْ لَذَّتُهُ، أَوْ لَا يُعْجِبُنِي، إِلَّا أَنْ أَكُونَ مِنَ الْحَمَقِيِّ وَالْجُهْلَاءِ.

لِهَذَا أَيُّهَا الزُّمَلَاءُ فَأَنَا لَنْ أَشْرَبَ، وَلَنْ أُجَرِّبَ، وَأَتْرُكُكُمْ دَاعِيًا لَكُمْ بِالنُّضِجِ وَالْعَقْلِ وَالْهِدَايَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ: قُلْتُ لِلْفَتَى: لِلَّهِ دَرْكُ! مَا قُلْتَهُ عَيْنُ الْوَعْيِ وَالْعَقْلِ وَالِدَيْنِ، وَلَكِنْ كَيْفَ كَانَ لَكَ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ السِّنِّ الْمُبَكِّرَةِ أَنْ يَكُونَ لَكَ كُلُّ هَذَا الْوَعْيِ وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ؟!

قَالَ الْفَتَى: السَّبَبُ يَا سَيِّدِي هُوَ أَوْلَا دَارًا وَأُسْرَةً وَأُمَّمٌ اِحْتَضَنْتَ صِغَارَهَا كَمَا تَحْتَضِنُ الْحَمَامَةُ صِغَارَهَا بِفُؤَادِهَا وَأَجْنِحَتِهَا، وَبِالْحَنَانِ وَالْهُدُوءِ وَالسَّلَامِ فِي الدَّارِ يَرْكُنُ الطِّفْلُ إِلَى

دَارِهِ، وَيَأْوِي إِلَى جَنَاحِ وَالِدَيْنِ وَيَثِقُ بِهِمَا وَيَتَحَلَّى بِصِفَاتِهِمَا.
كَمَا كُنْتُ فِي الدَّارِ فِي صُحْبَةِ مَكْتَبَةِ نَقِيَّةٍ غَنِيَّةٍ بِكُلِّ أَلْوَانِ الْمَعَارِفِ الدِّينِيَّةِ مِنْهَا وَالْأَدَبِيَّةِ
وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَالْأَصِيلَةِ وَالْحَدِيثَةِ وَالْمُعَرَّبَةِ، مِمَّا يُفْتَقُ أَفَاقَ ذَهْنِ النَّاشِئِ
وَيُغْنِي فِكْرَهُ وَعَقْلَهُ وَخَيَالَهُ، وَيَجْعَلُهُ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ فِي صُحْبَةِ خَيْرَةِ الْعُقُولِ وَأَرْشَدِ
الْخَيْرَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ: عِنْدَ هَذَا صَمَتَ الْفَتَى لِحُظَّةٍ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ سَرَحْتُ بِفِكْرِي بَعْدَ مَا جَرَى مَعَ
الزُّمَلَاءِ بِشَأْنِ الْمُسْكِرَاتِ مِنْ حَدِيثٍ، أَتَمَعَّنُ فِيهِ، وَأَحَاوُلُ أَنْ أُدْرِكَ أَبْعَادَ مَا صَدَرَ مِنِّي
عَلَى هَيْئَةٍ رَدِّ فِعْلٍ تَلْقَائِي بِغَيْرِ سَابِقِ إِعْدَادٍ وَلَا تَمَعُّنٍ وَلَا تَفْكِيرٍ.
وَلَقَدْ وَجَدْتُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ، أَنَّ مَا فَعَلْتُهُ وَقَلَّتُهُ لَمْ يَكُنْ بِالدَّرَجَةِ الْأُولَى إِلَّا صَدَى
لِدَرْسٍ مِنْ دُرُوسِ الْأُمُومَةِ وَحَوَارَاتِهَا، حِينَ كُنْتُ طِفْلاً صَغِيرًا أَنَسُ بِأُمِّي وَهِيَ تُؤَنِّسُنِي
وَتُحَدِّثُنِي، وَفِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ تِلْكَ الطُّفُولَةِ حَدَّثْتَنِي أُمِّي عَنْ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَيِّ تَسَبَّبَ فِي
قَتْلِ أَحَدِ أَصْحَابِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مَخْمُورًا فَاقْدَ الْوَعْيِ وَالْإِرَادَةَ بِسَبَبِ حَالَةِ السُّكْرِ فَأَقْدَمَ عَلَى
قَتْلِ صَاحِبِهِ.

وَأَذْكُرُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ مَا وَقَرَفِي نَفْسِي غَائِمًا الْيَوْمَ مِنْ مَعَانِي كَلِمَاتِ الْخَمْرِ وَالسُّكْرِ

وَعَيْبَةِ الْإِرَادَةِ وَالْوَعْيِ، وَبِالطَّبْعِ أَكَّدَتِ الْقِرَاءَةُ وَالثَّقَافَةُ مَعَانِي تِلْكَ الْقِصَّةِ وَذَلِكَ الْجَوَازُ
الْأُسْرِيِّ وَمَغْزَاهَا فِي قَرَارَةِ نَفْسِ الطِّفْلِ وَضَمِيرِهِ، بِشَكْلِ غَيْرِ وَاوِعٍ، مِمَّا نَمَى فِي نَفْسِيَّةِ الطِّفْلِ
وَوَجْدَانِهِ حِسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَإِدْرَاكَ الْعَوَاقِبِ وَضَرَرَ الْمُسْكِرَاتِ وَالْمُخَدِّرَاتِ، بِرَغْمِ أَنَّي
يَا سَيِّدِي لَمْ أَرَفِي حَيَاتِي فِي طُفُولَتِي وَقَبْلَ نُزُولِي وَأَنَا شَابٌّ يَافِعٌ فِي هَذَا الْبَلَدِ وَهَذِهِ الدِّيَارِ
شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمُسْكِرَاتِ.

نَعَمْ يَا سَيِّدِي لَا بُدَّ أَنَّهُ لَقَدْ كَانَ لِذَلِكَ الْخِطَابِ التَّرْبَوِيِّ الْأُسْرِيِّ فِي أَعْمَاقِ الْوَجْدَانِ
وَالضَّمِيرِ أَثْرُهُ الْحَيُّ الْبَاقِي الَّذِي غَرَسَ حِسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَضَبَطَ النَّفْسَ فِي أَعْمَاقِ الطِّفْلِ
قِيَمَةً أَخْلَاقِيَّةً وَحِسًّا لَا يَنْمَحِي.

قَالَ الشَّيْخُ: قُلْتُ لِلْفَتَى: إِنِّي أَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ أَيْضًا لَسْتَ مِمَّنْ يُدَخِّنُونَ التَّبَعِ، بِرَغْمِ
أَنَّهُ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْآفَاتِ الَّتِي يَسْتَهِينُ بِهَا الشَّبَابُ، وَتَنْتَشِرُ بَيْنَ جُمُوعِهِمْ، فَهَلْ لِي أَنْ
أَعْرِفَ كَيْفَ نَجَوْتُ مِنْ هَذَا الدَّاءِ أَيْضًا؟ خَاصَّةً وَأَنَّكَ ذَكَرْتَ لِي أَنَّ وَالِدَيْكَ مِنْ جِيلٍ وَقَعَ
فِي شِرَاكِ التَّدْخِينِ، لَا عَنِ اسْتِهَانَةٍ أَوْ اسْتِهْتَارٍ، وَلَكِنْ لِأَنَّ التَّبَعِ (الدُّخَانَ) قُدِّمَ لِذَلِكَ
الْجِيلِ عَلَى أَنَّهُ وَسِيلَةٌ تَسْلِيَّةٌ وَتَمْضِيَّةٌ لِلْوَقْتِ، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ شَبَابُ ذَلِكَ الْجِيلِ الْكَثِيرِ عَن
أَضْرَارِهِ سِوَى أَنَّهُ رَبَّمَا كَانَ وَسِيلَةً لِضَيَاعِ الْمَالِ فِيمَا لَا فَائِدَةَ حَقِيقِيَّةً تُرْتَجَى مِنْ وِرَائِهِ.

قَالَ الْفَتَى: نَعَمْ صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فِيمَا قُلْتَ، وَفِي هَذَا دَرَسٌ تَرْبَوِيٌّ عَظِيمٌ تَعَلَّمْتُهُ مِنْ وَالِدِي يَرْحَمُهُ اللَّهُ؛ فَوَالِدِي كَانَ قَدْ وَقَعَ -غَفْلَةً وَجَهْلًا- فِي شِرَاكِ التَّدْخِينِ وَالْإِدْمَانِ عَلَيْهِ، كَمَا ذَكَرْتُ، وَحِينَ انْتَشَرَتِ الْمَعْرِفَةُ، وَأَدْرَكَ النَّاسُ مَخَاطِرَ التَّدْخِينِ، كَانَ دَاءُ إِدْمَانِ التَّدْخِينِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ وَالِدِي، وَمِنْ كَثِيرٍ غَيْرِهِ مِنْ أَبْنَاءِ جِيلِهِ، وَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سُبُلًا مُمَكِّنَةً لِعِلَاجِ الْإِدْمَانِ عَلَى التَّدْخِينِ.

لَقَدْ كَانَ أَبِي أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ يُدَخِّنُ "الشَّيْشَةَ" -وَقَدْ تُسَمَّى "الأَرْجِيلَةَ"، أَوْ "النَّارِجِيلَةَ، أَوْ" الْجَوْزَةَ" -، وَكَانَتِ الْوَالِدَةُ يَرْحَمُهَا اللَّهُ هِيَ أَيْضًا تُدَخِّنُ "السِّيَجَارَةَ اللَّفَّ" الَّتِي كَانَتْ مُتَاحَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

فَلَمْ يَكُنِ الْوَالِدَانِ يَرْحَمُهُمَا اللَّهُ يَاسَيْدِي الشَّيْخُ قُدْوَةً طَيِّبَةً لَصِغَارِهِمْ فِي أَمْرِ التَّدْخِينِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَاسَيْدِي الشَّيْخُ فَقَدْ عَلَّمَنِي وَالِدِي بِهَذَا الشَّانِ دَرَسًا تَرْبَوِيًّا مُهِمًّا وَهُوَ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَتِ الْقُدْوَةُ مُهِمَّةً لِحُسْنِ التَّرْبِيَةِ، إِلَّا أَنَّ الْأَسَالِيبَ التَّرْبَوِيَّةَ الصَّحِيحَةَ يُمَكِّنُهَا حَتَّى فِي غَيْبَةِ الْقُدْوَةِ، أَنْ تَحْيِيَ النَّاشِئَةَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، بَلْ إِنَّهُ إِذَا لَمْ تُوجَدِ الْخِبْرَةُ التَّرْبَوِيَّةُ الْجَيِّدَةُ، أَوِ الْوَعْيُ التَّرْبَوِيُّ الْجَيِّدُ، فَإِنَّا نَجِدُ أَنَّ بَعْضَ أَبْنَاءِ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْأَخْيَارِ لَا يَنْشَوُونَ عَلَى شَاكِلَةِ آبَائِهِمْ.

نَعَمْ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ؛ فَإِنَّ أَبِي لَوْ بَقِيَ يُدَخِّنُ "شَيْشَتَهُ" صَامِتًا فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنِّي كُنْتُ
- مِثْلَ كَثِيرِينَ غَيْرِي - سَأَنْتَهزُ فُرْصَةَ غَيْبَتِهِ لِأَجْلِسَ إِلَى مَقْعَدِهِ وَأُمْسِكَ بِ"لِي" - أَيِ
(خُرْطُومِ) - الشَّيْشَةِ بِكُلِّ مَا تَمَثَّلُهُ جِلْسُهُ "الشَّيْشَةَ" يَا سَيِّدِي عِنْدَ الْمُسْتَهْتَرِينَ الْجُهْلَاءِ
مِنَ مَفَاهِيمِ وَجَاهَةِ الرَّجُولَةِ الزَّائِفَةِ.

وَلَكِنِ أَبِي - أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ - لَمْ يَجْلِسْ صَامِتًا، بَلْ كَانَ كَثِيرَ الشُّكُوى وَالتَّدْمُرِ أَمَامَ
أَبْنَائِهِ مِنْ ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَمِنْ تَمَكُّنِ الإِدْمَانِ مِنْهُ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَرْكَ
التَّدْخِينِ، وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَاءِ أَنْ "يَتُوبَ" اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُنَجِّيَهُ مِنْ مَضَارِهِ.

وَلَا أَنْسَى - يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ - يَوْمًا كُنْتُ أَنْظِفُ لِوَالِدِي "شَيْشَتَهُ" بِ"السَّيْخِ" الْحَدِيدِيِّ
فَاسْتَوْقَفَنِي وَقَالَ لِي: هَلْ تَرَى يَا بُنَيَّ هَذَا الْقَطْرَانَ الْأَسْوَدَ الَّذِي عَلَيَّ "السَّيْخِ"؟ قُلْتُ: نَعَمْ
يَا أَبِي. قَالَ: مِثْلَ هَذَا الْقَطْرَانَ الْأَسْوَدِ يَا بُنَيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَثْلُهُ فِي صَدْرِي وَفِي ثَنَائِي رِئْتِي.
لِذَلِكَ لَمْ أَكُنْ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ بِالْجَاهِلِ الْغَرِّ الْأَحْمَقِ الَّذِي يَرَى أَبَاهُ يَتَّدْمَرُ مِنْ أَمْرِ ضَارٍّ
وَيَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ مِنْهُ، وَأَنْ يَرَى الْقَطْرَانَ الْأَسْوَدَ الَّذِي يُدْمِرُ الرِّئَةَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ
يَرْغَبُ فِي ارْتِكَابِ حِمَاقَةِ التَّدْخِينِ.

نَعَمْ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ، لَمْ أَدَخِّنْ، وَلَمْ يَخْطُرْ قَطُّ بِبَالِي أَنْ أَدَخِّنَ، وَلَا يُمَكِّنُ بِمِثْلِ هَذَا



الأب يحذر ابنه ويرشده مغبة التدخين والمسكرات والمخدرات

الأُسْلُوبِ التَّرْبُويِّ لِأَيِّ نَاشِئٍ عَاقِلٍ أَنْ يَضُرَّ نَفْسَهُ بِالتَّدْخِينِ أَوْ بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ ضَارٍّ مِنَ
المُسْكَرَاتِ وَالمُخَدِّرَاتِ الَّتِي يَسْتَهينُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الشَّبَابِ، وَيَقَعُونَ بِالحَمَاقَةِ وَالاستَهْتَارِ فِي
بَرَائِئِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ: عِنْدَ ذَلِكَ أَطْرَقَ الفَتَى بِبَصَرِهِ إِلَى الأَرْضِ بُرْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ لِي: لَمْ يَكُنْ
ذَلِكَ هُوَ الدَّرْسُ الوَحِيدُ الَّذِي عَلَّمَنِي إِياهُ أَبِي، بَلْ هُنَاكَ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ دَرَسْتُ قَدْ يَكُونُ
أَهَمَّ وَأَشْمَلَ مِنْ ذَلِكَ.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ الدَّرْسِ يَا سَيِّدِي أَنَّ عَلَى الوَالِدِينَ، وَعَلَى المُرَبِّينَ وَالمُعَلِّمِينَ قَبْلَ
سِوَاهُمْ، أَنَّهُمْ إِذَا أَخْطَأُوا فِي أَمْرٍ أَوْ تَصَرَّفُوا بِعَظَمَةٍ، وَلَا سِيَّما لِلصِّغَارِ وَمَنْ هُمْ
قُدُوةٌ لَهُمْ، وَأَنْ يَعْتَذِرُوا عَنِ أَخْطَائِهِمْ وَإِسَاءَاتِهِمْ، لَا أَنْ يَلُودُوا بِالصَّمْتِ عَنَّا، أَوْ أَنْ
يُكَابِرُوا وَيَبْذُلُوا الجَهْدَ لِتَبْرِيرِهَا، فَذَلِكَ يَا سَيِّدِي كَمَا يَقُولُونَ: "عُذْرًا قَبِيحٌ مِنْ ذَنْبٍ"، فَلَنْ
يَقِفَ أَثْرُ أَفْعَالِهِمْ عَلَيَّ مَا اقْتَرَفُوا، بَلْ سَيَكُونُ ذَلِكَ دَرَسًا تَرْبُويًّا سَيِّئًا لِصِغَارِهِمْ وَمَنْ هُمْ
تَحْتَ مَسْئُولِيَّتِهِمْ وَعَهْدَتِهِمْ، وَسَيَذْهَبُ كَثِيرٌ مِنْ جُهودِهِمُ التَّرْبُويَّةُ وَتَوَجُّهَاتِهِمْ لِهُؤُلَاءِ
الصِّغَارِ هَبَاءً مَنثورًا.

لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ القِصَصُ وَالنَّمَاذِجُ الَّتِي ذَكَرَهَا لِي ذَلِكَ الفَتَى النَّابِهُ يَا بَيْدَبَا مِثَالًا حَيًّا

عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّرْبِيَةِ الْأُسْرِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ السَّلِيمَةِ فِي تَوْعِيَةِ الْأَبْنَاءِ وَغَرْسِ قِيَمِ الْأَخْلَاقِ وَحِسِّ
الْمَسْئُولِيَّةِ فِي أَصْلِ وَعِي النَّاشِئَةِ وَوِجْدَانِ الْأَجْيَالِ.

إِنَّ مَا نَرَاهُ يَا بَيْدَبَا فِي بَعْضِ الْبِلَادِ مِنْ ضَيَاعِ كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَابِ وَسُوءِ خُلُقِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ
وَطَيْشِ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَضَعْفِ حِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ فِي نَفُوسِهِمْ، وَانْغِمَاسِهِمْ فِي الْمُمَارَسَاتِ
الضَّارَّةِ بِاسْتِهْتَارٍ وَعَدَمِ مُبَالَاةٍ أَوْ إِذْرَاكِ لِلْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ الَّتِي تُدْمِرُ نَفُوسَهُمْ وَعُقُولَهُمْ
وَتُدْفَعُهُمْ إِلَى الْأَوَانِ مِنَ الْأَذَى وَالْجَرِيمَةِ، وَتَفْسِيٍّ مِثْلُ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ وَالْجَرَائِمِ كُلِّ ذَلِكَ
دَلَائِلُ عَلَى انْحِطَاطِ التَّرْبِيَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَهِيَ مُؤَشِّرَاتٌ تُؤَدِّنُ
بِأَوْخَمِ الْعَوَاقِبِ لِهَؤُلَاءِ الشَّبَابِ وَهَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ، لِمَا سَيُعَانُونَهُ فِي حَيَاتِهِمْ وَفِي
مُسْتَقْبَلِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِ بِلَادِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنْ آفَاتٍ وَأَزْمَاتٍ.

أَرْجُو يَا بَيْدَبَا أَنْ تُنذِرَ جَمِيعَ رِفَاقِكَ وَتَتَلَامَذْتِكَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْمُعَلِّمِينَ أَلَّا يُفَرِّطُوا فِي آدَاءِ
وَاجِبَاتِهِمْ التَّرْبَوِيَّةِ نَحْوَ أَبْنَائِهِمْ وَتَتَلَامَذْتِهِمْ؛ لِأَهْمِيَّةِ ذَلِكَ لَهُمْ وَلِمُسْتَقْبَلِ أُمَّتِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ.
يَقُولُ بَيْدَبَا: عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ أَطْرَقَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةَ بَرَأْسُهُ، وَهُوَ غَارِقٌ فِي أَفْكَارِهِ وَتَأْمُلَاتِهِ
وَذِكْرِيَّاتِهِ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: دَعْنِي أُكْرِرُ عَلَيْكَ يَا بَيْدَبَا، وَعَلَى إِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ وَمَنْ
سَيَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ تَتَلَامِيذَتِكَ وَقُرَّاءِ أَسْفَارِ حِكْمَتِكَ، أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ وَكُلِّ

قَادَتَهَا وَالْمُصْلِحِينَ فِيهَا أَنْ يَجْعَلُوا التَّرْبِيَةَ وَالتَّعْلِيمَ أَوْلَوِيَّةً فِي إِنْفَاقِهِمْ وَرِعَايَةِ شُؤْنِ شُعُوبِهِمْ، وَلَيْسَ الْمُهْمُّ أَنْ تَنْجَحَ جُهُودُهُمْ فَقَطْ فِي التَّعْلِيمِ وَتَزْوِيدِ النَّاسِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقُدْرَاتِ الْمَطْلُوبَةِ لِمَا يُسَمُّونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ "سُوقَ الْعَمَلِ"، فَلُقْمَةُ الْعَيْشِ، وَقُدْرَةُ الْأَدَاءِ، وَتَسْخِيرُ الْمَوَارِدِ، أَمْرٌ مِهِمْ وَضَرْوَرِيٌّ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، وَلَا بُدَّ مَعَهُ مِنْ حُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَسَلَامَةِ الْوَعْيِ وَإِخْلَاصِ الْأَدَاءِ، فَالْأَلِيَّاتُ وَالْأَدَوَاتُ إِذَا لَمْ يُحَسَّنْ اسْتِخْدَامُهَا، وَلَمْ يُعْتَنَ بِسَلَامَةِ غَايَاتِهَا، فَلَا بُدَّ لَهَا فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ مِنْ أَنْ تَضُرَّ أَصْحَابَهَا، وَتَنْقَلِبَ عَلَيْهِمْ نِقْمَةً وَأَدَاةً لِلشَّرِّ وَالتَّدْمِيرِ، وَبِوَسَائِلِ أَقْوَى وَأَسْرَعُ وَأَشَدُّ فَتْكَ، عَلَى مَا تَرَى فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنَ التَّحَلُّلِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَالتَّفَكُّكِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَانْتِشَارِ الْحُرُوبِ وَالصِّرَاعَاتِ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، وَشِدَّةِ فَتْكِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَدَوَاتِ الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ وَالتَّدْمِيرِ، وَمَا سَيَأْتِي سَيَكُونُ وَلَا رَيْبَ أَشَدُّ وَأَنْكَى.

تِلْكَ يَا بَيْدَبَا حَالُ الشُّعُوبِ الَّتِي نَجَحَتْ فِي التَّعْلِيمِ، وَلَكِنَّهَا فَشَلَتْ فِي التَّرْبِيَةِ، وَأَسْوَأُ مِنْهَا تِلْكَ الشُّعُوبُ الَّتِي فَشَلَتْ فِي التَّعْلِيمِ وَفِي التَّرْبِيَةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، وَلَكِنَّ لَا يَصْعُبُ عَلَيْكَ يَا بَيْدَبَا أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ الْأُمَّةَ إِنْ قَدْ نَجَحَتْ فِي التَّعْلِيمِ أَوْ لَمْ تَنْجَحْ؛ فَإِنَّ قُدْرَاتِ شَبَابِهَا تَتَّضِحُ بِسُهُولَةٍ فِي تَفُوقِ إِمْكَانَاتِهِمْ وَقُدْرَاتِهِمْ الْإِبْدَاعِيَّةِ الْمِهْنِيَّةِ أَوْ تَدْنِيهَا، وَفِي ارْتِفَاعِ أَوْ انْخِفَاضِ

مَعَدَّلَاتِ إِنْتَاجِهِمْ، وَمَدَى تَدَنِّيِ الْبَطَالَةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ.
وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ وَالْأَدَقَّ هُوَ تَقْدِيرُ نَقَاءِ الثَّقَافَةِ وَنَجَاحِ التَّرْبِيَةِ، وَرُقِيَّ الْأَخْلَاقِ وَهَذَا كَمَا ذَكَرْتُ
لَكَ تَلَمُّسُهُ فِي حُسْنِ سُلُوكِ شَبَابِهِمْ، وَمَدَى نُضْجِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَبَذْلِهِمْ وَحُبِّهِمْ لِلْخَيْرِ
وَسُلُوكِهِمْ سُبُلَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَتَقْدِيرِهِمْ لِلْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْعَامَةِ.
إِنِّي لَا أَذْرِي يَا بَيْدَبَا أَيُّ نَوْعٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ لَدَى تِلْكَ الشُّعُوبِ الَّتِي يَقَعُ أَعْدَادُ كَبِيرَةٌ مِنْ
شَبَابِهَا فَرِيَسَةَ الْمُكَيِّفَاتِ وَالْمُسْكِرَاتِ وَالْمُخَدِّرَاتِ الَّتِي لَمْ يَبْقَ ضَرَرُهَا، عِلْمًا وَعَقْلًا،
خَافِيًا عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى قَدْرٍ أَعْظَمَ مِمَّا نَتَّصِرُ مِنْ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ وَأَنْعِدَامِ حِسِّ
الْمَسْئُولِيَّةِ وَسُوءِ التَّرْبِيَةِ. وَلَيْسَ ضَرَرُ هَذِهِ السُّلُوكِيَّاتِ الْفَادِحِ جَسَدِيًّا فَقَطُّ فِي كُلِّ
أَعْضَاءِ الْجِسْمِ الْأَسَاسِيَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الدِّمَاغُ وَالْقَلْبُ وَالْكَبِدُ؛ بَلْ إِنَّ ضَرَرَهَا الْفَادِحُ
الْأَخْطَرُ هُوَ مَا يَنْجُمُ عَنْهَا مِنْ تَدْمِيرَاتٍ لُصْحَايَاهَا فِي قُورَاهُمْ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ
وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِدِينِيَّةِ، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ نَرَى مَا نَرَى، وَنَسْمَعُ مَا نَسْمَعُ، وَنَجِدُ أَنَّهُ يَغْلِبُ،
بِسَبَبِ الْإِهْمَالِ الْعِلْمِيِّ التَّرْبَوِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ السَّبَابِ أَنْعِدَامِ الْوَعْيِ وَعَدَمِ
تَقْدِيرِ الْمَسْئُولِيَّةِ؛ فَتَرَاهُمْ مُنْغَمِسِينَ فِي هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ الَّتِي تُدَمِّرُ صِحَّتَهُمْ، وَتَقْضِي عَلَى
زَهْرَةِ شَبَابِ شُعُوبِهِمْ وَعِدَّةِ أُمَّتِهِمْ شَبَابِهِمْ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ، وَقَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْعَادَةُ وَالْمَأْلُوفُ

وَضَعْفُ الْوَعْيِ وَسُوءُ التَّرْبِيَةِ، مِمَّا جَرَدَهُمْ مِنْ كُلِّ وَعْيٍ بِالتَّبَصُّرِ، وَحِسَابِ الْعَوَاقِبِ، مِثْلَ
 هَذَا يَا بَيْدَبَا لَا يَقَعُ وَلَا يَتَفَشَّى بَيْنَ شَبَابِ أُمَّمٍ وَشُعُوبٍ بَدَلَتْ جُهُودَهَا، وَأَحْسَنْتَ أَدَاءَهَا فِي
 شُؤُونِ الثَّقَافَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّوَعُّبِ، وَجَعَلْتَهَا أَوْلَوِيَّةً فِي تَنْشِئَةِ أَجْيَالِهَا، وَرِعَايَةِ أَبْنَائِهَا وَبَنَاتِهَا.
 إِنَّ مَرَضَ التَّدْخِينِ يَا بَيْدَبَا وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنَ التِّصَاقِ الْكَرْبُونِ الْأَسْوَدِ الْمُحْتَرِقِ
 بِحَوَيْصَلَاتِ رِيَّاتِ الشَّبَابِ الْمُدْخِنِينَ، هُوَ، وَكُلُّ مَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ فِي مَنْ أَمْرَاضِ
 الْإِدْمَانِ عَلَى الْمُسْكِرَاتِ وَالْمُكَيِّفَاتِ وَالْمُخَدِّرَاتِ، وَمَا تَجْرُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْأَمْرَاضُ الْعَقْلِيَّةُ
 وَالْجَسَدِيَّةُ مِنْ أَمْرَاضِ عَصَبِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ مُدْمِرَةٍ، وَخَاصَّةً إِذَا بَلَغَتْ حَدَّ
 الْإِدْمَانِ، فَإِنَّهَا تُصْبِحُ دَمَارًا لِلْمُدْمِنِ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْ تَدْمِيرِهِ عَقْلِيًّا وَدِمَاعِيًّا وَنَفْسِيًّا،
 وَلِلْأَسَفِ فَإِنَّ أَثْرَ التَّدْخِينِ الْمُدْمِرِ لَا يَقِفُ عَلَى الْمُتَعَاطِي وَالْمُدْمِنِ، بَلْ يَمْتَدُّ أَثْرُهُ إِلَى مَنْ
 حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَحْبَابِهِ نَفْسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا بِمَا قَدْ يَصِلُ جَسَدِيًّا إِلَى الْإِعْتِدَاءِ الْإِجْرَامِيِّ
 وَالْقَتْلِ بِحَقِّهِمْ، وَقِيَ اللَّهُ يَا بَيْدَبَا أَبْنَاءَنَا مِنْ شَرِّ ذَلِكَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، إِنَّهَا أَشْبَهُ مَا تَكُونُ
 حَقِيقَةً وَمَعْنَىً بِالسُّحْبِ السَّوْدَاءِ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَوْتَ وَالْهَلَكَ؛ بِمَا يَمْلَأُ الْجَوْفَ مِنَ
 الصَّوَاعِقِ الْحَارِقَةِ الَّتِي تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ تَلَامِسُهُ، وَتَفْرَعُ فِي الْأَحْشَاءِ وَالْأَدْمِغَةِ صَوَاعِقِهَا وَكُلَّ
 مَا تَحْمِلُهُ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ فِي الرَّأْسِ وَالرِّئْتَيْنِ وَالْأَحْشَاءِ، وَلَا وَقَايَةَ مِنْ هَذِهِ الصَّوَاعِقِ وَمِنْ

شُرورِهِدِهِ الْمُمَارَسَاتِ الْمُدْمِرَةِ الْغَيْبِيَّةِ السَّيِّئَةِ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَدِرَايَةٌ عَنْ مَهَالِكِهَا إِلَّا بِالْحَذَرِ مِنْهَا، وَالْابْتِعَادِ عَنْ مَجَالِهَا، وَتَجَنُّبِ كُلِّ صُحْبَةٍ أَوْ طَرِيقٍ يُؤَدِّي إِلَيْهَا. إِنَّ الْأُمَّمَ وَالشُّعُوبَ الَّتِي لَمْ تُحْسِنْ تَرْبِيَةَ نَاشِئَتِهَا لَنْ تَنْفَعَهَا جُودَةُ التَّعْلِيمِ وَخِدَاهَا؛ لِأَنَّ إِهْمَالَ هَذِهِ الشُّعُوبِ فِي تَرْبِيَةِ نَاشِئَتِهَا وَتَوْعِيَّتِهِمْ سَيَعُودُ عَلَيْهِمْ بِأَعْتَى الْأَفَاتِ، وَبِأَفْدَحِ الْخَسَائِرِ وَالْانْحِرَافَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالْجَرَائِمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا، وَهُوَ يَعُودُ بِذَاكِرَتِهِ إِلَى كُلِّ ذَلِكَ، وَإِلَى كُلِّ مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُّوطةَ مِنْ حَدِيثٍ وَحِوَارٍ: لَقَدْ أَصَابَ الرَّحَّالَةَ ابْنُ بَطُّوطةَ فِي كُلِّ مَا قَالَ، وَهُوَ مَا وَافَقَهُ عَلَيْهِ أَيْضًا بَطُّوطةَ قِصَّةِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةِ التُّرَاثِيَّةِ الرَّحَّالَةَ الشَّهِيرِ سُنْدِبَادُ، الَّذِي يَذْكُرُ ابْنَ بَطُّوطةَ أَنَّهُ أَيْضًا حَظِيَ قَبْلَ ذَلِكَ بِزِيَارَةِ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينِ، وَأَنَّهُ يَتَّفِقُ مَعَهُ فِي الْإِعْجَابِ بِنِظَامِ الْجَزِيرَةِ وَأَهْلِهَا، وَأَنَّ سِرَّ نَجَاحِ الْفَرْدِ وَنَجَاحِ الْأُمَّمِ إِنَّمَا يَكْمُنُ فِي نَوْعِيَّةِ الْفَرْدِ، وَنَوْعِيَّةِ الْمُواطِنِ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ تَتَطَلَّعُ إِلَى مُسْتَقْبَلِ زَاهِرٍ يَسْعَدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، وَيَعْرِزُ الْمُواطِنُ، أَنْ تَنْظُرَ كَيْفَ تُرَبِّي أبنَاءَهَا، وَأَنْ تَعْلَمَ أَيَّةَ رُؤْيَا كُونِيَّةٍ تُقَدِّمُهَا لَهُمْ، وَأَيَّةَ تَرْبِيَّةٍ وَكِرَامَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ تَغْرِسُهَا فِي وَجْدَانِهِمْ، وَأَيَّةَ قُدْرَةٍ وَدَرَجَةٍ عِلْمِيَّةٍ تُوفِّرُهَا لَهُمْ، وَأَيَّ إِعْلَامٍ مُخْلِصٍ نَزِيهِ يُبَصِّرُهُمْ بِحَالِ وَقَائِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَأَيَّةَ مُؤَسَّسَاتٍ عَامَّةٍ تَرْعَى

مَصَالِحَهُمْ، وَأَيُّ دُسْتُورٍ وَأَيُّ قَوَانِينِ تُقِيمُ الْعَدْلَ وَتُوفِّرُ التَّكَافُلَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.
عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، قَالَ الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا: بِهَذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ الذَّكِيَّةِ النَّقَازَةِ انْتَهَى فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ حَدِيثُ الرَّحَّالَةِ الْعَظِيمِ ابْنِ بَطُوطَةَ عَنْ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ، وَعَمَّا رَأَهُ فِيهَا مِنْ بَعْضِ
الْعَجَائِبِ وَالْعَبَرِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأَنَّ أَنْ أَتْرِكَ الْعَلَّامَةَ الْحَكِيمَ الرَّحَّالَةَ ابْنَ بَطُوطَةَ قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَهُ
عَنْ أَمْرِهِمْ لَمْ يُحَدِّثْنَا عَنْهُ، وَأَنْ نَسْمَعَ رَأْيَهُ فِيهِ، وَعَمَّا رَأَهُ بِشَأْنِهِ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الرَّائِعَةِ.
قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْأَخُ الرَّحَّالَةُ الْحَكِيمُ؛ لَقَدْ حَدَّثْنَا حَدِيثًا شَيْقًا رَائِعًا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شُؤُونَ
جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ، وَمَا شَاهَدْتُهُ فِيهَا مِنْ آيَاتِ الْجَمَالِ وَالْإِعْمَارِ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تُحَدِّثْنَا عَنْ أَمْرَيْنِ
مُهْمَيْنِ نَحِبُّ أَنْ نَسْمَعَ مِنْكَ عَنْهُمَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْبَدِيدَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ: كَفَانَا يَا بَيْدَبَا مَا تَحَدَّثْنَا فِيهِ الْيَوْمَ عَنْ أَحْوَالِ وَادِي
جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ، وَعَنْ مُؤَسَّسَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ، وَأَنَّ مَصْدَرَ ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى عِنَايَتِهِمْ
بِشُؤُونَ التَّرْبِيَةِ وَالِدَّعْوَةِ وَالتَّوَعِيَةِ وَالْإِعْلَامِ، وَدَعَّ مَا بَقِيَ مِنَ الْحَدِيثِ إِلَى لِقَاءِ غَدٍ
لِاسْتِكْمَالِ مَا يَهْمُكُمْ مِنَ الْأُمُورِ؛ فَلَنْ يَسْأَلَ فَيْلَسُوفٌ حَكِيمٌ مُجَرَّبٌ مِثْلَكَ يَا بَيْدَبَا عَنْ أُمُورٍ
تُهْمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أُمُورًا خَطِيرَةً وَشُؤُونًا عَظِيمَةً الْأَهْمِيَّةِ، فَدَعْنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا وَنَحْنُ فِي
حَالِ الْإِقْبَالِ وَالنَّشَاطِ غَدًا، بِإِذْنِ اللَّهِ.



الطير الطليق يفرد

عِنْدَ الْفَجْرِ يَصْدَحُ الْبُلْبُلُ الطَّلِيْقُ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي مَا إِنْ أَخَذَ بِيَدَبَا وَرَفَاقَهُ مَقَاعِدَهُمْ فِي مَجْلِسِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوْطَةَ، بَادَرَهُ الشَّيْخُ -وَهُوَ يَرشُفُ كُوبًا مِنْ خَلَاصَةِ الزُّهُورِ الْمُفِيْدَةِ الْفَوَاحَةِ فِي مَوْدَةٍ وَبَشَاشَةٍ- بِسُؤَالِهِ عَنِ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَهْمَانِهِ وَيَشْغَلَانِ بَالَهُ وَبَالَ رِفَاقِهِ مِنْ سُؤُونَ جَزِيْرَةِ الْبَنَائِيْنَ وَأَهْلِهَا، وَالَّتِي لَمْ يُحَدِّثْهُمْ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ.

قَالَ الرَّحَالَةُ ابْنُ بَطُوْطَةَ: وَمَا هُمَا هَذَانِ الْأَمْرَانِ اللَّذَانِ يَشْغَلَانِ بَالَ حَكِيمٍ فَيَلْسُوفِ مِثْلِكَ يَا بِيَدَبَا؟

قَالَ بِيَدَبَا: الْأَمْرُ الْأَوَّلُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ هُوَ الْحُرِّيَّةُ، وَلِنَبْدَأُ بِهَا، فَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ لَمْ تُحَدِّثْنَا عَنِ الْحُرِّيَّاتِ فِي تِلْكَ الْجَزِيْرَةِ، وَمَاذَا كَانَتْ تَعْنِي عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟ وَكَيْفَ كَانُوا يُمَارِسُونَهَا؟ فَالْحُرِّيَّةُ مِنْ أَعْوَصِ الْمَشْكَلَاتِ الَّتِي تُحَيِّرُ النَّاسَ، وَالَّتِي يُعَانِي إِشْكَالَاتِهَا كَثِيْرٌ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَتَخَبَّطُ فِي تَلْمُسِ طَرِيقِهَا كَثِيْرٌ مِنَ الْبِلَادِ.

فَمِنَ الْبِلَادِ عَلَى زَمَانِنَا مَنْ يُطْلِقُ الْحُرِّيَّةَ يَا سَيِّدِي حَتَّى تُصْبِحَ أَقْرَبَ إِلَى الْفَوْضَى وَضِيَاعِ الْمَسْؤُولِيَّاتِ وَالْأَخْلَاقِ؛ فَتَقْطَعُ الْأَوَاصِرُ، وَتَنْشَوُهِ الطَّبَائِعُ، وَتُبَاحُ الْمُوْبَقَاتُ، وَمِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْبُلْدَانِ مَنْ يُضَيِّقُ الْخِنَاقَ عَلَى الْمُوَاطِنِيْنَ كَأَنَّهُمْ صَبِيَّةٌ لَا يَفْقَهُونَ

مَصَالِحَهُمْ، وَتَجِدُ قَلَّةً مِمَّنْ يُدْعَى "صَفْوَةَ الْقَوْمِ" مِمَّنْ بِيَدِهِمُ السُّلْطَةُ يُنْصَبُونَ أَنْفُسَهُمْ
أَوْصِيَاءَ عَلَى كُلِّ النَّاسِ، وَلَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَنَفَّسَ أَوْ يَنْطِقَ، إِلَّا بِمَا يَتَرَاءَى لَهُمْ، وَيَخْدُمُ
مَصَالِحَهُمْ، وَيَأْذِنُ مِنْهُمْ.

فَكَيْفَ كَانَتْ الْحَالُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ؟ وَكَيْفَ كَانَ النَّاسُ وَالْمُوَاطِنُونَ يَتَصَرَّفُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ وَقَرَارَاتِهِمْ وَخِيَارَاتِهِمْ؟ وَهَلْ وَجَدُوا حَلًّا لِهَذِهِ الْمُعْضَلَةِ؟ وَكَيْفَ
اسْتَطَاعُوا مُمَارَسَةَ حُرِّيَّتِهِمْ؟ وَكَيْفَ تَجَنَّبُوا فِي ذَاتِ الْوَقْتِ الْوُقُوعَ فِي ضَرَرِ الْفَوْضَى
الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْخَلَاصِ مِنْ شُرُورِ الْاسْتِبْدَادِ وَأَمْرَاضِهِ وَمَفَاسِدِهِ؟
نَوْدُ يَا سَيِّدِي أَنْ نَسْمَعَ مِنْكَ شَيْئًا مِمَّا رَأَيْتَ وَسَمِعْتَ عَنِ الْحُرِّيَّةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، لَعَلَّنَا
نَجِدُ فِيهَا تَقُولُ بَعْضَ الدَّوَاءِ الَّذِي يَسْتَقِيمُ مَعَهُ أَمْرُ النَّاسِ فِي بِلَادِنَا، وَفِي كُلِّ الْبِلَادِ
وَيَتَحَقَّقُ بِهِ الْإِعْتِدَالُ وَصَلَاحُ الْحَالِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ نَظْرَةً تَفَكَّرُوا وَمَعَانٍ، وَقَالَ لِي: لَقَدْ سَأَلْتِ عَنْ أَمْرِ
مُهِمِّ يَا بَيْدَبَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ فِي عَالَمِ الْبَشَرِ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَفَهُمِهِ وَتَدَبُّرِهِ؛ حَتَّى
يُحَافِظُوا عَلَى أَصْلِ حَقِّ الْحَيَاةِ وَمَعْنَاهَا، وَالْغَايَةِ مِنْهَا، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ عَبَثًا، وَلَا يَصِحُّ أَنْ
نُضَيِّعَهَا سُدَى؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَهْمُ نَابِعًا عَنْ يَقِينٍ وَاقْتِنَاعٍ؛ لِكَيْ يُحَقِّقَ

النَّاسُ تَوَازَنَ حَيَاتِهِمْ، وَيُرشِدُوا سُلُوكَهُمْ، وَيُصْبِحُوا كَمَا أَرَادَ اللَّهُ لَهُمْ مَخْلُوقَاتٍ سَعِيدَةً صَالِحَةً خَيْرَةً؛ تُحَقِّقُ ذَاتَهَا، وَتَسْتَجِيبُ لِحَاجَاتِهَا، وَتُطَلِّقُ طَاقَاتِهَا وَإِبْدَاعَاتِهَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بِالْإِعْمَارِ الصَّالِحِ الْعَادِلِ؛ الَّذِي يُقِيمُونَهُ وَيُسَخِّرُونَهُ كَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ حَلَالًا وَمَتَاعًا طَيِّبًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ الْفَهْمُ هُوَ مَعْنَى الْحَيَاةِ، وَمِيزَانِ الْحِسَابِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ. قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ: نَعَمْ، صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا. فَأَخْبَرْنَا عَمَّا وَجَدْتَ، وَمَاذَا رَأَيْتَ؟ قَالَ ابْنُ بَطُوطَةَ مُجِيبًا بَيْدَبَا وَرِفَاقَهُ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا أَنَّ مَثَلَ حَيَاتِنَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ مَثَلُ حَيَاةِ عُمَّالِ الْوَرْدِيَّاتِ، الَّذِينَ تَأْتِي بِهِمْ إِلَى مَوْقِعِ الْعَمَلِ حَافِلَةٌ ثَقُلُ الْعُمَّالِ لِيُؤَدُّوا عَمَلَهُمُ الْمُنْتَجِ الَّذِي هُمْ مُؤَهَّلُونَ لِلْقِيَامِ بِهِ، وَفِي نِهَآيَةِ وَرْدِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ انْتَهَتْ "وَرْدِيَّتُهُ" تَقُومُ حَافِلَةٌ بِنَقْلِ الْعُمَّالِ الَّذِينَ تَنْتَظِرُهُمْ لِنَقْلِهِمْ إِلَى مَقَرَّاتِ سَكَنِهِمْ؛ حَيْثُ يَنَالُونَ أَجْرَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ وَفَقَّ التَّقَارِيرِ عَمَّا قَدَّمُوهُ مِنْ عَمَلٍ وَأَدَاءٍ وَإِنْتِاجٍ، قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا "إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ"، وَهَكَذَا يَسْتَمِرُّ الْعَمَلُ وَالْإِعْمَارُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى تَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ، كَتَعَاقُبِ الْوَرْدِيَّاتِ، لِتَوْفِيرِ حَاجَاتِهِمْ، وَأَدَاءِ الْعَمَلِ الْبِنَاءِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ وَلِمَنْ مَعَهُمْ.



مَالِ الْحَيَاةِ: إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنَّ شَرًّا فَفَشِيرًا

وَهَكَذَا يَا بَيْدَبَا؛ فَإِنَّ حَيَاةَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ، بِحَاجَاتِهَا وَمُتَعِهَا وَتَسْخِيرَاتِهَا وَإِبْدَاعَاتِهَا
وَمُعَانَاتِهَا، إِنَّمَا هِيَ حَيَاةٌ لَهَا غَايَةٌ إِعْمَارِيَّةٌ إِصْلَاحِيَّةٌ حَضَارِيَّةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ، وَهِيَ حَيَاةٌ لِأَمَدٍ
مُحَدَّدٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا، نَعُودُ بَعْدَهُ إِلَى الْخَالِقِ لِيُقَدِّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا كَشْفَ حِسَابٍ وَتَقْرِيرًا
عَنْ حَصِيلَةِ عَمَلِهِ، وَكَيْفِيَّةِ أَدَائِهِ أَمَانَةَ الْخِلَافَةِ وَإِعْمَارِ الْأَرْضِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ
لِلْحَيَاةِ مَقْصِدٌ وَغَايَةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْغَايَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَيْرَةً، وَهَذَا مَعْنَى تَعَاقُبِ الْأَفْرَادِ
وَالْأَجْيَالِ، فَهُمْ لِبِنَاتٍ تَتْرَى تَتَابَعٍ عَلَى مَدَى بَقَاءِ الْأَرْضِ، وَتُسَخَّرُ خَيْرَاتِهَا وَمَوَارِدُهَا، بِمِيزَانِ
الْعَمَلِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِبْدَاعِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ وَتَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ أَنْ يَكُونَ
خِيَارُ الْأَمَانَةِ وَأَدَاءِ الْاسْتِخْلَافِ الصَّحِيحِ هُوَ إِعْمَارُ الْأَرْضِ إِعْمَارًا بَدِيعًا خَيْرًا عَلَى شَاكِلَةِ
عُمُرَانِ الْكُونِ، فِي جَمَالِهِ وَإِبْدَاعِهِ بِاتِّجَاهِ الْخَيْرِ فِي التَّكَامُلِ وَالتَّنَاسُقِ وَالتَّوَازُنِ وَالْإِعْتِدَالِ؛
لِتَوْفِيرِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ، وَتَجْسِيدِ الْمَعَانِي وَالْقِيَمِ الْخَيْرَةِ، عَلَى أَسَاسِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ
وَالتَّكَامُلِ وَالتَّكَاوُلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلِيُكَبِّحَ الشَّرُّوَكُلُّ مَا يَسْتَتْبِعُهُ هَذَا
الشَّرُّ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى التَّظَالُمِ، وَالْعُدْوَانِ وَضِيَاعِ الْحُقُوقِ،
وَهَدْرِ الْمَسْئُولِيَّاتِ، وَانْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ.

أَلَا تَرَى مَعِيَ يَا بَيْدَبَا أَنَّ مَعْنَى الْحَضَارَةِ وَالْعُمُرَانِ، وَمَعْنَى الْإِسْتِخْلَافِ وَالتَّسْخِيرِ إِنَّمَا يَتَجَسَّدُ فِيهَا حَقِّقُهُ الْإِنْسَانُ، وَمَا يَزَالُ يُحَقِّقُهُ، فِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ عَلَى الْأَرْضِ؛ مِنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَإِبْدَاعٍ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ أَنْ يَقْطَعُوا فِي سَاعَاتٍ مَا كَانُوا يَقْطَعُونَهُ فِي شُهُورٍ وَسِنِينَ؟ أَوَلَيْسَ مِنَ الْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ وَالْخَلَائِقِ مُكَافَحَةُ أَمْرَاضٍ كَانَتْ تَقْضِي عَلَى الْأُلُوفِ الْكَثِيرَةِ، بَلِ الْمَلَائِينَ الْكَثِيرَةِ؟ أَلَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِبْدَاعِ أَنْ يُعَانَ الْبَشَرُ عَلَى اسْتِنْبَاتِ الْأَرْضِ بِمَا يُغْنِي الْبَشَرَ وَيُطْعِمُهُمْ وَيَدْفَعُ الْجُوعَ وَالْعُوزَ وَالْمَهَانَةَ عَنْهُمْ.

وَالْعَقْلَ وَالْعِلْمَ الْقَصْدَ مِنْهُمَا هُوَ اسْتِخْدَامُهُمَا فِي تَعْبِيدِ النُّفُوسِ لِلْخَيْرِ وَالسَّعْيِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّافِعِ الَّذِي يُسَخِّرُ الْمَنَافِعَ وَيُسَرِّهَا لِلْآخِرِينَ؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ لِلْعَامِلِ الْخَيْرَ وَالنَّفْعَ، وَالْمَتَاعَ الْمَادِّيَّ فِي الْعَاجِلِ، وَالْأَجْرَ الرُّوحِيَّ الْأَعْظَمَ فِي الْأَجْلِ؛ وَذَلِكَ حِينَ تَنْتَهِي يَا بَيْدَبَا مُدَّةُ حَيَاتِنَا، وَأَجَلُ وُجُودِنَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، وَحِينَئِذٍ نَقْدِمُ كَشْفَ حِسَابَاتِنَا وَتَقَارِيرَ أَعْمَالِنَا عَمَّا تَمَّ عَلَى أَيْدِينَا مِنْ أَعْمَالٍ وَإِنجَازَاتٍ وَحِينَئِذٍ - كَمَا هُوَ حَالُ كُلِّ عَامِلٍ فِي نِهَآيَةِ "وَرْدِيَّةِ" الْعَمَلِ - نَعْلَمُ أَيُّنَا أَحْسَنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ بِتَسْخِيرِهَا وَإِعْمَارِهَا لِتَكُونَ مَنَافِعَ لِلنَّاسِ وَالْخَلَائِقِ، عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَسَخَّرَ لَهُ الْكُوْنَ.

يَا بَيْدَبَا؛ لَا قِيَمَةَ لِلْمَادَّةِ إِذَا لَمْ تُجَسِّدْ مَفْهُومًا وَقِيَمَةً أَخْلَاقِيَّةً إِعْمَارِيَّةً، وَلَا وُجُودَ لِأَيَّةِ قِيَمَةٍ أَوْ مَفْهُومٍ أَخْلَاقِيٍّ إِعْمَارِيٍّ حَضَارِيٍّ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْمَفْهُومِ شَكْلٌ مَادِّيٌّ نَافِعٌ، وَلَوْ بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ.

قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ. قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ: لَقَدْ وَجَدْتُ يَا بَيْدَبَا أَبْنَاءَ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ قَدْ أَدْرَكُوا الْمَعْنَى الصَّحِيحَ لِلْحَيَاةِ، وَالْمَعْنَى الصَّحِيحَ لِلْحُرِّيَّةِ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، وَفِي الْأَسَالِيبِ الَّتِي رَبَّوْا عَلَيْهَا صِغَارَهُمْ، وَعَوَّدُوهُمْ مُمَارَسَتَهَا، وَحَقَّقُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِهَا الْخَيْرَ الَّذِي وَهَبَ اللَّهُ الْعُقُولَ لِتَحْقِيقِهِ لِشُعُوبِهِمْ، وَلَوْ لَا حُسْنُ اسْتِخْدَامِ الْعُقُولِ وَحُسْنُ اسْتِخْدَامِ الْحُرِّيَّةِ مَا أَمَكْنَهُمْ يَا بَيْدَبَا أَنْ يُقِيمُوا الْحَضَارَةَ وَالْعُمْرَانَ الْخَيْرِيَّ فِي عَالَمِهِمْ، وَحَقَّقُوا بِهِ قِيَمَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّكَامُلِ وَالسَّلَامِ فِي بِلَادِهِمْ وَبَيْنَ مُوَاطِنِهِمْ، وَوَيْلٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ يَا بَيْدَبَا، وَفِيمَا بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ، لِمَنْ يُلْغِي الْعَقْلَ، وَيَكْبِتُ الْحُرِّيَّةَ، وَيَقْتُلُ الْإِبْدَاعَ، وَيَسْعَى بِالظُّلْمِ وَالْإِسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ فِي حَقِّ قَوْمِهِ أَوْ فِي حَقِّ سِوَاهُمْ مِنْ شُعُوبِ الْبَشَرِ. قَالَ بَيْدَبَا: وَلَكِنْ هُنَاكَ بَعْضٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ: إِنَّ سُلُوكَ الْبَشَرِ أَمْرٌ مَوْزُوثٌ، وَيُبْرَرُونَ بِذَلِكَ سُوءَ الْفِعَالِ وَرَدِيءَ الْخِصَالِ، فَيُدَمِّرُونَ مَعْنَى الْإِنْسَانِ وَمَعْنَى الْحَيَاةِ، لِيُصْبِحَ

الإنسان واحداً من العجماوات؛ لا حُرِّيَّةَ وَلَا خِيَارَ وَلَا مَسْئُولِيَّةَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الشَّرَّ
وَالجَرِيمَةَ، وَكَذَلِكَ الْخَيْرَ وَالْإِحْسَانَ، صِفَاتٌ وَرَائِيَّةٌ، وَمُوروثَاتٍ أزلِيَّةٌ.

رَفَعَ الشَّيْخُ حَاجِبِيهِ انْدِهَاشًا وَقَالَ: عَجَبًا يَا بَيْدَبَا؛ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ: إِنَّ
اِخْتِلَافَ أَمْزِجَةِ الْأَفْرَادِ وَتَفَاوُتَ طَاقَاتِهِمْ وَقُدْرَاتِهِمْ يَعْنِي سُلُوكًا خَيْرًا أَوْ شَرِيرًا؟ إِنَّ
الِاخْتِلَافَ فِي الْأَمْزِجَةِ وَالْقُدْرَاتِ أَسَاسًا أَمْرٌ خَيْرٌ؛ فَهُوَ الَّذِي يَبْنِي الْحَيَاةَ، وَبِهِ تَتَكَامَلُ
الْمُيُولُ وَالْقُدْرَاتُ بَيْنَ الْبَشَرِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ هَادِيٌّ الطَّبَعِ، وَمِنْهُمْ مُتَّقِدُ الطَّاقَةِ
وَالْحَرَكَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ رَقِيقُ الْإِحْسَاسِ الْمُتَّيِّدِ، وَمِنْهُمْ الْعَمَلِيُّ الْمُنْدَفِعُ، فَهَذِهِ الْأَمْزِجَةُ
مُيُولٌ وَتَوَجُّهَاتٌ، فَمِنَ الْبَشَرِ الذَّكِيُّ وَالْأَذَكِيُّ وَالْقَوِيُّ وَالْأَقْوَى وَالْعَاجِزُ الْمَحْرُومُ وَهُمْ بِذَلِكَ
قُدْرَاتٌ وَطَاقَاتٌ تَتَكَامَلُ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ، وَكُلُّ مِزَاجٍ وَصِفَةٍ وَقُدْرَةٍ وَطَاقَةٍ فِطْرِيَّةٌ خَيْرَةٌ فِي
ذَاتِهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ تُوجَّهَ بِفِعْلِ التَّرْبِيَةِ وَالْإِرَادَةِ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ إِلَى الشَّرِّ، لِلْبِنَاءِ أَوْ لِلتَّهْدِيمِ، وَهَذَا
هُوَ مَعْنَى إِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَتَكَامُلِ وَجُودِهِ، وَهُوَ مَعْنَى خِيَارِ إِرَادَتِهِ وَمَسْئُولِيَّةِ أَدَائِهِ، وَدُونَ
هَذَا التَّنَوُّعِ يَا بَيْدَبَا فِي الْأَمْزِجَةِ وَالْقُدْرَاتِ لَا تَقُومُ الْحَيَاةُ وَلَا يَبْنِي الْعُمُرَانَ.

وَلِهَذَا يَا بَيْدَبَا فَإِنَّ مَسْئُولِيَّةَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْدِيدِ وَالتَّرْشِيدِ لَهَا الدَّوْرُ الْأَعْظَمُ فِي إِعْدَادِ
الصَّغِيرِ لِمَعْرِفَةِ سُبُلِ الْخَيْرِ وَالْبِنَاءِ، وَتَجَنُّبِهِ عَنَاءِ الْإِنْحِرَافَاتِ وَنَدَمِ التَّجَارِبِ الْخَاطِئَةِ،

وَيَكُونُ لِلْمُرْتَبِيِّ نَصِيبُهُ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ أَخْطَاءِ مَنْ قَامَ بِتَرْبِيَّتِهِ، وَأَسْهَمَ فِي تَضْلِيلِ إِرَادَتِهِ وَسُوءِ خِيَارَاتِهِ، وَيَبْقَى لِلْفَرْدِ قَبْلَ كُلِّ ذَلِكَ، وَبَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ، مَسْئُولِيَّتُهُ الْأَخْلَاقِيَّةُ فِي حُدُودِ قُدْرَاتِهِ وَأَثَارِ تَرْبِيَّتِهِ وَمَعَارِفِهِ وَاقْتِنَاعَاتِهِ وَتَوَجُّهِ إِرَادَتِهِ، فَالْمَسْئُولِيَّةُ عَمَّا هُوَ فِي حُدُودِ الطَّاقَةِ وَتَوَجُّهِ الإِرَادَةِ لَا تَسْقُطُ بِأَيِّ ادِّعَاءٍ كَامِنٍ مَوْهُومٍ فِي أَصْلِ صِفَاتِ الْخَلْقِ وَالْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَخْلَفِ وَالْحَيَوَانَ الْعَاجِمِ، وَالَّذِي يَبْنِي الْحَيَاةَ وَيُحَقِّقُ مَعْنَى الْوُجُودِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَا بَيْدَبَا.

إِنَّ مِنَ الْمُهْمِّمِ يَا بَيْدَبَا أَنْ تُدْرِكَ وَإِخْوَانَكَ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ لَمْ تَكُنْ عِنْدَ أَهْلِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي تَعْنِي الْفَوْضَى وَالْإِنْفِلَاتِ وَاتِّبَاعَ الضَّلَالَاتِ وَطِينِ النَّزَوَاتِ؛ الَّتِي يَسُودُ مَعَهَا قَانُونُ الْغَابِ بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ؛ فَتَضْيِعُ الْحُقُوقَ، وَتُهْدِرُ الْكِرَامَاتِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ، وَيَقَعُ الضَّرَرُ وَالْمَظَالِمُ بِالنَّفُوسِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، بَعْضُهُ يَتَحَقَّقُ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ، وَبَعْضُهُ يَتَحَقَّقُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَجْيَالِ.

لَمْ يَكُنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ يَا بَيْدَبَا وَمَعْنَى الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ مُوَاطِنِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ هُوَ حَقٌّ فِعْلٍ الْخَطَأِ، وَالتَّرْوِيجِ لِإِزْتِكَابِ الْمُفْسِدَاتِ وَالْإِنْجِرَافَاتِ، وَالْوُقُوعِ فِي الْمُوْبِقَاتِ، فَهَذِهِ فِي

شَرِيعَتِهِمْ وَعُرْفِهِمْ لَيْسَتْ حُرِّيَّةً، وَلَكِنَّهَا قُصُورٌ وَفَوْضَى وَحَمَاقَةٌ وَتَخْلُفٌ؛ لِأَنَّ الْحُرِّيَّةَ
عِنْدَهُمْ هِيَ جَوْهَرُ أَمَانَةِ الْحَيَاةِ وَالْعَقْلِ وَغَايَتُهُمَا، وَهِيَ حَقٌّ مُقَدَّسٌ؛ لِذَلِكَ فَهِيَ عَلَى عَكْسِ
الْمَفْهُومِ الضَّالِّ الْفَاسِدِ لِلْحُرِّيَّةِ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى التَّحَلُّلِ وَالتَّفْسُخِ وَالْفَوْضُويَّةِ، وَإِشَاعَةِ
الْفَوَاحِشِ وَتَرْوِيجِ بَضَاعَاتِ الرَّذِيلَةِ، فَذَلِكَ مِنْ مَفَاهِيمِ الْمُنْحَطِ الطَّيْنِيِّ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ
الضَّالَّةِ الَّتِي لَيْسَ لِحَيَاتِهَا مَعْنَى نَبِيلٌ، وَلَا غَايَةَ سَامِيَّةً، وَتَنْطَلِقُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ عَدَمِيَّةٍ
مَادِّيَّةٍ بَحْتَةٍ، لَا تُدْرِكُ فِي آخِرِ الْمَطَافِ إِلَّا مَا تَلَمَّسُهُ حَوَاسُّهَا، وَمَا تُمْلِيهِ عَلَيْهَا نَزَوَاتُهَا، مِنْ
دُونِ مُوجِّهِ مِنْ فِطْرَةِ سَوِيَّةٍ أَوْ مِنْ قِيَمٍ أَوْ ضَمِيرٍ أَوْ ضَوَابِطِ أَخْلَاقِيَّةٍ، أَوْ حِسِّ حَمْلِ الْأَمَانَةِ
وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَالتَّارِيخِ يَا بَيْدَبَا مَلِيءٌ بِالْعِظَاتِ وَالْعِبَرِ، وَالْأَمْرُ أَمْرٌ وَقْتٌ لَا غَيْرُ لِكَيْ يَلْحَقَ مَنْ
يَضِلُّ الطَّرِيقَ مِنَ الْأُمَّمِ بِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْغَاوِينَ الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ.

إِنَّ الْحُرِّيَّةَ عِنْدَ أَصْحَابِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ وَالْعُقُولِ وَالضَّمَائِرِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّاقِيَةِ يَا بَيْدَبَا؛
لَيْسَتْ حَقٌّ ارْتِكَابِ الضَّرَرِ وَالْمَفَاسِدِ، وَنَشْرِ الدَّنَائَاتِ وَالْمُوبِقَاتِ، بَلِ الْحُرِّيَّةُ عِنْدَهُمْ هِيَ
حَقٌّ إِشَاعَةِ الْخَيْرِ، وَدَعْوَةَ الْإِصْلَاحِ، وَفِعْلِ الصَّوَابِ، وَحِفْظِ الْحُقُوقِ، وَحَمْلِ
الْمَسْئُولِيَّاتِ، وَنَشْرِ قِيَمِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّكَاثُلِ، وَالتَّنَاصُحِ بِكُلِّ مَا يَعُدُّهُ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ
وَشُورَى الْمُجْتَمَعِ مَعْرُوفًا وَخَيْرًا وَإِصْلَاحًا، وَتَجَنُّبِ كُلِّ مَا يَعُدُّهُ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ وَشُورَى
الْمُجْتَمَعِ سُوءًا وَمُنْكَرًا وَشَرًّا وَظُلْمًا وَبَغْيًا وَعُدْوَانًا.

نَظَرَ بَيْدَبَا إِلَى الشَّيْخِ وَكَأَنَّهُ يَفِيقُ مِنْ سُبَاتٍ عَمِيقٍ ثُمَّ قَالَ: مَا أَرَوَعَ مَا سَمِعْتُ مِنْكَ أَيُّهَا
الشَّيْخُ الْجَلِيلُ عَنِ حِكْمَةِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ فِي أَصْلِ خَلْقِ الْبَشَرِ إِبْدَاعِ الْخَالِقِ فِي تَنْوَعِ
قُدْرَاتِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ وَالْوَانِهِمْ وَسِمَاتِهِمْ، رَغِمَ أَنْهُمْ سُلَالَةٌ وَنَسْلٌ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.
نَعْمَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ إِنِّي أَشَارِكُكَ الرَّأْيَ فِي جَمَالِ هَذَا التَّنَوُّعِ وَحِكْمَةِ هَذَا التَّفَاوُتِ
الَّذِي تَتَكَامَلُ بِهِ الْقُدْرَاتُ الَّتِي تَبْنِي الْحَيَاةَ مِنْ جَانِبٍ وَتُضْفِي عَلَيْهَا جَمَالَ التَّنَوُّعِ مِنْ
جَانِبٍ آخَرَ، كَالزَّهْرِ لَوْلَا تَنْوَعُهُ شَكْلًا وَلَوْنًا وَحَجْمًا وَلَوْ كَانَ عَلَى هَيْئَةٍ أَجْمَلَ زَهْرَةٍ لِأَصْبَحَ
ذَلِكَ الزَّهْرُ الْجَمِيلُ حِينَئِذٍ مِمَّا تَعْتَوِرُهُ الْأَعْيُنُ وَلَا تَزِيدُ كَثْرَتُهُ النُّفُوسَ إِلَّا ضَيْقًا وَمَلَالًا.
وَرَغِمَ كُلِّ مَا ذَكَرْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فَإِنَّ هُنَاكَ مِنْ بَعْضِ الْبَشَرِ يَجْعَلُ هُنَاكَ جَانِبَ
سَلْبِي لِتَنْوَعِ فِطْرَةِ الْخَلْقِ فِي قُدْرَاتِ الْبَشَرِ وَتَنْوَعِهِ، نُسَاهِدُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ. لِأَنَّهُمْ
يَجْعَلُونَ تَفَاوُتَ الْقُدْرَاتِ وَتَنْوَعِ السِّمَاتِ بَيْنَ ذَكِّيِّ وَأَذَكِّيِّ وَأَقْلِّ ذِكَاءً، وَبَيْنَ قَوِيٍّ وَأَقْوَى
وَأَقْلَ قُوَّةٍ وَضَعِيفٍ وَمُعَاقٍ، وَبَيْنَ أَحْمَرَ وَأَبْيَضَ، وَبَيْنَ أَسْوَدَ وَقَمْحِيٍّ وَأَصْفَرَ هُوَ الْمَدْخَلُ
وَالْمُبَرَّرُ إِلَى عِلَاقَاتِ التَّعَالِي وَالْغَطْرَسَةِ وَالْإِذْذَالِ وَالْعُنْصُرِيَّةِ وَمَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ تِلْكَ
الْمُجْتَمَعَاتُ مِنْ اسْتِبْدَادٍ وَظُلْمٍ وَفَسَادٍ، وَأَهْدَارٍ لِمَفْهُومِ كِرَامَةِ الْإِنْسَانِ، كُلِّ الْإِنْسَانِ.
فَكَيْفَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَنْ تَكُونَ الْفِطْرَةُ الْخَيْرَةُ مَدْخَلًا وَأَسَاسًا لِلْفَسَادِ وَالتَّظَالِمِ وَالشَّرِّ.

مِنَ الْمُبْهِجِ لِلنَّفْسِ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَنَّنَا بِالْفِعْلِ لَا نَرَى فِي سُلُوكِ أَهْلِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
رَغْمَ مَا بَيْنَهُمْ مِنْ تَفَاوُتٍ وَتَنَوُّعٍ مِثْلُ جَمِيعِ أَنْوَاعِ مُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِ أَيُّ أَثَرِ سُلُوكِي رَدِيٍّ مِمَّا
ذَكَرْنَاهُ عَنْ تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالشُّعُوبِ فَلَا ذُلَّ وَلَا امْتِهَانَ وَلَا قَهْرًا وَلَا غَطْرَسَةً وَلَا اسْتِبْدَادًا
وَلَا فَسَادًا.

ابْتَسِمَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَقَالَ: هَوْنٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَيْلَسُوفُ.
إِنَّ مَا انْحَدَرَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ الشُّعُوبُ الْبَائِسَةُ يَا بَيْدَبَا مِنْ ذُلِّ وَقَهْرٍ وَظُلْمٍ وَاسْتِبْدَادٍ وَفَسَادٍ
إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَالْجَهَالَةِ وَفَسَادِ الْفِكْرِ وَانْحِرَافِهِ لِأَنَّهَا شُعُوبٌ لَمْ تُدْرِكْ أَوْلَمَ يَقْصِدُ
لَهَا أَنْ تُدْرِكَ، أَوْلَمَ يُرَدُّ لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْمَعْنَى الْكَامِلَ لِأَبْعَادِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيَّ وَالْفِطْرَةَ
الْإِنْسَانِيَّةَ الرَّوْحِيَّةَ السَّامِيَّةَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

فَالْخَلْقُ الْإِنْسَانِيُّ يَا بَيْدَبَا فِي أَصْلِهِ هُوَ إِيَّاهُمْ إِخْوَةٌ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، لِيَحْمِلُوا مَسْئُولِيَّةَ
إِقَامَةِ الْحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي خَلَقَتْ لَهُمْ لِيُوفِّرُوا بِتَكَامُلِهِمْ حَاجَاتِ حَيَاتِهِمْ.
وَإِذَا كَانَتْ مَسْئُولِيَّةُ التَّصَرُّفِ يَا بَيْدَبَا تُوجِبُ الْحُرِّيَّةَ. فَإِنَّ أَخُوَّةَ الْأَصْلِ وَالْخَلْقِ تُحْتَمُّ
حَقَّ الْكِرَامَةِ يَا بَيْدَبَا بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ، فَمَهْمَا تَفَاوَتَتِ الْقُدْرَاتُ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمَسُّ بِكَرَامَةِ أَيِّ
فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ يَسْتَوِي فِي أَمْرِهَا الْجَمِيعُ أَيَّا كَانَ، الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى وَالْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ

وَالرَّئِيسُ وَالْمَرْؤُوسُ وَالْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي وَالْخَادِمُ وَالْمَخْدُومُ.
كَمَا أَنَّ حَقَّ الْكِرَامَةِ وَالْإِحَاءِ فِي أَصْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَخْلَفِ وَمَا سُخِّرَ لَهُ إِنَّمَا هُوَ
لِيُوفِّرَ حَاجَاتِهِ بِتَكَامُلِ الْقُدْرَاتِ وَهُوَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ يُحْتَمُّ وَاجِبُ التَّكَافُلِ، كِفَالَةَ كُلِّ
عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْمُجْتَمَعِ، وَكُلٌّ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ، فَلَا يَسْتَجِدِي أَحَدٌ وَلَا تَمْتَدُّ يَدُهُ
بِالسُّؤَالِ مَهْمَا كَانَتْ حَاجَتُهُ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَلْبَسٍ وَمَسْكَنٍ وَعِنَايَةٍ وَرِعَايَةٍ.
وَإِنَّ مَنْ نَشَأَ يَا بَيْدَبَا عَلَى حِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَحَقِّ الْحُرِّيَّةِ وَعِزَّةِ الْكِرَامَةِ فَلَنْ يَطْلُبَ وَهُوَ
قَادِرٌ عَلَى الْعَطَاءِ، وَلَنْ يَسْتَجِدِي وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْعَمَلِ، وَلَنْ يَبْخَلَ بِالْعَوْنِ لِلْمُحْتَاجِ وَهُوَ
قَادِرٌ عَلَيْهِ، وَلَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي مَوْضِعِ الْمُرْزِيَةِ فَمَا ذَلِكَ مِنْ شِيْمَةٍ مِنْ نَشَأَ عَلَى قِيَمِ الْعِزَّةِ
وَالْكَرَامَةِ، وَحِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ.
إِنَّ مَا وَقَعَتْ فِيهِ تِلْكَ الشُّعُوبُ الْبَائِسَةُ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ تَخْلِيْطِ الْفِكْرِ وَخَطْلِ الرَّأْيِ
وَأَنْجِطَاطِ الْقِيَمِ وَتَشَوُّهِ الثَّقَافَةِ وَسُوءِ التَّرْبِيَةِ.
قَالَ بَيْدَبَا نَعَمْ لَقَدْ أَجْمَلْتَ وَأَكْمَلْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَلَكِنْ هَلْ هَذَا يَعْنِي أَنَّ مَنْ
يُخْطِئُ أَوْ يُذْنِبُ لَا يُعَاقَبُ لِأَنَّ ذَلِكَ فِيهِ مَسَاسٌ بِكَرَامَةِ الْمُعَاقَبِ.

نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْدَبَا نَظْرَةً تَسْأُولُ وَتَعَجُّبٌ وَقَالَ: مَا أَظُنُّكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ جَادٌ فِي سُؤَالِكَ، لِأَنَّكَ خَيْرٌ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْعِقَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِحَقِّ الْجَمِيعِ يَتَسَاوَى فِيهِ الْمُذْنِبُونَ دُونَ تَفْرِيقِهِ بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَبَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ وَوَفَّقَ قَوَاعِدَ وَقَوَانِينِ عِقَابٍ تَهْدِفُ لِلْإِصْلَاحِ وَالرَّدْعِ وَدَرَأِ الْفَسَادِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَعْنِي أَوْ يَقْصِدُ بِهِ مَسَّ كِرَامَةِ الْمُذْنِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَنْ يَمَسُّ فِي مَوْقِعِ الْعِقَابِ، وَمَا فِي وَرَاءِ الْعِقَابِ كِرَامَةَ الْمُذْنِبِ، فَهُوَ مُذْنِبٌ وَأَهْلٌ لِلتَّأْدِيبِ وَالْعِقَابِ.

ابْتَسَمَ بَيْدَبَا ابْتِسَامَةً مَنْ يَقْصِدُ إِلَى مَزِيدٍ مِنْ اسْتِثَارَةِ الشَّيْخِ طَلَبًا لِمَزِيدِ حِكْمَةِ الشَّيْخِ وَخِبْرَاتِهِ وَبِأَسْلُوبِهِ الْمُمْتَعِ الْمُقْنِعِ وَقَالَ هَلْ مَا لَمَسْنَا أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ إِدْرَاكِ أَبْنَاءِ الْجَزِيرَةِ لِمَعَانِي الْحُرِّيَّةِ وَالتَّفَاوُتِ وَالكِرَامَةِ وَالتَّكَاوُلِ يَعْنِي أَنَّ مُجْتَمَعَ الْجَزِيرَةِ وَأَبْنَاءَ الْوَادِي مِنَ السَّلَامِيِّينَ مُبْرَرُونَ مِنْ ارْتِكَابِ الْأَخْطَاءِ، وَالْوُقُوعِ فِي الزَّلَّاتِ وَالْمُوبِقَاتِ، يَا شَيْخَنَا الْجَلِيلِ؟

قَالَ بَيْدَبَا: نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْخِ الرَّحَالَةَ نَظْرَةً لَوْمٍ وَعَتَبٍ، وَقَالَ: أَنْتَ أَحْكَمُ مِنْ هَذَا أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا؛ فَلَيْسَ هُنَاكَ مُجْتَمَعٌ أَوْ مَخْلُوقٌ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَا وَالْوُقُوعِ فِي الْمُوبِقَاتِ وَالزَّلَّاتِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَلَا يُقَاسُ -أَصْلَحَكَ اللَّهُ- عَلَيْهِمْ، فَالْوُقُوعُ فِي الْأَخْطَاءِ وَالزَّلَّاتِ وَالْمَفَاسِدِ وَالْمُوبِقَاتِ مِنْ دُونِ قَصْدٍ، أَوْ فِي لَحْظَةٍ غَفْلَةٍ أَوْ

ضَعْفٍ، أَمْرٌ وَارِدٌ، عَلَى أَحْكَمِ الْحُكَمَاءِ، وَلَكِنَّ الْمَخْلُوقَ الْخَيْرَانَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ - وَقَلَّمَا يَكُونُ - وَوَقَعَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ فِي أَمْرٍ مِنَ الصَّغَائِرِ، أَوْ فِي نَادِرِ الْكِبَائِرِ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ فَجَاءَةً وَخَلْسَةً، وَعَلَى تَرَدُّدٍ وَوَجَلٍ وَاسْتِحْيَاءٍ وَتَأْنِيْبٍ ضَمِيرٍ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ وَيَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ خَطِيئِهِ إِنْ وَقَعَ فِيهِ، وَمِنْ قَرِيبٍ، فَنَفْسُ السَّوِيِّ لَا تُصِرُّ عَلَى الْخَطَا أَوْ الزَّلَلِ، وَلَا تَرْغَبُ فِيهِ، وَلَا تَجْهَرُ بِهِ، وَلَا تُصِرُّ عَلَى الشُّرُورِ وَالْمُوبِقَاتِ حِينَ تَقَعُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، فَالْإِصْرَارُ وَالْجَهْرُ وَإِشَاعَةُ الرِّذَائِلِ هِيَ الشَّرُّ الْأَكْبَرُ وَالضَّرُّ الْأَعْمُ، وَفِيهَا أذَى لِكُلِّ النَّاسِ، وَهِيَ دَاعِيَةٌ لِلْفُوضَى، وَسَبِيلٌ لِلْإِنْحِطَاطِ وَالْإِنْجِرَافِ عَنِ السُّلُوكِ السَّوِيِّ وَضَيَاعِ الْحُقُوقِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ.

وَهَذَا السُّلُوكُ، وَهَذِهِ الظُّوَاهِرُ الْمُنْحَطَّةُ، إِنْ تُرِكَتْ تَسْتَشْرِي فِي الْمُجْتَمَعِ، كَانَ لَهَا أَسْوَأُ الْأَثَارِ وَالْإِنْطِبَاعَاتِ عَلَى الْأَبْرِيَاءِ الْبُسْطَاءِ مِنَ الصِّغَارِ وَالْيَافِعِينَ مِنَ الشَّبَابِ. قَالَ بَيْدَبَا: هَلْ هَذَا يَعْنِي أَيْهَا الشَّيْخُ، أَنَّ عَلَى الدَّوْلَةِ فِي سَعْيِهَا لِحِمَايَةِ الْمُجْتَمَعِ، أَنْ تُجَنِّدَ الْأَعْوَانَ، لِمَعْرِفَةِ مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ فِي خَاصَّتِهِمْ، وَكَشْفِ خَبِيئَاتِ مَنْ قَدْ يَقْعُونَ فِيهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَالْمُوبِقَاتِ.

عِنْدَ هَذَا الْقَوْلِ انْتَصَبَ الشَّيْخُ فِي جِلْسَتِهِ، وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ شَيْءٌ مِنْ مَلَامِحِ الْإِنْفِعَالِ.

قال بيدبا: نظر إلی الشیخ ملیاً، وكأنه یدیر فی رأسه ما سیقوله لنا فی هذا الأمر الخطیر. وبعد برهه قال الشیخ مخاطباً بيدبا ورفاقه: یا بيدبا، إن ما أشرت إلیه من أمر تجنید الأعوان من قبل السُّلطات فی المجتمع لمعرفه كل ما یفعله الناس، بدعوى الحرص علی الأخلاق فی المجتمع، أمر جد خطیر، یقع فیه کثیر من الجماعات والمجتمعات، وقد یتّم ذلك فی البدایة فی کثیر من الأحوال بحسن نية، ولكن هذه الممارسة فی الحقیقة، برغم النوايا، هی ممارسة خاطئة، لا بد أن تنتهی بهدم معنی المجتمع، وبتمکین الاستبداد والتسلط فی المجتمع بكل ما یتتبعه من المفاسد والآفات.

أهم ما یجب أن تحرص علیه المجتمعات یا بيدبا، لكي تكون حقاً مجتمعات إنسانیة هو الإحساس بالأمن، وإذا فقد الإحساس بالأمن فی أي مجتمع، فقل علیه السلام. لیس من حق أحد یا بيدبا أن يتجسس علی الناس فی خاصتهم ودورهم، ولا یكون إحساساً بالأمن فی أي مجتمع یتوقى الناس فیه فی خاصتهم ودورهم، تلصص الأعین والأذان وتطفلها.

حماية الأخلاق فی المجتمع یا بيدبا، لا تكون بالتجسس والتلصص والتطفل علیهم فی دورهم وخاصة شأنهم، ولكن حماية الأخلاق فی المجتمع تكون یا بيدبا بشأن الجهر

وَالْإِعْلَانِ بِالْمَفَاسِدِ وَالْمُوبِقَاتِ؛ الَّتِي يَفْرِضُ بِهَا الْفَاسِدُونَ أَنْفُسَهُمْ وَفَسَادَهُمْ عَلَى النَّاسِ
بِالْجَهْرِ، وَإِشَاعَتِهَا، فَيُؤْذُونَ بِهَا أَعْيُنَهُمْ وَأَذَانَهُمْ وَمَشَاعِرَهُمْ، وَيُغْرُونَ بِهَا صِغَارَهُمْ،
وَيُخَاطَبُونَ بِهَا غَرَائِزَهُمْ، مِنْ دُونَ وَعْيٍ مِنَ الصِّغَارِ وَالْأَغْرَارِ أَوْ إِدْرَاكِ مِنْهُمْ لِأَمْرِ الْحُقُوقِ
وَالْمَسْئُولِيَّاتِ وَالْعَوَاقِبِ.

وَالْأَمْنُ الْاجْتِمَاعِيُّ يَا بَيْدَبَا يَكُونُ بِمَنْعِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْجَهْرِ وَالْإِعْلَانِ بِالْمَفَاسِدِ
وَالْمُوبِقَاتِ، وَالسَّعْيِ بِهَا، وَإِشَاعَتِهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَخَاصَّةً فِي أَوْسَاطِ الصِّغَارِ وَالشَّبَابِ، وَفِي
غَفْلَةٍ مِنَ الْأَبَاءِ، وَمِنَ الْمُجْتَمَعِ، وَهَذَا الْمَنْعُ هُوَ مِنْ "الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ"،
وَمَا يَتَطَلَّبُهُ ذَلِكَ مِنْ عِقَابٍ رَادِعٍ لِلْمُسِيءِ السَّاعِيِ بِالسُّوءِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ
مِنْ أَهَمِّ سُبُلِ تَحْقِيقِ الْأَمْنِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَحِمَايَةِ الْحُرِّيَّاتِ فِي الْمُجْتَمَعِ.
أَمَّا تَجَسُّسُ السُّلْطَاتِ وَتَلَصُّصُهَا عَلَى خَاصَّةِ النَّاسِ، وَعَلَى حُرْمَةِ دُورِهِمْ؛ فَذَلِكَ مِنْ
أَسْبَابِ التَّسَلُّطِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَإِرْهَابِ النَّاسِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادُ السُّلْطَةِ، وَفَقْدُ الْحُرِّيَّاتِ،
وَأَنْعِدَامُ الْإِحْسَاسِ بِالْأَمْنِ، وَانْهِيَارُ مَعْنَى الْمُجْتَمَعِ.

إِنَّ التَّجَسُّسَ وَالتَّلَصُّصَ عَلَى النَّاسِ فِي خَاصَّتِهِمْ، لَا تُمَارِسُهُ يَا بَيْدَبَا إِلَّا السُّلْطَاتُ
الْفَاسِدَةُ الْمُفْلِسَةُ؛ الَّتِي تَلْجَأُ إِلَى وَسَائِلِ التَّرْهِيْبِ لِتَقْهَرِ إِرَادَةَ الْمُجْتَمَعِ، وَتَطْوَعَهُ لِمَا هُوَ
أَكْبَرُ وَأَشَدُّ مِنْ مَفَاسِدِ السُّلْطَةِ وَانْحِرَافَاتِهَا وَمُمَارَسَاتِهَا الْاسْتِبْدَادِيَّةِ.

يَا بَيْدَبَا، إِنَّ أَفْضَلَ الْوَسَائِلِ النَّاجِعَةِ فِي مُعَالَجَةِ الْأَخْلَاقِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَفِي خَاصَّةِ النَّاسِ، وَأَكْثَرُهَا جَدْوَى وَفَاعِلِيَّةٌ، إِنَّمَا يَتِمُّ بِالتَّرْبِيَةِ، وَمَا يُبْذَرُ فِي نَفُوسِ النَّاشِئَةِ، مِنَ الْقِيَمِ وَالْمَفَاهِيمِ وَالْمَبَادِي، وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَتُجَارِ الرَّذِيلَةِ، وَلَيْسَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا، فَلَنْ يُورِثَ التَّجَسُّسُ وَالْعَصَا، رُقِيَّ الْأَخْلَاقِ وَنَقَاءِ النُّفُوسِ، وَلَكِنَّهُمَا يُورِثَانِ الْخَوْفَ وَالْجُبْنَ وَالنِّفَاقَ وَالْكَذِبَ، وَالْإِمْعَانَ فِي الْإِنْجِرَافِ وَالْفَسَادِ.

وَهَكَذَا تَرَى يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ زَلَّاتِ الطَّبَاعِ، وَتَحْدِيَّاتِ النَّوَازِعِ، تَخْتَلِفُ عَنْ جَرَائِمِ الْمُعَامَلَاتِ وَتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَا يَسْتَتْبِعُ ذَلِكَ مِنْ أَدَاءِ الْحُقُوقِ وَحِفْظِ الدِّمَاءِ، وَالْأَمْنِ بِشَأْنِهَا يَكُونُ بِمَنْعِ تَعْدِيَّاتِهَا، وَهِيَ جَرَائِمُ وَتَعْدِيَّاتُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَظَلَّمَ أَطْرَافُهَا وَأَصْحَابُ الْمَصَالِحِ وَالْحُقُوقِ فِيهَا، وَهِيَ تَتَطَلَّبُ الْبَيِّنَةَ وَالذَّلِيلَ، لَا التَّجَسُّسَ وَالتَّلَصُّصَ وَتَتَّبِعُ الْهَفْوَاتِ وَالْعَوْرَاتِ وَالْعَثْرَاتِ، وَيَكُونُ مَنْعُهَا وَاسْتِيفَاءُ التَّعْدِيَّاتِ فِيهَا هُوَ الْغَايَةُ، وَيَكُونُ الْعِقَابُ الْمُنَاسِبُ الْكَافِي لِلرَّدْعِ لَا أَكْثَرَ، أَيُّ مِنْ دُونِ مُبَالِغَةٍ، وَسِيلَةٌ مُهِمَّةٌ مِنْ وَسَائِلِ مَنْعِهَا، وَالْحَدِّ مِنْ دَوَافِعِ الطَّمَعِ وَالْعُدْوَانِيَّةِ الَّتِي تُحَرِّكُهَا، وَتُغْرِي بِهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ يَتِمُّ حِفْظًا عَلَى الْأَمْنِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَصُونًا لِلْحُقُوقِ وَالِدِّمَاءِ، فَجَلُّ النَّاسِ لَا يُفَكِّرُونَ فِي الْقَتْلِ أَوْ السَّرِقَةِ وَالتَّعْدِيَّاتِ عَلَى حُقُوقِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَخَافُونَ مِنْ اِحْتِمَالِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ

شَيْءٌ مِنَ الْقَتْلِ أَوِ السَّرِقَةِ أَوِ التَّعَدِيَّاتِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْأَمْنَ الْاجْتِمَاعِيَّ يَكُونُ بِالْحِرْصِ عَلَى
مَنْعِ التَّعَدِيَّاتِ عَلَى الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ، بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُنَاسِبَةِ الْمَشْرُوعَةِ الْمُمْكِنَةِ.
يَا بَيْدَبَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ وَضَّحْتُ لَكَ الْأَمْرَ، وَأَبْنْتُ لَكَ مَعْنَى الْأَمَنِ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي أَمْرِ
زَلَّاتِ الطَّبَائِعِ وَالنِّزَوَاتِ، وَأَبْنْتُ لَكَ مَعْنَى الْأَمَنِ الْاجْتِمَاعِيَّ فِي أَمْرِ صَوْنِ الْحُقُوقِ وَالِدِّمَاءِ،
وَأَنْ تَكُونَ وَإِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ قَدْ أَدْرَكْتُمْ الْفَرْقَ بَيْنَ زَلَّاتِ طَّبَائِعِ النُّفُوسِ وَأَهْوَائِهَا
وَهَفَوَاتِهَا، وَبَيْنَ جَرَائِمِ الْعُدْوَانِ عَلَى الْحُقُوقِ وَالْأَمْوَالِ وَالِدِّمَاءِ، وَدَلَالَةِ كُلِّ ذَلِكَ فِي أُسْلُوبِ
التَّعَامُلِ الصَّحِيحِ مَعَ جَانِبِ الْأَخْلَاقِ وَالْمُمَارَسَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَأَنَّ التَّرْبِيَّةَ فِي
مَجَالِ الْغَرَائِزِ وَهَوَى النُّفُوسِ هِيَ الْأَسَاسُ وَخَطُّ الدِّفَاعِ الْأَوَّلِ، وَبِدُونِ حُسْنِ التَّرْبِيَّةِ لَا
تُجْدِي الْقَوَانِينُ وَالْعُقُوبَاتُ وَالتَّهْدِيدُ بِهَا نَفْعًا، أَمَّا التَّجَسُّسُ وَالتَّلَصُّصُ وَمَفَاسِدُهُمَا فَلَا
يَنْتُجُ عَنْهَا إِلَّا مَزِيدٌ مِنَ الضَّرَرِ وَالْفَسَادِ، وَأَمَّا الْحُقُوقُ وَالْأَمْوَالُ وَالِدِّمَاءُ فِي مُجْتَمَعِ السَّعْيِ
وَالْتَّكَاثُلِ، فَإِنَّهَا -إِلَى جَانِبِ حُسْنِ التَّرْبِيَّةِ- يَكُونُ لِلْعِقَابِ الْمُنَاسِبِ فِيهَا، وَحَسَبَ مُقْتَضَى
الْحَالِ؛ أَثَرُهُ الْفَعَالُ فِي مَنْعِ الْجَرِيمَةِ، وَإِشَاعَةِ حِسِّ الْأَمَنِ فِي الْمُجْتَمَعِ.
وَهَكَذَا تَرَى يَا بَيْدَبَا، أَنَّ أَمْنَ الْمُجْتَمَعِ، وَإِحْسَاسَ الْمُواطِنِينَ بِالْأَمَنِ، لَا قَسْوَةَ
الْعُقُوبَاتِ، هُمَا مَا تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ الْمُجْتَمَعَاتُ الرَّشِيدَةُ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْعُقُوبَاتُ الْقُصُورَى



الشيخ يؤكد على تربية الأبناء على حب الله

وَالْحُدُودُ هِيَ السَّقْفُ الَّذِي لَا يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ إِلَّا فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ الْقُصُوى، وَأَنَّ آيَةَ عُقُوبَةٍ تَعْزِيزِيَّةٍ تَرْتَضِيهَا -الْأُمَّةُ وَشُورَاهَا- دُونَهَا تَكُونُ كَافِيَةً لِمَنْعِ الْجَرِيْمَةِ وَتَحْقِيقِ الْأَمْنِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَةٌ مَشْرُوعَةٌ مَقْبُولَةٌ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَمْرًا كَافِيًا، وَيَجِبُ -بِاقْتِنَاعِ الْمُجْتَمَعِ- قَبُولُهَا وَعَدَمُ تَجَاوُزِهَا، فَالْأَمْرِيَا بِيَدَبَا أَمْرًا مِنْ اجْتِمَاعِي وَلَيْسَ أَمْرًا قَسْوَةً وَانْتِقَامًا.

لِذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ الْمُهْمِ يَا بِيَدَبَا أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا لِلْآبَاءِ وَالْمُرَبِّينَ أَنْ يُنَبِّهُوا الصِّغَارَ وَالشَّبَابَ الْيَافِعِينَ إِلَى مَعْنَى أَفْعَالِهِمْ وَآثَارِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَعَلَى سِوَاهُمْ، وَأَنْ يُقَرِّبُوا ذَلِكَ تَرْبُويًا وَثَقَافِيًا إِلَى عُقُولِهِمْ بِأَمْثَلَةٍ مِنْ نُفُوسِهِمْ، وَمِنْ أَعْرَافِهِمْ مِنْ حَوْلِهِمْ؛ كَأَبْوِيهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَخَوَاتِهِمْ، فِيمَا لَوْ ارْتَكَبَ الْآخَرُونَ خَطَأً أَوْ جَرِيْمَةً فِي حَقِّهِمْ، كَيْفَ يَرُونَ الْأَمْرَ؟ وَكَيْفَ يَشْعُرُونَ؟ وَهُمْ بِذَلِكَ يَغْرِسُونَ فِي أَسَاسِ وَجْدَانِهِمْ أَنْ صَفَاءَ الْمَعْدِنِ، وَحُسْنَ الْمَنْبِتِ، وَكَرَمَ الْخُلُقِ، وَحَسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَسَلَامَةَ الْعَاقِبَةِ؛ يَتَجَسَّدُ فِي أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، فَذَلِكَ الْغَرْسُ الطَّيِّبُ فِي قَرَارِ النُّفُوسِ الْغَضَبَةِ يُورِثُ حَسَاسِيَّةَ الضَّمِيرِ، وَضَبْطَ النَّفْسِ مِنْ دَاخِلِهَا؛ بِدَافِعِ حُبِّ اللَّهِ، وَدَافِعِ فِطْرَةِ الْكِرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَاحْتِرَامِ الذَّاتِ، وَهُوَ حَسٌّ وَضَبْطٌ نَفْسِيٌّ وَجُدَانِيٌّ أَقْوَى وَأَبْقَى -إِنْ غُرِسَ فِي أَصْلِ الطُّفُولَةِ- مِنْ أَيِّ تَهْدِيدٍ أَوْ وَعِيدٍ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَالْعِقَابِ، كَثِيرًا مَا يَتَخَطَّاهُ الْيَافِعُ بِالتَّنَاسِيِ وَالتَّجَاهِلِ بِقُوَّةِ تَأْثِيرِ النَّوَاعِ وَالشَّهَوَاتِ وَالنَّزَوَاتِ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْمُرَبِّينَ أَنْ يَغْرِسُوا فِي قَرَارَةِ وَعْيِ أبنائِهِمْ، أَنَّ التَّكَاْفَلَ وَالْعَمَلَ مِنْ أَجْلِ الْجَمَاعَةِ، هُوَ وَاجِبٌ، وَهُوَ ضَمَانٌ لِأَمْنِ الْفَرْدِ، فَلَا فَرْدٌ دُونَ جَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةٌ دُونَ الْفَرْدِ، وَلِذَلِكَ، فَعَلَى الْفَرْدِ الْعَمَلُ مِنْ أَجْلِ سَلَامِ الْجَمَاعَةِ وَأَمْنِهَا وَنَمَائِهَا، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ وَاجِبٌ تَمْكِينِ الْفَرْدِ مِنَ الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ وَالْإِبْدَاعِ، كَمَا أَنَّ عَلَى الْجَمَاعَةِ كِفَالَةَ حَاجَةِ الْفَرْدِ، خَاصَّةً حِينَ تَلْمُّ بِهِ حَاجَةً أَوْ تَنْزِلُ بِهِ نَازِلَةً.

وَبِغَيْرِ كِفَالَةِ الْجَمَاعَةِ وَالْمُجْتَمَعِ لِلْفَرْدِ فِي حَاجَتِهِ وَنَوَازِلِهِ، فَلَنْ تَكُونَ جَمَاعَةً، وَلَا بَدَلٌ وَلَا تَضْحِيَةٌ وَلَا عَطَاءٌ.

وَالْفَرْدُ بِالتَّكَاْفُلِ يَبْذُلُ وَلَا يَبْخُلُ.

وَبِالتَّكَاْفُلِ تَبْذُلُ الْجَمَاعَةُ وَلَا تَبْخُلُ.

وَبِهَذَا تَقْوَى الْجَمَاعَةُ وَتَنْمُو وَتَزْهَرُ، وَبِهَذَا تُصَانَ كَرَامَةُ الْفَرْدِ وَكَرَامَةُ مَنْ يَعُولُ، وَبِذَلِكَ يَتَحَقَّقُ أَمْنُهُمْ وَاسْتِقْرَارُهُمْ.

وَتَابَعَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ خِطَابَهُ إِلَى الْحَكِيمِ بَيْدَبَا قَائِلًا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا؛ إِنَّ حُبَّ اللَّهِ، وَحُبَّ الْوَالِدَيْنِ، وَغَرْسَ وَازِعِ الْخَيْرِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعَوُّدِ السَّوِيِّ فِي وَجْدَانِ الْمُواطِنِينَ السَّلَامِيِّينَ الصَّالِحِينَ، هُوَ الَّذِي يَرُدُّعُهُمْ، وَيُؤْنَبُ ضَمَائِرَهُمْ، وَيُعِيدُ مَنْ يَزِلُّ مِنْهُمْ إِلَى طَرِيقِ

الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالصَّوَابِ، وَيَحْيِي مُجْتَمَعَهُمْ مِنَ التَّعَدِّي وَالْعُنْفِ وَالتَّفْسُخِ، وَمِنْ إِشَاعَةِ
الْفَسَادِ وَضَلَالِ الشَّبَابِ.

قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ: صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْحَكِيمُ وَأَصَبْتَ، فَفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ نُخْطِئَ وَأَنْ نَضْعُفَ،
وَبَيْنَ أَنْ نَطْلُبَ عَلَنًا، وَفِي قِحَةٍ، طَرِيقَ الْخَطَا وَالشَّرِّ وَالضَّرَرِ، فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ الْفَسَادَ وَالشَّرَّ
وَالضَّرَرَ عَالِمًا عَامِدًا فَهُوَ ظَهِيرٌ لِلشَّيْطَانِ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِلْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ، وَسُلُوكُهُ هَذَا لَيْسَ مِنْ
الْحُرِّيَّةِ، وَلَا مِنَ الْخَيْرِ، وَلَا مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ فِي شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْإِنْحِطَاطُ وَالتَّخَلُّفُ
وَالْفَوْضَى وَالْعَدَمِيَّةُ بِعَيْنِهَا، فِيهِ عَلَى الْمَدَى، طَالَ الزَّمَانُ أَمْ قَصُرَ، هَلَاكُ الْأُمَّمِ، وَتَحَلُّلُ
الْمُجْتَمَعَاتِ، وَإِنْهِيَارُ الْحَضَارَاتِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا إِنَّ مَنْ يَنْظُرُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا إِلَى الْحُرِّيَّةِ
عَلَى أَنَّهَا تَعْنِي حَقَّهُ فِي أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يَحْلُو لَهُ، وَكُلَّ مَا تُسْأَلُ لَهُ نَفْسُهُ، مِنْ دُونِ ضَابِطٍ مِنْ
حَقِّ وَخَيْرٍ وَمَسْئُولِيَّةٍ، وَمِنْ دُونِ نَظَرٍ إِلَى الْمَصَادِرِ وَالْمَوَارِدِ، وَمِنْ دُونِ تَحَسُّبٍ لِلْمَالِ
وَالْعَوَاقِبِ؛ بِحَيْثُ يَخْتَلِطُ فِي وَجْدَانِهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَالصَّلَاحُ وَالْفَسَادُ، وَالْخَطَا وَالصَّوَابُ،
لَا يَبْتَغِي إِلَّا اللَّذَّةَ الْعَاجِلَةَ وَالْكَسْبَ الرَّخِيسَ، فَهُوَ ضَالٌّ مُفْسِدٌ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ، وَمَأَلُهُ إِلَى
فَسَادِ الْأَمْرِ وَالنَّدَمِ وَالضِّيَاعِ، فَلَا شَيْءَ فِي هَذَا الْكَوْنِ لَا ضَابِطَ لَهُ وَلَا قَوَاعِدَ تُحَدِّدُ وَجْهَتَهُ،

وَتَضْبِطُ مَسِيرَتَهُ، وَتَحْكُمُ مَالَهُ، فَفِي كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ نِظَامٌ بِقَدْرِ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مُهِمَّةٌ وَغَايَةٌ،
وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا نَرَى حَوْلَنَا مِنَ الْخَلْقِ الْبَدِيعِ الصَّنْعَةَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُطْلَقًا أَوْ عَبَثًا.
قَالَ بَيْدَبَا: أَصَبَتْ أَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ فَهَذَا حَالُ الْكَوْنِ فِي كُلِّ مَوْجُودَاتِهِ، مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى
الْخَلِيَّةِ، إِلَى الْمَجْرَّةِ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَيَّ انْحِرَافٍ فِي آيَةٍ مَنْظُومَةٍ مِنْهَا عَنْ غَايَتِهَا وَضَوَابِطِهَا
يَكُونُ مَصِيرُهَا إِلَى الْفَسَادِ وَالذَّمَارِ.

قَالَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ: إِنَّ مَا تَذَكَّرُهُ هُوَ حَقًّا سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، وَلَكِنْ يَا بَيْدَبَا
هُنَاكَ أَمْرٌ آخِرٌ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْحُرِّيَّةِ فِي الْعَلَاقَاتِ الْأُسْرِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيمَا يَخُصُّ الْعَلَاقَاتِ
بَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَيُقْصَدُ مِنْهُ حِمَايَةُ الْأَبْنَاءِ مِنْ أَمْرِ تَسْهِيلِ الْإِنْفِلَاتِ وَالْفَسَادِ، كَمَا
يُقْصَدُ مِنْهُ أَيْضًا حِمَايَةُ الْأَبْنَاءِ مِنْ إِحْكَامِ قَبْضَةِ الْحَجْرِ وَالتَّسْلُطِ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَكَبْحِ
طَاقَاتِهِمْ وَإِبْدَاعَاتِهِمْ لِمُوَاجَهَةِ تَحْدِيَّاتِ زَمَانِهِمْ وَتَنْمِيَةِ إِمْكَانَاتِهِمْ وَتَقْزِيمِهَا.

بَعْضُ الشُّعُوبِ أَيْهَا الشَّبَابُ بِمَفْهُومِهَا الْمَادِّيِّ لِلْحَيَاةِ تَتَصَرَّفُ فِي عِلَاقَاتِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ
بِمَفْهُومِ غَرِيزِي حَيَوَانِي فَرْدِي نَفْعِي، فَإِذَا جَاوَزَ الْأَبْنَاءُ مَرِحَلَةَ الطُّفُولَةِ وَالْمُرَاهِقَةِ تَخَلَّى
جُلَّ الْأَبَاءِ عَنِ الْأَبْنَاءِ وَعَنْ آيَةٍ مَسْئُولِيَّةٍ قَانُونِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ عَنْهُمْ، وَلِذَلِكَ لَا يَجِدُ الشَّابُّ
نَاصِحًا وَلَا عَوْنًا وَلَا دَاعِمًا إِلَّا ذَاتَهُ وَكَدَّ ذِرَاعِهِ، وَلِذَلِكَ يَسْهَلُ وَقُوعُ كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَابِ

وَالشَّابَّاتِ فِي امْتِهَانِ الْمَفَاسِدِ وَالرِّذَائِلِ دُونَ وَازِعٍ وَلَا رَادِعٍ مِنْ نَاصِحٍ أَوْ ضَمِيرٍ، وَدُونَ أَنْ يَأْتِيَهُ
الْأَبَاءُ بِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ حَالُ أَوْلَادِكُمُ الْأَبْنَاءِ، فَكُلُّ شَابٍّ، وَكُلُّ شَابَّةٍ، مَسْئُولٌ اجْتِمَاعِيًّا وَقَانُونِيًّا
عَنْ ذَاتِهِ حَبْلُهُ عَلَى غَارِبِهِ وَمُعَلَّقٌ مِنْ عُرْقُوبِهِ.

وَالْوَجْهُ الْأَخْرَأِيُّهَا الشَّبَابُ هِيَ الشُّعُوبُ الَّتِي يُبَالِغُ الْأَبَاءُ فِيهَا فِي حِمَايَةِ أَوْلَادِهِمْ وَحَمَلِ
مَسْئُولِيَّةِ تَوْفِيرِ كُلِّ حَاجَاتِهِمْ وَاحْتِيَا جَاتِهِمْ وَلِلتَّحَقُّقِ مِنْ سَلَامَةٍ مُخْتَلَفِ تَصَرُّفَاتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَى أَيِّ خَطَاٍ أَوْ زَلَلٍ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ خَطْوُهُمْ وَزَلَلُهُمْ وَمَحْسُوبٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَهْلِهِمْ؛
وَلِذَلِكَ يَرَى هَؤُلَاءِ الْأَبَاءُ أَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحْكِمُوا السَّيْطِرَةَ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ مِنْ
تَصَرُّفَاتِهِمْ، وَأَنْ يُحْصُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى قُرْبِهِمْ وَالتَّصَاقِيهِمْ بِهِمْ فِي
مُخْتَلَفِ مَنَاجِي حَيَاتِهِمْ؛ حِمَايَةً لَهُمْ وَلِأَنْفُسِهِمْ، وَحِرْصًا مِنْهُمْ عَلَى سُمْعَتِهِمْ وَسُمْعَةِ
أَنْفُسِهِمْ وَسُمْعَةِ عَائِلَتِهِمْ.

يَا بَيْدَبَا كِلَا الْحَالَيْنِ خَطَاٌ وَمُبَالِغٌ فِيهِ، فَعَلَاقَةُ الْأَبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِلَاقَةُ إِنْسَانِيَّةٍ، بِقَدْرٍ مَا فِيهَا
مِنَ الْفَرْدِيَّةِ فِيهَا مِنَ الْجَمَاعِيَّةِ، وَبِقَدْرٍ مَا يَجِبُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَيْهِ الْفَرْدُ مِنَ الْحُرِّيَّةِ بِقَدْرٍ مَا
عَلَيْهِ مِنْ مَسْئُولِيَّةٍ تَجَاهَ نَفْسِهِ وَتَجَاهَ الْجَمَاعَةِ وَمَصَالِحِهَا، فَبِقَدْرٍ مَا لِلْفَرْدِ مِنْ حَقِّ بِقَدْرِ
مَا عَلَى الْفَرْدِ مِنْ وَاجِبٍ، وَكَمَا أَنَّ عَلَيْهِ تَوْفِيرَ حَاجَاتِهِ فَإِنَّ لَهُ حَقَّ الْعَوْنِ مِنَ الْآخِرِينَ عِنْدَ

الْحَاجَةِ، كَمَا أَنَّ عَلَى الْفَرْدِ عِنْدَ قُدْرَتِهِ وَاجِبَ عَوْنِ الْأَخْرَيْنَ عِنْدَ حَاجَاتِهِمْ، فَالْمُجْتَمَعُ
الْإِنْسَانِيُّ الْقَوِيمُ "كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا".

لِذَلِكَ أَيُّهَا الشَّبَابُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عِلَاقَةَ الْأَبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ، بَعْدَ تَخَطِّي مَرْحَلَةِ الطُّفُولَةِ
وَالْمُرَاهِقَةِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَحْتَ شِعَارِ "إِذَا كَبُرَ ابْنُكَ خَاوِيهِ"، وَهَذَا يَعْنِي يَا بَيْدَبَا أَنَّ
العِلَاقَةَ بَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ يَحْكُمُهَا التَّوَسُّطُ بَيْنَ الْإِهْتِمَامِ وَالتَّوَاصُلِ وَبَيْنَ احْتِرَامِ حَقِّ كُلِّ
وَاحِدٍ فِي تَسْيِيرِ حَيَاتِهِ وَتَقْرِيرِ مَصِيرِهِ، شَأْنُ هَذَا شَأْنُ العِلَاقَةِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، فَهُمْ يَتَرَاحِمُونَ
وَيَتَعَاضِدُونَ، وَبَعْضُهُمْ سَنَدٌ لِبَعْضِهِمْ الْآخِرِي فِي الْحَاجَاتِ وَعِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَيَأْمَنُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا، وَلَكِنْ عَلَيهِمْ وَاجِبٌ بَذَلِ النُّصْحِ وَالْمَشُورَةِ، وَهِيَ لَهُمْ حَقٌّ أَيْضًا، وَلَنْ يَكُونَ أَحَدٌ
أَقْدَرَ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْإِخْوَةِ عَلَى تَقْدِيمِ النُّصْحِ وَالْمَشُورَةِ وَالتَّبَصِيرِ بِالْعَوَاقِبِ الَّتِي قَدْ لَا تَنَالُ
الْفَرْدَ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ قَدْ تَعُمُّ كُلُّ مَنْ نُحِبُّ مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ، وَلِذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَيَقَّنَ أَنَّهُ
فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ أَنَّ كُلَّ بَالِغٍ مَسْئُولٌ عَنِ ذَاتِهِ، وَأَعْلَمُ بِحَاجَاتِهِ وَقُدْرَاتِهِ وَخَاصَّةً ظُرُوفَهُ وَلِذَلِكَ
فَإِنَّ وَلَهُ حَقُّ تَقْرِيرِ مَصِيرِهِ، وَأَنَّ عَلَيْنَا نَحْوَهُ وَاجِبَ النُّصْحِ فَقَطُّ، كَمَا أَنَّ عَلَيْهِ وَاجِبُ
الْإِنْصَاتِ وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَكُلُّ شَاةٍ مُعَلَّقَةٌ مِنْ عُرْفِهَا.

فَالِاعْتِدَالُ وَالتَّوَسُّطُ أَيُّهَا الشَّبَابُ هُوَ النُّهْجُ الَّذِي يُوفِّرُ العِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةَ الْحَمِيمَةَ

بَيْنَ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَأَفْرَادِ الْأَسْرِ وَالْأَحْبَابِ، وَهُوَ التَّصَوُّرُ وَالْمَوْقِفُ الصَّحِيحُ
الَّذِي يُتِيحُ الْمَجَالَ لِتَحْقِيقِ الذَّاتِ وَلِشُيُوعِ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْبِنَاءِ الْمَسْئُولَةِ.
وَعَلَى الْمُجْتَمَعَاتِ وَالشُّعُوبِ النَّاضِجَةِ يَا بَيْدَبَا - بِقَدْرِ عِنَايَتِهَا بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّوَاصُلِ
الْإِجَابِيِّ وَالْعِنَايَةِ وَالتَّضَافَرِ الْأَسْرِيِّ - أَنْ تُحَاكِمَ كُلَّ فَرْدٍ عَنِ تَصَرُّفَاتِهِ، وَالْأَنْعَمَ الْأَحْكَامَ
عَلَى الْأَخْرَيْنَ، فَلَيْسَ هُنَاكَ فَرْدَانِ وَلَا إِبْهَامَانِ مُتَطَابِقَانِ، وَإِلَّا كَانَ ذَلِكَ إِفْسَادًا لِلْحَيَاةِ
وَالْكُونِ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ قَالَ الشَّيْخُ مُخَاطِبًا بَيْدَبَا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ السَّبَابِ: قَدْ حَانَ الْآنَ أَيُّهَا
الْإِخْوَانُ وَقْتُ الْإِنْصِرَافِ لِكَيْ تَسْتَرِيحُوا؛ لِأَنِّي أَوْدُ أَنْ أَخْلُدَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ طُولِ
عِنَاءِ الْيَوْمِ، وَعِنَاءِ مَا تَدَارَسْنَاهُ مِنْ أُمُورٍ مُهِمَّةٍ فِي مَعْنَى الْحَيَاةِ وَمَجَالَاتِهَا وَمَآلَاتِهَا.
وَبِرْغَمِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ مِنْ حُضُورِ ذَهْنٍ خِلَالَ الْيَوْمِ وَمُدَاوَلَاتِهِ، وَمَا أَتَّحَفَ بِهِ رُؤَادَ
الْمَجْلِسِ مِنْ فِكْرٍ وَحِكْمَةٍ، كَانَتْ تُلْمُ بِوَجْهِهِ لِمَحَاتٍ قَلَقِي لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْقَشِعَ، أَوْ تَغْشَاهُ
سَرِحَةٌ طَرْفٍ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَغِيبَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَا كَانَ لِيُفْلِتَ مِنْ مُمْلِحَةِ طَرْفٍ لِمَاحِ كَطَرْفِ
الْحَكِيمِ بَيْدَبَا، وَلِذَلِكَ انْصَرَفَ وَهُوَ أَيْضًا عَلَى شَيْءٍ مِنَ انْشِغَالِ الْبَالِ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ
يَشْغَلَ بَالِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، وَيَبْعَثُ الْقَلْقَ فِي نَفْسِهِ، خَاصَّةً أَنَّهُ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ شَيْءٌ

يُمْكِنُ أَنْ يَشْغَلَ بَالِ الشَّيْخِ، أَوْ يُؤَرِّقَ طَرْفَهُ وَهُوَ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا يُكِنُّونَ لَهُ جَمِيعًا مِنْ مَحَبَّةٍ
وَتَقْدِيرٍ، وَلِذَلِكَ قَرَّرَ أَلَّا يُثْقَلَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَأَنْ يَتْرَكَ الْأَمْرَ لَهُ لِيَبُوحَ بِمَا فِي ذَهْنِهِ،
فِي الْوَقْتِ وَبِالْأُسْلُوبِ الَّذِي يَرَاهُ.



نَظَرَ السَّيِّخُ الْجَمِيلُ هَانًا بَانًا إِلَى بَيْدَبَا وَهُوَ يَرْقُبُ السَّبَابَ وَالسَّابَاتِ

الْحَمَامَةُ الْحَمَقَاءُ تَلْتَقِطُ الْحَبَّ مِنْ شِبَاكِ الصَّيَّادِ

بَاتَ بَيْدَبَا عَلَى أَحْرَمٍ مِنَ الْجَمْرِ شَوْقًا إِلَى لِقَاءِ الرَّحَالَةِ الْجَلِيلِ ابْنِ بَطُوطَةَ لِيَسْتَكْمِلَ مَعَهُ مَا انْقَطَعَ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ مِنَ الْبَحْثِ، وَلِيَسْتَكْمِلَ الْحَدِيثَ مَعَهُ بِشَأْنِ الْأَمْرِ الْآخِرِ الَّذِي يُقْلِقُهُ وَيَتَشَوَّقُ إِلَى سَمَاعِ رَأْيِ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ ابْنِ بَطُوطَةَ بِشَأْنِهِ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ ضَالَّتَهُ عِنْدَهُ، كَمَا وَجَدَهَا فِيمَا سَبَقَ الْحَدِيثُ وَالْبَحْثُ فِيهِ مِنْ شُؤُونَِ فَلَسَفَةِ الْحَيَاةِ.

دَخَلَ بَيْدَبَا عَلَى الشَّيْخِ فَوَجَدَهُ قَدْ جَلَسَ لِشَأْنِ يَوْمِهِ فِي هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

نَظَرَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ هَاشَا بَاشًا إِلَى بَيْدَبَا وَهُوَ يَرْقُبُ الشَّبَابَ وَالشَّابَاتِ وَهُمْ يَتَوَافِدُونَ إِلَى مَجْلِسِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَرَاكَ وَمَنْ مَعَكَ قَدْ بَكَرْتُمْ فِي الْحُضُورِ إِلَى مَجْلِسِنَا الْيَوْمَ، وَكَأَنَّكَ مَازِلْتَ تُدِيرُ فِي نَفْسِكَ مَا كُنَّا نَتَحَاوَرُ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الْأَمْسِ.

قَالَ بَيْدَبَا: صَدَقَ ظَنُّكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَإِنِّي وَإِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي فِي أَشَدِّ الشَّوْقِ لِمُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ مَعَكَ قَبْلَ أَنْ يُقْلَعَ شِرَاعُكَ عَن أَرْضِنَا، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَنَا بَعْدَ أَنْ تُغَادِرَ أَرْضِنَا لِقَاءَ بَكَ مَرَّةً أُخْرَى، وَبِذَلِكَ نُحْرَمُ مِنْ حِوَارِكَ وَالْإِفَادَةِ مِنْ حِكْمَتِكَ وَخِبْرَتِكَ.

قَالَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ لَنْ تَطُولَ صُحْبَتُنَا لَا أَظُنُّ أَنَّهُ سَيَكُونُ وَلَنْ يَكُونَ لِقَاءَ لَنَا مِنْ بَعْدُ، وَصَمَتَ لِحُظَّةٍ مُؤَثِّرَةً ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ لَقَدْ تَأَمَّلْتُ مَا

سَمِعْتُهُ أَنَا بِدَوْرِي مِنْكَ أَيضًا عَنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْكَوْنِ عَلَى هَيْئَةٍ مَنْظُومَاتٍ لَهَا
حُدُودٌ وَضَوَائِبُ تُؤَدِّي بِهَا مَهْمَتَهَا؛ فَإِذَا تَجَاوَزْتَ حُدُودَهَا وَقَوَاعِدَهَا انْهَارَتْ الْمَنْظُومَةُ
أَيًّا كَانَتْ، وَكَيْفَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَحَيَاتَهُ وَمَجَالَاتِهِ فِي الْاجْتِمَاعِ وَفِي الْحُرِّيَّاتِ وَالثَّقَافَاتِ
وَالْحَضَارَاتِ لَيْسَتْ اسْتِثْنَاءً، وَأَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ حُدُودَ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ
وَقَوَاعِدِهَا وَضَوَائِبِهَا، وَكَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَهَا، وَإِلَّا فَقَدْ مَعْنَى حَيَاتِهِ وَحِكْمَةَ وُجُودِهِ،
وَانْهَارَتْ مَنْظُومَةُ حَيَاتِهِ وَعُمْرَانِهِ وَحَضَارَتِهِ.

نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ إِذَا أَدْرَكْنَا ذَلِكَ أَدْرَكْنَا أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْحُرِّيَّةِ وَلَا ضَوَائِبِهَا، وَمَنْ
يُطْلِقُ لِنَفْسِهِ الْحُرِّيَّةَ عَلَى عَوَاهِنِهَا طَلَبًا لِلذَّوِّ وَالْهَوَى الْحَيَوَانِيِّ، وَمِنْ دُونِ نَظَرٍ إِلَى الْقِيَمِ
وَالْعَوَاقِبِ، وَمَعْنَى الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَغَايَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا، وَمَا يُصْلِحُ أَمْرَهَا أَوْ يُفْسِدُ
مَنْظُومَتَهَا، مَثَلُ هَذَا الْإِنْسَانِ، وَمَثَلُ هَذَا الْمُجْتَمَعِ يَا بَيْدَبَا، مَثَلُ الْفَرَّاشَةِ فِي حِمَاقَتِهَا
حِينَ تَرْقُصُ طَلَبًا لِبَهْجَةِ الضَّوِّ، وَلَكِنْ مِنْ دُونِ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَ ضَوْءِ النُّورِ وَحَرَارَةِ النَّارِ؛
فَيَكُونُ مَصِيرُهَا الْهَلَاكُ وَالذَّمَارُ.

وَمَثَلُ هَذَا الْإِنْسَانِ وَهَذَا الْمُجْتَمَعِ أَيضًا يَا بَيْدَبَا؛ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْحَمَقَاءِ فِي غَفْلَتِهَا
وَقُصُورِ نَظَرِهَا حِينَ تَطْلُبُ الطَّعَامَ، مِنْ دُونِ أَنْ تَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ تَحْصُلُ عَلَيْهِ، وَلَا كَيْفَ

تَطْلُبُهُ، فَتَلْتَقِطُ حَبَّاتِ الْقَمْحِ مِنْ بَيْنِ خُيُوطِ شَبَاكِ الصَّيَّادِ، فَيَكُونُ لَهَا فِي ذَلِكَ شَرُّ الْمَوْرِدِ وَمَصِيرُ الْهَلَاكِ.

قَالَ بَيْدَبَا: صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَأَصَبْتَ، فَفَرَّقْتَ بَيْنَ مَنْ يُخْطِئُ وَمَنْ يَضْعَفُ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْعَى مُدْرِكًا عَامِدًا إِلَى الْفَسَادِ وَالشَّرِّ وَالضَّرِّ طَاعَةً لِهَوَى النَّفْسِ الْأَمَارَةِ وَنَزَوَاتِهَا الْمُنْفَلِتَةِ، مِنْ دُونِ رَادِعٍ مِنْ خُلُقٍ وَلَا مَسْئُولِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، لِأَنَّ مَنْ طَلَبَ الْفَسَادَ وَالشَّرَّ وَالضَّرَّ طَاعَةً لِهَوَى النَّفْسِ وَنَزَوَاتِهَا عَامِدًا مُتَعَمِّدًا مِنْ دُونِ رَادِعٍ مِنْ خُلُقٍ وَلَا مَسْئُولِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ؛ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ عَدُوٌّ لِلْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ، وَإِنْ سُلُوكُهُ لَيْسَ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَلَا مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ فِي شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْإِنْحِطَاطُ وَالْفَوْضَى وَالتَّخَلُّفُ وَالْعَدَمِيَّةُ بِعَيْنِهَا، عَلِمَ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَعْلَمْ، قَدَّرَ الْأَثَارَ الْعَاجِلَةَ وَالْأَجَلَةَ أَمْ لَمْ يُقَدِّرْ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْحَكِيمُ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ -كَمَا ذَكَرْتَ- فِي هَذَا الْكَوْنِ مَنْظُومَةٌ وَبِقَدَرٍ، فَمَنْظُومَةُ الْحُرِّيَّةِ مِثْلُ مَنْظُومَةِ الذَّرَّةِ وَمَنْظُومَةُ الْمَجْرَّةِ، كُلُّ لَهُ حُدُودُهُ وَقَوَاعِدُهُ وَضَوَابِطُهُ، وَمَا مِنْ مَنْظُومَةٍ أَيًّا كَانَتْ مَنْزِلَتُهَا وَأَهَمِّيَّتُهَا، تَتَجَاوَزُ حُدُودَهَا وَتَنْتَهِكُ قَوَاعِدَهَا وَضَوَابِطَهَا إِلَّا كَانَ مَصِيرُهَا الْإِنْهِيَارُ وَالذَّمَارُ؛ تِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، جَمَادًا وَحَيَوَانًا وَبَشَرًا، وَتِلْكَ هِيَ دُرُوسُ الْعِبْرَةِ فِي حَالِ الْكَوْنِ وَنَوَامِيسِهِ، وَفِيهَا سَلَفٌ مِنْ حَالِ الْأُمَّمِ.

هَذَا وَجَّهَ أَحَدُ الشَّبَابِ الْحَدِيثَ إِلَى الشَّيْخِ، وَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ أَنْ تَضْرِبَ لَنَا مَثَلًا لِلْمَنْظُومَةِ تَنْهَارُ؛ لِأَنَّنا لَمْ نَتَّعَامَلْ مَعَهَا عَلَى أَصْلِ طَبْعِهَا وَقَوَاعِدِ بِنَائِهَا؟ قَالَ الشَّيْخُ: أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ؛ الْمَثَلُ الَّذِي أَضْرِبُهُ هُوَ مَنْظُومَةٌ أَقْرَبُ مَا تَكُونُ إِلَيْنَا، إِنَّهَا جَسَدُ الْوَاحِدِ مِنَّا؛ فَهُوَ مَنْظُومَةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ مَنْظُومَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُهُمْ أَنَّ تَنَاوُلَ الْإِنْسَانِ لِلْأَكْسِجِينِ أَمْرٌ مُفِيدٌ، وَأَقُولُ لَكَ أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ: إِنَّ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بِإِطْلَاقِهِ مُخْطِئٌ، وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُهُمْ أَنَّ تَنَاوُلَ الْأَكْسِجِينِ ضَارٌّ، وَهُوَ أَيْضًا مِثْلُ سَابِقِهِ مُخْطِئٌ، وَالسَّبَبُ فِي خَطَا الْإِثْنَيْنِ، أَنَّ الْجَسَدَ مَنْظُومَةٌ، وَيَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ تَعْمَلُ هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ، وَنَعْرِفَ قَوَاعِدَ بِنَائِهَا وَطَبِيعَةَ تَكْوِينِهَا، قَبْلَ أَنْ نُقَدِّمَ أَوْ نُقَدِّفَ فِي كَيَانِ الْمَنْظُومَةِ أَيَّ شَيْءٍ.

إِنَّا أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ؛ إِذَا أَخَذْنَا الْأَكْسِجِينِ مِنْ أُنُوفِنَا فَإِنَّهُ يَنْفَعُنَا، أَمَا إِذَا أَخَذْنَا سَنْتِمِثْرًا وَاحِدًا مِنْهُ فِي الْوَرِيدِ فَإِنَّهُ يَكُونُ حِينَهَا جُرْعَةً قَاتِلَةً، فَلَيْسَ الْأَمْرُ أَمْرَ الْأَكْسِجِينِ، وَلَكِنَّ الْمُهْمَّ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ تَتَمَثَّلُ مَنْظُومَةُ جِسْمِنَا مَادَّةَ الْأَكْسِجِينِ، وَشَأْنُ الْمَاءِ شَأْنُ الْأَكْسِجِينِ، فَإِنْ أَخَذْنَا الْمَاءَ مِنَ الْمَرِيءِ نَفَعْنَا، وَإِنْ أَخَذْنَاهُ مِنَ الْقَصَبَةِ الْهَوَائِيَّةِ قَتَلْنَا. صَمَتَ الشَّيْخُ بَعْدَ ذَلِكَ لِحُظَّةً، ثُمَّ تَحَدَّثَ مُوجِّهًا الْحَدِيثَ إِلَى بَيْدَبَا قَائِلًا لَهُ: دَعْنِي يَا

بَيَدَبَا أَوْاصِلُ مَا انْقَطَعَ مِنَ الْحَدِيثِ بِشَأْنِ مُجْتَمَعِ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ، فَهُوَ -كَمَا يُهْمُكَ أَنْ تَعْلَمَ يَا بَيَدَبَا- لَمْ يَكُنْ وَعَيْهُ بِالْمَعَانِي، وَعِلْمُهُ بِالْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ، هُوَ الْعَامِلُ الْأَوْحَدُ أَوْ الْأَهَمُّ؛ بَلْ كَانَ الْعَامِلُ الْأَهَمُّ هُوَ الْفِعْلُ، وَهُوَ الْإِرَادَةُ؛ لِأَنَّ الْعِبْرَةَ فِي النِّهَايَةِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْفِعْلِ وَالْمُمَارَسَةِ وَإِتْبَاعِ الْأَقْوَالِ بِالْأَعْمَالِ، فَلَا يَكْفِي الْفَهْمُ الصَّحِيحُ لِمَعْنَى الْحُرِّيَّةِ فِي مَنْظُومَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ هُوَ أَنْ يُمَارَسَ الْأَفْرَادُ وَالْمُجْتَمَعُ فَهْمَهُمُ الصَّحِيحَ لِحُرِّيَّتِهِمْ وَلِمُجْتَمَعِهِمْ، وَأَنْ يَأْخُذُوا أَنْفُسَهُمْ وَسُلُوكَهُمْ بِمَا وَقَرَّ فِي نُفُوسِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ مِنْهَا. قَالَ بَيَدَبَا: وَكَيْفَ يَتَأْتَى ذَلِكَ أَيُّهَا الرَّحَّالَةُ الْحَكِيمُ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ: هُنَا يَأْتِي دَوْرُ التَّرْبِيَةِ وَالْوَجْدَانِ، فَإِنَّ الْوَجْدَانَ وَالسُّلُوكَ هُوَ تَرْبِيَةٌ تَبْدَأُ مِنْذُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لِوِلَادَةِ الْمَوْلُودِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَوْلُودَ فِي سُلُوكِهِ وَوَجْدَانِهِ، وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَدْعُ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ، إِنَّمَا يَرْجِعُ فِي أُسَاسِهِ إِلَى تَرْبِيَّتِهِ صَغِيرًا كَمَا عَوَّدَهُ أَبَوَاهُ؛ يُصْبِحَ ذَلِكَ السُّلُوكُ لَدَى الْفَرْدِ صِفَةً وَخَصْلَةً لَا تُفَارِقُ وَجْدَانِهِ، وَإِنْ تَفَلَّتْ أَوْزَاعُ عَنْهَا فِي لَحْظَةٍ ضَعْفٍ وَانْحِرَافٍ، فَإِنَّ وَجْدَانَهُ وَضَمِيرَهُ يُؤَرِّقَانِهِ وَيَقُودَانِهِ إِلَى مَا اسْتَقَرَّ فِيهِمَا، وَمَا تَعَوَّدَ عَلَيْهِمَا، فِي طُفُولَتِهِ وَنُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، وَمَهْدِ نَشَاتِهِ "فَمَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ". وَصَدَقَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفَتِيَانِ فِيْنَا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ



وَإِذَا تَهَدَّمَتِ الْأُسْرَةُ وَسَاءَتِ التَّرْيِيبَةُ انْحَطَّ الْجُمُعُ

فَالْأُسْرَةُ وَالتَّرْبِيَّةُ، وَالْوَعْيُ التَّرْبَوِيُّ الْوَالِدِيُّ، هُوَ السِّرُّ الْحَقِيقِيُّ فِي رُقِيِّ الْمُجْتَمَعَاتِ،
 وَفِي مَتَانَةِ بِنَائِهَا، فَإِذَا سَلِمَ بِنَاءُ الْأُسْرَةِ وَارْتَقَتْ تَعَامُلَاتُهَا وَحَسُنَتْ التَّرْبِيَّةُ فِيهَا ارْتَقَى
 الْفَرْدُ وَالْمُجْتَمَعُ فِي سُلْمِ النُّورِ وَالرُّوحِ، وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَقَوِي نَسِيحِ الْمُجْتَمَعِ، وَإِذَا
 تَهَدَّمَتِ الْأُسْرَةُ وَسَاءَتِ التَّرْبِيَّةُ انْحَطَّ الْمُجْتَمَعُ فِي سُلْمِ الظُّلْمَةِ وَالْعَدَمِيَّةِ وَالطَّيْنِ،
 وَانْتَهَى الْفَرْدُ وَالْجَمَاعَةُ إِلَى التَّمَرُّقِ وَالصِّرَاعِ وَالضِّيَاعِ، طَالَ الزَّمَنُ أَمْ قَصُرَ، إِنَّ الْحَيَاةَ
 يَا بَيْدَبَا حَرَكَةٌ دَائِمَةٌ، وَهِيَ حَرَكَةٌ حَلْزُونِيَّةٌ، أَمَا تَرْتَقِي وَتَتَّسِعُ، وَأَمَا تَنْزُلُ وَتَضِيقُ وَتَنْحَطُّ
 وَهَذَا هُوَ دَرَسُ التَّارِيخِ وَعِبْرَةُ الْحَضَارَاتِ، وَالْعَاقِلُ يَا بَيْدَبَا "لَا يُجْرِبُ الْمُجْرَبَ".
 خُلَاصَةُ الْقَوْلِ يَا بَيْدَبَا أَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلْحَيَاةِ مِنْ دُونِ حُرِّيَّةِ، وَلَا وُجُودَ لِلْحُرِّيَّةِ مِنْ دُونِ
 التَّرْبِيَّةِ وَالتَّعَوُّدِ وَالتَّضَبُّاطِ الَّذِي يُوَلِّدُ حَسَاسِيَّةَ الضَّمِيرِ وَرُقِيَّ الْخُلُقِ وَحِسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ
 وَتَقْدِيرَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ.

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ كَانَ دَرَسُ الْحُرِّيَّةِ الَّذِي وَضَّحْتَ لَنَا أَبْعَادَهُ الْأَخْلَاقِيَّةَ وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ أَهْيَا
 الشَّيْخُ الرَّحَّالَةُ الْحَكِيمُ مِنْ أَثْمَنِ الدُّرُوسِ وَأَهْمُّهَا فِي حَيَاتِنَا؛ لِأَنَّهَا أَزَالَتْ عَنْ أَعْيُنِنَا
 غِشَاوَةً، وَأَزَالَتْ غَبْشًا عَانَاهُ -وَمَا يَزَالُ يُعَانِيهِ بِحُسْنِ نِيَّةٍ- الْكَثِيرُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ،
 وَأَوْقَعَهُمْ، وَمَا يَزَالُ يُوقِعُهُمْ، فِي الْفَوْضَى الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَانْتِشَارِ الرِّذَائِلِ، وَتَحَلُّلِ الْأَسْرِ،

وَتَقَطُّعَ الْأَوَاصِرِ، مِمَّا يُرَكِّسُهُمْ مِنْ آفَاقِ سُلَمِ النُّورِ وَالرُّوحِ لِيَكُونُوا فِي أَسْفَلِ دَرَكِ الطِّينِ
وَالْغَابِ، وَهُمْ -بِسَبَبِ هَذَا الْخَلْطِ، وَهَذَا الْغَبْشِ وَبِسَبَبِ ارْتِكَاسِهِمُ الرُّوحِيَّ وَاسْتِهَانَتِهِمْ
وَتَعَوُّدِهِمْ وَإِدْمَانِهِمْ الشَّهَوَاتِ وَالْمُوبِقَاتِ وَالرِّذَالَاتِ وَالْمُسْكِرَاتِ- لَمْ يَتَدَبَّرُوا
بِمَوْضُوعِيَّةٍ مُجَرَّدَةٍ سُنَنِ الْكُونِ، وَغَائِيَّةِ الْخَلْقِ وَتَكَامُلِهِ، وَأَخْلَاقِيَّةِ الْإِسْتِخْلَافِ، وَلَمْ
يَتَعَضُّوا بِمَا أَصَابَ سَالِفَ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ الَّتِي انْتَهَرَ عُمرَانَهَا، وَهَدِمَتْ
حَضَارَاتُهَا؛ لِأَنَّ بَصَائِرَهُمْ تَعَمَّى عَنْ إِدْرَاكِ أَنَّ مَا أَصَابَ تِلْكَ الْأُمَّةَ إِنَّمَا كَانَ فِي الْجَوْهَرِ
بِسَبَبِ تَسَلُّطِ النَّزَوَاتِ الطِّينِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الضَّالَّةِ، وَانْتِهْيَارِ الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ، وَفَسَادِ
التَّرَفِ وَتَسَلُّطِ الْمَصَالِحِ، وَتَقَطُّعِ الْأَوَاصِرِ فِي تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تِلْكَ الْأُمَّةُ
وَالْحَضَارَاتُ فِي أَوْجِ قُوَّتِهَا وَحَمِيَّتِهَا وَتَكَافُلِهَا وَازْدَهَارِهَا، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ، وَإِنْ
ظَنُّوا فِي غَيْبِهِمْ وَضَلَالِهِمْ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

إِنَّ مِنَ الْمُهِمِّ يَا بَيِّدِيَا؛ أَنْ يُدْرِكَ الشَّبَابُ، وَأَنْ يُدْرِكَ الْمُرْتَبُونَ، وَأَنْ يُدْرِكَ
الْمُصْلِحُونَ، وَأَنْ تُدْرِكَ الشُّعُوبُ وَالْأُمَمُ، أَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الْأُمَّةِ حِسُّ الْغَائِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ،
وَبِنَاءِ التَّكَامُلِيَّةِ، كَانَ هُنَاكَ أَمَلٌ فِي نَجَاحِ جُهُودِ الْإِصْلَاحِ، وَالتَّصَدِّي لِمَا يَطْرَأُ مِنْ ظَوَاهِرِ
السَّلْبِيَّاتِ وَالْإِنْجِرَافَاتِ، أَمَّا حِينَ تَفْقِدُ الْأُمَّةُ وَالشُّعُوبُ ذَلِكَ الْحِسَّ وَتُصْبِحُ الْفَوْضَى

الأخلاقية المُدمّرة بديلاً عن الحرّية البناءة المُبصرة، فإنّ الأمم حينئذٍ تفقد حسّ التّفريقه بين الصّواب والخطأ، وبين المُصلح والمُفسد، وبين الرّاشد والمنحرف، وبين الذّكر والأنثى، وبين العامل المُنتج والإمعة المُحتال.

عندما يبلغ الأمرُ بأيّ أمةٍ أو حضارةٍ إلى هذه الحالِ يا بيدبا، فإنّه لا مجال حينئذٍ للرجعة أو المُراجعة، ولا أمل في الإصلاح، لأنّها أمست أمةً آذانها لا تسمع، وأعينها لا تبصر، وأفئذتها لا تعقل "إنّهم كالأنعام بل هم أضلّ" يا بيدبا.

تلك يا بيدبا سنّة الله في الخلق، نشاهدُها دُرُوسًا من التاريخ، وعبرةً في حالِ سالفِ حضاراتِ الأممِ الفاسدةِ المُفسدةِ البائدة، مَهْمَا بَدَأَ فِي حِينِهِ مِنْ قُوَّتِهَا وَسَطُوَّتِهَا وَثَرَائِهَا، فَبِهِ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهَا أُمِسَتْ "نُورًا مِنْ وَرَقٍ" وَأَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ "لَا تَصْمُدُ أَمَامَ هُبُوبِ رِيَا حِ أُمَّةٍ وَحَضَارَةٍ نَاهِضَةٍ مُصْلِحَةٍ.

تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْحَدِيثِ وَأَرخَى بَصَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ مُفَكِّرًا مُتَأَمِّلًا، ثُمَّ أَرْسَلَ نَظْرَهُ عِبْرَ النَّافِذَةِ إِلَى أَسْرَابِ طُيُورِ الْبَجَعِ وَالْأَوْزِ وَالْيَمَامِ وَالْحَمَامِ الَّتِي كَانَتْ تُفْرِدُ أَجْنِحَتَهَا الْمُتَلَالِئَةَ عِبْرَ الْأَفُقِ الْوَرْدِيِّ الْمُضِيِّ، وَتُرْسِلُ أَنْغَامَ أَصْوَاتِهَا الْغَرْدَةِ الشَّجِيَّةِ فِي أَرْجَاءِ الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، إِلَى حَيْثُ تَنْشُدُ غَايَةَ تَجْوَالِهَا وَهَجْرَاتِهَا الْبَعِيدَةِ فِي شَوْقٍ وَدَأْبٍ وَانْطِلَاقٍ وَحَرِيَّةٍ.



ثُمَّ أَرْسَلْنَا نَظْرَهُ عَبْرَ النَّافِذَةِ إِلَى آسْرَابِ طُيُورِ الْبَجَعِ وَالْأَوْزِ وَالْيَمَامِ وَالْحَمَامِ

عِنْدَهَا قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةَ يُخَاطَبُ بِيَدَبَا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رَهْطِ الشَّبَابِ وَالشَّبَابَاتِ:
انظُرْ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ إِلَى الْفَضَاءِ الرَّحْبِ الْمُضِيِّ عِبْرَ النَّافِذَةِ وَأَمْلَأْ نَاطِرِيكَ مِنَ الْوَانِهِ
الْبَدِيعَةِ الزَّاهِيَةِ، وَانظُرْ إِلَى هَذِهِ الْأَسْرَابِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الطُّيُورِ بِأَشْكَالِهَا وَالْوَانِيَا وَالْحَانِيَا
الْجَمِيلَةِ الْمُتَنَاعِمَةِ، أَمْلَأْ نَاطِرِيكَ مِنْهَا وَهِيَ تَنْطَلِقُ فِي شَوْقٍ وَجِدٍّ وَدَأْبٍ وَحُرِّيَّةٍ نَحْوَ
غَايَاتِهَا، وَكَيْفَ تَرَى أَسْرَابَهَا تَتَشَابَهُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، بَرَعِمَ مَا بَيْنَهَا مِنْ اخْتِلَافَاتٍ كَثِيرَةٍ؛
فَتَجِدُ فِي ذَلِكَ جَمَالَ التَّنَوُّعِ وَالِاخْتِلَافِ، وَجَمَالَ تَكَامُلِ التَّنَوُّعِ وَالِاخْتِلَافِ؛ وَهُوَ مَا
يَجْعَلُهَا جَمَاعَةً رُفْقَةً فِي الطَّرِيقِ، وَوَحْدَةً فِي الْغَايَةِ وَالْهَدَفِ.

نَعَمْ أَيُّهَا الْعَزِيزُ بِيَدَبَا؛ حَرِيٌّ بِكُلِّ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ عَلَى اخْتِلَافِ الْوَانِيَا وَالْأَسْنِيَّتِيَا
وَطَاقَاتِهَا، أَنْ تُؤَلِّفَ غَايَاتَهُمُ النَّبِيلَةَ قُلُوبَهُمْ لِإِغْنَاءِ الْحَيَاةِ، وَإِعْمَارِ الْحَيَاةِ، فِي جِدِّ وَدَأْبٍ
وَتَكَامُلٍ وَتَرَاحُمٍ وَعَدْلٍ وَسَلَامٍ، وَبِكُلِّ الْوُدِّ وَالِاقْتِنَاعِ وَالْحُرِّيَّةِ؛ لِأَنَّ فِي الْحُرِّيَّةِ الْحَقَّةِ
تَحْقِيقَ الذَّاتِ، وَتَحْقِيقَ خِيَارِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ وَأَمَانَتِهَا فِي قَصْدِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ
وَالْتَّكَاوُلِ وَالسَّلَامِ، وَتِلْكَ وَلَا شَكَّ أَعْلَى حَصِيلَةٍ، وَأَثْمَنُ هَدِيَّةٍ، وَأَسْمَى غَايَةٍ تَنَالُهَا
الْمَخْلُوقَاتُ فِي صُحْبَةِ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ.

قَالَ بِيَدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ دُونَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَالْحُرِّيَّةِ الْحَقَّةِ، وَشَرَفِ

الْكَرَامَةِ، فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ وَلَا وُجُودَ يَسْتَحِقُّ الْكَدَّ وَالْكَدْحَ وَالْعَنَاءَ وَالتَّعَبَ، فَبِالْعَقْلِ وَالْحُرِّيَّةِ الْحَقَّةِ وَشَرَفِ الْكَرَامَةِ يَكُونُ الرِّضَا وَالْقَنَاعَةُ وَالْبَدَلُ وَالْعَطَاءُ وَبِهَا تَحْلُو الْحَيَاةُ، وَيَهُونُ الْعَنَاءُ، وَلَوْ بِلُقْمَةٍ تَمَلَأُ الْجَوْفَ، وَكِسْوَةٍ تَسْتُرُ الْجَسَدَ، وَسَقْفِ حُجْرَةٍ تَغْفُو فِيهَا الْعَيْنُ، وَمَا زَادَ مِنْ حَلَالٍ عَمَلٍ مُخْلِصٍ مُتَقِنٍ فَخَيْرٌ وَمُتَعَةٌ، وَبَدَلٌ وَعَطَاءٌ وَمِنْ دُونَ حِكْمَةِ الْعَقْلِ وَمِنْ وَدُونَ الْحُرِّيَّةِ الْحَقَّةِ الْبِنَاءِ وَمِنْ دُونَ شَرَفِ الْكَرَامَةِ، مَهْمَا أَتَخَمَتِ الْمَوَائِدُ وَتَكَدَّسَتِ الْأَكْسِيَّةُ، وَتَرَاصَّتْ صُفُوفُ الْمَجَالِسِ وَالْحُجْرَاتِ، فَمِثْيَ وَهَمٌّ وَسَرَابٌ، وَلَا عِوَضَ فِيهَا عَنِ الْحِكْمَةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَمَا يَسْتَتْبِعُهَا بِالضَّرُورَةِ مِنْ قِيَمِ الْعَدْلِ وَالتَّرَاحُمِ وَالْإِصْلَاحِ، وَإِلَّا سَادَ الْإِسْتِبْدَادُ وَالظُّلْمُ، وَفَشَا الْجَوْرُ وَالْفَسَادُ وَالْإِفْسَادُ.

نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْدَبَا وَالمَجْلِسِ مِنْ خَلْفِهِ وَقَالَ: اذْكَرْ مَعِيَ يَا بَيْدَبَا أَنْتَ وَإِخْوَانُكَ وَأَخَوَاتُكَ وَمَنْ وَرَاءَكُمْ؛ أَنَّهُ لَا يُغَرِّدُ إِلَّا الْبُلْبُلُ الْحُرُّ الْمُحَلِّقُ فِي الْفَضَاءِ، وَلَا يَزَارُ إِلَّا الْأَسَدُ الْحُرُّ الطَّلِيقُ فِي الْغَابِ.

قَالَ بَيْدَبَا وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ ذِكْرِيَّاتِ زِيَارَةِ الشَّيْخِ وَأَحَادِيثَ مَجْلِسِ حِكْمَتِهِ: نَعَمْ أَرْجُو أَنْ نَتَعَلَّمَ جَمِيعًا مِمَّا أَخْبَرْنَا بِهِ الْحَكِيمُ ابْنُ بَطُوطَةَ عَنْ أَمْرِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ

دُرُوسٍ، وَاقْتِرَانَهَا بِالْخَيْرِ وَحِكْمَةِ الْعَقْلِ، فَلَنْ تَبْقَى أُمَّةٌ، وَلَنْ يَدُومَ عِزُّهَا، وَلَنْ تُسْهِمَ فِي
تَسْخِيرِ الْخَيْرِ لِلْكَوْنِ، وَفِي بِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْحَقَّةِ لِلْإِنْسَانِ، مَا لَمْ تَكُنْ الْأُمَّةَ وَاعِيَةً حُرَّةً
كَرِيمَةً خَيْرَةً؛ فَتُدْرِكُ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ وَالْغَايَةَ الصَّحِيحَةَ لِحُرِّيَّتِهَا، وَكِرَامَةِ الْإِنْسَانِ
فِيهَا، وَتَعْرِفُ كَيْفَ تُمَارِسُ الْأُمَّةَ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ، وَكَيْفَ تُرَبِّي أَبْنَاءَهَا، وَكَيْفَ تُلْزِمُهُمْ جَادَّةً
حِكْمَةَ الْعَقْلِ، وَكَيْفَ تُعَوِّدُهُمْ بِالْفِعْلِ عَلَى تَمَثُّلِهَا وَمُمَارَسَتِهَا عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ فِي
قَصْدِ الْخَيْرِ وَالصَّوَابِ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ جُزْءًا وَمُنْطَلَقًا أَسَاسِيًّا فِي مَنْظُومَةِ قِيَمِ الْأُمَّةِ
وَمَنَاهِجِ تَرْبِيَّتِهَا وَبِنَاءِ ثَقَافَتِهَا وَعُمُرَانِهَا.



أَذِنَ الشَّيْخُ لِلْفَتَاةِ مُبَدِّئًا اهْتِمَامَهُ بِسُؤَالِهَا وَمَا يَجُولُ بِخَاطِرِهَا

يَوْمَ سَقَطَتْ وَرَقَةُ التُّوتِ وَمَشَى السُّلْطَانُ عُرْيَانًا

وَعَلَى الْعَادَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ التَّامِ شَمَلُ الْقَوْمِ يَتَقَدَّمُهُمُ الْفَيْلَسُوفُ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا لِلِسَّمَاعِ وَالْحَوَارِمَعُ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ الرَّحَّالَةُ الْحَكِيمُ ابْنُ بَطْوُطَةَ.

أَخَذَ الشَّيْخُ مَوْضِعَهُ مِنْ صَدْرِ الْمَجْلِسِ كَالْمُعْتَادِ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ حَدِيثَهُ فِي الْحَوَارِمَعِ الْحَكِيمِ بَيْدَبَا، اسْتَأْذَنْتُ إِحْدَى الْفَتَيَاتِ فِي سُؤَالِ الشَّيْخِ بِشَأْنِ أَمْرٍ لَمْ تَفْهَمْهُ، عَنْ مَفَاهِيمِ لِلْحُرِّيَّةِ عَجِيبَةٍ، لَعَلَّ لَدَى الشَّيْخِ مَا يُوضِّحُهَا فَلَا تُثِيرُ فِي نَفُوسِ الشَّبَابِ عَبَثًا وَتَخْلِيطًا يَهْدِمُ أَسَسَ ثَوَابِتِ الْأُمَّةِ وَرُؤْيَا أُمَّتِهِمُ الْكُونِيَّةِ الْبَدِيعَةَ.

أَذِنَ الشَّيْخُ لِلْفَتَاةِ مُبَدِّيًا اهْتِمَامَهُ بِسُؤَالِهَا وَمَا يَجُولُ بِخَاطِرِهَا، وَقَالَ لَهَا: حَدِيثُنَا الْأُخْتِ عَمَّا أَهَمَّكَ وَجَالَ فِي خَاطِرِكَ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، أَنَّ مِنَ الثَّوَابِتِ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهَا أُمَّتُنَا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ حُرِّيَّةَ الْعَقِيدَةِ وَالرَّأْيِ، وَلَا مَجَالَ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِغَيْرِ الْحَوَارِمَعِ وَالْإِقْتِنَاعِ، وَفِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ فَإِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ رَأْيَهُ وَاقْتِنَاعَهُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِهِ وَاقْتِنَاعِهِ، وَخِيَارِهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ - بِرُؤْيَا سُورَى جُمْهُورِ الْأُمَّةِ وَحَوَارَاتِهَا الْحُرَّةِ - مَا يُؤْذِي بِهِ نَفْسَهُ أَوْ مُجْتَمَعَهُ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مِنْ حَقِّ كُلِّ فَرْدٍ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ رَأْيِهِ وَاقْتِنَاعِهِ، وَأَنْ يَأْخُذَ قَرَارَهُ، مِنْ

دُونَ مَسَاسٍ بِحُقُوقِ الْأَخْرَيْنَ وَكِرَامَاتِهِمْ وَاقْتِنَاعَاتِهِمْ، وَهُنَا رَفَعَتِ الْفَتَاةُ رَأْسَهَا وَنَظَرَتْ إِلَى الشَّيْخِ وَقَالَتْ: أَلَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ يَا سَيِّدِي حَقًّا وَصَوَابًا؟

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ مُوَكَّدًا بِهَيْزَةِ رَأْسِهِ وَابْتِسَامَتِهِ سَلَامَةً مَا تَقُولُهُ الْفَتَاةُ، وَقَالَ: نَعَمْ أَيَّتُهَا الْأُخْتُ، كُلُّ مَا قُلْتِهِ صَوَابٌ لَا يُنَازَعُكَ فِيهِ عَاقِلٌ مُنْصِفٌ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي، فَإِنَّ ذَلِكَ وَهُوَ مَا حَدَّثْتَنَا بِهِ، وَجَمِيعُنَا يُؤْمِنُ بِهِ وَيَعْلَمُ صَوَابَهُ، وَهُوَ أَنَّ جَوْهَرَ الْحُرِّيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَكْمُنُ فِي تَمَكِينِ كُلِّ فَرْدٍ فِي الْمُجْتَمَعِ مِنْ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالْحُرِّيَّةِ الْكَامِلَةِ مِنْ دُونِ أَيِّ مُعَوَّقَاتٍ أَوْ عَرَاقِيلَ تَحُولُ دُونَ الْعَمَلِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْإِسْهَامِ الْبِنَاءِ فِي نَفْعِ الذَّاتِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْأُمَّةِ.

وَالسُّؤَالُ يَا سَيِّدِي، كَيْفَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْحِرْصَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَرِقِي الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَنْ يُصْبِحَ طَلَبُ الصَّوَابِ وَارْتِكَابُ الْخَطَا الْأَمْرُ لَدَيْهِمْ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ سِيَّانَ، فَلَا فَرْقَ عِنْدَهُمْ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَا، وَلَا بَيْنَ الْفُضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ، وَلَا بَيْنَ الْبِنَاءِ وَالْهَدْمِ.

وَلَيْتَ الْأَمْرِيَا سَيِّدِي يَقِفُ هَؤُلَاءِ فِي هَذَا التَّخَبُّطِ وَالْخَلْطِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يُنْكَرُونَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ غِطَاءَ شَعْرِ الرَّأْسِ عَلَى مَنْ تَرَعَّبُ فِيهِ مِنَ النِّسَاءِ وَبِرَغْبَتِهَا الذَّاتِيَّةِ وَقِنَاعَتِهَا الشَّخْصِيَّةِ؛ طَلَبًا لِمَزِيدٍ مِنَ الْإِحْتِشَامِ، مِنْ بَابِ سَثَرٍ كَلَّ الْمَفَاتِينِ

الْجَسَدِيَّةِ الْمُبَاشِرَةِ وَغَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ، وَمِنْهَا جَمَالُ مَفَاتِنِ شَعْرِ الرَّأْسِ، بِكُلِّ أَلْوَانِهِ السَّوْدَاءِ وَالْفُضِيَّةِ وَالذَّهَبِيَّةِ، مِمَّا لَا يَخْصُ إِلَّا عَلاَقَةَ الرَّوْجِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ إِجْلَالِهِمْ لِمَزِيدٍ مِنَ الطُّهْرِ وَالِاحْتِشَامِ، وَهُنَا نَجِدُ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْفَعُونَ الْعَقِيرَةَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ وَالِدِفَاعِ عَنْهَا يُنَاقِضُونَ أَنْفُسَهُمْ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ وَيَعْتَدُونَ عَلَى الْحُرِّيَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَكَثِيرٍ سِوَاهِ إِلَى حَدِّ الْحَيَوَانِيَّةِ فِي الْخَلْطِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَأِ، وَبَيْنَ الْفُضِيلَةِ وَالرَّذِيلَةِ، إِلَى حَدِّ الْهَزَأِ وَالسُّخْرِيَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْ يُبَدِي حِرْصًا عَلَى أَيِّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْإِحْتِشَامِ، وَلَا يَرُونَ فِي ذَلِكَ بَزْعَمِهِمْ تَنَاقُضًا مَعَ حُرِّيَّةِ الْفَرْدِ، وَحَقِّهِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ رَأْيِهِ وَالْعَمَلِ وَفَقَّ اقْتِنَاعَاتِهِ بِمَا لَا يُؤْذِي الذَّاتَ أَوِ الْمُجْتَمَعَ فِي شَيْءٍ. عَدَا أَوْهَامِهِمْ وَتَحَكُّمَاتِ إِدْمَانِهِمْ عَلَى تَفْسُخَاتِهِمْ وَرَذَائِلِهِمْ، فَيَرُونَ فِي احْتِشَامِ الْمُحْتَشِمَاتِ فَضْحًا وَعُدْوَانًا عَلَى تَفْسُخِهِمْ وَإِدْمَانِ رَذَائِلِهِمْ، فَهُمُ الصَّفْوَةُ وَسِوَاهُمْ مِنَ الْمُواطِنِينَ هُمُ الْغَوْغَاءُ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ صَمَّتِ الْفَتَاةُ وَأَخَذَتْ مَكَانَهَا بَيْنَ الْجُلُوسِ، وَهَكَذَا خِيَمَ عَلَى الْمَجْلِسِ لَحْظَةٌ صَمَّتِ عَمِيقٍ بَعْدَ سَمَاعِ هَذَا الْحَدِيثِ الْمُفْعَمِ بِالْمَنْطِقِ وَالْحَمَاسَةِ وَالْعَاطِفَةِ، وَقَطَعَ الشَّيْخُ هَذَا الصَّمْتَ قَائِلًا:

صَدَقْتَ يَا فَتَاتِي فِي كُلِّ مَا قُلْتِ، وَمَا كَشَفْتِ مِنْ وُجُوهِ الْإِنْجِرَافِ وَالتَّنَاقُضِ الَّذِي يُنْبِئُ

عِنْدَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْقَوْمِ عَنِ تَقْلِيدِ أَعْمَى، وَعَنْ تَخْبُطٍ وَخَلْطٍ وَأَهْدَافٍ خَفِيَّةٍ وَاعِيَةٍ وَغَيْرِوَاعِيَةٍ، مِمَّا تَرَفُّضُهُ عَقَائِدُ الْأُمَّمِ السَّوِيَّةِ وَقِيَمُهَا وَحَضَارَاتُهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْحَقَّةُ.

وَبِاسْتِغْرَاقِ عَمِيقٍ وَاصِلِ الشَّيْخِ حَدِيثُهُ قَائِلًا: إِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ إِلَى إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّاتِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْبِلَادِ فَلِأَنَّهَا قَدْ حَطَّمَتْ فِيهَا مَضَى كَثِيرًا مِنَ الْقِيُودِ الظَّالِمَةِ لِلْأَفْرَادِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَأَطْلَقَتْ كَثِيرًا مِنَ الطَّاقَاتِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ فَرَضَتْهَا قُوَى الْإِسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ؛ طَلَبًا لِاحْتِكَارِ السُّلْطَةِ وَالثَّرْوَةِ فَإِنَّ الْجَهْلَ بِجَوْهَرِ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ وَحُدُودِهَا الْفِطْرِيَّةِ وَغَايَاتِهَا الْبِنَاءِ قَدْ بَلَغَ بِهَا الْيَوْمَ فِي جُلِّ هَذِهِ الْبِلَادِ، إِلَى حَافَةِ الْفَوْضَى وَالْمَادِيَّةِ وَالنَّهْمِيَّةِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَى ظُلُمَاتِ لُجَجِهَا الْمُهْلِكَةِ الَّتِي أَهْلَكَتْ مِنْ قَبْلُ كُلِّ مَنْ عَرَّضَ أُمَّتَهُ لِمَهَالِكِهَا، وَالشَّاهِدُ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مِنَ الْأَطْلَالِ وَالتَّارِيخِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ، وَيَلْمُ شَتَاتَ فِكْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: كَلُّكُمْ يَعْلَمُ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، أَنَّ الْأَدْيَانَ الْإِلَهِيَّةَ إِنْ لَمْ تَدْعُوا إِلَى الْفَضِيلَةِ وَالِاخْتِشَامِ وَطَهَارَةِ عِلَاقَاتِ الْأُسْرَةِ، وَأَدَاءِ حُقُوقِهَا وَحَمَلِ مَسْئُولِيَّاتِهَا بِكُلِّ إِخْلَاصٍ وَأَمَانَةٍ، وَاتِّخَاذِ كُلِّ مَا يُمَكِّنُ مِنْ

قِبَلِ أَعْضَاءِ الْأُسْرَةِ لِلْحِفَاطِ عَلَى عِلَاقَاتِ الْأُسْرَةِ وَقِيمِهَا، صِغَارًا وَكِبَارًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، كُلُّ
 بِحَسَبِ دَوْرِهِ، وَكُلُّ بِحَسَبِ جِبَلَّةِ خَلْقِهِ، وَفِطْرَتِهِ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَالَّتِي تُحَدِّدُ فِي الْجَوْهَرِ
 مَجَالَاتِ دَوْرِهِ، وَمَسْئُولِيَّاتِهِ، وَأَسَاسِيَّاتِ أَدَائِهِ وَسُلُوكِهِ، فِي مُخْتَلَفِ مَرَاجِلِ حَيَاتِهِ،
 بِشَكْلِ يَتَكَامَلُ مَعَ بَقِيَّةِ أَعْضَاءِ الْأُسْرَةِ وَمَسْئُولِيَّاتِهِمْ. نَعَمْ إِنَّهُ لَصَحِيحٌ مَا ذَكَرْتَهُ آيَّتُهَا
 الْأُخْتِ بِشَأْنِ بَعْضِ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَبِشَأْنِ بَعْضِ الْفِنَائِاتِ الَّتِي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالْحُرِّيَّةِ
 وَالِدِّفَاعِ عَنْهَا مَعَ تَجَاهُلِ طَبِيعَتِهَا وَغَايَاتِهَا النَّبِيلَةَ إِلَى حَدِّ انْتِهَاكِ جَوْهَرِ مَعْنَاهَا الْإِنْسَانِيَّ
 وَدَوْرَهَا الْفِطْرِيَّ، وَغَايَاتِهَا الْإِنْسَانِيَّةَ السَّامِيَّةَ، وَذَلِكَ بِالتَّهَؤُنِّ فِي أَمْرِ الرِّذَائِلِ بَلْ وَالِدَّعْوَةَ
 لَهَا، وَتَشْجِيعَهَا، وَتَرْوِيجَهَا، بِكُلِّ آثَارِهَا الْمَلْمُوسَةِ، مِنْ اتِّسَاعِ تَفْشِي الْجَرِيمَةِ، وَانْجِلَالِ
 رَوَابِطِ الْخَلِيَّةِ الْجَذَعِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهِيَ الْأُسْرَةُ، بِمَا يُؤَدِّي
 إِلَى تَفْكِكِهَا وَهَدْمِهَا، وَهَدْمِ أَدْوَارِهَا، فِي صُنْعِ الْبِنِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ
 وَالْوَجْدَانِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالتَّرْبُويَّةِ لِلْأُمَّةِ وَلِكُلِّ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، هَذِهِ الْأَصْوَاتُ هِيَ ذَاتُهَا
 الْأَصْوَاتُ، الَّتِي تُعْطِي أَيْضًا نَفْسَهَا حَقَّ التَّضْيِيقِ عَلَى قِيَمِ الْفَضِيلَةِ وَالِاحْتِشَامِ، وَفَرَضَ
 أَلْوَانِ مِنَ الْأَزْيَاءِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ، وَالتَّشْجِيعِ عَلَيْهَا حَتَّى فِي مَعَاهِدِ التَّرْبِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِ رَغْمَ إِهْمَا
 مِنْ خُصُوصِيَّاتِ جِسْمِ الْإِنْسَانِ، وَمِنْ أَحْصَى حُقُوقِهِ الشَّخْصِيَّةَ، وَالَّتِي لَيْسَ لِأَحَدٍ حَقُّ
 التَّدْخُلِ بِشَأْنِهَا.

نَعَمْ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، هَذِهِ الْأَنْظِمَةُ، وَهَذِهِ الْأَصْوَاتُ، الَّتِي تَدْعِي الدِّفَاعَ عَنِ
الْحُرِّيَّةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُضَيِّقُ فِيهِ عَلَى الْفَضِيلَةِ وَالِإِحْتِشَامِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ النَّظِيفَةِ،
وَتَفْسُخَ الْمَجَالِ لِلرَّذَائِلِ وَالْمُفْسِدَاتِ، إِنَّمَا هِيَ فِئَاتٌ، وَأَنْظِمَةٌ، تُمَثِّلُ نِقَابَاتِ الْإِسْتِبْدَادِ
وَالْفُسَادِ، فِي الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْحَضَارَاتِ، وَهُمْ فِي حَقِيقَةٍ دَوَافِعِهِمْ ثَعَالِبُ وَذَنَابُ مُفْتَرِسَةٌ
يَتَدَثَّرُونَ فَرَوْ حِمْلَانٍ وَعُجُولٍ وَدِيعَةٍ كَالثَّعْلَبِ النَّاصِحِ وَالذَّبِّبِ الزَّاهِدِ الرَّؤُومِ، كَالْبَازِيِّ
يَحْكِي هَدِيلَ الْحَمَامِ.

وَهُنَا أَنْبَرَى أَحَدُ الشَّبَابِ مُوَضِّحًا، بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنَ الشَّيْخَ فِي الْكَلَامِ. صَمَتَ الشَّيْخُ
مُصْغِيًا لِلشَّبَابِ الَّذِي وَجَّهَ خِطَابَهُ إِلَيْهِ قَائِلًا: أَوْدُ يَا سَيِّدِي أَنْ نَقِفَ عِنْدَ غِطَاءِ الرَّأْسِ
لِلنِّسَاءِ، وَبَعْضُ مَا يُذَكِّرُ تَبْرِيرًا لِمَنْعِهِ، فَهَم يَا سَيِّدِي يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِحْتِشَامَ بِغِطَاءِ الرَّأْسِ
هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ هَوِيَّةٍ عَقْدِيَّةٍ، وَبَعْضُهُمُ الْآخَرُ يَقُولُ: إِنَّ الْإِحْتِشَامَ بِغِطَاءِ الرَّأْسِ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ
هَوِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ.

وَقَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّبَابُ مَقْعَدَهُ، وَقَفَ شَابٌّ آخَرٌ، وَاسْتَأْذَنَ بِدَوْرِهِ فِي الْحَدِيثِ، وَابْتَسَمَ
الشَّيْخُ مُرَحِّبًا بِهَذِهِ الْمَشَارَكَاتِ الْوَاعِيَّةِ.

قَالَ الشَّبَابُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ أَيْضًا: يَا سَيِّدِي إِنَّ السَّمَاخَ بِانْتِشَارِ غِطَاءِ الرَّأْسِ، وَعَدَمَ

التَّضْيِيقِ عَلَى النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ، اللَّاتِي يَخْتَرْنَ تَغْطِيَةَ شُعُورِهِنَّ فِي الْمَحَافِلِ وَالْمَدَارِسِ
وَالشُّوَارِعِ، سَوْفَ يُشَكِّلُ ضَغْطًا اجْتِمَاعِيًّا، عَلَى بَعْضِ النِّسَاءِ الْأُخْرِيَّاتِ لِتَغْطِيَةَ
شُعُورِهِنَّ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ حِمَايَةَ الْحُرِّيَّةِ، تُوجِبُ عِنْدَهُمْ مَنَعَ النِّسَاءِ كَافَّةً، مِنْ
تَغْطِيَةِ شُعُورِهِنَّ، وَلَوْ بَلَغَ الْأَمْرُ حَدَّ حِرْمَانِ الْفَتَيَاتِ مِنَ الْحَقِّ الْإِنْسَانِيِّ الْأَسَاسِيِّ فِي
التَّعْلِيمِ، وَحَقِّ النِّسَاءِ فِي الْعَمَلِ.

عِنْدَ هَذَا أَخَذَ الشَّابُّ أَيْضًا مَقْعَدَهُ مِنَ الْمَجْلِسِ، لِيَصِلَ إِلَى سَمْعِ الشَّيْخِ صَوْتُ فَتَاةٍ
تَرْغَبُ فِي الْإِضَافَةِ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الْحَدِيثِ.

التَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى حَيْثُ تَجَلِسُ الْفَتَاةُ الْتِفَاتَةَ مَنْ يُرَجِّبُ بِمَا سَتَقُولُهُ، حَمَاسًا وَرَغْبَةً
فِي الْمُشَارَكَةِ وَالرَّأْيِ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: أَرْجُو أَلَّا يَضِيقَ شَيْخُنَا الْجَلِيلُ بِأَسْئَلَتِنَا وَمُقَاطَعَاتِنَا رَغْبَةً فِي الْإِسْتِفَادَةِ
مِنْ خِبْرَةِ مَنْ هُمْ أَسَنُّ مِنَّا وَأَعْلَمُ، كَمَا أَرْجُو أَلَّا أَخْرَجَ بِسُؤَالِي عَنِ مَوْضُوعِ الْحَدِيثِ أَوْ أَنْ
أثْقَلَ عَلَى شَيْخِنَا الْجَلِيلِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْأَسْئَلَةِ، بَعْدَ عَنَاءِ يَوْمٍ طَوِيلٍ.

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ مُطْمَئِنًّا تِلْكَ الْفَتَاةَ، وَأَبْدَى تَرْحِيْبَهُ بِطَرَحِ مَا لَدَيْهَا مِنْ تَسْأُولَاتٍ وَتَرْحِيْبَهُ
بِكُلِّ مُشَارَكَاتٍ أَوْ أَسْئَلَةٍ أَوْ آرَاءٍ، مِنْ أَيِّ أَحَدٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ.

بَدَا السُّرُورُ عَلَى وَجْهِ الْفَتَاةِ، وَوَجَّهَتْ الْحَدِيثَ إِلَى الشَّيْخِ قَائِلَةً: مَا رَأَيْ شَيْخَنَا الْجَلِيلِ فِي أَمْرِ غِطَاءِ الْوَجْهِ أَوْ مَا يُدْعَى النَّقَابِ، الَّذِي تَرُغِبُ بَعْضُ النِّسَاءِ فِيهِ، مِنْ مُنْطَلَقِ الْحُرِّيَّةِ، وَسَلَامَةِ الْعَقِيدَةِ، وَإِعْلَانِ الْهَوِيَّةِ؟

أَخَذَتِ الْفَتَاةُ مَجْلِسَهَا لِيُوَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ فِي تَفْكِيكِ مَعْمِيَّاتِ هَذِهِ الْقَضَايَا الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي أَثَارَهَا الشَّبَابُ، وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ أُسَاسِيٍّ لِيُجُودِ الْإِنْسَانِ، وَمَعْنَى حَيَاتِهِ، وَهُوَ حَقُّ الْحُرِّيَّةِ، الَّذِي مِنْ دُونِهِ، لَا يَكُونُ وَاجِبٌ وَلَا تَحْمَلُ مَسْئُولِيَّةً.

وَقَالَ الشَّيْخُ: دَعُونَا نَبْدَأُ بِأَمْرِ شَبْهَةِ الْهَوِيَّةِ الْعَقِيدِيَّةِ أَوِ السِّيَاسِيَّةِ لِتَبْرِيرِ سَبَبِ حِرْمَانِ الْمَرْأَةِ مِنْ خِيَارِهَا الشَّخْصِيِّ، فِي غِطَاءِ شَعْرِهَا، خَاصَّةً فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ مَقَاعِدِ الدِّرَاسَةِ، وَمَكَاتِبِ الْعَمَلِ.

نَعَمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، صَحِيحٌ أَنَّ غِطَاءَ شَعْرِ رَأْسِ الْمَرْأَةِ، قَدْ يُعْبَرُ عَنْ هَوِيَّةٍ عَقِيدِيَّةٍ، وَأَنْ يَكُونَ أَيْضًا تَعْبِيرًا رَمْزِيًّا ذَا دَلَالَةٍ سِيَاسِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ أَنَّ الْإِحْتِشَامَ عَامَّةً بِمَا فِي ذَلِكَ غِطَاءُ الرَّأْسِ، هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، عِنْدَ مُعْظَمِ مَنْ يَلْتَزِمُ بِهِ إِنْمَا هُوَ فِي جَوْهَرِهِ، تَعْبِيرٌ عَنِ اقْتِنَاعِ شَخْصِيٍّ، بِقِيَمَةِ إِنْسَانِيَّةٍ سَامِيَّةٍ، وَهِيَ الْإِحْتِشَامُ وَالْمَزِيدُ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى نَقَاءِ الْعَلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةِ الْحَمِيمَةِ، وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَيْهَا وَيُحْصِنُهَا،

حِرْصًا عَلَى خُصُوصِيَّةِ الْأُسْرَةِ.

وَمِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَإِنَّ مِنْ حَقِّ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَمِنْ حُرِّيَّاتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، أَنْ تَكُونَ لَهُ هَوِيَّةٌ عَقْدِيَّةٌ وَإِنْتِمَاءٌ سِيَاسِيًّا يُعَبِّرُ عَنْهُمْ، بِمَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ حُقُوقِ الْمُواطِنَةِ وَوَاجِبَاتِهَا تَجَاهَ كُلِّ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، بِكُلِّ هَوِيَّاتِهِمُ الْعَقْدِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ، وَإِذَا وَظَّفَ بَعْضُهُمْ أَيَّ هَوِيَّةٍ لِأَهْدَافٍ سِيَاسِيَّةٍ خَاطِئَةٍ، فَالْحَوَارُ، وَمُعَالَجَةُ مِثْلِ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ التَّبْرِيرِ الْخَاطِئِ، هُوَ الْحَوَارُ وَطَرَحُ الْأَمْرِ أَمَامَ الْأُمَّةِ، وَكَشْفُ الزَّيْفِ وَوُجُوهِ الْخَطَا، وَأَيُّ أَهْدَافٍ خَفِيَّةٍ أُخْرَى، هُوَ السَّبِيلُ السَّلِيمُ لِمُوَاجَهَةِ كُلِّ أَلْوَانِ الْإِنْحِرَافِ وَالتَّوْظِيفِ الْخَاطِئِ وَمُوَاجَهَةِ كُلِّ الْحَمَقَى وَالْجَهْلَةِ وَأَصْحَابِ الْأَغْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ، مِنَ الدُّعَاةِ الزَّائِفِينَ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بِاسْمِ حِمَايَةِ الْحُرِّيَّاتِ؛ سَعِيًّا مِنْهُمْ لِتَمَكِينِ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْفَسَادِ وَالِاسْتِبْدَادِ. وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ، فَإِنَّ عَلَيْنَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، التَّنَبُّهُ، إِلَى أَنَّهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، حِينَ يَتَفَاقَمُ فُسَادُ الْأَنْظِمَةِ وَمُمَارَسَاتِهَا الْإِسْتِبْدَادِيَّةِ، تَلَجَّ الشُّعُوبُ، إِلَى تَوْظِيفِ الْعَدِيدِ مِنَ الرُّمُوزِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الْحِجَابِ وَالنَّقَابِ، لِتُؤَدِّيَ، إِلَى جَانِبِ وَظَائِفِهَا الْأَسَاسِيَّةِ، مِهْمَةً التَّعْبِيرِ عَنِ الرَّفْضِ، وَعَنِ الْمُقَاوَمَةِ لِلْأَنْظِمَةِ الْمُسْتَبِدَّةِ وَمُمَارَسَاتِهَا الْفَاسِدَةِ. كَذَلِكَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فَإِنَّ عَلَيْنَا أَيْضًا التَّنَبُّهُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ الْحَظْرَ وَالْمَنْعَ

والتّضيق السّيّاسيّ، تحت مُختلف المُسمّيات، من قِبَل السُّلطاتِ والقُوَى المُسيطرة، إنّما هو توظيفٌ خفيٌّ، لتَمكينِ السُّلطاتِ الظّالِمةِ والمصالحِ الجائرةِ من رِقابِ الشُّعوبِ، والتي كثيرًا ما توظّف دَعاوى زائفَةً، ومفاهيمٍ أيديولوجيّةٍ وعنصريّةٍ مُختلفةٍ، للتّفريقِ والتّمايزِ بينِ المُواطنينِ، وتوظيفِ ذلكِ لخدمَةِ الأنظمةِ والمصالحِ الخاصّةِ، وهو بدوره ما يدعُو الشُّعوبَ لتوظيفِ كثيرٍ من الرُّموزِ، للتعبيرِ عن الاحتجاجِ ورَفْضِ مُمارساتِ السُّلطاتِ الجائرةِ المُنحرفةِ.

هنا سَكَتَ الشّيخُ عَنِ الحَدِيثِ بُرْهَةً يَلْتَقِطُ فِيهَا أَنْفَاسَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا مَا أَثِيرَ مِنْ أَمْرِ دَعْوَى أَنْصَارِ الحُرّيّةِ الزّائِفينِ فِي أَنْ عَدَمَ مَنعٍ مَنْ تَرَعَبُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ فِي غِطَاءِ شَعْرِهَا، قَدْ يُؤدِّي إِلَى أَنْ يَضْطَرَّ بَعْضُ النِّسَاءِ، بِسَبَبِ مَا قَدْ يُحْسِنُ بِهِ مِنَ الضَّغْطِ الاجْتِمَاعِيِّ، إِلَى تَغْطِيَةِ شُعُورِهِنَّ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَفْنِيدِ زَيْفِ هَذِهِ الدَّعْوَى، لِأَنَّ مِنْ العَجَبِ أَنْ يُبَرَّرَ الدِّفَاعُ عَنِ الحُرّيّةِ يَمْنَعُ كُلَّ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ مِنْ مُمَارَسَةِ حَقِّهِنَّ الإنسانيِّ فِي ارتِدَاءِ مَا يَرُوقُ لَهُنَّ مِنْ لِبَاسٍ، بِمَا لَا يَخْدِشُ حَيَاءَ لِأَحَدٍ، صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى، كَمَا لَا يَدْعُو إِلَى تَحْرُشَاتٍ وَإِثَارَاتٍ جَنَسِيَّةٍ حَيَوَانِيَّةٍ خَاصَّةً مِنْ قِبَلِ بَعْضِ المُراهقينِ والسُّفهاءِ بِدَعْوَى أَنْ بَعْضَ النِّسَاءِ قَدْ يَفْرِضُنَّ عَلَى أَمْرِ خِيَارٍ غِطَاءَ الشَّعْرِ لِمَا يَشْعُرْنَ بِهِ مِنْ ضَغْطِ اجْتِمَاعِيِّ نَاتِجٍ عَنِ مَرَأَى المُحجَّباتِ فِي المُجْتَمَعِ.

عَجِيبٌ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنْ يُحْرَمَ نِصْفُ الْمُجْتَمَعِ مِنْ حَقِّهِ فِي حُرِّيَّةِ اخْتِيَارِهِ
الشَّخْصِيَّ بِزَعْمِ أَنْ بَعْضًا مِنْهُنَّ قَدْ يَفْرِضْنَ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ خِيَارًا بِزَعْمِ الضَّغْطِ
الاجْتِمَاعِيِّ، وَعَجِيبٌ أَنْ بَعْضَ دُعَاةِ الْحُرِّيَّةِ الرَّائِفِينَ، وَمَنْ لَهُ مَا رَبُّ خَفِيَّةٌ فِي نُصْرَةِ مِثْلِ
هَذِهِ الدَّعْوَى يَجِدُونَ الْجَرَأَةَ وَالشَّجَاعَةَ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ الْمَظْلُومَةِ، لِلْمُطَالَبَةِ بِسَلْبِ
الْأُخْرِيَّاتِ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهِنَّ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ، بِدَعْوَى اِحْتِمَالِ أَنَّ الْبَعْضَ قَدْ يَخْضَعُ
لِمَا لَا يُرِيدُ، بِحُجَّةِ اِحْتِمَالِ الضَّغْطِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُصَفِّقُ فِيهِ بِاسْمِ
الْحُرِّيَّةِ، لِمَنْ تَمْشِي فِي الشُّوَارِعِ وَالْمُنْتَدِيَّاتِ بِمَا يُشْبِهُ وَرَقَةَ التُّوتِ بِمَفَاتِيحِهَا الْأَنْثَوِيَّةِ،
مُغْرِبَةً، شِبْهُ عَارِيَّةٍ دُونَ اسْتِحْيَاءٍ وَلَا حَرَجٍ، وَكَمَا تَقُولُ الْأَمْثَالُ "رَمْتَنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ"
وَ"ضَرَبَنِي وَبَكَى، وَسَبَقَنِي وَاشْتَكَى".

وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ فِي الْإِجَابَةِ عَمَّا أَثَارَهُ الشَّبَابُ مِنْ أَسْئَلَةٍ وَإِشْكَالَاتٍ فَقَالَ:
أَمَّا مَا أَثَارْتُهُ أُخْتُنَا الْكَرِيمَةَ بِشَأْنِ خِيَارِ بَعْضِ النِّسَاءِ غِطَاءً وَجُوهِهِنَّ أَوْ مَا يُدْعَى
بِالنِّقَابِ، مِنْ مُنْطَلَقِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ وَالْهَوِيَّةِ. فَمِنْ مُنْطَلَقِ حَقِّ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَإِنَّ
خِيَارَ بَعْضِ النِّسَاءِ غِطَاءً وَجُوهِهِنَّ، فَهَذَا حَقٌّ شَخْصِيٌّ لِهِنَّ، لَوْ بَلَغَ الْأَمْرُ بِأَيِّ أَحَدٍ مِنَ
النِّسَاءِ أَوْ الرِّجَالِ أَنْ يَسْجَنَ نَفْسَهُ فِي الدَّارِ فَلَا يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً خَارِجَ الدَّارِ، فَذَلِكَ

حَقٌّ لِلْفَرْدِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى هَذِهِ الْخِيَارَاتِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَّا فِي حُدُودِ النَّصْحِ،
وَفِي الْحُدُودِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِأَمْنِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ، لِأَنَّ مَنْ يُعْطِي وَجْهَهُ يُصْبِحُ مَجْهُولَ الْهَوِيَّةِ،
وَمِنْ حَقِّ رِجَالِ الْأَمْنِ، وَكُلِّ إِنْسَانٍ آخَرٍ فِي خَاصَّةِ دَارِهِ، أَنْ يَعْلَمُوا هَوِيَّةَ الْآخَرِ بِالْأَسْلُوبِ
الْمُنَاسِبِ الَّذِي لَا يَنْتَهِكُ خِيَارَ مَنْ يُعْطِي وَجْهَهُ وَيُخْفِي هَوِيَّتَهُ.

أَمَّا مِنْ جَانِبِ الْهَوِيَّةِ الْعَقْدِيَّةِ، فَإِنَّ بِالْإِمْكَانِ إِعْطَاءَ غِطَاءِ الْوَجْهِ هَوِيَّةً عَقْدِيَّةً
بِالْمَعْنَى الْفَنَوِيِّ الضَّيِّقِ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ، وَلَكِنْ يَصْعُبُ الْقَوْلُ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَتَطَلَّبُهُ
جَمَهْرَةٌ أَتْبَاعِ الْعَقَائِدِ الْعَالَمِيَّةِ، وَلَا عَلَى مَفْهُومِ دَوَاعِي الْفَضِيلَةِ وَالِإِحْتِشَامِ، لِأَنَّ وَجْهَ
الْإِنْسَانِ شَخْصِيَّتُهُ وَوَسِيلَتُهُ الْأَسَاسِيَّةُ، لِمُزَوَالَةِ حَيَاتِهِ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ إِرَادَتِهِ، وَذَلِكَ عَلَى
غَيْرِ حَالٍ بَقِيَّةٍ خُصُوصِيَّةٍ أَجْزَاءِ الْجِسْمِ، الَّتِي لَا حَاجَةَ لِتَعْرِيفِهَا أَمَامَ الْآخَرِينَ، وَالَّتِي
يَسْتَدْعِي -فِطْرِيًّا- الْكَشْفُ عَنْ جَمَالَاتِهَا عِنْدَ الذُّكُورِ خَاصَّةً الْمَعَانِي وَالْخَوَاطِرِ
الْجِنْسِيَّةِ، فِي الْمُخَيَّلَةِ الذُّكُورِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ.

هَكَذَا أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، فَإِنَّ مَا أَرَاهُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِي هَذَا الْأَمْرِ هُوَ أَنْ غِطَاءَ
الْوَجْهِ وَ"قَفَاز" الْيَدَيْنِ اللَّتَيْنِ مُمَارَسَةٌ، وَخِيَارُ إِنْسَانِيٍّ سَلْبِيٍّ، يُعَدُّانِ فِي جِلِّ الْأَحْوَالِ، مِنْ
مُعَوَّقاتِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْإِجَابِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يُلْغِي حَقَّ أَيِّ أَحَدٍ، مِنْ مُمَارَسَةِ

هَذِهِ الْخِيَارَاتِ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَيَّ أَحَدٍ أَنْ يُعْطِيَ لِغِطَاءِ الْوَجْهِ دَلَالَةً
عَقْدِيَّةً خَاصَّةً بِهِ، لَكِنْ يُخْطِئُ مَنْ يَرَى الْإِزَامَ أَيَّ فَرْدٍ بِالْغَاءِ شَخْصِيَّتِهِ وَإِدَارَةَ حَيَاتِهِ
وَحِرْمَانِهِ مِنْ أَحْصَى خَصَائِصِ حُقُوقِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَا يَتَضَمَّنُ بَعْدًا عَقْدِيًّا يُنَافِي مُتَطَلِّبَاتِ
الْفِطْرَةِ، فَمَنْ شَاءَتْ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فِيمَا أَعْلَمُ وَأَرَى، أَنْ تُحَجِّبَ وَجْهَهَا فَلَهَا ذَلِكَ،
مِنْ بَابِ الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَمِنْهَا حُرِّيَّةُ الْإِعْتِقَادِ، وَمِنْ بَابِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ الْإِزَامَ أَيَّ
أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ حَجَبَ وَجْهَهَا وَالْغَاءَ شَخْصِيَّتِهَا.

أَمَّا مَنْ يَدَّعِي أَنَّ جَمَالَ الْمَرْأَةِ مَدْعَاةٌ لِلْفِتْنَةِ فَهَذَا مَنْطِقُ سَلِيمٍ، لِأَنَّ الرِّجَالَ أَكْثَرُ أَدْبًا
مَعَ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ الْمُحْتَشِمَةِ، وَحِينَ يَتَعَرَّضُ لَهَا رَغْمَ ذَلِكَ فَتَى أَوْ رَجُلٌ طَائِشٌ، فَمَنْ
الَّذِي يَجِبُ عِقَابُهُ وَسَجْنُهُ، أَهِيَ الْفِتَاةُ أَمْ الْمُعْتَدِي الطَّائِشُ. إِنَّ مَنْ يَطْلُبُ مِنَ الْفِتَاةِ
غِطَاءَ وَجْهَهَا وَالتَّنْقَبَ، فَهُوَ يُسَجِّنُهَا وَيَتْرُكُ الْمُجْرِمَ الطَّائِشَ يَجُوبُ الْأَرْضَ وَالشَّوَارِعَ
يَعِيثُ فِيهَا فَسَادًا وَإِفْسَادًا.

وَهُنَاكَ أَمْرٌ آخَرٌ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَحِبُّ أَنْ أُذَكِّرَ بِهِ الشَّبَابَ، وَهُوَ إِعْطَاءُ الطَّرِيقِ
وَالْمَحَافِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْعَامَّةِ حَقَّهَا، مِنْ آدَابِ النَّظَرِ بِمَا لَا يُخْرِجُ الْآخِرِينَ، أَوْ يُؤْذِي
مَشَاعِرَهُمْ لِأَنَّ غَضَّ الْبَصَرِ عَنْ كُلِّ مَا لَا حَاجَةَ لَهُ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِخُصُوصِيَّاتِ الْآخِرِينَ فِي
عُرْضِ الطَّرِيقَاتِ، أَوْ فِي حُرْمَاتِ الْجَوَارِ، أَمْرٌ وَاجِبٌ.



فَمَنْ الَّذِي يَجِبُ عِقَابُهُ وَسَجْنُهُ. أَهِيَ الْفِتْنَةُ أَمْ الْمُعْتَدِي الطَّائِفُ.

وَبَعْدَ بُرْهَةٍ صَمَّتِ وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: إِنَّ عَلَى أبنَاءِ الشُّعُوبِ عَامَّةً، وَعَلَى أبنَاءِ الشُّعُوبِ الَّتِي تُعَانِي مِنْ كَبْتِ الحُرِّيَّاتِ، وَمِنْ نَشْرِ مَضَارِّ فَوْضَى تَرْوِجِ الرِّذَائِلِ، بِاسْمِ كَفَالَةِ الحُرِّيَّاتِ جَلْبًا مِنْهُمْ لِلْمَكَاسِبِ الحَرَامِ، وَتَمَكِينًا لِلاِسْتِبْدَادِ خَاصَّةً، أَنْ يَتَحَلَّوْا بِالشَّجَاعَةِ، وَكَشَفِ أَقْنَعَةِ الذَّنَابِ المُفْتَرِسَةِ، وَنَزْعِ فِرْوِ الحِمْلَانِ البَرِيئَةِ عَنْهُمْ، بِالحُجَّةِ وَالكَلِمَةِ السَّوَاءِ، وَالحُجَّةِ بِالبَيِّنَةِ بِمَا يَلِيْقُ بِأَدَبِ النُّصْحِ لِلأُمَّةِ وَشَبَابِهَا وَجُمْهُورِ أبنَائِهَا مُتَحَلِّينَ بِالصَّبْرِ وَالمُثَابَرَةِ وَتَقْدِيرِ الظُّرُوفِ، خَاصَّةً فِيْمَا هُوَ مِنْ بَابِ الصَّغَائِرِ وَالدَّلَّاتِ. إِنَّ غِطَاءَ الرَّأْسِ، وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاقِعِ مُمَارَسَاتِ كَثِيرٍ مِنْ شُعُوبِ الأَرْضِ، أَيْهَا الإِخْوَةُ وَالأَخَوَاتُ -إِنَّمَا هُوَ فِي جَوْهَرِهِ- عِنْدَ جُلِّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ، تَعْبِيرٌ مِنْهُمْ عَنِ التِّزَامِ قِيَمِ الفَضِيلَةِ وَالاِحْتِشَامِ، وَالمُرْعَبُ فِي هَذَا، عِنْدَ ذُنَابِ نِقَابَةِ تُجَارِ الرِّذِيلَةِ، وَمُرَوِّجِي المَفَاسِدِ، وَصَنَائِعِهِمْ مِنْ بَعْضِ رِجَالِ الحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ فِي بَعْضِ البِلَادِ أَنَّهُ يُمَثِّلُ يَدًا تَنْزِعُ عَنِ عَوْرَةِ فَسَادِهِمْ، وَفَاسِدِ غَايَاتِهِمْ دَعْوَى وَرَقَةٍ ثَوَّتِ الحُرِّيَّةَ الَّتِي يُخْفُونَ خَلْفَهَا غَايَاتِهِمْ وَمُمَارَسَاتِهِمْ وَتِجَارَاتِ رِذَائِلِهِمْ، وَمَفَاسِدِهِمْ.

دَعُونِي أَيْهَا الإِخْوَةُ وَالأَخَوَاتُ أَقْصُ عَلَيْكُمْ قِصَّةَ النَّصَّابِينَ المُحْتَالِينَ الَّذِينَ تَمَكَّنُوا مِنْ إِقْنَاعِ سُلْطَانٍ غَيِّ أَحْمَقٍ، أَنَّ بِإِمْكَانِهِمْ أَنْ يُحَقِّقُوا لَهُ مُعْجَزَةً يَحْلُمُ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي أَنْ



دَعُونِي أَيُّهَا الإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَقْصُ عَلَيْكُمْ قِصَّةَ النَّصَّابِينَ الْمُحْتَالِينَ

يَحْصُلَ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ بِأَنْ يَصْنَعُوا لَهُ تُوبًا سِحْرِيًّا مِنْ حَرِيرِنَقِيٍّ سِحْرِيٍّ هَفْهَافٍ، لَا يَرَاهُ وَلَا يُحِسُّهُ إِلَّا الْأَذْكِيَاءُ الْمُخْلِصُونَ، فَطَارَ السُّلْطَانُ الْغَيْبِيُّ الْأَحْمَقُ بِفِكْرَةِ هَذِهِ الْحُلَّةِ السِّحْرِيَّةِ الْمُؤَهَّوْمَةِ الْمَأْمُولَةِ فَرَحًا، لِأَنَّهَا سَتُمْكِنُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ مَنْ فِي خَاصَّتِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَوُزَرَائِهِ وَرِجَالِ حُكْمِهِ، مَنْ يَتَمَتَّعُ بِالذِّكَاةِ وَالْإِخْلَاصِ، وَبِذَلِكَ يَتِمَكَّنُ مِنْ إِصْطِفَائِهِمْ وَالثِّقَةِ بِهِمْ وَالسَّيْطَرَةَ التَّامَّةَ عَلَيْهِمْ لِمَصْلَحَتِهِ، وَأَخَذَ الْمُحْتَالَانِ فِي ابْتِزَازِ الْأَمْوَالِ مِنَ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الْفَاسِدِ، لِنَسْجِ هَذِهِ الْحُلَّةِ الْمُوعُودَةِ وَشِرَاءِ أَدْوَاتِهَا وَمُسْتَلْزَمَاتِهَا وَخَامَاتِهَا، بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الْجَهَنَّمِيَّةِ وَلَيْسَ فِي حَاشِيَةِ السُّلْطَانِ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى كَشْفِهِمْ وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِمْ وَكَشْفِ حِيلَتِهِمْ وَاحْتِيَالِهِمْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَّهَمُوهُ بِعَرْقَلَةِ صُنْعِ هَذِهِ الْحُلَّةِ السُّلْطَانِيَّةِ، الَّتِي سَتَكْشِفُ غِبَاءَهُ وَنِفَاقَهُ، وَخَاصَّةً أَنَّ سُمْعَةَ هَذِهِ الْحُلَّةِ السِّحْرِيَّةِ قَدْ سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ فِي الْأَفَاقِ، وَتَطَّلَعَ الشَّعْبُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَنْ فِي حَاشِيَةِ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الْأَحْمَقِ، مِنَ الْخَوْنَةِ الْفَاسِدِينَ الْمُنَافِقِينَ، بِوَاسِطَةِ قُوَّتِهَا السِّحْرِيَّةِ الْمَرْعُومَةِ.

وَلَمَّا أَعْلَنَ الْمُحْتَالَانِ تَمَامَ صُنْعِ الْحُلَّةِ، وَزَفَا الْبُشْرَى الْعَظِيمَةَ إِلَى السُّلْطَانِ، وَطَلَبَا مِنَ السُّلْطَانِ خَلْعَ حُلَّتِهِ، لِإِلْبَاسِهِ الْحُلَّةَ الْمَرْعُومَةَ، الَّتِي لَا وُجُودَ لَهَا وَالَّتِي حِينَ نَظَرِ إِلَيْهَا السُّلْطَانُ لَمْ يَرِ شَيْئًا فِي الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانُ الْغَيْبِيُّ الْأَحْمَقُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْرَأُ عَلَى

الْجَهْرِ، أَنَّهُ لَا يَرَاهَا، خَوْفًا مِنْ أَنْ يُتَّهَمَ بِالْغَبَاءِ وَالْحَمَاقَةِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بِالطَّبَعِ، أَيُّ
وَاحِدٍ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَرِجَالِ الْحَاشِيَةِ خَوْفًا وَجُبْنًا أَنْ يَكُونَ أَيُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ خَيْرًا مِنَ
السُّلْطَانِ، الَّذِي أَخَذَ يَتَغَزَّلُ وَهُوَ عَارِي الْجَسَدِ بِجَمَالِ الْحُلَّةِ الْمُوهُومَةِ الَّتِي يَرْتَدِيهَا.

وَحَانَ يَوْمُ الْإِحْتِفَالِ الْعَظِيمِ بِهَذِهِ الْحُلَّةِ السَّحْرِيَّةِ الرَّائِعَةِ وَرَكِبَ السُّلْطَانُ الْعَارِي
عَرَبَتَهُ الْمُلُوكِيَّةَ، تَحَفُّ بِهَ حَاشِيَتَهُ وَوُزَرَائِهِ وَكِبَارَ مُسْتَشَارِيهِ، وَأَخَذَتِ الْعَرَبَةُ تَسِيرُهُ بَيْنَ
صُفُوفِ جُمُوعِ الشَّعْبِ، وَالْكُلُّ يَنْظُرُ إِلَى السُّلْطَانِ الْعَارِي، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَيْضًا
يَجْرُؤُ عَلَى الْقَوْلِ: إِنَّهُ لَا يَرَى الْحُلَّةَ السَّحْرِيَّةَ الَّتِي عَلَى السُّلْطَانِ، لَا يُقَالُ عَنْهُ إِنَّهُ غَيٌّ
أَحْمَقٌ وَفَاسِدٌ مُنَافِقٌ، عَلَى شَاكِلَةِ حَاشِيَةِ السُّلْطَانِ وَرِجَالِهِ.

هَلْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مَنْ كَشَفَ حِيلَةَ الْمُحْتَالِينَ وَنَصَبَهُمْ، وَغَبَاءَ
السُّلْطَانِ وَحَمَاقَتَهُ، وَزَيْفَ كُلِّ مَنْ حَوْلَهُ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ خَاصَّةً رِجَالِ حَاشِيَتِهِ الْمُنَافِقِينَ
وَجُبْنَهُمْ وَخَوَرَ نُفُوسِهِمْ؟

لَقَدْ كَانَ يَا بَيْدَبَا هُنَاكَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، هُوَ الَّذِي كَشَفَ حِيلَةَ الْمُحْتَالِينَ وَحَمَاقَةَ
السُّلْطَانِ وَأَتْبَاعِهِ وَغَبَائِهِمْ بِتِلْقَائِيَّةِ سَلِيْقَتِهِ، وَنَقَاءِ طَبْعِهِ، وَشَجَاعَةِ فِطْرَتِهِ، هُوَ الَّذِي
أَطْلَقَ حِينَ رَأَى السُّلْطَانَ عَارِيًا صَرَخَةً عَالِيَةً وَسَطَ الْجُمُوعِ الْخَائِفَةِ الصَّامِتَةِ فِي ذَلِكَ

اليوم، قائلاً: "انظروا، السلطان عُريَانٌ" "السلطانُ عُريَانٌ".
 بهذه الصرخة، انكشف غطاء الخوف والخور عن جموع الشعب المقهورين،
 وصرخوا بصوت واحد: "السلطانُ عُريَانٌ" "السلطانُ الأحمقُ عُريَانٌ" "يسقط
 السلطانُ" "يسقط الغباءُ" "يسقط الاستبدادُ" "يسقط الفسادُ" "يسقط الفسادُ".
 وهكذا أيها الإخوة والأخوات، فإن شجاعة الأمة، وشجاعة أبنائها المفكرين
 والمصلحين، توجب عليهم، أن يسمعوا أصواتهم للأمم والشعوب ولأبنائهم وشبابهم
 قبل سواهم، بالحوار المخلص البناء، لتوضيح الرؤية والثوابت، وجلاء القضايا،
 وكشف الزيف ودعاوى الزائفين، وجمع عزم الأمة على كلمة سواء، في حق وعدل
 وشورى وحرية وقناعة.

بغير ذلك يا بيدبا، لا يكون حق، ولا يكون عدل، ولا تكون شورى، ولن تكون حرية،
 ولن يكون إقناع أو إقتناع، ولن تكون مسئولية، ولن يتحرر العبيد، ولن يرى أحد قامة
 جيل المستقبل العاملين والمبدعين الشجعان الأحرار، ولن تسقط ورقة التوت يا
 بيدبا عن عورات المفسدين الجشعين المستبدين، ولن تنقش سحُب التخلف والذل
 والمهانة السوداء.

تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عَنِ الْحَدِيثِ وَقَدْ رَفَعَ حَاجِبِيهِ وَارْتَسَمَتْ بِسْمَةِ عَلَى شَفْتَيْهِ، وَهُوَ
يَتَفَرَّسُ فِي وُجُوهِ الشَّبَابِ أَمَامَهُ، ثُمَّ قَالَ: بَقِيَ أَيْهَا الشَّبَابُ أَمْرًا ظَنُّ الْحَيَاءِ قَدْ مَنَعَكُمْ مِنَ
الإِشَارَةِ إِلَيْهِ، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ مُنَاقَشَتِهِ وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ تَعَرَّضْنَا لِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَنْوَاعِ لِبَاسِ
الْفَتَيَاتِ وَالسَّيِّدَاتِ مِنْ قَضَايَا وَإِشْكَالَاتٍ، وَالَّتِي مَنَعَكُمْ الْحَيَاءُ مِنْ إِثَارَتِهَا وَالإِشَارَةِ إِلَيْهَا.
عَلَّتِ البَسْمَةُ وَجُوهُ الشَّبَابِ، وَأَرَخَتِ الْفَتَيَاتُ أَبْصَارَهُنَّ حَيَاءً إِلَى الأَرْضِ.

قَالَ الشَّيْخُ بِاسْمًا، نَعَمْ أَيْهَا الشَّبَابُ مَا الْعَمَلُ حِينَ تَكُونُ الْفَتَاةُ بَاهِرَةً الْجَمَالِ؟
سَرَتْ بَيْنَ الشَّبَابِ هَمَّهُمَةُ بِاسْمَةٍ، وَسَرَتْ بَيْنَ الْفَتَيَاتِ تَهَامِسَاتٌ وَتَضَاحُكَاتٌ حَيَاءً
خَافَتَهُ.

أَمَّا قِطَّةُ الشَّيْخِ الْجَمِيلَةُ الْمُدَلَّلَةُ الَّتِي تَحْرِصُ عَلَى الْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ، مُنْصِتَةً
لَهُ وَكَأَنَّهَا مِنْ أَخْلَصِ تَلَامِيذِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا تَغْفُلُ عَيْنَاهَا عَنْ مُرَاقَبَةِ تَلَامِيذِ الشَّيْخِ
وَكَأَنَّهَا أَخْلَصُ حُرَّاسِهِ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ فِي هَذَا الْيَوْمِ لِمَاذَا أَخَذَتْ قِطَّةُ الشَّيْخِ الْجَمِيلَةُ
"تُنُونُو" وَتَمُوءُ، فِي رِقَّةٍ وَدَلَالٍ، وَعَيْنَاهَا شَبُهَ مُغْمَضَتَيْنِ تَتَقَلَّبَانِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالْفَتَيَاتِ
الْمُتَهَامِسَاتِ خَاصَّةً عِنْدَ ذِكْرِ الْفَتَيَاتِ بِأَهْرَاتِ الْجَمَالِ.

قَالَ الشَّيْخُ نَعَمْ أَيْهَا الشَّبَابُ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَرُونَ وَجُوبَ غِطَاءِ وَجْهِ الْمَرْأَةِ



قِطَّةُ الشَّيْخِ الْجَمِيلَةِ الْمُدَلَّلَةِ الَّتِي حَرَّصُ عَلَى الْجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيِ الشَّيْخِ

بِعَامَّةٍ وَغِطَاءٍ وَجْهِ الْحَسَنَاتِ مِنَ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءِ بِخَاصَّةٍ، وَذَلِكَ لِأَسْبَابِ عَدِيدَةٍ مِنْهَا التَّأْوُلُ الْعَقْدِيُّ، وَمِنْهَا التَّقْلِيدِيُّ، وَمِنْهَا مَا يُسَمُّونَهُ هَذِهِ الْأَيَّامَ التَّسَلُّطَ الذُّكُورِيَّ.

عَادَتِ الْبَسَمَاتُ وَالْهَمَّامَاتُ إِلَى وُجُوهِ الشَّبَابِ وَالشَّبَابَاتِ.

وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الشَّبَابُ أَنَّ الْجَمَالَ أَمْرٌ ذَوْقِيٌّ نِسْبِيٌّ، فَمَا يَرَاهُ الْبَعْضُ فَاتِنًا، قَدْ يَرَاهُ بَعْضُهُمُ الْآخِرُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَرُبَّمَا رَأَهُ بَعْضٌ آخِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَلَكِنْ لَيْسَ فَاتِنًا، وَذَلِكَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ، لَنْ يَعْدَمَ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ إِعْجَابِ أَحَدٍ مِنَ الرِّجَالِ.

اهْتَزَّتْ رُؤُوسُ كَثِيرٍ مِنَ الْحَاضِرِينَ مُوَافَقَةً عَلَى مَقُولَةِ الشَّيْخِ.

وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: مِنَ الْمُهِّمِ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ الْجَمَالِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ وَبَيْنَ الْإِثَارَةِ الْجَنَسِيَّةِ.

فَالْإِنْسَانُ يَعْجَبُ بِكُلِّ أَلْوَانِ الْجَمَالِ فِي الْخَلْقِ بَدءًا بِالْوُرُودِ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَطْيَارِ، وَالْمَبَانِي وَالْحُلِيِّ وَالرِّيَاشِ، وَمِنْ ذَلِكَ جَمَالُ قَسَمَاتِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ.

فَهَلْ إِعْجَابُنَا بِالْجَمِيلِ وَالثَّمِينِ خَطَأٌ فِي طَبَعِ الْإِنْسَانِ، وَهَلْ إِعْجَابُنَا يُعْطِينَا الْحَقَّ فِي سَرِقَتِهِ، إِنَّهُ لَا يَفْكَرُ فِي سَرِقَةِ الْجَمِيلِ وَالثَّمِينِ إِلَّا إِنْسَانٌ مَرِيضٌ النَّفْسِ غَيْرُ سَوِيِّ الْفِطْرَةِ.

إِنَّ الْفِتَاةَ الْجَمِيلَةَ الْخَلْقِي الَّتِي تَحْتَرِمُ نَفْسَهَا وَتَحْتَشِمُ فِي لِبَاسِهَا وَتَصْرُفَاتِهَا قَوْلًا وَفِعْلًا وَحَرَكَةً، وَإِنْ نَالَ جَمَالُ خَلْقِهَا أَوْ حُسْنُ ذَوْقِ مَلْبَسِهَا، إِعْجَابَ مَنْ يَرَاهَا، فَهَلْ ذَلِكَ لَا يَدْعُونَا أَوْ يُبَرِّرُ لَنَا الْمَسَاسَ بِكَرَامَتِهَا أَوْ التَّعَرُّضَ لَهَا بِمَا يَسُوءُهَا، بَلْ لَعَلَّ ذَلِكَ فِي جُلِّ الْأَحْوَالِ وَبِحُكْمِ الْفِطْرَةِ مَدْعَاةٌ إِلَى الْمُبَالِغَةِ فِي احْتِرَامِهَا وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَهَا.

أَمَّا إِذَا مَا تَجَرَّأَ بِالتَّعَرُّضِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْفِتَاةِ أَوِ الْمَرْأَةِ، مُسْتَهْتِرٌ عَدِيمُ الْمُرُوءَةِ، فَهَلْ نَهَبُ إِلَى رَدْعِهِ وَعِقَابِهِ وَكَفِّ أذَاهُ عَنِ النَّاسِ، أَمْ أَنَّنَا نُعَاقِبُ الْبَرِيئَةَ الَّتِي لَمْ تَتَجَاوَزْ حَقَّهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ الْبِنَاءِ، وَنَحْبِسُهَا، حَبْسَ حَيَاةٍ مُؤَبَّدَةٍ، خَلْفَ الْأَقْنِعةِ السَّوْدَاءِ أَوْ بَيْنَ الْجُدْرَانِ، وَبِذَلِكَ نَجْعَلُ نِعْمَةً جَمَالِهَا الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لَهَا نِقْمَةً، عَلَّمَهَا.

لَمْ يَفْرُغِ الشَّيْخُ مِنْ جُمْلَتِهِ إِلَّا أَحَسَّ مَخَالِبَ قِطْبَتِهِ تَنْشَبُ فِي أَطْرَافِ الْفِرَاشِ، وَكَأَنَّهَا غَاضِبَةٌ مِمَّا سَمِعَتْ عَنْ سُلُوكِ الشَّبَابِ الطَّائِشِ.

وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: إِنَّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ فَكَأَنَّنا نَتَخَلَّى عَنْ مَسْئُولِيَّتِنَا فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا، وَنَتَلَمَّسُ الْعُذْرَ الْخَاطِئَ لِسُوءِ تَرْبِيَةِ شَبَابِنَا وَأَبْنَائِنَا، وَنَتَجَاهَلُ بِذَلِكَ آثَارَ سُوءِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّقْصِيرِ، فِي آدَاءِ أَدْوَارِنَا الْوَالِدِيَّةِ، وَمَسْئُولِيَّتِنَا الْأُسْرِيَّةِ، وَنُبَرِّرُ لِأَنْفُسِنَا عَدَمَ أَخْذِنَا بِالْأَسَالِيبِ النَّفْسِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَخَاصَّةً

الأمهات؛ لأنهن عماد الأسرة التربوي، ولأن تقصيرنا لن تقف آثاره عند أمر واحد أو آخر فحسب، حتى نحاول أن نغض الطرف بينما، إنما هو في الحقيقة مظهر من مظاهر انهيار الالتزام الخلقى والقيمي لدى أفراد المجتمع، وهو بالتالي دليل على انهيار الأداء الاجتماعي وتفشي التحلل والفساد في المجتمع الذي يجب المبادرة إلى معالجة أسبابه الكامنة، من دون تهاون أو تلمس للأعذار الواهية.

حتمًا أيها الإخوة والأخوات؛ فإنه ليس من القيم السليمة في المجتمع الإنساني، ولا من العقل السليم مصادمة الفطرة والعدوان على الحقوق الإنسانية الأساسية، وحرمان أي عضو من أعضاء الجماعة والمجتمع من حقه في ممارسة حياة حرة كريمة منتهجه. أيها الإخوة والأخوات يجب أن نربي كل واحد من أبنائنا وشبابنا، بحيث يعرف حقه، ولا يتعدى حده، وأن نكون جميعًا عونًا وسندًا لبعضنا البعض، فكلنا في خاتمة المطاف، أبناء وآباء وأمّهات وإخوان وأخوات تجمعنا الإنسانية، وتجمعنا المواطنة وتجمعنا المصلحة الاجتماعية، وتنظم علاقاتنا القيم الأخلاقية السوية، بغض النظر عن السن والجنس، أو الطائفة والعقيدة، أو الموقع في المجتمع، ولا يصح أن يقبل غير ذلك بحجة أي عذر من الأعذار المضللة الزائفة، وإلا كان الاستبداد والفساد والخلاف

وَالصِّرَاعُ وَالتَّخْلُفُ، وَسُوءُ الْمُنْقَلَبِ فِي الدَّارَيْنِ.
أَطْرَقَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ قَائِلًا: بَعْدَ كُلِّ مَا قُلْنَا وَوَضَّحْنَا، أَيُّهَا الشَّبَابُ
وَالشَّابَّاتُ، بِشَأْنِ الْحُقُوقِ، فَإِنَّ مِنَ الْمُهْمِ أَنْ نُدْرِكَ بِوَضُوحٍ أَيْضًا، أَنَّهُ لَيْسَ فِيمَا
ذَكَرْنَا، أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، مَا يَعْنِي أَوْ يُبَرِّرُ إِضَاعَةَ الْمَرْأَةِ حَيَاتَهَا وَوَقْتَهَا، مِنْ دُونِ
حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ، مُتَبَرِّجَةً تَذَرِعُ الطَّرِيقَاتِ وَتَتَسَكَّعُ، وَتَتَصَدَّرُ الْمَجَالِسَ وَالصَّلَاتِ،
شَقِيقَةً وَهَذِرًا، بِمَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا جَدْوَى مِنْهُ فِي عِلَاقَاتِ التَّوَاصُلِ وَالتَّرَاحُمِ وَالسَّمْرِ
وَالتَّرْوِيحِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي جَلَسَاتِ الْأُسْرَةِ وَتَفَقُّدِ أَحْوَالِ الْأَبْنَاءِ وَحَاجَاتِ الدَّارِ وَتَفَقُّدِ
أَحْوَالِ الْأَهْلِ بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْجَوَارِ وَالصِّحَابِ.

فَدَارُ الْمَرْأَةِ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ وَصِغَارُهَا، فِي غَيْرِ مَصْلِحَةٍ أَوْ عَمَلٍ نَافِعٍ، أَوْلَى بِهَا
وَبِوَقْتِهَا وَجَهْدِهَا، وَأَصُونٌ لِعَفَافِهَا، وَأَحْفَظُ لِحُقُوقِهَا وَكِرَامَتِهَا، وَالِاعْتِدَالُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ
وَالْأَخَوَاتُ أَوْلَى بِمَنْ يَعْقِلُونَ وَيَعْلَمُونَ، وَعَلَيْهَا أَنْ لَا تَنْسَى أَنْ عُهُدَتَهَا "الْحَمَارُ وَأَبْنَاءُ
الْحَمَارِ". وَهُنَا ضَجَّتِ الْقَاعَةُ بِالضَّجِكِ وَارْتَسَمَتْ نَظْرَةُ التَّشْفِي عَلَى وُجُوهِ الْفَتَيَاتِ.
عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ التَّفَّتَ الشَّيْخُ إِلَى حَيْثُ تَجَلِسُ الْفَتَيَاتُ وَإِلَى حَيْثُ يَجْلِسُ الْفَتَيَانُ
وَقَالَ مُخَاطِبًا بَيَدْبَا وَالْجَمْعَ مِنْ خَلْفِهِ: أَرْجُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ اتَّضَحَ لَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ زَيْفُ

الغَبَشِ وَالخَلْطِ بِزَعْمِ الدِّفَاعِ عَنِ الحُرِّيَّاتِ، وَزَعْمِ الدِّفَاعِ عَنِ حُقُوقِ الإِنْسَانِ، وَزَعْمِ
الدِّفَاعِ عَنِ الأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ القَوِيمِ، أَيَا كَانَ، يَمِينًا وَيَسَارًا، مِنْ أَصْحَابِ الأَغْرَاضِ
وَالأَمْرَاضِ كَافَّةً، وَأَنْ تَكُونَ قَدِ اتَّضَحَتْ أَمَامَنَا جَمِيعًا حَقِيقَةُ غَايَاتِهِمْ، وَفَاسِدُ جُلِّ
دَعْوَاهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ قَدِ اتَّضَحَ أَمَامَنَا أَيضًا السُّبُلُ الصَّحِيحَةُ لِلإِصْلَاحِ وَالْحُرِّيَّةِ
وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَبِنَاءِ العَلَاقَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ الفِطْرِيَّةِ القَوِيمَةِ، بِإِذْنِ اللّهِ.

وَبِسُرْعَةٍ رَشِيقَةٍ فَائِقَةٍ وَقَفْتِ فَتَاةٌ أُخْرَى كَانَتْ تَجْلِسُ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ فِي الجَانِبِ
الأَيْسَرِ مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ وَالمُخَصَّصِ للنِّسَاءِ وَالفَتَيَاتِ، لِتُخَاطَبَ الشَّيْخَ، وَقَالَتْ:

مِنْ بَابِ المُسَاوَاةِ بِحَقِّنَا نَحْنُ النِّسَاءُ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَالإِفَادَةِ مِنْ عُلَمَائِهِ، لَدَيَّ يَا
سَيِّدِي تَسَاوُلٌ لَا أَجِدُ نَفْسِي رَاغِبَةً فِي السُّكُوتِ عَنْهُ وَمَعْرِفَةِ حِكْمَتِهِ مِنْكَ فِي ضَوْءِ مَا
وَضَحَتْ لَنَا مِنْ أَوْجِهِ التَّوَاصُلِ الرَّشِيدِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَفَتَيَاتًا،
وَهَذَا التَّسَاوُلُ هُوَ: مَا هِيَ الحِكْمَةُ وَالعَايَةُ مِنْ حِرْصِكَ مُنْذُ أَنْ نَزَلْتَ بِأَرْضِنَا، وَجَلَسْنَا إِلَى
دُرُوسِكَ وَحِوَارَاتِكَ، أَنْ يَجْلِسَ الرِّجَالُ وَالفَتَيَاتُ إِلَى جَانِبِكَ الأَيْمَنِ مِنَ المَجْلِسِ وَأَنْ
تَجْلِسَ النِّسَاءُ وَالفَتَيَاتُ إِلَى الجَانِبِ الأَيْسَرِ مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ مَقْعَدُكَ يَتَوَسَّطُ المَجْلِسَ
فِي مُوَاجَهَةِ المَمَرِ الفَاصِلِ بَيْنَ الجَانِبَيْنِ؟

ابْتَسَمَ الشَّيْخُ وَقَالَ: نَعَمْ أَيُّهَا الْأُخْتُ، سَأَوْضِحُ لَكَ الْأَمْرَ أَخِذًا بِمَبْدَأِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ فِي الْخَيْرِ، لِيَكُونَ بِسُؤَالِكَ فِي هَذِهِ الْجَلْسَةِ يَتَسَاوَى نَصِيبُ الْفَتَيَاتِ سُؤَالَيْنِ كَمَا كَانَ نَصِيبُ الْفَتَيَانِ سُؤَالَيْنِ أَيْضًا.

الْحِكْمَةُ أَيُّهَا الْأُخْتُ أَنَّ مَجَالِسَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ النَّافِعَةَ، أَيًّا كَانَتْ مَجَالَاتُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، لَهَا جَانِبٌ رُوحِيٌّ، مِثْلُهَا مِثْلُ بَقِيَّةِ مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ، وَلِنَجَاحِ مُهِمَّةِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ فَإِنَّهَا تَتَطَلَّبُ إِخْلَاصًا فِي الطَّلَبِ وَتَرْكِيزًا فِي التَّوَجُّهِ، وَلِذَلِكَ مِنَ الْمُهَيِّمِ طَلَبُ كُلِّ مَا قَدْ أَنْ يَصْرِفَ النَّفْسَ عَنِ التَّرْكِيزِ وَحُسْنِ الْأَدَاءِ، "وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ" كَمَا يَقُولُونَ.

وَلِذَلِكَ أَيُّهَا الْأُخْتُ الْكَرِيمَةُ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ الرَّجَالُ وَالْفَتَيَانُ جَانِبًا مِنَ الْمَجْلِسِ، وَتَجْلِسَ النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ فِي الْجَانِبِ الْآخَرَ عَلَى مَا تَعَوَّدَ أَهْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ أَنْ يَكُونَ الْحَالُ فِي مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ حَيْثُ يَوْمُ الْجَمِيعِ رِجَالًا وَنِسَاءً مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنْ يَجْلِسُ كُلُّ مِنْهُمُ عَلَى حِدَةٍ، وَكَذَلِكَ مَجَالِسُ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، مِثْلُهَا مِثْلُ مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ، فَمَهْيُ أَيْضًا حَقٌّ لِلْجَمِيعِ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فِي مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ وَوَجِبَ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْجَمْعَ وَالْفَصْلَ فِي الْجُلُوسِ طَلَبًا لِلتَّرْكِيزِ وَصَفَاءِ الذِّهْنِ يُصْبِحُ أَمْرًا مَقْبُولًا فِي مَجَالِسِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْعَالِي لِلْبَالِغِينَ، وَإِلَّا كَانَ عَلَى الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَتَفَحَّصَ مَفَاهِيمَهُ وَأَسَسَ مَنَاهِجَ



مَجَالِسِ الْعِبَادَةِ حَيْثُ يَوْمُ الْجَمِيعِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَكُلًّا مِنْهُمْ عَلَى حِدَةٍ

تَرْبِيَةِ نَشِيئِهِ، وَلَا يُضَيِّعُ الْجُهْدَ فِي مُصَارَعَةِ طَوَاحِينِ ظَوَاهِرِ الْإِنْجِرَافَاتِ، "وَدَسَّ الرَّؤُوسَ فِي الرِّمَالِ" بَدَلًا مِنْ مُعَالَجَةِ جُذُورِ الْأَمْرَاضِ، وَمَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا الْحَقِيقِيَّةِ.
إِنَّ التَّوَاصُلَ الْأَخْلَاقِيَّ الْاجْتِمَاعِيَّ الْمُنْضَبِطَ بِقِيَمِهِ وَتَقَالِيدِهِ، وَصَلًا حِينَ يَحْسِنُ الْوَصْلَ وَفَصْلًا حِينَ يُحْسِنُ الْفَصْلَ وَذَلِكَ، هُوَ الْأُخْرَى بِالْعَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْفَعَّالَةِ الْقَوِيْمَةِ الْمُثْمِرَةِ، وَأَدْعَى إِلَى الْحَدِّ مِنْ أَمْرَاضِ الظَّلَامِ وَأَفَاتِ دُرُوبِ الْإِنْجِرَافِ، وَإِنَّ غَيْرَ ذَلِكَ فِي وَقَعِ عَالَمِ الْيَوْمِ وَأَحْوَالِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ هُوَ كَمَنْ يُسَابِقُ ظِلَّهُ، أَوْ هُوَ "أَذَانٌ فِي مَالِطَةٍ" كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ، أَوْ كَمَنْ "يُرْقِمُ عَلَى الْمَاءِ"، أَوْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وَبِنَظَرَةٍ مُتَمَعِّنٍ وَنَبْرَةٍ جَادٍ مُتَفَكِّرٍ قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ إِنَّ عَلَى الشُّعُوبِ أَنْ تَتَدَبَّرَ أُمُورَهَا فِي جُذُورِهَا لَا فِي مَظَاهِرِهَا وَمُضَاعَفَاتِهَا فَتَزِيدُ طِينَتَهَا بِذَلِكَ بَلَّةً، وَعَلَى هَذِهِ الشُّعُوبِ أَلَّا تَتَخَلَّى عَنِ عُقُولِهَا، وَأَلَّا تَسْمَحَ بِتَغْيِيبِهَا، شَرِيْطَةٌ أَنْ تَسْتَخْدِمَ عُقُولَهَا بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ، وَلَيْسَ هَذَا وَلَا جَدًّا وَلَا شَقْشَقَةً وَسَفْسَاطَةً.

وَاصَلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ وَأَسَارِيرَهُ مُنْفَرَجَةً عَنِ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةٍ وَاسِعَةٍ، وَقَالَ: لَكُمْ عِنْدِي أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الشَّبَابُ وَالْأَخَوَاتُ الشَّبَابَاتُ خَبْرٌ مِهِمْ يُسْرِكُكُمْ وَيُسْعِدُكُمْ، ارْتَفَعَتْ

الأصواتُ تسألُ عن هذا الخبرِ. قال الشيخُ لقد أثبتت "النظرة" العلميَّة الفطريَّة أنَّ الوصلَ المنفصلَ، والفصلَ المتَّصلَ، أدعى إلى الزواجِ. وهُنا انبَعثتُ من بين الصُّفوفِ ضحكاتٌ عاليَّة فرحةٌ مُبتَهجةٌ، حتَّى أنَّ الفيلسوفَ بيدبا خرجَ عن وقاره مُبتَهجًا ضاحِكًا حتَّى كادت قلنسوتهُ تسقطُ من على رأسه.

هُنا وقفت الفتاةُ التي بدأت بإثارة هذه القضايا الحساسة المهمَّة لسباب هذا الزمانِ، بطليعتها الهبيَّة المُحتشمة، وقالت: نعم يا سيدي الشيخُ لقد أزلت الغَبشَ وكشفتُ وجوهَ الزيفِ والخلطِ، وأوضحتُ معالمَ الطريقِ، فجَزَاكَ اللهُ خيرَ الجزاءِ عمَّا وضحتُ وأرشدتُ ونصحتُ لك، وشكرًا كثيرًا لك يا سيدي الشيخُ أيضًا على ما أدخلتَ من السُّرورِ على القلوبِ الشَّابةِ من أخبارِ الزَّواجِ لإصلاح ما نرى من حالٍ كثيرٍ من الشَّبَابِ اليَوْمَ، في كثيرٍ من البلادِ في هذا الزَّمانِ.

ومَا إنْ أنهتِ الفتاةُ مقولتها، وقفتِ القِطَّةُ، ورَفَعَتْ رأسها ناظرةً إلى الشيخِ، وماءت بصوتٍ خافتٍ، كأنَّها تسترحمُ الشيخَ، أن يُنهيَ المجلسَ، رَحمةً بها وبِنفسه.

عند هذا وقفَ أحدُ الشَّبَابِ وأخذَ في توجيهِ الخطابِ للشيخِ قائلاً: معذرةً يا سيدي إنْ أثقلنا عليك اليَوْمَ في المسألةِ والحديثِ؛ لأنَّ ما أثيرَ من قضايا هي ممَّا يهْمُنَا معشر

الشَّبَابِ وَتَتَشَعَّبُ فِيهِ الْأَرَاءُ وَالرُّؤَى، وَيُثِيرُ حَيْرَتَنَا وَيَدْفَعُنَا إِلَى تَوَجُّهَاتٍ مُتَنَاقِضَةٍ تَضُرُّ بِنَا وَتَضُرُّ بِمُجْتَمَعَاتِنَا، وَلِذَلِكَ تَرَانَا نَهْتَبِلُ فُرْصَةَ لِقَائِنَا بِكَ وَبِالْحَكِيمِ بَيِّدًا لِنُفِيدَ مِنْ عِلْمِكُمْ وَتَجْرِبَتِكُمْ وَأَنْتُمْ مَنْ جُبْتُمْ الْأَفَاقَ وَخَبَرْتُمْ حَيَاةَ الْأُمَّمِ.
قَالَ الشَّيْخُ: مَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الْفَتَى، هَاتِ مَا عِنْدَكَ، وَيَكُونُ هُوَ بِإِذْنِ اللَّهِ مِسْكًا خِتَامِ حَوَارَاتِ هَذَا الْيَوْمِ.

قَالَ بَيِّدًا: نَعَمْ سَيَكُونُ هَذَا بِإِذْنِ اللَّهِ خَاتِمَةَ الْحَدِيثِ، فَقَدْ أَثْقَلْنَا عَلَى شَيْخِنَا الْيَوْمَ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ.

قَالَ الْفَتَى: لَقَدْ أَفَدْتَنَا -أَيُّهَا الشَّيْخُ- أَنَّ عَلَى الْمَرْأَةِ الْكَرِيمَةِ أَنْ تَرْتَدِيَ لِبَاسًا سَابِغًا لَا يُفْشِي شَيْئًا مِنْ مَفَاتِنِ الْجَسَدِ الَّتِي هِيَ مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَيَاةِ الْأُسْرِيَّةِ الْحَمِيمَةِ، وَلَا يَبْدُو مِنْهَا إِلَّا الْوَجْهُ لِأَنَّهُ شَخْصِيَّتُهَا، وَإِلَّا يَدَاهَا لِأَنَّهَا وَسِيلَةُ آدَائِهَا. فَهَلْ مَعْنَى هَذَا يَا سَيِّدِي أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى الْإِسْتِئْذَانِ حِينَ نَأْتِي بُيُوتَ الْأَخْرِيْنَ مِنَ الْأَهْلِ وَالْأَصْدِقَاءِ لَزِيَارَةٍ أَوْ طَلَبِ حَاجَةٍ، مَا دَامَ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَلْتَزِمَ "الْحِجَابَ".

قَالَ بَيِّدًا مُخَاطِبًا الشَّابَّ، مَاذَا دَهَاكَ يَا فَتَى؟ وَكَيْفَ تَخْلِطُ الْأُمُورَ بِهَذَا الْقَدْرِ؟ مَا عِلَاقَةُ احْتِسَامِ الْمَرْأَةِ وَحِجَابِ الرَّأْسِ بِحِجَابِ الدَّارِ؟

أَشَارَ الشَّيْخُ بِيَدِهِ إِلَى بَيْدَبَا قَائِلًا لَهُ: عَلَى رِسْلِكَ يَا بَيْدَبَا، فَلَا بَأْسَ أَنْ نُوضِّحَ الْأَمْرَ لِلْفَتَى
وَلِمَنْ تَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْأُمُورُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا، ثُمَّ التَفَتَ الشَّيْخُ مُوجِّهًا خِطَابَهُ إِلَى
الْفَتَى قَائِلًا لَهُ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَ أَيْهَا الْفَتَى يَخْلِطُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ هُوَ حَالُ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ يَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَأْخُذُ كَامِلَ
زِينَتِهِ وَمَا يُجِبُّ أَنْ يَلْقَاهُ بِهِ النَّاسُ، وَهُوَ فِي حَالَةِ الْمَرْأَةِ حِينَ تَسْعَى بَيْنَ النَّاسِ فِي
الْمَجَامِعِ وَالْأَسْوَاقِ، فَإِنَّ عَلِمَهَا أَنْ تَرْتَدِي لِبَاسِهَا السَّابِعَ مَسْتُورَةَ الْبَدَنِ "مُحَجَّبَةً"
الرَّأْسِ، سَافِرَةَ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ، أَوْ "مُبْرَقِعَةً" الْوَجْهِ بِالنِّقَابِ إِنْ شَاءَتْ كَمَا سَبَقَ أَنْ
ذَكَرْنَا وَوَضَّحْنَا.

أَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي وَهُوَ حَالُ الْإِنْسَانِ فِي خُصُوصِيَّةِ دَارِهِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ فِي أَوْضَاعِهِ الَّتِي
تَقْتَضِيهَا أَحْوَالُهُ وَرَاحَةُ نَفْسِهِ وَبَدَنِهِ؛ بَيْنَ خَاصَّةِ الْأَهْلِ مِنْ أَبْنَاءٍ وَأَزْوَاجٍ، أَوْ فِي حَالٍ مِنْ
صَحْوٍ وَنَوْمٍ وَقَضَاءِ حَاجَاتٍ؛ فَهُوَ يَضَعُ ثِيَابَهُ وَزِينَتَهُ وَيَتَحَرَّرُ مِنْهَا بِحَسَبِ حَاجَتِهِ،
وَالْمَرْأَةُ - فِي هَذِهِ الْحَالِ - حَالُهَا حَالُ سِوَاهَا مِنْ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ بَيْنَ مَحَارِمِهَا، فَلَا حَرَجَ أَنْ
يَبْدُو مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ أَحْوَالَ رَاحَتِهَا وَتَقْتَضِيهِ خُصُوصِيَّةِ دَارِهَا. فَقَدْ يَبْدُو ذِرَاعُهَا أَوْ
سَاقُهَا أَوْ شَعْرُهَا، وَقَدْ تُرْضِعُ صَغِيرَهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي خَاصَّةِ دُورِهِمْ،

وَلِهَذَا فَلَا بُدَّ لِكُلِّ طَارِقٍ وَدَاخِلٍ عَلَى خُصُوصِيَّةِ دَارِ سِوَاهُ مِنْ أَنْ يَطْرُقَ مِنْ وَرَاءِ الْأَبْوَابِ
 وَ"حِجَابِ" الْجَدْرِ، فَإِمَّا قُضِيَتْ حَاجَتُهُ حَيْثُ هُوَ، أَوْ أَخَذَ أَهْلُ الدَّارِ زِينَتَهُمْ وَوَضَعُوا
 ثِيَابَهُمْ بِمَا يَلِيْقُ بِلِقَاءِ شَخْصٍ أَجْنَبِيٍّ عَنْهُمْ، وَعِنْدَهَا يُؤْذَنُ لَهُ، فَخَاصَّةً الدَّارِ أَمْرٌ غَيْرُ عُمُومِ
 الْمَجَامِعِ وَالْأَسْوَاقِ، فَلَا يَخْتَلِطُ الْأَمْرُ عَلَيْكَ يَا فَتَى وَلَا عَلَى إِخْوَتِكَ، فَتَصْرِفُونَ الْمَعْنَى إِلَى
 غَيْرِ الْمَعْنَى، وَالْحَالِ إِلَى غَيْرِ الْحَالِ، وَتَخْلِطُونَ بِذَلِكَ بَيْنَ "حِجَابٍ" وَ "حِجَابٍ".
 قَالَ بَيْدَبَا: جَزَاكَ اللَّهُ يَا شَيْخَنَا كُلَّ خَيْرٍ، وَلَا أَظُنُّ أَمْرًا قَدْ بَقِيَ لَدَى شَبَابِنَا مِمَّا يُهْمُّ
 أَمْرَ الْهَيْئَةِ وَالزَّيْنَةِ وَاللِّبَاسِ وَمَا خَلْفَهُ مِنْ حِكْمَةٍ وَقَصْدٍ لَمْ يَسْأَلُوكَ فِيهِ وَلَمْ يُحَاوِرُوكَ
 بِشَأْنِهِ.

عِنْدَ ذَلِكَ وَقَفَ الشَّيْخُ أَيْضًا آخِذًا بِيَدِ بَيْدَبَا مُخَاطِبًا الْجَمْعَ قَائِلًا: نَعَمْ، كَفَانَا مَا
 تَحَدَّثْنَا بِهِ الْيَوْمَ، وَدَعُونَا نَأْخُذُ أَيْهَا الْإِخْوَةَ شَيْئًا مِنَ الْمَشْرُوبَاتِ لِنَلْتَقِيَ غَدًا وَنُؤَاصِلَ
 الْحَدِيثَ وَالْحِوَارَ فِيمَا يَعْنُنُ لَنَا مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي نَأْمَلُ أَنْ تُسَهِّمَ فِي بِنَاءِ عِلَاقَاتِ الْإِخَاءِ
 وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ، وَبَيْنَ أَبْنَاءِ الشُّعُوبِ، وَنُسَهِّمُ بِذَلِكَ فِي بِنَاءِ أُسُسِ
 حَضَارَةِ سَلَامٍ إِنْسَانِيَّةٍ إِعْمَارِيَّةٍ خَيْرَةٍ، بِإِذْنِ اللَّهِ.

"العِزَّةُ وَالْفَلَاحُ فِي حُبِّ اللَّهِ"

قَالَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ مُوجِّهًا خِطَابَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَتَلَامِذَتَهُ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا فِي الْيَوْمِ التَّالِي مَجْلِسَهُمْ: وَمَا هُوَ الْأَمْرُ الْأَخْرَأُ الَّذِي شَغَلَ بِأَلِكْ يَا بَيْدَبَا وَلَمْ أُحَدِّثْكَ عَنْهُ مِمَّا أَكْبَرُهُ فِي صِفَاتِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي الْآنَ؟

قَالَ بَيْدَبَا: أَمَّا الْأَمْرُ الْأَخْرَأُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ الْحَكِيمُ ابْنُ بَطُوطَةَ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَا ذَكَرْتَ لِي فِي وَصْفِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ وَالْوَادِي مِنْ أَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِالشَّجَاعَةِ الْأَدْبِيَّةِ، وَبِحِسِّ مَشَاعِرِ الْأَنْفَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، فِي مَوَدَّةٍ وَتَوَاضُعٍ لَا يَشُوبُهَا تَصَنُّعٌ وَلَا كِبَرٌ.

قَالَ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَكَ يَا بَيْدَبَا، وَهِيَ صِفَاتٌ لَمْ تُخِطْهَا عَيْنِي فِيهِمْ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ. قَالَ بَيْدَبَا: وَلَكِنَّكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لَمْ تَذْكُرْ وَلَمْ تُوضِّحْ لَنَا مَصْدَرَ هَذِهِ الشَّجَاعَةِ وَالْأَنْفَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا أَهْلُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَسَبَبُ حَيْرَتِي فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَنَّ جُلَّ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا، فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الدُّنْيَا، قَدِ افْتَقَدُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ بِرَغْمِ كَثْرَةِ حَدِيثِهِمْ عَنْهَا، وَحُبِّهِمْ لَهَا، وَرَغْبَتِهِمْ فِي أَنْ يَتَحَلَّوْا بِهَا، فَالْخَوْفُ وَالنِّفَاقُ، وَالْكَذِبُ وَالْأَنَانِيَّةُ، وَحِسُّ الْمَذَلَّةِ، وَخُلُقُ الْخُنُوعِ وَالْخُضُوعِ لِكُلِّ ذِي سَطْوَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ؛ أَصْبَحَتْ صِفَاتٌ يُعَانِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الشُّعُوبِ فِي هَذَا الزَّمَانِ.

وَلَعَلَّ لَدَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ شَيْئًا يُوضِّحُ لَنَا أَمْرَ هَذِهِ الْمُعْضِلَةِ الَّتِي تُحَيِّرُ كُلَّ ذِي لُبٍّ، وَالَّتِي أَفْعَدَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَكَثِيرًا مِنَ الشُّعُوبِ، وَأَوْهَنْتْ هِمَمَهُمْ وَأَوْرَثَتْهُمْ الْعَجْزَ وَالضَّعْفَ وَالتَّخْلُفَ، وَمَكَّنْتَ مِنْ رِقَابِهِمْ بِاسْتِهَانَةٍ وَقَسْوَةٍ وَشِرَاسَةِ عَنَاصِرِ الْفَسَادِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَجَعَلْتَ أَعْلَاهُمْ قَبْلَ أَدْنَاهُمْ رَهِينَةً فِي قَبْضَةِ الْأَعْدَاءِ، وَفَرِيَسَةً سَهْلَةً لِلطَّامِعِينَ مِنْ كَوَاسِرِ الشُّعُوبِ وَضِبَاعِ الْأُمَمِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ: صَدَقْتَ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْحَكِيمُ بَيَدَبَا؛ فَهَذِهِ وَلَا شَكَّ قَضِيَّةٌ مُعْضِلَةٌ أُخْرَى هَامَةٌ، وَإِنِّي -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- أَجِدُ فِي جُعْبَتِي حَصِيلَةً طَيِّبَةً مِنَ التَّأْمَلِ بِشَأْنِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ، لَعَلَّ فِيمَا لَدَيَّ يَكُونُ فِيهِ إِجَابَةٌ شَافِيَةٌ عَنِ تَسَاؤُلِكَ وَإِخْوَانِكَ وَمَا يُزِيلُ بَعْضَ حَيْرَتِكَ.

السِّرُّ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيَدَبَا فِي أَمْرِ حَسَنِ الْكِرَامَةِ وَالْعِزَّةِ عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، وَحَسَنِ الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَالْخُضُوعِ عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى إِنَّمَا يَعُودُ فِي أُسَاسِهِ إِلَى الرُّؤْيَةِ الْكُلِّيَّةِ الْكُونِيَّةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ.

فَالْأُمَمُ وَالشُّعُوبُ الْحُرَّةُ الْعَزِيْزَةُ السَّلَامِيَّةُ الْكَرِيْمَةُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْأَعْرَاءُ- شُعُوبٌ تَجْعَلُ الْحُرِّيَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالتَّكَاوُلَ وَالْقِيَمَ وَالْمَرَامِي السَّامِيَّةَ الَّتِي تَهْفُو إِلَيْهَا نَفُوسُهَا وَفِطْرَتُهَا أُسَاسَ رُؤْيَتِهَا الْكُلِّيَّةِ الْكُونِيَّةِ الْاسْتِخْلَافِيَّةِ.

أَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي تَتَشَوَّهُ فِيهَا رُؤْيُهَا الْكُونِيَّةُ وَمَنَاهَجُ فِكْرِهَا، وَالَّتِي تَفْقِدُ عِنْدَ ذَلِكَ حُرِّيَّتَهَا
وَحُرِّيَّةَ خِيَارَاتِهَا، وَتَفْتَقِدُ حَسَّ كِرَامَتِهَا وَعِزَّةَ نَفُوسِ أبنَائِهَا أَيْهَا الْعَزِيزُ بَيْدَبَا؛ فَإِنَّهَا تَفْقِدُ
مَشَاعِرَ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، وَلَا تَجْنِي مَهْمًا تَحَايَلَتْ فِي تَزْيِيفِ الْقَوْلِ وَالْحُجَّةِ إِلَّا مَشَاعِرَ الذُّلِّ
وَالْمَهَانَةِ وَالْعَجْزِ وَالتَّخْلُفِ، وَيَنْتَهِي أَمْرُهَا فِي جَمِيعِ عِلَاقَاتِهَا وَفِي تَنْظِيمَاتِهَا إِلَى الْفَسَادِ
وَالِاسْتِبْدَادِ.

أَصْحَابُ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ، وَالْمُفْسِدُونَ وَالْمُسْتَبِدُّونَ، يَا بَيْدَبَا؛ لَا يَأْلُونَ جُهْدًا فِي
تَشْوِيهِ الرُّؤْيَةِ وَالْفِكْرِ وَتَزْيِيفِ الْقَوْلِ، وَتَخْلِيطِ الْمَفَاهِيمِ وَتَضْلِيلِ الْبُسْطَاءِ، وَقَهْرِ
الْمُخْلِصِينَ؛ لِسَلْبِ حَقِّ الْحُرِّيَّةِ وَقِيَمِ الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ وَالتَّكَاْفُلِ مِنْ أبنَاءِ تِلْكَ الشُّعُوبِ،
وَإِرْغَامِهِمْ عَلَى قَبُولِ حَقِّ وَصَايَتِهِمْ وَوَلَايَتِهِمْ وَتَسْلُطِهِمْ عَلَيْهِمْ بِأَسْمَاءٍ وَعِلَلٍ لَا تُحْصَى؛
لِتَمْكِينِ الْاسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِنَوَازِعِ الْأَثَرَةِ وَالتَّسْلُطِ، وَالِاسْتِثْنَاءِ بِالثَّرْوَةِ
لِخِدْمَةِ الْمَطَامِعِ وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ، اسْتِجَابَةً لِنَزَوَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَتَمُّعِ التَّبْدِيدِ
وَالْتَّرَفِ الْهَابِطَةِ الرَّائِفَةِ.

كَثِيرٌ مِنَ الشُّعُوبِ الذَّلِيلَةِ الْعَاجِزَةِ الْمُتَخَلِّفَةِ الْيَوْمَ يَا بَيْدَبَا؛ وَالَّتِي يَتَوَسَّطُ كَثِيرٌ مِنْهَا
قَلْبَ الْأَرْضِ؛ كَانَتْ شُعُوبًا سَلَامِيَّةً حَقًّا، فِيمَا يُرَوَى لَنَا مِنْ تَارِيخِهَا وَسِيرِهَا، وَذَلِكَ حِينَ

كَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِالرُّؤْيَا الْكُونِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَمَنَاهَجِ الْفِكْرِ السَّلِيمِ، وَأَسَالِيْبِ التَّرْبِيَةِ السَّلِيمَةِ، وَتَتَمَتَّعُ بِالتَّالِي بِقُدْرَةِ الْحُرِّيَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ مِمَّا أَوْزَتْهُمْ سَلَامَةَ الْفِكْرِ وَرُقِيَّ الْخُلُقِ وَحَقَّ الْخِيَارِ، وَرُوحِ التَّضَامُنِ وَالتَّكَافُلِ فِي سَالِفِ مَا مَضَى مِنْ حَيَاتِهَا وَتَارِيخِهَا؛ مِمَّا وَلَدَ فِي نَفْسِهِمْ وَفِكْرِهِمْ طَاقَاتِ الْقُوَّةِ وَالْمُبَادَرَةِ وَالْإِبْدَاعِ، وَحَسَّ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ تَجَاهَ ذَاتِهَا، وَتَجَاهَ كُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، فَلَا يَجُوعُ وَلَا يَعْزَى فِيهَا أَحَدٌ وَلَا يَتَرَدَّدُ أَيْ عَضُوفِهَا مِنَ الْعَطَاءِ وَلَوْ بِحَيَاتِهِ أَوْكَلَ مَا لِهَ وَهَذَا الْفَهْمُ هُوَ الَّذِي يُفَسِّرُ مَا تَمَتَّعَتْ بِهِ تِلْكَ الْجَزِيرَةُ، وَذَلِكَ الْوَادِي، مِنْ صِفَاتِ الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ وَالشَّجَاعَةِ الَّتِي أَبْهَرَتْ الْعَالَمَ وَأَرْسَتْ أُسُسَ أَرْقَى حَضَارَةِ إِنْسَانِيَّةِ فِي التَّارِيخِ، وَمَا زَالَتْ رُؤْيُهَا الْكُونِيَّةِ وَقِيَمِهَا مُحَفِّزَةً لِإِعَادَةِ بِنَاءِ حَضَارَةِ الْعَدْلِ وَالْكَرَامَةِ وَالسَّلَامِ.

أذْكَرِيَا بِيَدَبَا أَنَّ الذَّوَاتِ السَّوِيَّةَ بِفِطْرَتِهَا الْإِسْتِخْلَافِيَّةَ تُقَدِّسُ حَقَّ الْحُرِّيَّةِ فِي أَمْرِكُلِّ مَا هُوَ فِطْرِيٌّ بِنَاءً، وَتُدْرِكُ قِيَمَةَ الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ وَتَلْتَزِمُ قِيَمَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةَ وَالْأَمْنَ وَالسَّلَامَ، وَتَطْلُبُهَا، وَلِذَلِكَ فِيهَا بِإِرَادَتِهَا الْحُرَّةَ، وَبِتَدْبِيرِ عُقُولِهَا النَّاضِجَةِ، "تُعَبِّدُ" نَفْسَهَا وَمُؤَسَّسَاتِهَا وَأَنْظِمَتَهَا "لِلْحَقِّ" وَ"الْعَدْلِ" وَ"الرَّحْمَةَ" وَتَطْلُبُ "الْأَمْنَ" وَ"السَّلَامَ" لِلْجَمِيعِ لِأَنَّهَا وَهِيَ نَفْسٌ بِفِطْرَتِهَا السَّوِيَّةِ تَكْرَهُ فِي جَمِيعِ مَنَاحِي حَيَاتِهَا: "الزَّيْفَ" وَ"الْبَاطِلَ"

وَالظُّلْمَ" وَ"الْقَسْوَةَ" وَ"الْعُدْوَانَ" وَ"الْفَسَادَ" وَتُبْغِضُهَا، وَلَا تَدَعُ لَهَا مَجَالًا لِأَنَّ تَفْسِدَ
عَلَيْهَا حَيَاتِهَا.

إِنَّ بُغْضَ الرَّحْمَنِ لِلظُّلْمِ وَالْفَسَادِ، وَالْقَسْوَةِ وَالْعُدْوَانِ، وَصِفَاتِ الشَّرِّ وَالْأَشْرَارِ
الْمُصِرِّينَ عَلَيْهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا خَيْرٌ وَعَدْلٌ، وَنَحْنُ أَيْضًا نَكْرَهُ أَصْحَابَ هَذِهِ الصِّفَاتِ
لِلْأَخْيَارِ الْمُحِبِّينَ لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ؛ الَّذِينَ إِذَا زَلُّوا أَسَفُوا وَتَابُوا، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا،
وَعَادُوا مِنْ قَرِيبٍ.

النُّفُوسُ وَالشُّعُوبُ وَالْأُمَمُ السَّوِيَّةُ يَا بَيْدَبَا؛ هِيَ نَفُوسُ شُعُوبٍ وَأُمَمٍ تُحِبُّ "اللَّهَ"
بِفِطْرَتِهَا، وَتَكْرَهُ "الشَّيْطَانَ" بِفِطْرَتِهَا؛ لِأَنَّ "الْحَقَّ" وَ"الْعَدْلَ" وَ"الرَّحْمَةَ" وَ"السَّلَامَ" هُوَ
"اللَّهُ"، وَهِيَ صِفَاتُهُ، وَلِأَنَّ "الرِّيفَ" وَ"الْبَاطِلَ" وَ"الظُّلْمَ" وَ"الْعُدْوَانَ" هِيَ مِنَ الشَّرِّ، وَمِنْ
الشَّيْطَانِ، وَمِنْ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ.

أَمَّا أَمْرُ الزَّلَّاتِ وَالْهَفَوَاتِ يَا بَيْدَبَا فَرَحْمَةُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَقْبَلُ تَوْبَةَ النُّفُوسِ عَنْهَا،
وَتَفْرَحُ بِتِلْكَ التَّوْبَةِ، وَتَغْفِرُ زَلَّاتِهَا، وَتَمْحُو سَيِّئَاتِهَا، وَتُضَاعِفُ حَسَنَاتِهَا.
وَإِذَا أَدْرَكْنَا يَا بَيْدَبَا؛ مَنْ هُوَ اللَّهُ، وَمَا هِيَ صِفَاتُهُ، وَمَاذَا يُمَثِّلُ، وَأَدْرَكْنَا مَنْ هُوَ
الشَّيْطَانُ، وَمَا هِيَ صِفَاتُهُ، وَمَاذَا يُمَثِّلُ، وَأَدْرَكْنَا أَنَّ جُلَّ الْبَشَرِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ

بِفِطْرَتِهِمُ السَّوِيَّةَ يُحِبُّونَ "اللَّهَ" وَيَكْرَهُونَ "الشَّيْطَانَ" عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ رُؤْيَةَ كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْكَثِيرِ قَدْ تَشَوَّهَتْ، وَأَصْبَحَ "اللَّهُ" عِنْدَهُمْ وَفِي
 تَصَوُّرِهِمُ الْمَشْوَهَ قُوَّةً طَاغِيَةً، سَاحِقَةً، مَا حِقَّةً، تَرْقُبُ خُطُوتِهِمْ وَتَتَرَصَّدُهُمْ وَكَأَنَّهُمْ
 الشَّيَاطِينُ الْمُعْتَدُونَ الْمُعَانِدُونَ الْمُنْكَرُونَ، وَلِذَلِكَ تَتَرَقَّبُ أخطاءَهُمْ وَزَلالاتِهِمْ، فِي شِدَّةِ
 وَقَسْوَةٍ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا التَّشْوِيهِ وَالتَّحْرِيفِ فِي خِطَابِ الْمُؤْمِنِ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا بِسَبَبِ تَدَهُّورِ
 فِكْرِ هَذِهِ الْأُمَّمِ، وَخَلْطِ خِطَابَاتِهَا، وَبِسَبَبِ شَهَوَاتِ أَصْحَابِ السُّلْطَةِ وَنَوَازِعِ الْإِسْتِبْدَادِ فِي
 نُفُوسِهِمْ وَنُفُوسِ أَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ مِنْ حَوْلِهِمْ فِي خَلْطِ الْخِطَابَاتِ؛ لِيَسْتَرْهَبُوا
 شُعُوبَهُمْ وَيَذِلُّوا نُفُوسَهُمْ، وَلِيَتَمَكَّنُوا مِنْ إِخْمَادِ طَاقَاتِ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ فِيهِمْ، وَتَمَكِينَ
 الْعُدْوَانَ عَلَى حُقُوقِهِمْ وَمُقَدَّرَاتِهِمْ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ إِلَّا بِتَشْوِيهِ رُؤْيَةِ هَذِهِ
 الشُّعُوبِ، وَخَلْطِ الْخِطَابَاتِ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا خِطَابُ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَالتَّخْوِيفِ الْمُوَجَّهَ
 إِلَى الْمُعْتَدِينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَأَصْحَابِ النُّفُوسِ الشَّرِيْرَةِ؛ الَّتِي تَهْوَى الشَّرَّ وَالظُّلْمَ وَالْبَاطِلَ
 وَالْقَسْوَةَ وَالْعُدْوَانَ وَتَتَّبِعُ الشَّيْطَانَ، وَلِيُصْبِحَ هَذَا الْخِطَابُ هُوَ الْخِطَابُ الْمُوَجَّهَ إِلَى
 نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَهْوَى قِيَمَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةَ وَالسَّلَامَ؛ الَّتِي هِيَ
 صِفَاتُ "الرَّحْمَنِ" وَتَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا؛ وَهَكَذَا تُرْهَبُ الشُّعُوبُ، وَتُصَابُ بِدَاءِ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ

وَالرَّهْبَةَ، وَيَأْخُذَهَا الْإِحْبَاطُ وَالْيَأْسُ، وَلَا تَرَى فِي نَفْسِهَا إِلَّا الْهَفَوَاتِ وَالزَّلَّاتِ وَالْعَوْرَاتِ،
وَتَخْضَعُ فِي خَوْفِهَا وَذَلَّتْهَا لِكُلِّ ذِي سَطْوَةٍ وَسُلْطَانِ.

إِنَّ مِنَ الْمُهِمِّ أَنْ تُدْرِكَ يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ مَنْ يَكْرَهُ أَوْ يَخَافُ يَبْتَعِدُ وَيُدْبِرُ، وَأَنْ مَنْ يُحِبُّ
وَيَرْغَبُ يَقْتَرِبُ وَيُقْبِلُ، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ يَا بَيْدَبَا تَقْوَى وَتَنْهَضُ، وَتَبْنِي وَتُنْجِزُ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَكُونَ
قَدْ بَنَتْ رُؤْيَتَهَا، وَبَنَتْ أَسَاسَ كَيَانَ مُجْتَمَعِهَا، وَنَشَأَتْ أَبْنَاءَهَا عَلَى الْحُبِّ وَالرَّغْبَةِ، وَمَا مِنْ
أُمَّةٍ تَمْتَلِي نَفُوسَ مُوَاطِنِهَا، وَتُرَبِّي نَاشِئَتَهَا عَلَى الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ، إِلَّا كَانَ مَصِيرُهَا الْعَجْزُ
وَالضَّعْفُ وَالذَّلَّةُ وَالْهَوَانُ.

لِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حِفْظُ الْأُمَّةِ، وَحِفْظُ أَنْظِمَتِهَا وَشَرَائِعِهَا وَمُؤَسَّسَاتِهَا،
وَحِمَايَةُ حُقُوقِهَا وَمَصَالِحِهَا وَسَلَامَةِ خَطَابَاتِهَا وَحُسْنِ أَسَالِيبِ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا، مِنْ أَهَمِّ
مَقَاصِدِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَالْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ؛ الَّذِي مِنْ دُونِهِ لَا يُحْيَى الدِّينُ، وَلَا يُحْمَى
المُوَاطِنُونَ، وَلَا تُحْمَى الْحُقُوقُ وَالْأَعْرَاضُ.

إِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَشَوَّهَتْ رُؤْيَتُهَا الْكُونِيَّةُ يَا بَيْدَبَا؛ غَابَ عَنْ رُؤْيَتِهَا وَفِكْرِهَا الْبُعْدُ الْعَامُّ
وَالْحَضَارِيُّ فِي وُجُودِهَا الْإِنْسَانِيِّ، وَانْحَصَرَ اهْتِمَامُهَا بِالْجَوَانِبِ الْأَنَانِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ؛ لِيُصْبِحَ
الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنْ دُونِ غَايَةِ إِلَّا الْبَقَاءَ الْأَنَانِي الْفَرْدِيِّ، وَتَدْبِيرَ لُقْمَةِ الْعَيْشِ
بِأَقْلِ السَّعْيِ وَالْجُهْدِ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَوْتُ.

لَقَدْ تَحَوَّلَتْ يَا بَيْدَبَا؛ هَذِهِ الْأُمَّمُ إِلَى مُجَرَّدِ أَفْرَادٍ يَتَنَازَعُونَ وَيَتَصَارِعُونَ عَلَى فُتَاتِ
الْعَيْشِ الْبَائِسِ، وَيَتَحَكَّمُ الطُّغَاةُ وَالْمُسْتَبِدُّونَ وَالنَّخَّاسُونَ فِي رِقَابِهِمْ؛ لِأَنَّ الضَّعْفَ
وَالخَوْرَ قَدْ نَخَرَفِي نُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا مُجَرَّدَ أَفْرَادٍ أَنَانِيِّينَ مُتَصَارِعِينَ، فَهَيْمُ
مُجَرَّدُونَ مِنْ قُوَّةِ الْأُمَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَفَاقِدُونَ لِبَطَاةِ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ، وَمَا أَرْوَعَ مَا قَرَأْتُ
فِي هَذَا؛ حَيْثُ كَانَتْ أَجْمَلُ وَأَشْمَلُ عِبَارَةٍ قَرَأْتُهَا فِي كِتَابِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: بِأَسْهَمِ بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر: ١٤).

يَا بَيْدَبَا؛ لَا فَرْدَ مِنْ دُونِ حِسِّ الْأُمَّةِ، وَلَا أُمَّةَ مِنْ دُونِ سَلَامَةِ بِنَاءِ الْفَرْدِ، وَالْفَرْدُ يَا بَيْدَبَا
مَسْئُولٌ عَنِ حِفْظِ الْأُمَّةِ، وَرِفْعَةِ شَأْنِهَا، وَتَوَلِيدِ طَوَاقِهَا، وَالْأُمَّةُ يَا بَيْدَبَا مَسْئُولَةٌ عَنِ
حِفْظِ الْفَرْدِ، وَتَلْبِيَةِ احتِيَا جَاتِهِ، وَصِيَانَةِ كِرَامَتِهِ.

إِنَّ سَالِفَ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ السَّلَامِيَّةِ الْعَزِيْزَةِ الْكَرِيْمَةِ، يَا بَيْدَبَا؛ كَانَتْ تَسْتَمِدُّ -كَمَا
نَعْلَمُ جَمِيعًا- عِزَّتَهَا وَكَرَامَتَهَا وَشَجَاعَتَهَا مِنْ فَهْمِهَا الصَّحِيحِ لِعِلَاقَتِهَا "بِاللَّهِ"، أَيْ مِنْ حُبِّهَا
لِلَّهِ "الْحَقِّ" وَ"الْعَدْلِ" وَ"الرَّحْمَةِ" وَ"السَّلَامِ"، وَبِذَلِكَ عَبَّدَتْ هَذِهِ الشُّعُوبُ نَفْسَهَا
بِإِرَادَتِهَا الْحُرَّةِ لِقِيَمِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ؛ الَّتِي تَهْفُو إِلَيْهَا فِطْرَتُهَا الْكَامِنَةُ فِي نُفُوسِهَا، وَهِيَ
بِهَذِهِ الرُّؤْيَا الْقَائِمَةُ عَلَى الْحُبِّ، وَبِهَذِهِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، هِيَ نُفُوسٌ مَعْبُدَةٌ، لَا مُسْتَعْبَدَةٌ.

قَدْ حَرَّرَتْ نَفْسَهَا مِنَ الْخُضُوعِ لِلشَّيْطَانِ ، وَلِكُلِّ قُوَى الشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْعُدْوَانِ ،
 أَيَّ أُمَّهَا قَدْ حَرَّرَتْ نَفْسَهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَرِيرٍ وَبَاطِلٍ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا وَضَمِيرِهَا وَفِطْرَتِهَا إِلَّا
 حُبُّهَا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ ، أَيُّ حُبِّ اللَّهِ ؛ أَيُّ أُمَّهَا حَقَّقَتِ الْحُرِّيَّةَ الْكَامِلَةَ ، وَلَمْ
 يَبْقَ فِيهَا إِلَّا مَشَاعِرُ الْحُبِّ لِتِلْكَ الْقِيَمِ وَالْمَعَانِي السَّامِيَةِ ؛ الَّتِي هِيَ حُبُّ "اللَّهِ" ، وَالَّتِي هِيَ
 لُبُّ صِفَاتِ "اللَّهِ" ، وَإِنَّ تَحْقِيقَهَا وَتَمَثُّلَهَا فِي النُّفُوسِ هُوَ الْغَايَةُ النَّبِيلَةُ السَّامِيَةُ مِنَ الْحَيَاةِ
 وَالْوُجُودِ بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ السَّوِيَّ يَا بَيْدَبَا إِنَّمَا يُحِبُّ مِنْ نَفْسِهِ مَا كَانَ مُعَبَّرًا وَمُتَوَافِقًا مَعَ
 الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَيَكْرَهُ مِنْهَا مَا تَوَافَقَ مَعَ صِفَاتِ الشَّيْطَانِ وَتَنَافَرَ مَعَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ .
 وَحُبُّ "اللَّهِ" ، وَحُبُّ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى ، هِيَ مَنْبَعُ أَحَاسِيْسٍ وَمَعَانِي حُبِّ وَرَغْبَةٍ ، وَلَا
 عِلَاقَةَ لَهَا بِأَحَاسِيْسِ الْمَذَلَّةِ وَالْمَهَانَةِ وَالْكَرْهِ أَوْ مَعَانِيهَا ، وَمَا يَنْتَابُ الْمُحِبُّ مِنَ مَشَاعِرِ
 الْخَشْيَةِ وَالْخَوْفِ مِنْ "اللَّهِ" فَإِنَّمَا هِيَ مَشَاعِرُ خَوْفِ الْمُحِبِّ مِنْ غَضَبِ حَبِيبِهِ ، وَخَشْيَتِهِ
 مِنْ هَجْرِهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِ فِيمَا يَرِغَبُ فِيهِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَدَاؤُهُ ، وَهَذَا هُوَ
 خَوْفُ الْعِبَادِ الْمُعَبَّدِينَ ، وَخَشْيَتُهُمْ ، لَا خَوْفُ الْعَبِيدِ الْمُسْتَعْبَدِينَ وَذُعْرُهُمْ وَسَلْبِيَّتُهُمْ .
 وَالتَّعْبِيدُ : هُوَ جَمَاعُ أَحَاسِيْسٍ بِنَاءً إِيْجَابِيَّةً لَا تَعْبُرُ إِلَّا عَنِ مَعَانِي الْحُبِّ وَالِاقْتِنَاعِ
 وَالرَّغْبَةِ ، وَهِيَ أَحَاسِيْسُ تَمَلُّا النُّفُوسَ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَالتَّحَرُّرِ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ

سُلْطَةَ اسْتِعْبَادٍ، وَمِنْ كُلِّ إِحْسَاسٍ بِالْمَذَلَّةِ أَوْ الْمَهَانَةِ، إِنَّهَا أَحَاسِيسُ مَمْلُوءَةٌ بِالْحُبِّ
لِلَّهِ، وَبِكُلِّ مَعَانِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ.

إِنَّ مِنَ الْمُؤَسِّفِ أَيْهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا؛ أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، فِي هَذَا
الزَّمَانِ، أَمْكَنَ تَجْهِيلُهَا وَتَضْلِيلُهَا بِكَثِيرٍ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ مِنْهَا؛ بِحَيْثُ ظَنَّتْ أَنَّهَا أَحْسَنَتْ
حِينَ تَخَلَّتْ طَوَاعِيَةً عَنْ حَقِّ حُرِّيَّةِ الْخِيَارِ، وَأَوَكَلَتْ مَصَائِرَهَا لِوَصَايَاتِ كَثِيرٍ مِنَ الْإِجَارَاتِ
الْأَكَادِيمِيَّةِ الْعَقِيمَةِ، وَالْأُرْدِيَّةِ الزَّائِفَةِ وَلِلْعَدِيدِ مِنَ الْقَابِ الْوَلَايَاتِ وَالْوَصَايَاتِ الْمُغْرَضَةِ؛
لِتُلْغِيَ عُقُولَهَا، وَتُمْكِّنَ مِنْ نَفُوسِهَا مَشَاعِرَ "الِاسْتِعْبَادِ" وَ"الْقُصُورِ"، وَمَشَاعِرَ الْعَجْزِ
وَالْحَيْرَةِ وَالْمَهَانَةِ وَالْمَذَلَّةِ، (وَالْمَذَلَّةُ غَيْرُ التَّذَلِيلِ)، حَتَّى أَنْ أَحَاسِيسَ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ؛
مَكَّنَتْ بِذَلِكَ مِنْ رِقَابِهَا تَحَالَفَاتِ مَرَاكِزِ الْقُوَى وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ فِي مُجْتَمَعَاتِهَا، وَقُوَى
أَصْحَابِ الْمَطَامِعِ وَمَرَاكِزِ التَّسَلُّطِ وَالِاسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ فِي مُؤَسَّسَاتِهَا، حَتَّى بَلَغَ بِهَا الْحَالُ
إِلَى مَا تَرَى الْعَيْنُ، لَتَشْرَبُ نَفُوسُ أَبْنَائِهَا وَشَبَابِهَا إِلَى حَالِ أَقْوَمٍ وَأَكْرَمٍ وَأَفْضَلٍ.

وَهُنَاكَ أَيْضًا أَيْهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا أُمَّمٌ وَشُعُوبٌ أُخْرَى ظَنَّتْ أَنَّهَا حَرَّرَتْ ذَاتَهَا حِينَ لَمْ
تَعْرِفْ حَقِيقَةَ مَعْنَى حُرِّيَّتِهَا، وَأَفَاقَ وَمَدَى حُدُودِ مَنْظُومَةِ تِلْكَ الْحُرِّيَّةِ فِي فِطْرَتِهَا، وَغَايَةَ
وُجُودِهَا، وَمَعْنَى حَيَاتِهَا، فَأَخْضَعَتْ نَفُوسَهَا لِنَوَازِعِ النَّزَوَاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَالْمَطَامِعِ

الطَّيْنِيَّةُ الْحَيَوَانِيَّةُ فِي كَيَانِهَا مِنْ دُونَ وَازِعٍ أَوْ رَادِعٍ مِنْ قِيَمٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ مَسْئُولِيَّةٍ، فَهُمْ لَا يَأْبَهُونَ إِلَّا لِمَا تُمْكِنُهُمْ مِنْهُ الْقُوَّةُ وَالسَّطْوَةُ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ الرَّغْبَةُ وَالشَّهْوَةُ، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّزَوَاتِ الضَّارَّةِ الْمُفْسِدَةِ.

وَهَذِهِ هِيَ حَالُ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ الْمَادِّيَّةِ الْكَوَاسِرِ فِي عَالَمِ الْيَوْمِ، وَالَّتِي تَعِيشُ فِي تَيْبِهِ وَغَيْبَةِ رُوحِيَّةٍ؛ لَا تَعْلَمُ لَهَا وَجْهَةً مِنَ الْحَيَاةِ، وَلَا غَايَةً مِنَ الْوُجُودِ، إِلَّا مَا تَشْغَلُ نَفُوسَهَا بِهِ، وَتُدْمِنُ عَلَيْهِ، مِنْ مَلَذَّاتِ الْحِسِّ، وَلَهَّاتِ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ وَالْأَسْتِهْلَاكِ وَذَلِكَ أَنَّهَا رُؤْيِيَّةٌ كَوْنِيَّةٌ مَادِّيَّةٌ طَيْنِيَّةٌ، فَلِمَ تَعْرِفْ حَقًّا مَعْنَى الْحُرِّيَّةِ، وَلَا غَايَتَهَا، وَاسْتَعْبَدَتْهَا شَهَوَاتُهَا وَنَزَوَاتُهَا وَقَوَى الشَّرِّ وَالْإِنْحِطَاطِ الطَّيْنِيِّ فِيهَا، وَبِذَلِكَ تَمَادَتْ فِي قَهْرِ الشُّعُوبِ الضَّعِيفَةِ وَنَهَبَتْ ثَرَوَاتِهَا وَكَذَلِكَ انْهَارَتْ الْقِيَمُ وَالْأَخْلَاقُ فِي كَيَانَاتِهَا، وَمَا لَهَا عَلَى الْمَدَى إِلَّا الضَّيَاعُ وَالْخُسْرَانُ؛ بِرَغْمِ ظَنِّهَا أَنَّهَا بِسَطْوَتِهَا الْمَادِّيَّةِ تُحْسِنُ صُنْعًا، فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي مَنْ خَلَا قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَّمِ الَّتِي ضَلَّتْ طَرِيقَهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا حَقَّقْتَهُ - لِبَعْضِ الْوَقْتِ - مِنْ قُوَّةٍ مَادِّيَّةٍ؛ فَتَسَاقَطَتْ قِيَمُهَا، وَتَفَسَّخَتْ أَوَاصِرُ فِطْرَتِهَا السَّوِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَدَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ دَوْلَتُهَا، وَزَالَ عَنْهَا عِزُّهَا وَجَاهُهَا، وَتَهَدَّمَتْ عُمُرَانُهَا، وَانْهَارَتْ حَضَارَاتُهَا. أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيِّنَا؛ إِنَّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكَ هُوَ فِيمَا أَرَى الْفَهْمُ الصَّحِيحُ لِلْحُرِّيَّةِ بِمَا خَبَرْتُهُ

مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ الْمُثْمِرَةِ، وَمَا عَلَّمْتُهُ مِنْ سِيرَةِ سَالِفِ الْعُصُورِ وَالْأُمَمِ، وَبِذَلِكَ كَانَ الْفَهْمُ
الصَّحِيحُ لِلرُّؤْيَا الْفِطْرِيَّةِ الْكُونِيَّةِ السَّلِيمَةِ لَدَى شُعُوبِ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ مَصْدَرًا مِنْ أَهَمِّ
مَصَادِرِ قُوَّتِهِمْ وَنَهْضَتِهِمْ، وَمَصْدَرِ ذَلِكَ الْإِحْسَاسِ الشَّرِيفِ بِالْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ وَالشَّجَاعَةِ
الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ فِي نَفْسِهِمْ، وَالَّذِي مَنَحَهُمْ غَايَةَ الْحَيَاةِ، وَدَافِعِيَّةَ الْإِنْجَازِ، وَفَجَّرَ
طَاقَةَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِعْمَارِ لَدَيْهِمْ، وَمَكَّنَ طَاقَةَ التَّأَزُّرِ وَالتَّكَافُلِ بَيْنَهُمْ؛ لِمَا كَانَ يَدْفَعُهُمْ
وَيُحَرِّكُهُمْ مِنْ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْوُدِّ "لِلَّهِ" "الْحَقِّ، الْعَدْلِ، الرَّحْمَةِ، السَّلَامِ"، وَمِنْ مَشَاعِرِ
الْكُرْهِ الصَّادِقِ الْخَالِصِ "لِلشَّيْطَانِ"، وَلِلشَّرِّ وَالضَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالْفَسَادِ، وَذَلِكَ
هُوَ أَيْضًا مَصْدَرُهُمْ فِي التَّنَاقُحِ وَالتَّكَامُلِ مَعَ كُلِّ الْكَائِنَاتِ فِي الْكُونِ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَا هِيَ ذَاتُهَا
رُّؤْيَا مَنْ سَلَفَ مِمَّنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ.

يَا بَيْدَبَا إِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَدَاخِلِ تَضَلُّلِ الْكُفَّانِ فِي خِدْمَةِ الظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ وَالْفَسَادِ
وَالْمُفْسِدِينَ، وَالْإِسْتِبْدَادِ وَالْمُسْتَبَدِّينَ وَقَهْرِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ هُوَ الْخَلْطُ بِذِكَاةٍ مُدْلِسٍ
مَآكِرِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ مِنْ شُؤْنِ فِطْرَةِ الْخَلْقِ السَّوِيَّةِ.
هُنَالِكَ يَتَمَالَكُ بَيْدَبَا نَفْسَهُ أَنْ يُبَادِرَ سُؤَالَ الشَّيْخِ أَنْ يُسَعِّفَهُ بِمَعْرِفَةِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ.

أَجَابَهُ الشَّيْخُ قَائِلاً حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بَيْدَبَا: إِنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَيْهَا الْحَكِيمُ هُمَا تَفَاوُتِ
الْقُدْرَاتِ بَيْنَ بَنِي آدَمَ وَتُسَاوِي الْكَرَامَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّ سَنُؤَخِرُ الْحَدِيثَ عَنْهُمَا إِلَى
الْغَدِ فَقَدْ أَخَذَ التَّعَبُ مِنْ الْجَمِيعِ كُلِّ مَا أَخَذَ.

"إِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ"

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اجْتَمَعَ الشَّمْلُ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا، وَجَمَعَهُمْ فِي سُوقِ لِسَمَاعٍ مَا وَعَدَ بِهِ الشَّيْخُ بِالْحَدِيثِ عَنْهُ، عَنِ أُسُسِ بِنَاءِ الْأُمَّمِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْعَلَاقَةِ السَّوِيَّةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي تُحَقِّقُ لِلْأُمَّمِ قُوَّتَهَا وَلِلْمُوَاطِنِينَ أَمْنَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ. أَخَذَ الشَّيْخُ مَقْعَدَهُ وَإِلَى جَانِبِهِ بَيْدَبَا. وَابْتَدَرَ بَيْدَبَا الشَّيْخَ وَالْمَجْلِسَ مُتَعَجِّلاً الشَّيْخَ لِلْبَدءِ بِالْحَدِيثِ الَّذِي يَتَشَوَّقُ الْجَمِيعُ وَقَدْ بَكَرُوا بِالْحُضُورِ لِسَمَاعَةٍ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمِيعُنَا يَا بَيْدَبَا نَدْرِكُ تَفَاوُتَ الْبَشَرِ فِي الْقُدْرَاتِ، وَكُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَّهُ دُونَ هَذَا التَّفَاوُتِ لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ فَرْدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَحْيِيَ وَأَنْ يَحْصُلَ عَلَى حَاجَتِهِ، أَيْ أَنَّ الْفَرْدَ لَا وُجُودَ لَهُ دُونَ الْجَمَاعَةِ، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ وَالْأَخَوَاتُ لِمَاذَا كَانَتْ بَعْضُ الْأُمَّمِ وَالْجَمَاعَاتِ قَوِيَّةً عَزِيزَةً وَعَزِيزُ مُوَاطِنُوهَا وَبَعْضُهُمْ ذَلِيلٌ مُتَنَاحِرٌ أَبْنَاؤُهَا وَذَلِيلٌ مُوَاطِنُوهَا. هَذَا هُوَ مَوْضِعُ الْحَدِيثِ الْيَوْمِ وَالَّذِي يَأْخُذُنَا إِلَى أُسُسِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ وَعَلَاقَةِ الْفَرْدِ بِالْجَمَاعَةِ وَعَلَاقَةِ الْجَمَاعَةِ بِالْفَرْدِ وَحُقُوقِ كُلِّ مِنْهُمَا.

وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى قَضِيَّةِ عِلَاقَةِ مَفْهُومِ تَفَاوُتِ قُدْرَاتِ الْأَفْرَادِ فِي تَكْوِينِ الْجَمَاعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَسَاوِيِ الْكَرَامَاتِ بِحَقِّ الْإِسْتِخْلَافِ.

فَكَمَا نَعْلَمُ وَنُشَاهِدُ يَا بَيْدَبَا، فَإِنَّ قُدْرَاتِ بَنِي آدَمَ تَتَفَاوَتْ بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ لِتَتَكَامَلَ فِي مُجْمَلِ جَمَاعَاتِهِمْ، فَهُنَاكَ الذَّكِيُّ وَالْأَذْكَى، وَالْأَقْلُ ذَكَاءً، وَهُنَاكَ الْمُجِيدُ فِي الْفُنُونِ، وَهُنَاكَ الْمُجِيدُ فِي الْعُلُومِ، وَهُنَاكَ الْمُجِيدُ فِي الصَّنَائِعِ، وَهُنَاكَ الْمُعَاقُ الْعَاجِزُ قَلِيلُ الْقُدْرَةِ وَالْحَيْلَةِ.

وَكَمَا تَعْلَمُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ أَيِّ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا التَّفَاوُتَ الْإِنْسَانِيَّ فِي الْقُدْرَاتِ هُوَ التَّكَامُلُ الَّذِي يَبْنِي الْحَيَاةَ وَيُسَيِّدُ الْعُمُرَانَ، وَدُونَ ذَلِكَ تَسْتَحِيلُ الْحَيَاةَ كَمَا أَرَادَهَا وَقَدَّرَهَا بَارِئُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أَمَّا الْكِرَامَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ، فَبَنِي آدَمَ جَمِيعُهُمْ فِيهَا سَوَاءً، وَذَلِكَ بِحَقِّ الْإِسْتِخْلَافِ فِي أَصْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، لِإِدَارَةِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَسْخِيرِ مَكْنُونَاتِهَا، لِلْحُصُولِ عَلَى حَاجَاتِ حَيَاتِهِ، وَبِنَاءِ حَضَارَتِهِ، يَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ، الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، وَالسَّيِّدُ وَالْمَسْوَدُّ، وَالْخَادِمُ وَالْمَخْدُومُ، وَالْجَهْبَدُ الْحَكِيمُ اللَّمَّاحُ الْقُرْشِيُّ وَالْعَبْدُ الْبَسِيطُ الْحَبَشِيُّ، فَجَمِيعُهُمْ يَا بَيْدَبَا فِي مَنْزِلَةِ الْكِرَامَةِ وَعِزَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَسْيَادٌ سَوَاءً، "فَسَيِّدُنَا" كَمَا تَعْلَمُ يَا بَيْدَبَا "أَعْتَقَ سَيِّدَنَا".

وَلِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا فَإِنَّ تَارِيخَ أُمَّةٍ حَضَارَةَ الْأَمْنِ وَالْعَدْلِ وَالرَّاحِمِ وَالسَّلَامِ فِي تَارِيخِنَا، نَجِدُ

الْحَكِيمَ اللَّمَّاحَ الْقُرْشِيَّ يَتَّبِعُ بِكُلِّ مَالِهِ فِي لَحْظَةِ عُسْرَةِ الْأُمَّةِ وَحَاجَتِهَا، لِأَنَّ اللَّهَ ثُمَّ رَأْسَ
الدَّوْلَةِ هُمَا كِفَالَةُ حَاجَتِهِ وَحَاجَةُ أَبْنَائِهِ وَعِيَالِهِ، فَلَا يَجُوعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا يَعْرِى
أَحَدٌ فَمِثْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَبْخُلُ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَائِهَا بِفِدَائِهَا بِمَالِهِ وَرُوحِهِ، وَلَنْ يَبْخُلُوا، وَلِذَلِكَ
كُونُوا أُمَّةً وَكُونُوا حَضَارَةً آمِنًا وَعَدَالَةً وَسَلَامًا مُشْرِقَةً.

وَاسْتِخْلَافُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ أَيْهَا الْحَكِيمُ، عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ تَفَاوُتِ الْقُدْرَاتِ
وَتَكَامُلِهَا يُحْتَمُّ التَّكَافُلُ بَيْنَ بَنِي آدَمَ، أَعْضَاءً فِي جَمَاعَاتِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، وَدُونَ الْكِرَامَةِ
وَالْتَّكَافُلِ، فَلَا أُمَّةٌ وَلَا جَمَاعَةٌ، وَلَكِنْ سَيَكُونُ هُنَاكَ دَوَابُّ مُفْتَرِسَةٌ مُتَنَاجِرَةٌ، وَعِصِيٌّ
مُبَعَثَةٌ، مُتَنَافِرَةٌ، يُسْهَلُ كَسْرُ أَفْرَادِهَا "أَحَادًا" مِنْ قَبْلِ كُلِّ مُسْتَبِدِّ مُفْسِدٍ، أَوْ
عَدُوٍّ مُتْرَبِّصٍ، عَلَى حَالٍ مَا نَشَاهِدُ يَا بَيْدَبَا مِنْ أَمْرِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ الضَّالَّةِ
الْمُضِلَّةِ الْمُسْتَعْبَدَةِ الْمُتَخَلِّفَةِ.

وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ يَا بَيْدَبَا حِينَ يَقُولُ:

تَأْبَى الْعِصِيَّ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسُرًا وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَحَادًا
يَا بَيْدَبَا إِنَّ الْخَلْطَ وَالتَّخْلِيْطَ بَيْنَ تَفَاوُتِ الْقُدْرَاتِ وَتَسَاوِيِ الْكِرَامَاتِ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنْهُ،
لِأَنَّهُ أَمْرٌ أَسَاسِيٌّ لِبِنَاءِ الْأُمَمِ وَتَكَافُلِ أَبْنَائِهَا، لِيُصْبِحَ بِذَلِكَ الْفَرْدُ عُضْوًا فِي حِزْمَةٍ يَصْعَبُ
كَسْرُهَا وَيُعَزُّ نَفْرُهَا وَيُخْشَى نَفِيرُهَا.

وَلَنْ تَجِدَ يَا بَيْدَبَا مُكْرَمٌ عَزِيزٌ كَرِيمٌ النَّفْسِ يَمُدُّ يَدَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الْعَمَلِ، وَلَنْ تَجِدَ يَا
بَيْدَبَا كَرِيمٌ مُكْرَمٌ عَزِيزٌ النَّفْسِ يَجِدُ مِنْ يَحْتَاجُ الْعَوْنَ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى عَوْنِهِ وَلَا يُعِينُهُ، وَلَنْ
تَجِدَ يَا بَيْدَبَا كَرِيمٌ مُكْرَمٌ عَزِيزٌ يَضَعُ نَفْسَهُ وَكَرَامَتِهِ فِي مَوْضِعِ الْمَلَامَةِ وَالِدَنِيَّةِ.
هَكَذَا تُبْنَى الْأُمَّمُ الْقَوِيَّةُ الْعَزِيزَةُ الَّتِي يَعِزُّ أَبْنَاؤُهَا يَا بَيْدَبَا، وَلَنْ تَجِدَ أَحَدًا مِنْ أَبْنَائِهَا مَنْ
يَتَرَدَّدُ فِي الْبَدْلِ وَالتَّضْحِيحَةِ لِحِمَايَةِ أُمَّتِهِ وَرِعَايَتِهَا وَالذُّودِ عَنْهَا، فَهُوَ يَعْلَمُ بِيَقِينٍ أَنَّهُ لَنْ يَتْرَكَ
خَلْفَهُ ابْنَ أَوْ عَيْلَةً لَا يَجِدُونَ حَاجَتَهُمْ فِي عِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ.

أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا؛ هَذَا هُوَ الدَّرْسُ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّمُ وَالشُّعُوبُ الْيَوْمَ؛
لِتَسْتَعِيدَ رُؤْيَتَهَا الْكُونِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ الصَّحِيحَةَ، وَمَعْنَى حُرِّيَّتِهَا وَكَرَامَتِهَا الْحَقِيقِيَّةَ، وَمَعْنَى
خِيَارِهَا الصَّالِحِ النَّافِعِ، وَلِتَسْتَعِيدَ غَايَةَ وُجُودِهَا، وَمَعْنَى حَيَاتِهَا، وَدَلِيلَ صِلَاحِ عُمَرَانِهَا،
وَتَوَازُنَ حَضَارَتِهَا، وَسَلَامَةَ عِلَاقَاتِهَا، وَتَكَافُلَ أَبْنَائِهَا وَإِحْلَالَ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ بَيْنَ شُعُوبِهَا،
وَالَّتِي تَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ شَيْطَانِيَّةِ قُوَى الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَسِيَادَتِهَا فِي
مُجْتَمَعَاتِهَا، وَفِي بِنَاءِ حَضَارَتِهَا السَّلَامِيَّةِ الْخَيْرَةِ.

مِنْ دُونِ ذَلِكَ - أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا - سَتَبْقَى الْأُمَّمُ وَالشُّعُوبُ فِي أَحْقَادٍ وَصِرَاعَاتٍ بَيْنَ
مُعْتَدٍ وَضَحِيَّةٍ، وَبَيْنَ قَوِيٍّ مُتَكَبِّرٍ مُتَجَبِّرٍ وَضَعِيفٍ مُنْهَزِمٍ خَائِرٍ، وَبَيْنَ غَنِيِّ مُبَدِّرٍ وَفَقِيرٍ مُعْوِزٍ،

وَكُلُّهُمْ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ ضَحَايَا مَا يَسْتَعْبِدُهُمْ مِنْ قُوَى الْأَنْيَابِ وَالشَّرِّ وَالْتِظَالِمِ
وَالْقَسْوَةِ وَالْفَسَادِ الَّتِي تُعْبِرُ عَنِ الْحَيَوَانِيَّةِ الطَّيْنِيَّةِ الْمُنْحَطَّةِ فِي كَيَانَاتِهِمْ.

تَمَهَّلَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ تَابَعَ حَدِيثَهُ مُخَاطَبًا بَيِّنًا وَإِخْوَانَهُ قَائِلًا: بَقِيَ يَا بَيِّنًا صِفَةٌ أُخْرَى
مُهِّمَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْحُرِّيَّةِ وَمُمَارَسَتِهَا النَّاجِحَةُ فِي الْمُجْتَمَعِ، لَا بُدَّ مِنْ اسْتِكْمَالِ الْحَدِيثِ عَنْهَا،
وَهِيَ تُعَدُّ أَيْضًا مِنْ أَهَمِّ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ لِأُمَّةٍ أَنْ تَتَقَدَّمَ وَتَقْوَى وَتَسُودَ
مَا لَمْ تَتَمَتَّعْ بِتِلْكَ الصِّفَةِ.

قَالَ بَيِّنًا: مَا هَذِهِ الصِّفَةُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؟ فَإِنَّا فِي شَوْقٍ إِلَى مَعْرِفَتِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ: هَذِهِ الصِّفَةُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيِّنًا، هِيَ الصِّفَةُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْحُرِّيَّةِ، وَهِيَ صِنُوعُ
لَهَا، وَلَا تَنْفَصِمُ عَنْهَا، وَهِيَ "حِسُّ الْمَسْئُولِيَّةِ" وَالْحِرْصُ عَلَى "الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ": لِأَنَّهُ إِذَا
لَمْ يَكُنْ حِسُّ الْمَسْئُولِيَّةِ قَائِمًا فِي صَمِيمِ وَجْدَانِ كُلِّ مُوَاطِنٍ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَنَّ مَصْلَحَةَ
الْفَرْدِ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ مَصْلَحَةِ الْجَمَاعَةِ، وَأَنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ
مَصْلَحَةِ الْفَرْدِ، وَأَنَّ تَحْقِيقَ الذَّاتِ الَّذِي هُوَ غَيْرُ "إِلْغَاءِ الذَّاتِ" أَوْ "مَرْكَزِيَّةِ الذَّاتِ"، لَا
يَكُونُ إِلَّا بِالْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ، فَإِنَّهُ لَا مَجَالَ عِنْدَ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ،
وَمِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ، لِتَرَابُطِ الْمُجْتَمَعِ وَتَكَافُلِهِ وَتَسَانُدِهِ، أَوْ لِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ أَوْ

لِعَطَائِهِ وَإِبْدَاعِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَصْلُ فِي حِكْمَةِ الْخَلْقِ وَمَعْنَى الْوُجُودِ، فَلَا وُجُودَ لِفَرْدٍ مِنْ دُونِ رِعَايَةِ أُسْرَةٍ، وَلَا أُسْرَةَ وَلَا رِعَايَةَ مِنْ دُونِ مُجْتَمَعٍ وَأُمَّةٍ، وَلَا أُمَّةَ مِنْ دُونِ مُجْتَمَعٍ وَعُمُرَانٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ وَحَضَارَةٍ وَثِقَافَةٍ، وَلَا أُمَّةَ وَلَا مُجْتَمَعٍ وَلَا عُمُرَانَ وَلَا حَضَارَةَ وَلَا ثِقَافَةَ مِنْ دُونِ وُجُودِ فَرْدٍ سَوِيٍّ حُرِّعَزِيزٍ قَادِرٍ مُبْدِعٍ، فَالْفَرْدُ وَالْأُمَّةُ فِي بِنَاءِ الْأُمَّةِ الرَّاقِيَةِ وَثِقَافَتِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا الصَّحِيحَةِ وَأَنْظِمَتِهَا وَمُؤَسَّسَاتِهَا وَأَدَائِهَا هُمَا صِنَوَانٍ وَتَوْأَمَانٍ لَا يَنْفَصِمَانِ، إِنَّهُ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، الْفَرْدُ فِيهِ مَسْئُولٌ عَنِ حِفْظِ الْأُمَّةِ وَخِدْمَةِ مَصَالِحِهَا وَصِيَانَةِ كِرَامَتِهَا، وَالْأُمَّةُ بِدَوْرِهَا مَسْئُولَةٌ عَنِ حِفْظِ الْفَرْدِ وَتَلْبِيَةِ حَاجَاتِهِ وَصِيَانَةِ كِرَامَتِهِ.

يَا بَيْدَبَا؛ يَجِبُ أَنْ نَحْرِصَ فِي تَرْبِيَةِ أبنَائِنَا يُحْسِنُوا آدَاءَ أَدْوَارِهِمْ فِي بِنَاءِ أُسْرِهِمُ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ، وَمَحْضَنُ بِنَاءِ الْمُواطِنِينَ، وَهِيَ تَرْبِيَةُ سَعَادَةِ نَشَاتِهِمْ، وَبِنَاءِ قُدْرَاتِهِمْ عَلَى جَوْهَرِ طَبْعِ الْأُمُومَةِ وَالْأُبُوءَةِ فِي نَفُوسِهِمْ، وَهُوَ الْحُبُّ وَالتَّضْحِيَةُ لَدَى الْأُمَّةِ، وَالَّتِي هِيَ الْعَطَاءُ وَحَسُّ الْمَسْئُولِيَّةِ لَدَى الْأَبِ، وَإِذَا ضَيَّعَ هَذَا الْجَوْهَرَ فِي طَبَائِعِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَزَيَّفَتِ الْأَدْوَارِيَا بَيْدَبَا تَهَدَّمَتِ الْأُسْرَةُ، وَشَقِيَ الْأَبَاءُ وَالْأبنَاءُ مَعًا، وَزَالَتِ رَوَابِطُ الْحُبِّ وَصِلَاتِ التَّرَاحُمِ وَمَشَاعِرِ الْإِخَاءِ وَالتَّكَافُلِ مِنْ نَسِيحِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ، وَمَعَ مُرُورِ



يَجِبُ أَنْ نَحْرِصَ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا يُحْسِنُوا آدَاءَ أَدْوَارِهِمْ فِي بِنَاءِ أُسْرِهِمْ

الْوَقْتِ تَتَّسِعُ الشُّرُوحُ فِي أَسَاسِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ تَنْتَهِي إِلَى الْفَنَاءِ وَالتَّهْدِيمِ وَالضَّيَاعِ.
يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ الْجَهَالَ الْحَمَقَى الْقَاصِرِينَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَرُونَ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
يَرْكُضُونَ خَلْفَهُ مِنْ مَتَاعٍ وَشَهَوَاتٍ لِيَسْتَأْثِرُوا بِهَا؛ فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَجْمَاوَاتٌ فَرْدِيَّةٌ تُمَثِّلُ
عِبْنًا عَلَى الْحَيَاةِ، وَهُمْ بِذَلِكَ عَنَاصِرُ مَرَضِيَّةٌ فِي أُمَّهِمْ وَمُجْتَمَعَاتِهِمْ.

قِيَمَةُ الْفَرْدِ يَا بَيْدَبَا فِي الْحَيَاةِ لَيْسَ فِيمَا يَمْلَأُ بِهِ الْإِنْسَانُ بَطْنَهُ، وَيُزْرِكِشُ بِهِ صَدْرَهُ،
وَيَلْغُوبِهِ لِسَانَهُ، إِنَّمَا قِيَمَتُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَفِي عَالَمِ النُّورِ وَالرُّوحِ مِنْ بَعْدُ، هِيَ مَا يَسْعَى
بِهِ الْفَرْدُ مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَالْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ وَالْإِتْقَانِ، وَتَتَمَثَّلُ فِي عِلَاقَاتِهِ بِأَهْلِهِ،
وَمُجْتَمَعِهِ، وَأُمَّتِهِ، وَإِنْسَانِيَّتِهِ.

بِالسَّعْيِ وَالْبَدْلِ وَالْعَطَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ يُثْمِرُ الْفَرْدُ، وَتُزْهِرُ طَاقَاتُهُ، وَتَسْمُو صِفَاتُهُ، وَتَغْنَى
ذَاتُهُ، وَتَعْتَزُّ نَفْسُهُ، وَتَرْكُوزُ سِيرَتُهُ، وَيَعْلُو شَأْنُهُ، وَيُحَقِّقُ ذَاتَهُ وَمَعْنَى وُجُودِهِ وَغَايَةَ حَيَاتِهِ،
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي عَالَمِ النُّورِ وَالرُّوحِ. وَكُلَّمَا زَادَ الْبَدْلُ وَالْعَطَاءُ وَالنَّفْعُ زَادَ
الْمَعْنَى، وَازْدَادَتِ الْقِيَمَةُ.

يَا بَيْدَبَا؛ يُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَيَاةِ فَرْدًا، لِيَحْيَا فَرْدًا، وَيَمُوتَ فَرْدًا، إِنَّ كُلَّ
مَنْ يَأْتِي إِلَى الْحَيَاةِ يَأْتِي ابْنًا لِأَبَوَيْنِ، وَعُضْوًا فِي مُجْتَمَعٍ، وَلَبِنَةً فِي أُمَّةٍ تَكْفُلُهُ وَتَصُونُهُ

وَتَحْمِيهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى لِخَيْرِهَا وَنَفْعِهَا وَحِمَايَتِهَا؛ فَفِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ خَيْرُهُ وَنَفْعُهُ
وَحِمَايَتُهُ بِقَدْرٍ مَا هُوَ خَيْرُ الْجَمَاعَةِ وَأَمْنُهَا وَنَمَائِهَا، فَمَنْ بَدَرَ فِي الْجَمَاعَةِ عَطَاءً وَبَدَلًا
وَتَضْحِيَةً، حَصَدَ كِفَالَةً وَأَمْنَا وَعِزَّةً وَكَرَامَةً.

تَعِسَ الْبَشَرُ، وَتَعَسَتِ الْأُمَّمُ الَّتِي تَتَفَكَّرُ رَوَابِطُهَا، وَتَنْحَطُّ عَلاَقَاتُ أَبْنَائِهَا، وَيَغِيبُ فِي
حَيَاتِهَا الْبُعْدُ الْعَامُّ وَحِسُّ مَسْئُولِيَّةِ الْجَمَاعَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ؛ بِحَيْثُ لَا يَجْمَعُ أَبْنَاءَهَا
وَأَعْضَاءَهَا جَامِعُ إِخَاءِ الْبَشَرِ، وَكَرَامَةُ الْإِنْسَانِ، وَتَضَامُنُ الْاجْتِمَاعِ، وَعُضُويَّةُ
الْمُوَاطَنَةِ، وَسُمُومُ الْغَايَاتِ وَالْقِيَمِ وَالْمَبَادِي.

هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتُ يَضِيعُ فِيهَا مَعْنَى وَجُودِ الْإِنْسَانِ، وَمَعْنَى حَيَاتِهِمْ، وَقُدْرَةُ عَطَائِهِمْ؛
وَيُصْبِحُونَ إِمَّعَاتٍ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ؛ فَتَنْحَطُّ بِذَلِكَ حَيَاتُهُمْ وَقِيَمَةُ اجْتِمَاعِهِمْ وَعَطَائِهِمْ؛
لِتُصْبِحَ مِنْ دُونِ قِيَمَةِ اجْتِمَاعِ الْعَجَمَاوَاتِ وَحَيَاتِهَا، وَهُمْ بِهِذَا يَكُونُونَ -عَلَى وَجْهِ
الْحَقِيقَةِ- أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْمَادِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي تَجْتَمِعُ وَتَتَكَافَلُ
عَلَى عُنْصُرِيَّةِ الْقَبِيلَةِ وَالْقَوْمِيَّةِ، شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ الْكُؤَاسِرِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَقَسْوَةً وَكَيْلًا
بِمَكْيَالَيْنِ لِمَنْ هُمْ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ.

لِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حِفْظُ الْأُمَّةِ، وَحِفْظُ أَنْظِمَتِهَا وَشَرَائِعِهَا وَمُؤَسَّسَاتِهَا،

وَحِمَايَةُ حُقُوقِهَا وَمَصَالِحِهَا، وَتَنْمِيَةُ عُمْرَانِهَا، مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَالْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَمِنْ دُونَ الْأُمَّةِ الْخَيْرَةِ، وَمِنْ دُونَ أَنْ تَكُونَ مُؤَسَّسَاتِهَا حُرَّةً عَزِيزَةً مُوَحَّدَةً قَادِرَةً قَوِيَّةً، سَلِيمَةً الْبُنْيَةَ وَالرُّؤْيِيَّةَ، لَا نَمَاءَ وَلَا بَقَاءَ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحْمَى الدِّينُ، وَلَا أَنْ يُحْمَى الْمُواطِنُونَ، وَلَا أَنْ تُحْمَى الْحُقُوقُ وَالثَّرَوَاتُ وَالْأَعْرَاضُ، فَلَا يَكُونُ الْفَرْدُ عَزِيزًا قَادِرًا مِنْ دُونَ أُمَّةٍ، وَلَا تَكُونُ الْأُمَّةُ عَزِيزَةً قَادِرَةً مِنْ دُونَ فَرْدٍ، إِنَّهَا كَيَانَاتٌ لَا يَنْفَكُ بَعْضُهَا عَنِ بَعْضٍ.

إِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَشَوَّهَتْ رُؤْيِيَّتُهَا الْكُونِيَّةُ يَا بَيْدَبَا، وَالَّتِي غَابَ -إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ- عَنْ رُؤْيِيَّتِهَا وَفِكْرِهَا الْبُعْدُ الْعَامُّ وَالْحَضَارِيُّ فِي وُجُودِهَا الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنْحَصَرَ جُلُّ اهْتِمَامِهَا بِالْجَوَانِبِ الْأَنَانِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ؛ لِيُصْبِحَ جُمْهُورُ الْإِنْسَانِ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنْ دُونَ غَايَةِ إِلَّا الْبَقَاءَ الْعَجْمَاوِيِّ الْفَرْدِيِّ، وَتَدْبِيرَ لَقْمَةِ الْعَيْشِ بِأَقْلٍ الْجُهْدِ بِانْتِظَارِ الْمَوْتِ. لَقَدْ تَحَوَّلَتْ يَا بَيْدَبَا هَذِهِ الْأُمَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى مُجَرَّدِ أَفْرَادٍ يَتَنَازَعُونَ وَيَتَصَارِعُونَ عَلَى فُتَاتِ الْعَيْشِ الْبَائِسِ، وَيَتَحَكَّمُ الطُّغَاةُ وَالْمُسْتَبِيدُونَ وَالنَّخَّاسُونَ فِي رِقَابِهِمْ؛ لِأَنَّ ضَعْفَ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ قَدْ أَضَاعَ فِيهَا مَعْنَى وُجُودِهِمُ الْإِنْسَانِيِّ، وَمَعْنَى حَيَاتِهِمْ وَقُدْرَةَ إِبْدَاعِهِمْ، فَانْحَطَّ عَطَاؤُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ، وَأَصْبَحَتْ قِيَمَتُهُمْ دُونَ قِيَمَةِ اجْتِمَاعِ الْعَجْمَاوَاتِ وَحَيَاتِهَا.

هَذَا فِيمَا أَرَى يَا بَيْدَبَا هُوَ الْحَقُّ الْمَحْضُ؛ وَسِوَاهُ قَوْلٌ زَائِفٌ بَاطِلٌ، لَا تَجْنِي الشُّعُوبُ
وَالْأُمَمُ مِنْ وَرَائِهِ إِلَّا الْفَاقَةَ وَالضَّعْفَ وَالذُّلَّ وَالتَّمَرُّقَ وَالتَّخْلُفَ وَالضَّبَّاعَ وَالْخَرَابَ.
عِنْدَ ذَلِكَ صَمَتَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةَ بُرْهَةً ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَيْدَبَا نَظْرَةً بِاسْمَةٍ، فِيمَا شَيْءٌ مِنْ
التَّأَمُّلِ، وَقَالَ لَهُ: الْمُهْمُ يَا بَيْدَبَا أَنْ تَعِيَ وَإِخْوَانِكَ مَا تَدَارَسْنَاهُ مِنْ أَمْرِ الْحُرِّيَّةِ، وَمِنْ أَمْرِ
الْمَسْئُولِيَّةِ، وَمِنْ أَمْرِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، وَمِنْ أَمْرِ حِفْظِ الْأُمَّةِ، وَحِفْظِ كِرَامَتِهَا وَأَمْنِهَا
وَسَلَامَتِهَا وَتَنْمِيَةِ قُدْرَاتِهَا وَعُمُرَانِهَا، وَأَنْ تَبْدُلَ غَايَةَ الْجُهْدِ مَعَ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ، وَمَعَ الْأَبَاءِ
وَالْأَبْنَاءِ؛ حَتَّى يُدْرِكُوا وَيَفْهَمُوا وَيَفْهَمَ الدِّيكُ!

نَظَرَ بَيْدَبَا إِلَى الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ حَائِرًا مُتَسَائِلًا عَنْ هَذَا الدِّيكِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَفْهَمَ قَضَايَا
الْحُرِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ!! وَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ إِنَّ لِي خِبْرَةً عَظِيمَةً
بِالْحَيَوَانَاتِ كَمَا تَعْلَمُ، وَلَا شَكَّ أَنَّكَ قَدْ اطَّلَعْتَ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى مَا كَتَبْتُهُ مِنْ قِصَصِ عَلَى
الْأَسِنَّةِ الْحَيَوَانَاتِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ عَنْ هَذَا الدِّيكِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ، وَالَّذِي
يَجِبُ أَنْ يَفْهَمَ هَذِهِ الْقَضَايَا الْبَشَرِيَّةَ الْعَويِصَةَ، فَهَلَّا أَفْصَحْتَ لِنَارِعَاكَ اللَّهُ عَمَّا تَقْصِدُ؟
عِنْدَهَا ضَحِكَ الشَّيْخُ وَكَادَتْ عِمَامَتُهُ أَنْ تَسْقُطَ مِنْ عَلَى رَأْسِهِ، وَهُوَ يَرَى الْحَكِيمَ
بَيْدَبَا يَأْخُذُ الْأَمْرَ مَا خَذَ الْجِدِّ لَا مَا خَذَ الْفُكَاهَةَ وَالِدُّعَابَةَ، وَالتَّفَتَّ إِلَى بَيْدَبَا قَائِلًا: عَجِيبٌ
أَمْرُكَ يَا بَيْدَبَا! فَكَيْفَ وَأَنْتَ صَدِيقُ الْحَيَوَانَاتِ لَمْ تَسْمَعْ عَنْ هَذَا الدِّيكِ الَّذِي جَرَتْ
بِسِيرَتِهِ الرُّكْبَانُ، وَأَمْتَعَتْ قِصَّتُهُ السُّمَارَ وَالْعُرْبَانَ.

قَالَ بَيْدَبَا؛ نَعَمْ أَصْدُقُكَ الْقَوْلُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فَإِنِّي لَمْ أَسْمَعْ قَبْلَ الْيَوْمِ عَنْ هَذَا الدَّيْكَ! فَمَا قِصَّتُهُ؟ لَقَدْ أَثَرْتَ مُجَدِّدًا فَضُولَنَا بِغَرَابَةِ مَا تَقُولُ، وَبِكَثْرَةِ ضَحِكِكَ حِينَ عَجَبْنَا مِنْ أَمْرِ هَذَا الدَّيْكَ.

اسْتَعَادَ الشَّيْخُ شَيْئًا مِنْ سَمْتِ الْجَدِّ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: لَا تَعْجَلْ يَا بَيْدَبَا؛ سَأُحْكِي لَكَ وَإِخْوَانِكَ أَمْرَ هَذَا الدَّيْكَ الْعَجِيبِ، فَإِنَّهُ يُحْكِي أَنَّ رَجُلًا أَصَابَهُ مَرَضٌ نَفْسِيٌّ عُضَالٌ؛ حَتَّى ظَنَّ نَفْسَهُ حَبَّةَ قَمْحٍ لَوْ رَأَاهَا دَيْكٌ لَأَلْتَقَمَهَا وَأَكَلَهَا، فَأَخَذَهُ أَهْلُهُ إِلَى حَكِيمٍ نَفْسِيٍّ نِطَاسِيٍّ يُعَالِجُهُ، وَيُزِيلُ هَذَا الْوَهْمَ مِنْ نَفْسِهِ، وَجَدَّ الطَّبِيبُ الْحَكِيمُ فِي عِلَاجِهِ شُهُورًا عَدِيدَةً؛ تَمَكَّنَ فِيهَا مِنْ إِزَالَةِ وَهْمِ الرَّجُلِ وَإِقْنَاعِهِ بِأَنَّهُ إِنْسَانٌ كَامِلٌ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَلَيْسَ حَبَّةَ قَمْحٍ يَأْكُلُهَا الدَّجَاجُ وَالدَّيْكَةُ، وَأَبْدَى الرَّجُلُ اقْتِنَاعَهُ بِمَا ذَكَرَهُ الطَّبِيبُ الْحَكِيمُ.

وَلَيْتَأَكَّدَ الطَّبِيبُ وَأَهْلُ الْمَرِيضِ مِنْ زَوَالِ الْوَهْمِ وَنَجَاحِ الْعِلَاجِ، جَلَسَ الطَّبِيبُ وَالْمَرِيضُ وَخَاصَّةً أَهْلُهُ فِي مَجْلِسِ الْعِيَادَةِ، وَطَلَبَ الطَّبِيبُ مِنْ مُسَاعِدِهِ أَنْ يَأْتِيَ بِدَيْكٍ ذِي عُرْفٍ أَحْمَرٍ وَرِيشٍ مُلَوَّنٍ يَسُرُّ النَّاضِرِينَ، وَأَنْ يُدْخَلَ هَذَا الدَّيْكَ إِلَى الْعِيَادَةِ، وَيُطْلَقَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَمَا إِنْ أَدْخَلَ الدَّيْكَ إِلَى الْمَجْلِسِ، وَأَدَارَ عُرْفَهُ الْأَحْمَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَأَجَالَ عَيْنَيْهِ الْأَحْمَرَاوِينَ فِي أَرْجَاءِ الْغُرْفَةِ؛ حَتَّى هَرَوَلَ الرَّجُلُ الْمَرِيضُ خَائِفًا مُضْطَرِبًا مُخْتَبِئًا



وَأَنْتَ كَذَلِكَ مُقْتَنِعٌ. وَلَكِنْ مَنْ يُقْنِعُ الدَّيْكَ؟!

خَلَفَ مَقْعِدِ الطَّبِيبِ.

أَخَذَتِ الطَّبِيبَ الْحَيْرَةَ مِنْ تَصَرُّفِ الْمَرِيضِ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِ الدَّيْكِ، وَطَلَبَ مِنَ الْمَرِيضِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَخْبِئِهِ بَعْدَ أَنْ طَمَأَنَّهُ إِلَى أَنَّ الدَّيْكَ قَدْ خَرَجَ. خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ خَلْفِ الْمَقْعِدِ، وَجَلَسَ إِلَى مَقْعِدِهِ، وَلَمَّا هَدَّاتِ نَفْسُهُ سَأَلَهُ الطَّبِيبُ قَائِلًا: لِمَ إِذَا قَفَزْتَ مُخْتَبِئًا حِينَ أَدْخَلَ الدَّيْكَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّكَ قَدْ اقْتَنَعْتَ مِنْ قَبْلُ بِأَنَّكَ لَسْتَ حَبَّةَ قَمْحٍ يَلْتَقِطُهَا الدَّيْكَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ الْمَرِيضُ: نَعَمْ أَيُّهَا الطَّبِيبُ؛ لَقَدْ أَقْنَعْتَنِي أَنِّي لَسْتُ حَبَّةَ قَمْحٍ وَأَنَا مُقْتَنِعٌ بِأَنِّي لَسْتُ حَبَّةَ قَمْحٍ، وَأَنْتَ كَذَلِكَ مُقْتَنِعٌ، وَلَكِنْ مَنْ يُقْنِعُ الدَّيْكَ؟! أَدْرَكَ بَيْدَبَا مَا يَرْمِي إِلَيْهِ الشَّيْخُ مِنْ سَرْدِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الطَّرِيفَةِ، وَمَغْزَاهَا، وَضَحِكَ لِطَرَاغِيهَا؛ حَتَّى كَادَ أَنْ يَقَعَ هُوَ أَيْضًا عَنْ كُرْسِيِّهِ، وَقَالَ لِلشَّيْخِ:

أَدْرَكْتُ الْآنَ مَغْزَى قَوْلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ عَنْ مَدَى الْجُهْدِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَبْذُلَهُ حَتَّى يَفْهَمَ النَّاسُ مَا نَرْمِي إِلَيْهِ، وَيُغَيِّرُوا مَا نَشَأُوا فِيهِ، وَمَا تَعَوَّدُوا عَلَيْهِ؛ فَمِنْ أَصْعَبِ الْأُمُورِ أَنْ تُغَيِّرَ النَّفُوسُ مَا اعْتَادَتْ، وَأَنْ تَتَذَوَّقَ طَعْمَ مَا لَمْ تَأْلَفْ، وَلَكِنَّهَا حِينَ تُدْرِكُ حَقِيقَةَ مَعْنَى مَا قَدَّمَ لَهَا، وَفَائِدَتَهُ، وَتَتَذَوَّقُهُ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ بِاقْتِنَاعٍ وَقُوَّةٍ وَحَمَاسَةٍ؛ وَلَا سِيَّامَا الشَّبَابُ مِنْهُمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تَتَقَدُّ الرُّؤْيَةُ الصَّحِيحَةُ فِي كَيَانِهِمْ "كَالنَّارِ فِي الْهَشِيمِ".

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ أَطْرَقَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ رَأْسَهُ، وَلَمَلَمَ أَطْرَافَ ثِيَابِهِ، وَأَمْسَكَ بِعَصَاهُ؛
إِيذَانًا بِقِيَامِهِ تَوَدِيعًا لِضَيْفِهِ بِيَدَبًا وَمَنْ حَضَرَ مَعَهُ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ؛ الَّذِينَ
كَانُوا كُلُّ يَوْمٍ يَزْدَادُونَ عَدَدًا وَمُتَعَةً وَفَائِدَةً بِسَمَاعِ مَا كَانَ يَدُورُ مِنْ حِوَارِيِّنَ حَكِيمِينَ مِنْ
حُكَمَاءِ الْعَصْرِ؛ تُشَدُّ الرَّحَالُ لِرُؤْيَيْهِمْ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى حَكِيمِ أَقْوَالِهِمَا، وَأَنْصَرَفُوا وَهُمْ مَا
يَزَالُونَ يَضْحَكُونَ؛ لِمَا أَمْتَعَهُمْ بِهِ الشَّيْخُ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ مِنْ أَمْرِ الدِّيكِ.

لَقَدْ بَدَّلَ الشَّيْخُ الْكَثِيرَ مِنَ الْجُهْدِ فِي الْحَدِيثِ، وَكَانَ بِيَدَبًا يُدْرِكُ سَحَابَاتِ الْوُجُومِ
وَالْقَلَقِ الْعَابِرِ الَّتِي تَبْدُو عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِ الشَّيْخِ؛ الَّذِي كَانَتْ قُوَّةُ إِرَادَتِهِ تَصْرِفُهَا بِمَهَارَةٍ لَا
تَجْعَلُ أَحَدًا يُحْسِبُ بِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ كَانَتْ لَهُ خِبْرَةُ الْحَكِيمِ بِيَدَبًا وَدِرَائَتُهُ، وَلَكِنْ
أَهْمِيَّةُ الْقَضِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَشْغَلُ بَالَ بِيَدَبًا، وَلَهْفَةُ الْحَاضِرِينَ لِسَمَاعِ أَكْبَرِ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنْ
عِلْمِهِ وَخِبْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، جَعَلَتْ بِيَدَبًا يُوَاصِلُ خِطَابَهُ إِلَى الشَّيْخِ قَائِلًا لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ
الْجَلِيلُ؛ لَقَدْ أَمْتَعْتَنَا وَأَفَدْتَنَا بِحَدِيثِكَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنا أَخَذْنَا الْكَثِيرَ مِنْ وَقْتِكَ وَجُهْدِكَ،
وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَيْضًا مَدَى جَلْدِكَ وَصَبْرِكَ وَكِرْمِكَ وَحُبِّكَ لِطُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ،
وَأَجِدُ أَنِّي أَقْصِرُ فِي حَقِّ نَفْسِي، وَحَقِّ هَذَا الْجَمْعِ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَمِنْ قَادَةِ
الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَنْ سَوْفَ يَتَلَقَى عَنْهُمْ وَيُفِيدُ مِنْ عِلْمِهِمْ وَيَتَّبِعُ خُطَاهُمْ، إِذَا أَنَا لَمْ أَلْقِ عَلَيْكَ
سُؤَالَ أَحَرِّ مَهْمًا مَا زَالَ يَدُورُ فِي رَأْسِي وَرَأْسِ الْحَاضِرِينَ وَيُحِيرُنَا.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ: كَفَاكَ مُقَدِّمَاتٌ يَا بَيْدَبَا، فَالْجَمِيعُ قَدْ أَخَذَهُ التَّعَبُ، وَلَسْتُ
 أَنَا أَوْ أَنْتَ أَقْلَهُمْ نَصِيبًا، وَلَكِنْ عَلَيْنَا أَنْ نُحَقِّقَ كُلَّ مَا نَرْغَبُ مِنْ لِقَائِنَا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ مَوْعِدُ
 الرَّحِيلِ وَالْفِرَاقِ. وَمِمَّا يُهَوِّنُ أَمْرَ فِرَاقِ مَنْ نُحِبُّ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي
 هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَنْتَ عَلَى رَأْسِهِمْ يَا بَيْدَبَا، أَنِّي سَأَتَّجِهُ فِي رِحْلَتِي وَمَقْصِدِي نَحْوَ الْجَنُوبِ،
 نَحْوَ أَرْضِ وَشُعُوبِ أَشْرِبَتْ حَبَّهَا وَتَأَلَّمَتْ لِمَا أَصَابَهَا، وَلِمَا حَلَّ بِهَا، وَالْأَمَلُ عِنْدِي كَبِيرٌ فِي
 إِصْلَاحِ أَحْوَالِهَا عَلَى سُنَّةِ مَا كَانَ مِنْ سَالِفِ أَمْرِهَا؛ شَرِيطَةٌ أَنْ يَبْذُلَ الْمُفَكِّرُونَ
 وَالتَّرْبُويُونَ وَالْإِصْلَاحِيُّونَ فِيهَا خَالِصَ جُهْدِهِمْ؛ لِتَعُودَ تِلْكَ الْأُمَّةُ وَتِلْكَ الشُّعُوبُ أُمَّةً
 وَشُعُوبًا سَلَامِيَّةً حَقًّا؛ فَتَتَّبِعُ سُبُلَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالسَّلَامِ، وَتَتَنَاقَشَ عَنِ
 سُبُلِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالِاسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ، وَتَتَبْنِي مُجَدِّدًا عَلَى فِي هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي يَعْجُجُ
 بِالْمَظَالِمِ وَالْمَخَاطِرِ حَضَارَةَ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ، وَعُمُرَانِ الْخَيْرِ وَالتَّكَاثُلِ وَالشُّورَى وَالْوِثَامِ.
 وَلَكِنْ يَا بَيْدَبَا عَلَيْنَا أَنْ نُوجِّلَ أَمْرَ سُؤَالِكَ وَمَا سَيَتَّبِعُهُ مِنْ قَوْلٍ وَنِقَاشٍ إِلَى يَوْمِ غَدٍ
 بِإِذْنِ اللَّهِ، وَنَحْنُ أَعْظَمُ نَشَاطًا وَأَكْثَرُ إِقْبَالًا لِلنَّظَرِ فِيمَا يُهِمُّ حَكِيمًا مِثْلَكَ.

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنِي عُصْفُورًا"

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اجْتَمَعَ شَمْلُ الْمَجْلِسِ كَالْمُعْتَادِ شَيْبًا وَشَبَابًا وَشَابَاتٍ مِنْ تَلَامِيذَةِ
الشَّيْخِ وَرُؤَادِ مَجْلِسِهِ، وَقَدْ جَلَسَ بِيَدَبًا كَالْمُعْتَادِ إِلَى يَمِينِ الشَّيْخِ.
وَبَدَأَ بِيَدَبًا الْحَدِيثَ إِلَى الشَّيْخِ.

قَالَ بِيَدَبًا: كَمْ جَمِيلٌ أَنْ نَرَى وَجْهَ شَيْخِنَا الْجَلِيلِ مُنْبَسِطًا يُدَارِي ابْتِسَامَةً تُنِيرُ مُحْيَاهُ،
فَإِنَّنَا فِي أَشَدِّ الشُّوقِ لِمَعْرِفَةِ مَا يَدُورُ بِخَلَدِ الشَّيْخِ وَيَبْسُطُ أَسَارِيرَهُ الْحَبِيبَةَ.
أَسَعَتْ بِسَمَةِ الشَّيْخِ وَقَالَ يُخَاطِبُ بِيَدَبًا:

لَعَلَّكَ تَذَكَّرِيَا بِيَدَبًا أَنْتَ وَإِخْوَانُكَ طَرَافَةَ قِصَّةِ الدِّيكِ وَالَّتِي رَوَيْتُمَا لَكُمْ بِالْأَمْسِ، وَكَمْ
كَانَتْ مُؤَنَسَةً وَمُسَلِّيَةً مَعَ مَا فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ، لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قِصَّةَ الدِّيكِ بِقِصَّةِ عُصْفُورٍ لَا
تَقُلُّ عَنْ قِصَّةِ الدِّيكِ تَسْلِيَةً وَحِكْمَةً، وَلَكِنْ دَعْنَا مِنْ ذَلِكَ وَمَا عَلَيْنَا يَا بِيَدَبًا مِنْ تَدَاعِي
الْخَوَاطِرِ، وَلِنَعُدَّ إِلَى سُؤَالِكَ الَّذِي كَانَ يَشْغَلُ بِالْك.

قَالَ بِيَدَبًا: أَمَا وَأَنْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ بَسْطَةِ الْوَجْهِ وَرَاحَةِ الْبَالِ، فَإِنَّهُ بِالْإِمْكَانِ يَا
سَيِّدِي تَأْجِيلُ ذَلِكَ وَسَمَاعُ مَا لَدَيْكَ عَنْ قِصَّةِ الْعُصْفُورِ، فَإِنَّكَ بِمَا ذَكَرْتَ جَعَلْتَنَا فِي
أَشَدِّ الشُّوقِ لِسَمَاعِهَا.

قَالَ الشَّيْخُ: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا بَأْسَ مِنْ رِوَايَةِ قِصَّةِ الْعُصْفُورِ وَالْإِفَادَةِ مِمَّا فِيهَا مِنْ مَغْزَى وَحِكْمَةٍ.

تَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: يُرَوَى أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنَّ فَتَى ذَكِيًّا بَارِعًا نَشِطًا مِنَ الْمُؤَلِّعِينَ بِالرَّحَلَاتِ وَتَسَلَّقِ الْجِبَالَ وَاسْتَكْشَفِ الْغَابَاتِ، زَلَّتْ قَدَمُهُ وَهُوَ يَتَسَلَّقُ إِحْدَى الْقِمَمِ الْوَعْرَةِ، وَلِبْرَاعَتِهِ لَمْ يُصِبْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ الْأَذَى إِلَّا كَسْرُ هَيْئٍ فِي سَاقِهِ أَلْزَمَهُ لِبَعْضِ الْوَقْتِ مَقْعَدَ عَرَبِيَّةِ الْمُعَاقِينِ، وَمَا عَادَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُغَادِرَهَا بِجَبِيرَتِهِ إِلَّا عَلَى "عُكَازَيْنِ".

مَرَّتِ الْأَيَّامُ وَالْفَتَى مُقْعَدٌ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا اعْتَادَ عَلَيْهِ مِنْ حَرَكَةٍ وَهَوَايَاتٍ وَتَجَوَّالَاتٍ، وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَرِقِ الْأَمْرُ لِلْفَتَى وَغَدَا مَهْمُومًا مَتَأَفِّفًا ضَيِّقَ الصَّدْرِ بِحَالِهِ وَعَجْزَهُ عَمَّا اعْتَادَهُ مِنْ حَرَكَةٍ وَجَرِيٍّ وَقَفْزٍ.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، جَلَسَ الْفَتَى عَلَى مَقْعَدِهِ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْحَقْلِ الْمُمْتَدِّ أَمَامَ دَارِهِ، حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ صِبْيَانٌ يَلْعَبُونَ وَيَلْهُونَ وَيَتَسَابِقُونَ وَيَتَقَادِفُونَ الْكُرَاتِ، وَالْفَتَى يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَالْأَسَى وَالضَّيِّقُ بَادٍ عَلَى وَجْهِهِ. حَطَّ -أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ- فِي هَذَا الْوَقْتِ عُصْفُورٌ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي يَجْلِسُ الْفَتَى

تَحْتَهَا، وَأَخَذَ يَلْتَقِطُ بَعْضَ الْبُذُورِ مِنْ ثِمَارِ الشَّجَرَةِ، وَهُوَ يُقَلِّبُ بَصَرَهُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ فِي لَهْوِهِمْ وَلَعِبِهِمْ وَمَرَحِهِمْ جَيِّنَةً وَذَهَابًا، وَبَيْنَ ذَلِكَ الْفَتَى "بِجَبِيرَتِهِ" وَ"عُكَازِيهِ" وَالْأَسَى يَمَلَأُ فُؤَادَهُ وَالضَّبِيقُ يُخَيِّمُ عَلَى وَجْهِهِ.

انْتَظَرَ الْعُصْفُورُ حَتَّى انْصَرَفَ الْأَطْفَالُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ. وَحَطَّ عَلَى فَرْعٍ قَرِيبٍ مِنَ الْفَتَى الْمُقْعَدِ الَّذِي كَانَ يُرْسِلُ النَّظْرَاتِ السَّاهِمَةَ إِلَى قُرْصِ شَمْسِ الْغُرُوبِ وَهِيَ تَغُوصُ فِي شَفَقِ الْأَفُقِ الْأَحْمَرَ خَلْفَ الْحُقُولِ.

أَسْقَطَ الْعُصْفُورُ بَعْضَ وُرَيْقَاتِ الشَّجَرَةِ عَلَى رَأْسِ الْفَتَى لِيَقْطَعَ عَلَيْهِ تَأْمَلَاتِهِ الْحَزِينَةَ. رَفَعَ الْفَتَى رَأْسَهُ حَيْثُ يَقِفُ الْعُصْفُورُ لِيَنْظُرَ مَا الَّذِي أَسْقَطَ أَوْرَاقَ الشَّجَرَةِ وَعِنْدَهَا رَأَى الْعُصْفُورَ الَّذِي كَانَ يُدِيرُ رَأْسَهُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً وَيُحَدِّقُ فِي وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ الْفَتَى قَائِلًا: مَا بِكَ أَيُّهَا الْعُصْفُورُ، وَلِمَذَا أَسْقَطْتَ عَلَى رَأْسِي هَذِهِ الْأَوْرَاقَ.

قَالَ الْعُصْفُورُ: بَلْ مَا لَكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْفَتَى، إِنِّي أَرَاكَ وَاجِمًا سَاهِمًا، كَأَنَّ هَمًّا أَلَمَّ بِكَ، إِنَّ بَهْجَةَ الْأَطْفَالِ وَمَرَحِهِمْ مِنْ حَوْلِكَ لَمْ تُخَفِّفْ شَيْئًا مِنْ هَمِّكَ وَغَمِّكَ وَضِيقِ صَدْرِكَ.

قَالَ الْفَتَى يُخَاطِبُ الْعُصْفُورَ: بَلْ إِنَّ مَرَحَ الصَّبِيَّةِ وَلَهْوَهُمْ هُوَ سَبَبُ هَمِّي وَغَمِّي وَضِيقِ صَدْرِي. أَمَا رَأَيْتَ أَيُّهَا الْعُصْفُورُ كَيْفَ كَانَ الصَّبِيَّةُ يَمْرُحُونَ وَيَجْرُونَ، وَأَنَا هُنَا عَلَى هَذَا

المقعد بين "الجبيرة" وهدنين "العكازين" لا أتحرك إلا بصعوبة وببطء؛ الأمر الذي يجعلني محروماً من الجري والقفز مثلهم، ألا ترى أيها العصفور أنهم يثبون كالغزلان وأنا أخطو وأتوكأ وأعرج ببطء كالسُلحفاة، وما يقطعونه من المسافات في دقيقة لا أقطعها أنا إلا في ساعة.

"صوّصو" العصفور ضاحكاً ممّا سمع من الفتى، وقال:
عجباً أيها الفتى، أهذا ما أهمك، برغم أنك ما زلت قادراً على الحركة وعلاج أفتك
وتدبير أمرك والحصول بعقلك وحيلتك على ما تريد.
صمت العصفور لحظة ثم قال "الحمد لله أيها الفتى أن الله خلقني عصفوراً" أجوب
الفضاء والتقط الثمار دون شقاء ولا عناء، وما أقطع في دقيقة في الفضاء تقطعونه أيها
البشر على الأرض في ساعات وساعات، إنني أيها الفتى لو خلقت مثلكم أدب على الأرض
وأنقل بسرعة خطوكم لأكلتني القيط وأبتلعني الثعالب والذئاب، ومع أنني أسرع منك
ومن بني جنسك فإن ذلك لا يسوءك، فلماذا -لو كنت "حكيمًا"- يسوءك أن هناك من
هو أسرع خطوا وأعظم قدرة منك ومن بني جنسك في أمرٍ أو آخر؟!
أيها الفتى إن من العقل والحكمة أن تنظر بعقلك إلى واقعك وأن تتدبر أمرك، فأنت

الإنسان كَرِّمْتَ بِعَقْلِكَ وَإِرَادَتِكَ وَلَيْسَ بِأَيِّ صِفَةٍ أَوْ قُدْرَةٍ أُخْرَى لَدَيْكَ، فَلَا تُقْعِدُكَ
النَّوَازِلُ وَلَا تُعْجِزُكَ الْعَقَبَاتُ، فَأَنْتَ بِالْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ، لَا بِقَدَمِ الْجَرِيِّ أَوْ أَجْنَحَةِ الْعَصَافِيرِ
"إِنْسَانٌ قَادِرٌ".

صَمَتَ الْعُصْفُورُ بُرْهَةً ثُمَّ "رَفَرَفَ" بِجَنَاحَيْهِ كَأَنَّهُ يُودِعُ الْفَتَى وَهُوَ يُصَوِّصُ قَائِلًا لَهُ:
إِنِّي أَيُّهَا الْفَتَى رَاضٍ بِمَا أَنَا فِيهِ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْنِي بَشَرًا أَدَبٌ عَلَى الْأَرْضِ بَطِينًا
فَرِعًا مَهْمُومًا، وَلَكِنَّهُ قَدْ خَلَقَنِي بِحَمْدِهِ عُصْفُورًا أَجُوبُ فِضَاءَ السَّمَوَاتِ، وَأَحُطُّ عَلَى مَا
يَحْلُولِي مِنَ الْأَشْجَارِ، وَأَقْطِفُ مَا أَهْوَى مِنَ الثَّمَارِ، وَإِنِّي سَعِيدٌ لِأَنِّي لَا أَتَجَاهَلُ الْجَانِبَ
الْمُضِيِّءَ مِنْ حَيَاتِي وَوُجُودِي.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ عِنْدَهَا لَوْحَ الْفَتَى بَدْرَاعِيهِ مُودِعًا لِلْعُصْفُورِ الْحَكِيمِ مُبْتَهَجًا
شَاكِرًا لَهُ الْجَمِيلِ، ثُمَّ أَخَذَ عُكَّازِيهِ يَقْفِزُ بِهِمَا فِي عَرَجٍ رَاقِصٍ عَائِدًا إِلَى دَارِهِ، فَرِحًا أَنَّ اللَّهَ
خَلَقَهُ إِنْسَانًا مُكْرَمًا بِعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ وَإِرَادَتِهِ الَّتِي هِيَ السِّرُّ الْحَقِيقِيُّ لِقُوَّتِهِ، وَالَّتِي يَجِبُ الْأَ
يَتَخَلَّى عَنْهُمَا وَيُسَخِّرُهَا لِبِنَاءِ حَيَاتِهِ، وَتَذَلِيلِ مَا يُوَاجَهُ مِنَ الصِّعَابِ وَالْعَقَبَاتِ
وَالْتَّحَدِّيَّاتِ، الْإِفَادَةَ مِمَّا حَوْلَهُ مِنْ إِمْكَانِيَّاتٍ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى الْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُمْ: هَلْ أَدْرَكْتُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ وَالشَّبَابَاتُ
فَحْوَى حِكْمَةِ قِصَّةِ الْعُصْفُورِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، لَا شَكَّ أَنَّ حِكْمَةَ هَذِهِ الْقِصَّةِ تَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّ نَحْنُ
الْبَشَرَ مَحْظُوظُونَ مُكْرَمُونَ بِعُقُولِنَا وَإِرَادَتِنَا، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى الشَّبَابِ قَائِلًا لَهُمْ: أَلَيْسَ هَذَا
صَحِيحًا أَيُّهَا الشَّبَابُ؟

قَالَ الشَّبَابُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنَا بَشَرًا".
اتَّسَعَتْ بِسَمَةِ الشَّيْخِ وَسَطَ هَرَجِ الشَّبَابِ وَمَرَجِهِمْ، وَالتَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ:
سَنَنْصَرِفُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنَ الْعَصَائِرِ الْمُثَلَّجَةِ، وَلَنْ نَسْمَحَ
لِأَحَدٍ مِنْ فَصَائِلِ الطِّيُورِ أَنْ يَصْرِفَنَا غَدًا عَنِ النَّظَرِ فِيمَا يَشْغَلُ بِأَلْكَ مِنْ أُمُورٍ، وَلَوْ كَانَ
مِنْ سُلَالَةِ بَنِي هُدْهِدٍ أَوْ بَنِي شَحْرُورٍ.



أَحَدَ النَّاسِ قَدْ تَسَأَّلَ إِلَى الدَّارِ يُقَلِّبُهَا رَأْسًا عَلَى عَقِبِ

نُغْرَكَزُ الشَّيْخِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، حِينَ اكْتَمَلَ جَمْعُ طُلَّابِ حِكْمَةِ الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ مِنَ الشَّبَابِ وَالشُّيُوخِ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الْحَكِيمُ الْفَيْلَسُوفُ بَيْدَبَا، أَقْبَلَ الشَّيْخَ الرَّحَّالَةَ وَأَلْقَى السَّلَامَ عَلَى الْحَاضِرِينَ وَأَخَذَ مَجْلِسَهُ هَاشًا بَاشًا مُرَحِّبًا بِالْحَاضِرِينَ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ تَابَعَ بَيْدَبَا حَدِيثَ الْأَمْسِ قَائِلًا: يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ اسْمَحْ لِي أَنْ أَضَعَّ أَمَامَكَ السُّؤَالَ الَّذِي حَيْرَنِي وَحَيْرَ كُلِّ مَنْ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، وَمَا يَزَالُ، وَنَحْنُ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَنَجِدُ الْجَوَابَ الشَّافِي لَدَيْكَ بِمَا قَيْضَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْخِبْرَةِ وَوَهَبَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطَةَ: أَفْصِحْ يَا بَيْدَبَا عَنْ هَذَا الَّذِي يُهْمُكَ وَيُحَيْرُكَ، وَأَرْجُو أَنْ تَجِدَ وَإِخْوَانِكَ عِنْدِي بُغْيَتَكُمْ، لِأَنَّ بَالِي مَشْغُولٌ بِأَمْرِ حَيْرَنِي وَأَقْلَقَنِي فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ تَكَرَّرَ مِرَارًا وَأَنَا لَا أَفْهَمُ لَهُ مَعْنَى مَعْقُولًا، وَلَا أَجِدُ لَهُ سَبَبًا مَقْبُولًا.

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ أَفْزَعْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ فَأَفْصِحْ بِاللَّهِ عَلَيْكَ عَمَّا جَرَى لَكَ وَأَهَمَّكَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا قَدْ أَهَمَّكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَرَاعَتِكَ فِي إِخْفَاءِ مَشَاعِرِكَ، فَإِنَّ سَلَامَتَكَ وَرَاحَةَ بَالِكَ هُمَا أَعْلَى مَا نَحْرِصُ عَلَيْهِ، وَنَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ وَأَنْتَ بَيْنَنَا. قَالَ الشَّيْخُ: إِنَّ مَا حَدَّثَ بِالْأَمْسِ يَا بَيْدَبَا قَدْ تَكَرَّرَ قَبْلَ ذَلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، فَلِعِدَّةِ مَرَّاتٍ

وَعِدَّة أَيَّامٍ كُنْتُ حِينَ أَعُودُ إِلَى الدَّارِ أَجِدُ أَنَّ أَحَدَ النَّاسِ قَدْ تَسَلَّلَ إِلَى الدَّارِ يُقَلِّبُهَا رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، يُبَعِّثُ أَثَانَهَا وَيُمَزِّقُ الْمُتَوَاضِعَ مِنْ رِيَاسَتِهَا، وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ مُهِمٍّ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ ثَمِينٍ وَلَا يَجِدُهُ، لِيَعُودَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى تَسَلُّلِهِ وَبَحْثِهِ وَنَبْشِهِ مِنْ دُونِ كَلِّ أَوْ مَلَلٍ، وَلَمْ أَشَأْ يَا بَيْدَبَا أَنْ أَقْلِقَكَ أَوْ أَقْلِقَ مَنْ مَعَكَ أَوْ أَحَدًا مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ أَعْرِفُ فِيهِمُ الأَمَانَ وَحُسْنَ الخُلُقِ وَعَدَمَ التَّقْصِيرِ فِي أَيِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِي أَوْ أَيِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِي الخَاصَّةِ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ قَدْ تَكَرَّرَ، وَتَعَدَّدَتِ المُحَاوَلَاتُ؛ وَلِذَلِكَ أَقْلِقُنِي الأَمْرَ، وَأَجِدُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الحَدِيثِ إِلَيْكَ بِشَأْنِهِ، وَخَاصَّةً أَنِّي أَعْلَمُ عِلْمَ اليَقِينِ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ عِنْدِي شَيْءٌ مُهِمٌّ أَوْ مَتَاعٌ ثَمِينٌ يُمَكِّنُ أَنْ يَطْلُبَهُ الطَّامِعُونَ وَيَسْعَى لِسَرِقَتِهِ السَّرَّاقُ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ؛ إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ أَمْرٌ مُحَيَّرٌ حَقًّا لَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ فِي جَوَارِنَا، وَلَا نَعْلَمُ مِنْ حَالِكَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُطْمَعَ أَحَدًا فِيمَا عِنْدَكَ، وَلَا أَذْرِي مَاذَا أَقُولُ لَكَ، وَلَكِنِّي سَأَطْلُبُ إِلَى مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنْ يَبْتِ العُيُونَ حَوْلَ نُزْلِكَ لَعَلَّنَا نَهْتَدِي إِلَى الفَاعِلِ، وَنَعْلَمُ مِنْهُ العِلَّةَ فِيمَا يَفْعَلُ وَمَا يَطْمَعُ فِيهِ عِنْدَكَ؟

قَالَ الشَّيْخُ: عَلَى آيَةٍ حَالٍ لَا تَقْلِقُ كَثِيرًا يَا بَيْدَبَا؛ فَكَمَا ذَكَرْتُ لَكَ، لَيْسَ فِي عِلْمِي أَنْ هُنَاكَ مَا يَطْلُبُهُ فِي دَارِي أَحَدٍ، وَلَوْ نَبَشَ الدَّارَ مِائَةَ مَرَّةٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الفَاعِلُ مُخْتَلَّ العَقْلِ،

بِرَغْمِ أَنْ أُسْلُوبَهُ وَطَرِيقَتَهُ فِي الْبَحْثِ وَالنَّبْشِ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا مَا يُحَيِّرُنِي مِنْ أَمْرِهِ، وَيَجْعَلُنِي أَتَسَاءَلُ فِي حَيْرَةٍ، عَمَّا يُمَكِّنُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْهُ فِي دَارِي الْمُتَوَاضِعَةِ هَذَا الْمُتَسَلِّلِ، وَمَا هِيَ غَايَتُهُ وَطَلِبَتُهُ؟ وَلَكِنْ لَعَلَّ الْقَادِمَ مِنَ الْأَيَّامِ، وَقَدْ قَرُبَ أَوَانُ الرَّحِيلِ، يُعِينُنَا عَلَى أَنْ نَعْلَمَ سِرَّ هَذَا اللُّغْزِ، وَأَنْ نُحَلَّ مَعْمِيَّاتُهُ.

هُنَا تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عَنِ الْحَدِيثِ، وَقَالَ: مَعْدِرَةٌ يَا بَيْدَبَا؛ لَقَدْ كَادَ أَمْرُ هَذَا الشَّيْطَانِ الْفُضُولِيِّ الْمُتَسَلِّلِ إِلَى دَارِنَا يُنْسِينَا مَا نَحْنُ فِي صَدَدِهِ مِنْ أَمْرٍ مَا تَوَدُّ السُّؤَالَ عَنْهُ وَالْحَدِيثَ فِيهِ؛ فَهَيَّا يَا بَيْدَبَا، أَخْبِرْنَا مَا هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي أَهَمَّكَ وَأَهَمَّ إِخْوَانَكَ وَحَيَّرَكُمْ؟ قَالَ بَيْدَبَا: الْأَمْرُ الَّذِي أَهَمَّنَا وَحَيَّرَنَا يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ هُوَ أَمْرٌ يُحَيِّرُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَالشُّعُوبِ مِثْلِنَا، وَكَلَّمَا حَاوَلُوا فَكَّ طَلَّاسِمِهِ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ يَزْدَادُ اسْتِعْصَاءً، وَيُضْجِي كَالسَّرَابِ أَشَدَّ بُعْدًا، وَأَصْعَبَ فَهَمًّا وَمَنَالًا.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا أَرْجُو أَنْ لَا تُطِيلَ الْمُقَدِّمَاتِ وَأَنْ تَتَحَدَّثَ فِي صُلْبِ الْمَوْضُوعِ، وَأَنْ تُفْصِحَ عَمَّا تَقْصِدُهُ مِنْ أَحَاجِيكَ وَطَلَّاسِمِكَ؛ فَقَدْ أَثْرَتَ الْفُضُولَ فِي نَفْسِي أَنَا أَيْضًا بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ وَأَهَمِّيَّتِهِ وَصُعُوبَتِهِ.

قَالَ بَيْدَبَا: أَنْتَ تَعْلَمُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ أَنَّ إِيمَانَ النَّاسِ وَعَقَائِدَهُمْ هِيَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي

تُحَدِّدُ هَوِيَّتَهُمْ، وَالَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا كَيَانُهُمْ وَكَيَانُ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، فَإِذَا تَنَاقَضَ حِسُّهُمْ وَوَأَقِعُهُمْ
مَعَ إِيمَانِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ اهْتَزَّ كَيَانُهُمْ، وَغَامَتِ هَوِيَّتُهُمْ، وَأَفْسَدَ الشُّكُّ عِزَائِمَهُمْ، وَأَوْهَنَ
هِمَمَهُمْ، وَزَعَزَعَ التَّنَاقُضُ بِنَاءَهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ: صَدَقْتَ يَا بَيْدَبَا؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَقِيدَةَ يَجِبُ أَنْ يُمَثِّلَا
الْقَاعِدَةَ الصُّلْبَةَ الْمُسْتَقِرَّةَ، وَالرُّؤْيَا الْمُضِيئَةَ الْكَاشِفَةَ الْمُحَرِّكَةَ وَالْمُعْبِرَةَ عَمَّا يُحْسُهُ
وَيَلْمَسُهُ وَيَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي وَاقِعِهِ وَحَيَاتِهِ، وَإِلَّا كَانَتِ الْعَاقِبَةُ ضَبَابًا فِي الرُّؤْيَا، وَحَيْرَةً
فِي النَّفْسِ، وَضَعْفًا وَخَوْرًا فِي الْعَزِيمَةِ، وَلَكِنْ كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟ وَمَا هُوَ وَجْهُ الْإِشْكَالِ
الَّذِي سَبَّبَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَالَةِ لَدَى مَنْ تُشِيرُ إِلَيْهِمْ مِنَ الشُّعُوبِ؛ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا؟

قَالَ بَيْدَبَا: الْمُعْضِلَةُ الَّتِي أُشِيرُ إِلَيْهَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ هِيَ أَنَّ هَذِهِ الشُّعُوبَ أَحَلَّتْ
الْقَوْلَ مَحَلَّ الْعَمَلِ؛ إِيمَانًا وَاكْتِفَاءً مِنْهَا بِأَنَّ كَثْرَةَ الدُّعَاءِ وَالشُّكْوَى إِلَى رَبِّهَا سَوْفَ يَرْفَعُ عَنْهَا
- مِنْ دُونِ جُهْدٍ أَوْ سَعْيٍ جَادٍ مِنْهَا - كُلَّ مَا يُصِيبُهَا مِنَ النَّوَازِلِ وَالْمُظَالِمِ وَالْأَفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ،
وَمِنَ الْوَاضِحِ وَالْمُشَاهِدِ وَالْمَحْسُوسِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لَهَا، وَأَنَّ الْمُظَالِمَ وَالنَّوَازِلَ
وَالْأَفَاتِ تَتْرَايِدُ وَتَتَوَالَى عَلَيْهَا، مَهْمَا طَالَ دُعَاؤُهَا، وَازْدَادَ تَضَرُّعُهَا عَلَى مَرِّ السِّنِينَ وَالْعُقُودِ
وَالْقُرُونِ؛ وَذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ مَا يَجْعَلُ الْوَاقِعَ وَالْمَحْسُوسَ يُنَاقِضُ عَقِيدَةَ إِيمَانِهِمْ

في أمر الدعاء إلى الله خالق كل شيء، والقادر على كل شيء، ليأخذ بيدهم، ويصلح أحوالهم، وينصرهم على أعدائهم، وليرد عنهم الغوائل والمكائد والنوازل والمظالم والآفات.

والسؤال أيها الشيخ: كيف يحل هؤلاء الناس الإشكال بين إيمانهم بقدره الخالق على أن يعين الإنسان، ويفرح كربه، وبين مضي السنين والعقود والقرون من دون أن يستجيب الله دعاءهم وتضرعهم، بل إن الأمور برغم دعائهم وتضرعهم في صلواتهم تزداد سوءاً، والكرب يشتد وطأة، والمظالم تتعاظم، من دون أمل في عون أو إنصاف من ساداتهم وكبرائهم أو أعدائهم.

قال الشيخ ابن بطوطة: لقد سألت يا بيدبا عن أمر عظيم يستحق أن أجلس إليك وإلى إخوانك وأخواتك بشأنه غداً إن شاء الله؛ لأنني في حاجة لأن أوفر بعض الوقت استعداداً للرحيل في الأيام القليلة القادمة إن شاء الله، فقد أن الأوان للرحيل، وقد استبدت بقلبي عاصف الشوق والتحنان إلى الجنوب، وهنا هم الشيخ بالقيام للانصراف، ولكنه رفع ناظره لصوت إحدى الفتيات في مؤخرة الصفوف، وقد وقفت توجه الحديث إليه.

أَنْصَتَ الشَّيْخُ إِلَيْهَا، وَقَالَ لَهَا: خَيْرًا يَا بِنْتِي مَا هِيَ حَاجَتُكَ.
قَالَتِ الْفَتَاةُ، يَا سَيِّدِي هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرٌ يُحَيِّرُنِي، وَيُحَيِّرُ كَثِيرًا مِنَ الشَّبَابِ مِثْلِي أَيْضًا،
وَنَوَدُّ أَنْ نَسْمَعَ مِنْكَ بِشَأْنِهِ أَيْضًا مَزِيدًا مِنَ التَّوْضِيحِ، فَإِنْ كَانَتْ إِجَابَتُهُ مُيَسَّرَةً
فَلَعَلَّكَ تَوْضِيحُهُ لَنَا الْيَوْمَ، وَإِلَّا أَنْتَظِرْنَا إِلَى غَدٍ أَوْ بَعْدَ غَدٍ، بَعْدَ أَنْ تَفْرُغَ مِنْ إِجَابَةِ
سُؤَالِ فَيْلَسُوفِنَا الْمُوقَّرِ بَيْدَبَا.

قَالَ الشَّيْخُ مُخَاطِبًا الْفَتَاةَ: إِلَيَّ بِسُؤَالِكَ أَيُّهَا الْأُخْتُ الْكَرِيمَةُ وَمَا يُحَيِّرُكَ؛ نَرَى إِنْ
كَانَ مِنَ الْأَوْلَى أَنْ نُجِيبَ عَنْهُ قَبْلَ أَنْصِرَافِنَا الْيَوْمَ، أَمْ نُؤَجِّلُهُ إِلَى غَدٍ أَوْ بَعْدَ غَدٍ.
قَالَتِ الْفَتَاةُ: سُؤَالُنَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ يَتَعَلَّقُ بِمَصِيرِنَا بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَيَاةِ، وَمَا
يَلْقَاهُ النَّاسُ فِي عَالَمِ الرُّوحِ وَمَا وَرَاءَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ
وَجَحِيمٍ؛ حَيْثُ تَتَشَعَّبُ بِنَا السُّبُلُ فِي فَهْمِهِ وَتَفْسِيرِهِ وَإِدْرَاكِ مَرَامِيهِ وَكَيْفِيَّتِهِ، فَهَلْ
لَكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تُيَسِّرَ عَلَيْنَا فَهْمَهُ وَمَعْرِفَةَ كَيْفِيَّتِهِ وَإِدْرَاكِ مَرَامِيهِ.

قَالَ الشَّيْخُ مُخَاطِبًا الْفَتَاةَ: إِذَا نَظَرْنَا أَيُّهَا الْأُخْتُ إِلَى الْجَوْهَرِ وَالْمَقْصِدِ وَدَلِيلِ
الطَّرِيقِ، فَالْأَمْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَسِيرٌ، وَلِذَلِكَ سَأُجِيبُ عَنْ سُؤَالِكَ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ
نَنْصَرِفَ مِنْ مَجْلِسِنَا، لِأَنَّي عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ لَسْتُ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ أَخُوضَ فِي

التَّفَاصِيلِ، وَيَكْفِينَا فِي هَذَا الْأَمْرِ تَوْضِيحُ الْكَلِّيَّاتِ وَالْمَقَاصِدِ وَالْعِبَرِ، مِنْ دُونِ
التَّفَاصِيلِ، فِيهَا الَّتِي تَبْقَى فِي الْقَلْبِ وَتَغُوصُ فِي الْوُجْدَانِ.
فَكُلُّنَا أَيُّهَا الْأَخْتُ الْكَرِيمَةُ، يَعْلَمُ مَدَى جَلَالِ خَلْقِ الْكُونِ فِي نِظَامِهِ وَجَمَالِهِ بِمَا لَا
يُحِيطُ بِهِ عِلْمُنَا وَسَقْفُ إِدْرَاكِنَا، وَلِذَلِكَ فَالْعَاقِلُ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ، مَنْ أَدْرَكَ قُدْرَةَ
عَقْلِهِ وَسَقْفَ إِدْرَاكِهِ وَحُدُودَ مَنْطِقِهِ.

وَلِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَخْتُ، فَإِنَّ كُلَّ مَا لَدَيْنَا مِنْ عِلْمٍ عَنِ عَالَمِ الرُّوحِ وَمَا بَعْدَ الْحَيَاةِ إِنَّمَا
هُوَ تَقْرِيبٌ وَتَمَثِيلٌ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ حَقِيقَةَ مَا وَرَاءَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ
الطَّبِئِيَّةِ لَيْسَتْ عَلَى شَاكِلَةِ مَا نَرَى أَوْ نَسْمَعُ أَوْ نَتَخَيَّلُ فِي عَالَمِنَا الدُّنْيَوِيِّ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ
الْمُهِّمَّ أَيُّهَا الْأَخْتُ، فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، أَنْ نُدْرِكَ الْقَصْدَ وَالذَّلَالََةَ، فَهُوَ -بِغَضِّ النَّظَرِ
عَنِ الْكَيْفِ- إِذَا نَعِيمٌ وَسَعَادَةٌ مَا بَعْدَهَا نَعِيمٌ وَسَعَادَةٌ؛ وَذَلِكَ لِلصَّالِحِ الْقَاصِدِ
الْعَامِلِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا بَعْدَهَا، وَإِذَا شَقَاءٌ وَتَعَاسَةٌ وَالْأَلَمُ مَا بَعْدَهُ شَقَاءٌ وَتَعَاسَةٌ
وَالْأَلَمُ، فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَا بَعْدَهَا؛ وَذَلِكَ لِلشَّرِيرِ الْقَاصِدِ الْجَاهِلِ الْمُؤْذِي الظَّالِمِ؛ لِأَنَّ
اللَّهَ يَكْرَهُ الشَّرَّ وَالظُّلْمَ، وَيَكْرَهُ الْأَشْرَارَ الظَّالِمِينَ.

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ لِيُوَاصِلَ الْحَدِيثَ، وَقَالَ يُخَاطِبُ الْفَتَاةَ

وَالْحَاضِرِينَ، أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ نَعَمْ، لَيْسَ الْمُهْمُ كَيْفَ أَوْ مَاذَا، وَلَكِنَّ الْمُهْمَ كَيْفَ نَحْسُ وَنَشْعُرُ، فَكَمْ مِنْ بَائِسٍ مُتَأَلِّمٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْ جَسَدَهُ لَا يَشْكُو مِنْ عِلَّةٍ وَهُوَ فِي أَشَدِّ الْأَلَمِ وَالتَّعَاسَةِ، بَلْ إِنِّي أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ قَدْ مَرَّتْ بِي شَخْصِيًّا تَجْرِبَةٌ مُؤَلِّمَةٌ، رَأَيْتُهَا رَأَى الْعَيْنِ، وَهِيَ تُجَسِّدُ هَذَا الْمَعْنَى، وَسَارَوْهَا لَكُمْ، لَعَلَّهَا تُعِينُ عَلَى مَزِيدٍ مِنْ تَوْضِيحِ الْأَمْرِ، فَبِالْأَمْثَلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ تَزْدَادُ الْأُمُورُ وَضُوحًا.

فَكَمَا تَعْلَمُونَ جَمِيعًا أَنَّ الْأَمَّ الْإِنْزِلَاقَ الْغُضْرُوفِيِّ فِي الْعَمُودِ الْفِقْرِيِّ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ مِنْ أَشَدِّ أَلْوَانِ الْأَلَمِ؛ لِأَنَّ الْإِنْزِلَاقَ يَضْغَطُ وَيُؤَلِّمُ حَبْلَ الْأَعْصَابِ الرَّئِيسِيِّ فِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ أَلَمُ الْأَعْصَابِ وَلَوْ كَانَ فِي ضَرْسٍ مِنَ الْأَضْرَاسِ. وَقَدْ أَصِبتُ بِنَازِلَةِ الْإِنْزِلَاقِ الْغُضْرُوفِيِّ، وَكُنْتُ وَمَا أَزَالُ إِذَا أَخْطَأْتُ وَحَرَّكْتُ الْغُضْرُوفَ الْمُنْزَلِقَ بِحَمَلِ شَيْءٍ ثَقِيلٍ فَإِنَّ مَا يَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ هُوَ الْأَلَمُ لَا يَسْهَلُ تَصَوُّرُهَا عَلَى مَنْ لَمْ يَمُرَّ بِتَجْرِبَةٍ مِثْلِهَا.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ تَحَرَّكَ الْغُضْرُوفُ الْمُنْزَلِقُ حَرَكَةً مَحْدُودَةً، وَمَعَ ذَلِكَ أَحْسَسْتُ أَنَّ حَجَرَ رَحِيٍّ عَظِيمَةً ثَقِيلَةً جَثَمْتُ عَلَى ظَهْرِي، وَأَوْكِدُ لَكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّ هَذَا الْأَلَمَ لَمْ يَكُنْ أَقْصَى أَحَاسِيْسِ الْأَلَمِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُسَبِّبَهَا تَحَرُّكُ الْغُضْرُوفِ، إِلَّا أَنَّهُ يَظَلُّ أَلَمًا عَظِيمًا يَصْغُبُ عَلَى الْمَرءِ اِحْتِمَالُهُ.

المهم أئبها الإخوة والأخوات فبما نحن بصدده، هو هل كان بهمني وأنا في ألبى من
إحساسى بئقل حبر الرخى على ظهري إن كان حقا حبرا أم لا؟ إن كل ما كان بهمني
أئبها الإخوة والأخوات هو إحساسى وألبى الذى أحسه وأعانيه، أى أن ما بهمني ليس
ماذا، ولكن ما كان بهمني هو إحساسى بالألم وضرورة التخلص منه.

نعم أئبها الإخوة والأخوات؛ إن المهم فى الأمر هو أن نذكر أننا نحن الذين بإرادتنا
الحرّة التى شاء الله بمنحها الله بمشيئته حرّية الخيار لنكون نحن الذين نحدّد فى
حياتنا مصيرنا، إمّا إلى نعيم وسعادة، وإمّا إلى ألم وشقاء، ليس المهم كيف ولا ماذا،
فذلك تقرب لما سيكون عليه عاقبة الأمر وحصيلة المصير، إمّا إحساس سعادة
ونعيم، أو شقاء وجحيم.

ولأسهل عليكم - أئبها الإخوة والأخوات - أمر معرفة المصير والعاقبة بعد الحياة،
حتى لا يتيه الفكر ويتشتت، إن الأمر ليس فى المحصلة النهائية إلا "إن خيرا فخير،
وإن شرا فشر"، وغير ذلك أئبها الإخوة والأخوات لا عقل ولا عدل، ولا منطق، بل هبل
وجنون وعبث على غير شاكلة الكون والوجود، وهو أمر لا يمكن أن يكون.

أرخبى الشيخ رأسه برهه ثم رفعه وقال:

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، إِنْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ فِي دَارِهِ تُحْفَةٌ ثَمِينَةٌ، فَأَيْنَ يَضَعُهَا؟ مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنَّهُ سَيَضَعُهَا فِي مَوْضِعٍ كَرِيمٍ مِنْ دَارِهِ، وَلَكِنْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ إِذَا كَانَ لَدَى أَحَدِكُمْ زُبَالَةٌ لَا خَيْرَ فِيهَا فَأَيْنَ يَضَعُهَا؟ لَا شَكَّ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْكُمْ سَيَضَعُهَا فِي صُنْدُوقِ الزُّبَالَةِ وَالنُّفَايَاتِ، وَكَذَلِكَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْبِنَاءَ الصَّالِحَ الْمُصْلِحَ سَيَكُونُ فِي مَوْضِعِ النَّعِيمِ وَالتَّكْرِيمِ، أَمَّا الْإِنْسَانُ الشَّيْطَانُ الطَّالِحُ الْهَدَّامُ، وَالْمُقْصِرُ الْمُعَانِدُ الْمُعْتَدِي الْمُفْسِدُ؛ فَسَيَكُونُ وَلَا شَكَّ، فِي مَوْضِعِ الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَالْأَلَمِ وَالشَّقَاءِ.

نَعَمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، بَعْضَ النَّظَرِ عَنِ التَّفَاصِيلِ وَالْهَيْئَاتِ، فَإِنَّ غَيْرَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّنا كَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ -بِإِرَادَتِنَا وَنَوْعِيَّةِ حَيَاتِنَا وَأَعْمَالِنَا- نَقَرُّ مَوْضِعَنَا وَمَكَانَتُنَا فِي الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَظُنُّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَوِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ نُلْقِيَ أَكْدَاسَ الزُّبَالَةِ فِي سَاحَاتِ الْمَزَابِلِ، فَإِنَّ هُنَاكَ عَادَةً مَنْ يَسْتَخْلِصُ مِنْهَا كُلَّ مَا يَكُونُ لَهُ فِي أَكْدَاسِ الزُّبَالَةِ أَيُّ نَفْعٍ، وَأَمَّا مَا يَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ، وَلَا يُرْجَى مِنْهُ فَائِدَةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّونَ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ النَّاسُ؟ وَقَفَ شَابٌّ نَابَهُ وَقَالَ: يُلْقُونَ بِهِ إِلَى الْمَحْرَقَةِ

لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ وَمِنْ أَذَاهُ وَضَرَرِهِ، قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّابُّ، لَقَدْ أَصَبْتَ فِيمَا قُلْتَ. وَهَكَذَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ نَرَى فَإِنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَإِنَّ مَصِيرَ الْقَدَارَاتِ الضَّارَّةِ السَّامَّةِ هُوَ الْجَحِيمُ، وَالْعِظَةُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ لِمَنْ يَتَّعِظُ. أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنْ يَعِيَ وَيَنْظُرَ أَيْنَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، "إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ"، وَلَيْسَ مِنَ الْعَقْلِ وَلَا الْعَدْلِ غَيْرُ ذَلِكَ، دُونَ هَذَا وَلَا جَدَلٍ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الْحَدِيثِ وَقَفَ الشَّيْخُ وَقَالَ: أَرْجُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ أَجَبْتُ عَنْ تَسْأُلِكُمْ وَكَيْفَ نُنْذِرُكُمْ فِي الْجَوْهَرِ مَعْنَى حَيَاتِنَا وَأَمْرَ مَصِيرِنَا، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى لَجَجٍ أَوْ جَدَلٍ حَوْلَ مَاذَا أَوْ كَيْفَ؟ وَالْمُهْمُ كَيْفَ نَجْعَلُ ذَلِكَ يَسْتَقِرُّ فِي أَعْمَاقِ نُفُوسِنَا وَضَمَائِرِنَا، وَخَاصَّةً تَنْشِئَةَ نُفُوسِ صِبْغَانِنَا وَتَشْكِيلَ ضَمَائِرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، مِنْ دُونَ إِرْهَابٍ أَوْ تَرْوِيعٍ يُؤْذِي بِنَاءِ نُفُوسِهِمُ الْغَضَّةِ الْخَضْرَاءِ. عِنْدَهَا قَالَتِ الْفَتَاةُ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الشَّيْخِ بِعَيْنِ التَّقْدِيرِ وَالِاقْتِنَاعِ: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لَقَدْ أَجَبْتَ وَيَسَّرْتَ وَكَفَيْتَ، فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ.

تَبَسَّمَ الشَّيْخُ ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ سَنَلْتَنِي جَمِيعًا غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَنْ
يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، لِأَجْلِ مَعَكُمْ بَعْدَهَا وَنَنْظُرُ فِيمَا اسْتُغْلِقَ عَلَيَّ حَكِيمِنَا
مِنْ أَمْرِ الدُّعَاءِ وَقِلَّةِ الإِسْتِجَابَةِ لَدَى مَنْ تَعْنُونَهُمْ مِنَ الشُّعُوبِ الْمُضْطَّهِدَةِ
الْمُسْتَضْعَفَةِ فِي عَالَمِ الكَوَاسِرِ المَادِيَّةِ العُدْوَانِيَّةِ المُتَسَلِّطَةِ.
عِنْدَ هَذَا الحَدِيثِ أَخَذَ المُجْتَمِعُونَ فِي الإِنْصِرَافِ وَهُمْ فِي شَوْقٍ إِلَى الحَدِيثِ المَوْعُودِ
لِلشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ، فِي ذَلِكَ الأَمْرِ المُعْضِلِ.

يَوْمَ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ ذَهَبًا

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، وَبَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، وَكَمَا طَلَبَ الشَّيْخُ، حَضَرَ طَلَبَةَ الْعِلْمِ وَتَحَلَّقُوا حَوْلَ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ يَتَقَدَّمُهُمُ الْفَيْلَسُوفُ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا؛ لِيَسْتَمِعُوا إِلَى الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ وَيُفِيدُوا مِنْ حِكْمَتِهِ بِشَأْنِ الدُّعَاءِ وَمَا أُثِيرَ بِشَأْنِهِ مِنْ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ اللَّهِ لِدُّعَاءِ شُعُوبِ الْأُمَّةِ وَهُوَ مَا أَهَمَّهُمْ جَمِيعًا.

تَبَسَّمَ الشَّيْخُ بِكَرَمٍ فِي وُجُوهِهِمْ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ شَيْءٌ يَهْمُهُ مِنْ أَمْرِ الزَّائِرِ الْمُتَسَلِّلِ الْغَامِضِ أَوْ يُقْلِقُ خَاطِرَهُ، وَتَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ عَلَى عَادَتِهِ إِلَى صَدِيقِهِ الْحَكِيمِ بَيْدَبَا قَائِلًا:

جَزَاكَ اللَّهُ يَا بَيْدَبَا عَنْ إِخْوَانِكَ خَيْرًا؛ بِمَا طَرَحْتَ مِنْ سُؤَالٍ، وَأَثَرْتَ مِنْ إِشْكَالٍ بِشَأْنِ الدُّعَاءِ وَقِلَّةِ الاسْتِجَابَةِ لِكَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ الْمُضْطَّهَدَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، وَنَدَعُو اللَّهَ أَنْ يَكُونَ فِي حَدِيثِنَا شَيْءٌ مِنَ الصَّوَابِ يَحُلُّ الْإِشْكَالَ، وَيُزِيلُ غَبَشَهُ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ.

فَهَيَّا أَعْرَنِي يَا بَيْدَبَا سَمِعَكَ وَسَمِعَ إِخْوَانِكَ، لِأَنَّ سُوءَ فَهْمٍ أَمَرَ الدُّعَاءَ أَضَرَ-كَمَا ذَكَرْتَ- بِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَالشُّعُوبِ، وَغَيَّبَ وَعَمَّيَّمْ، وَأَوْهَنَ عَزِيمَتَهُمْ، وَجَعَلَ النَّاسَ فَرِيقَيْنِ: أَحَدُهُمَا مُنْكَرِلُهُ وَلِأَسْرَارِهِ الْقُدْسِيَّةِ، وَآخَرُ قَاعِدٌ يَجْعَلُ الدُّعَاءَ بَدِيلًا عَنْ جِدِّ

السَّعْيِ وَالْعَمَلِ وَتَسْخِيرِ السُّنَنِ وَالنِّعَمِ.

إِنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، أَنَّ الدُّعَاءَ يَا بَيِّدْبَا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ تَفَاوُتِ الْإِيمَانِ وَالْحِسِّ وَتَنَاقُضِهِمَا، فَذَلِكَ وَلَا شَكَّ خَطَأٌ وَخَلَطٌ فِي الْفَهْمِ، أَوْرَثَهُ انْجِرَافُ الْفِكْرِ وَتَخْلِيطُ الرُّؤْيَةِ وَالْخِطَابِ، بِمَا تَوَارَثَتْهُ تِلْكَ الشُّعُوبُ مِنْ بَعْضِ التُّرَاثِ الْغَثِّ، وَمِنْ سُوءِ الْفَهْمِ وَجُزْئِيَّتِهِ، وَمِنْ تَشَوُّهِ مَنَاهِجِ الْفِكْرِ، وَمِنْ تَدْلِيْسِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ وَالْمَطَامِعِ؛ فَكَانَ تَشْوِيَهُ الرُّؤْيَةِ، وَتَشْوِيَهُ مَنَاهِجِ الْفِكْرِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَشَوُّهِ الْخِطَابِ وَمِنْ تَشَوُّهِ مَنَاهِجِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَكَانَتْ هَذِهِ التَّشَوُّهَاتُ وَالْانْجِرَافَاتُ يَا بَيِّدْبَا هِيَ وَسِيلَةُ الْمُتَسَلِّطِينَ لِتَضْلِيلِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَإِخْضَاعِهَا لِأَطْمَاعِهِمْ وَاسْتِبْدَادِهِمْ وَتَبْدِيدِهِمْ؛ بِحَيْثُ تُغْشِي السَّلْبِيَّةُ أَبْصَارَ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَبَصَائِرَهُمْ، وَهَذَا مَا يُبَدِّدُ إِرَادَتَهُمْ، وَيَسْتَعْبِدُ جُمُوعَهُمْ، وَيُمْكِنُ الْكِبْرَاءَ الْمُفْسِدِينَ مِنْ إِخْضَاعِ جُمُوعِ عَامَّتِهِمْ وَالتَّحَكُّمِ بِمَصَائِرِهِمْ كَمَا يَشَاؤُونَ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْأَحْلَامِ وَالْخُرَافَاتِ وَالشُّعُودَاتِ، وَفِي خَوْفٍ وَرُغْبٍ مِنَ التَّرْهِيْبِ وَالتَّجْهِيْلِ وَالتَّهْمِيْشِ وَالتَّحْقِيْرِ.

يَا بَيِّدْبَا؛ دَعْنَا نَنْظُرَ إِلَى الْأَمْرِ بِعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ، وَأَنْ نَسْتَحْضِرَ فِي نَفُوسِنَا مَا

أودع الله الكون من السنن والنواميس؛ لنعلم وجه الحق في الأمر، ويَزُول الوهم واللبس.
ألسنا نعلم عقلاً ونشاهد حساً، ونؤمنُ يا بيدبا إيماناً جازماً أن الخالق أودع
الأرضَ وافر الخيرات، وكفل للكائنات أرزاقها، فكيف نرى بأم أعيننا الألوف
والملايين من الناس يموتون جوعاً في بعض البلاد.

هل في هذا شيء من الوهم يا بيدبا؟ وهل في هذا تناقض بين الإيمان والحس، أو بين
خلق الكون وكلمة الحق؟ أو بين تكامل كلمة الوحي وواقع نواميس الخلق والطبيعة؟
هل موت بعض الناس جوعاً يا بيدبا يعني أن الأرض ليس فيها من الأرزاق ما يكفي
من هم عليها من البشر والخلائق طعاماً ومتاعاً؟

لا يا بيدبا، إن في الأرض أرزاقها بالعلم والعمل والسعي والتسخير، على ما نرى من
حال الشعوب العاملة، وما لديها من خبرات ووفرة.

إن بعض الجهلة والبسطاء الذين يحمل بعضهم للأسف - إجازات أكاديمية،
يطلقون القول من دون فهم صحيح للعقائد والطبائع، ولا يأنهون للفهم الصحيح
لحتمية التطابق بين صحيح العقائد وما أودع الله الكائنات من السنن والطبائع
والمصالح؛ لأنهم كلهم مقلدون إما للأجنبي أو للدائر من سالف غث الثراث؛ فهم في

الحَقِيقَةِ، قَوْمٌ لَا نَصِيبَ لَهُمْ يُعْتَدُّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فِي ضَرُورَاتِ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ،
وَالْتَفْكَرِ وَالتَّدَبُّرِ الْعِلْمِيِّ، بِشَأْنِ حَقِيقَةِ الْوَاقِعِ، وَسُنَنِ الطَّبَائِعِ، وَنَوَامِيسِهَا فِي التَّسْخِيرِ
وَالْتَّيْسِيرِ، فَجُلُّ الْمَدَنِيِّ الْمُسْتَعْرَبِ مَبْهُورٌ نَاقِلٌ، وَجُلُّ الدِّينِيِّ التَّرَاثِيِّ الْجَاهِلُ لَفْظِيٌّ مُقَلِّدٌ،
لَيْسَ لَهُمْ - فِي عَالَمِنَا الْيَوْمَ - فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالفِكْرِ وَالْإِبْدَاعِ وَقُدْرَاتِ الاجْتِهَادِ وَالتَّجْدِيدِ
نَصِيبٌ يُعْتَدُّ بِهِ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ جَوْهَرَ إِشْكَالَاتِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ الْمُتَخَلِّفَةِ، فِي هَذَا الْعَصْرِ، لَيْسَتْ - فِي
الْحَقِيقَةِ - إِشْكَالَاتِ لَفْظِيَّاتٍ وَفِقْهِيَّاتٍ، وَلَكِنَّهَا إِشْكَالَاتُ رُؤْيَةٍ وَفِكْرٍ وَمَنْهَجٍ، تَسْتَدْعِي
- بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى - إِصْلَاحَ الرُّؤْيَةِ، وَإِصْلَاحَ الْفِكْرِ، وَإِصْلَاحَ الثَّقَافَةِ، وَإِصْلَاحَ الْمَنْهَجِ؛
وَإِصْلَاحَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالْعِنَايَةَ بِالتَّدْرِيبِ وَالتَّأْهِيلِ؛ وَذَلِكَ بِالبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالتَّنْقِيبِ
الْأَصِيلِ، وَبِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ؛ الَّذِي يُبْصِرُ - بِشَكْلِ مَوْضُوعِيٍّ عِلْمِيٍّ - هَذِهِ الشُّعُوبَ بِالحَقَائِقِ،
وَالتَّبَائِعِ؛ بِمَا يُنْضِجُ رُؤْيَتَهَا، وَيُصْلِحُ خَلَلَ ثِقَافَتِهَا وَتَشْوُهُ مَنْهَجِ فِكْرِهَا، وَيُرْشِدُ جُهُودَهَا،
وَيَمَكِّنُهَا مِنْ مُوَاجَهَةِ تَحْدِيَّاتِهَا؛ فَتَعِي مَعْنَى كَلِمَةِ "الْحَقِّ" وَتَوْجِيهَاتِ مَقَاصِدِهَا الْحَقَّةِ
وَدَلَالَاتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ.

عَوَامُّ أَهْلِ الْعِلْمِ يَا بَيْدَبَا يُلْقُونَ الْقَوْلَ عَلَى عَوَاهِنِهِ، بِالْفَهْمِ الْقَاصِرِ الْمُقْتَصِرِ عَلَى

مَعَاجِمِ اللُّغَةِ، وَالتَّفَنُّنِ فِي سَبْكِ بَهْرَجِ الْأَلْفَاظِ وَمَوْهُومِ الْإِدْعَاءَاتِ، وَعَلَى سَطْحِيّ الْفَهْمِ،
وَشَكْلِيّ الْمَنْطِقِ، وَمَوْزُوثِ الْأَرَاءِ وَالْمَفَاهِيمِ؛ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِإشْكَالَاتِ الْعَصْرِ وَإِمْكَانَاتِهِ
وَتَحْدِيَّاتِهِ، أَوْ بِعُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ وَأَبْعَادِهِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ، وَيُحَلُّونَ مَا يَصْنَعُونَهُ مِنْ
تَنَاقُضَاتٍ وَهَمِيَّةٍ بِرَمِي النَّاسِ بِالْجَهْلِ وَالْعِصْيَانِ، وَيَتَهَدَّدُونَ وَيَتَوَعَّدُونَ وَيُصِرُّونَ عَلَى
وُجُوبِ الطَّاعَةِ مِنْ دُونِ فَهْمٍ أَوْ اقْتِنَاعٍ أَوْ ثَمَرَةٍ مَلْمُوسَةٍ.

يَا بَيْدَبَا لَقَدْ تَشَوَّهَ فِكْرُهُذِهِ الشُّعُوبِ، وَتَشَوَّهَتْ رُؤْيُهَا كَمَا تَشَوَّهَ وَجْدَانُهَا؛ فَفَعَدَتْ
عَنِ الْعَمَلِ، وَتَخَلَّفَتْ عَنِ رَكْبِ الْحَيَاةِ، وَتَهَمَّشَتْ فِي عَطَاءِ إِعْمَارِ الْأَرْضِ وَحَضَارَةِ الْإِنْسَانِ،
فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ عِنْدَهُمْ لَيْسَ هُوَ السَّعْيُ بِالْعَمَلِ وَالتَّسْخِيرِ، وَبِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَبِالْإِصْلَاحِ
وَالِإِعْمَارِ فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعِبَادَةَ - فِي فِكْرِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّظَرَةِ
الْجُزْئِيَّةِ - يَكَادُ يَقْتَصِرُ عَلَى تَمْتَمَاتِ اللِّسَانِ، وَعَلَى الْقُعُودِ لِمُجَرَّدِ التَّلَاوَةِ فِي دُورِ الذِّكْرِ
وَالشُّعَائِرِ وَحَلَقَاتِ الدَّرْسِ وَالِاسْتِظْهَارِ.

أَمَّا الْإِحْسَانُ وَالِإِتْقَانُ يَا بَيْدَبَا فِي رُؤْيَةِ أَصْحَابِ النَّظَرَةِ الْجُزْئِيَّةِ؛ فَإِنَّهُ لَا تَكُونُ لَهُ عِلَاقَةٌ
بِالسَّعْيِ فِي الْكُونِ، وَفِي طَلْبِ الْأَسْبَابِ وَالنَّوَامِيْسِ، وَاتِّقَانِ الْعَمَلِ، وَحُسْنِ أَدَائِهِ عَلَى وَجْهِهِ
الصَّحِيحِ الَّذِي يُحَقِّقُ مَعَانِي الذِّكْرِ وَغَايَاتِهِ وَمَقَاصِدَهُ فِي الْإِسْتِخْلَافِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ،

وَالْإِفَادَةَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الْحَيَاةِ وَالْإِعْمَارِ، وَتَيْسِيرِ الْحَيَاةِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ،
وَوَفْرَةِ الْإِنْتِاجِ؛ الَّذِي يُوقِرُ لِلْعَامِلِينَ مَعَاشَهُمْ، وَمَعَاشَ مَنْ يَعُولُونَ، وَمَعَاشَ مَنْ هُمْ
وَرَاءَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْحَاجَاتِ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَحْرُومِينَ.

الإِحْسَانُ يَا بَيْدَبَا هُوَ الْإِتْقَانُ، وَحُسْنُ الْأَدَاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، بِأَوْسَعِ مَعَانِيهِ، وَحُسْنُ الْبَدْلِ،
وَكَرِيمُ الْعَطَاءِ لِلْمُحْتَاجِينَ يَا بَيْدَبَا؛ هُوَ وَجْهٌ وَاحِدٌ مِنْ وُجُوهِهِ، وَتَقْوَى الْإِيمَانِ وَاسْتِحْضَارُ
حُبِّ اللَّهِ، وَالْحِرْصُ عَلَى مَرْضَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْخَيْرُ وَالْعَدْلُ وَالسَّلَامُ، هُوَ وَجْهٌ
آخَرٌ مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ، وَلَكِنَّ الْإِحْسَانَ يَا بَيْدَبَا لَا يَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ الْمَعَانِي؛ بَلْ هُوَ مَعْنَى
شَامِلٌ لِكُلِّ أَلْوَانِ الْأَدَاءِ وَالْإِتْقَانِ وَالْبَدْلِ وَالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ، فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى يَا بَيْدَبَا لَا يُحِبُّ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا مُتَقَنًا، وَلَا يَمْنَحُ الرِّضَا، وَلَا يُجْزِلُ الْأَجْرَ،
إِلَّا لِمَنْ يُحْسِنُ الْعَمَلَ - بِقَدْرِ جُهْدِهِ - عَلَى كُلِّ وُجُوهِهِ الْخَيْرَةِ، وَمَجَالَاتِهِ النَّافِعَةِ كَافَّةً، لِذَاتِهِ
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْكَائِنَاتِ؛ لِأَنَّ رِضَا اللَّهِ يَتَحَقَّقُ حِينَ يُحَقِّقُ الْإِنْسَانُ ذَاتَهُ وَفِطْرَتَهُ وَمَا يَتَعَلَّقُ
بِهَا مِنْ حَاجَاتٍ وَقُدْرَاتٍ كَمَا خَلَقَهُ وَفِطْرَهُ وَبِالْأُسْلُوبِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُسَخِّرُ وَيُعَمِّرُ وَيَحْمِلُ
الْمَسْئُولِيَّاتِ.

إِنَّ شُكْرَ النِّعَمِ يَا بَيْدَبَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُعَمِّرُ وَيُسَخِّرُ،

وَيُصْلِحُ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَيَمْنَحُ الْعَامِلِينَ الرِّزْقَ وَالْوَفْرَةَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَالْعَطَاءَ لِمَنْ حَوْلَهُمْ.
أَمَّا أَنْ يُفْهَمَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَا بَيْدَبَا عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهِ هُوَ تَرْدِيدُ تِلَاوَةِ الذِّكْرِ، وَالْإِكْتِثَارُ
مِنْ أَعْمَالِ الشَّعَائِرِ، وَرِيَادَةِ الْحَلَقَاتِ، وَقَلِيلُ عَطَاءِ الْخَامِلِينَ الْعَاجِزِينَ، وَنَزْرُ صَدَقَاتِهِمْ
إِنْ اسْتَطَاعُوا وَفَعَلُوا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فَهْمٌ جُزْئِيٌّ قَاصِرٌ مُنْبَتٌّ مِنْ رُؤْيَتِهِ الْكُلِّيَّةِ الْكُونِيَّةِ فِي فَهْمِ
مَعْنَى الْحَيَاةِ وَالِاسْتِخْلَافِ، وَنِعْمَةِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَوَاجِبِ آدَاءِ الْأَمَانَةِ، فَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَكُونُ عَمَلًا صَالِحًا بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي قَصْدِهِ، وَجِدِّ السَّعْيِ فِي عَمَلِهِ وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ
السُّنَنِ وَالنُّوَامِيسِ الْإِلَهِيَّةِ وَسُوعِ الطَّاقَةِ؛ بِالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالْعَمَلِ وَالطَّلَبِ.

أَنَّ الْأَوَانَ يَا بَيْدَبَا أَنْ تَنْطَلِقَ سَوَاعِدُ أَبْنَاءِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَعُقُولُهُمْ وَسُوعِ الطَّاقَةِ، بِمَا
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَقْلِ وَقُدْرَةٍ وَمَهَارَةٍ وَإِبْدَاعٍ، إِلَى السَّعْيِ فِي الْكُونِ وَالْحَيَاةِ بِالْعَمَلِ
الصَّالِحِ، وَالْإِحْسَانِ وَالِاتِّقَانِ، بِكُلِّ صُورِهِ، وَفِي كُلِّ مَجَالَاتِهِ، شَاكِرِينَ لِلَّهِ بِالْعَمَلِ
الصَّالِحِ؛ فِي أَسَالِيْبِهِ، وَفِي آدَائِهِ، بِكُلِّ مَا يُمْلِيهِ الْعَقْلُ وَالْعِلْمُ وَالْفِطْرَةُ وَالنُّوَامِيسُ مَصْحُوبًا
بِالشُّكْرِ بِالْقَوْلِ وَالشَّعَائِرِ، مُهْتَدِينَ إِلَى مَرْضَاتِهِ بِالذِّكْرِ؛ بِحُسْنِ آدَاءِ أَعْمَالِهِمْ وَاتِّقَانِهَا، بِكُلِّ
الْجِدِّ وَالِإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ فِي النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ؛ لِيُسَخَّرُوا الْكُونَ، وَيُوقَرُوا مَعَاشَهُمْ، وَيَعْمُرُوا
الْأَرْضَ بِالْعُمَرَانِ الْخَيْرِ، كَمَا أَرَادَ اللَّهُ لَهُمْ، وَفَطَّرَهُمْ، وَيَسَّرَ السُّبُلَ أَمَامَهُمْ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ



عَلَى تَتَابِعِ الْأَجْيَالِ.

دَعْنِي يَا بَيْدَبَا أَوْضِحْ لَكَ أَمْرَ هَذِهِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ مَقَاصِدِ الْقَوْلِ الْحَقِّ، وَحَقِيقَةِ السُّنَنِ
وَالطَّبَائِعِ، وَأَخِذْ ذَلِكَ مِنْ مِثَالٍ وَحَالٍ كُنَّا نَشَاهِدُهُ.

كُنَّا يَا بَيْدَبَا يَعْلَمُ أَمْرَ سُحِّ الْأَرْزَاقِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، الَّتِي يَهْلِكُ لِبَهْلِكِ الْكَثِيرِ مِنْ
أَفْرَادِهَا بِسَبَبِ الْجُوعِ وَالْفَاقَةِ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِنَصِّ الْحَقِّ وَالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ، وَنُؤْمِنُ يَا بَيْدَبَا بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَدَ فِي الْأَرْضِ
أَرْزَاقَ كُلِّ مَا عَلِمْنَا مِنْ خَلْقٍ وَبَشَرٍ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَيضًا يَا بَيْدَبَا بِالْعَقْلِ وَبِالْحِسِّ وَبِالْمُشَاهَدَةِ؛ أَنَّ الْأَرْضَ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ
الْأَرْزَاقِ وَالطَّاقَاتِ الَّتِي تَنْتَظِرُ مَنْ يُسَخِّرُهَا وَيَسْتَخْرِجُهَا وَيَسْتَنْبِئُهَا وَيَسْتَكْشِفُهَا وَيُطَوِّرُهَا،
وَهُوَ مَا تَفَعَّلَهُ الشُّعُوبُ الْعَامِلَةُ.

وَنَحْنُ نَعْلَمُ وَنُشَاهِدُ أَيضًا يَا بَيْدَبَا أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى لِلْإِنْسَانِ الْعَقْلَ، وَالزَّمَةَ الْأَمَانَةَ،
وَأَجْلَسَهُ مَجْلِسَ الْإِسْتِخْلَافِ، فَهُوَ- بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْخِيَارِ- الْقَادِرُ وَالْمُتَصَرِّفُ فِي
هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى مَا يَخْتَارُ بِالْخَيْرِ أَوْ بِالشَّرِّ.

هَذَا كُلُّهُ يَا بَيْدَبَا يَعْنِي أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُفَكِّرَ وَيَتَدَبَّرَ وَيَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُسَخِّرُ الْأَرْضَ لِإِرَادَتِهِ



وَحَاجَتِهِ؛ فَيُفَكِّرُ وَيَبْحَثُ فِي السُّنَنِ وَالطَّبَائِعِ؛ لِلْحُصُولِ عَلَى حَاجَاتِهِ مِنَ الْقُوْتِ الَّذِي يَأْكُلُهُ، وَعَلَى الْأَدْوَاتِ وَالْأَلَاتِ الَّتِي تُعِينُهُ.

وَهَذَا أَيْضًا يَا بَيْدَبَا يَعْنِي؛ أَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ مُوَهَّلَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي تُزْرَعُ، وَمَوَاضِعِ الْمَعَادِنِ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ وَيَبْحَثَ كَيْفَ يُصَمِّمُ الْأَدْوَاتِ وَالْأَلَاتِ، وَكَيْفَ يَصْنَعُهَا، وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهَا فِي الصَّيْدِ، وَالزَّرَاعَةِ، وَفِي اسْتِخْرَاجِ مَعَادِنِ الْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا، وَتَسْخِيرِهَا لِمُخْتَلَفِ حَاجَاتِهِ وَعُمْرَانِهِ؛ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخَيْرَ "الرِّزْقَ فِي حَبَايَا الْأَرْضِ"، وَأَسْرَارِ نَوَامِيسِ الْكُونِ.

يَا بَيْدَبَا؛ هَذَا يَعْنِي فِي الْمُحَاصِلَةِ أَنَّهُ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْإِبْدَاعِ وَطَلَبِ نَوَامِيسِ الْكُونِ وَالْفِطْرَةِ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُنْظِمَ حَيَاةَ مُجْتَمَعَاتِهِ، وَأَنْ يُسْخِرَ كُنُوزَ الْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا، وَقَوَانِينَ قَوَاهَا، وَسُنَنَ طَاقَاتِهَا، لِحَاجَاتِهِ وَعُمْرَانِهِ، وَكَلَّمَا تَوَالَتِ الْأَجْيَالُ، وَازْدَادَ تَكَاثُرُ الْبَشَرِ، اازْدَادَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ، وَتَرَاكَمَتْ وَتَطَوَّرَتْ أَدْوَاتُهُ وَازْدَادَتْ قُدْرَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى تَسْخِيرِ الْأَرْضِ وَالسُّنَنِ وَالْكَائِنَاتِ لِحَاجَاتِهِ الْمُتَزَايِدَةِ وَعُمْرَانِهِ الْمُتَّسِعِ.

أَلَمْ تَرِ يَا بَيْدَبَا كَيْفَ أَنَّ ابْنَ آدَمَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ فِي الْبَدءِ كَيْفَ "يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ"، وَكَيْفَ تَرَاهُ الْيَوْمَ بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالْعَمَلِ وَنُمُوِّ الْحَضَارَةِ يَجُوبُ الْإِفَاقَ، وَيَتَطَلَّعُ نَحْوَ كَوَاكِبِ الْفَضَاءِ وَنُجُومِ السَّمَاءِ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ قَدْ خُلِقَ لِيُفَكِّرَ وَيَعْمَلَ، وَيَبْنِيَ الْحَضَارَةَ، وَلِيُسَخِّرَ الْأَرْضَ
وَالْكُونَ لِيَتَسَيَّرَ أَمْرَ حَيَاتِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، وَمِيزَانُ النَّجَاحِ فِي هَذَا التَّسَخِيرِ وَالْإِعْمَارِ هُوَ أَنْ
تَكُونَ الْحَضَارَةُ وَالْعُمْرَانُ، وَأَنْ يَكُونَ التَّسَخِيرُ وَالتَّسَيَّرُ، فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَفِي
سَبِيلِ الْكِفَايَةِ وَالْعَيْشِ الْكَرِيمِ، وَفِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالسَّلَامِ، لَهُ وَلِكُلِّ أَبْنَاءِ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ
وَوَطَنِهِ وَأُمَّتِهِ، لَا فِي سَبِيلِ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَفِي سَبِيلِ الْكَنُزِ وَالْإِحْتِكَارِ وَالسَّرْفِ
وَالتَّبَذِيرِ، وَحِرْمَانِ الضَّعِيفِ وَالْمُعْوَزِ الْفَقِيرِ.

فَجَمِيعُ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ وَالْوَطَنِ سَوَاءٌ فِي الْكِرَامَةِ مُتَكَافِلِينَ فِي الْعَيْشِ مُسَخَّرِينَ لِبَعْضِهِمْ
الْبَعْضَ بِتَفَاوُتِ قُدْرَاتِهِمْ.

يَا بَيْدَبَا؛ مِنَ الْوَاضِحِ الْمَلْمُوسِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِطْرَةً يَحْرِصُ عَلَى الْحَيَاةِ، وَيَحْرِصُ عَلَى
إِنْجَابِ "الْخَلْفِ"، وَيَحْرِصُ عَلَى الْعَمَلِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَخَافُ مِنَ الْمَوْتِ وَيَطْلُبُ
الْحَيَاةَ حَتَّى الرَّمَقِ الْأَخِيرِ؛ لِيَعْمَلَ وَيُنْجِبَ وَيَرْعَى الْخَلْفَ الَّذِي أَنْجَبَهُ؛ لِيَخْلُفَهُ وَيَأْخُذَ
مَوْضِعَهُ، وَلِذَلِكَ يَشْقَى مَنْ لَمْ يُنْجِبْ، وَيَشْقَى مَنْ لَمْ يَعْمَلَ؛ لِأَنَّ غَايَةَ هَذَا الْجِرْصِ لَوْ
تَمَعْنَا فِيهِ يَا بَيْدَبَا إِنَّمَا هُوَ دَافِعُ الْفِطْرَةِ لَدَى الْإِنْسَانِ يُؤَدِّي مِهْمَةَ الْإِسْتِخْلَافِ وَالْإِعْمَارِ الَّتِي
خَلَقَ اللَّهُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِأَدَائِهَا، بِكُلِّ ذَلِكَ تَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ، وَيَسْتَمِرُّ الْإِعْمَارُ فِي الْأَرْضِ، جِيلًا

بَعْدَ جِيلٍ، فَاسْتِخْلَافُ اسْتِعْمَارِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَعْنَى الْفِطْرَةِ، وَتِلْكَ الْغَرَائِزُ
 وَأَسْبَابُهَا الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ غَايَتُهَا - كَمَا نَرَى وَنَلْمَسُ - هُوَ الْبِنَاءُ وَالْإِعْمَارُ
 وَالْإِبْدَاعُ، وَلَيْسَتْ مَشْرُوعُ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِحُبِّ الْحَيَاةِ،
 وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا، وَبِحُبِّ الْعَمَلِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ، وَبِحُبِّ الذَّرِيَّةِ لِإِنْجَابِ الْأَجْيَالِ لِلْأَجْيَالِ؛ لِكَيْ
 تَسْتَمِرَّ الْحَيَاةُ وَالْإِسْتِخْلَافُ وَالْبِنَاءُ. بِذَلِكَ يُحَقِّقُ الْإِنْسَانُ ذَاتَهُ وَيَكْتَمِلُ مَشْرُوعُ حَضَارَةِ
 الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، بِكُلِّ مَا تُحَقِّقُهُ مِنْ إِبْدَاعٍ وَتَسْخِيرٍ وَمُتْعَةٍ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْوَحْيَ
 وَالذِّكْرِيَا بَيْدَبَا؛ لَيْسَ غَايَةً فِي حَدِّ ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ الْوَحْيُ وَالذِّكْرُ لِمَا يُحْيِي النَّاسَ بِهَيْدَايَةِ
 الْإِسْتِخْلَافِ؛ وَلِتُؤَدَّى الْأَمَانَةُ، وَيَرْتُدَّ الْخِيَارُ، فَتَكُونُ الْحَضَارَةُ، وَيَكُونُ الْإِعْمَارُ فِي سَبِيلِ
 الْخَيْرِ لَا فِي سَبِيلِ الشَّرِّ، وَفِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالنُّورِ لَا فِي سَبِيلِ الظُّلْمِ وَالظُّلْمَةِ، وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ
 الْغَايَةُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْإِعْمَارِ، وَمِنَ الْحَضَارَةِ، وَمِنَ اسْتِخْلَافِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ.
 وَلَمَّا كُنَّا - يَا بَيْدَبَا - بِالْعَقْلِ وَالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ، أَنَّ الْأَرْضَ فِيهَا أَرْزَاقُهَا،
 فَإِنَّ كُلَّ الْمَطْلُوبِ بِحَقِيقَةِ الْإِسْتِخْلَافِ هُوَ أَنْ يَسْتَخْرِجَ الْإِنْسَانُ - بِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَخِيَارِ
 الْأَمَانَةِ وَالْعَمَلِ - هَذِهِ الْأَرْزَاقَ مِنَ الْأَرْضِ لِمَصْلَحَتِهِ وَرَفَاهِيَّتِهِ وَصَوْنِ كَرَامَتِهِ.
 هُنَا أَطْرَقَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ بُرْهَةً، ثُمَّ رَفَعَهُ وَقَالَ: مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ يَا بَيْدَبَا يَتَّضِحُ لَنَا مِنْ دُونِ

أَذْنَى شَكِّ أَنْ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ تَعْنِي أَنَّ مَنْ يَتَوَاكَلُ وَيَكْسَلُ وَيَعْجَزُ، وَلَا يُفَكِّرُ وَلَا يَعْمَلُ، لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَأْكُلَ وَيَطْعَمَ وَيَنْعَمَ بِالْخَيْرَاتِ، وَأَنْ مَصِيرَهُ كَمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ فِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ هُوَ أَنْ يُعَانِي، وَالْكَثِيرُ مِنْ أَمْثَالِهِ، بِمَا جَنَّتُهُ أَيْدِيهِمْ جُوعًا وَمَرَضًا، وَأَنْ يَعْرِى الْكَثِيرُ مِنْهُمْ فَاقَةً وَفَقْرًا بَلْ وَحَتَّى مَوْتًا وَهَلَاكًا عَلَى مَا نَرَى، فَهَلْ عَنَاءٌ هُوَ لِأَعْرَافِهِمْ وَمَرَضُهُمْ وَمُعَانَاتِهِمْ يُغَيِّرُ مِنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الْأَرْضَ فِيهَا أَرْزَاقُهُمْ إِذَا مَا قَامُوا إِلَيْهَا بِالتَّعَاوُنِ وَالتَّكَاتُفِ وَالتَّكَاوُلِ وَبِالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ يَسْتَنْبِطُونَهَا وَيَسْتَخْرِجُونَ خَيْرَاتَهَا وَأَرْزَاقَهَا.

أَلَا تَرَى يَا بَيْدَبَا كَيْفَ أَنَّ الطُّيُورَ بِفِطْرَتِهَا، تَغْدُو مَعَ الْفَجْرِ، تَطْلُبُ الثَّمَرَ مِنَ الشَّجَرِ، لِتَعُودَ فِي الْمَسَاءِ، إِلَى أَعْشَاشِهَا، مَلِيئَةً شَبْعَى، وَهِيَ تَحْمِلُ غِذَاءَ صِغَارِهَا، وَلَكِنَّهَا لَوَبَقِيَتْ، أَيْهَا الْحَكِيمُ، فِي أَعْشَاشِهَا، فَهَلْ كَانَ لَهَا، أَنْ تَحْصُلَ عَلَى غِذَائِهَا، أَوْ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى غِذَاءِ صِغَارِهَا.

إِنَّ مَنْ يَكْسَلُ أَوْ يَعْجَزُ يَا بَيْدَبَا، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَالْحِرْمَانُ، وَمِنْ ثَمَّ الْجُوعُ وَالْمَوْتُ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ أُمَّمٍ تُنْتِجُ وَتَسْتَخْرِجُ وَتَنْعَمُ، بَلْ تُبَدِّدُ كَثِيرًا مِنَ النِّعَمِ لِلْأَسْفِ وَتُسْرِفُ، وَبَيْنَ أُمَّمٍ أُخْرَى تَعْجَزُ وَتَتَخَلَّفُ وَتَفْتَقِرُ وَتَعْدَمُ.

لَيْسَتْ الْفَاقَةُ وَالْفَقْرُ يَا بَيْدَبَا عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ فِي مَكْنُونِ أَرْزَاقِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ الْفَقْرَ

وَالْفَاقَةَ وَالْعَجْزَ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ، وَفِكْرِهِمْ وَثِقَافَتِهِمْ، وَتَحْجُرِ عُقُولِهِمْ، فَلَا يَعْمَلُونَ وَلَا يَتَدَرَّبُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ.

مِثَالٌ آخَرَ أَضْرِبُهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ بِشَأْنِ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ؛ فَالْأَرْضُ، كَمَا نَعْلَمُ جَمِيعًا، فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمَعَادِنِ النَّافِعَةِ، وَمِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الثَّمِينِ، وَلَكِنْ لِكَيْ يَحْصُلَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَعْدِنِ الذَّهَبِ يَأْبِيدُ بِالْأَبْدَلِ لَهُ - كَمَا نَعْلَمُ وَنُشَاهِدُ - أَنْ يُنَبِّيَ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي تُحَدِّدُ مَوَاقِعَ وَجُودِ هَذَا الْمَعْدِنِ، وَأَنْ يُنَبِّيَ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي تُمْكِنُهُ مِنْ صُنْعِ الْأَدَوَاتِ الَّتِي تُحَطِّمُ الصُّخُورَ، وَتَغُورُ فِي بُطُونِ الْأَرْضِ وَوَعْرِ الْجِبَالِ، وَتَسْتَخْرِجُ الصُّخُورَ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى الْمَعْدِنِ، كَمَا أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُنَبِّيَ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي يُسْتَخْلَصُ بِهَا هَذَا الْمَعْدِنُ الثَّمِينُ مِنْ بَيْنِ شَوَائِبِهِ، وَأَنْ يُنَبِّيَ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي يُطَوِّعُ بِهَا هَذَا الْمَعْدِنَ لِحَاجَاتِهِ وَصِنَاعَاتِهِ وَزِينَةِ نِسَائِهِ.

هَلْ تَعْتَقِدُ يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّهُ إِنْ جَلَسَ طَلَّابُ الْمَعَادِنِ يَدْعُونَ اللَّهَ مِثَاتِ السِّنِينَ أَنْ يَسْتَخْرِجَ اللَّهُ لَهُمُ الْمَعَادِنَ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، مِنْ دُونِ أَنْ يُؤْهِلُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْحُصُولِ عَلَيْهَا بِالْعِلْمِ وَالْكَدِّ وَالْجُهْدِ، فَهَلْ تَرَاهُمْ يَحْصُلُونَ عَلَيْهَا يَا بَيْدَبَا؟! قَالَ بَيْدَبَا يُجِيبُ الشَّيْخَ: بِالطَّبَعِ لَا، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ فَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالذِّكْرِ وَالْمُشَاهَدَةِ

أَنَّهُ مَا نَالَ كَسُوكَ هَامِلٌ، وَلَا أَمْلَقَ مُجَدُّ عَامِلٌ؛ فَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ أَنَّ "مَنْ جَدَّ وَجَدَّ"، وَأَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَقُومَ بِأَدَاءٍ وَاجِبِنَا فِي التَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالتَّنْقِيبِ وَالعَمَلِ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ يَقِينًا "أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً" وَلَا تُمْطِرُ خُبْرًا وَلَا مَتَاعًا وَلَا طَائِرَاتٍ وَلَا حَاسِبَاتٍ أَلِيَّةٍ وَلَا دَبَابَاتٍ وَلَا صَوَارِيخَ، وَلَا حَصَدَاتٍ وَلَا حَفَارَاتٍ وَجَرِرَاتٍ.

إِنَّ تَمَكِينَ الإِسْتِخْلَافِ وَالعِزَّةِ وَالقُوَّةِ وَالقُدْرَةَ لِلإِنْسَانِ فِي الأَرْضِ، لَا يَكُونُ بِمُجَرَّدِ التَّعْوُدِ لِلتَّمَتُّمَاتِ وَالمُجَادَلَاتِ وَالتَّلَاوَاتِ وَأَدَاءِ الشَّعَائِرِ؛ وَلَكِنْ أَيْضًا بِالسَّعْيِ الجَادِّ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُتَّقِنِ، وَبِشُرُوطِ السَّعْيِ بِالأَسْبَابِ وَالنَّوَامِيسِ وَالسُّنَنِ الَّتِي أودَعَهَا اللَّهُ الكَائِنَاتِ، فَبِدُونِ السَّعْيِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُتَّقِنِ فِي المَعَامِلِ وَالمَصَانِعِ وَالحُقُولِ وَالمَنَاجِمِ، وَفِي أَعْمَاقِ البَحَارِ وَأَفَاقِ الفُضَاءِ، وَمَنْ دُونَ صَبْرٍ أَيَّامِ قَاعَاتِ البَحْثِ وَالدَّرْسِ وَلِيَالِهَا الطَّوَالِ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَالخِبْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ لَنْ يَكُونَ ذَهَبٌ، وَلَا فِضَّةً، وَلَا خُبْرًا، وَلَا قُوَّةً، وَلَا قُدْرَةً، وَلَا عِزًّا، وَلَا تَمَكِينَ، فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الحَيَاةِ، وَلَيْسَ عَنْهَا مَحِيصٌ مَهْمَا تَفَاصَحَ العَاجِزُونَ، وَكَابَرَ الحَمَقَى وَالبُلَهَاءُ وَالقَاعِدُونَ.

وَتَابِعَ بَيْدَبَا حَدِيثَهُ قَائِلًا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الجَلِيلُ؛ مَنْ أَرَادَ التَّمَكِينَ، وَمَنْ أَرَادَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَالخُبْرَ وَالمَتَاعَ وَالصِّنَاعَاتِ وَالأَلَاتِ وَالأَدْوَاتِ وَالعِلْمَ وَالتَّقْنِيَةَ؛ وَالعِزَّةَ وَالقُدْرَةَ

وَالْكَرَامَةَ، فَإِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ هِيَ مَا وَهَبَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مِنْ قُدْرَاتِ الْفِكْرِ وَالْعِلْمِ
وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ وَالْعَمَلِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ.

انظُرْ يَا بَيْدَبَا إِلَى مَا تَفْعَلُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، الْبَوَاحِرُ الَّتِي تَمُخَّرُ الْبِحَارَ، وَالطَّائِرَاتُ الَّتِي
تَجُوبُ الْأَفَاقَ، فَهِيَ تُقَرِّبُ الْبَعِيدَ وَتُوفِّرُ الْأَرْزَاقَ، مِنَ الْأَرْضِ الْخَصِيبَةِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُجْدَبَةِ،
وَانظُرْ إِلَى مَا يَحْمِلُهُ الْغَدُ مِنْ عُلُومِ الْوَرَاثَةِ فِي مُضَاعَفَةِ الْإِنْتِاجِ، أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، فَتَكُونُ
رِزْقاً لِأَبْنَاءِ الْغَدِ. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَسْتَبِطُنُهُ السُّنَنُ الْكُؤُنِيَّةُ، كُلُّ هَذَا يُبَصِّرُنَا يَا بَيْدَبَا، أَنَّ فِي
الْأَرْضِ أَرْزَاقَهَا، الَّتِي يُمَكِّنُ تَحْصِيلُهَا، بِالْعِلْمِ وَالسَّعْيِ وَالْعَمَلِ.

صَمَتَ بَيْدَبَا بُرْهَةً ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنَّا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ إِذَا سَلَّمْنَا بِذَلِكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ
ذَلِكَ هُوَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ، فَمَاذَا يَعْنِي الدُّعَاءُ إِذَنْ؟! هَلْ هُوَ وَهُمْ وَسَرَابٌ، وَهَلْ لَيْسَ
هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ حَاجَةٍ إِلَيْهِ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الدُّعَاءُ وَهَمًّا وَلَا سَرَابًا فَأَيْنَ مَوْضِعُهُ
مِنْ سَيْرِ الْحَيَاةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا؟ وَأَيْنَ مَكَانُهُ مِنْ صِلَةِ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؟

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا سَأَجِيبُكَ عَمَّا تَسْأَلُ عَنْهُ.

إِنَّ الدُّعَاءَ يَا بَيْدَبَا وَهُمْ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ يَا بَيْدَبَا حَقِيقَةٌ، وَلَكِنَّ تَفْصِيلَ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْأَمْرِ
لَا يُمَكِّنُ أَنْ نُوَاصِلَهُ وَنَحْنُ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ التَّعَبِ؛ وَلِذَلِكَ أَدْعُوكُمْ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ

شَرَابِ الزُّهُورِ وَعَصِيرِ الْفَوَاكِهِ، وَشَيْءٍ مِنْ حَلْوَى طَحِينِ السِّمْسِمِ وَخُبْزِ الْقَمَحِ، فَأَنَا مِنْ هَوَاتِهِ، وَيَلِدُ لِي طَعْمُهَا، وَهِيَ خَيْرٌ مَا نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى مُوَاصَلَةِ الْحَدِيثِ وَالْجَوَارِ بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ الْهَامِّ فِي حَقِيقَةِ الدُّعَاءِ، بَعْدَ أَنْ نَفْرُغَ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

سَارَعَ فَتَى الشَّيْخِ إِلَى إِحْضَارِ الْعَصَائِرِ وَالشَّرَابِ وَأَطْبَاقِ حَلْوَى طَحِينِ السِّمْسِمِ يُعِينُهُ فِي ذَلِكَ الْبَحَارُ مَسْعُودٌ الَّذِي أَصْبَحَ مُنْذُ نَزَلَ الشَّيْخُ إِلَى الْجَزِيرَةِ مِثْلَ ظِلِّهِ لَا يَغِيبُ الشَّيْخُ عَنْ نَاطِرِيهِ، وَنَالَتِ الْعَصَائِرُ وَالْحَلْوَى إِعْجَابَ الْحَاضِرِينَ وَتَقْدِيرَهُمْ كَالْمُعْتَادِ، وَذَلِكَ لِخِبْرَةِ صُحْبَةِ الشَّيْخِ فِي إِعْدَادِ لَذَائِدِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.



حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ، بَعْدَ أَنْ تَفْرُغَ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

لَا جَائِزَةَ لِلْخَامِلِ وَالظَّالِمِ

وَبَعْدَ أَنْ فَرَعَ الْجَمِيعُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَنَالُوا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ قَبْلَ أَنْ يَقُومُوا إِلَى صَلَاتِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ فَرَعُوا مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، التَّامَ شَمْلُ الْحَاضِرِينَ حَوْلَ الشَّيْخِ مِنْ جَدِيدٍ، يَتَصَدَّرُ صُفُوفَهُمُ الْحَكِيمُ بَيِّدًا.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: لَقَدْ تَوَقَّفْنَا أَيْهَا الْحَكِيمُ عِنْدَ أَمْرِ الدُّعَاءِ، أَهْوَوْهُمْ وَسَرَابٌ أَمْ هُوَ حَقِيقَةٌ وَقُوَّةٌ لِلْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ؟ وَقَلْنَا يَا بَيِّدًا: إِنَّ الدُّعَاءَ حَقِيقَةٌ وَوَهُمْ.

الدُّعَاءُ يَا بَيِّدًا يَكُونُ وَهْمًا وَسَرَابًا فَقَطْ عِنْدَ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَيَّدُوا عُقُولَهُمْ وَخَوَّصِرَهُمْ وَسُوقَهُمْ بِحُبُوبَاتِ التَّمْتَمَاتِ وَالْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَقَعَدُوا فِي عَقْرِ دُورِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، يَنْتَظِرُونَ بِوَهُمِ دُعَائِهِمْ أَنْ تُمْطِرَ السَّمَاءُ ذَهَبًا وَفِضَّةً وَخُبْرًا، وَالسَّمَاءُ يَا بَيِّدًا كَمَا نَعْلَمُ جَمِيعًا عِلْمَ الْيَقِينِ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا خُبْرًا، وَأَنْتَى يُسْتَجَابُ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ يَا بَيِّدًا، إِنَّ دُعَاءَ هَؤُلَاءِ أَيْهَا الْأَخُوَّةُ وَالْأَخَوَاتُ هُوَ الْوَهُمُ وَالسَّرَابُ بَعِينِهِ.

أَمَّا حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ يَا بَيِّدًا فَأَمْرٌ آخَرٌ: نَعَمْ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الدُّعَاءَ الصَّادِقَ مِنَ الْإِنْسَانِ الصَّادِقِ حَقِيقَةٌ وَقُوَّةٌ؛ لِأَنَّنا نَعْلَمُ يَا بَيِّدًا: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَعَالُ الْمُسَيِّرُ لِلْكَوْنِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَوْدَعَ الْكَائِنَاتِ سُنَّتَهَا، وَأَنَّهُ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَيْضًا يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ سَلَفَ الْكَثِيرِ مِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي قَعَدَتِ الْيَوْمَ فِي حُبُوتِهَا
عَنِ الْعَمَلِ النَّافِعِ الْمُنْتَجِ، وَعَنْ طَلَبِ النَّوَامِيسِ وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْكُونِ بِالْبَحْثِ
وَالدَّرْسِ وَالْعَمَلِ الْمُسَخَّرِ الْعُمْرَانِيِّ، وَعَنْ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ، كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ غَيْرَ ذَلِكَ. لَقَدْ
كَانُوا أَقْوَامًا أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى الْعَمَلِ وَالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَإِذْكَاءِ الْفِكْرِ وَحُسْنِ الْإِعْدَادِ
وَالِاسْتِعْدَادِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ حُبًّا لِلَّهِ، وَتَوَجُّهًا إِلَيْهِ بِالتَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ؛ حُبًّا لَهُ،
وَاسْتِعَانَةً بِهِ، وَطَلَبًا لِالْطَّافَةِ الْخَفِيَّةِ فِي الْإِهَامِهِمُ الصَّوَابِ، وَتَيْسِيرِ أُمُورِهِمْ، وَدَفْعِ الْبَلَاءِ
عَنْهُمْ بِسِرِّ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْكُلِّيَّةِ، فَكَانُوا يَا بَيْدَبَا قَوْمًا تَوَجَّهُوا بِالدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ الْعَلِيمِ
السَّمِيعِ، بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ لَهُمْ، بَعْدَ أَنْ جَدُّوا وَاجْتَهَدُوا وَعَمِلُوا، وَتَوَكَّلُوا، وَلَمْ يَعْجِزُوا. هَذَا
مَعْنَى الدُّعَاءِ يَا بَيْدَبَا، فَالدُّعَاءُ الْمُسْتَجَابُ يَا بَيْدَبَا يُعِينُ الْمُؤْمِنَ الْمُخْلِصَ الْمُجْتَهِدَ قَدْرَ
طَاقَتِهِ؛ فَيُلْهِمُهُ اللَّهُ الصَّوَابَ، وَيُسَهِّلُ لَهُ الْأُمُورَ، وَيُسَخِّرُ لَهُ الطَّافَةَ الْخَفِيَّةَ؛ لِمَا فِيهِ
صَلَاحُ أَمْرِهِ فِي الدَّارَيْنِ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ هَذَا الْإِهَامَ، وَهَذَا التَّيْسِيرَ، وَهَذَا الْعَوْنَ وَاللُّطْفَ الْإِلَهِيَّ هُوَ فِي كُلِّيَّاتِهِ
جَائِزَةٌ الْإِيْمَانِ، وَحُسْنُ الْأَدَاءِ، وَعَظِيمُ الْإِجْتِهَادِ، أَمَّا الْمُتَوَاكِلُ وَالْمُفْرِطُ، وَالْعَاجِزُ
وَالْعَابِثُ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ الْمُفْسِدِ وَالظَّالِمِ، فَلَا دُعَاءَ لَهُمْ لِهُؤُلَاءِ وَلَا جَائِزَةَ.



فَإِنَّ الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ جَائِزَةُ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ

اذكُرْ جَيِّدًا يَا بَيِّدَبَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَأَوْكَلَ إِلَى الْبَشَرِ مِهْمَةً
الِاسْتِخْلَافِ وَحَمَلَهُمُ الْأَمَانَةَ؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ يُخْلِصُ فِي
سَعْيِهِ، وَمَنْ يُحْسِنُ الْعَمَلَ قَدْرَ طَاقَتِهِ، وَيُتَقِنُ الْأَدَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا يُضِيعُ اللَّهُ أَجْرَهُ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَلِهَذَا يَا بَيِّدَبَا؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ جَائِزَةٌ الْمُؤْمِنِ الْعَامِلِ الْمُتَوَكِّلِ
الْمُجْتَهِدِ الَّذِي يُسَخِّرُ عَقْلَهُ وَسَاعِدَهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ، أَمَّا الظَّالِمُ
وَالْمُفْسِدُ، وَكَذَلِكَ الْمُفْرِطُ وَالْخَامِلُ وَالْعَابِثُ فَلَا دُعَاءَ وَلَا جَائِزَةَ لَهُمْ، وَلَا لِأَمْثَالِهِمْ، وَهَذَا
هُوَ الْعَدْلُ يَا بَيِّدَبَا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

لِذَلِكَ كَانَ يَا بَيِّدَبَا نَصِيبُ مَنْ اجْتَهَدَ وَأَصَابَ أَجْرَيْنِ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَنَصِيبُهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ،
أَيُّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، أَيُّ عَمَلًا عِلْمِيًّا صَائِبًا، لَهُ الثَّمَرَةُ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ
أَجْرُ الصَّوَابِ وَالتَّوْفِيقِ فِي طَلَبِ الْفِطْرَةِ وَالتَّوَامِيسِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي
خَلْقِهِ، وَلَهُ الْقَبُولُ فِي الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَجْرُ الْإِيمَانِ وَالنِّيَّةِ، أَمَّا مَنْ يَعْمَلُ وَلَا يُصِيبُ وَفَقَّ
نَوَامِيسِ فِطْرَةِ الْكَوْنِ وَسُنَنِهِ فَلَا نَصِيبَ وَلَا ثَمَرَةَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ يَظَلُّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ
الْقَبُولُ وَأَجْرُ النِّيَّةِ، وَأَجْرُ مَا بَدَلَ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ - قَدْرَ طَاقَتِهِ - مِنْ عَمَلٍ وَجْهِدٍ مُخْلِصٍ.

وَلِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ وَالْأَخَوَاتُ، فَإِنَّ مِنْ وَاجِبِ الْعَامِلِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُحْسِنِينَ أَنْ
يَدْعُوا، وَأَنْ يَلْجَأُوا إِلَى كَرَمِ اللَّهِ لِأَنْ يُوفِّقَ عَمَلَهُمْ وَجُهْدَهُمْ وَجِدَّهُمْ وَاجْتِهَادَهُمْ؛ لِيَكُونُوا
مُوفِّقِينَ صَائِبِينَ يَنَالُونَ بِبَذْلِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ الْأَجْرَيْنِ مَعًا؛ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
إِنَّ مَنْ يُفَكِّرُ، وَمَنْ يَتَعَلَّمُ، يَا بَيْدَبَا، وَمَنْ يَعْمَلُ، وَمَنْ يَجْتَهِدُ، لَهُ أَنْ يَدْعُو، فَإِنَّ اللَّهَ
بِحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يَسْتَجِيبُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا دُعَاءَهُ، وَيُعِينُ جُهْدَهُ، وَيَرْزُقُهُ الْقُدْرَةَ "مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ"؛ لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ فِي الدَّارَيْنِ "أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا"،
هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ اللَّهِ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ.

فَاعْلَمْ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا، وَكُلَّ مَنْ حَضَرَ، نَعَمْ؛ اعْلَمْهُ وَعَلِّمَهُ وَتَيَقَّنْهُ حَقَّ الْعِلْمِ وَحَقَّ
الْيَقِينِ، وَلَا يُزَيِّفُ لَكَ الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنَ الْغَافِلِينَ بِابْتِسَارِ الْفَهْمِ فِي دَلَالَاتِ الْفِطْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ
الْكُلِّيَّةِ لِلْحَيَاةِ وَالْكَوْنِ.

يَا بَيْدَبَا، إِنَّ التَّقَدُّمَ وَتَنْمِيَةَ الْمَعَارِفِ وَالْإِعْمَارَ يَحْتَاجُ إِلَى بَدَلٍ مَجْهُودٍ كَبِيرٍ، وَهُوَ مَجْهُودُ
-بِلْدَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَثَمَرَةِ الْإِنْتِاجِ- رَائِعٌ مُمْتَعٌ، أَمَّا التَّغْوِيْقُ، وَعَرْقَلَةُ الْجُهْدِ، وَالْفَسَادُ
وَإِفْسَادُ خُطَطِ الْإِصْلَاحِ وَالْإِعْمَارِ، وَالتَّخْلُفُ؛ مَعَ كُلِّ مَا يَجْلُبُ مِنَ الْمِ وَحَاجَةِ وَذَلِّ
وَضَعْفِ وَفَاقَةٍ؛ فَهُوَ لِلْأَسَى وَالْأَسْفِ يَحْتَاجُ إِلَى مَجْهُودٍ أَكْبَرَ.

يَا بَيْدَبَا؛ حِينَ تَسْتَعِيدُ هَذِهِ الشُّعُوبُ رُؤْيَتَهَا الْكُلِّيَّةَ الْكُونِيَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ الْحَضَارِيَّةَ
الصَّحِيحَةَ سَوْفَ تَعْرِفُ مَعْنَى حَيَاتِيهَا وَغَايَتَهَا فِي الْإِحْسَانِ؛ إِتْقَانًا لِلْعَمَلِ، وَتَسْخِيرًا لِلْكَوْنِ،
وَجَلْبًا لِمَنَافِعِ النَّاسِ، وَتَجَسُّدًا لِمَعَانِي الْخَيْرِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، بِالْوَسَائِلِ وَالنَّوَامِيسِ
وَالْأَسْبَابِ الْعِلْمِيَّةِ السُّنِّيَّةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ الْكَائِنَاتِ، وَبِالتَّسْخِيرِ وَالْعُمُرَانِ الْخَيْرِ؛ لِأَنَّ
اللَّهَ يَا بَيْدَبَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْأَرْضِ، وَاسْتَعَمَّرَهُ فِيهَا، وَذَلِكَ يَا بَيْدَبَا هُوَ سَبِيلُ الْعِبَادَةِ
وَالْتَّعْبِيدِ الْقَوِيمِ؛ الَّتِي يَحُضُّ عَلَيْهَا كُلُّ مَا نَزَلَ مِنَ الذِّكْرِ، وَهُوَ جَوْهَرُ الْمَطْلُوبِ مِنْ خَلْفَاءِ
الْأَرْضِ، فِي كُلِّ مَنَاجِي السَّعْيِ وَالْحَيَاةِ، أَدَاءً لِأَمَانَةِ الْخِيَارِ؛ لِيَهْدِيَ الْإِنْسَانَ إِلَى السَّبِيلِ، لَا
لِيَقْعُدَ بِهِ عَنِ السَّبِيلِ.

فَالْوَحْيُ وَالْعَقَائِدُ الصَّحِيحَةُ يَا بَيْدَبَا جَاءَتْ لِتُحْيِيَ النَّاسَ، وَتُرشِّدَ إِرَادَتَهُمْ وَخِيَارَ
سَعْيِهِمْ وَعَمَلِهِمْ؛ لِيَكُونَ سَعْيُهُمْ نَافِعًا صَالِحًا، وَمَا جَاءَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ يَا بَيْدَبَا لِيُقْعِدَ
الْعُقُولَ وَالسَّوَاعِدَ أَوْ يُقَيِّدَهَا بِالْعَجْزِ وَاللَّغْوِ وَالتَّمْتَمَاتِ وَالْأَوْهَامِ.
هَلْ أَدْرَكْتَ يَا بَيْدَبَا -بِمَا ذَكَرْتَهُ لَكَ مِنْ أَمْثَلَةٍ- حَقِيقَةَ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ لِلدُّعَاءِ، وَهَلْ
عَرَفْتَ مَنْ هُمْ أَهْلُ الدُّعَاءِ، وَلِمَاذَا لَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَ الظَّالِمِينَ وَالْمُفْسِدِينَ، وَلَا دُعَاءَ
الْخَامِلِينَ الْعَاجِزِينَ الْمُتَوَاكِلِينَ، وَلَا دُعَاءَ الْمُفَرِّطِينَ اللَّاهِينَ وَالْعَابِثِينَ الْمُتَقَاعِسِينَ؟

الدُّعَاءُ الصَّحِيحُ يَا بَيْدَبَا فِي جَوْهَرِهِ يَنْبَعُثُ مِنْ عَاطِفَةِ حُبِّ اللَّهِ، وَهُوَ قُوَّةٌ لِلرُّوحِ، وَطَلَبٌ لِالطَّافِ اللَّهِ فِي عَوْنِ الْجُهْدِ وَالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَيُحْسِنُونَ-قَدْرَ الطَّاقَةِ- فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ صُنْعًا، تَوْفِيرًا لِحَاجَاتِهِمْ وَعَوْنًا مِنْهُمْ لِمُحْتَاجٍ، وَإِمَاطَةً لِلأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَصِيَانَةً لِلْمَرَافِقِ الْعَامَّةِ، وَزَرْعًا يَا كُلُّونَ مِنْهُ هُمْ وَالنَّاسُ وَالطَّيْرُ، وَصُنْعًا لِذَوَاءٍ يَشْفِي بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ، وَاخْتِرَاعًا يُنَمِّي بَعْضَ مَوَارِدِ الْمُجْتَمَعِ، وَآلَةً تَيْسِّرُ بَعْضَ حَاجَاتِ الْبَشَرِ، كُلُّ هَذَا وَغَيْرُهُ يَا بَيْدَبَا إِحْسَانٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا حَسُنَ الْقَصْدُ وَحَسُنَتِ النِّيَّةُ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ بِكُلِّ أَلْوَانِهِ مَطْلُوبٌ، وَالْقُوَّةُ مَطْلُوبَةٌ، وَالْعَزْمُ مَطْلُوبٌ، وَكُلُّ حَسَبٍ قُدْرَتِهِ وَطَاقَتِهِ، وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا.

يَا بَيْدَبَا؛ حِينَ تَسْتَعِيدُ هَذِهِ الشُّعُوبُ رُؤْيَتَهَا الْإِسْتِخْلَافِيَّةَ الْحَضَارِيَّةَ الْخَيْرَةَ وَدَافِعِيَّتَهَا، وَالَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقَتْ، وَحِينَ تَقُومُ بِأَدَاءِ أَمَانَتِهَا بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ وَإِتْقَانٍ وَإِحْسَانٍ قَدْرَ الطَّاقَةِ، فِي خَوْضِ عِمَارِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِهَا، وَتَسْخِيرِ كُنُوزِهَا وَسُنَنِهَا، وَفِي تَيْسِيرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِيهَا وَإِعْمَارِهَا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ عَلَى شَاكِلَةِ أَسْلَافِ عَهْدِهَا مِنَ الصَّالِحِينَ الْبَنَائِينَ الْمُجَاهِدِينَ، عِنْدَ ذَلِكَ فَقَطْ يَا بَيْدَبَا يَكُونُ لِذُعَائِهِمْ مَعْنَى وَجَدْوَى، أَمَا مَنْ يَنْتَظِرُ أَنْ

تُمْطِرُ السَّمَاءُ ذَهَبًا وَفِضَّةً وَخُبْرًا وَقُوَّةً وَعِزَّةً وَعُمْرَانًا فَلَنْ يُجِدِيَهُ الدُّعَاءُ شَيْئًا مَهْمَا اشْتَدَّ نَوَاحُهُ، وَعَلَا عَوِيلُهُ، وَتَقَطَّعَتْ أَنْفَاسُ أُنْيَبِهِ؛ فَتِلْكَ يَا بَيْدَبَا - كَمَا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ - سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْخَلْقِ، (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا). (فاطر: ٤٣)

يَا بَيْدَبَا؛ بَصِرْ هُوَلَاءِ الْغَافِلِينَ الْمُتَوَاكِلِينَ، وَاللَّاهِيْنَ الْخَامِلِينَ، وَالْمُسْتَهْلِكِينَ الْعَاجِزِينَ الْمُقْصِرِينَ، وَأَنْذِرْهُمْ بِأَنَّ الْعَقْلَ وَالْفِكْرَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ وَالْإِتْقَانَ وَالْإِبْدَاعَ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَبِمَا يُسَخِّرُ الْمَنَافِعَ وَالْأَرْزَاقَ، وَيَبْنِي صَالِحَ الْحَضَارَاتِ وَالْعُمَرَانَ، وَالْإِفَادَةَ مِنْ كُلِّ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُتَعَةِ الْمَعْرِفَةِ بِأَسْرَارِ الْكُونِ وَالْفِطْرَةِ، وَنَفْعِ التَّسْخِيرِ وَالْقُدْرَةِ، إِنَّمَا هُوَ الْغَايَةُ مِنْ وُجُودِ الْإِنْسَانِ خَلِيفَةً مُتَصَرِّفًا فِي الْأَرْضِ، بِقُدْرَةِ عَقْلِهِ، مُؤْتَمِنًا فِيهَا بِحُرِّيَّةِ إِرَادَتِهِ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ الذِّكْرَ وَالْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ إِنَّمَا نَزَلَ لِيَكُونَ دَلِيلًا كَلِمًا، وَمَذْكَرًا وَمُرْشِدًا بِشَأْنِ حَقِيقَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَفِطْرَتِهِ، وَلِيُعِينَ عَلَى تَوْضِيحِ الْغَايَةِ وَالرُّؤْيَا، وَيُحَرِّكَ الدَّافِعِيَّةَ، وَيَدُلَّ عَلَى سُبُلِ صَالِحِ الْعَمَلِ لِمَا يُحْيِي النَّاسَ، وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ دَلِيلُ الْعَمَلِ بَدِيلًا عَنِ الْعَمَلِ، وَلَا خَيْرٌ فِي ذِكْرٍ لَا يَحُضُّ عَلَى فِكْرٍ وَيَحُثُّ عَلَى بَحْثٍ وَدَرْسٍ تَكُونُ نَتِيجَتُهُ عَمَلًا وَإِتْقَانًا وَإِعْمَارًا وَتَسْخِيرًا وَخَيْرًا؛ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، وَيَنْفَعُ النَّاسَ وَيُحْيِيهِمْ، فَالذِّكْرُ كَانُ، وَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ، هِدَايَةً وَتَذْكَيرًا، وَنُورًا وَتَبْصِيرًا.

قُدْرَةُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَحُبِّ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِبْدَاعِ، وَقُدْرَةُ الْعَمَلِ وَالْإِثْقَانِ، هُمَا الْأَلْتَانِ
الَّتَانِ أَوْدَعَهُمَا اللَّهُ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ لِلْإِعْمَارِ، وَالذِّكْرُ هُوَ دَلِيلُ الْعَمَلِ، وَوَجْهَةُ الْخَيْرِ فِيهِ،
فَمَنْ تَوَجَّهَ إِلَى الدَّلِيلِ يَقْرُوهُ، وَيُقَلِّبُ صَحَائِفَهُ، وَيُرَدِّدُ كَلِمَاتِهِ، مُنْصَرِّفًا عَنِ الْعَمَلِ وَالْأَدَاءِ
وَالْإِثْقَانِ الَّذِي قَصَدَ إِلَيْهِ الدَّلِيلُ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّلَبَ، وَضَلَّ الْغَايَةَ وَالْأَرْبَ.

إِنَّ مَثَلَ هَذِهِ الشُّعُوبِ الْغَافِلَةِ الْعَاجِزَةِ التَّائِهَةِ يَا بَيْدَبَا كَمَثَلِ مَنْ أُعْطِيَ أَدَاةً لِتَرْكِيبِهَا
وَتَشْغِيلِهَا وَإِعْدَادِهَا لِلْإِنْتِاجِ بِهَا، وَالْإِفَادَةِ مِنْهَا، فَانْصَرَفَ إِلَى دَلِيلِ التَّرْكِيبِ، يَقْرُوهُ،
وَيُكْرِرُهُ، وَيُنْغِمُهُ، وَيُحَرِّرُهُ، وَيَزَيِّنُهُ، وَيُبْدِي فِيهِ وَيُعِيدُ، وَتَرَكَ قِطْعَ الْأَلَةِ جَانِبًا لِتَصُدَّأَ؛
نَاسِيًا أَمْرَ تَرْكِيبِهَا وَإِنْتِاجِهَا وَتَسْخِيرِهَا وَالْإِفَادَةَ مِنْهَا.

يَا بَيْدَبَا؛ مَا أَكْثَرَ حَدِيثَ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغَافِلِينَ اللَّاهِينَ وَالْمُتَوَاكِلِينَ الْعَاجِزِينَ عَمَّا
يَجِبُ، وَمَا أَقَلَّ - عَدَا الْإِسْتِهْلَاكَ - فَعَلَهُمْ وَمُبَادَرَتَهُمْ لِمَا يَجِبُ عَمَلُهُ وَتَجْسِيدُهُ مِنَ الْقِيَمِ
وَالْمَعَانِي وَالْمَنَافِعِ الْخَيْرَةِ؛ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْعَمَلِ الْمُتَقِنِ، وَالْفِعْلِ الْمُبْدِعِ، وَالْأَدَاءِ النَّافِعِ
الْبِنَاءِ الْمُسَخِّرِ لِلْكَوْنِ، الْمَيْسِرِ لِحَيَاةِ النَّاسِ، الْمَوْفِرِ لِحَاجَاتِهِمْ، نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ مَا أَكْثَرَ
أَقْوَالَهُمْ الْهَازِرَةَ! وَمَا أَقَلَّ أفعالَهُمْ النَّافِعَةَ! وَكَأَنَّهُمْ فِي عَالِمِ الْيَوْمِ وَقُدْرَاتِهِ وَعَطَائِهِ نُمُودَجٌ
لِلْعَجْزِ وَالضَّعْفِ وَالْقُصُورِ.

يَا بَيْدَبَا؛ هَلْ مِنْ الصَّوَابِ أَنْ تَرَى مَعْنَى، أَوْ تَتَوَقَّعَ خَيْرًا، مِمَّنْ يَجْلِسُ قَابِعًا فِي رُكْنٍ أَوْ زَاوِيَةٍ أَوْ قَارِعَةٍ طَرِيقٍ، يُتَمَّتِمُ بِالذِّكْرِ، وَيَتَكَفَّفُ بِهِ لُقْمَةَ الْعَيْشِ؟ وَهَلْ مِنْ أَجْلِ هَذَا جَاءَ الذِّكْرُ؟! يَا بَيْدَبَا؛ مَا أَضَلَّ سَعْيَ الْعَاجِزِينَ الْخَامِلِينَ الْمُتَوَاكِلِينَ مَهْمَا اسْتَظْهَرُوا وَتَمَتَّمُوا؛ فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي أَقْوَامٍ يَذْكُرُونَ، وَلَا يَحْضُرُهُمْ ذِكْرُهُمْ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّافِعِ، فِي الْاجْتِهَادِ، وَالْجِهَادِ بِالْفِكْرِ وَالْعَمَلِ وَالتَّسْخِيرِ لِمَا فِيهِ نَفْعُ النَّاسِ وَصَلَاحُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِكُلِّ أَلْوَانِهِ، وَمِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَزْرَاقِ وَالزَّيْنَةِ وَالْمَنَافِعِ، وَتَسْخِيرِهَا وَإِنْفَاقِهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِتُرْشِدَ الْحَيَاةَ، وَلِتَيْسَّرَهَا، وَتَسُدَّ الْحَاجَاتِ؛ تَجْسِيدًا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّكَافُلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَتَكُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ "خَالِصَةً لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ فِي الْآخِرَةِ".

هَلْ هَذِهِ الشُّعُوبُ الْيَوْمَ بِتَخْلُفِهَا وَعَجْزِهَا وَضَعْفِهَا وَتَقْصِيرِهَا يَا بَيْدَبَا؛ تُدْرِكُ حَقًّا مَعْنَى تَنْزِيلِ الْوَحْيِ بِالذِّكْرِ، وَمَا أَوْجَبَهُ حَقًّا فِي الْحَيَاةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ دَلِيلُ عَمَلٍ وَهِدَايَةٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى رِسَالَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ، وَمَهْمَةٌ وَجُودِهِ وَفِطْرَتِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الْأَجْيَالِ فِي الْأَرْضِ؟ هَلْ سَاءَ لَنَا أَنْفُسَنَا يَا بَيْدَبَا حَقًّا؛ لِمَاذَا تَضِيْعُ كُلُّ جُهْدٍ إِحْيَاءِ هَذِهِ الشُّعُوبِ هَبَاءً وَهَدْرًا؟! هَلْ حَقًّا أَدْرَكْنَا كَيْفَ نُخَاطِبُهَا، وَعَنْ أَيِّ أُمُورٍ نُحَدِّثُهَا، وَإِلَى أَيِّ السُّبُلِ وَالْإِنْجَازَاتِ نُوَجِّهُهَا وَنُرْشِدُهَا؟

إِنَّ مِهْمَةَ وُجُودِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ يَا بَيْدَبَا - مِمَّا نَلْحَظُ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ، وَبِمَا أَخْبَرَبِهِ
 الذِّكْرُ - هِيَ الْبِنَاءُ الْخَيْرُ لِلْحَضَارَةِ وَالْعُمُرَانِ وَالتَّسْخِيرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُتَغَيَّرُ
 الْوَحِيدُ فِي وُجُودِ الْبَشَرِ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ، وَتَعَاقِبِ الْأَجْيَالِ، وَالَّذِي مِنْ أَجْلِهِ - كَمَا تَدُلُّ
 الْفِطْرَةُ وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ وَآيُ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ - غَرَسَ اللَّهُ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ حِرْصَهُ عَلَى
 الْحَيَاةِ، وَحِرْصَهُ عَلَى الْعَمَلِ، وَحِرْصَهُ عَلَى الْإِنْجَابِ جِيلًا إِثْرَ جِيلٍ؛ يَمُوتُ جِيلٌ وَتَنْتَهِي
 حَيَاتُهُ، وَيَتَوَقَّفُ أَدَاؤُهُ؛ فَيَقُومُ جِيلٌ جَدِيدٌ يُوَاصِلُ الْعَمَلَ وَالْإِبْدَاعَ، وَيَدْفَعُ بِعَمَلِهِ عَجَلَةَ
 الْحَضَارَةِ وَالْإِعْمَارِ؛ حَتَّى يَتِمَّ مَشْرُوعُ إِعْمَارِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الذِّكْرُ
 الْحَكِيمُ، وَكَمَا نَشَاهِدُ فِي دَوَائِعِ الْفِطْرَةِ، وَسَيَسْتَمِرُّ ذَلِكَ حَتَّى يَكْتَمِلَ مَشْرُوعُ اسْتِخْلَافِ
 الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ؛ "لِيَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا".

قُلْ لِي يَا بَيْدَبَا؛ كَيْفَ يُمَكِّنُ لِشُعُوبِ الْأَرْضِ، بِتَقَدُّمِ الْأَجْيَالِ وَتَعَاقِبِهَا، وَتَكَاثُرِ الْبَشَرِ عَلَى
 وَجْهِ الْأَرْضِ، أَنْ يُوَاجِهُوا حَاجَاتِهِمْ، وَأَنْ يُدَبِّرُوا أَرْزَاقَهُمْ، وَأَنْ يُعَلِّمُوا أَبْنَاءَهُمْ، وَأَنْ
 يَحْمُوهُمْ مِنَ الْأَفَاتِ وَالْأَمْرَاضِ وَالنَّوَازِلِ، إِلَّا بِالْجِدِّ وَالْإِحْتِمَادِ، وَالْإِبْدَاعِ فِي الْبِنَاءِ وَالتَّسْخِيرِ
 وَالْعُمُرَانِ؟ وَتِلْكَ هِيَ الْحَضَارَةُ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاسْتِخْدَامِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْبَحْثِ
 وَمَعْرِفَةِ السُّنَنِ، وَطَلَبِ الْأَسْبَابِ، بِكُلِّ الْإِخْلَاصِ وَالْجِدِّ وَالْإِحْتِمَادِ.

أَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَلْزَمِ لَوَازِمِ وُجُودِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَوْجَبِ وَاجِبَاتِهِ؛ لِتَوْفِيرِ حَاجَاتِهِ، وَتَرْقِيَةِ حَيَاتِهِ؛ شَرِيطَةً أَنْ يَكُونَ عَمَلًا خَيْرًا؟ أَلَيْسَتْ غَايَةُ الذِّكْرِ وَالْهِدَايَةِ هِيَ الْحَضُّ عَلَى هَذَا النُّوعِ مِنَ الْعَمَلِ، وَحَمْلُ مَسْئُولِيَّتِهِ، وَإِتْقَانِ أَدَائِهِ، تَحْقِيقًا لِلذَّاتِ وَوَفَاءً بِوَاجِبِ الْإِسْتِخْلَافِ وَحَمْلِ الْأَمَانَةِ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ فِي الْإِعْمَارِ وَالتَّسْخِيرِ الْخَيْرِ، عَمَلًا وَإِتْقَانًا وَجِهَادًا وَبَدَلًا وَعَطَاءً؟

أَوَلَيْسَ هَذَا الْعَمَلُ، وَمَا عَلَى شَاكِلَتِهِ، إِذَا خُلِصَتْ فِيهِ النِّيَّةُ وَحَسُنَ الْقَصْدُ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنْ قُدْرَةٍ وَبَدَلٍ وَإِتْقَانٍ وَإِحْسَانٍ، هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، يَا بَيْدَبَا، وَصَلَاحُهُ هُوَ غَايَةُ الذِّكْرِ وَالْهِدَايَةِ؟

عَلَى هَذِهِ الشُّعُوبِ وَأَصْحَابِ الْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ وَالْعِلْمِ فِي الْأَرْضِ يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ يُعِيدُوا النَّظَرَ فِي فِهْمِهِمْ لِرُؤْيَتِهِمْ الْكُونِيَّةِ، وَلَمَعْنَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ وَتَعَاقُبِ الْأَجْيَالِ فِيهَا؛ حَتَّى يَكْتَمِلَ مَشْرُوعُ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ، وَاسْتِخْلَافِهِ فِيهَا؛ لِيَرِثَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَتُصْبِحَ "حَصِيدًا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ"، وَيَنْتَهِي عَالَمُ الْأَرْضِ وَالطِّينِ؛ لِيَرْقَى الْوُجُودُ الْإِنْسَانِيُّ إِلَى عَالَمِ السَّمَاءِ وَالرُّوحِ، وَلِتُوفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ؛ "إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ". "وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا".

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ أَمْرَ خَلْقِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي مُجْمَلِهَا، وَفِي تَطَوُّرِهَا، وَدَوْرِهَا فِي إِعْمَارِ الْأَرْضِ، وَبِنَاءِ الْحَضَارَةِ، وَتَسْخِيرِ الْكَوْنِ لِحَاجَاتِ الْبَشَرِ، هِيَ عَلَى شَاكِلَةِ أَمْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ الْفَرْدِ وَتَطَوُّرِهِ وَدَوْرِهِ فِي إِعْمَارِ الْأَرْضِ، وَبِنَاءِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَسْخِيرِ الْكَوْنِ لِحَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْبَشَرِ وَالْكَائِنَاتِ.

فَالْفَرْدُ وَاحِدُ الْإِنْسَانِ يَا بَيْدَبَا؛ وَهُوَ لَيْسَ إِلَّا صُورَةٌ مُصَغَّرَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ، لَيْسَتْ إِلَّا صُورَةٌ مُكَبَّرَةٌ مُمْتَدَّةٌ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، لِلْفَرْدِ، وَلِأَيِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ.

فَكَمَا أَنَّ الْفَرْدَ يَا بَيْدَبَا؛ يُوَلَّدُ صَغِيرًا ضَعِيفًا جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، ثُمَّ هُوَ شَيْئًا فَشَيْئًا يَنْمُو وَيَقْوَى وَيُدْرِكُ وَيَتَعَلَّمُ، عَلَى أَطْوَارٍ وَمَرَاجِلَ، إِلَى أَنْ يَشْتَدَّ عُوْدُهُ، وَيَكْتَمِلَ وَيَقْدِرَ، وَيُبْدِعُ وَيُنْتِجَ، وَيُعْطِي أَفْضَلَ مَا عِنْدَهُ؛ لِيَنْتَهِيَ بَعْدَهَا وَيَمُوتَ، فَكَذَلِكَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَا بَيْدَبَا؛ بَدَأَتْ بِذُرَّةٍ بَدَائِيَّةٍ، إِلَّا مِنْ اسْتِعْدَادَاتِهَا، لَا تَكَادُ تَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، لِتَنْمُو وَتَكْبُرَ وَتَعْلَمَ، عَلَى أَطْوَارٍ وَمَرَاجِلَ، وَيَنْمُو بِنُمُوهَا الْإِعْمَارُ، وَتَنْمُو بِنُمُوهَا الْحَضَارَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَنْمُو مَعَهَا الْقُدْرَةُ وَالتَّسْخِيرُ، كَمَا وَكَيْفًا، وَمَا تَزَالُ الْإِنْسَانِيَّةُ -يَا بَيْدَبَا- تَنْمُو، وَتَنْمُو مَعَهَا الْحَضَارَةُ، وَيَشْتَدُّ سَاعِدُهَا وَقُدْرَتُهَا فِي الْعِلْمِ، وَفِي الْإِعْمَارِ وَالتَّسْخِيرِ،

وَسَيَسْتَمِرُّ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا، وَيَسْتَمِرُّ مَعَهُ نُمُو الْإِنْسَانِيَّةِ وَعِلْمُهَا وَحَضَارَتُهَا وَقُدْرَاتُهَا إِلَى أَنْ
 تَكْتَمِلَ، وَتَبْلُغَ غَايَةَ وُجُودِهَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ تِلْكَ الْحَضَارَةُ،
 وَتَنْتَهِيَ مَعَهَا الْإِنْسَانِيَّةُ، وَيَنْتَهِيَ مَعَهَا عَالَمُ كَوْكَبِ الْأَرْضِ، مِثْلَهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ كُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ
 فِي نَامُوسِ هَذَا الْكُونِ، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ كَائِنٍ مِنْ يَوْمٍ يَبْلُغُ فِيهِ ذِرْوَتَهُ وَغَايَتَهُ، وَيَنْتَهِيَ فِيهِ أَجَلُهُ.
 وَلِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛ فَإِنَّ مِنَ الْمُهْمِّ لِلْفَرْدِ، وَكَذَلِكَ لِلشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ، وَلِمَسْعَاهُمْ فِي
 الْأَرْضِ، وَلِمُشَارَكَاتِهِمُ الْحَضَارِيَّةِ فِي إِعْمَارِ الْكُونِ، وَهُمْ يَخُوضُونَ غِمَارَ الْحَيَاةِ وَالْإِعْمَارِ،
 النَّظَرَ إِلَى مَدْلُولِ هَذَا الْمَسْعَى، وَهَذِهِ الْمُشَارَكَةِ، وَإِلَى مَالِهَا، أَهْوَا سِتْخِلَافٍ إِلَى الْخَيْرِ
 وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّكَاثُلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ، أَمْ تَسَلِّطُ إِفْسَادٍ يُؤَدِّي إِلَى الشَّرِّ وَالظُّلْمِ
 وَالْقَسْوَةِ وَالْعُدْوَانِ.

يَا بَيْدَبَا؛ يَجِبُ عَلَى الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ أَنْ تَتَّعِظَ مِنْ حَيَاةِ مَنْ سَبَقَهَا، مِنَ الشُّعُوبِ
 وَالْأُمَمِ، كَمَا تَتَّعِظُ مِنْ حَيَاةِ كُلِّ فَرْدٍ فِيهَا، وَمَا يَعْتَرِيهِ مِنْ حَالِ الْأَحْيَاءِ، وَمَدْلُولِ أفعالِهِمْ،
 وَمَالِ أَمْرِهِمْ، وَإِلَّا بَاؤُوا جَمِيعًا بِالْوَبَالِ وَالنَّدَامَةِ وَالْخُسْرَانِ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛
 الشُّعُوبُ، وَالْأُمَمُ، وَالْأَفْرَادُ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ.

أَيْنَ تَضَعُ يَا بَيْدَبَا نَفِيسَ الْمَتَاعِ؟ أَلَا تَضَعُهُ يَا بَيْدَبَا فِي الصَّدَارَةِ مِنَ الدَّارِ، وَفِي مَوْضِعِ

الإعزاز والتكريم؟ وأين تضع الزبالة والفضلات والوخم يا بيدبا؟ ألا تضعها بروائجها المنتنة بعيداً عنك في حاويات الزبالات؟ هل من الممكن واللائق أن يكون غير ذلك يا بيدبا؟ أليس هذا - في مصير الإنسانية، وفي عالم النور والروح - تحصيل حاصل يا بيدبا، والذي لا يقرُّ العقل والعدل سواه؟ هذا هو لبُّ الحال، ومعنى المال، فالحسنى لمن أحسن العمل في هذه الحياة الدنيا، وصفت نفسه، وصفا معدنه، والسوء لمن أساء من المهيم يا بيدبا أن نجعل الأجيال تدرك أن "استخلاف الإنسان في الأرض ليست مقولة يلزم الذكر والوحي الناس بها بالأمر والإملاء؛ بل هي تعبير ووصف لحقيقة طبع خلقهم، ومفهوم استخلافهم، وهو تعبير عن واقع وجودهم في الأرض، كما أراد الله في أصل خلق الإنسان وطبعه وفطرته.

ومفهوم "الأمانة" أيضاً يا بيدبا ليس إلا الخيار والإرادة التي أودعها الله في فطرة الإنسان؛ فهما يتنازعا فيه بين الخير والشر، وبين النور والظلمة، وبين الروح والطين، وهو الخيار بين قانون الغاب؛ حيث الحق للقوة، وقانون الروح؛ حيث القوة للحق. وحمل الإنسان للأمانة، وهي أمر عظيم؛ إنما تعني ممارسة حق الاختيار، وتصريف الإنسان للحياة من حوله؛ بالخير أو بالشر.

"وَالْعَقْلُ وَالْعِلْمُ" يَا بَيْدَبَا لَيْسَ إِلَّا الْأَدَاةُ الَّتِي أَهَّلَ اللَّهُ بِهَا الْإِنْسَانَ، وَهَيَّأَهُ بِهِمَا لِلْفِعْلِ وَالْعَمَلِ، وَالتَّصَرُّفِ وَالْبِنَاءِ؛ فإِذَا مَا أَنْ يَكُونَ الْخِيَارُ وَالْبِنَاءُ حَضَارَةً وَإِعْمَارًا وَإِبْدَاعًا صَالِحًا؛ يُعِينُ عَلَى النَّفْعِ وَالْخَيْرِ وَإِقَامَةِ مُجْتَمَعِ الْعَدْلِ وَالتَّكَاثُلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ، وَإِذَا مَا أَنْ يَكُونَ حَضَارَةً وَإِعْمَارًا وَإِبْدَاعًا فَاسِقًا فَاسِدًا يُمْكِنُ لِمُجْتَمَعِ التَّفْسُخِ وَالتَّظَالُمِ وَالْعُدْوَانِ؛ وَذَلِكَ هُوَ مِيزَانُ الْفَصْلِ فِي أَمَانَةِ الْإِسْتِخْلَافِ، وَمُمَارَسَةِ أَمَانَةِ التَّصَرُّفِ، وَمَعْنَى وُجُودِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ، أَهْوَاءُ إِصْلَاحٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ إِفْسَادٍ فِيهَا؟ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

"وَالذِّكْرُ" بِهَذَا يَا بَيْدَبَا، وَبِكُلِّ أَشْكَالِهِ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَاضِحًا فِي وَعْيِ الْإِنْسَانِ، وَفِي خِطَابِ الدُّعَاةِ، أَنَّهُ لَيْسَ قَهْرًا وَلَا قَسْرًا وَلَا إِغْيَاءَ لِخِيَارِ الْأَمَانَةِ؛ وَلَا إِغْيَاءَ لِلْعَقْلِ أَوْ صَرْفًا عَنِ الْعَمَلِ، وَلَكِنَّهُ تَذْكَيرٌ وَدَلِيلٌ إِلَى النُّورِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ، فَهُوَ مَوْجَّهٌ لِلْعَمَلِ لِيَكُونَ صَالِحًا؛ بِمَا تَهْوَاهُ النُّفُوسُ، وَتَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ، وَيُوقِرُ لَهَا حَاجَاتِهَا، وَهُوَ مَفْطُورٌ فِي أَصْلِ جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّكَاثُلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ، وَهُوَ تَذْكَيرٌ بِالْإِصْلَاحِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ عَمَلِ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ وَجُهْدِهِ، وَبِهِ يُحَقِّقُ الْإِنْسَانُ ذَاتَهُ، وَيُسَدِّدُ خُطَاهُ.

مَعْنَى هَذَا يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ الذِّكْرَ لَيْسَ إِجْبَارًا لِلْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ أَوْامِرٌ تُحْمَلُهُ مَا يُثْقِلُ كَاهِلَهُ، كَمَا هُوَ مَأْلُوفٌ فِي جُلِّ خِطَابِ الْوُعَاظِ فِي هَذَا الزَّمَانِ؛ بَلْ هُوَ ذِكْرٌ وَهِدَايَةٌ، وَتَسْدِيدٌ

وَتَرْشِيدٌ لِلْخِيَارِ، وَلِلْفِكْرِ وَالْعَمَلِ؛ بِمَا يُحْيِي النَّاسَ، وَيَنْفَعُهُمْ، وَيُمَتِّعُهُمْ، وَيَصُونُ كَرَامَتَهُمْ، وَيَسْتَجِيبُ لِفِطْرَتِهِمْ، وَيُحَقِّقُ ذَوَاتِهِمْ وَعَمِيقَ أَشْوَاقِ أَرْوَاحِهِمْ؛ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُشَوِّهَ الْفَهْمُ، وَيُطَوِّعَ وَيُجْتَزَأَ؛ بِحَيْثُ يَغِيبُ وَعْيُ الشُّعُوبِ، وَيَقْعُدَ سَعْمُهُمْ، وَتُكَبَّتْ طَاقَةُ الْفِكْرِ وَالدَّرْسِ وَالْبَحْثِ وَالْإِبْدَاعِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِمْتِنَاعِ وَالْعُمُرَانِ فِي فِطْرَةِ خَلْقِهِمْ. إِنَّ مِنَ الْمُهْمِمْ يَابِدَبَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ فِي فَهْمِ الذِّكْرِ هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ "مَصْدَرٍ" "التَّعْبِيدِ" لَا مِنْ "مَصْدَرٍ" "الِاسْتِعْبَادِ"، وَهِيَ بِذَلِكَ بِمَعْنَى التَّنْذِيلِ لَا بِمَعْنَى الْمَذَلَّةِ أَوْ الْمَهَانَةِ؛ فَتَعْبِيدُ الْعِبَادِ أَنْفُسَهُمْ وَتَنْذِيلُهَا لِلْخَيْرِ وَالْحَقِّ، بِإِرَادَتِهِمْ الْحُرَّةِ، هِيَ مَصْدَرُ عِزَّةٍ وَتَكْرِيمٍ، لَا مَصْدَرُ مَذَلَّةٍ وَمَهَانَةٍ وَاسْتِعْبَادٍ.

قَالَ بَيْدَبَا: صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَمَا تَفَضَّلْتَ بِذِكْرِهِ لَنَا يُوضِّحُ السِّرِّي فِي أَرْزَمَةِ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبُ فِي تَخَلُّفِهَا وَتَهْمِيشِ دَوْرِهَا الْحَضَارِيِّ، كَمَا يُوضِّحُ لَنَا لِمَاذَا أَصْبَحَتْ شُعُوبًا مُتَخَلِّفَةً عَاجِزَةً مُسْتَهْلِكَةً، غَيْرَ مُبْدِعَةٍ، وَقَدْ كَانَتْ هِيَ الْأُولَى بِالْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ لَوْ عَرَفَتْ حَقِيقَةَ رُؤْيَيْهَا وَرِسَالَتِهَا، وَأَنَّ الْجِهَادَ بِالْعَمَلِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِعْمَارِ الصَّالِحِ هُوَ هَدَفُ الذِّكْرِ، وَمَعْنَى الْوُجُودِ وَالِاسْتِخْلَافِ الْمُصْلِحِ فِي الْأَرْضِ، فَذَلِكَ وَعَدُّ اللَّهِ، وَهُوَ أَصْلُ الْفِطْرَةِ، وَغَايَةُ الْخَلْقِ، فَهَنِينًا لِلْعِبَادِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ الْمُحْسِنِينَ الصُّنْعِ.

الْمُتَّقِينَ الْأَدَاءَ، الْمُجَاهِدِينَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْخَيْرِ النَّافِعِ لِنَفْسِهِمْ وَلِلنَّاسِ وَالْخَلْقِ. إِنَّهُ
يَا بَيْدَبَا جِهَادُ اسْتِخْلَافٍ وَإِعْمَارُ خَيْرٍ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَطَلَبِ الْعِلْمِ، وَالْبَحْثِ وَالدَّرْسِ بِمَا
يَنْفَعُ النَّاسَ، وَيُمَتِّعُهُمْ وَيُوفِّرُ حَاجَاتِهِمْ، وَيُسِّرُ حَيَاتَهُمْ، وَيُدْفَعُهُمْ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَيُقِيمُ
بَيْنَهُمْ مُجْتَمَعَ الْعَدْلِ وَالْوَفْرَةِ، وَمُجْتَمَعَ التَّكَاثُلِ وَالتَّرَاحُمِ، وَمُجْتَمَعَ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ،
وَيَحْمِيهِمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ عَلَيْهِمْ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ قَالَ بَيْدَبَا: يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ لَقَدْ خَطَرَبَذَنِي خَاطِرُ مُهْمٍ، لَا أَقْبَلُ أَنْ
أَسْكُتَ عَنْهُ، وَإِنِّي أَجِدُ مِنَ الضَّرُورِيِّ، أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ وَأَسْتَوْضِحَ رَأْيَكَ فِيهِ.

قَالَ الشَّيْخُ: أَفْصِحْ عَمَّا بَدَا لَكَ يَا بَيْدَبَا فَإِنَّ الْأَمْرَ وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَمَا ذَكَرْتَ أَمْرًا مُهِمًّا.
قَالَ بَيْدَبَا: يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ: هَلْ مَعْنَى مَا قُلْتَ أَنَّ كُلَّ جُهُودِ الْإِعْمَارِ وَالْحَضَارَةِ الَّتِي
يُبْنِئُهَا الْإِنْسَانُ وَعَقْلُهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، سَوْفَ تَضِيغُ وَتَهْلِكُ، يَهْلِكُ الْأَرْضِ؟ فَمَا أَظُنُّ
ذَلِكَ دَلَالَةً مَا قُلْتَ، وَلَيْسَ هُوَ مَا إِلَيْهِ قَصَدْتُ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنَ بَطُوطَةَ: صَدَقْتَ يَا بَيْدَبَا؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ مَعْنَى مَا قُلْتَ، وَلَيْسَ هُوَ مَا إِلَيْهِ
قَصَدْتُ.

أَنْتَ تَعْلَمُ يَا بَيْدَبَا أَنَّ الْإِنْسَانَ، وَعَقْلَ الْإِنْسَانِ، مِنْ صُنْعِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْأَرْضَ وَطَاقَاتِهَا

الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ هِيَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ أَيْضًا، وَأَنَّ مَشْرُوعَ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ فِي
الْمُحَصِّلَةِ هُوَ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَكَيْفَ تَظُنُّ، أَوْ يَخْطُرُ لَكَ بِالْبَالِ، أَنَّ هَذَا
الْمَشْرُوعَ، وَهَذِهِ الْجُهُودَ، سَوْفَ تَضِيغُ هَبَاءً وَتَذْهَبُ سُدىً.

يَا بَيْدَبَا؛ لَنْ يَضِيغَ كُلُّ مَا يَبْدُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ جُهِودِ الْإِبْدَاعِ الْمُصْلِحِ الْخَيْرِ هَبَاءً، وَإِنَّ
مِنَ الْمُهِمِّ أَنْ تَعْلَمَ ذَلِكَ أَنْتَ وَإِخْوَانُكَ يَا بَيْدَبَا.

نَعَمْ مِنَ الْمُهِمِّ، بَلْ مِنْ أَهَمِّ الْمُهِمِّ، أَنْ نُدْرِكَ جَمِيعًا، بَعْدَ كُلِّ هَذَا وَحَصِيلَتِهِ، أَنَّ مَا
يُبْدِعُهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ وَأَبْدَعَ صُنْعَهُ، مِنَ الْحَضَارَةِ، وَمِنْ مَعَانِي الْخَيْرِ
وَإِثْقَانِ الْإِبْدَاعِ وَالتَّيْسِيرِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِمْتِنَاعِ، لَنْ يَضِيغَ هَبَاءً وَلَا سُدىً، بَلْ إِنَّهُ سَيَنْتَقِلُ
إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَالْخُلُودِ، نَعِيمًا خَالِصًا لِلْعَامِلِينَ الْأَخْيَارِ؛ لِيَجِدُوا فِي عَالَمِ الْخُلُودِ وَالرُّوحِ
كُلَّ مَا فَعَلُوا مِنَ الْخَيْرِ، وَكُلَّ مَا فَعَلَهُ الْإِنْسَانُ، مِنْ جُهْدِ الْحَضَارَةِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْخَيْرِ،
"وَلِيَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ حَاضِرًا"، يَنْعَمُونَ بِهِ، خَالِصًا مُبْرَأً مِنْ كُلِّ السَّوْءَاتِ، وَمِنْ كُلِّ
قَذَارَاتِ الطِّينِ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْسَتْ نِهَايَةَ مَشْرُوعِ الْحَضَارَةِ وَالْإِبْدَاعِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى
الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهَا الْبِدَايَةُ الَّتِي سَتَمْتَدُّ، وَلَا شَكَّ، إِلَى عَالَمِ النُّورِ وَالرُّوحِ وَالْخُلُودِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ

مَا يَبْدُلُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ وَالْإِثْقَانِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنْ لَذَّةٍ
وَرَاحَةٍ وَيُسْرِفُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، بَلْ يَمْتَدُّ فِي عَالَمِ الرُّوحِ وَالْخُلُودِ، وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ أَوْ حَبَّةٍ
خَرْدَلٍ، إِلَى أَفَاقٍ أَبْعَدَ وَأَوْسَعَ مِنَ اللَّذَّةِ وَالْمُتَعَّةِ وَالْيُسْرِ الرُّوحِيَّةِ.

يَا بَيْدَبَا؛ عَلَيْكَ أَنْتَ وَعَلَى إِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ فِعْلُ كُلِّ مَا تُطِيقُونَ مِنْ جُهْدٍ؛ لِكَيْ يَعْجِي
بَنُو الْإِنْسَانِ حَقِيقَةَ مَعْنَى وُجُودِهِمْ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتِخْلَافِهِمْ فِيهَا، وَقِيَمَةَ مَا رَزَقُوا مِنْ
نِعْمَةِ الْعَقْلِ، وَقُدْرَةِ الْإِبْدَاعِ وَالتَّعَرُّفِ، لِكَيْ تُحَقِّقَ جُهُودَهُمْ، وَإِبْدَاعَاتِهِمْ الْخَيْرَةَ غَايَاتِهَا فِي
نَفْعِهِمْ، وَفِي إِمْتَاعِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَسَوْفَ تَكُونُ نَعِيمًا مُقِيمًا خَالِصًا لِلْعَامِلِينَ
الصَّالِحِينَ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

يَا بَيْدَبَا؛ عَلَى الْإِنْسَانِ الصَّالِحِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، أَنْ يَبْدُلَ غَايَةَ جُهْدِهِ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْبِنَاءِ
وَالْإِعْمَارِ وَالتَّسْخِيرِ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ"، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ.

يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ انْتِهَاءَ عَالَمِ الْإِنْسَانِ وَحَضَارَتِهِ، بَعْدَ أَنْ يَكْتَمِلَ مَشْرُوعُهَا، لَا يَعْنِي الْمَوْتَ
وَالْهَلَكَ بِمَعْنَى الْعَدَمِ، وَلَكِنَّهُ "مِيرَاثٌ" يَا بَيْدَبَا؛ حَيْثُ "يَرِثُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا" مِنْ
عَالَمِ الطِّينِ وَالْفَنَاءِ، إِلَى عَالَمِ النُّورِ وَالرُّوحِ وَالْخُلُودِ، وَهَذَا "الْمِيرَاثُ" يَا بَيْدَبَا؛ "مِيرَاثٌ"

مَخْلُوقٌ "مَكْرَمٌ"، وَهُوَ مِيرَاثٌ عَزِيزٌ نَفِيسٌ.

يَا بَيْدَبَا؛ كَمْ مِنَ الْمُؤَلِّمِ أَنْ يُضَيِّعَ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ حَيَاتَهُمْ هَبَاءً بِالتَّقْصِيرِ وَالتَّقَاعُسِ
وَاللَّغْوِ وَالْكَسَلِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، أَوْ أَنَّهُمْ يُضَيِّعُونَهَا بِالسَّعْيِ فِي الْأَرْضِ بِالشَّرِّ وَالسُّوءِ
وَالْفَسَادِ، فَيَضَيِّعُونَ، وَيَضَيِّعُونَ اغْتِنَامَ فُرْصَةِ الْعُمُرِ، بِتَحْقِيقِ سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ؛
لِيَنْدَمُوا بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَلَاتِ سَاعَةِ مَنْدَمٍ.

يَا بَيْدَبَا؛ الْبَشَرُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِهَا أَشْبَهُ مَا يَكُونُونَ بِمَا يُسَمَّى "عُمَالِ التَّرَاخِيلِ"؛
حَيْثُ تَأْتِي بِهِمْ مَرْكَبَاتُ الْأُمُومَةِ وَالْحَيَاةِ إِلَى الدُّنْيَا لِيَقُومُوا بِمَا سَخَرُوا مِنْ أَجَلِهِ، وَفِي نَهَايَةِ
الْيَوْمِ وَأَجَلِ الْحَيَاةِ، تَأْتِي مَرْكَبَةُ الْأَجَلِ وَالْمَوْتِ لِيَعُودُوا إِلَى مُسْتَقَرِّهِمْ وَمَعَهُمْ تَقَارِيرُ
أَدَائِهِمْ، "فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَشَرٌّ".

وَمَعْنَى هَذَا يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ دَوْرَ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، هُوَ مُزَاوَلَةُ الْحَيَاةِ وَتَحْقِيقُ الذَّاتِ
بِأَبْعَادِهَا الْفَرْدِيَّةِ وَالْجَمَاعِيَّةِ، بِالْإِفَادَةِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمَا خُلِقَ لَهُ وَاسْتُخْلِفَ فِيهِ مِنْ
مُقَدَّرَاتِهَا، وَتَنْمِيَّتِهَا وَفَقًّا لِهَدْيِ الرُّوحِ وَنَوَازِعِ الْفِطْرَةِ السُّوْبِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ السُّوْبِيِّ،
لِيَنَالَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ مَشَاعِرَ السَّعَادَةِ وَالرِّضَا وَرَاحَةَ الْبَالِ وَالضَّمِيرِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ،
وَالثِّقَّةِ وَالطَّمَأْنِينَةَ إِلَى حُسْنِ الْمَالِ فِي الْآخِرَةِ.

نَعَمْ؛ لَقَدْ أَحْسَنْتَ يَا بَيْدَبَا، بِسُؤَالِكَ الْحَصِيفِ، لِكَيْ تُوضِّحَ هَذَا الْمَعْنَى الدَّقِيقَ
لِإِخْوَانِكَ وَأَخْوَاتِكَ مِنَ الْحُضُورِ، وَمَنْ سَيَأْتِي بَعْدَهُمْ، مِنَ الْأَجْيَالِ الصَّالِحَةِ، بِإِذْنِ اللَّهِ.
قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ لَقَدْ أَوْضَحْتَ وَأَوْفَيْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَلَيْسَ بَعْدَ مَا قُلْتَهُ مِنْ
حَاجَةٍ عِنْدِي إِلَى مَزِيدٍ، فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا وَعَنْ مُسْتَقْبَلِ أَجْيَالِ الشُّعُوبِ السَّلَامِيَّةِ الْخَيْرَةِ
الْعَامِلَةِ وَالْمُبْدِعَةِ الْمُحْسِنَةِ مِنْ وَرَائِنَا خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

يَقُولُ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا: يُهِمُّنِي وَأَنَا أَقَارِبُ إِنْهَاءَ سَرْدِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَرِوَايَتِهَا، وَمَا سَمِعْتُهُ
وَوَعَيْتُهُ مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ فِيهَا، أَنَّ أَذْكَرَ مَنْ يَقْرَأُهَا بَبَعْضِ أَهَمِّ مَا
تَنَاوَلْنَاهُ مِنَ الْقَضَايَا وَالرُّؤَى وَالْعِظَاتِ وَالْعِبْرَاتِ حَتَّى الْآنَ فِي سَابِقِ لِقَاءِ اتِّنَا بِالشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ
ابْنِ بَطُوطَةَ، وَهُوَ أَنَّ يُدْرِكَ الْإِنْسَانُ أَنَّ مَصْدَرَ الْفِعْلِ وَالْقَرَارِ الَّذِي يُحَدِّدُ حَقًّا مَكَانَةَ
الْأُمَّةِ، وَمَكَانَةَ الْوَطَنِ، وَمَكَانَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى تَرَابِ وَطْنِهِ، وَهَلْ يَكُونُ عَزِيزًا أَوْ ذَلِيلًا؟ أَوْ
سَيَكُونُ مُكْرَمًا سَيِّدًا أَوْ عَبْدًا مُهَانًا؟، وَقَادِرًا أَوْ عَاجِزًا؟، وَهَلْ سَيَكُونُ عَاطِلًا أَوْ عَامِلًا؟
وَمُتَّقَفًا أَوْ جَاهِلًا؟ وَمُبْدِعًا أَوْ مُقْلِدًا؟ الْأَمْرُ الَّذِي يُحَدِّدُ مَكَانَةَ كُلِّ هَؤُلَاءِ فِي عَالَمِ الْأُمَمِ
وَالْحَضَارَاتِ؟ أَنَّ هَذَا الْمَصْدَرَ الَّذِي يُقَرَّرُ هَذَا الْقَرَارَ، هُوَ وَعِي كُلِّ أَبِي وَجْهَدُهُ، وَرِعَايَةُ كُلِّ
أُمَّ وَرِعَايَتِهَا وَحَنَانِهَا، وَكَيْفَ يُرَبُّونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَأَيُّ نَوْعٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ يَكُونُونَ؛ وَكَمَا يَقُولُ

الْمَثَلُ الْحَكِيمُ "مَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ" وَ"كَمَا تَكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيْكُمْ"، وَ"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطْوَيْطَةَ فِي هَذَا الشَّانِ: يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّهُ لَا يَكْفِي الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ وَرُؤْيَةُ الْعَقْلِ لِتَحْرِيكِ الْفِعْلِ فِي النُّفُوسِ مَا لَمْ يُوَافِقِ الْعِلْمُ وَالْعَقْلُ طَبَعَ النَّفْسِ وَطَبِيعَةَ الْوَجْدَانِ، وَإِلَّا كَانَ الْعِلْمُ، وَكَانَتِ الْمَعْرِفَةُ، مُجَرَّدَ قَوْلٍ لَا يَتَّبَعُهُ فِعْلٌ، وَلَغَوًّا لَا يُسَاوِي قِيَمَةَ الْمِدَادِ الَّذِي يُسَطِّرُهُ، فَتَرَى الْقَائِلَ يَعْلَمُ الصَّوَابَ وَلَا يَفْعَلُهُ، وَيَعْلَمُ الْخَطَأَ وَيُصِرُّ عَلَى فِعْلِهِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ طَبَعَ النَّفْسِ وَالْوَجْدَانِ لَدَيْهِ لَمْ يُوَافِقْ مَطَالِبَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ.

مِنْ هُنَا يَا بَيْدَبَا؛ تَأْتِي أَهْمِيَّةُ التَّرْبِيَةِ وَبِنَاءِ الْوَجْدَانِ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ وَالشُّعُوبِ؛ لِأَنَّهُمَا أَسَاسُ الْإِرَادَةِ وَالْفِعْلِ فِي كَيَانَ الْإِنْسَانِ، وَأَدَاةُ تَفْعِيلِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ فِي حَيَاتِهِ.

عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ يَقْرَأُوا وَيَتَعَلَّمُوا وَيَتَدَبَّرُوا كَيْفَ يُرَبُّونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَأَنْ يَتَلَفُوا فِي تَرْبِيَتِهِمْ مَا فَاتَ فِي تَرْبِيَةِ أَنْفُسِهِمْ، فَلَيْسَ هُنَاكَ فِي الْعَالَمِ مِنْ قُوَّةِ تَأْثِيرٍ فِي تَكْوِينِ إِرَادَةِ الْأَطْفَالِ وَوَجْدَانِهِمْ، أَشَدَّ مِنْ قُوَّةِ تَأْثِيرِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ عَلَى أَطْفَالِهِمْ، وَلِلْأَبَاءِ وَلَا شَكَّ دَوْرٌ فِي التَّعْلِيمِ أَيْضًا، وَلَكِنَّهُ فَقَطْ دَوْرٌ دَاعِمٌ لِلْمَدْرَسَةِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيبِ، وَالْمَدْرَسَةُ يَا بَيْدَبَا هِيَ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيبِ، وَدَوْرُهَا فِي التَّرْبِيَةِ وَتَكْوِينِ الْإِرَادَةِ وَالْوَجْدَانِ

وَهُوَ أَيْضًا مُجَرَّدُ دَوْرٍ دَاعِمٍ لِدَوْرِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْخَطِيرِ فِي بِنَاءِ وَجْدَانِ
الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَا يَكُونُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ بَدِيلًا عَنْهُ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ الْأَبَاءُ فَسَادَ
تَرْبِيَةَ الْأَبْنَاءِ، وَتَشْوِيَهُ وَجْدَانِهِمْ؛ بِتَرْكِهِمْ تَحْتَ تَأْثِيرِ كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ مِنَ الْأَصْحَابِ
وَالرِّفَاقِ، وَلِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُونَ وَيُشَاهِدُونَ مِنْ مُرَوِّجِي تِجَارَاتِ الرِّذَائِلِ، أَوْ لِأَصْحَابِ
الْأَغْرَاضِ وَالْأَهْوَاءِ؛ الَّذِينَ لَا يَكْلُونُ فِي الْإِفْسَادِ وَالنَّعِيقِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْفَضَائِلِ، أَوْ لِكُلِّ
مَنْ يَلْقَوْنَ مِنَ الْفَاسِدِينَ وَالْمُفْسِدِينَ بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ فِي النُّوَادِي وَالطَّرُقَاتِ.

يُضِيفُ الْحَكِيمُ بَيِّنَاتٍ نَصِيحَةً خَيْرَةً لِمَنْ يَقْرَأُ مَا سَطَرَ قَلَمُهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَتِلْكَ
النَّصِيحَةُ هِيَ أَلَّا يَغِيبَ عَنِ بَالِ الْقَارِي، وَعَنِ بَالِ كُلِّ مُوَاطِنٍ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ، أَهْمِيَّةُ
الْمُؤَسَّسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ السَّتِّ الْمُنْتَخَبَةِ الْمُسْتَقْلَةِ؛ الَّتِي أَعْطَتْ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ
وَذَلِكَ الْوَادِي مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ رِفَاهٍ وَأَمْنٍ وَسَلَامٍ، وَأَنْ يَبْقَى دَائِمًا فِي بُورَةٍ وَعَمِيهِمْ وَاهْتِمَامِهِمْ
الْحِرْصُ عَلَى أَنْ يُعْمَلُوا جُهْدَهُمْ لِبِنَاءِ مِثْلِ تِلْكَ الْمُؤَسَّسَاتِ فِي أُمَّمِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، فَلَا يَكُونُ
فَرْدٌ مِنْ دُونِ أُمَّةٍ وَجَمَاعَةٍ، وَلَا تَكُونُ أُمَّةٌ وَلَا جَمَاعَةٌ مِنْ دُونِ فَرْدٍ وَمُوَاطِنٍ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ
لَيْسَ تَجَاوُزًا أَنْ يَأْتِيَ خِطَابُ الْفَرْدِ جَمَاعَةً، وَخِطَابُ الْجَمَاعَةِ فَرْدًا، لِأَنَّهُ لَا فَرْدٌ مِنْ دُونِ
جَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةٌ مِنْ دُونِ أَفْرَادٍ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَجُودًا وَكِيَانًا وَمَصْلَحَةً وَمَصِيرًا،

وَالْأَهْلَكُوا أَوْ أَصْبَحُوا أَشْبَاحًا مَمْسُوخِي الْهَيُوءِ وَالْغَايَةِ وَالْوُجُودِ، أَمَا هَذِهِ الْمُؤَسَّسَاتُ
الْمُسْتَقِلَّةُ السِّتُ فِهِي:

١- مُؤَسَّسَاتُ الدِّينِ وَالْقِيَمِ؛ الَّتِي تَبْنِي وَجْدَانَ الْأُمَّةِ، وَالَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ ضَمِيرِ الْأُمَّةِ، وَالَّتِي
تَنْشُرُ بِكُلِّ الْحُرِّيَّةِ الدَّعْوَةَ إِلَى الْخَيْرِ، وَتُعَلِّي شَأْنَ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ، وَتَسْهَرُ عَلَى
تَعْلِيمِهَا وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهَا (١) دُونَ تَدْخُلِ أَوْ تَسَلُّطِ مِنْ قِبَلِ سُلْطَاتِ الْحُكْمِ فِي الدَّوْلَةِ.

٢- مُؤَسَّسَاتُ الْإِعْلَامِ الشَّعْبِيِّ؛ الَّتِي تُنَمِّي الْوَعْيَ، وَتُصَدِّقُ الْخَبَرَ، وَتُرَشِّدُ الْقَرَارَ.

٣- مُؤَسَّسَةُ مَجْلِسِ الشُّورَى وَالتَّشْرِيْعِ؛ الَّتِي تُصَدِّرُ عَنِ اقْتِنَاعَاتِ الْأُمَّةِ وَمُوَاطِنِهَا
الْقَوَانِينَ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ قِيَمِ الْأُمَّةِ وَمَبَادِيئِهَا وَمَقَاصِدِهَا، وَالَّتِي تُهْدِي مَسَارَ الْعَمَلِ، وَتُرْسِي
مَقَايِيْسَهُ وَضَوَابِطَهُ بِالتَّوَافُقِ مَعَ انْتِمَاءَاتِ الْمُوَاطِنِينَ كَافَّةً، وَمَعَ مُخْتَلَفِ مَصَالِحِهِمْ؛
مِنْ مُنْطَلَقِ احْتِرَامِ إِنْسَانِيَّتِهِمْ وَخُصُوصِيَّاتِهِمْ؛ فَيَكُونُ مِنْهَا مَا يَعْمُ، وَيَكُونُ مِنْهَا مَا يَخْصُ،
وَيَكُونُ مِنْهَا مَا يَدُومُ، وَيَكُونُ مِنْهَا مَا يَنْقُضِي لِحَالٍ أَوْ أَجَلٍ (٢).

٤- مُؤَسَّسَةُ التَّنْفِيْذِ؛ الَّتِي تُخَطِّطُ الْعَمَلَ وَتَرْعَى الْمَصَالِحَ وَتَسْهَرُ عَلَى تَأْمِينِ السَّلَامِ
وَالْأَمْنِ، وَتُدَلِّلُ الْعَقَبَاتِ، وَتُوَفِّرُ الْحَاجَاتِ.

٥- مُؤَسَّسَةُ هَيْئَةِ الْقَضَاءِ؛ الَّتِي تُقِيمُ دَوْلَةَ الْقَانُونِ، وَتُحِقُّ الْحُقُوقَ، وَتُرْسِي الْمُسَاوَاةَ،

وَتَحْمِي الْعَدَالَةَ.

(١) الملحق التوضيحي الأول

(٢) الملحق التوضيحي الثاني

٦- مَوْسَسَةٌ مَجْلِسِ صِيَانَةِ الدُّسْتُورِ وَسَلَامَةِ أَدَاءِ مَوْسَسَاتِ النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ؛ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الحَارِسِ، وَالَّتِي تُرَاقِبُ أَدَاءَ المَوْسَسَاتِ وَمَدَى التِّزَامِهَا بِمَهَامِهَا وَبِرَامِجِهَا؛ فَتُسَدِّدُ المَسِيرَةَ وَتَمْنَعُ التَّعَدِّيَاتِ.

فَهَذِهِ المَوْسَسَاتُ هِيَ سُلْطَاتٌ وَمَوْسَسَاتٌ مُسْتَقْلِلَةٌ يَنْتَخِبُهَا الشَّعْبُ مِنَ المَوْهَلِينَ الثِّقَاتِ، وَتَكُونُ مُتَعَاوِنَةً فِيمَا بَيْنَهَا، وَيَدْعَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَلَكِنْ لَا تَجْمَعُهَا يَدٌ وَاحِدَةٌ، بَلْ تَتَكَامَلُ فِي مَجْمُوعِهَا؛ لِتَلْبِي بِفَاعِلِيَّةٍ حَاجَاتِ المُجْتَمَعِ، وَمَشَارِكِهِ، وَتُعْلِي الحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالمُسَاوَاةَ وَالتَّكَاوُلَ فِي المُجْتَمَعِ، وَتَحْتَرِمُ التَّعَدُّدَ وَالمُخَصُّوصِيَّاتِ، وَتَمْنَعُ الإِسْتِبْدَادَ وَالتَّعَدِّيَّاتِ، وَتَحْمِي مِنَ الفَسَادِ وَالمَظَالِمِ، وَهِيَ أَمْرَاضٌ تُعَانِيهَا لِلأَسْفِ -عَلَى غَيْرِ مَا تَدَّعِي- كَثِيرٌ مِنَ البِلَادِ وَالمُجْتَمَعَاتِ، فَلَا تَغِشُّ بِذَلِكَ إِلا نَفْسَهَا، وَلَا تُسَهِّلُ إِلا أَطْمَاعَ المُنْتَرِبِينَ بِهَا. يَقُولُ الشَّيْخُ: وَاعْلَمْ يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ فَشَلِّ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ فِيمَا مَضَى عَلَى الرِّغْمِ مِنَ سُمُورِ عَقَائِدِهَا، وَنُبُلِ مَقَاصِدِهَا، وَبِرَغْمِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهَا مِنْ ذِكْرٍ وَدَلِيلٍ هِدَايَةٍ- أَنَّ مَوْرُوثَاتِهَا القَبَلِيَّةَ وَالمُؤَثِّبَةَ البِدَائِيَّةَ، وَالمُؤَثِّبَةَ الشُّعُوبِيَّةَ الإِسْتِبْدَادِيَّةَ، لَمْ تَمَكِّنْهَا مِنْ بِنَاءِ المَوْسَسَاتِ الَّتِي مِنْ دُونِهَا لَا يَسْتَقِرُّ بُنْيَانٌ، وَلَا يَبْقَى غَرْسٌ، وَلِذَلِكَ سَهَّلَ فِي بِلَادِهَا وَبَيْنَ شُعُوبِهَا انْحِرَافَ الرُّؤْيَا وَتَشَوُّهُ مَنَاهِجِ الفِكْرِ، وَأَنْتَهَى عُمُرَانَهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَى الوَهْنِ وَالمُضْيَاعِ.

البشر أغبى من البقر

يَقُولُ بَيْدَبَا: نَعَمْ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَعْلَمَ جَمِيعًا، وَيَعْلَمَ كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، أَنَّ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ ابْنَ بَطُوطَةَ، قَدْ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ وَنُصِحِهِ؛ مِنْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْمَوْسَسَاتِ السِّتِّ؛ لِبِنَاءِ مُجْتَمَعِ الْعَدْلِ وَالتَّكَاثُلِ وَالسَّلَامِ فِي آيَةِ أُمَّةٍ، وَلَا بُدَّ مِنْهَا لِلْقَضَاءِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْعُدْوَانِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَى الْأَنْكَرِ أَخْطَاءَ الْعُصُورِ السَّالِفَةِ؛ بِالتَّقْصِيرِ فِي إِتْقَانِ بِنَاءِ مَوْسَسَاتِ الْحُكْمِ، وَإِدَارَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَاسْتِدَامَتِهَا عَلَى أَسَاسِ الرُّؤْيَةِ وَالْفِكْرِ الصَّحِيحِ لِلْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا يُسَاعِدُ عَلَى اسْتِقْرَارِ الْمُجْتَمَعَاتِ، الْإِهْتِمَامَ بِبِنَاءِ الْمَوْسَسَاتِ، وَإِتْقَانَ هَذَا الْبِنَاءِ وَتَطْوِيرَهُ وَصِيَانَتَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي عِلَاقَاتِ الْمُجْتَمَعِ الدَّاخِلِيَّةِ فَقَطْ؛ بَلْ فِي عِلَاقَاتِهِ الْخَارِجِيَّةِ أَيْضًا.

نَعَمْ هُنَاكَ -كَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ- مُجْتَمَعَاتٌ وَشُعُوبٌ مُنْطَلَقَاتُهَا الْمَوْرُوثَةُ فِي مُدَوَّنَاتِهَا الْمَحْفُوظَةِ، هِيَ مُنْطَلَقَاتُ رُوحِيَّةٍ أَسْمَى وَأَرْقَى مِنْ سِوَاهَا، وَلَكِنْ لِأَنَّهَا تَرَكَّتْهَا حُرُوفًا عَلَى وَرَقٍ، وَلَمْ تَبْنِ الْمَوْسَسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ، أَوْ تَطَوَّرَهَا، لِتَكُونَ قُوَّةً فَاعِلَةً مُنْظَمَةً لِمَسِيرَةِ الْمُجْتَمَعِ وَمُجَسِّدَةً لِتِلْكَ الْمُنْطَلَقَاتِ وَالْغَايَاتِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ؛ لِذَلِكَ لَمْ تَنْفَعْهَا تِلْكَ الْمُنْطَلَقَاتُ وَالْمَفَاهِيمُ وَالْمَوْرُوثَاتُ -إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ- فِي شَيْءٍ، وَهِيَ فِي

ذَلِكَ عَلَى غَيْرِ حَالِ الشُّعُوبِ الَّتِي اهْتَمَّتْ بِنِئَانِ الْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تُفَعِّلُ الْمُنْطَلَقَاتِ
وَالْمَفَاهِيمَ، الَّتِي تُعْبِرُ عَنْ رُؤَاهَا وَتَطْوُرُهَا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْحِطَاطِ الْكَثِيرِ مِنْ مُنْطَلَقَاتِهَا
الْمَادِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهَا قَدْ تَمَكَّنَتْ بِذَلِكَ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا، فِي الْقُوَّةِ وَالْفَاعِلِيَّةِ
وَاسْتِقْرَارِ مُجْتَمَعَاتِهَا، فَحَقَّقَتْ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الرِّقَابَةِ وَالْإِنْضِبَاطِ، وَمُرَاعَاةِ إِرَادَةِ جُمْهُورِ
شُعُوبِهَا، وَالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ فِي إِدَارَةِ مُجْتَمَعَاتِهَا.

إِنَّ مَثَلَ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْمَادِيَّةِ بِسَبَبِ وُضُوحِ رُؤْيَتِهَا، وَعِلَاقَةِ ذَلِكَ بِقِيَمِهَا
وَمَفَاهِيمِهَا وَمَبَادِيئِهَا، مَثَلٌ مَنْ لَدَيْهِ "سَيَّارَةٌ" كَامِلَةٌ الْعُدَّةُ جَيِّدَةُ الْبِنَاءِ، لَا تَتَخَلَّفُ فِي
خِدْمَتِهِ وَحَمْلِ أَثْقَالِهِ، وَمَثَلُ الْمُجْتَمَعَاتِ وَالْأُمَّمِ الْمَشُوْهَةِ الرُّؤْيَةَ الْعَاجِزَةَ الْمَحْرُومَةَ،
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ثِرَاءِ تَرَاثِمِهَا بِالْقِيَمِ وَالْمَفَاهِيمِ وَالْمُنْطَلَقَاتِ الْقِيَمَةِ السَّامِيَةِ، مَثَلٌ مَنْ لَدَيْهِ
"سَيَّارَةٌ" أَوْ عَرَبَةٌ جَيِّدَةُ النُّوعِ، وَلَكِنَّهَا مُفَكِّكَةٌ إِلَى قِطْعٍ وَأَوْصَالٍ لَا يَجْمَعُهَا كَيَانٌ، وَلِذَلِكَ
تُصْبِحُ قِيَمَتُهَا وَمَفَاهِيمُهَا وَمُنْطَلَقَاتُهَا وَمَبَادِيئُهَا مِثْلَ قِطْعِ تِلْكَ "السَّيَّارَةِ" أَوْ الْعَرَبَةِ، عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ لَهَا فِي ذَاتِهَا قِيَمَةً ثَمِينَةً، وَهِيَ قِطْعٌ مُفَكِّكَةٌ عَلَى الرُّفُوفِ لَا نَفْعَ مِنْهَا، وَلَا
اسْتِعْمَالَ لَهَا، فِي حَيَاةِ صَاحِبِهَا، وَسَتَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مَا دَامَتْ قِطْعًا مَحْفُوظَةً عَلَى
الرُّفُوفِ، لَا يُغَيِّرُ مِنْ ذَلِكَ تَعَلُّقَهُ بِهَا، وَإِعْزَازَهُ لَهَا، لِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَعْمِلَهَا، وَلَنْ يُفِيدَ مِنْهَا، وَهِيَ



وَفِي التَّنَاحُرِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّمَرُّقِ. فَلَا جَمْعُهَا كَلِمَةٌ. وَلَا تَرْبُطُ بَيْنَ أَبْنَائِهَا مَصْلَحَةٌ

عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِلَّا إِذَا جَمَعَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، بِرُؤْيَا سَلِيمَةٍ، وَكَيَانٍ كُلِّيٍّ مُتَكَامِلٍ؛ تُصْبِحُ
الْقِيَمُ وَالْمَفَاهِيمُ وَالْمَبَادِيُ وَالْمُنْطَلَقَاتُ وَسِيْلَةً فَعَالَةً مُجَسَّدَةً عَامِلَةً، لَهَا فَائِدَتُهَا
وَاسْتِعْمَالَاتُهَا، فِي كَيَانِهَا الْكُلِّيِّ الْمُتَكَامِلِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: لَقَدْ رَأَيْتُ بِنَفْسِي -وَكَمَا رَأَى الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوْطَةَ مِثْلِي- عَجَبًا، كَيْفَ أَنَّ
الْأُمَّةَ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْ مَفْهُومٍ وَحَدِّهِ الْإِنْسَانِ، وَتَرَاحِمِهِ، وَحَقِّهِ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالْخِيَارِ،
تَنْتَهِي -بِسَبَبِ تَشَوُّهِ رُؤْيَيْهَا، وَعَدَمِ اهْتِمَامِهَا بِبِنَاءِ الْمَوْسَّسَاتِ الَّتِي تُجَلِّي الرُّؤْيَا
وَتُفَعِّلُ الْمُنْطَلَقَاتِ وَالْمَفَاهِيمَ، وَتُحَوِّلُهَا إِلَى أَمْرٍ وَّاقِعٍ، وَقُوَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ فَاعِلَةٍ- إِلَى أَنْ
تُصْبِحَ، عَلَى غَيْرِ حَالٍ مِثْلِيَّاتِهَا مِنَ الْأُمَّمِ الْكُبْرَى، أُمَّةٌ يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ، فِي الْفَقْرِ
وَالْجَهْلِ وَالضَّعْفِ وَالتَّخَلُّفِ وَضَيَاعِ الْحُقُوقِ وَسُوءِ الْإِدَارَةِ، وَفِي الْإِسْتِبْدَادِ
وَالْفَسَادِ، وَفِي التَّنَاحُرِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّمَرُّقِ، فَلَا تَجْمَعُهَا كَلِمَةٌ، وَلَا تَرْتَبُطُ بَيْنَ أَبْنَائِهَا
مَصْلَحَةٌ، وَلَا يُؤَلَّفُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ رَحِمٌ وَلَا دِينٌ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: وَعَلَى الصَّعِيدِ الْآخِرِ، نَجِدُ أُمَّةً أُخْرَى مِنَ الْكَوَاسِرِ؛ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْ
مَفْهُومِ الصِّرَاعِ وَالْمَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ، وَمِنْ مَفْهُومِ عُنْصُرِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، وَتَمَائِزِ الْبَشَرِ، وَبِنَاءِ
الْهَوِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى الْإِخْتِلَافِ وَالْفُرُوقَاتِ فِي الْجِنْسِ وَاللَّوْنِ وَاللُّغَةِ، تَنْجَحُ، بِسَبَبِ

وَضُوحُ رُؤْيَيْهَا الْمَادِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَبِنَاءِ مُؤَسَّسَاتِهَا، فِي تَوْحِيدِ شُعُوبِهَا، وَتَفْعِيلِ طَاقَاتِهَا،
 وَفِي بِنَاءِ مُؤَسَّسَاتِ نُظْمِ عَالَمِيَّةٍ، يُسَمُّونَهَا تَارَةً "عُصْبَةً"، وَيَنْعَتُونَهَا تَارَةً "مُتَّحِدَةً"،
 وَيَدْعُونَ أَنَّهَا مُنْظَمَاتٌ تَهْدِفُ إِلَى إِرْسَاءِ السَّلَامِ الْعَالَمِيِّ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الصِّرَاعَاتِ
 وَالْمَظَالِمِ وَالْحُرُوبِ بَيْنَ الشُّعُوبِ؛ وَلَكِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ لَمْ تَقُمْ إِلَّا يَهْدَفِ الْمَكَاسِبِ وَالسَّيْطَرَةَ
 وَالْهَيْمَنَةَ لِلْقَوَى الْكُبْرَى؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْحُرُوبُ وَالْمَظَالِمُ الدَّوْلِيَّةُ، الَّتِي هِيَ مِنْ صُنْعِ هَذِهِ
 الدُّوَلِ، وَبِأَسْلِحَةٍ مِنْ اخْتِرَاعَاتِهَا، وَإِنْتِاجِ مَصَانِعِهَا، هِيَ الْيَوْمَ أَشَدَّ فِظَاعَةً، وَأَكْثَرَفْتَكًا،
 وَعَدَدًا، مِنْ أَيِّ عَصْرِ مَضَى؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ الْحَقِيقِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، الَّتِي
 تُقِيمُهَا هَذِهِ الشُّعُوبُ وَالدُّوَلُ، إِنَّمَا هِيَ تَحْقِيقُ سِيَادَتِهَا وَتَسَلُّطِهَا وَسَيْطَرَتِهَا الْكُونِيَّةِ،
 وَحِمَايَةَ نَفْسِهَا وَدَوْلِهَا مِنَ الدُّخُولِ فِي حُرُوبٍ لَا تَقْصِدُهَا، وَلَا مَصْلِحَةَ لَهَا فِيهَا، فَهِيَ بِهَذِهِ
 الْمُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلِيَّةِ تَكُونُ قَدْ حَقَّقَتْ غَايَاتِهَا وَمَصَالِحَهَا بِأَبْسَطِ التَّكَالِيفِ وَأَقْلَلِ
 الْخَسَائِرِ، وَيَسَّرَتْ تَحْقِيقَ مَكَاسِبِهَا وَهَيْمَنَتِهَا، وَلَمْ تَبْقِ بِلَادَهَا حَطَبَ الْحُرُوبِ، وَلَكِنَّهَا هِيَ
 الْبِلَادُ الَّتِي تُشْعَلُ بَيْنَ فَرَائِسِهَا وَضَحَايَاهَا الصِّرَاعَاتِ وَالْحُرُوبِ؛ وَهَذَا مَا يُمْكِنُهَا مِنْ دُونَ
 كَبِيرِ عَنَاءٍ، مِنْ نَهَبِ الْكَثِيرِ مِنْ ثَرَوَاتِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ الضَّعِيفَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ،
 وَبِأَقْلَلِ التَّكَالِيفِ وَأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ.

لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُمَكِّنِ كَمَا يَرْوِي بَيْدَبَا عَنِ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ أَنْ يَسُودَ مَفْهُومُ الْعَدْلِ وَالشُّورَى، وَمَفْهُومُ الْإِحَاءِ وَالسَّلَامِ، فِي الْعَالَمِ لَوْ أَنَّ الشُّعُوبَ -الَّتِي تُبَاهِي بِإِدْعَاءِ الْإِيمَانِ بِمُوروثِهَا الثَّمِينِ مِنَ الْقِيَمِ وَالْغَايَاتِ- بَادَرَتْ فِي عُهُودِ ازْدَهَارِهَا وَقُدْرَتِهَا، إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى سَلَامَةِ رُؤْيَتِهَا وَوُضُوحِهَا، وَإِلَى إِقَامَةِ الْمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تُفَعِّلُ تِلْكَ الرُّؤْيَةَ وَالْقِيَمَ وَالْغَايَاتِ، وَلَمْ تُبْقِهَا مُجَرَّدَ مَزَقٍ مِنْ رُؤْيَةٍ وَفِكْرٍ وَفَلَسَفَةٍ وَشِعَارَاتٍ مُفَكَّكَةٍ مُبَعَثَرَةٍ فِي طِيَّاتِ الْكُتُبِ وَخُطْبِ الْمَنَابِرِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: لَقَدْ كَانَتْ جَلَسَةُ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ إِلَيْنَا، وَحَدِيثُهُ مَعَنَا؛ بِشَأْنِ الرُّؤْيَةِ الْكُونِيَّةِ لِلْأُمَّمِ، وَأَهْمِيَّةِ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَأَهْمِيَّةِ التَّعَاوُنِ، وَأَهْمِيَّةِ عَمَلِ الْفَرِيقِ فِي تَحْرِيكِ طَاقَاتِ الْأُمَّمِ وَتَفْعِيلِهَا، مِنْ أَهَمِّ الْجَلَسَاتِ، وَمِنْ أَهَمِّ أَحَادِيثِهِ إِلَيْنَا.

يَقُولُ بَيْدَبَا: لَقَدْ كَانَ يَوْمًا بَارِدًا مَاطِرًا، وَقَدْ أَكْرَمَنَا الشَّيْخُ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا -إِلَى جَانِبِ عِلْمِهِ وَنُصْحِهِ، وَحُبِّهِ وَحُسْنِ اسْتِقْبَالِهِ، وَلُطْفِ مَعَشَرِهِ وَبَشَاشَةِ وَجْهِهِ- كَالْمُعْتَادِ بِكَثِيرٍ مِنْ عَصِيرِ التَّمْرِ، وَكَثِيرٍ مِنَ اللَّبَنِ وَالشَّرَابِ السَّاخِنِ؛ الَّذِي بَعَثَ الدِّفْءَ فِي قُلُوبِنَا، إِنَّ قِطَّةَ الشَّيْخِ كَانَتْ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَشَدَّ حَفَاوَةً بِنَا فَكَانَتْ تَمُرُّ فِي أَلْفَةٍ وَمَوَدَّةٍ بَيْنَ صُفُوفِنَا، كَرِيمَةً فِي تَمَسُّجِهَا بِفَرُوحِهَا النَّاعِمِ بِأَيْدِينَا، عَدَا جَفَوَتِهَا وَنَظَرَاتِهَا الْحَادَّةِ نَحْوَ الْبَحَارِ

مَسْعُودِ الَّذِي أَصْبَحَ ظِلًّا لِلشَّيْخِ لَا يُفَارِقُهُ، وَالَّذِي كَانَتْ قِطْعَةُ الشَّيْخِ لَا تَأْلُو جَهْدًا فِي إِظْهَارِ اسْتِيَاءِهَا مِنْهُ، فَكَانَتْ تُكْشِرُ عَنْ أَنْبِيَائها عِنْدَ الْاِقْتِرَابِ مِنْهُ وَالنَّظْرِ إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ رَائِحَةَ مِنْهُ تَسْتَثِيرُهَا، أَوْ كَأَنَّهَا تَغَارُ مِنْهُ لِمُلَازِمَتِهِ الشَّيْخَ فِي مَجَالِسِهِ وَرَوْحَاتِهِ وَغُدُواتِهِ، عَلَى أَيِّ حَالٍ فَإِنَّ مَا لَقِينَاهُ مِنْ كَرَمٍ وَحَفَاوَةٍ أَزَالَ مَا أَصَابَ نُفُوسَنَا مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ فَأَقْبَلْنَا عَلَى الْاِسْتِمَاعِ إِلَى الشَّيْخِ مُجَدِّدًا بِقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ، وَأَذَانٍ مُصْغِيَةٍ.

بَدَأَ الشَّيْخُ ابْنَ بَطُوطَةَ حَدِيثَهُ قَائِلًا يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ بِنَاءَ الْمُؤَسَّسَاتِ لَتَفْعِيلٌ رُؤَى الْأُمَمِ، وَتَحْقِيقٌ مَقَاصِدِهَا، هُوَ الضَّمَانُ لِلْفَاعِلِيَّةِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالِاسْتِمْرَارِيَّةِ عِنْدَ الشُّعُوبِ، وَإِذَا وُجِدَتْ دُولٌ وَقِيَادَاتٌ فِي أَيِّ دَوْلَةٍ تَسْتَعْصِي عَلَى بِنَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ، بِالْأَسْلُوبِ الصَّحِيحِ، فَلَنَعْلَمَ أَنَّ دَوَافِعَهَا لَيْسَتْ إِلَّا الْمَفَاسِدُ وَالْمَطَامِعُ الشَّخْصِيَّةُ، لِالِاسْتِثْنَاءِ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ بِالسُّلْطَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْاِسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ، وَأَنَّ مَالَ دَوْلِهَا وَشُعُوبِهَا إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّمَرُّقِ وَالضَّيَاعِ.

إِنَّ مَفْهُومَ الْمُؤَسَّسَاتِ يَا بَيْدَبَا؛ فِي هَذَا الزَّمَانِ، لَمْ يَبْقَ أَمْرٌ خِيَارٍ؛ بَلْ أَصْبَحَ هُوَ ذَاتُهُ بِنِيَّةً أَسَاسِيَّةً فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَرَاجِلِ الْحَضَارَةِ وَالْعُمُرَانِ الْإِنْسَانِيِّ، لِانْجَاحِ وَلَا تَقَدُّمِ لِأَيَّةِ أُمَّةٍ أَوْ شَعْبٍ أَوْ دَوْلَةٍ مِنْ دُونِهَا.

لَمْ تَبْقَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَا بَيْدَبَا؛ قَبَائِلَ وَجَمَاعَاتٍ مُنْفَصِلَةً مَعزُولَةً مُتَبَاعِدَةً، وَلَمْ تَبْقَ الْقُدْرَاتُ وَالْمَهَارَاتُ وَالْبُطُولَاتُ، قَضَايَا فَرْدِيَّةً وَعَنْتَرِيَّةً بَسِيطَةً، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْظَمَتُهَا وَعُلُومُهَا وَمَعَارِفُهَا وَتَقْنِيَّاتُهَا وَإِنْتَاجُهَا وَكَيَانَاتُهَا، أَصْبَحَتْ عَالَمًا مُتَّسِعًا مُتَشَابِكَ الْكَيَانَاتِ وَالْعَلَاقَاتِ وَالْمَصَالِحِ، وَأَصْبَحَتْ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ وَفِكْرُهُ وَإِنْتَاجُهُ وَعُمْرَانُهُ، وَالْمَرْحَلَةُ الَّتِي بَلَغَهَا الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ، مُرَكَّبَاتٍ وَتَفَاعُلَاتٍ مُعَقَّدَةً؛ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَلَا يَقُومُ بِتَبِعَاتِهَا الْعَامِلُونَ فَرَادَى؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَكَاتَفُوا، وَيَتَعَاوَنُوا عَلَى اخْتِلَافِ مَهَامِهِمْ وَتَخَصُّصَاتِهِمْ فِي فِرَقِ عَمَلٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ فِكْرٍ وَتَنْظِيمٍ وَإِدَارَةٍ وَإِنْتَاجٍ، مَهْمَا تَمَيَّزَ الْأَفْرَادُ فِي الْقُدْرَاتِ وَالْعَطَاءِ.

يَا بَيْدَبَا؛ هَذَا الْعَصْرُ إِلَى جَانِبِ مُؤَسَّسَاتِ الْحُكْمِ وَالْإِدَارَةِ، هُوَ عَصْرُ الْمُؤَسَّسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْإِنْتَاجِيَّةِ، فَلَمْ تَبْقَ التِّجَارَةُ دُكَّانَةً فِي حَارَةٍ، وَلَا حِمْلٌ بَعِيرٍ فِي قَرْيَةٍ؛ بَلْ أَصْبَحَتْ مُؤَسَّسَاتٍ وَشَرِكَاتٍ كَبِيرَةً، لَا تَقْتَصِرُ فِي نُمُوهَا عَلَى الْبَلَدِ الْوَاحِدِ، بَلْ أَخَذَتْ نَشَاطَاتُهَا تَعْبُرُ الْقَارَاتِ.

وَلَمْ يَبْقَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ - فِي زَخْمِهِمَا الْعِلْمِيِّ الْمُتَخَصِّصِ الْمُتَعَمِّقِ يَا بَيْدَبَا - مُجَرَّدَ تَأْمَلَاتِ أَفْرَادٍ بَيْنَ أَكْدَاسٍ مِنَ الْكُتُبِ، فِي صَوَامِعِ النَّسَاكِ؛ بَلْ هِيَ مُؤَسَّسَاتٌ عِلْمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ،

وَمَعَامِلُ بَحْثٍ عَلَيَّ هَائِلَةٌ، يَتَخَصَّصُ فِيهَا أُلُوفُ الْعَامِلِينَ، وَيَلْمَعُ فِيهَا نُجُومُ الْعَبَاقِرَةِ
الْجَادِينَ الْمُبْدِعِينَ، فَهُمْ يَتَعَاوَنُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى بِنَاءِ تَرَكَيبِ هَائِلَةٍ، وَتَخَصُّصَاتٍ
مُعَقَّدَةٍ، مِنَ الْإِبْدَاعَاتِ، وَالْإِخْتِرَاعَاتِ، وَالْآلَاتِ الَّتِي تَمَلَأُ الْأَرْضَ، وَتَجُوبُ قَاعَ الْبِحَارِ،
وَتَبْلُغُ عَنَانَ السَّمَاءِ.

وَأَنْتَ يَا بَيْدَبَا؛ تَعْلَمُ وَتَرَى، كَيْفَ أَصْبَحَتِ الْمُنْتَجَاتُ، مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالتَّعْقِيدِ، مَا
مَكَّنَ مِنْ تَوْفِيرِ حَاجَاتِ الْمَلَائِكِينَ وَالْبَلَائِينَ مِنَ الْبَشَرِ؛ وَذَلِكَ بِتَيْسِيرِ نَوَامِيسِ الْخَلْقِ،
وَقَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ، فِي تَحْوِيلِ الْمَوَارِدِ وَتَحْوِيرِهَا، وَفِي إِنتَاجِ الْآلَاتِ وَالطَّاقَاتِ
الصَّنَاعِيَّةِ الْهَائِلَةِ، إِنَّ الْمَصْنَعِ الْوَاحِدَ مِنْ مَصَانِعِهَا، يَضُمُّ أُلُوفَ الْبَشَرِ، وَتَنْتَهِي إِلَى
مُؤَسَّسَاتِهَا، الَّتِي تَمْتَدُّ مِثْلَ أَذْرُعِ الْأَخْطُبُوطِ، عَلَى مَدَى بِلَادِ الْعَالَمِ، مِثْلَ الْأُلُوفِ مِنَ
الْعَامِلِينَ.

يَا بَيْدَبَا حَذِرْ- أَنْتَ وَإِخْوَتِكَ- شَبَابَ الْأُمَّمِ الْمُتَخَلِّفَةِ وَقَوَادِمِهَا، وَأَنْذِرْهُمْ، أَنْ يُدْرِكُوا
طَبِيعَةَ الزَّمَانِ الَّذِي يَعِيشُونَهُ، وَالْمَرَحَلَةَ الْحَضَارِيَّةَ الَّتِي بَلَغَتْهَا إِنْسَانِيَّتُهُمْ، وَأَنْ
يَدْخُلُوا بِكُلِّ قُوَّتِهِمْ، عَصْرَ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَالْإِبْدَاعَاتِ، وَالْوَحْدَةِ، وَالتَّعَاوُنِ، فِي كُلِّ
مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ؛ حَيْثُ تَتَمَيَّزُ الشُّعُوبُ وَالْأُمَّمُ وَالِدُّوَلُ، وَحَيْثُ يَتَمَيَّزُ الْأَفْرَادُ،

مِنْ خِلَالِ عَمَلِ الْفَرِيقِ، وَتَعَاوُنِ الْمَجْمُوعِ، وَتَكَافُلِهِمْ، هِيَ مَسْئُولِيَّةٌ عَقْدِيَّةٌ،
إِنْسَانِيَّةٌ، عُمْرَانِيَّةٌ، حَضَارِيَّةٌ، وَذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ، لِكَيْ يُحْيُوا مَوَاتَ شُعُوبِهِمْ، وَيَبْعَثُوا
الْحَيَاةَ، فِي قِيَمِهِمْ وَغَايَاتِهِمُ السَّامِيَّةِ، الَّتِي وَرَثُوهَا عَنْ آبَائِهِمْ، وَالَّتِي هِيَ بَقِيَّةُ عَصُورِ
النُّورِ وَالرُّوحِ، فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَمَنْبَعُ النُّورِ وَالْهِدَايَةِ وَالرُّشْدِ فِي مُسْتَقْبَلِهَا.

قَالَ بَيْدَبَا: قُلْتُ: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، عَلَى هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ، وَعَلَى هَذِهِ
الشُّعُوبِ، أَنْ يُدْرِكُوا أَهَمِّيَّةَ التَّعَاوُنِ وَالتَّكَافُلِ، وَالْعَمَلِ الْمُؤَسَّسِيِّ، وَرُوحِ الْفَرِيقِ، فِي
تَنْظِيمِ حَيَاتِهِمْ، وَأَنْ يُقْلَعُوا عَنْ بَسَاطَةِ الْفِكْرِ الْفَرْدِيِّ وَبِدَائِيَّتِهِ؛ الَّذِي يَقُومُ عَلَى
أَحْلَامِ بَطُولَاتِ السَّادَةِ الشُّجْعَانَ الْمَحْظُوظِينَ وَعَنْتَرِيَّاتِهِمْ لِإِنْقَاذِ الْبُؤْسَاءِ وَالضُّعْفَاءِ
وَالْمَحْرُومِينَ، فَالْحَالُ فِي هَذَا الزَّمَانِ غَيْرُ الْحَالِ، وَالْعَصْرُ غَيْرُ الْعَصْرِ، وَلَمْ يَبْقَ
لِلْأَرْبِحِيَّةِ "الطَّائِيَّةِ" وَلَا لِعَنْتَرِيَّاتِ الرُّمَحِ وَالسَّيْفِ وَالْخَيْلِ وَاللَّيْلِ وَالْبَيْدَاءِ مَوْضِعٌ؛
فَقَدْ أَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ، وَالْحَضَارَةُ، وَالْعُمْرَانُ الْبَشَرِيُّ، فِي عَالَمِ الْيَوْمِ، وَمَا سَيَأْتِي
بَعْدَهُ، نِتَاجَ عِلْمٍ، وَمَعْرِفَةٍ، وَتَعَاوُنٍ، وَتَكَافُلٍ، وَمُؤَسَّسَاتٍ، وَنُظْمٍ؛ وَمِنْ دُونِهَا، لَا تَكُونُ
قُدْرَةً، وَلَا عُمْرَانًا، وَلَا يَكُونُ بِنَاءٌ، وَلَا نُمُوٌّ، وَلَا إِنْتِاجٌ؛ وَمَنْ لَا يُجِيدُ الْعِلْمَ، وَالْبَحْثَ،
وَالدَّرْسَ، وَالْعَمَلَ، وَبِنَاءَ فِرَقِ الْعَمَلِ، وَمُؤَسَّسَاتِ الْإِدَارَةِ وَالْإِنْتِاجِ، وَيُرِي صِغَارَهُ عَلَى

تَشْرِبُ مَفَاهِيمَهَا، وَإِجَادَةَ أَدَائِهَا؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي عَالَمِ الْحَضَارَةِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالْعِزَّةِ، مَجَالٌ، وَلَا فِي سِبَاقِ الْأُمَمِ، فِي هَذَا الزَّمَانِ، مَكَانٌ أَوْ مَوْضِعٌ.

قَالَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُّوطةَ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ أَعْلِمِ الشَّبَابَ وَالصِّغَارَ وَالْكَبَارَ فِي كُلِّ الْبِلَادِ أَنَّ الْقُدْرَةَ وَالْعِزَّةَ وَالنَّجَاحَ إِنَّمَا تَكْمُنُ الْيَوْمَ فِي تَنْمِيَةِ التَّعَاوُنِ، وَتَنْمِيَةِ رُوحِ الْفَرِيقِ، وَتَنْمِيَةِ بِنَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ، فِي كُلِّ مَجَالَاتِ الْفِكْرِ وَالْإِدَارَةِ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، وَالْعَمَلِ وَالإِنْتِاجِ، وَأَعْلِمُهُمْ أَيْضًا أَنَّهُ لَا مَفْرِيًا بَيْدَبَا؛ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ كُلُّ الشَّبَابِ، وَكُلُّ الشُّعُوبِ، وَكُلُّ الْقَادَةِ، وَكُلُّ الصِّغَارِ وَالْكَبَارِ؛ أَنْ رُوحَ الْفَرِيقِ، وَبِنَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ، هِيَ مَفَاتِيحُ الْقُدْرَةِ، وَالْعِزَّةِ، وَالْحَضَارَةِ، وَالْعُمُرَانِ، فِي عَالَمِ الْيَوْمِ، وَعَالَمِ الْغَدِ.

إِنَّ أَبْطَالَ هَذَا الْعَصْرِ، وَمَا يَلِيهِ مِنْ عُصُورٍ كَثِيرَةٍ، لَيْسُوا يَا بَيْدَبَا أَصْحَابَ الْهَيْبَاتِ الْعَنْتَرِيَّةِ وَالنَّفَحَاتِ الْحَاتِمِيَّةِ، بَلْ هُمْ الْمُفَكِّرُونَ، وَالْعُلَمَاءُ، وَالْبَاحِثُونَ، وَالْعَامِلُونَ السَّاهِرُونَ فِي جِدِّ وَصَبْرِ وَجَلْدٍ، بِالْعَمَلِ لَيْلَ نَهَارٍ، فِي الْمَعَامِلِ، وَالْمَصَانِعِ، وَالْمَنَاجِمِ، وَفِي الْجَامِعَاتِ، وَقَاعَاتِ الْبَحْثِ وَالدَّرْسِ، وَفِي أَعْمَاقِ الْغَابَاتِ، وَفِي قِيَافِ الصَّحْرَاءِ، وَذُرَى الْجِبَالِ، وَفِي قِيَعَانِ الْبِحَارِ، وَعَنَانِ الْفَضَاءِ؛ يُقِيمُونَ صُرُوحَ الْقُدْرَةِ، وَالْمَعْرِفَةِ الْمُتَطَاوِلَةِ، طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ، إِلَى آفَاقٍ مُتَّسِعَةٍ مُتْرَامِيَّةٍ مِنْ أَسْرَارِ تَسْخِيرِ الْكَوْنِ، وَنَوَامِيسِ الْوُجُودِ وَطَاقَاتِهِ وَقُدْرَاتِهِ.

قَالَ بَيْدَبَا: هَلْ تَسْمَحُ لِي أَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَقَدْ أَمْتَعْتَنَا "بِقِصَّةِ الدِّيكِ" وَ"قِصَّةِ
العُصْفُورِ" مِنْ قَبْلُ، أَنْ أَمْتَعَكَ الْيَوْمَ بِقِصَّةِ وَحِكْمَةِ مِنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ الَّتِي دَرَسْتُمَهَا،
وَشَاهَدْتُمَهَا بِأَمِّ عَيْنِي، فَأَنْتَ تَعْلَمُ مَدَى حُبِّي وَشَغْفِي بِحَيَاةِ الْحَيَوَانِ، وَالدَّرُوسِ الَّتِي
يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَفِيدَهَا الْإِنْسَانُ مِنْهُ، عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ، وَهِيَ قِصَّةٌ تَتَعَلَّقُ بِأَهْمِيَّةِ رُوحِ
الفَرِيقِ؛ الَّتِي بِهَا اسْتَطَاعَتِ الْكِلَابُ الْمُتَوَحِّشَةُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِهَا وَضَالَاتِهَا، أَنْ
تَأْكُلَ بَقْرَ الْوَحْشِ بِرَغْمِ ضَخَامَتِهِ، وَقُوَّتِهِ، وَقُرُونِهِ الْحَادَّةِ الطَّوِيلَةِ، الْمُشْهَرَّةِ كَالرِّمَاحِ
وَالسُّيُوفِ الْمُسَلَّطَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ وَقَدْ انْبَسَطَتْ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ: مَرْحَبًا يَا بَيْدَبَا؛ كَلِّي وَكُلُّ الْحَاضِرِينَ أَذَانُ
صَاغِيَةً لِمَا لَدَيْكَ مِنْ خِبْرَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَلَا أَخْفِي عَلَيْكَ أَنَّهُ أَمْرٌ عَجِيبٌ أَنْ يَسْتَطِيعَ
الْكَلْبُ الْمُتَوَحِّشُ عَلَى ضَالَاتِهِ أَنْ يَأْكُلَ الْبَقْرَةَ الْوَحْشِيَّةَ؛ وَالَّتِي لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَسْتَطِيعَ
أَيُّ كَلْبٍ الْوُقُوفَ أَمَامَهَا، وَإِلَّا كَانَ نَصِيبُهُ الْمَوْتِ الزُّوَامِ، مِنْ دُونِ أَنْ تَطْرَفَ عِيُونُ
الْبَقْرَةِ الْوَحْشِيَّةِ الْجَمِيلَةِ طَرْفَةً وَاحِدَةً.

قَالَ بَيْدَبَا: صَدَقْتَ أَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ فَلَا مَجَالَ لِمُقَارَنَةِ قُوَّةِ الْكِلَابِ، وَقُوَّةِ الْبَقْرِ
الْوَحْشِيِّ، وَلَكِنَّ الدَّرْسَ وَالْعِظَةَ هُنَا أَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ هُوَ فِي قِيَمَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّأَزُّرِ

والتَّكَاْفَلِ وَعَمَلِ الْفَرِيقِ؛ الَّذِي أَشْرَتْ إِلَيْهِ فِي دَرْسِكَ الْحَكِيمِ، عَنِ الْمُؤَسَّسَاتِ، وَعَنِ
التَّعَاوُنِ وَالتَّأَزُّرِ وَالتَّكَاْفَلِ، وَعَنْ عَمَلِ الْفَرِيقِ، وَعَنِ الْمُؤَسَّسَاتِ فِي عَالَمِ الْيَوْمِ.
قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ: لَقَدْ زِدْتَنَا شَوْقًا إِلَى مَا عِنْدَكَ؛ فَاسْمِعْنَا يَا بَيْدَبَا، وَارِوِ غُلَّةَ
فُضُولِنَا.

قَالَ بَيْدَبَا: هَذِهِ الْقِصَّةُ، بَلْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، كَانَ مَوْضِعُهَا شَرْقَ
إِفْرِيقِيَا؛ حَيْثُ يَعِيشُ بَقَرُ الْوَحْشِ، فِي تَجْمُوعِ هَائِلٍ، يَضُمُّ الْأُلُوفَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنْ هَذَا
الْحَيَوَانَ الضَّخْمِ الْقَوِيِّ الْجَمِيلِ، وَلَهُ رِحْلَةٌ سَنَوِيَّةٌ، لِعِدَّةِ آلَافٍ مِنَ الْأَمْيَالِ، يَقْطَعُهَا
كُلَّ عَامٍ؛ يَتَتَبَّعُ فِيهَا مَوَارِدَ الْمِيَاهِ وَالْمَرَاعِي وَالْكَلَّاءِ.
وَمَا يُهْمُّنِي أَنْ أَرُوِيَهُ الْيَوْمَ مِنْ مُشَاهِدَاتِي لِهَذَا الْحَيَوَانَ، أَمْرَانِ مُدْهِشَانِ فِي أَصْلِ
طَبْعِ هَذَا الْحَيَوَانَ وَخَلْقِهِ.

قَالَ الشَّيْخُ: أَتَحْفَنَا يَا بَيْدَبَا؛ فَمَا هُوَ هَذَا الطَّبْعُ؟
قَالَ بَيْدَبَا: الطَّبْعُ الْأَوَّلُ؛ هُوَ أَنَّ كَامِلَ الْوُفِ الْقَطِيعِ تَلِدُ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ؛ إِنَّهُ وَلَا
شَكَّ أَمْرٌ عَجِيبٌ غَرِيبٌ، وَلَكِنَّ الْمُهْمَّ أَنْ نَعْرِفَ الْحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ فِي ذَلِكَ.
قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا لِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْأُلُوفِ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ؟ إِنَّهُ كَمَا ذَكَرْتَ أَمْرٌ
عَجِيبٌ غَرِيبٌ، فَمَا هِيَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ؟

قَالَ بَيْدَبَا: لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْأُلوْفَ مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ تَلِدُ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، أَتَيْهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لِهَلْكَ نَسْلُهَا وَانْقَرَضَ.

قَالَ الشَّيْخُ: وَلَكِنْ كَيْفَ يَحْدُثُ ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؟ إِنَّ مَا تَقُولُهُ يَزِيدُ الْأَمْرَ عَجَبًا وَيَزِيدُنَا شَوْقًا لِسَمَاعِ مَا عِنْدَكَ.

قَالَ بَيْدَبَا: هَذَا التَّجْمَعُ الْهَائِلُ وَالْقَطِيعُ الْعَظِيمُ، مِنْ بَقَرِ الْوَحْشِ، يَتَّبَعُهُ قُطْعَانٌ مِنَ الْكِلَابِ الْمُتَوَحِّشَةِ؛ الَّتِي تَأْكُلُ صِغَارَ الْبَقَرِ الْوَحْشِيِّ وَمَوَالِيدَهَا، وَلَوْ أَنَّ الْبَقَرَ كَانَ يَلِدُ عَلَى فِتْرَاتٍ وَتَبَاعُدٍ فِي مَوْعِدِ الْوِلَادَةِ؛ لَقَضَتِ الْكِلَابُ الْوَحْشِيَّةُ، عَلَى كُلِّ مَا يُوَلَدُ مِنْ صِغَارِ الْبَقَرِ الْوَحْشِيِّ، أَوْلًا بِأَوَّلٍ، وَلَكِنْ لِأَنَّ الْقَطِيعَ يَلِدُ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ الْكِلَابَ الْمُتَوَحِّشَةَ سَوْفَ تَلْتَهُمْ جُزْءًا مِنَ الْمَوَالِيدِ الصِّغَارِ، فَإِذَا كَبُرَ الْبَاقُونَ فَإِنَّ الْكِلَابَ الْوَحْشِيَّةَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُمْ، أَوْ تَهَاجِمَهُمْ.

قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَالَةُ: إِنَّ مَا تَقُولُهُ يَا بَيْدَبَا عَجِيبٌ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ تَسْتَطِيعُ الْكِلَابُ الْمُتَوَحِّشَةُ، فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ صِغَارِ الْبَقَرِ الْوَحْشِيِّ، وَتَفْتَرِسَهَا وَأَيْنَ أُمَّهَاتِهَا، أَلَا تَأْبَهُ الْبَقَرَاتُ لِمَا يَجْرِي لِصِغَارِهَا وَمَوَالِيدِهَا، وَتَحْمِيهِمْ، وَهِيَ قَادِرَةٌ فَذَلِكَ فِي أَصْلِ فِطْرَةِ الْأُمُومَةِ؟ فَمَا تَقُولُهُ يَا بَيْدَبَا لَا يَكَادُ يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ.

قَالَ بَيْدَبَا: عَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، فَمَا تَقُولُهُ حَقٌّ، فَإِنَّ أُمَّهَاتِ صِغَارِ بَقَرِ
الْوَحْشِ، تَأْبَهُ بَلْ تَسْتَمِيتُ فِي الدِّفَاعِ عَنْ صِغَارِهَا، وَلَكِنَّ غَبَاءَ بَقَرِ الْوَحْشِ،
وَحَمَاقَتَهَا، بِرَغْمِ قُوَّتِهَا، هُمَا السَّبَبُ فِي فَقْدِ صِغَارِهَا، كَمَا أَنَّ ذِكَاءَ الْكِلَابِ الْوَحْشِيَّةِ،
وَتَعَاوُنَهَا، وَبِنَاءِ رُوحِ الْفَرِيقِ الَّذِي حَدَّثْنَا عَنْهُ، هُوَ السَّبَبُ فِي التَّغْلِبِ عَلَى بَقَرِ
الْوَحْشِ، الْقَوِيِّ الْغَيِّ، وَقُدْرَتَهَا عَلَيْهِ، وَانْتِزَاعِ الصِّغَارِ مِنْ بَيْنِ أذْرُعِ أُمَّهَاتِهَا.
قَالَ الشَّيْخُ: أَسْرِعْ بِرَبِّكَ يَا بَيْدَبَا، وَأَخْبِرْنَا، كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ؟ فَلَا نَكَاذُ
نُصَدِّقُ مَا تَقُولُهُ أَوْ نَعْقِلُهُ.

قَالَ بَيْدَبَا: السِّرُّ، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، أَنَّ الْكِلَابَ الْوَحْشِيَّةَ لَا تَقْتَرِبُ مِنَ الْبَقَرَاتِ
الْأُمَّهَاتِ فُرَادَى، فَلَوْ أَنَّ أَيَّ كَلْبٍ اقْتَرَبَ وَحْدَهُ مِنَ الْأُمِّ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى
الصِّغِيرِ، وَلَكَانَ مَصِيرُهُ الْهَلَاكَ عَلَى قُرُونِ الْبَقَرَةِ الْأُمِّ.
قَالَ الشَّيْخُ: إِذَا كَيْفَ تَقْتَرِبُ الْكِلَابُ مِنَ الْأُمِّ وَمِنْ وَلِيدِهَا؟

قَالَ بَيْدَبَا: تُكُونُ الْكِلَابُ الْوَحْشِيَّةُ، الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ صَغِيرًا مِنْ صِغَارِ بَقَرِ
الْوَحْشِ، فَرِيقًا مِنْ ثَلَاثَةِ كِلَابٍ، يُحِيطُونَ بِالْبَقَرَةِ الْمَعْنِيَّةِ، وَبِصَغِيرِهَا، وَيَتَقَدَّمُ وَاحِدٌ
مِنْهَا نَحْوَ الصِّغِيرِ، فَتَنْطَلِقُ الْأُمُّ، بِكُلِّ قُوَّتِهَا وَعُغْنِفِهَا، وَتُسَدِّدُ قُرُونَهَا نَحْوَهُ، وَيَرْتَدُّ



فَرِيقًا مِنْ ثَلَاثَةِ كِلَابٍ، يُحِيْطُونَ بِالْبَقْرَةِ الْمُعْنِيَّةِ، وَبِصَغِيرِهَا

وَالْبَقْرَةَ تَتَّبِعُهُ، وَتَسْتَمِرُّ فِي الْجَزْيِ خَلْفَهُ حِينَذَاكَ يَتَقَدَّمُ كَلْبٌ آخَرَ نَحْوِ الصَّغِيرِ، فَتَتْرِكُ الْأُمَّ الْكَلْبَ الَّذِي كَانَتْ تُطَارِدُهُ؛ لِتُهَاجِمَ الْكَلْبَ الْآخَرَ الَّذِي يُهَاجِمُ صَغِيرَهَا، وَالْأُمَّ تَتَّبِعُهُ، فَيَتَقَدَّمُ الْكَلْبُ الثَّلَاثُ نَحْوَ الصَّغِيرِ، وَتَرْكُضُ الْأُمُّ مِنْ جَدِيدِ خَلْفِ الْكَلْبِ الْمُهَاجِمِ لِجِمَايَةِ صَغِيرِهَا، وَمُهَاجِمَتِهِ؛ لِيَتَرَجَعَ وَيَهْرُبَ.

وَهَكَذَا يَسْتَمِرُّ الْكُرُّ وَالْفَرُّ مِنَ الْأُمِّ مِنْ جِهَةٍ، وَفَرِيْقِ الْكِلَابِ الثَّلَاثَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ إِلَى أَنْ يَنَالَ التَّعَبُ مَنَالَهُ مِنَ الْأُمِّ؛ بِحَيْثُ لَا تَسْتَطِيعُ جَرِيًّا وَلَا دِفَاعًا عَنِ صَغِيرِهَا؛ عِنْدَهَا يَنْقُضُ فَرِيْقُ الْكِلَابِ الْمُتَوَحِّشَةِ، عَلَى الصَّغِيرِ، أَمَامَ عَيْنِي أُمِّهِ، وَيَأْخُذُونَهُ فَرِيْسَةً لَدِيْدَةً سَهْلَةً، وَالْأُمَّ تَنْظُرُ إِلَى صَغِيرِهَا تَجْرُهُ الْكِلَابُ وَتَفْتَرِسُهُ، وَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ لَهُمْ صَدًّا وَلَا رَدًّا.

قَالَ بَيْدَبَا: هَلْ أَدْرَكْتَ يَا سَيِّدِي كَيْفَ يَتِمُّ الْأَمْرُ؟ وَكَيْفَ تَتَغَلَّبُ الْكِلَابُ الْمُتَوَحِّشَةُ، عَلَى الْأَبْقَارِ الْوَحْشِيَّةِ؛ بِرَغْمِ مَا تَتَمَتَّعُ بِهِ الْأَبْقَارُ الْوَحْشِيَّةُ مِنْ إِمْكَانَاتٍ وَقُوَّةٍ هَائِلَةٍ، وَقُرُونٍ حَادَّةٍ كَالرِّمَاحِ أَوِ السُّيُوفِ الْمُسْرَعَةِ؟

قَالَ الشَّيْخُ الرَّحَالَةُ: وَلَكِنْ أَيْنَ الْأَبْقَارُ الْآخَرَى؟ وَلِمَاذَا لَا يَهْبُؤُونَ لِنَجْدَةِ الْأُمِّ وَيَتَعَاوَنُونَ مَعَهَا كَمَا تَفْعَلُ الْكِلَابُ؟ هَلْ تَنْتَقِي الْكِلَابُ أُمَّا مَعزُولَةً عَنِ الْقَطِيعِ يَا

بَيْدَبَا؟ قَالَ بَيْدَبَا: لَا يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ؛ الْبَقْرُ يَسِيرُ قَطِيعًا وَاحِدًا، وَالْأُمُّ الَّتِي تُهَاجِمُهَا
الْكِلَابُ، وَتُهَاجِمُ صَغِيرَهَا، لَيْسَتْ فِي مَعزِلٍ عَمَّنْ سِوَاهَا مِنَ الْأَبْقَارِ؛ بَلْ هِيَ عَلَى مَشْهَدِ
وَمَرَأَى مِنْهُمْ، يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، بَيْنَ الْبَقْرَةِ الْأُمِّ وَصَغِيرِهَا مِنْ جِهَةٍ، وَفَرِيقِ الْكِلَابِ
الْمُتَوَحِّشَةِ مِنْ جِهَةٍ، بِأَعْيُنِهِمُ الْوَاسِعَةَ، الْمُبْحَلِقَةَ الْجَمِيلَةَ، مِنْ دُونِ أَنْ يَطْرِفَ لِأَحَدٍ
مِنْهُمْ جَفْنٌ، أَوْ يُحَرِّكُوا فِي عَوْنِهِمْ سَاكِنًا. يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ؛ لَوْ أَنَّ بَقْرَةً وَاحِدَةً أُخْرَى،
أَوْ ثُورًا وَاحِدًا آخَرَ، أَعَانَ الْأُمَّ الْمَكْرُوبَةَ، لَمَا أَمَكَّنَ لِلْكِلَابِ الْمُتَوَحِّشَةِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنَ
الصَّغِيرِ، أَوْ أَنْ تَفْتَرِسَهُ إِطْلَاقًا.

هَذَا هُوَ الدَّرْسُ يَا سَيِّدِي، وَهَذِهِ هِيَ الْعِبْرَةُ؛ فَإِنَّ الْأَبْقَارَ بَغْبَائِهَا وَحَمَاقَتِهَا، لَا
تَتَعَاوَنُ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يُوَاجِهُ مَصِيرَهُ مُنْفَرِدًا، وَلَا يَأْبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْآخِرِينَ، إِلَى مَا يَجْرِي
لِأَيِّ أَحَدٍ آخَرَ، سِوَى نَفْسِهِ، إِلَى أَنْ يَحِينَ حِينُهُ، وَيُصْبِحَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ هُوَ نَفْسُهُ
الْفَرِيسَةَ، وَحِينَهَا يَسْقُطُ فِي يَدِ أَعْدَائِهِ، لُقْمَةً سَهْلَةً سَائِغَةً؛ فَلَا يَجِدُ لَهُ بَدْوَرَهُ، مُعِينًا
وَلَا نَصِيرًا يَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ فِي مِحْنَتِهِ وَشِدَّتِهِ، وَيَتَنَدَّمُ، حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ.
هَذَا هُوَ الدَّرْسُ، وَهَذِهِ هِيَ الْعِظَةُ وَالْعِبْرَةُ الَّتِي تَوْضِحُ كَيْفَ يَتَغَلَّبُ، الْجَبَانُ
الضَّعِيفُ، كَالذِّئْبِ الْوَاحِدِ الْمُنْفَرِدِ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ؛ لِكُونِهِ قَدْ عَرَفَ مَعْنَى

التَّعَاوُنِ، وَمَعْنَى رُوحِ الْفَرِيقِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَيْفَ يَخْسَرُ، الْقَوِيُّ الْقَادِرُ مِثْلُ الْبَقْرِ
الْوَحْشِيِّ، بِرَغْمِ ضَخَامَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَقُرُونِهِ الَّتِي قَدْ تَعَجَّزُ عَنْ نَفْعِهِ وَحِمَايَتِهِ أَمَامَ مَنْ
هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْعَفُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى التَّعَاوُنِ، وَلَا مَعْنَى رُوحِ عَمَلِ
الْفَرِيقِ، وَلَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُوظَّفُ طَاقَاتِهِ، وَيُفِيدُ مِنْ إمْكَانَاتِهِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطْوَيْطَةَ: الْآنَ أَدْرِكُنَا مَغْزَى مَا ذَكَرْتَ يَا بَيْدَبَا، وَكَيْفَ تُصْبِحُ الْقُوَّةُ
ضَعْفًا، وَالضَّعْفُ قُوَّةً، إِذَا عَرَفْنَا مَعْنَى التَّعَاوُنِ وَالتَّكَاوُلِ وَالتَّأَزُّرِ، وَمَعْنَى
الْمُؤَسَّسَاتِ، وَمَعْنَى رُوحِ عَمَلِ الْفَرِيقِ، وَعَرَفْنَا كَيْفَ نُوظَّفُ طَاقَاتِنَا وَنُفِيدُ مِنْ
إمْكَانَاتِنَا بِفِعْلِ الْمُؤَسَّسَةِ وَرُوحِ الْفَرِيقِ.

قَالَ بَيْدَبَا: أَنَا أَفْهَمُ أَيُّهَا الشَّيْخُ، أَنْ يَقَعَ فِي هَذَا الْغَبَاءِ، وَفِي هَذِهِ الْحَمَاقَةِ، حَيَوَانُ
الْبَقْرِ، وَلَكِنْ لَا أَفْهَمُ، وَلَا أَدْرِكُ، كَيْفَ تَقَعُ فِي ذَاتِ التَّصَرُّفَاتِ الْغَيْبِيَّةِ الْحَمَقَاءِ
شُعُوبٌ بَعْضُ الْأُمَمِ، مِنْ بَنِي الْبَشَرِ، فَتَتَفَرَّقُ وَتَتَنَازَعُ، بَلْ تَسْتَعْدِي أَعْدَاءَهَا عَلَى
أَنْفُسِهَا؛ لِيَقَعَ الْوَاحِدُ تِلْوَالِ الْآخِرِ فِرَادَى فَرِيْسَةً لِأَعْدَائِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَظْلُونَ جِيلاً بَعْدَ
جِيلٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ، عَلَى حَالِهِمْ، مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْبَلَادَةِ وَالْغَبَاءِ، يَلْقَى جَمِيعُهُمْ
وَاحِدًا تِلْوَالِ الْآخِرِ، بِغَبَائِهِمْ وَحَمَاقَتِهِمْ، ذَاتِ الْمَصِيرِ مِنَ الْخُسْفِ وَالذَّلِّ وَالْمَهَانَةِ
وَالدَّمَارِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطة نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ الْفَسَادُ، وَالطَّمَعُ، وَالْمَصَالِحُ الْعَاجِلَةُ الْخَاصَّةُ، وَالتَّسَلُّطُ النَّاجِمُ عَنِ تَشَوُّهِ الرُّؤْيَةِ، وَعَنْ تَشَوُّهِ مَنْهَجِ الْفِكْرِ، وَعَنْ سُوءِ التَّرْبِيَةِ، يُعْمِي الْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، وَيَجْعَلُ الْبَشَرَ أَعْبَى مِنَ الْبَقْرِ، وَصَدَقْتَ يَا بَيْدَبَا يَوْمَ قُلْتَ فِي كِتَابِكَ الشَّهِيرِ "كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ" عِبَارَتِكَ الَّتِي ذَهَبَتْ مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ: "أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثُّورِ الْأَبْيَضُ".

نَعَمْ يَا بَيْدَبَا، إِنَّهُ إِذَا لَمْ تُعِنِ الْجَمَاعَةَ أَفْرَادَهَا وَتَكْفُلُهُمْ، فَلَنْ يُعْطِيَ الْفَرْدُ وَلَنْ يَبْذُلَ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا الْفَرْدُ لَمْ يُعْطِ وَلَمْ يَبْذُلْ، فَلَنْ تُعِينِ الْجَمَاعَةُ أَفْرَادَهَا، وَلَنْ تَكْفُلَ أَيَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَالْفَرْدُ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْجَمَاعَةُ بِالْفَرْدِ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا قُوَّةَ وَلَا مَنَعَةَ، وَلَا وَفْرَةَ وَلَا نَمَاءً، وَلَا عِزَّةَ وَلَا كِرَامَةَ.

مِثْلُ هَذِهِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَّمِ يَا بَيْدَبَا، إِنَّمَا هُمْ كَالْأَبْقَارِ، بَلْ هُمْ أَعْبَى وَأَضَلُّ. عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ أَدَارَ الشَّيْخِ ابْنُ بَطُّوطة نَظَرَهُ فِيمَنْ حَوْلَهُ، وَكُلُّهُمْ آذَانٌ صَاغِيَةٌ، بَرَعِمِ طُولِ الْجُلُوسِ، وَمَا نَالَهُمْ مِنَ التَّعَبِ، وَقَالَ يُخَاطِبُهُمْ: كَفَانَا مَا أَدْرْنَا الْيَوْمَ مِنَ الْحَدِيثِ، لِنَسْتَكْمِلَ مَا بَقِيَ مِنْهُ فِي جَلْسَةِ الْغَدِ، بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَمْرَانِ أَوْدُ أَنْ أَحَدَيْتُكُمْ بِشَأْنِهِمَا قَبْلَ أَنْ أَرْحَلَ مِنْ دِيَارِكُمْ، مَا لَمْ يَعِنَنَّ لَكُمْ أَمْرًا أَوْ أَمُورًا أُخْرَى يَهْمُكُمْ تَجْلِيَّتَهَا قَبْلَ الْفِرَاقِ، وَقَبْلَ أَنْ يُقْلَعَ الشِّرَاعُ إِلَى أَرْضِ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ.

وَفِيمَا كَانَ الْمُرِيدُونَ يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ اسْتَبَقَى الشَّيْخُ بَيْدَبَا إِلَى جَانِبِهِ، فَقَالَ بَيْدَبَا: خَيْرًا أَيُّهَا الشَّيْخُ؟ إِنِّي أَرَى فِي عَيْنَيْكَ شَيْئًا مِنَ الْقَلْقِ، لَعَلَّ زَائِرَ الشُّؤْمِ بَرَعَمَ الْعُيُونَ مَرَّ مَجْدَّدًا بِدَارِكَ بِالْأَمْسِ أَيْضًا؟

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا. وَمَا يُحَيِّرُنِي وَيُثْقِلُنِي أَنَّنِي لَا أَدْرِي كَيْفَ يَلِجُ هَذَا الزَّائِرُ الدَّارَ مِنْ دُونِ أَنْ تَرَاهُ الْعُيُونَ، كَمَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْلَمَ سَبَبًا لِمَا يَفْعَلُ هَذَا الزَّائِرُ! وَلَا أَجِدُ حَلًّا لِلْغُرُزِيَارَاتِهِ وَبَحْثِهِ الدَّائِبِ فِي الدَّارِ كُلَّمَا فَارَقَتْهَا وَمَعِيَ مُرَافِقِي! وَكَأَنَّهُ يَتَرَصَّدُ حَرَكَاتِي وَسَكِّنَاتِي، وَيَعْرِفُ عَادَاتِي وَمَخَارِجَ دَارِي وَمَدَاخِلَهَا!

قَالَ بَيْدَبَا: أَرْجُو أَنْ تُحِيطُنِي عِلْمًا كُلَّمَا عَزَمْتَ فِي الْأَيَّامِ الْقَادِمَةِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدَّارِ أَعَزَّزَ الْحِرَاسَةَ وَالْمُرَاقَبَةَ وَالرَّصْدَ لِكُلِّ مَنْ يَأْتِي إِلَى الدَّارِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ، نَضَعَ أَيْدِينَا عَلَى هَذَا الشَّيْطَانِ الْمُحَيِّرِ مُتَلَبِّسًا بِجَرِيمَتِهِ، وَنَأْمَنَ أَلَّا يُصِيبَكَ أَيُّ أَدَى بِإِذْنِ اللَّهِ.

انصرفت بعدها بيدبا ليوعز إلى مسئول الأمن في الحي أن يعزز الحراسة غير المرئية في محيط دار الشيخ، وأن يرصد كل من يحوم حولها، أو يؤمها، مهما كان، ومن كان.

الْخُرُوفُ الْأَحْمَقُ يَطْلُبُ الْعُشْبَ مِنْ يَدِ الْجَزَّارِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ بَكَرَ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا وَإِخْوَتُهُ فِي الصَّبَّاحِ بِالذَّهَابِ إِلَى نُزْلِ الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ، وَاصْطَفُوا حَوْلَهُ، لِلِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ، وَبَادَرَهُ بَيْدَبَا بِالسُّؤَالِ قَائِلًا: لَقَدْ وَعَدْتَنَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ يَوْمَ أَمْسٍ، بِالْحَدِيثِ عَنِ أَمْرَيْنِ، فَمَا هُمَا هَذَانِ الْأَمْرَانِ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؟

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، وَلَعَلَّهُ لَا يَكُونُ خِتَامَ حَدِيثِي إِلَيْكُمْ وَأُنْسِي بِكُمْ.

أَمَّا الْأَمْرُ الْأَوَّلُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا؛ فَهُوَ تَوْضِيحُ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ الْكُونِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ، وَمَعْنَى الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَحَيَاةِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ وُضُوحَ الرُّؤْيَةِ الْكُلِّيَّةِ مِنْ أخطرِ مَا تُوَجِّهُهُ الْأُمَّمُ، وَيَجِبُ تَوْضِيحُهَا بِكُلِّ السَّبِيلِ، وَمِفْتَاحُ الْأَمْرِيَا بَيْدَبَا؛ مَعْرِفَةُ أَنَّ الْأُمَّمَ وَالثَّقَافَاتِ وَالْحَضَارَاتِ عَلَى نَوْعَيْنِ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَهُمَا، وَأَنْ نَفَرِّقَ بَيْنَهُمَا؛ لِنَنْجُو وَنُفْلِحَ، وَنُحَقِّقَ الْغَايَةَ مِنْ حَيَاتِنَا بِنَجَاحٍ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الْحَضَارَاتِ وَالثَّقَافَاتِ، هُوَ نَوْعٌ كُلِّيٌّ رُوحِيٌّ نُورَانِيٌّ، وَهُوَ الَّذِي يُنْظَرُ إِلَى وُجُودِهِ بِنَظَرَةٍ كُلِّيَّةٍ، مِنْ مُبْتَدِئِهِ إِلَى مَآلِهِ، وَبِذَلِكَ يُدْرِكُ أَنَّ لِوُجُودِهِ مَعْنَى وَغَايَةَ،

تَجْعَلُ مِنْهُ عَلَى الْأَرْضِ وُجُودًا بِنَاءً إِعْمَارِيًّا خَيْرًا، يَلْتَزِمُ الْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ وَالتَّكَاْفُلَ
وَالسَّلَامَ، وَيَتَأَيَّ عَنِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.

وَالنُّوعُ الثَّانِي مِنَ الْحَضَارَاتِ وَالثَّقَافَاتِ، هُوَ رُؤْيِيَّةٌ وَجُودٌ مَا دِيَّ طِيْنِي حَيَوَانِي،
بَاهِتِ الضَّمِيرِ، مُشَوِّهِ الْإِرَادَةِ، لَا يُؤْمِنُ، وَلَا يُدْرِكُ، وَلَا يَسْتَجِيبُ إِلَّا لِجِسِّهِ وَنَزَوَاتِهِ
وَشَهَوَاتِهِ، وَلَا يَعْرِفُ، عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، لِوُجُودِهِ وَحَيَاتِهِ غَايَةً وَلَا مَعْنَى إِلَّا الشَّهَوَاتِ
وَالْمَتَعَ الْجَسِيَّةَ، وَهُوَ نَوْعٌ كَالْكَوَأْسِرِ لَا يَعْرِفُ -بَعِيدًا عَنِ زَيْفِ الْقَوْلِ- إِلَّا قَانُونَ الْغَابِ
وَالْغَلْبَةِ وَالْعُدْوَانِ وَالْإِفْتِرَاسِ وَالظُّلْمِ؛ ذَلِكَ الْقَانُونُ الَّذِي يَدْعُوْنَهُ "سِيَاسَاتِ الْقُوَّةِ"
وَ"سِيَاسَاتِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ" وَ"الْمَصَالِحِ الْقَوْمِيَّةِ".

هَذَا التَّقَابُلُ، هُوَ الَّذِي يُمَثِّلُ ثُنَائِيَّةَ الرُّوحِ وَالطِّينِ فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَّمِ
وَالْحَضَارَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يُمَثِّلُ ثُنَائِيَّةَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَثُنَائِيَّةَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَثُنَائِيَّةَ
الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَهُوَ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ يُمَثِّلُ ثُنَائِيَّةَ قَانُونِ النُّورِ
وَالرُّوحِ؛ فِي أَنَّ "الْقُوَّةَ لِلْحَقِّ"، وَقَانُونِ الطِّينِ وَالْغَابِ؛ فِي أَنَّ "الْحَقَّ لِلْقُوَّةِ".

وَقَانُونِ الْغَابِ فِي أَنَّ "الْحَقَّ لِلْقُوَّةِ" فِي الْمُجْتَمَعَاتِ وَبَيْنَ الْأُمَّمِ، يَتِمَثَّلُ فِي هَذَا
الْعَصْرِ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بِيَدَبَا، فِي الْعُنْصُرِيَّاتِ وَالْعِرْقِيَّاتِ، وَفِي سِيَاسَاتِ الْقُوَّةِ،

وَالتَّسَلُّطِ، وَالهِيمَنَةِ، وَالْعُدْوَانِ عَلَى الشُّعُوبِ، وَفِي جَشَعِ الإِسْتِغْلَالِ وَظُلْمِ
الإِسْتِعْمَارِ، وَفِي الكَيْلِ بِمِكيَالَيْنِ، وَفِي التَّفْسِخِ وَالإِنْجِلَالِ، وَضَيَاعِ الأخْلَاقِ، لَدَى كَثِيرٍ
مِنَ الشُّعُوبِ.

لِهَذَا فَإِنَّ عَلَى أبنَاءِ كُلِّ الأُمَّمِ وَالْحَضَارَاتِ يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ يَعْلَمُوا وَيَتَيَقَّنُوا، قَبْلَ فَوَاتِ
الأَوَانِ، وَبُلُوغِ مَرَحَلَةِ إِذْمَانِ السُّلُوكِ الخَاطِئِ، وَالْمُمَارَسَاتِ الحَيَوَانِيَّةِ المُنْحَطَّةِ؛ إِلَى
أَيِّ الرُّؤْيِيَّتَيْنِ، وَإِلَى أَيِّ القَانُونَيْنِ، هُمْ يَنْتَسِبُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ الطَّرِيقَيْنِ هُمْ يَقْصِدُونَ؟ وَفِي
ضَوْءِ ذَلِكَ تَكُونُ وَجْهَتُهُمْ، وَتَكُونُ جُهُودُهُمْ، وَيَكُونُ لِقَاؤُهُمْ وَتَفَاعُلُهُمْ وَتَنَافُسُهُمْ
وَتَدَافُعُهُمْ سَلَامِيَّ الغَايَةِ أَوْ عُدْوَانِيَّ الغَايَةِ.

يَا بَيْدَبَا؛ مَنْ عِلْمٌ مَقْصِدُهُ وَتَيَقَّنَ، وَعِلْمٌ وَجْهَتُهُ، وَاتَّضَحَتْ رُؤْيِيَّتُهُ، جَدَّ فِي عَمَلِهِ
وَطَلَبَ بُغْيَتِهِ وَإِذْرَاكَ مَقْصِدِهِ، وَمَنْ غَامَتْ رُؤْيِيَّتُهُ، وَجَهَلَ غَايَتَهُ، وَمَا عِلْمٌ إِلَى أَيِّ فَرِيقٍ
يَنْتَبِي، وَإِلَى أَيِّ وَجْهَةٍ يَتَّجِهُ، وَعَلَى أَيِّ طَرِيقٍ يَسِيرُ، وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَقِفُ، تَجِدُهُ قَدْ
فَتَرَتْ هِمَّتَهُ، وَضَعْفَتْ عَزِيمَتَهُ، وَأَنْقَطَعَ طَلْبُهُ، وَتَهَدَّمَ عُمْرَانُهُ؛ لِيُصْبِحَ مُهَمَّشًا،
يَخْتَلِطُ فِي رُؤْيِيَّتِهِ الحَابِلُ بِالنَّابِلِ، "فَلَا هُوَ فِي العَيْرِ وَلَا هُوَ فِي النَّفِيرِ"، لِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا؛
نَجِدُ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الأُمَّمِ، قَدْ تَرَاجَعَتْ مَكَانَتُهَا، وَتَهَدَّمَ بِنَاؤُهَا، وَخَمَلَتْ هِمَّتُهَا، حِينَ

غَبَشَتْ رُؤْيُتْهَا؛ فَعَمِيَتْ بَصِيرَتُهَا، وَتَشَوَّهَ مِنْهَجُهَا، وَعَانَتْ الشَّعْوَذَةَ وَالْخُرَافَةَ فِي عَقْلِيَّتِهَا، وَالْبَلَادَةَ وَالرَّهْبَةَ وَالْجُبْنَ فِي وَجْدَانِهَا، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ لِحَيَاتِهَا مَعْنَى، وَلَا لَوْجُودِهَا غَايَةً، فَتَبَدَّدَتْ هِمَمُ أَبْنَائِهَا، وَجَفَّ نَبْعُ عَطَائِهِمْ، وَفَسَدَ نِظَامُهُمْ، وَتَهَدَّمَ عُمُرَانُهُمْ، وَأَصْبَحُوا فَرِيسَةً لِلطَّامِعِينَ.

لِذَلِكَ فَإِنَّ أَوَّلَ أَمْرٍ يَجِبُ عَلَى أَصْحَابِ الْفِكْرِ وَالرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ وَالْإِصْلَاحِ فِي الْأُمَّمِ يَا بَيْدَبَا هُوَ أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى وَضُوحِ رُؤْيَا أُمَّمِهِمْ؛ وَمَعْنَى هَذَا الْوُجُودِ وَغَايَتِهِ لِيَأْخُذَ النَّاسُ حَيَاتَهُمْ مَاخِذَ الْجِدِّ، وَيَجِدُوا فِي الطَّلَبِ، وَيُحَقِّقُوا ذَوَاتَهُمْ وَيُبْدِعُوا فِي عُمُرَانِ رُبُوعِ بِلَادِهِمْ وَرَحَاءِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ وَعَطَاءِ حَضَارَتِهِمْ، وَهَذَا عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ مَعْنَى الْحَيَاةِ، وَغَايَةِ الْوُجُودِ وَمَعْنَى تَعَاقِبِ الْأَجْيَالِ؛ حَيْثُ الْمُتَغَيِّرُ الْوَحِيدُ، هُوَ نَمُوُّ الْمَعَارِفِ وَقُدْرَاتِ التَّسْخِيرِ وَتَطَوُّرِ الْحَضَارَةِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْعُمُرَانِ، هَكَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْبَشَرَ، وَلِهَذَا خَلَقَهُمْ، وَهَكَذَا أَرَادَ. وَمَقْيَاسُ النَّجَاحِ فِي مَعْنَى الْوُجُودِ الْعَادِلِ الْمُتَرَاحِمِ الْمُتَّقِنِ الْمُبْدِعِ وَتَحْقِيقِ الذَّاتِ الْمُؤْمِنَةِ الْمَصْلِحَةَ، يَا بَيْدَبَا أَنْ تَكُونَ الْمَعَارِفُ وَالْقُدْرَاتُ وَالْحَضَارَةُ لِقَصْدِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ.

دَعْنِي أَكْرِرُ عَلَى مَسَامِعِكَ يَا بَيْدَبَا، وَعَلَى مَسَامِعِ إِخْوَانِكَ، مَا خَبَرْتُهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ

أَنَّهُ مِنْ دُونَ وَضُوحِ الرُّؤْيَةِ وَمِنْ دُونَ إِجَابِيَّةِ الرُّؤْيَةِ أَيًّا كَانَتْ وَجْهَتُهَا وَغَايَتُهَا يَا بَيْدَبَا
لَا يَكُونُ عَمَلٌ وَلَا طَلَبٌ، وَلَا يَكُونُ جِدٌّ وَلَا صَبْرٌ، وَلَا تَكُونُ قُدْرَةٌ وَلَا تَكُونُ مَكَانَةٌ، وَلَا
تَكُونُ ثَمَرَةٌ، وَلَا يَكُونُ إِبْدَاعٌ، وَلَا يَكُونُ إِعْمَارٌ.

إِنَّ مَثَلَ الْأُمَمِ فِي رُؤْيَيْهَا وَطَلَبِهَا - أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا - مَثَلُ النَّمْرِ الْكَاسِرِ حِينَ يَرَى ظَبْيًا؛
فَهُوَ يَغْدُو فِي طَلَبِهِ كَالرِّيحِ الْعَاصِفِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَمْشِي الْهُوَيْنَى فِي كَسَلٍ وَمَلَلٍ لَا يَدْرِي
إِلَى أَيْنَ يَتَّجِهُ وَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، وَمَثَلُهُ مَثَلُ الثَّعْلَبِ يَتَجَوَّلُ فِي الْغَابَةِ فَاتِرَ الْخَطْوِ
كَالتَّائِهَةِ، فَإِذَا رَأَى أَرْتَبًا هَبَّ فِي طَلَبِهِ يَطْوِي الْأَرْضَ طَيًّا، بِكُلِّ قُوَّتِهِ وَحِيلَتِهِ، لَا يَنَالُ مِنْهُ
تَعَبٌ وَلَا كَلَلٌ وَلَا مَلَلٌ، وَمَثَلُ صَاحِبِ الرُّؤْيَةِ مَثَلُ الْقِرْدِ الَّذِي يَهْبُ فِي هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ
يَتَسَلَّقُ الْأَغْصَانَ بِكُلِّ خَفَّةٍ وَمَهَارَةٍ حِينَ تَلْمَحُ عَيْنَاهُ شَيْئًا مِنَ الثَّمَرِ فِي أَعْلَى الشَّجَرِ.
إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْتَ يَا بَيْدَبَا؛ إِذَا كُنْتَ فِي حَالَةٍ كَسَلٍ وَتَبَلُّدٍ، وَلَا رُؤْيَةَ عِنْدَكَ، وَلَا غَايَةَ
تَطَلُّبِهَا، أَتُرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا أَمْ تَبْقَى سَاكِنًا لَا تَبْدُلُ جُهْدًا وَلَا تَطْلُبُ حَاجَةً؟ وَهَذَا أَيُّهَا
الْحَكِيمُ عَلَى عَكْسِ حَالِكَ، حِينَ تَكُونُ لَكَ رُؤْيَةٌ وَغَايَةٌ تَطْلُبُهَا، وَحَاجَةٌ تَرْجُوهَا؛ فَأَنْتَ
تُفَكِّرُ وَتُخَطِّطُ وَتَسْعَى وَتُدَبِّرُ أَمْرَكَ لِتَبْلُغَ غَايَتَكَ وَتُحَقِّقَ حَاجَتَكَ؟ بَلْ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا
الْحَكِيمُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى صَغِيرِكَ حِينَ يُحِسُّ حَاجَةً أَوْ يَرَى مَا يَرُوقُ لَهُ كَيْفَ يَفْعَلُ،

وَقَارِنِ حَالَهُ هَذِهِ بِحَالِهِ حِينَ لَا تَكُونُ لَهُ غَايَةٌ وَلَا يَرَى مَا يَرْغَبُ فِي تَحْقِيقِهِ وَالْحُصُولِ عَلَيْهِ. إِنَّهَا سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْكُونِ يَا بَيِّدَبَا، وَإِنَّ مَنْ يَغْفُلُ عَنْهَا يَدْفَعُ الثَّمَنَ.

وَهَذَا أَهْيَا الْحَكِيمِ بَيِّدَبَا هُوَ حَالُ الْأُمَّمِ، وَحَالُ أَفْرَادِهَا، مِنْ دُونِ غَايَةٍ، وَمِنْ دُونِ رُؤْيَةٍ، وَمِنْ دُونِ مَنَهَجٍ فِكْرٍ سَبِيٍّ سَوِيٍّ؛ فَإِنَّهُمْ مَثَلُ "آلَةٍ" أَوْ "عَرَبِيَّةٍ" مُفَكِّكَةٍ مُتَنَائِرَةٍ الْأَوْصَالِ لَا دَافِعَ لَدَيْهِمْ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى الْأَدَاءِ أَوْ الْإِعْمَارِ أَوْ الْإِبْدَاعِ، وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ يَا بَيِّدَبَا فِي أَمْرِ الرُّؤْيِ الْحَضَارِيَّةِ، وَأَمْرِ الْإِعْمَارِ وَالْإِبْدَاعِ، هُوَ مَالُ هَذِهِ الْغَايَاتِ وَالرُّؤْيِ فِي مِيزَانِ الرُّوحِ وَالْمَالِ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الْحَقُّ لِمَعْنَى الْوُجُودِ الَّذِي تَحْيَا مِنْ أَجْلِهِ الْأَفْرَادُ وَالْأُمَّمُ، وَتَعْمُرُ وَتُبْدِعُ فِي حَيَاتِهَا، فِي الْمَدَى الْمُقَدَّرِ لَهَا عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ. أَهْوَى فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ أَمْ هُوَى فِي سَبِيلِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ؟ أَهْوَى فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْإِصْلَاحِ أَمْ هُوَى فِي سَبِيلِ الشَّرِّ وَالْإِفْسَادِ؟

نَعَمْ؛ إِنَّ الْأَمْرَ الْمُهْمَّ فِي مِيزَانِ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ أَهْيَا الْحَكِيمِ بَيِّدَبَا؛ الَّذِي يَجِبُ أَلَّا يَغِيبَ عَن ضَمِيرِكُلِّ عَاقِلٍ لَا يُشَلُّ وَلَا يَضِيعُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي مِيزَانِ الْمَعَانِي وَالْغَايَاتِ، فَيَنْدُمُ الْإِنْسَانُ وَلَاتَ سَاعَةٌ مَنْدَمٍ، هَذَا الْأَمْرُ الْمُهْمُّ هُوَ إِلَى أَيِّ غَايَةٍ تُوجَّهُ الْأُمَّمُ وَالْأَجْيَالُ وَالْحَضَارَاتُ جُهُودَهَا وَتَصْرِيفَاتِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ؟ أَهْوَى انْتِصَارًا لِلْحَقِّ

وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ وَالسَّلَامِ، أَمْ هُوَ غَلْبَةٌ لِلْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ؟ هَذَا هُوَ مَقْيَاسُ
النَّجَاحِ أَوْ الْفَشْلِ، وَمَقْيَاسُ حُسْنِ آدَاءِ أَمَانَةِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، أَوْ سُوءِ خِيَانَةِ أَمَانَةِ
الْأَدَاءِ وَغَلْبَةِ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالظُّلْمَةِ وَالطِّينِ. هَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْأَهْمُ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ
الْوُجُودِ وَمَعْنَى ثُنَائِيَّةِ الْخِيَارِ، وَهَذَا هُوَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ مَعْنَى الْمَصِيرِ وَالْمَالِ.

وَإِذَا اتَّضَحَتِ الْغَايَةُ، وَاتَّضَحَتِ مَعَهَا الرُّؤْيَةُ، أَيَّا كَانَتْ أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدَبَا، عَلِمْتَ
الْأَمْمَ مَا تَفَعَلُ، وَعَلِمْتَ مَا تَأْخُذُ وَمَا تَدَعُ، وَمَا تَفَعَلُ وَمَا لَا تَفَعَلُ، وَلَكِنْ بِحِدِّ وَقُوَّةٍ
وَإِبْدَاعٍ، وَالْفَلَاحُ وَالنَّجَاحُ هُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَعَاقِبَةِ الطَّمَانِينَةِ
وَالرِّضَا، لَا فِي سَبِيلِ الشَّرِّ وَعَاقِبَةِ النَّدَامَةِ وَالْخُسْرَانِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، مَا أَظُنُّكَ بَعْدَ كُلِّ مَا دَارَ بَيْنَنَا وَحَدَّثْتَنِي عَنْهُ إِلَّا
أَنَّكَ قَدْ هَدَيْتَنِي إِلَى طَلْبَتِي، وَأَذْرَكْتُ الْآنَ لِمَاذَا تَتَخَلَّفُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَمَمِ وَتُخْفِقُ جُهُودُ
كَثِيرٍ مِنْهَا فِي التُّهُؤُصِ مِنَ الْكِبُوءَةِ، وَتَعْجِزُ عَنِ اللَّحَاقِ بِالرَّكْبِ؛ وَذَلِكَ لِمَا أَصَابَ رُؤْيَتَهَا
مِنْ غَبَشٍ، وَمَنْهَجَتِهَا مِنْ تَشَوُّهِ، وَفِكْرَتِهَا مِنْ تَخَلْفٍ، وَوَجْدَانِهَا مِنْ انْحِطَاطٍ؛ وَهَذَا مَا
أَفْقَدَهَا دَافِعِيَّةَ جِدِّ الطَّلَبِ، وَقُدْرَةَ الْإِبْدَاعِ، وَأَوْرَثَهَا الذُّلَّ وَالْفَقْرَ وَالضَّبَّاعَ، فَهِيَ عِنْدَ
ذَلِكَ لَا تَتَقِنُ إِلَّا الْمُحَاكَاةَ وَدَاءَ التَّقْلِيدِ الْعَشَوَائِيِّ الْأَعْمَى؛ لِيَكُونَ مَثَلُ حَالِهَا فِي جَهَالَةِ

تَقْلِيدِهَا، وَعَشْوَائِيَّةِ انْتِقَائِهَا؛ حِينَ تَأْخُذُ مَا تَأْخُذُ بِجَهَالَةٍ، وَمِنْ دُونَ دِرَايَةٍ بِحَالِهَا
وَحَالَ مَنْ تُحَاكِيهِ؛ مَثَلُ حَالِ مَنْ يَأْخُذُ "الْأَكْسُجِينَ" فِي وَرِيدِهِ بَدَلَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ أَنْفِهِ
وَرِئْتِيهِ؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ وَسُوءُ مَالِهِ.

رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ عَقْلِهِ

قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَنَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فِي أَمْرِ الرُّؤْيَةِ الْكُلِّيَّةِ وَمَوْقِعِهَا الْمَحْوَرِيِّ مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَأَهْمِيَّتِهَا فِي تَفْعِيلِ جُهْدِهِ، وَدَافِعِيَّةِ نَفْسِهِ، وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ الرُّؤْيَةَ الْكُلِّيَّةَ فِيهَا الْكَثِيرُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِكُلِّيَّاتِ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ، وَمَا يُعَدُّ مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ، وَالْغَيْبُ وَعَلَاقَتُهُ بِالْحَيَاةِ وَالشُّهُودِ، كَمَا يَعْلَمُ شَيْخُنَا الْجَلِيلُ، قَضِيَّةٌ مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي أَثَارَتْ بَيْنَ النَّاسِ الْكَثِيرِ مِنَ الْجَدَلِ، وَضَلَّ بِشَأْنِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُقُولِ فِي جَدَلٍ عَقِيمٍ وَشَدِّ وَجَذْبٍ لَا نَهَايَةَ لَهُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنَا عَنْهَا بِشَيْءٍ يُعِينُنَا عَلَى مَعْرِفَةِ كَيْفَ نَتَّعَامَلُ مَعَهَا، وَنُفِيدُ مِنْهَا، بِشَكْلِ عَمَلِيٍّ وَنَبْتَعُدُ بِذَلِكَ عَنِ الْمُنَازَعَاتِ الْفُسَيْفَسَائِيَّةِ الْبَيْرِزْنَطِيَّةِ الْمُحِيرَةِ؛ الَّتِي لَا تَنْتَهِي الْمُجَادَلَاتُ بِشَأْنِهَا إِلَّا لِتَبْدَأَ مِنْ جَدِيدٍ، فَيَكُونُ حَدِيثُكَ عَوْنًا لَنَا فِي التَّعَامُلِ الْإِجَابِيِّ مَعَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ إِنَّ مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ الرُّؤْيَةِ الْكُلِّيَّةِ وَأَهْمِيَّتِهَا لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَتَوْجِيهِهَا صَحِيحٌ، وَخَيْرُ الرُّؤْيِ الْكُلِّيَّةِ مَا تَلْقَاهُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْحَيَاةِ وَمَا بَعْدَهَا، بِشَكْلِ صَحِيحٍ مَوْثُوقٍ، وَأَنْ تَكُونَ فَحْوَاهُ خَيْرَةً إِجَابِيَّةً؛ فَتُنِيرُ لَهُ الطَّرِيقَ وَيَسْلُمَ مَعَهَا الْمَصِيرُ، وَتَكُونَ دَلِيلَنَا إِلَى الْغَيْبِ فِي حَيَاتِنَا، وَكَيْفَ نُدْرِكُ مَعْنَاهُ،

وَدَلَّالَتُهُ، فِي نَفُوسِنَا، وَفِي أَمْرِ مَصِيرِنَا؟ وَكَيْفَ نُحْسِنُ فَهْمَهُ، وَالتَّعَامُلَ مَعَهُ، وَالْإِفَادَةَ مِنْهُ؟
إِنَّ الْغَيْبَ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ يَا بَيْدَبَا أَمْرٌ مِهِمٌّ لَا تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ، وَلَا تَهْتَأُ النَّفُوسُ،
وَلَا تَهْتَدُ، مِنْ دُونِ التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَيْهِ، وَالْإِفَادَةَ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الْمِهِمَّ كَمَا
ذَكَرْتُ لَكَ يَا بَيْدَبَا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَهْمُ وَالتَّعَامُلُ خَيْرًا، بِنَاءً، وَإِيجَابِيًّا، وَعَمَلِيًّا،
وَبَعِيدًا عَنِ السَّفْسَطَاتِ وَالْمَتَاهَاتِ وَالشَّعْوَذَاتِ.

وَلِذَلِكَ؛ فَاعْلَمْ يَا بَيْدَبَا، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ حَضَرَ مَعَنَا الْيَوْمَ؛ بَدءًا أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يَتَمَتَّعُ
الْعُلَمَاءُ وَالْحُكَمَاءُ مِنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ بِشُؤُونِ مَا حَوْلَهُمْ مِنَ الْكُونِ، وَحَالِ النَّاسِ،
وَتَحَدِيَّاتِ الْعَصْرِ، وَإِمْكَانَاتِهِ، بِقَدْرِ مَا يُدْرِكُ هَؤُلَاءِ الْحُكَمَاءُ أَبْعَادَ الْغَيْبِ فِي مَعْنَى
الْحَيَاةِ وَغَايَاتِهَا وَرُؤَاهَا الْكُونِيَّةِ، وَفِي تَفَاعُلِهَا مَعَ وَاقِعِ زَمَانِهِمْ وَمَكَانِهِمْ، وَمِنْ هُنَا يَأْتِي
تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي كُلِّ عَصْرِ فِي حُسْنِ أَدَائِهِمْ: فَهَمًّا وَعِلْمًا وَحِكْمَةً، لِأَنَّهُ بِقَدْرِ بَصِيرَتِهِمْ
وَعِلْمِهِمْ تَرشُدُ بَصِيرَتُهُمْ، وَتَنْضِجُ قُدْرَتُهُمْ فِي فَهْمِ الدَّلَالَاتِ وَالْمَعَانِي الْمُتْرَاكِبَةِ، فِي
مُجْرِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ، وَضَمْنِ إِمْكَانَاتِهِمْ، وَذَلِكَ مَا يُحَدِّدُ مَدَى قُدْرَتِهِمْ فِي الْإِفَادَةِ مِنْ
مَخزُونِ عُلُومِهِمْ وَمَعْلُومَاتِهِمْ فِي تَبْصِيرِ أَقْوَامِهِمْ، وَتَرشِيدِ ذُرُوبِ سَعْيِهِمْ، بِالتَّعْلِيمِ
وَالدَّعْوَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَلَيْسَ بِالْإِدْعَاءِ أَوْ بِالتَّعَالِي، أَوْ بِالتَّمْتَرُسِ خَلْفَ

الإجازات والألقاب والمظاهر والشكليات والسفسطات؛ وصاية وترهيباً وتسلاًطاً، وخدمة
بوعى أودون وعى، لأطماع النفس، ومصالح أصحاب المال والجاه والسلطان.
بقدر الإخلاص وشمولية المعرفة في تكوين قيادات فكر الأمة وسلامة وجدانهم
وشجاعة جنانهم يا بيدبا تكون سلامة المعرفة، وتكون الحكمة، ويكون الرشاد، فليس
الأمر في جوهره يا بيدبا أمر عقل ونقل فقط، كما يقولون، ولكنه أمر ذكاء قلب، وسعة
علم، وشمولية معرفة، وبقدر العمق والشمول يكون حسن الفهم، وسلامة الإدراك
والاستدلال، وحسن المآخذ، وسلامة النظر والاجتهاد، وحيث يكون لكل مشكلة حل،
ولكل مسألة جواب، ولكل طريق دليل.

فلنعن يا بيدبا؛ في تعليم أبنائنا بتزويدهم بالرؤية الكونية السليمة، وبالقيم السامية،
وبالمعرفة المعمقة الشمولية في نفيس تراث أمتهم، وفي علوم عصرهم، وحال الكائنات،
والناس وطبائعهم، وفي إمكانات العصر وتحدياته وحاجاته وأفاقه، بكل الحكمة والتأمل
والتفكير؛ بقصد الصلاح، والإصلاح، وتحقيق المصلحة العامة في ضوء الكليات،
وحسن فهم الجزئيات، ووصفها، وإدراك دلالات الخطاب، والمعنيين به، في الزمان
والمكان، وحينئذ، يا بيدبا، يكون الأمر أمراً علمياً عملياً؛ أي يكون أمر تفكير وتمعن

وَحَوَارٍ، وَأَمْرَتَوَافِقٍ وَحُسْنِ فَهْمٍ، وَطَلَبِ مَقَاصِدَ، لَا أَنْ يَكُونَ جَدًّا نَظْرِيًّا سَفْسَطَائِيًّا؛
وَعِنْدَهَا تَرْشُدُ حَرَكَةُ الْمُجْتَمَعِ، وَتَرْشُدُ الْمَسِيرَةَ، وَيَطِيبُ الْبِنَاءُ.

قَالَ بَيْدَبَا: وَلَكِنْ مَا بَالُ الْغَيْبِ فِي حَيَاتِنَا وَوُجُودِنَا يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ؟

قَالَ الشَّيْخُ: الرَّؤْيِيَةُ الْكُلِّيَّةُ بَدَأَ وَمَصِيرًا مِنْ أَهَمِّ مَا يَعْنِي الْإِنْسَانَ مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ، وَذَلِكَ
يَا بَيْدَبَا أَهَمُّ جُزْءٍ يُوجِّهُ حَيَاتِنَا، وَيُحَدِّدُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ، فِي ضَمَائِرِنَا، مَعْنَى هَذِهِ الْحَيَاةِ؛
وَلِذَلِكَ لَا تُخْطِئُ يَا بَيْدَبَا بِقَبُولِ مَا هُوَ غَيْرُ مُوثِقٍ مِنْ خَبَرِ الْغَيْبِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ
تَقِيسَ عَلَى أَمْرِهِ فِي نَقْدِ مَثَلٍ مَقُولَاتِهِ، فَهُوَ لَيْسَ لَهُ فِي شَاهِدِ حَيَاتِكَ مَثِيلٌ، وَلَا تُخْطِئُ يَا
بَيْدَبَا بِعَدَمِ رَبْطِ تَفَاصِيلِهِ بِكُلِّيَّاتِهِ، بِحِكْمَةٍ وَحُسْنِ مَا خَذَ؛ فَكُلِّيَّاتُهُ هِيَ الْقَصْدُ، وَجُزْئِيَّاتُهُ
بِالضَّرُورَةِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ، إِنَّمَا هِيَ لِتَقْرِيبِ الْأَمْرِ إِلَى عُقُولِ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ حَالَ عَالَمِ
الْغَيْبِ بِالضَّرُورَةِ عَلَى غَيْرِ حَالِ دُنْيَا الْبَشَرِ، وَالْحَذَرَ الْحَذَرِيَا بَيْدَبَا أَنْ تُخْطِئَ أَوْ تَخْلُطَ فِي
تَوْجِيهِهِ خِطَابَاتِهِ إِلَى غَيْرِ الْمَعْنِيِّينَ بِهَا، أَوْ إِلَى غَيْرِ مَقَاصِدِهِ الْكُلِّيَّةِ فِي تَوْجِيهِهِ الْحَيَاةِ، وَتَحْقِيقِ
مَقَاصِدِهَا، أَوْ إِنَّكَ لَا تَرَاعِي فِي خِطَابَاتِهِ حَالَ الْمُخَاطَبِ بِهِ، فَإِنِّي أُعِيدُكَ، وَأُعِيدُ أَمْثَالَكَ،
أَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ؛ بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَقِلَّةِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، أَوْ بِسَبَبِ التَّهَاوُنِ أَوِ الْغَرَضِ؛
لِأَنَّ فِي ذَلِكَ يَا بَيْدَبَا وَلَا شَكَّ أَسْوَأَ الضَّرْرِ، وَأَبْعَدَ الْأَثَرِ، وَأَشَدَّ الْخَطَرِ؛ وَذَلِكَ لِمَا لِلْغَيْبِ مِنْ

سُلْطَانِ الْقَدَاسَةِ فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ؛ حَيْثُ يُحِيلُ -بَلْحَنِ الْقَوْلِ وَسُوءِ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ-
شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ هِدَايَةَ الْقَدَاسَةِ قَهْرًا فِي النُّفُوسِ، وَفَسَادًا فِي الْأَرْضِ، وَضَلَالًا فِي
الْمَسِيرَةِ، وَهَلَاكًا فِي الْمَصِيرِ.

اذْكُرْ، يَا بَيْدَبَا؛ أَلَّا تَخْلِطَ خِطَابَاتِ الْغَيْبِ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ وَحَاجَاتِهِمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ
وَالْكَافِرِ، وَبَيْنَ الضَّالِّ وَالْمُعَانِدِ الْمُكَابِرِ، وَبَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، وَبَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ،
وَبَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، اِخْرِصْ يَا بَيْدَبَا أَنْ تُوَجَّهَ الْخِطَابَ بِمَا يُحْيِي النُّفُوسَ وَيُبْصِرُهَا،
وَيَبْعَثُ الْأَمَلَ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْإِتْقَانِ فِيهَا، كُلُّ نَفْسٍ بِحَسَبِ حَالِهَا وَحَاجَتِهَا،
فَالْإِنْسَانُ يُقْبِلُ عَلَى مَا يُحِبُّ وَيَرْغَبُ، وَيُدْبِرُ وَيَزُورُ وَيَبْعُدُ عَمَّا يَخَافُ وَيَكْرَهُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَا بَيْدَبَا، وَصِفَاتُهُ؛ هُوَ كُلُّ مَا نُحِبُّ وَنَرْغَبُ فِي قَرَارَةِ نُفُوسِنَا،
وَأَشْوَاقِ أَرْوَاحِنَا، فَهُوَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَالرَّحْمَةُ وَالسَّلَامُ، وَنَحْنُ فِي قَرَارَةِ هَذِهِ النُّفُوسِ،
وَأَشْوَاقِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ، نَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، فَنَحْنُ نَكْرَهُ الْبَاطِلَ وَالظُّلْمَ وَالْقَسْوَةَ وَالْعُدْوَانَ، وَلَا
نَرْضَى عَنْ نُفُوسِنَا حِينَ تَقَعُ فِي شَيْءٍ مِنْ نَوَازِعِ تَظَالُمِ الْمَادَّةِ وَالطَّيْنِ؛ بِتَزْيِينِ الشَّيَاطِينِ،
وَهَوَى النُّفُوسِ، وَنَحْنُ نَرْتَاخُ وَنَفْرَحُ وَتَقْرُنُ نُفُوسِنَا وَأَعْيُنُنَا وَحَيَاتُنَا حِينَ نَرْجِعُ عَنْ شَيْءٍ
وَقَعْنَا فِيهِ مِنْهَا، فَالْخَيْرُ الْخَيْرُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنْ نَعْلَمَ كَيْفَ نُحْسِنُ مَعْرِفَةَ مَوْجِعِ الْغَيْبِ فِي

حَيَاتِنَا، وَأَنْ نُحْسِنَ التَّعَامُلَ مَعَهُ، وَالِاسْتِفَادَةَ مِنْهُ، يَكُونُ كَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ لَنَا، وَكَمَا مَكَّنَ لَهُ فِي نُفُوسِنَا، وَأَرْشَدَنَا إِلَيْهِ بِفَطْرَتِنَا حُبًّا وَرَغْبَةً، وَنِعْمَةً وَدَافِعًا، لَا نِقْمَةً وَمَخْذَلًا، تَنْفِرُ مِنْهُ النُّفُوسُ، وَمِنْهُ تَرْهَبُ وَتَهْرَبُ.

اذْكُرِيَا بَيْدَبَا أَنْتَ وَإِخْوَانُكَ وَلَا تَنْسُوا أَبَدًا؛ أَنَّ حَالَ الْخِطَابِ كَحَالِ الدَّوَاءِ؛ إِنْ لَمْ نَكُنْ بِهِ وَبِحَالِ الْمُعَالِجِ بِهِ عَالِمِينَ، يَكُونُ ضَرَرُهُ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ، وَقَدْ يُصْبِحُ الدَّوَاءُ الْبَلْسَمَ سُمًّا زُعَافًا، فَأَحْسِنِ الْفَهْمَ يَا بَيْدَبَا، وَسَدِّدِ الْخِطَابَ، "فَعَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ". وَقَبْلَ أَنْ يُوَاصِلَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ، رَفَعَ أَحَدُ الشَّبَابِ يَدَهُ وَحَاجَبِيَهُ، وَكَأَنَّهُ مُنْدَهَشٌ مِمَّا سَمِعَ.

قَالَ لَهُ الشَّيْخُ: مَا الَّذِي أَذْهَشَكَ يَا بُنَيَّ فِيمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ الْفَتَى: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، إِنِّي لَا أَدْرِكُ، كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ خَيْرًا مِنَ الصَّدِيقِ. عِنْدَ هَذَا، ابْتَسَمَ الشَّيْخُ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً وَقَالَ لِلْفَتَى: بَلَى يَا بُنَيَّ، إِنَّ هَذَا أَمْرٌ مُمَكِّنٌ، فَالْجَهْلُ قُصُورٌ فِي الْفِكْرِ، وَحَمَاقَةٌ فِي الرَّأْيِ، وَلَعَلَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِالذُّبِّ، الَّذِي هَوَى عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهِ بِيَدِهِ، لِيَقْتُلَ ذُبَابَةً وَقَعَتْ عَلَى رَأْسِ صَاحِبِهِ، فَطَارَتِ الذُّبَابَةُ، وَتَحَطَّمَتْ رَأْسُ صَاحِبِهِ.

ضَجَّتِ الْقَاعَةُ بِالضَّحِكِ مِمَّا سَمِعَهُ الْحَاضِرُونَ، وَأَطْرَقَ الشَّيْخُ هَدَاتِ الضَّجَّةِ،
وَالْتَفَتَ مُجَدِّدًا إِلَى بَيْدَبَا، مُوَاصِلًا مَا انْقَطَعَ مِنْ حَدِيثِهِ قَائِلًا لَهُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا، يَجِبُ أَنْ
نَعْلَمَ أَنَّ لِلْعَقْلِ مَوْضِعَهُ، فَلَا حَقِيقَةَ لِشَيْءٍ فِي خَاتِمَةِ الْمَطَافِ فِي تَصَوُّرِ الْإِنْسَانِ وَإِدْرَاكِهِ
مِنْ دُونِ الْعَقْلِ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ حُدُودَ الْعَقْلِ، وَحُدُودَ الْمَنْطِقِ الْإِنْسَانِيِّ، فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ، وَأَنْ نَعْرِفَ سَقْفَهُمَا، مِنْ دُونِ تَنْطَعٍ وَسَفْسَاطَةٍ، وَمِنْ دُونِ فَسَيْفِ سَائِيَّاتٍ؛
فَنَسْتُخْدِمُ "الْعَقْلَ بِعَقْلٍ"، لَا كَمَا فَعَلَ وَيَفْعَلُ كَثِيرُونَ حِينَ يَسْتُخْدِمُونَ الْعَقْلَ بِـ "قِلَّةِ
عَقْلٍ" حِينَ يَتَجَاهَلُونَ حَدَّهُ وَسَقْفَ قُدْرَتِهِ وَمَنْطِقَهُ؛ وَحِينَ يَتَعَامَلُونَ بِهِ مُطْلَقًا، بِالظَّنِّ
وَالْتَّخْرِيفِ وَالتَّخْرِيفِ، مِنْ دُونِ أَدَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا دَلِيلٍ فِيمَا وَرَاءَ قُدْرَةِ الْعَقْلِ وَمَنْطِقِهِ
وَحُدُودِ طَبِيعَتِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَ"رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا" "عَرَفَ سَقْفَ عَقْلِهِ"، فَهَذَا مَا يُرْشِدُ
جَمَهْرَةَ الْعُقُولِ يَا بَيْدَبَا، وَيَجْمَعُهَا عَلَى التَّوَافُقِ الرَّاشِدِ الْمَقْبُولِ، وَيَهْدِيهَا إِلَى حُسْنِ النَّظَرِ،
وَحُسْنِ الْمَأْخِذِ، وَإِلَى التَّعَامُلِ الْمَيْسَّرِمَعِ وَاقِعِ الْحَيَاةِ وَكُلِّيَّاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا الْبِنَاءَةَ الْخَيْرَةَ.
قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ، صَدَقْتَ يَا سَيِّدِي فِيمَا ذَكَرْتَ، وَكَمْ أَسَاءَ كَثِيرُونَ حَيْثُ أَرَادُوا أَنْ
يُحْسِنُوا بِجَهْلِهِمْ، وَقُصُورِ أَدَاةِ عِلْمِهِمْ، وَأَنْفِعَالَاتِ عَوَاطِفِ نُفُوسِهِمْ، فَسَلَامَةُ الرُّؤْيَةِ
الْكُلِّيَّةِ وَسَلَامَةُ مَنْهَجِ الْفِكْرِ، وَشُمُولِيَّتُهُ أَسَاسُ سَلَامَةِ النَّظَرِ وَسَدَادِ الرَّأْيِ، وَصَوَابِ

الخِطَابِ، وَبِذَلِكَ تَفَاوَتْ قَدْرُ الْعُلَمَاءِ، وَتَفَاوَتْ قُدْرَاتُهُمْ، وَتَفَاوَتْ عُمُقُ فِكْرِهِمْ، وَيُسْرُ
 مَا أَخَذَهُمْ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ مَا يَجِبُ أَنْ نُرْسِيَ أَيْهَا الْإِخْوَةَ وَالْأَخَوَاتُ دَعَائِمَهُ فِي تَرْبِيَةِ أبنَائِنَا،
 وَتَعْلِيمِهِمْ، وَإِعْدَادِهِمْ لِيَكُونُوا كَوَادِرَ قَادِرَةً بِنَاءً؛ تُحْيِي النُّفُوسَ، وَتُسْتَعِيدُ الْقُدْرَةَ،
 وَتُسَدِّدُ الْمَسِيرَةَ، فَصَاحِبُ الْمَنْهَجِ السَّلِيمِ، وَالْمَعْرِفَةِ الشُّمُولِيَّةِ، يَعْرِفُ لِلْغَيْبِ مَوْضِعَهُ،
 وَلِلْعَقْلِ مَوْضِعَهُ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى فِي النَّصِّ مَا لَا يَرَاهُ سِوَاهُ، وَيُدْرِكُ دَلَالَاتَهُ فِيَمَا حَوْلَهُ
 مِنْ حَالِ النَّاسِ وَأَحْوَالِ الْعَصْرِ، وَفِي ذَلِكَ السَّدَادُ وَالرَّشَادُ الَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ الْبَشَرُ فِي كُلِّ
 عَصْرٍ وَمَصْرٍ، فِيَمَا يُمَثِّلُ مِنْ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ وَالْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ،
 يَكْتَمِلُ بِنَاءُ حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَتَبَدَّى قُدْرَاتُهَا وَجَمَالَاتُهَا، وَطَاقَاتُ التَّسْخِيرِ
 وَالْإِبْدَاعِ وَالْإِمْتِنَاعِ فِيهَا، بِمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ بِفِطْرَتِهِ مِنْ طَاقَاتٍ وَقُوَى وَقُدْرَاتٍ؛ لِيَعْمُرَ
 بِهَا الْخَيْرُ، وَتَتَسَّعَ أَفَاقُهُ، وَلِيَسُودَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ، وَيُقْهَرَ الشَّرُّ وَالْبَاطِلُ، إِلَى أَنْ يُكْشَفَ
 السِّتَارُ، فَطُوبَى يَا بَيْدَبَا يَوْمَئِذٍ لِلْعَامِلِينَ الْأَخْيَارِ.

اسْتَمَعَ الْجَمِيعُ إِلَى هَذَا الْعَرَضِ الْمَيْسَرِ الَّذِي يَنْبُوعِنِ السَّفْسَطَةِ النَّظْرِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْبُعُ
 مِنْ وَاقِعِ الْحَيَاةِ وَقَضَايَاهَا، وَلَا أَثَرِهَا وَلَا نَتِيجَةَ سِوَى إِشَاعَةِ الْفَوْضَى الْفِكْرِيَّةِ فِي رُؤْيَةِ
 الْأُمَّةِ وَالْفَتَى فِي عَزِيمَةِ أَفْرَادِهَا.

وَمِنْ دُونِ سَابِقِ إِنْذَارٍ وَالْجَمِيعُ غَارِقٌ فِي تَأْمُلٍ مَا سَمِعَ، قَطَعَ السُّكُونُ صَوْتٌ وَادِعٌ رَقِيقٌ، التَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى مَصْدَرِهِ فَرَأَى فَتَاةً جَمِيلَةً بَهِيَّةَ الطَّلَعَةِ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مُسْتَأْذِنَةً فِي الْحَدِيثِ.

قَالَ الشَّيْخُ: بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ، فَمَاذَا لَدَيْكَ أَيُّهَا الْأَخْتُ؟ قَالَتِ الْفَتَاةُ: لَقَدْ سَعِدْنَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ بِمَا سَمِعْنَا مِنْ حِكْمَتِكَ، وَقَدْ مَرَّرْتُ بِحَادِثَةٍ طَرِيفَةٍ كَأَنَّهَا تُجَسِّدُ مَا سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ، فَهَلْ يَرَى الشَّيْخُ أَنْ أَقْصَهَا عَلَيَّ مَسَامِعِهِ؟

قَالَ الشَّيْخُ: عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ، فَأَمْتَعِينَا بِمَا عِنْدَكَ؟ قَالَتِ الْفَتَاةُ: كُنَّا جَمَاعَةً مِمَّنْ جَلَسَ إِلَى أَحَدِ تَلَامِيذَةِ فَلَسَفَاتِ حَضَارَةِ الْإِغْرِيْقِ الْأُسْطُورِيَّةِ الصُّورِيَّةِ، الْبَائِدَةِ، وَكَانَ مِمَّا تَحَدَّثَ بِهِ إِلَيْنَا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْمُتَفَلِّسُ حَدِيثًا عَنْ مُعْضَلَةٍ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ حَلْمًا، وَشَاءَ أَنْ يَعْضَلَهَا عَلَيْنَا لِيَرَى إِنْ كَانَ لَدَيْنَا مَا يُعِينُهُ عَلَى حَلْمِهَا. قَالَ: كَانَ عِنْدِي قِطٌّ ذِكِّيٌّ أَرِيبٌ يُسَلِّبُنِي بِحَرَكَاتِهِ وَدُعَابَاتِهِ، وَقَدْ أَفْلَحْتُ فِي تَعْلِيمِهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْحَرَكَاتِ وَالْحَيْلِ وَالْخِدْمَاتِ، وَخَطَرْتُ يَوْمًا أَنْ أَنْبِي ذَكَاءَ هَذَا السَّنُورِ الْأَرِيبِ، وَأَنْ أُعَلِّمَهُ مَبَادِيءَ عِلْمِ الْجَبْرِ وَالْحِسَابِ، قَالَ الْمُتَفَلِّسُ الْيُونَانِيُّ: لَكِنْ مَا حَيْرَنِي، وَمَا يَزَالُ يُحَيْرُنِي، أَنِّي لَمْ أَفْلِحْ فِي تَعْلِيمِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَبْرِ وَلَا شَيْئًا مِنَ الْحِسَابِ، مَعَ أَنَّ مَا عَرَضْتُهُ

عَلَيْهِ هُوَ أَبْسَطُ مَبَادِيهِ وَمَعْلُومَاتِهِ، وَالْقَضِيَّةُ الْفَلْسَفِيَّةُ الْعَوِيصَةُ الَّتِي أَوَاجِهَهَا هِيَ: هَلْ هَذَا الْهَرُغْبِيُّ؟ وَلَكِنِّي أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ هِرًّا غَبِيًّا، بَلْ هُوَ مِنْ أَدَاكِي مَا عَرَفْتُ مِنَ الْقِطَطِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْقِطُّ غَبِيًّا فَلَا بُدَّ أَنَّ الْحِسَابَ لَا يُمَكِّنُ تَعْلِيمَهُ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْحِسَابَ يُمَكِّنُ تَعْلَمَهُ، وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَإِنَّ دَفْتَرِ تَعْلِيمِ الْجَبْرِ وَالْحِسَابِ حَقِيقَةٌ فِي يَدِي، كَمَا أَنَّ الْقِطَّ حَقِيقَةٌ أَمَامِي، فَكَيْفَ يَكُونُ الْقِطُّ حَقِيقَةً وَذَكِيًّا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَبْسَطَ مَبَادِي عِلْمِ الْحِسَابِ، الَّذِي هُوَ حَقِيقَةٌ أَيْضًا، وَيُمْكِنُ - لِلطِّفْلِ - أَنْ يَتَعَلَّمَ، إِنَّهُ أَمْرٌ مُحَيَّرٌ وَمَسْأَلَةٌ فِلْسَفِيَّةٌ عَوِيصَةٌ مُحَيَّرَةٌ، لَا أَجِدُ لَهَا الْيَوْمَ حَلًّا فِلْسَفِيًّا مَنْطِقِيًّا مَعْقُولًا؛ لِأَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ فِي عِلْمِي حَقِيقَةٌ، وَلَكِنَّهُمَا يَبْدُوَانِ مُتَنَاقِضَيْنِ، وَلَا بُدَّ لِهَذَا التَّنَاقُضِ مِنْ حَلٍّ!

قَالَتِ الْفَتَاةُ: خِيَمَ الصَّمْتُ عَلَى الْحَاضِرِينَ، وَكَأَنَّهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِمَّا بَسَطَهُ الْمُتَفَلِّسُ الْإِغْرِيْقِيُّ أَمَامَهُمْ بِشَأْنِ هَذَا التَّنَاقُضِ بَيْنَ الْقِطِّ الذَّكِيِّ وَالْحِسَابِ الْبَسِيطِ الَّذِي يُمَثِّلُ مُشْكَلَةً فِلْسَفِيَّةً تَحْتَاجُ إِلَى حَلٍّ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: وَنَحْنُ فِي حَيْرَتِنَا فُوجِنَا بِأَحَدِ الْأَطْفَالِ الْحَاضِرِينَ يَقْطَعُ هَذَا الصَّمْتَ، وَقَدْ بَادَرْتُ كَلِّمًا بِبَسَاطَةِ الْأَطْفَالِ وَتَلْقَائِيَّتِهِمْ وَمِنْ دُونِ إِذْنِ مَنْ أَحَدٍ، فَقَالَ: وَلَكِنَّ هَذَا قِطٌّ يَا أَسْتَاذُ، لَيْسَ إِنْسَانًا يَتَعَلَّمَ الْحِسَابَ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ: هُنَا، فَجَاءَهُ، وَكَأَنَّهَا صَحَوْنَا مِنْ غَفَوْتِنَا وَعُدْنَا إِلَى صَوَابِنَا، بَعْدَ أَنْ كُنَّا غَارِقِينَ مَعَ فَيْلَسُوفِنَا الْبِيزَنْطِيِّ فِي قَضِيَّتِهِ وَتَنَاقُضَاتِهِ؛ لِنُدْرِكَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ فِي أَصْلِهَا قَضِيَّةٌ وَهَمِيَّةٌ؛ فَمُنْذُ مَتَى كَانَ الْقَطْ مَهْمًا كَانَ ذِكَاؤُهُ الْحَيَوَانِي يُصِلُ إِلَى مَرَحَلَةِ ذِكَاءِ الْإِنْسَانِ وَقُدْرَاتِهِ؛ فِي الْإِدْرَاكِ، وَتَعَلُّمِهِ عُلُومَ الْإِنْسَانِ؛ فَكُنَّا يَعْلَمُ بِالْبَدِيهَةِ أَنَّ لِكُلِّ كَائِنٍ سَقْفَهُ الْمَعْرِفِيُّ، وَسَقْفَهُ الْمَنْطِقِيُّ.

وَهَكَذَا أَيُّهَا الشَّيْخُ تَعَلَّمْنَا مِنْ دُونِ سَفْسَطَةٍ مِنْ مَنْطِقِ هَذَا الطِّفْلِ التَّلْقَائِيِّ الْبَسِيطِ أَنَّ مِنَ الْجَهْلِ وَالِاسْتِكْبَارِ أَنْ يَخُوضَ الْإِنْسَانُ، مِنْ دُونِ دَلِيلٍ، فِيمَا هُوَ وَرَاءَ سَقْفِ مَنْطِقِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَامَلَ فَقَطْ مَعَ شُئُونِ الْخَبَرِ الْمَوْثُوقِ مِنَ الْغَيْبِ، فِي حُدُودِ عَلاَقَتِهِ بِهِ، وَمَا يَنْطَوِي وَجُودُهُ عَلَيْهِ مِنْ أَبْعَادٍ، وَلَكِنْ ضَمَّنَ مَا يَنْدَرُجُ فِي حُدُودِ مَنْطِقِهِ وَمَعَارِفِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَصَالِحِهِ، وَمَا يُحْتَمُّهُ دَلِيلُ هَذَا الْمَنْطِقِ، وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، وَهَذِهِ الْحَاجَاتِ وَالْمَصَالِحِ، فَلَمْ تَكُنْ فَضِيلَةُ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا لِاعْتِرَافِهَا بِحُدُودِ سَقْفِ مَعْرِفَتِهَا، وَلَمْ تَكُنْ جَرِيمَةً إِبْلِيسَ إِلَّا لِانْكَارِهِ أَنَّ لِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَمَنْطِقِهِ سَقْفًا يَقِفُ عِنْدَهُ؛ فَجَهْلٌ وَاسْتِكْبَارٌ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ.

قَالَ الشَّيْخُ: أَحْسَنْتِ أَيُّهَا الْأَخْتُ وَأَجَدْتِ، وَمَا أَظُنُّ بَيْدَبَا إِلَّا قَدْ طَرِبَ لِسَمَاعِ قِصَّةِ

السَّنُورِ وَالطِّفْلِ الَّذِي حَلَّ بِمَنْطِقِهِ التَّلْقَائِيَّ البَّسِيطِ لِذَلِكَ الشَّيْخِ السُّفُسْطَائِيِّ مُعْضِلَتَهُ
 البِيزَنْطِيَّةَ الرَّائِفَةَ، الَّتِي كَثِيرًا مَا يَقَعُ النَّاسُ فِي أَمْثَالِهَا، مِنْ دُونِ أَنْ يُدْرِكُوا ذَلِكَ.
 قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطْوِطَةَ: إِنَّ مِنْ أَقْوَى الأدلَّةِ عَلَى أَنَّ مُسْتَوِيَاتِ المَنْطِقِ المُخْتَلِفَةَ
 تَجْعَلُنَا نَرَى فِي حَيَاتِنَا وَحُدُودِ عِلْمِنَا وَمَنْطِقِنَا، فِي مُسْتَوَى مَنطِقٍ مَا لَا نَرَاهُ فِي مُسْتَوَى
 مَنطِقٍ آخَرَ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَعْلَمُهُ كُلُّ مَنْ دَرَسَ العُلُومَ؛ حَيْثُ يَرَى العُلَمَاءُ مِنْ حَالِ المَادَّةِ
 فِي مُسْتَوَى المَنْطِقِ العِلْمِيِّ التَّقْلِيدِيِّ لِلْعُلُومِ غَيْرَ مَا يَرُونَهُ مِنْ حَالِ المَادَّةِ فِي المَنْطِقِ
 النَّوَوِيِّ أَوِ الدَّرِيِّ؛ حَيْثُ تَكُونُ المَادَّةُ فِي مَنطِقِ الإِخْتِرَاقِ العَادِيِّ "لَا تَفْنَى وَلَا تُسْتَحَدَثُ،
 وَلَكِنَّهَا فِي مُسْتَوَى مَنطِقِ العُلُومِ النَّوَوِيَّةِ تَفْنَى وَتُسْتَحَدَثُ"، وَلَكِنْ كَانَ عَلَى العُلَمَاءِ أَنْ
 يَنْتَظِرُوا يَكْتَشِفُوا المَنْطِقَ النَّوَوِيَّ (الدَّرِيِّ)، وَأَنْ يَرْفَعُوا مَنطِقَهُمْ، وَأَنْ تَرْفَعُوا مَعَارِفَهُمْ، إِلَى
 مُسْتَوَى المَنْطِقِ النَّوَوِيِّ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ المَادَّةَ تَفْنَى وَتُسْتَحَدَثُ فِي حَالَةِ التَّفَاعُلَاتِ الذَّرِّيَّةِ
 وَالهِدْرُوجِيَّةِ، "وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلا قَلِيلًا".

عِنْدَهَا قَامَ أَحَدُ الشَّبَابِ مِنْ طُلَّابِ العُلُومِ الفِيزِيَاءِيَّةِ فِي بَزَّةِ مَعْمَلِهِ البَيْضَاءِ، وَقَالَ: نَعَمْ
 يَا سَيِّدِي الشَّيْخُ؛ لَقَدْ وَجَدْنَا فِي التَّفَاعُلَاتِ النَّوَوِيَّةِ أَنَّ المَادَّةَ تَفْنَى فِي حَالَةِ تَفَاعُلَاتِ
 الإِنْفِجَارَاتِ الذَّرِّيَّةِ، كَمَا أَنَّ المَادَّةَ تُسْتَحَدَثُ فِي حَالَةِ تَفَاعُلَاتِ الإِنْفِجَارَاتِ الهِيدْرُوجِيَّةِ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ؛ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ الْعِلْمِيَّةِ؛ ثُمَّ تَابَعَ
 الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: نَعَمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ إِنَّ مَا سَبَقَ يُوضِّحُ لَنَا حَالَ عَالَمِ الْغَيْبِ
 بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِنَا؛ فَنَحْنُ نَعْلَمُ بِعُقُولِنَا وَمَنْطِقِنَا وَجُودِهِ، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ فَحْوَاهُ لَيْسَتْ فِي
 حُدُودِ إِدْرَاكِ عُقُولِنَا وَمَنْطِقِنَا وَمَعَارِفِنَا، وَإِلَى أَنْ يَرْقَى مَنْطِقُنَا إِلَى مُسْتَوَى ذَلِكَ الْوُجُودِ،
 وَمَا أَظْنُهُ سَيَحْدُثُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَرْقَى إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْنَا أَلَّا نَهْرِفَ فِي أَمْرِ
 الْغَيْبِ بِمَا لَا نَعْرِفُ، وَأَنْ نَكْتَفِيَ مِنْهُ بِمَا تَيَسَّرَ لَنَا فِي حُدُودِ عِلْمِنَا وَمَنْطِقِنَا، بِمَا يُصْلِحُ أَمْرَ
 حَيَاتِنَا، وَبِمَا يُعِينُنَا عَلَى تَحْقِيقِ ذَوَاتِنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، مِنْ دُونِ سَفْسَاطَةٍ، وَلَا تَمَحُّكٍ، وَلَا
 تَخْرِيفَاتٍ وَشَعُودَاتٍ تُلْغِي عُقُولَنَا وَتُضِلُّ سَعِينَا وَتَسْتَنْفِدُ طَاقَاتِنَا الذِّهْنِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ
 وَالنَّفْسِيَّةَ، كَمَا أَضْرَّتْ وَاسْتَهْلَكَتْ طَاقَاتِ فِكْرٍ كَثِيرِينَ مِنْ قَبْلِنَا، فِيمَا لَا طَائِلَ خَلْفَهُ، وَلَا
 نَفْعَ فِيهِ، وَمَا أَحْكَمَ مَنْ قَالَ: "يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا" وَ"كُلُّ مَيْسَرٍ لَمَّا خُلِقَ لَهُ".

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً وَقَالَ: التَّفَكُّرُ وَالتَّدَبُّرُ الْمُهْتَدِي يَأْبِيدَبَا هُوَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ طِلْبَةً
 كُلِّ إِنْسَانٍ فِي حُدُودِ سَقْفِ مَعْرِفَتِهِ وَإِدْرَاكِهِ، فَيَكْفِي الْبَدَوِيَّ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فِي
 الصَّحْرَاءِ، لِيُدْرِكَ غَائِبَةَ الْوُجُودِ، وَأَخْلَاقِيَّتَهُ، وَإِبْدَاعَ خَلْقِهِ، وَضَرُورَةَ طَلَبِ سُنَنِهِ
 "وَأَقْدَارَهُ" الْكُونِيَّةَ، أَنْ يَتَمَعَّنَ فِي الْفَضَاءِ الْأَزْرَقِ الْفَسِيحِ غَيْرِ الْمُتَنَاهِي، وَالْمُتَلَالِي بِالنُّجُومِ

وَالْكَوَاكِبِ فَوْقَ رَأْسِهِ فِي نِظَامٍ بَدِيعٍ يَهْدِي سَيْرَهُ، وَيُرْسِمُ طَرْقَهُ، فِي نِجَادِ الصَّحْرَاءِ وَوَهَادِهَا
وَمَفَازَاتِهَا.

وَيَكْفِي -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ- هَذَا الْبَدْوِيُّ مَا يَرَى كُلَّ يَوْمٍ مِنْ تَعَاقِبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا
يَرَى مِنْ تَعَاقِبِ الْفُصُولِ كُلِّ عَامٍ، وَمَا يَرَى مِنْ بَدِيعِ الصَّنْعِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ فِي تَكْوِينِ
الْإِبِلِ لِيَدْعُوَهَا "سُفْنَ الصَّحْرَاءِ"، وَفِي تَكْوِينِ النَّخْلَةِ وَثَمَرِهَا، لِيَعِيشَ بِهَا فِي صَحْرَائِهِ بِرَغْمِ
هَجِيرِهَا وَقِلَّةِ مَائِهَا وَزَرْعِهَا.

وَيَكْفِي الْعُلَمَاءَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ وُجُودِ غَيْرِ مُتَنَاهٍ لِأَنْظِمَةِ الْأَجْرَامِ
السَّمَاوِيَّةِ مِنَ الْأَقْمَارِ إِلَى الْمَجَرَّاتِ، فِي نِظَامٍ كَوْنِيٍّ، يَعْلَمُونَ مُبْتَدَأَهُ وَلَا يَصِلُ عِلْمُهُمْ إِلَى
مُنْتَهَاهُ.

بَلْ إِنَّ الْعُلَمَاءَ مَا زَالَ عِلْمُهُمْ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ أَسْرَارِ أَجْسَادِهِمْ، فِي نِظَامٍ رَائِعٍ، مُرَكَّبٍ
مِنْ "بَلَايِينَ" الْأَنْظِمَةِ؛ حَيْثُ كُلُّ خَلِيَّةٍ فِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ، لَهَا نِظَامٌ رَائِعٌ مُعَقَّدٌ، وَمِنْ هَذِهِ
الْخَلَايَا، تَتَكَوَّنُ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْأَنْظِمَةِ، لِتُكَوَّنَ وَتَبْنِيَ أَنْظِمَةً جَسَدِيَّةً كُبْرَى، كَالْقَلْبِ
وَالدِّمَاغِ وَالْكَبِدِ وَالرِّئَةِ وَالْمَعِدَةِ وَسِوَاهَا، وَلِتَتَكَامَلَ هَذِهِ الْأَنْظِمَةُ وَتَتَرَابَطُ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ
جَمِيلٍ بَدِيعٍ هُوَ جَسَدُ الْإِنْسَانِ، وَمِثْلُهَا أَجْسَادُ كَثِيرٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،

وَتَحْتَ الْأَرْضِ، وَفِي جَوْفِ الْبِحَارِ، وَعَنَانَ الْقُضَاءِ، وَبِمَا تَرَاهُ الْعَيْنُ، وَمَا يَدِقُّ عَنِ الْعَيْنِ،
وَمَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَرَاهُ الْعَيْنُ إِلَّا بِالْمَجْهَرِ، أَوْ بَعَيْنِ الْعَقْلِ؛ لِتَتَكَامَلَ هَذِهِ الْأَنْظِمَةُ غَيْرُ
الْمُتَنَاهِيَةِ، فِي نِظَامٍ كُلِّيٍّ بَدِيعٍ مُنْتَظِمٍ مُتْرَابِطٍ مُتَكَامِلٍ.
نَعَمْ أَيُّهَا السَّبَابُ، لَقَدْ كَانَ الْكَوْنُ وَمَا يَزَالُ، يَكْشِفُ -لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ الْإِنْسَانِي الْعِلْمِيَّ-
خَفِيَّ أَسْرَارِهِ، وَبَدِيعَ تَكْوِينِهِ، وَجَمَالَ صَنْعَتِهِ.

وَبِهَذَا يَعْلَمُ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُمْ كُلَّمَا ازْدَادُوا عِلْمًا بِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِ الْكَوْنِ ازْدَادُوا بِعِلْمِهِمْ
جَهْلًا وَحِرْصًا عَلَى طَلَبِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَنَّهُمْ بِعِلْمِهِمْ وَدَرَسِهِمْ يَزْدَادُونَ حِكْمَةً وَتَوَاضُعًا وَإِدْرَاكًا
لِسَقْفِ عُقُولِهِمْ، وَغَائِيَّةِ وُجُودِهِمْ، وَأَخْلَاقِيَّةِ هَذَا الْوُجُودِ، دَلِيلًا عَلَى مَا هُوَ فِي أَصْلِ
فِطْرَتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ مِنَ الْقِيَمِ وَمَعَانِي الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِثْقَانِ وَالْإِصْلَاحِ
وَالسَّلَامِ، وَكَرِهَ مَعَانِي الظُّلْمِ وَالْقَسْوَةِ وَالْإِفْسَادِ وَالْعُدْوَانَ.

يَا بَيِّدَبَا؛ رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ عَقْلِهِ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ عَجِيبًا يَا بَيِّدَبَا أَنْ يَسْتَجِيبَ قَلْبُ
الْإِنْسَانِ وَعَقْلُهُ لِوَحْدَانِيَّةِ مُبْدِعِ الْوُجُودِ، وَلِغَائِيَّةِ هَذَا الْوُجُودِ وَأَخْلَاقِيَّتِهِ، بَعِيدًا عَنِ
الْكِبَرِ وَالتَّكْبُرِ وَالسَّفْسَفَةِ وَالظَّنِّ، وَنَحْنُ يَا بَيِّدَبَا فِي شَأْنِ عَالَمِ الْغَيْبِ؛ نَعْلَمُ فِي قَرَارَةِ
نُفُوسِنَا، وَمَدَارِكِ عُقُولِنَا، أَنَّهُ "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"، "وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا".

فَلَنَدْعُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ جَدَلَ الْخَوْضِ فِي أَمْرِ عَالَمِ الْغَيْبِ إِلَى أَنْ نَعُودَ إِلَى عَالَمِ
الرُّوحِ وَالْغَيْبِ، وَيَكْفِينَا أَنْ نَشْغَلَ أَنْفُسَنَا بِمَا هُوَ مِنْ شَأْنِنَا مِنْ عَالَمِ وُجُودِنَا وَحَاجَاتِهِ فِي
عَالَمِ الْحَيَاةِ، مِنَ الْعَمَلِ الْمُثْمِرِ الصَّالِحِ، وَطَلَبِ الْمَعْرِفَةِ وَدَافِعِ الْإِبْدَاعِ، وَسَعْيِ التَّسْخِيرِ
وَالْإِحْسَانِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِعْمَارِ. مَنْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِالْمَغِيبِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، فَإِنَّ يَفْعَلُ ذَلِكَ
أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ يَكُنْ قَدْ ضَاعَ وَأَضَاعَ، وَمَثَلُهُ مَثَلُ مَنْ يُسَاقُ ظِلَّهُ، وَيَنْشَغِلُ عَنْ
شَأْنِهِ إِلَى مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ، أَوْ مَنْ يَتَعَجَّلُ الْأُمُورَ قَبْلَ أَوَانِهَا، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْعَقْلِ
وَالْحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ.

قَالَ بَيْدَبَا وَالشَّيْخُ قَدْ جَمَعَ أَطْرَافَ رِدَائِهِ وَهُوَ يَهْمُ بِالْقِيَامِ إِذَا نَأَى بِانْتِهَاءِ الْحَدِيثِ: جَزَاكَ
اللَّهُ، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، خَيْرًا؛ لِمَا سَمِعْنَا الْيَوْمَ مِنْ حِكْمَتِكَ.
وَهُنَا أَطْلَقَ أَحَدُ الظُّرْفَاءِ الْحَاضِرِينَ -ضَاحِكًا- صَرْخَةَ مُوَاءِ قِطَّةٍ، تَذَكِيرًا بِقِطَّةِ
الْفَيْلَسُوفِ السُّفُسُطَائِيِّ، أَضْحَكَتِ الشَّيْخُ، وَأَضْحَكَتْ مَعَهُ بَيْدَبَا، وَضَحِكَ لَهَا
الْحَاضِرُونَ وَهُمْ يُغَادِرُونَ مَجْلِسَ الشَّيْخِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

خَلَطُ الْمَفَاهِيمِ وَالنَّخَطَاتِ أَنْكَى مِنْ خَلَطِ الْعَذْبِ بِالْأَجَاجِ

قَالَ الشَّيْخُ: يَا بَيْدَبَا؛ الْأَمْرُ الْأَخْرَ الَّذِي لَا يَقِلُّ أَهْمِيَّةً عَنْ أَيِّ أَمْرٍ سَبَقَ أَنْ حَدَّثْتُكَ عَنْهُ هُوَ أَمْرُ الْخَلَطِ بَيْنَ الْمَفَاهِيمِ، وَأَوَّلُ خَلَطٍ أَوْدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهُ هُوَ أَمْرُ الْخَلَطِ بَيْنَ الذِّكْرِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ فَالذِّكْرُ وَإِرْشَادُ الْهُدَى لَيْسَ بَدِيلًا عَنْ جِهَادَاتِ الْحَيَاةِ لِتَحْقِيقِ الذَّاتِ فِي الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ، وَالْإِبْدَاعِ لِلتَّسْخِيرِ، وَبِنَاءِ الْحَيَاةِ وَإِعْمَارِهَا؛ بَلْ إِنَّ الذِّكْرَ هُوَ دَلِيلُ الْعَمَلِ، وَلَا مَعْنَى لِدَلِيلٍ لَا يُؤَدِّي إِلَى غَايَتِهِ فِي الْعَمَلِ وَإِغْنَاءِ الْحَيَاةِ.

أَمَّا الْخَلَطُ الْأَخْرَ الَّذِي أَوْدُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهُ فَهُوَ أَمْرُ الْخَلَطِ بَيْنَ الدَّوَلَةِ وَالِدَّعْوَةِ، خَاصَّةً فِي عُمُودِ اشْتِدَادِ الصِّرَاعَاتِ وَالْمُوَاجَهَاتِ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَشِّي الرُّؤْيَةَ، وَيَضْرِبُ بِمُسْتَقْبَلِ عِلَاقَاتِ الْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ، فَيُخْرِجُهَا مِنْ دَائِرَةِ التَّكَامُلِ وَالتَّعَاوُنِ وَالْحَوَارِ إِلَى دَائِرَةِ الصِّرَاعَاتِ وَالْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ.

فَالدَّعْوَةُ يَا بَيْدَبَا عَاطِفَةٌ إِخَاءٍ إِنْسَانِيٍّ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْحُسْنَى، وَهِيَ حُبٌّ وَإِرْشَادٌ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ، لَا مَجَالَ فِيهَا لِكُونِهَا عِلَاقَةً إِنْسَانِيَّةً نَبِيلَةً- لِلإِرْغَامِ أَوْ الإِكْرَاهِ أَوْ الْكِرَاهِيَّةِ أَوْ الغَضَبِ، فَكُلُّ شَأْنٍ مُعَلَّقَةٌ مِنْ عُرْقُوبِهَا "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" وَهَذَا غَيْرُ أَمْرِ الدَّوَلَةِ

وَتَصْرِيفِ شُؤْنِهَا، وَمُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِهَا.

فَالدَّوْلَةُ يَا بَيْدَبَا - عَلَى خِلَافِ الدَّعْوَةِ - هِيَ كَيَانٌ بَشَرِيٌّ بِكُلِّ مُكَوِّنَاتِهِ؛ أَي إِنَّ الدَّوْلَةَ أَرْضٌ وَشَعْبٌ وَأَنْظِمَةٌ وَمَصَالِحٌ وَثَقَافَاتٌ وَتَقَالِيدٌ، وَالدِّينُ وَالْعَقِيدَةُ اللَّذَانِ هُمَا مَوْضُوعُ الدَّعْوَةِ جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ مَقْوَمَاتِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ جُزْءٌ وَلَا شَكَّ يُؤَثِّرُ فِي سُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَتَفَاعُلَاتِهَا وَرُدُودِ فِعْلِهَا تَجَاهَ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الدُّوَلِ وَالشُّعُوبِ، لَكِنَّهُمَا لَا يَنْفَرِدَانِ بِالتَّأثيرِ فِي سُلُوكِ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ عِلَاقَاتِ الدُّوَلِ وَمَصَالِحَهَا مَعَ الْآخَرِينَ، سِوَاءِ أَكَانَتْ وَدِيَّةً أَمْ عَدَائِيَّةً، وَلَا سِيَّمَا حِينَ تَكُونُ هَذِهِ الدُّوَلُ ضَحِيَّةً عُدْوَانٍ عَلَيْهَا، تُتِيحُ لَهَا مُمَارَسَةَ حَقِّهَا وَحَقِّ شُعُوبِهَا فِي مُوَاجَهَةِ الْعُدْوَانِ، وَالِدِفَاعِ عَنِ نَفْسِهَا، وَعَنْ حُقُوقِهَا، بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُهُ، وَبِكُلِّ مَسْئُولِيَّةٍ، مِنْ دُونِ مُبَالِغَةٍ أَوْ تَجَاوُزٍ لِلْحَاجَةِ أَوْ الضَّرُورَةِ الَّتِي تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا فِي ضَوْءِ الْحَالِ وَالْأَمْرِ الْوَاقِعِ، فَلَا يُرْتَكَبُ بِاسْمِ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ آيَةٌ أَعْمَالٍ مُدْمِرَةٍ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا وَلَا ضَرُورَةَ لَهَا، وَخَاصَّةً حِينَ يُوجَدُ لَهَا بَدِيلٌ مُتَوَازِنٌ أَقْلٌ ضَرَرًا عَلَى أَطْرَافِ النِّزَاعِ؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ وَحُقُوقَهُ وَمَمْتَلِكَاتِهِ - مَدَنِيًّا كَانَ أَمْ عَسْكَرِيًّا - حَقٌّ مُقَدَّسٌ وَمَسْئُولِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لَا يَصِحُّ التَّضْحِيَّةُ بِهَا مِنْ دُونِ مُسَوِّغٍ مَشْرُوعٍ، وَمِنْ دُونِ ضَرُورَةٍ شَدِيدَةٍ لَيْسَ عَنْهَا مِنْ مَحِيصٍ، هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي عِلَاقَاتِ الدُّوَلِ، وَأَيُّ قَوْلٍ غَيْرِهِ كَذِبٌ وَزَيْفٌ وَحُرُوبٌ نَفْسِيَّةٌ

يَغِشُّ بِهَا الْمُزَيَّفُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا تَنْطَلِي عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَلْتَزِمُهَا قَائِلُهَا قَبْلَ أَيِّ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَكُلُّ أَحْدَاثِ الْوَاقِعِ وَالتَّارِيخِ وَضُرُورَاتِ الْفِطْرَةِ وَالْبَقَاءِ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ.

فَإِذَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ يَا بَيْدَبَا هِيَ كَلِمَةٌ حَسَنَةٌ لِلْخَيْرِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ، فَالْعَالَمُ فِي مَنْظُورِهَا، وَفِي مَنْظُورِ الدُّعَاةِ، لَا يَكُونُ إِلَّا دَارَ قَبُولٍ وَدَارَ دَعْوَةٍ: أَيِّ بِلَادٍ مَنْ قَبْلَ وَأَمَّنَ بِالدَّعْوَةِ، وَبِلَادٍ مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الدَّعْوَةَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا بَعْدُ، وَيَجِبُ مُوَاصَلَةُ دَعْوَتِهِمْ رَجَاءَ هِدَايَتِهِمْ وَقَبُولِهِمْ لَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

أَمَّا الدَّوْلَةُ يَا بَيْدَبَا فَمِنْ كَيْانٍ وَمَصَالِحٍ، تَتَعَرَّضُ عِلَاقَاتُهَا لِلْسَّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَالْوُدِّ وَالْعِدَاءِ، وَمِنْ مَكُونَاتِهَا الدِّينُ وَالْعَقِيدَةُ، وَلَهَا ثِقَافَتُهَا، وَتَتَعَلَّقُ بِهَا الْحُقُوقُ وَالْمَصَالِحُ، وَتَعْرُوهَا الْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ، وَكُلُّ مَا سَبَقَ هِيَ عَوَامِلُ تُؤَثِّرُ مُجْتَمِعَةً فِي سُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَعِلَاقَاتِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْعَالَمَ فِي مَنْظُورِ الدَّوْلَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ هِيَ: دَارُ السَّلْمِ، وَدَارُ الْعَهْدِ، وَدَارُ الْحَرْبِ.

فَدَارُ السَّلْمِ هِيَ أُمَّةٌ وَبِلَادٌ تَكُونُ فِي جَوْهَرِهَا مُجْتَمَعًا وَاحِدًا، وَلَهَا مَصْلَحَةٌ وَاحِدَةٌ، وَتَخْضَعُ لِقِيَمٍ وَتَشْرِيْعَاتٍ وَقَوَانِينٍ مُلْزِمَةٍ مُوَحَّدَةٍ يُقْضَى فِيهَا بَيْنَ النَّاسِ عَلَى أَسَاسِهَا بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ، وَلَا مَشْرُوعِيَّةَ يَا بَيْدَبَا فِي دَارِ السَّلْمِ؛ الَّتِي هِيَ دَارُ مُوَاطَنَةٍ وَرَحِمٍ، إِلَّا

لِلْمَوْسَائِلِ السَّلْمِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، وَلَا مَوْضِعَ لِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ فِي أَيِّ نِزَاعٍ أَوْ دَعْوَةٍ
إِنْصَافٍ أَوْ إِصْلَاحٍ.

وَدَارُ الْعَهْدِ؛ هِيَ بُلْدَانٌ وَدَوْلٌ يَرْبِطُهَا عَهْدٌ قَدْ يَكُونُ بَيْنَ مُجْتَمَعَيْنِ، أَوْ يَكُونُ بَيْنَ عِدَّةٍ
مُجْتَمَعَاتٍ، لَهُمْ عِلَاقَاتُ سَلَامٍ مَشْرُوطَةٌ بِشُرُوطِ الْعَهْدِ، وَعَلَى أَطْرَافِهِ الْوَفَاءُ بِهِ، وَلِذَلِكَ
فَإِنَّ عَلَى كُلِّ طَرَفٍ وَاجِبَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ مَا أَوْفَى الطَّرْفُ الْأَخْرَبِيَّ.

وَدَارُ الْحَرْبِ؛ هِيَ الْبِلَادُ وَالْدَوْلُ الَّتِي تَسْعَى بِالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ وَالْعُدْوَانِ، وَالَّتِي تُعْلِنُ الْعَدَاءَ
وَتَسْعَى بِالضَّرَرِ، وَإِعْلَانِ الْعَدَاوَةِ وَالْحَرْبِ، مِنْ دُونِ وَجْهِ حَقٍّ أَوْ عُذْرٍ مَشْرُوعٍ، فَتَكُونُ
الْعِلَاقَةُ مَعَهَا بِالطَّبَعِ عِلَاقَةُ حَرْبٍ وَعَدَاءٍ وَدِفَاعٍ مَشْرُوعٍ عَنِ النَّفْسِ.

هَذَا هُوَ جَوْهَرُ طَبِيعَةِ الدَّعْوَةِ وَأَسْلُوبِهَا، وَهَذَا هُوَ جَوْهَرُ طَبِيعَةِ الدَّوْلَةِ وَعِلَاقَاتِهَا
وَوَاجِبَاتِهَا تَجَاهَ رَعَايَاهَا، وَتَجَاهَ الْإِنْسَانِيَّةِ، هَكَذَا كَانَتْ فِيمَا مَضَى، وَهَكَذَا سَتَبْقَى إِلَى أَمَدٍ
طَوِيلٍ، إِلَى أَنْ تَتَكَاتَفَ الدَّوْلُ وَالْمُجْتَمَعَاتُ، وَتَتَأَلَّفَ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَلْتَقِيَ فِي تَجْمُوعٍ وَاحِدٍ،
وَكَيْانٍ عَالَمِيٍّ سَلْمِيٍّ وَاحِدٍ، وَحُكُومَةٍ عَالَمِيَّةٍ فِدْرَالِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَعَلَى أَمْرٍ سَوَاءٍ مِنَ الْعَدْلِ
وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، فِي ظِلِّ مَصْلَحَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقِيَمٍ وَقَوَانِينٍ وَتَشْرِيعَاتٍ عَامَّةٍ تَوَافِقِيَّةٍ وَاحِدَةٍ،
وَتَكُونُ مُلْزِمَةً؛ بِحَيْثُ تَلْتَزِمُ الْحُرِّيَّةَ وَالْعَدْلَ وَالتَّكَاوُلَ، وَتُوفِّرُ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ لِلْجَمِيعِ.

غَيْرُ هَذَا يَا بَيْدَبَا؛ خَلَطُ وَزَيْفٌ وَافْتِرَاءٌ لَا يَخْدُمُ إِلَّا الْحُرُوبَ النَّفْسِيَّةَ لِلْمُهَيِّمِينَ
الْكَوَاسِرِ؛ لِبَثِّ رُوحِ الْهَزِيمَةِ، وَقَتْلِ رُوحِ الْعَزِيمَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ فِي ضَحَايَا الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ.
وَلِذَلِكَ؛ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ أَوْ الصَّوَابِ فِي عَالَمِنَا الْيَوْمَ، وَفِي حُرُوبِهِ النَّفْسِيَّةِ، أَنْ تُحْمَلَ
الْعَقَائِدُ وَالْأَذْيَانُ، أَوْ أَيُّ عُنُصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ كِيَانِ الدُّوَلِ وَحَدَهُ مَسْئُولِيَّةَ تَصَرُّفَاتِ الدُّوَلِ،
بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُنْظَرَ فِي الْأَمْرِ نَظْرَةً كُلِّيَّةً إِلَى الْمَوْقِفِ لِمَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ،
وَالْعَنَاصِرِ الْمُؤَثِّرَةِ الْمُحَرِّكَةِ، وَالْمَسْئُولِيَّاتِ الْمُتَرْتِبَةِ، وَعَدَمِ إِصْدَارِ الْمُنْصِيفِينَ وَأَنْصَارِ
الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ الْأَحْكَامِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ جُزَافًا؛ تَبَعًا لِأَغْرَاضِ الْمُعْتَدِينَ وَخَطَطِ حُرُوبِهِمْ
النَّفْسِيَّةِ.

وَإِذَا كَانَتِ الْأَذْيَانُ وَالْعَقَائِدُ يَا بَيْدَبَا تَدْعُو إِلَى السَّلْمِ وَالتَّسَامُحِ فَإِنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُقَرَّرَ
حَقَّ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ لِمَنْ يُسْتَضْعَفُ، وَلِمَنْ يُعْتَدَى عَلَيْهِ، وَلَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ فِي شَيْءٍ
أَنْ يَطْلُبَ بَعْضُ أَطْرَافِ الْقُوَى الْمُعْتَدِيَّةِ إِلَى رِجَالِ الْأَذْيَانِ وَالْعَقَائِدِ، وَإِلَى رِجَالِ الْفِكْرِ
وَالْكَلِمَةِ، فِي بِلَادِ الشُّعُوبِ الْمُسْتَضْعَفَةِ الْمَقْهُورَةِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ
وَمَوَاقِفِ أَطْرَافِ الصِّرَاعَاتِ، أَنْ يُنْكِرُوا مِنْ دُونِ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ
الْمُسْتَضْعَفَةِ حَقَّهَا فِي الدِّفَاعِ الْمَشْرُوعِ عَنِ نَفْسِهَا، وَدَفْعِ الْمَظَالِمِ عَنِ شُعُوبِهَا، وَعَنِ

المُستضعفين من بني البشر، وحفظ حقوقهم وأرضهم ودمائهم، وأن يطلبوا منهم دعوة هؤلاء المقهورين والمستضعفين إلى قبول الظلم والقهر والسحق والخنوع والخضوع للأقوياء المعتدين، وأن عليهم أن يديروا معارك دفاعهم عن أنفسهم، وعن حقوق شعوبهم، إن اعترف لهم بذلك من قبل الأقوياء المعتدين، على القواعد وبالوسائل و"الإستراتيجيات" التي يفرضها هؤلاء الأقوياء المعتدون، والتي تناسب "إستراتيجياتهم" وإمكاناتهم، بما لا يترك لهذه الدول والشعوب المقهورة المظلومة أية فرصة للدفاع المشروع الفعال عن نفسها، والخروج من الصراعات الظالمة بوضع يسمح لها بالوصول إلى حلول سياسية مناسبة معقولة لمعاناتها ومظالمها، وإن البديل لهذا المنطق الأعرج المعوج عملياً وواقعياً هو دفع هذه الشعوب وشبابها إلى الإخباط ورذود الفعل اليائسة، خاصة حين يكون العدوان مدمراً لكيانات هذه الدول والشعوب، وكرامتها، ولمستقبل أجيالها ومصالحها الأساسية المشروعة.

وكما ترى يا بيدبا؛ فإنني لا أتحدث في عالم كواسر هذا الزمان، عن حلول إنسانية عادلة؛ لأن مثل هذه الحلول لا تعرفها "سياسات القوة"، ولكنني أتحدث عن حلول سياسية مُحتملة معقولة؛ لأنه لا يستطيع عاقل في "عالم الكواسر" و"العنصريات"

و"سِيَّاسَاتِ الْقُوَّةِ" وَ"الْأَمْرِ الْوَاقِعِ" وَ"شَرِيعَةِ الْغَابِ"، مَهْمَا زَيَّفَ الْمُزَيَّفُونَ، أَنْ يَتَحَدَّثَ
عَنْ حُلُولِ عَادِلَةٍ مِنْ دُونِ أَنْ يُرْمَى بِالْغَبَاءِ وَالْجُنُونِ فِي عَالَمِ السِّيَّاسَةِ الْمُعَاصِرَةِ.

إِنَّ مَنْ يُنْكِرُ عَلَى الشُّعُوبِ حَقَّهَا فِي الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ فَإِنَّهُ عَلَى مَا نُشَاهِدُ مِنْ
حَالِ الْبَشَرِ وَوَاهِمٍ، إِنَّ ظَنَّنَ أَنَّ هَذِهِ الشُّعُوبَ وَالْأُمَّمَ، سَوْفَ تُصْغِي إِلَى مِثْلِ هَذِهِ
الدَّعَاوَى وَالْمَطَالِبِ، مِنْ أَيِّ مُتَحَدِّثٍ كَانَ، وَبِأَيِّ اسْمٍ كَانَ؛ وَعَلَى الْعُقَلَاءِ، وَعَلَى كُلِّ
مَنْ تُهْمُهُمْ مَصَالِحُ شُعُوبِهِمْ، وَهُمْهُمْ سَلَامُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَمْنُهَا، أَنْ يَتَعَلَّمُوا الدَّرُوسَ،
وَيَأْخُذُوا الْعِبْرَةَ مِنْ سَالِفِ تَجَارِبِ الشُّعُوبِ وَمَآسِيهَا، وَمَا جَرَّتْهُ أَطْمَاعُ أَصْحَابِ
الْمَصَالِحِ الْجَامِحَةِ وَالْجَشَعِ الْمُفْرِطِ وَالْهَوَسِ وَالْخَرْفِ الْعَقْدِيِّ مِنْ خَسَائِرِ وَإِسَالَةِ
دِمَاءٍ لِشُعُوبِهِمْ قَبْلَ سِوَاهَا، وَلَا مَخْرَجَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَآزِقِ الْإِنْسَانِيِّ الْمُخْزِي
وَالْمُخْزِنِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تَأْخُذَ الْأُمَّمُ وَالشُّعُوبُ وَعُقَلَاؤُهَا أَمْرَ سِيَّاسَاتِ
حُكُومَاتِهَا، وَأَمْرَ مَصَالِحِهَا، وَأَمْرَ مَصَائِرِهَا وَمَصَالِحِ أَبْنَائِهَا، وَدِمَائِهِمْ، فِي يَدِهَا، لَا فِي يَدِ
الْحَمَقَى وَأَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ وَالنُّفُوسِ الْمَرِيضَةِ فِيهَا.

نَعَمْ يَا بَيْدَبَا إِنَّ عَلَى الشُّعُوبِ وَالِدُولِ جَمِيعًا إِذَا أَخْلَصَتْ فِي طَلَبِ الْعَدْلِ وَالْأَمْنِ
وَالسَّلَامِ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنَ التَّارِيخِ، وَأَنَّ الْعَقْلَ وَالْحِكْمَةَ إِنَّمَا يَكْمُنَانِ، بِحَدِّهِمَا الْأَدْنَى، فِي
الْحُلُولِ السِّيَّاسِيَّةِ الْمَعْقُولَةِ الْعَادِلَةِ مَا أَمَكْنَ، وَلِهَذِهِ الدُّوَلِ وَالشُّعُوبِ وَالْقَادَةَ

دَرْسٌ وَعِبْرَةٌ فِيمَا يُسَمَّى الإِمْبِرَاطُورِيَّةَ العَجُوزَ الَّتِي لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ تَغِيبُ عَنْهَا كَمَا يَقُولُونَ؛ فَالسَّبِيلُ الَّذِي سَلَكَتُهُ هَذِهِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةُ وَحُكْمَاءُ السِّيَاسَةِ فِيهَا، فِي مُوَاجَهَةِ الشُّعُوبِ وَحَرَكَاتِ المُقَاوِمَةِ، حِينَ ذَرَقَتْهَا فِي أَوْصَالِهَا؛ هُوَ السَّبِيلُ الحَرِيُّ بِالتَّمَعُّنِ فِيهِ، وَالإِسْتِفَادَةَ مِنْهُ، فَقَدْ أْبَدَعَ سَاسَةَ هَذِهِ الإِمْبِرَاطُورِيَّةِ، عَلَى عَكْسِ سِوَاهُمْ مِنَ السَّاسَةِ الحَمَقَى، إِلَى الأَخْذِ بِالحُلُولِ السِّيَاسِيَّةِ، وَتَخَلُّوا عَنِ سِيَاسَاتِ العُنْفِ وَالقَهْرِ الخَاطِئَةِ؛ فَحَافِظُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَكَاسِيهِمْ مِنْ دُونِ حُرُوبٍ وَلَا سَفْكِ دِمَاءٍ.

أَمَّا الدُّوَلُ المُعْتَدِيَّةُ المَعْرُورَةُ بِقُوَّتِهَا فِي عَالَمِ اليَوْمِ فَإِنَّ عَلِمَهَا أَنْ تَذْكَرَ دُرُوسَ سُقُوطِ العَاشِمِينَ وَزَوَالَ الإِمْبِرَاطُورِيَّاتِ البَائِدَةِ؛ فَمَا حَدَثَ ذَلِكَ إِلا بِسَبَبِ الإِنْهَاقِ، وَالإِسْتِنْفَارِ، وَنَزْفِ الدِّمَاءِ وَالمَوَارِدِ؛ بِمُقَاوِمَةِ الشُّعُوبِ المَقْهُورَةِ الَّتِي أَحْبَطَهَا اليَأْسُ وَالمُظْلَمُ، وَأَصْبَحَتْ لِشِدَّةِ مُعَانَاتِهَا، وَمَا تَكَبَّدَتْهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الأَلَامِ وَالمُخَسَائِرِ، تَسْتَمِيتُ فِي انْتِقَامِهَا وَمُقَاوِمَتِهَا، وَتَتَحَمَّلُ بِجِلْدٍ عَجِيبٍ مَا يَنْزِلُ بِهَا مِنْ خَسَائِرٍ وَكَوَارِثٍ؛ وَكَأَنَّهَا لَمْ يَبْقَ لَدَيْهَا مَا تَبْكِيهِ أَوْ تَخْسِرُهُ، قَالَ قَائِلُهُمْ: "ضَرَبُوا الأَعْمَى عَلَى عَيْنِهِ". قَالَ لَهُمْ: مَا عَلَيْنَا! "خَسْرَانَةٌ خَسْرَانَةٌ".

يَا بَيْدَبَا؛ فِي دُرُوسِ التَّارِيخِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

إِنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ الْأُولَى وَالصَّحِيحُ فِي عَلاَقَاتِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ، خَاصَّةً فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَمَا تَمَلَّكُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ وَسَائِلِ الدَّمَارِ، أَمَّا الْعُنْفُ وَالظُّلْمُ وَالْقَهْرُ، وَالِاسْتِهْتَارُ بِالْأَرْوَاحِ وَالِدِمَاءِ، وَالِاسْتِسْلَامُ لِدَوَاعِي الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ وَحَمَاقَةِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَى السِّيَاسَاتِ الْخَاطِئَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُؤَلِّدُ إِلَّا مَزِيدًا مِنَ الْعُنْفِ وَالْخَسَارَةِ لِلْأَطْرَافِ الْمُتَوَرِّطَةِ فِيهِ كَافَّةً.

إِنَّ عَلَى جَمِيعِ الْأَطْرَافِ يَا بَيْدَبَا أَنْ تَعُودَ -إِنْ عَقَلْتَ وَاتَّعَظْتَ وَاعْتَبَرْتَ- عَنْ كُلِّ ذَلِكَ إِلَى رُشْدِهَا، وَأَنْ تَضَعَ -بِالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالِاعْتِدَالِ- حَدًّا لِصِرَاعَاتِهَا. وَعَلَى الضَّعِيفِ يَا بَيْدَبَا أَنْ يَذْكَرَ أَنَّ بَطْشَ الْقَوِيِّ مُؤَلِّمٌ وَمُدَمِّرٌ، وَلَا خَيْرَ فِي طَلْبِهِ. وَلِيَذْكَرِ الْقَوِيُّ يَا بَيْدَبَا أَنَّ طُولَ مُعَانَاتِهِ وَاسْتِنْفَارِهِ ضَارٌّ وَمُنْهَكٌ وَمُدَمِّرٌ، وَأَنَّهُ يُؤْذِيهِ بِنَفْسِ الْقَدْرِ الَّذِي يُؤْذِي بِهِ ضَحِيَّتَهُ وَأَكْثَرَ؛ لِأَنَّهُ قَلَّمَا يَكُونُ لَدَى الْمُسْتَضْعَفِ الْمَقْهُورِ كَثِيرٌ يَفْقَدُهُ.

وَمِنَ الْمُهِمِّ أَيْضًا يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ يُدْرِكَ الْجَمِيعُ أَنَّ مَسْئُولِيَّةَ الْقَوِيِّ وَالْمُعْتَدِي هِيَ الْأَعْظَمُ فِي تَدْبِيرِ الْحُلُولِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُزِيلُ الْمَظَالِمَ، وَتُضْعِفُ دَوَافِعَ الْمُقَاوِمَةِ وَالْعُنْفِ، وَتَتَغَلَّبُ عَلَى رَغْبَةِ الْإِنْتِقَامِ وَدَوَافِعِهَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ.

بِهَذَا فَقَطْ يَا بَيْدَبَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحُلَّ الْعَدْلُ وَالسَّلَامُ وَالْإِحَاءُ وَالْوَيْثَامُ بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ مَحَلَّ
الْعُنْفِ وَالِدِمَاءِ وَنَوَازِعِ الشَّرِّ وَالْإِنْتِقَامِ فِي النُّفُوسِ، وَهَذَا وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُعِيدُ لِلْعَقَائِدِ
وَالْأَدْيَانِ قُوَّةَ تَأْثِيرِهَا الْفَعَّالِ فِي الدَّعْوَةِ؛ وَفِي تَمْكِينِ دَعَائِمِ السَّلَامِ الْعَدْلِ وَالْوَيْثَامِ بَيْنَ الدُّوَلِ
وَالشُّعُوبِ، وَإِلَّا فَلْيَكْفِ الْمُعْتَدُونَ وَالطَّامِعُونَ عَنِ اللُّومِ، فَلَا لَوْمَ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَلَا سَبَبَ
لِذَلِكَ الصِّرَاعِ وَالْعُنْفِ إِلَّا عُدْوَانُهُمْ وَأَطْمَاعُهُمْ وَسِيَاسَاتُهُمْ.

وَتَابَعَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ حَدِيثَهُ إِلَى تَلَامِيذِهِ وَمُرِيدِيهِ مِمَّنْ حَضَرَ اللَّقَاءَ قَائِلًا: وَمِنَ الْمُهَيْمِ يَا
بَيْدَبَا؛ أَنْ تُدْرِكَ الشُّعُوبُ الضَّعِيفَةَ أَنَّنَا إِذَا تَدَبَّرْنَا طَبَائِعَ النُّفُوسِ، فِي الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ،
خَاصَّةً إِذَا تَمَلَّكَهَا غُرُورُ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَإِذَا تَمَلَّكَتْهَا دَوَافِعُ الْجَشَعِ وَالطَّمَعِ، وَكَثِيرًا مَا
يَحْدُثُ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللُّومَ لَا يَقَعُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى الْقَوِيِّ الْمُعْتَدِي وَحْدَهُ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأُمَّمَ
الضَّعِيفَةَ فِي الْحَقِيقَةِ تُسَهِّمُ بِضَعْفِهَا فِي إِثَارَةِ أَطْمَاعِ الطَّامِعِينَ، وَجَشَعِ الْجَشَعِينَ، وَلِذَلِكَ
فَإِنَّهَا بِضَعْفِهَا تَنَالُ نَصِيبًا مِنْ مَسْئُولِيَّةِ الْعُدْوَانِ عَلَيْهَا، مِثْلَهَا فِي ذَلِكَ مِثْلُ مَسْئُولِيَّةِ
صَاحِبِ الْمَعْرِزِ الْبَائِسِ الَّذِي لَا يُرْسَلُ مَعَ مَعْرِزِهِ كَلْبًا حَارِسًا؛ وَذَلِكَ لِمَا يُثِيرُهُ ضَعْفُ الْمَعْرِزِ فِي
قَلْبِ الذَّنْبِ مِنْ غَرِيزَةِ الْإِفْتِرَاسِ؛ حِينَ لَا يَرَى كَلْبًا يَحْرُسُ الْمَعْرِزَ وَيَدْفَعُ عَنْهُ، فَالْقُوَّةُ
وَالْقُدْرَةُ أَمْرٌ لَا غِنَى عَنْهُ لِكُلِّ دَوْلَةٍ وَشَعْبٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَمَنْ قَعَدَ لَا يَجِدُ السَّعْيَ، وَلَا
يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ فَلَا يَلُومَنَّ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَّا نَفْسَهُ.

الْبَحْثُ، وَالدَّرْسُ، وَالْعِلْمُ، وَالْمَعْرِفَةُ، "وَالتَّقْنِيَّةُ"، وَالْعَمَلُ، وَالإِنْتِاجُ، لَمْ تَبْقَ أُمُورَ رِفَاهِ
وَزِينَةِ وَكَمَالِيَّاتٍ، بَلْ أَصْبَحَتْ بِمَفْهُومِ الْعَصْرِ وَتَطَلُّعَاتِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ وَتَحْدِيَّاتِهِ، وَطَبِيعَةِ
الْقُوَى فِيهِ الْمَمْلُوءَةِ بِالْغُرُورِ وَالْجَشَعِ وَالطَّمَعِ وَشَهْوَةِ التَّسَلُّطِ، وَسِيَاسَاتِ الْقُوَّةِ
وَالْمَصَالِحِ الْقَوْمِيَّةِ، ضَرُورَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ وَحَتْمِيَّةٍ لِدَرْفَاهِ وَالْبَقَاءِ وَالتَّعَامُلِ فِي هَذَا الْعَالَمِ
شَرِيكًا لَا فَرِيسَةً، وَسَيِّدًا مُعَزَّزًا لَا عَبْدًا مُهَانًا، وَعَلَى كُلِّ الْمُحِبِّينَ لِلْحُرِّيَّةِ وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ
أَنْ يُعِينُوا الشُّعُوبَ وَالدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةَ عَلَى أَنْ تَنْهَضَ، وَأَنْ تَزْدَهَرَ؛ لِتُصْبِحَ شَرِيكًا يُسَاهِمُ
فِي رِفَاهِ الْإِنْسَانِ وَيَتَبَادَلُ الْمَصَالِحَ مَعَ سِوَاهُ مِنَ الشُّعُوبِ، لَا فَرِيسَةً تَتَصَارَعُ عَلَيْهَا الضَّبَاعُ
وَالْكُؤَاسِرُ لِنَهْشِ لَحْمِهَا وَتَمْزِيقِ جَسَدِهَا.

وَبِالْمُقَابِلِ؛ يَجِبُ يَا بَيْدَبَا؛ أَنْ تَعْلَمَ الْأُمَّمُ وَالشُّعُوبُ الَّتِي أَسْلَمَتْ قِيَادَهَا لِلْجَشَعِيِّينَ
وَالطَّامِعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ مُقَابِلَ رِشْوَةِ هَذِهِ الشُّعُوبِ مِنْ قِبَلِ سَاسَتِهَا
بِزَيْفِ الْقَوْلِ، وَتَقْدِيمِ الْوَعُودِ بِبَعْضِ مَا يُهَمُّ هَذِهِ الشُّعُوبَ مِنْ شُؤُونِ أُمُورِهِمُ الْحَيَاتِيَّةِ
الدَّاخِلِيَّةِ الْخَاصَّةِ؛ كَالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْمِينِ الصِّحِّيِّ وَالإِجْتِمَاعِيِّ، وَتَأْمِينِ الْعَمَلِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ،
مُقَابِلَ أَنْ تُسَلِّمَ هَذِهِ الشُّعُوبُ مَصِيرَهَا، وَمَصِيرَ دِمَائِ أبنَائِهَا، وَقَرَارَ السَّلْمِ وَالْحَرْبِ فِي
سِيَاسَاتِهَا وَعِلَاقَاتِهَا مَعَ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ الْأُخْرَى لِهُؤُلَاءِ السَّاسَةِ وَأَصْحَابِ الْمَصَالِحِ

الْحَمَقَى وَالْجَشِعِينَ، وَتَتْرَكَ لَهُمْ تَدْبِيرَاتِهِمْ الْعُدْوَانِيَّةَ الظَّالِمَةَ، مِنْ دُونِ رَقِيبٍ وَلَا حَسِيبٍ مِنْ وَعْيِ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ، وَلَا عِلْمٍ بِأَهْدَافِ هَؤُلَاءِ السَّاسَةِ وَأَطْمَاعِهِمْ لِيَتَحَكَّمُوا فِي سِيَاسَاتِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَالِدُّوَلِ، وَلِيَسْخَرُوا قُوَاهَا وَطَاقَاتِهَا وَدِمَاءَ أبنَائِهَا لِمَصَالِحِهِمُ الْوَضِيعَةَ الْجَشِعَةَ، وَيُبَدِّدُوهَا وَيَسْفِكُوهَا كَمَا يَشَاؤُونَ، فَبِذَلِكَ يَجْرُونَ الْوَيْلَاتِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ سِوَاهُمْ.

لِهَذِهِ الْغَفْلَةِ، وَهَذَا الْحَمَقِ وَالسَّفَهَةِ، نَرَى الْيَوْمَ كَثِيرًا مِنَ الشُّعُوبِ، وَلَا سِيمًا شُعُوبَ مَا يُسَمَّى الدُّوَلُ الْكُبْرَى وَالْقَوِيَّةَ، أَنَّهَا تَدْفَعُ ثَمَنًا غَالِيًا حِينَ تَغْفُلُ وَتُفْرِطُ فِي أَمْرِ الرِّقَابَةِ عَلَى سِيَاسَاتِ بِلَادِهَا الْخَارِجِيَّةِ بِذَاتِ الْقَدْرِ بِاهْتِمَامِهَا بِسِيَاسَاتِ بِلَادِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَمَنَافِعِهَا الْآبِيَّةِ.

هَذِهِ الشُّعُوبُ الَّتِي تُسَلِّمُ قِيَادَهَا لِلْسَّاسَةِ الْمَرْضَى وَالْجَشِعِينَ، وَأَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ، يَا بَيْدَبَا؛ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ قَادَتِهِمْ مَثَلُ الْخُرُوفِ يَسْتَمْتَعُ بِالْحَشَائِشِ وَالْعَلْفِ مِنْ يَدِ الْجَزَّارِ؛ بَلْ يَجْرِي وَيَسْعَى وَيَطْلُبُ هَذَا الْعَلْفَ الَّذِي هُوَ وُعودُ السِّيَاسَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَشُؤُونِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ لَيْسَ كَسَبًا وَلَا نَفْعًا وَلَا غَنِيمَةً، بَلْ هُوَ طُعْمٌ يُعِدُّهُ الْجَزَّارُ لِلْخُرُوفِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى الدَّبْحِ فِي الْمَجْزَرَةِ، وَهِيَ حُرُوبُ السِّيَاسَاتِ الْخَارِجِيَّةِ

الْحَمَقَاءِ الَّتِي لَيْسَ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَلَا لِلشُّعُوبِ فِيهَا عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ، فَكَمْ قَادِ هَؤُلَاءِ السَّاسَةِ الْحَمَقَى وَالْمَرْضَى الْجَشِعُونَ شُعُوبَهُمْ إِلَى الْحُرُوبِ وَالْمَجَازِرِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي يَهْلِكُ فِيهَا الْأُلُوفُ، بَلِ الْمَلَائِينُ مِنْ أبنَاءِ هَذِهِ الشُّعُوبِ، وَحَقًّا يَا بَيْدَبَا؛ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الشُّعُوبَ عَقَلَتْ وَأَدْرَكَتْ مَا يُدَبَّرُ لَهَا لَمْ تَسْمَحْ لَهُؤُلَاءِ السَّاسَةِ الْحَمَقَى، وَالْمُرْتَشِينَ، وَأَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ؛ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ أَمْوَالَهُمْ بِغِشِّ الشُّعُوبِ وَسَرِقَةِ ثَرَوَاتِهَا، وَيَشْتَرُونَ بِهَا سَاسَتَهَا وَأَصْحَابِ الْقَرَارِ فِيهَا، كَمَا نَرَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ.

إِنَّ السِّرِّيَا بَيْدَبَا فِي قُدْرَةِ هَؤُلَاءِ السَّاسَةِ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَأَصْحَابِ الْقَرَارِ فِيهَا، كَمَا نَرَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ أَنَّهُمْ مُنْظَمُونَ مُتَغَطَّرِسُونَ، وَلِذَلِكَ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُسَخِّرُوا الشُّعُوبَ الْغَافِلَةَ الْمُضَلَّلَةَ لِمَآرِبِهِمُ الْجَشِعَةَ الْمُتَسَلِّطَةَ الْمَرِيضَةَ، وَيَقُودُونَهُمْ وَيَقُودُونَ شُعُوبَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحُرُوبِ وَالْمَجَازِرِ؛ لِيَقْتُلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ جَشَعًا وَطَمَعًا وَعُدْوَانًا، وَلَقَدْ أَنْ الْأَوَانُ لِهَذِهِ الشُّعُوبِ يَا بَيْدَبَا -مَعَ تَعَاظُمِ خَسَائِرِهَا- أَنْ تَعْقِلَ وَأَنْ تُدْرِكَ مَا يُدَبَّرُ لَهَا وَيُحَاكُّ ضِدَّهَا، وَأَلَّا تَتْرَكَ سِيَاسَاتِهَا الْخَارِجِيَّةَ مِنْ دُونِ رَقِيبٍ وَلَا حَسِيبٍ، أَصْبَحَ حَالُ هَذِهِ الشُّعُوبِ الْيَوْمَ مَعَ سَاسَةِ بِلَادِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ بِشَأْنِ سِيَاسَاتِ بِلَادِهِمُ الدَّوْلِيَّةِ، كَمَا تَقُولُ الْحِكْمَةُ السَّالِفَةُ بِشَأْنِ حَالِ الْخِرْفَانِ وَالْجَزَارِ "إِنَّهَا لَوْ عَقَلَتْ مَا طَمَعَتْ وَلَا طَعَمَتْ وَلَا

سَمِنَتْ مِنْ حَشِيشِ الْجَزَارِ وَعَلَفَهُ وَشَعِيرِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ؛ لِيَكُونَ مَصِيرَهَا الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ
وَالذَّبْحُ، وَتَغْدُو دِمَاءَ أَبْنَاءِ الشُّعُوبِ وَمَصَالِحَهَا طَعَامًا لِجَشَعِ السَّاسَةِ، وَمَصَالِحِ
الْمُنْتَفِعِينَ".

مَا أَصْعَبَ، أَيُّوْمَ يَا بَيْدَبَا، حَالَ الشُّعُوبِ ضَعِيفِهَا وَقَوِيَّهَا، فِي غَفْلَتِهَا وَعَدَمِ وَعْمِهَا، فِي
الْخِيَارِ بَيْنَ حَالَ الْمَاعِزِ فِي فَمِ الذَّبِّ، وَحَالَ الْخُرُوفِ فِي يَدِ الْجَزَارِ، وَمَا أَسْوَأَ الْمَالِ، وَمَا
أَحْوَجَ الشُّعُوبِ إِلَى أَنْ تُمَسِكَ مَصَائِرِهَا وَسِيَاسَاتِهَا الدَّاخِلِيَّةَ وَالْخَارِجِيَّةَ بِيَدِهَا، وَبِيَدِ مَنْ
تُحْسِنُ اخْتِيَارَهُمْ مِنْ قِيَادَاتِهَا الْمُخْلِصِينَ لَهَا وَلِلْإِنْسَانِيَّةِ، فِي طَلَبِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ؛
وَحِينَئِذٍ فَقَطْ يَنْهَضُ الضَّعِيفُ وَيَقْوَى، وَيَكُونُ شَرِيكَ مَصْلَحَةٍ وَسَلْمٍ، وَيُمْسِكُ الْقَوِيُّ
وَالْقَادِرُ بِمَصِيرِهِ وَمَصِيرِ سِيَاسَاتِهِ جَمِيعَهَا بِيَدِهِ، الدَّاخِلِيَّ مِنْهَا وَالْخَارِجِيَّ، فَيَحْمِي مَصَالِحَهُ
الْحَقِيقِيَّةَ، وَيَحْفَظُ دِمَاءَ أَبْنَائِهِ؛ لِتُصْبِحَ جَمِيعُ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ إِخْوَةً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، شُرَكَاءَ
فِي الْخَيْرِ؛ حَيْثُ يَعْمَلُونَ جَمِيعًا مِنْ أَجْلِ سَلَامِ الْإِنْسَانِ، كُلِّ الْإِنْسَانِ، وَمِنْ أَجْلِ أَمْنِ
الْإِنْسَانِ، كُلِّ الْإِنْسَانِ، وَمِنْ أَجْلِ رِفَاهِ الْإِنْسَانِ، كُلِّ الْإِنْسَانِ، وَلَنْ تَضِيقَ الْأَرْضُ بِأَرْزَاقِ
أَهْلِهَا وَحَاجَاتِهِمْ، هَكَذَا كَانَتْ الْأَرْضُ، وَهَكَذَا سَتَبْقَى، مَا شَاءَ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَبْقَى.

مِنْ دُونِ وَحْدَةِ الْإِنْسَانِ يَا بَيْدَبَا فِي قَصْدِ الْخَيْرِ، وَمِنْ دُونِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ وَجِدِّهِ

وَاجْتِهَادِهِ، وَبِنَاءِ حَضَارَتِهِ وَإِعْمَارِهَا، فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ، فَلَا
إِنْسَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ، وَلَا إِعْمَارًا وَلَا حَضَارَةً، وَلَكِنَّهُ صِرَاعٌ وَتَظَالُمٌ حَيَوَانِيٌّ، وَمَصِيرٌ إِلَى
الدِّمَاءِ وَالْخَرَابِ وَالذَّمَامِ، وَمَا مَضَى مِنْ تَارِيخِ الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ وَصِرَاعَاتِهَا شَاهِدٌ وَنَذِيرٌ؛
فَالْجَشَعُ الْيَوْمَ أَعْظَمُ، وَالْمَدَى أَوْسَعُ، وَالْوَسَائِلُ أَفْضَعُ وَأَفْتَكُ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ يَا بَيْدَبَا؛ قَدْ نَمَا وَتَقَدَّمَ فِي مَسَارِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالتَّوَاصُلِ الْكُوْنِيِّ،
وَهُوَ الْيَوْمَ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَتَوَاصُلِهِ بِطَبِيعَتِهِ قَادِرٌ لَوْ شَاءَ- عَلَى تَعْلُمِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مِنْ
تَارِيخِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَتُرَاثِهَا؛ لِيَعُودَ إِلَى رُشْدِهِ، وَيَهْتَدِيَ إِلَى طَرِيقِ سَلَامِ مَسِيرَةِ حَضَارَتِهِ وَعُمْرَانِهِ،
وَعَلَى كُلِّ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُصْلِحِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ يَا بَيْدَبَا؛ الْعَمَلُ الْجَادُّ بِرُوحِ الْفَرِيقِ مِنْ أَجْلِ
التَّقَدُّمِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَالسَّعْيِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ السَّامِيِّ النَّبِيلِ، قَبْلَ
فَوَاتِ الْأَوَانِ.

يَا بَيْدَبَا؛ كُلِّي تَفَاؤُلًا وَأَمَلًا فِي أَنْ يَعْتَدِلَ الْمِيزَانُ، وَلَنْ تَسْمَحَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَاللَّهُ النَّاسَ
عَلِمَهَا أَنْ تَسُودَ شَرِيعَةُ الْغَابِ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ، وَأَنْ يَسُودَ الشَّرُّ وَالظُّلْمُ فِي الْأَرْضِ، وَفِي
حَضَارَةِ الْإِنْسَانِ، وَلَا بُدَّ لِلْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالسَّلَامِ أَنْ تَعُودَ، وَأَنْ
تَسُودَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَكُونَ إِلَّا بِأَيْدِي الشَّبَابِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ الْمُصْلِحِينَ الْمُتَّقِينَ يَا

بَيْدَبَا؛ وَذَلِكَ آتٍ؛ حِينَ يَصِحُّ الْعِزْمُ، وَتَصِحُّ الْعَقِيدَةُ، وَتَصِحُّ الرُّؤْيَةُ الْحَضَارِيَّةُ الْكُونِيَّةُ، نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ ذَلِكَ آتٍ مِنْ دُونِ شَكِّ أَوْرَيْبٍ، وَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا اتَّضَحَتِ الرُّؤْيَةُ قَرِيبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ. عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ تَوَقَّفَ الشَّيْخُ عَنِ الْحَدِيثِ لِيَرْتَشِفَ جَرَعَةً مِنَ الْمَاءِ. انْتَهَزَ بَيْدَبَا الْفُرْصَةَ عِنْدَ ذَلِكَ مُسْتَزِيدًا هُوَ وَإِخْوَانُهُ مِنْ حِكْمَةِ الشَّيْخِ وَمِمَّا تَبَقَّى مِنَ الْوَقْتِ فَقَالَ مُخَاطِبًا الشَّيْخَ الْجَلِيلَ ابْنَ بَطُوطَةَ: هَلْ مِنْ أَمْرٍ آخَرَ بَعْدَ هَذَا الْحَدِيثِ الْهَامِّ الشَّيْقِيِّ يَا سَيِّدِي؟ قَالَ الرَّحَّالَةُ الْجَلِيلُ: هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرٌ يَا بَيْدَبَا؛ أَوْدُ أَنْ أَذْكَرَهُ لَكَ وَإِخْوَانِكَ، وَهَذَا الْأَمْرُ هُوَ الْغَايَةُ مِنْ طَوْلِ حَدِيثِي إِلَيْكَ وَإِلَى إِخْوَتِكَ وَأَخَوَاتِكَ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ وَالْإِصْلَاحِ طَوَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَذَلِكَ لِمَا مَرَّبِي مِنْ خِبْرَةٍ وَتَجْرِبَةٍ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْأَدِيبُ بَيْدَبَا. قَالَ بَيْدَبَا: وَمَا تِلْكَ الْغَايَةُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ فَإِنِّي لَنْ أَلْوَجُهْدًا فِي أَنْ أُحَقِّقَ لَكَ طَلِبَهَا. قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: أَنْتَ تَعْلَمُ، يَا بَيْدَبَا، أَنَّي مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَلَا أُرِيدُ -وَقَدْ قَارَبَ الْأَجَلَ يَا بَيْدَبَا، وَآذَنَ بِالرَّحِيلِ مِنْ دَارِ الطِّينِ وَالْفَنَاءِ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ وَالْبَقَاءِ- أَنْ يَنْتَهِيَ الْعُمْرُ، وَأَرْحَلَ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِأَبْدَأَ -مِثْلَ كُلِّ الْبَشَرِ- رِحْلَةَ الْعُودَةِ إِلَى عَالَمِ الرُّوحِ، مِنْ دُونِ الْأَمَلِ فِي مُسْتَقْبَلِ قَرِيبٍ أَفْضَلَ، وَحَيَاةٍ قَادِمَةٍ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ أَعَزَّ

وَأَكْرَمَ، لِلإِنْسَانِ وَاللأُمَّةِ، وَلِلْقَادِمِ مِنَ الأَجْيَالِ، وَمِنْ دُونَ الأَمَلِ فِي حَضَارَةِ زَاهِرَةٍ أَنْقَى وَأَرْقى
 لِلإِنْسَانِيَّةِ؛ وَلذَلِكَ تَرَانِي يَا بَيْدَبَا؛ قَدْ حَرَصْتُ خِلَالَ مَا مَضَى مِنْ أَيَّامٍ عَلَى أَنْ أُنْقَلَ إِلَيْكُمْ
 لُبَّ تَأْمَلَاتِي وَخِبْرَتِي فِي الْحَيَاةِ، وَخُلَاصَتَهَا، وَهَكَذَا تَرَى يَا بَيْدَبَا؛ أَنَّ الغَايَةَ مِنْ حَدِيثِي إِلَيْكَ
 وَإِلَى إِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ وَالإِصْلَاحِ هُوَ أَلَّا تَكْتَفُوا بِسَمَاعِ مَا تَحَدَّثْتُ بِهِ
 إِلَيْكُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ وَعَلَى إِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ أَنْ تَنْقُلُوا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حَدِيثِي، وَمَا نِلْتُمْ مِنْ
 خِبْرَةٍ، إِلَى الصِّغَارِ وَالكِبَارِ، وَالشُّيُوخِ وَالشَّبَابِ، مِنْ أَجْيَالِ المُسْتَقْبَلِ؛ وَأَنْتَ بِخَاصَّةٍ يَا
 بَيْدَبَا، مَقْصُودٌ أَكْثَرُ مِنْ سِوَاكَ لِأَنَّكَ تُجِيدُ حَبْلَ الحَدِيثِ وَالحِكَايَاتِ، وَلِأَنَّ الصِّغَارَ
 وَالشَّبَابَ فِي حَدَاثَةِ سِنِّهِمُ اليَافِعَةَ قَدْ يَصْعَبُ عَلَيْهِمُ الإِلْمَامُ بِكُلِّ هَذِهِ الخِبْرَاتِ وَالتَّجَارِبِ
 وَالتَّأْمَلَاتِ الَّتِي تَطَرَّقْنَا إِلَيْهَا، وَفِي أَغْلَبِ الأَحْوَالِ فَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ وَأَعْيُنَهُمْ قَدْ لَا تَسْتَطِيعُ الوُصُولَ
 إِلَى كَثِيرٍ مِنْ مَصَادِرِ هَذِهِ الرُّؤْيَى وَالتَّأْمَلَاتِ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ أَسْلُوبَكَ الحَكِيمَ يَا بَيْدَبَا فِي الحَدِيثِ
 وَالحِكَايَةِ وَالقِصَّةِ وَالحِوَارِ، وَمَا إِلَيْهَا مِنْ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالإِعْلَامِ وَالحِوَارِ؛ يُعَدُّ
 وَسِيلَةً أَسْهَلَ وَأَيْسَرَنِي إِيْصَالِ هَذِهِ الأَفْكَارِ، وَهَذِهِ الخِبْرَةَ وَالتَّجْرِبَةَ لِنَفْعِ هَذِهِ الأَجْيَالِ، وَهُوَ
 الأَسْلُوبُ الَّذِي أَتَطَّلَعُ إِلَيْهِ لِنَقْلِ مَا دَارَ بَيْنَنَا مِنَ الأحَادِيثِ إِلَيْهِمْ، وَلِتَوْفِيرِ الرُّؤْيَى وَالخِبْرَةَ
 الصَّالِحَةَ إِلَى نُفُوسِهِمْ؛ وَفِي سِنِّ مُبَكَّرَةٍ، قَبْلَ أَنْ يَصْلُبَ عُوْدُهُمْ عَلَى عِوَجٍ؛ فَتُفِيدُهُمْ بِذَلِكَ

فِي بِنَاءِ فِكْرِهِمْ وَوَجْدَانِهِمْ، وَتَنْبِيرِ رُؤْيَيْهِمْ، وَتَسَدِّدِ جُهُودِهِمْ وَمَسِيرَتِهِمْ؛ لِتَحْقِيقِ الْغَايَاتِ
الْخَيْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَلِيَنْتَفِعُوا بِهَا قَبْلَ أَنْ يُغَادِرُوا الْحَيَاةَ وَمَوَاقِعَ الْبِنَاءِ وَالْعَطَاءِ، مِثْلَ مَا
كَانَ مَصِيرَ آبَائِنَا بِالْأَمْسِ، وَمَا سَوْفَ يَحْدُثُ لَنَا نَحْنُ عَمَّا قَرِيبٍ، وَلِيُقَدِّمُوا كُشُوفَ حِسَابِ،
وَتَقَارِيرِ أَعْمَالِ ذَاتِ قِيَمَةٍ وَنَفْعٍ عَنِ مَعْنَى حَيَاتِهِمْ وَمَا بَدَلُوا مِنْ جِدِّ وَاجْتِهَادٍ فِي التَّسْخِيرِ
وَالْتَّيْسِيرِ عَلَى النَّاسِ وَالْخَلَائِقِ، وَفِي فِعْلِ الْخَيْرِ وَبِنَاءِ الْحَضَارَةِ فِي الْأَرْضِ، كَمَا شَاءَ اللَّهُ
بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ لِلْإِنْسَانِ، وَأَرَادَ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ؛ لَنْ أَحْتَفِظَ وَإِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي بِمَا سَمِعْنَا مِنْكَ
لِأَنْفُسِنَا وَحَدَنَّا؛ لَكِنَّا سَنَقْصُ وَنَحْكِي كُلَّ مَا سَمِعْنَا مِنْكَ عَلَى النَّاسِ، كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ،
وَعَلَى الصِّبْغَارِ وَالشَّبَابِ خَاصَّةً؛ يَنْتَفِعُوا بِمَا فِي تَوْجِيهَاتِكَ وَأَرَائِكَ مِنْ حِكْمَةٍ وَرُؤْيَةٍ وَخِبْرَةٍ؛
تُعِينُهُمْ عَلَى النَّجَاحِ وَالْفَلَاحِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَتَحَقِّقُ الْغَايَاتِ السَّامِيَةَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأُمَّمِهِمْ،
وَلِلْوُجُودِ وَالْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَذَلِكَ غَايَةٌ مَا تَصَبُّو إِلَيْهِ نُفُوسُنَا، وَنَفْسُكَ أَيْضًا أَيُّهَا
الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، وَتَرْجُوهُ.

تَبَسَّمَ الشَّيْخُ مَسْرُورًا بِمَا سَمِعَ، وَانْتَصَبَ أَمَامَ الْجَمِيعِ وَاقِفًا، وَقَدِ اكْتَسَى وَجْهَهُ بِسَمْتِ
جَادٍ وَقُورٍ، وَقَالَ:

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ سَمِعْتُمْ مِنِّي، وَسَمِعْتُمْ مِنْكُمْ الْكَثِيرَ فِيمَا مَضَى مِنَ الْأَيَّامِ، وَهُوَ خَيْرٌ، وَلَا شَكَّ، بَحَثْنَا وَمَحَّصْنَا بِهِ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ، وَوَضَّحْنَا بِهِ كَثِيرًا مِنَ الرُّؤْيَا، وَلَكِنْ لَيْسَ لِكُلِّ هَذَا مِنْ قِيَمَةٍ، وَيُصْبِحُ أَشْبَهُ بِالْهَزْلِ وَالْهَذْرِ، مَا لَمْ يَصْحَبِ الْقَوْلَ الْعَمَلُ. لِذَلِكَ أَرْجُو أَنْ تَكُونَ اجْتِمَاعَاتِنَا وَمُدَارَسَاتِنَا بَدَايَةَ مَزِيدٍ مِنَ الْعَمَلِ، وَأَنْ يَنْصَرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مِنْ هَذَا الْجَمَاعِ، وَهُوَ يُفَكِّرُ بِشَكْلِ جَادٍ إِبْدَاعِيٍّ، أَنْ يَبْدَأَ مَشْرُوعًا يَتَعَاوَنُ فِيهِ مَعَ بَعْضِ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ؛ لِيُضِيفَ بِهِ إِلَى حَيَاةِ مُجْتَمَعِهِ، فِكْرَةً وَخِدْمَةً تَنْمُو وَتَكْبُرُ؛ لِتَنْمُوَ بِهَا حَيَاةُ الْأُمَّةِ، وَتَعْلُوَ وَتُثْمِرَ.

إِنَّ الْخَيْرَ وَالتَّقَدَّمَ فِي مُجْتَمَعَاتِنَا لَنْ يَتَحَقَّقَ، أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ إِلَّا إِذَا أَخَذَ كُلُّ مِنَّا بِزِمَامِ الْمُبَادَرَةِ فِي يَدِهِ، وَبِرُوحِ الْبَدَلِ وَالْإِثْقَانِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَإِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَنَعْلَمَ جَمِيعًا أَنَّ كُلَّ مَا نَقُولُهُ وَنَتَحَدَّثُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدٌ لَهْوٍ وَهَذْرٍ، يَحُطُّ مِنْ قِيَمَةٍ أَصْحَابِهِ، وَيَشِينُ سَمْعَتَهُمْ، وَيُغْرِي بِهِمْ أَعْدَاءَهُمْ.

وَأَخِيرًا أَرْجُو أَنْ تَذْكُرُوا خُلَاصَةَ الْقَوْلِ فِيمَا دَارَ بَيْنَنَا وَتَحَدَّثْنَا فِيهِ، وَأَنْ تَضَعُوهُ نُصَبَ أَعْيُنِكُمْ وَلَا تَنْسُوهُ فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُونَهُ أَبَدًا.

وَهَذِهِ الْخُلَاصَةُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ هِيَ أَنَّ كُلَّ مَا نَصْنَعُهُ فِي دُنْيَانَا إِنَّمَا نَسْتَجِيبُ بِهِ

لِحَاجَاتِ مَعَاشِنَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَمَلْبَسٍ وَسَكَنٍ، لَكِنَ بِالْخُلُقِ وَالسُّلُوكِ الْقَوِيمِ نُحَسِّنُ
بِهِ نَوْعِيَّةَ حَيَاتِنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَنُوَدِّي بِهِ مَسْئُولِيَّاتِ الْإِسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ وَبِنَاءِ حَضَارَةِ
الْإِنْسَانِ الْخَيْرَةِ، وَلَا خَوْفَ عَلَيْنَا - نَحْنُ بَنِي الْإِنْسَانِ - مِنْ فَقْرٍ وَلَا جُوعٍ وَلَا عَوْزٍ، فَالْأَرْضُ
فِيهَا أَرْزَاقُهَا لِلْمُسْتَخْلَفِينَ الْعَالَمِينَ الْعَامِلِينَ. وَبِذَلِكَ نُحَسِّنُ أَيْضاً، نَوْعِيَّةَ عَالَمِنَا، فِي عَالَمِ
الرُّوحِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ الْأَبَدِيَّةِ، فَالتَّكْرِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْكَرِيمِ، فَمَا أَسْعَدَ مَنْ سَعِدَ بِعَمَلِهِ فِي
الدَّارَيْنِ !!

أَرْجُو، أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ أَنْ أَكُونَ قَدْ نَصَحْتُ وَبَلَّغْتُ، فَأَنْتُمْ أَهْلُ رُؤْيَا، وَعَزِيمَةٌ،
وَعِلْمٍ، وَقُدْرَةٍ، وَرِسَالَةٍ، أَدْعُو اللَّهَ لَكُمْ بِالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَأَرْجُوا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَلَّا
يَكُونَ نَصِيبُ مَا قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ نُصْحٍ أَوْ لَمَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

أَمْرُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا النَّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

وَقَفَ بِيَدَبَا، وَوَقَفَ مَعَهُ الْجَمِيعُ لِلْإِنْصِرَافِ، مُعَبِّرِينَ لِلشَّيْخِ عَنْ شُكْرِهِمْ لَهُ، وَعَنْ
عَزِيمَتِهِمْ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ شَبَابِ الْأُمَّةِ، لِلْعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَزِيدِ مِنَ الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ
وَالْبَدَلِ؛ لِمَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَخَيْرُ الْأُمَّةِ وَصَلَاحُهَا.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ أَمْسَكَ الشَّيْخُ بِعَصَاهُ؛ لِيَقِفَ بِدَوْرِهِ مُودِّعًا بِيَدَيْهَا وَإِخْوَانَهُ وَأَخَوَاتِهِ مِنْ
طَلَبَةِ الْعِلْمِ.

وَهُنَا سَبَقْتُهُ فَتَاءُ جَمِيلَةٌ مِنَ الْحَاضِرَاتِ بِالْوُقُوفِ مِنْ خَلْفِ الصُّفُوفِ، وَخَاطَبَتِ
الشَّيْخَ ابْنَ بَطُوطَةَ فِي حَيَاءٍ قَائِلَةً لَهُ: يَا شَيْخَنَا الْجَلِيلَ: هَلْ تَسْمَحُ لِي بِكَلِمَةٍ؟
نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى مُحَيَّاهَا الْجَمِيلِ وَطَلَعَهَا الْبَهِيَّةَ، وَقَالَ: تَكَلِّمِي يَا ابْنَتِي، فَكَلِّمِي آذَانُ
مُصْغِيَةً.

قَالَتِ الْفَتَاءُ: أَنْتَ تَعْلَمُ يَا سَيِّدِي الْجَلِيلَ أَعَزَّكَ اللَّهُ، أَنَّنَا أَحْبَبْنَاكَ وَاسْتَمْتَعْنَا
بِحَدِيثِكَ وَحِكْمَتِكَ وَخِبْرَتِكَ وَكَرَمِكَ، وَإِنِّي أَوَدُّ أَنْ أُوَاصِلَ الْجُلُوسَ إِلَيْكَ، وَالْإِفَادَةَ مِنْ
صُحْبَتِكَ، فَهَلْ تَقْبَلُ بِي زَوْجَةً لَكَ، وَأَنْ أَرَأْفَقَكَ إِلَى بَلَدِكَ، وَفِي أَسْفَارِكَ، وَأَعَيْنَكَ عَلَى
أُمُورِكَ؛ فَذَلِكَ أَقَلُّ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَّا رَجُلٌ مُخْلِصٌ مُجَاهِدٌ مِثْلَكَ؟
نَظَرَ إِلَيْهَا الْحَاضِرُونَ، وَتَهَامَسُوا، وَتَضَاحَكُوا، وَهَمَّهَمُوا، وَأَوْمَأُوا بِرُؤُوسِهِمْ تَأْيِيدًا
لِقَوْلِهَا.

نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَيْهَا مَلِيًّا، وَرَأَى فِيهَا فَتَاءً، تَفُوقَ الْبَدْرِ جَمَالًا، لَا يَزْهَدُ فِي مِثْلِهَا رَجُلٌ، مَهْمَا
بَلَغَ بِهِ الْعُمْرُ، وَقَالَ يُخَاطِبُهَا: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَا أَبْنَائِي مَا أَكُنْتُ لِسَبَابِ الْعِلْمِ وَالْإِصْلَاحِ مِنَ



فَهَلْ تَقْبَلُ بِي زَوْجَةً لَكَ، وَأَنْ أُرَافِقَكَ إِلَى بَلَدِكَ، وَفِي أَسْفَارِكَ

المَحَبَّةِ وَالتَّقْدِيرِ، وَلَكِنِّي كَمَا تَعْلَمُونَ رَجُلٌ تَرَحَّالٌ وَسَفَرٌ لَا يَقْرُلُهُ قَرَارٌ، وَرَجُلٌ يَقْدِرُ
المَسْئُولِيَّةَ وَلَا يُفْرِطُ فِيهَا، وَرَجُلٌ لَهُ فِي أَرْضِ الوَطَنِ زَوْجَةٌ وَبَنَاتٌ وَأَبْنَاءٌ وَحَفِيدَاتٌ وَأَحْفَادٌ
أَحَبُّهُمْ وَأَحْبُونِي، وَقَدْ أَخْلَصْتُ العَهْدَ لِزَوْجَتِي فَأَخْلَصْتُ لِي العَهْدَ، وَأَمِنْتُ جَانِبِي، وَأَمِنْتُ
جَانِبَهَا، وَلَمْ تَمْتدْ يَدِي وَلَا يَدُهَا وَلَا لِسَانِي وَلَا لِسَانُهَا بَيْنَنَا قَطُّ وَلِذَلِكَ أَصْبَحُ مَا يَرِبُ بَيْنَنَا
هُوَ مَحْضُ الإِخْلَاصِ وَالأَمْنِ، وَهُوَ سِرُّ أَيُّهَا الشَّبَابُ - إِلَى جَانِبِ الإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ المُتَبَادِلِ
بَيْنَ الأزْوَاجِ وَأَفْرَادِ الأُسْرَةِ - مِنْ أَهَمِّ أَسْرَارِ سَعَادَةِ الأُسْرَةِ وَاسْتِقْرَارِهَا، فَإِنَّ المَرْأَةَ يَا إِخْوَتِي
إِذَا حَفِظْتَ كِرَامَتَهَا وَأَمِنْتَ حَقًّا جَانِبَ زَوْجِهَا، بِإِحْسَاسٍ قَلْبِيَّهَا وَمَشَاعِرِهَا وَعَطَاءٍ زَوْجِهَا
وَتَضَاجِعِيَّاتِهِ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَخَلَّى عَنْهَا، فَإِنَّهَا تَهَبُ زَوْجِهَا، وَتَهَبُ أَبْنَاءَهُمَا، رُوحَهَا وَخَالِصَ حِرْصِهَا
وَوَلَائِهَا، فَلَا يَكُونُ دَاخِلَ الأُسْرَةِ تَرِيصٌ، وَلَا تَتَعَدَّدُ فِيهِ المَصَالِحُ وَالجِسَابَاتُ.

وَفِي الجَانِبِ الأَخْرِيَّ إِخْوَاتِي، فَإِنَّ عَلَى الزَّوْجَةِ الحَذَرَ مِنَ السَّمَاعِ إِلَى النِّصَائِحِ الحَمَقَاءِ
الضَّارَّةِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى إِثَارَةِ غَيْرَةِ الزَّوْجِ عَلَى زَوْجَتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِسْفِينٌ يُدَقُّ فِي أَصْلِ بِنَاءِ الأُسْرَةِ
وَعَاقِلَةُ الزَّوْجِيَّةِ وَاسْتِقْرَارِهَا، وَإِنَّ إِعْطَاءَ الأَمْنِ الصَّادِقِ لِلزَّوْجَةِ مِنْ جَانِبِ الزَّوْجِ، وَثِقَّةَ
الزَّوْجِ بِعِفَّةِ الزَّوْجَةِ، وَصَوْنَ كِرَامَتِهَا وَكِرَامَةِ أَبْنَائِهِمَا، هُمَا القَاعِدَتَانِ اللَّتَانِ يَقُومُ عَلَيْهِمَا
بِنَاءُ الأُسْرَةِ الصَّالِحَةِ السَّعِيدَةِ المُسْتَقِرَّةِ، وَاللَّتَانِ يَخُوضُ بِهِمَا الزَّوْجَانِ دُرُوبَ الحَيَاةِ؛

حُلُوهَا وَمُرَّهَا، ظَهْرًا إِلَى ظَهْرٍ. وَتَيَقَّنُوا يَا إِخْوَتِي أَنَّهُ لَا أَسْرَةَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ دُونِ هَاتَيْنِ الْقَاعِدَتَيْنِ الْأَسَاسِيَّتَيْنِ؛ وَكُلُّ مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ خِلَافَاتِ الزَّوْجِيَّةِ، يُمَكِّنُ لِلْأَزْوَاجِ-مَا حَكَمْتَ عِلَاقَتَهُمَا آدَابُ الْإِحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ الْمُتَبَادِلِ يَدًا وَلِسَانًا- أَنْ يَصِلَا بِالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَوَاصِرٍ مَتِينَةٍ، وَمِنْ مَشَاعِرِ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، إِلَى إِصْلَاحِهِ وَتَلَاْفِي سَلْبِيَّاتِهِ وَالتَّعَاْيُشِ، مِنْ دُونِ عَظِيمِ عَنَاءٍ مَعَ الْكَثِيرِ مِنْهُ.

إِنَّ مِنَ الْمُهْمِّ جِدًّا أَيُّهَا الشَّبَابُ وَالشَّبَابَاتُ، أَنْ تُقَدِّرُوا مَسْئُولِيَّتَكُمْ تَجَاهَ أَطْفَالِكُمْ، وَمَا يُمَكِّنُ أَنْ تُلْحِقُوهُ بِهِمْ مِنْ أَدَى هَائِلٍ مُدْمِرٍ يَسْتَقِرُّ فِي أَعْمَاقِ نَفُوسِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ نَتِيجَةَ الْإِسْتِهْتَارِ بِعِلَاقَاتِكُمْ الْأَبَوِيَّةِ، وَتَهْدِيدِ أَمْنِهِمْ وَدَفْعِ عُسْهِمْ بِالنِّزَاعِ وَالصِّرَاعِ فِيمَا بَيْنَكُمْ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعِ مِنْهُمْ، أَوْ مَا هُوَ أَنْكَى مِنْ ذَلِكَ، بِالْفِرَاقِ وَالطَّلَاقِ وَهَدْمِ الْعُشِّ وَالذَّارِ؛ لِيَقَعَ الصِّغَارُ صَرَغَى الْحَمَاقَاتِ وَالْأَنَانِيَّاتِ وَضَعْفِ حِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ، فَيُيْتَمُّ الصِّغَارُ، وَيَتَشَرَّدُونَ، وَيُدْمَرُ عُسْهُمُ، وَيَنْهَدِمُ حِصْنُهُمْ، وَيَتَشَتَّتْ شَمْلُهُمْ، وَتَتَمَزَّقُ نَفُوسُهُمْ وَتَتَوَزَّعُ بَيْنَ أَبْوَيْنِ مُتَنَاجِرَيْنِ، وَعَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعِ مِنْ حَيْرَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَبِرَاءَتِهِمْ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدْفَعُ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ إِلَى مَتَاهَاتِ الضَّبْيَاعِ وَمَهَالِكِ الْجَرِيمَةِ وَالْمُخَدِّرَاتِ، فَلِيَحْمِلْ شَبَابُنَا وَشَبَابَاتُنَا مَسْئُولِيَّتَهُمْ، وَلِيَرْحَمُوا ضَعْفَ صِغَارِهِمْ، فَلَا يَغْتَالُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَأَمْنَهُمْ وَبِرَاءَتَهُمْ، وَلَا

يُشْقُونَ حَيَاتِهِمْ وَشَبَابَهُمْ، وَإِلَّا كَانَتِ الْعَجَمَاوَاتُ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلِيَحْذَرُوا النَّدَمَ، بَعْدَ الْقَوْتِ،
وَلَيْسَ سَاعَةً مِّنْ دَمٍ.

لِكُلِّ ذَلِكَ آيَتُهَا الْعَزِيزَةُ، وَلِأَنَّيَ رَجُلٌ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ، وَاقْتَرَبَ وَلَا شَكَّ مِنْهُ الْأَجَلُ؛
وَلَنْ أُسْتَطِيعَ فِي هَذِهِ السِّنِّ الْوَفَاءَ بِمَسْئُولِيَّاتِ أَفْرَاحِ زُغْبٍ صِغَارٍ، فَلَنْ أُسْتَطِيعَ أَنْ أُسَيِّءَ
إِلَى مَنْ أَمَنِي وَأَخْلَصَ لِي وَأَسْلَمَ ظَهْرَهُ إِلَيَّ صَدْرِي، كَمَا أَنَّي لَنْ أَجْنِي عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ
سَيَتَعَلَّقُ أَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِي بِكَ، فَكَمَا تَقُولُ الْحِكْمَةُ الشَّعْبِيَّةُ "أَبْنَاءُ الشَّبَابِ لِلشَّيْبَةِ وَأَبْنَاءُ
الشَّيْبَةِ لِلْخَيْبَةِ". وَقَبْلَ ذَلِكَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَوْ الْمَوَدَّةِ أَوْ الْإِحْسَانِ فِي
شَيْءٍ، أَنْ يُعَدِّدَ الرَّجُلُ الزُّوجَاتِ مِنْ دُونِ ضَرُورَةٍ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي مُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِ -آيَتُهَا
الْأَخْتُ الْكَرِيمَةُ- كَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا أَزْوَاجًا، فَمُنْذُ الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ زَوْجًا وَخَلَقَ
حَوَاءَ وَاحِدَةً زَوْجًا لَهُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْبَشَرُ وَمَا زَالُوا يُوَلِّدُونَ -دُونَ فَرَقٍ يُذَكِّرُ- مُنَاصَفَةً،
ذُكُورًا وَإِنَاثًا، وَلَيْسَ تَسَاوِي خَلْقِهِمْ عَبَثًا، وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَسْتِثْنَاءُ، أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ أَكْثَرُ مِنْ
زَوْجَةٍ، وَذَلِكَ لِحَاجَاتٍ، تَتَعَلَّقُ بِالْمُجْتَمَعِ، كَأَثَارِ الْحُرُوبِ، وَمَا تَسْتَبِيعُهُ هَذِهِ الْحُرُوبُ، مِنْ
إِزْهَاقِ أَرْوَاحِ أَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرِّجَالِ، وَاسْتِشْهَادِهِمْ، دِفَاعًا عَنِ الْأُمَّةِ وَالْأَوْطَانِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ
عَلَى ذَلِكَ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ، مِنْ انْهِيَارِ الْمَوْسَسَاتِ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَضَاوُلِ الْمَوَارِدِ

الإقتصاديّة، وما يستتبع ذلك من حاجة النساء الأرامل، إذ لم توجد المؤسسات أو لم تتوفر الموارد اللازمة لرعاية الأيتام الصغار (اليتامى) ويرعاهم ويرعى أسرهم، وهنا يتحتّم على من بقي من الرجال، وعلى زوجاتهم التّضحّيّة ليكون الرجل على قدر طاقته الماديّة، وقدر فداحة أعداد الشهداء، ورعاية "اليتامى"، زوجاً لامرأة أرملة ثانية أو ثالثة أو رابعة، بقدر الطّاقة، وليس في ذلك تفلّتا واستهانة بحقوق الزّوجة والأسرة.

ومن هذه الاستثناءات أيضاً أن يضطرّ الرجل لزوجة ثانية؛ للحفاظ على عشرة زوجة عاقرة، لا أمل لها في إنجاب الولد، فيكون ولده ولداً لها، وتكون للأبناء أمّاً ثانية كأم الرّضاع تُجيبهم وترعاهم، وتسعى مع أمهم لصالحهم وسعادتهم، وبذلك يكون للأبناء أمان تحنّوان عليهم.

ومن ذلك أيضاً، أن يتخذ الزوج زوجة ثانية؛ لرعاية زوجة مريضة، معاقبة نفسياً أو جسدياً، وتكون في حاجة، إلى رعاية محرّم يعتني بها؛ فيبقي علمها، ويتخذ زوجة ثانية؛ حفظاً لحقّ سابق العشرة، وأداءً لحقّ المودّة والرّحمة وحقّ مشاعر الإنتماء وعلاقات القرّبي.

لَيْسَ فِي كُلِّ هَذَا أَيْهَا الشَّبَابُ وَالشَّابَاتُ إِخْلَالٌ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ، أَوْ بِتَوَازُنِ فِطْرَةِ الْخَلْقِ،
أَوْ الْإِسْتِهَانَةِ بِنَفْسِيَّةِ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ، وَلَا بِحُقُوقِهِمْ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرٌ فِي الْقِيَامِ
بِوَاجِبِ الْمَسْئُولِيَّةِ تَجَاهَهُمْ، وَالْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ.

وَأَنَا بِحَمْدِ اللَّهِ أَيْتَمَّا الْأَخْتُ الْكَرِيمَةُ لَسْتُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَأَيُّ شَيْءٍ غَيْرُ ذَلِكَ يَا ابْنَتِي،
إِنَّمَا، إِضَافَةٌ إِلَى كُلِّ مَا سَبَقَ، هُوَ تَعَدِّيٌّ عَلَى حُقُوقِ الْآخِرِينَ مِنَ الرِّجَالِ فِي إِمْكَانِ تَوَافُرِ
الْحُصُولِ عَلَى شَرِيكِ دُونَ عَنَاءٍ.

إِنَّ التَّعَدُّدَ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ طَلَبًا لِلْمُتَمَعَّةِ فَقَطْ إِنَّمَا هُوَ تَعَدِّيٌّ عَلَى حُقُوقِ الْمُجْتَمَعِ
وَعَلَى حُقُوقِ الزَّوْجَةِ الْمُؤَدِّيَةِ لِحُقُوقِ زَوْجِهَا، وَأَيُّ حَلٍّ لِأَيَّةِ مُشْكِلَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ أُخْرَى،
كَالتَّقَلُّبِ الْأَخْلَاقِيِّ بِالْحُصُولِ عَلَى الْمُتَمَعَّةِ الرَّخِيصَةِ، دُونَ حَمْلِ مَسْئُولِيَّتِهَا، فَذَلِكَ يُبَسِّرُ
الدَّعَارَةَ بِأَشْكَالِهَا الْمَكْشُوفَةِ، وَالْمُقَنَّعَةِ، وَيُسَهِّلُ عُزُوفَ الشَّبَابِ عَنِ الزَّوْاجِ وَحَمْلِ
مَسْئُولِيَّةِ الْأُسْرَةِ؛ لِأَنَّ الْجِنْسَ وَالْمَرْأَةَ، وَلَيْسَ الطِّفْلُ، هُوَ أَهْمٌ مَا يَرْتَبُطُ الرَّجُلُ بِالْأُسْرَةِ
وَالطِّفْلِ، كَمَا أَنَّ أَهْمَ مَا يَرْتَبُطُ الْمَرْأَةُ بِالطِّفْلِ هُوَ ضَعْفُهَا، وَضَعْفُ طِفْلِهَا، وَحَاجَةُ طِفْلِهَا
إِلَيْهَا، وَكُلُّ هَذَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى تَفْشِي الْعُنُوسَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَيُسَهِّلُ (وَتَسْهِيلِ)
الطَّلَاقِ، وَتَنْهَارُ (وَأَنْهِيَارِ) الْحَيَاةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ أَيْضاً، مُحَاوَلَةُ حَلِّ الْمَشْكِالَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْخَطَا حَلَّ مُشْكِالَةِ عَلَى حِسَابِ مُشْكِالَةِ أُخْرَى، فَذَلِكَ لَا يَحُلُّ الْمَشْكِالَةَ، بَلْ يَخْلُقُ مُشْكِالَةً أُخْرَى، وَالتَّعَدُّدُ هُنَا هُوَ أَيْضاً تَعَدِّيٌّ لَا تَعُودُ مَعَهُ عِلَاقَاتُ الْأَزْوَاجِ عِلَاقَاتٍ تَأْزِرُ وَمَصْلِحَةٌ وَاحِدَةٌ، يُوَاجِهُهُ بِهَا الْأَزْوَاجُ الْحَيَاةَ ظَهْرًا لِظَهْرٍ، بَلْ تُصْبِحُ عِلَاقَاتُ الزَّوْجِ الْمُفْرِطِ فِي حُقُوقِ الْأُسْرَةِ - مَعَ زَوْجَاتِهِ - إِنَّمَا هِيَ عِلَاقَاتُ فِرْقَاءِ مُتَوَجِّسِينَ، حَيْثُ يَنْهَدِمُ فِي نَفُوسِ الزَّوْجَاتِ جَمِيعاً حِسُّ الْأَمْنِ وَالْوَلَاءِ وَالْإِخْلَاصِ، الزَّوْجَةُ الْأُولَى بِمَا لَقِيَتْ، وَالزَّوْجَاتُ الْأُخْرَيَاتُ بِمَا أَخَذْنَ، وَبِمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَلْقَيْنَ مِنْ تَصْرُفَاتٍ مِثْلِ هَذَا الزَّوْجِ، فَتُصْبِحُ الْأُسْرَةُ، نَتِيجَةُ صِرَاعِ الْإِنَاثِ، هَشَّةَ الْبِنَاءِ وَالْوَلَاءِ، وَيَذْهَبُ ضَحِيَّتُهَا الْهِنَاءُ وَالْأَبْنَاءُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ؛ اذْكُرُوا أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، الَّتِي انْهَارَتْ فِيهَا الْأَخْلَاقُ، وَفَشَتْ فِيهَا الرِّذِيلَةُ، وَتَنَفَّذَتْ فِيهَا تَجَارِهَا وَ"أَزْلَامَهُمْ"، انْهَارَتْ فِيهَا الْأُسْرَةُ، وَضُيِّعَتِ الْمَرْأَةُ، وَضُيِّعَ الطِّفْلُ، وَانْهَارَتْ تِلْكَ الْأُمَمُ وَالْحَضَارَاتُ وَالْمُجْتَمَعَاتُ، بِضِيَاعِ أَخْلَاقِ الْمُجْتَمَعِ، وَضِيَاعِ أَجْيَالِ مُسْتَقْبَلِهِ، وَأَسَاسِ بُنْيَانِهِ.

فَالْحَذَارِ الْحَذَارِ أَيُّهَا الشَّبَابُ وَالشَّبَابَاتُ، مِنَ السَّيْرِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الْمُظْلِمِ، أَوْ مُحَاوَلَةِ
الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْمُغَامِرَاتِ النَّتِنَةِ الْمَسْمُومَةِ الْمُهْلِكَةِ، أَوْ تَقْلِيدِهَا وَمُحَاكَاتِهَا.
عِنْدَ هَذَا تَحَدَّثَ بِيَدَبًا قَائِلًا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ وَالشَّبَابَاتُ، فَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فِي
كُلِّ مَا قَال، وَالْوَيْلُ الْوَيْلُ "لِمَنْ جَرَّبَ الْمُجَرَّبَ".

السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ

صَمَتَ الشَّيْخُ الرَّحَّالَةَ بُرْهَةً ثُمَّ وَاصَلَ حَدِيثَهُ مُخَاطِبًا بَيْدَبَا قَائِلًا: أَوْدُ يَا بَيْدَبَا وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ أَنْ أُرْوِيَ لَكُمْ قِصَّةً طَرِيفَةً تُجَسِّدُ فِي الْوَاقِعِ فَحْوَى مَا سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي عَنْ أَسْئِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ الْمُتَالِفَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ يَا شَيْخَنَا فَالشَّبَابُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْحِكْمَةِ لِبِنَاءِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ الْمُسْتَقِرَّةِ السَّعِيدَةِ، فَقَدْ بَلَغَ أَسْمَاعَنَا الْكَثِيرَ مِنْ تَضَعُّعِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ وَالزُّهْدِ فِيهَا وَمَا يَعْنِي ذَلِكَ مِنْ حِرْمَانِ الْمَرْأَةِ مِنْ حَقِّ الْأُمُومَةِ، إِلَى جَانِبِ ارْتِفَاعِ نِسْبَةِ الطَّلَاقِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ الْأُخْرَى وَنَخَشَى أَنْ يَمْتَدَّ هَذَا الدَّاءُ إِلَى بِلَادِنَا وَشَبَابِنَا.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ يَا بَيْدَبَا، لَقَدْ رَأَيْتُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ ظَاهِرَةَ انْهِيَارِ الْأُسْرَةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَآسٍ لِلْأَبْنَاءِ وَالْوَالِدِينَ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ تَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ فِي أَخْلَاقِيَّاتٍ وَدَلِيلٌ عَلَى سُوءِ التَّرْبِيَةِ وَعَدَمِ تَقْدِيرِ الْمَسْئُولِيَّةِ وَتَشْوِيهِ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّوِيَّةِ، فِي تِلْكَ الْبِلَادِ.

وَكَمَا تَعْلَمُ يَا بَيْدَبَا فَإِنِّي رَجُلٌ رَحَّالٌ، فَكَانَ مِنْ أَطْرَفٍ وَأَفْضَلِ مَا مَرَّ بِي كَانَ حِينَ نَزَلْتُ إِلَى إِحْدَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَجَلَسْتُ إِلَى حَلْقَةٍ أَحَدِ الْمُعَلِّمِينَ الْعُلَمَاءِ وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأُسْرَةِ وَعَنْ أَسْئِ بِنَائِهَا وَتَكَامُلِ أَدْوَارِ أَعْضَائِهَا وَتَرَاحُمِهِمْ وَآثَرِ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِيَّةِ أَبْنَائِهِمْ وَأَهْمِيَّةِ

قِيَامِ كُلِّ أَبِي وَكُلِّ أُمِّ بِدَوْرِهِ فِي تَحْقِيقِ الرَّفَاهِ لِأَسْرَتِهِ زَوْجًا وَأَبْنَاءً، وَأَنْ يُمَكِّنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ
الْأَبْوَيْنِ الْآخَرَ لِيُؤَدِّيَ دَوْرَهُ وَيَقُومَ بِوَجِبَاتِهِ، وَحِينَ انْتَهَى الْمُعَلِّمُ الْحَكِيمُ مِنْ حَدِيثِهِ
وَنُصِحِهِ الْمُفِيدِ الْمُمْتَعِ أَذِنَ لِطُلَّابِهِ بِالسُّؤَالِ عَمَّا يَعْينُ لَهُمْ أَوْ يَشْغَلُ خَاطِرَهُمْ.

عِنْدَهَا تَوَجَّهَ أَحَدُ الشَّبَابِ إِلَى الْمُعَلِّمِ بِالسُّؤَالِ وَقَالَ لَهُ: يَا مُعَلِّمَنَا الْجَلِيلَ لَقَدْ أَفَادَنَا
وَأَمْتَعَنَا حَدِيثُكَ، وَلَعَلِّي أَجِدُ لَدَيْكَ نُصْحًا فِي شَأْنِ أَمْرٍ أَقْلَقَنِي وَحَيَّرَنِي يَتَعَلَّقُ بِزَوْجَتِي، فَإِنَّا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رُزِقْتُ بِزَوْجَةٍ فَاضِلَةٍ وَرُزِقْنَا بِابْنَةٍ جَمِيلَةٍ قَرَّتْ بِهَا أَعْيُنُنَا، وَلَكِنَّا كَمَا تَرَى أَيُّهَا
الْمُعَلِّمُ مَا زِلْنَا يَافِعِينَ تَنْقُصُنَا الْخِبْرَةَ، وَلَا بُدَّ لِمِثْلِنَا أَنْ يَحْصَلَ لَهُ مَا قَدْ يُعَكِّرُ مِنْ سَفَاسِفِ
الْأُمُورِ صَفْوَنَا، وَخَاصَّةً مَا تَعَلَّمُ مِنْ أُمُورِ الْأُمَمَاتِ الْيَافِعَاتِ مِنْ أَحْوَالِ جَسَدِيَّةِ
وَ"هُرْمُونِيَّةِ" تَجْعَلُ مِزَاجَهُنَّ يَنْفَعِلُ أحيانًا فِي يُسْرِ وَسُهُولَةٍ، وَبِرَغْمِ صَبْرِي وَتَفَهُّمِي أَجِدُ
زَوْجَتِي، وَرُبَّمَا ذَلِكَ مِنْ تَأْثِيرِ بَعْضِ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْجَاهِلَاتِ، كُلَّمَا تَعَكَّرَ مِزَاجُهَا أَوْ ضَاقَ
صَدْرُهَا مِنْ مَسْئُولِيَّاتِ الْعِنَايَةِ الْمُرْهِقَةِ بِالطِّفْلِ وَبِشُؤْنِ الدَّارِ، وَهِيَ يَافِعَةٌ قَلِيلَةُ الْخِبْرَةِ،
فَأَجِدُهَا تَصْرُخُ وَتَنْفَعِلُ وَتَطْلُبُ الطَّلَاقَ، وَلَا أَدْرِي مَاذَا أَفْعَلُ، وَأَخْشَى أَنْ يَنْفَدَ صَبْرِي.

قَالَ الشَّيْخُ لِلْفَتَى: صَدَقْتَ يَا بِنْتِي، فَمِزَاجُ الْمَرْأَةِ الْيَافِعَةِ وَمَسْئُولِيَّاتُهَا الْأَسْرِيَّةُ الْمُرْهِقَةُ
وَنُصَائِحُ الْجَاهِلَاتِ مِمَّا قَدْ يُعَكِّرُ صَفْوَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَرُبَّمَا بَيْنَ مَنْ كَانُوا جُهَلَاءَ حَمَقَى

وغير مقدرين للمسئولية الزوجية والأبوية، أن ينتهي الأمر بينهما إلى الطلاق لأتفه الأسباب، وخيراً فعلت يا بني بصبرك وبسؤالك.

وجوابي على سؤالك لن يكون مزيداً من الحديث، ولكنه سيكون رواية أحداث قصة طريفة، تحكي أمرَكَ وتُجيبُ عن سؤالِكَ؛ لذلك أقصها اليوم على مسامعك ومسامع إخوانك، وقد حدثت أحداث هذه القصة لأخٍ أعرفه عرفاً بيننا بحسن خلقه وكريم شمائله، وخاصة ما عرف عنه من صدق الوعد، ولذلك كنا ندعوه تقديراً له بالسيد المكي؛ لأن تلك الصفات الكريمة هي مما يُحمد من صفات أبناء ذلك البلد المقدس.

وتبدأ قصة السيد المكي بالزواج كما تزوجت أنت، ورزق مثلك بابنة جميلة قررت بها عينه وعين زوجته، وكان سلوك زوجته على شاكلة زوجته، ولهذا تجدني أسرود قصته على مسامعك ومسامع إخوانك وأخواتك من الحاضرين لأن فيها على طرفتها الإجابة العملية عما تُعانيه ويُعانيه كثيرٌ مثلك.

قال الشيخ ابن بطوطة ولا أخفي عليكم يا إخواني أنني اشتقت لسَماع قصة هذا السيد المكي، وما فيها من طرفة وحكمة، وقد كانت كذلك؛ ولذلك لم أنسها وأفدت منها؛ ولهذا أنتهز هذه الفرصة أيضاً لأسردها على مسامعكم.

قال بَيْدَبَا يُخَاطِبُ الشَّيْخَ: لَقَدْ اشْتَقْنَا نَحْنُ أَيْضًا يَا شَيْخَنَا إِلَى سَمَاعِ قِصَّةِ السَّيِّدِ
الْمَكِّيِّ وَقِصَّةِ طَلَاقِ زَوْجَتِهِ.

قال الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ لِبَيْدَبَا: لَا تَعْجَلْ يَا بَيْدَبَا وَلَا تَتَسَرَّعْ وَتَقْضِي وَأَنْتَ الْحَكِيمُ فِي
الْأَمْرِ قَبْلَ سَمَاعِهِ.

قال بَيْدَبَا: صَدَقْتَ يَا شَيْخَنَا فَدَعْنَا نَسْمَعُ قِصَّةَ مَا جَرَى فَكُلْنَا آذَانَ مُصْغِيَةً لِقِصَّةِ
السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ وَزَوْجَتِهِ.

قال الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ يُخَاطِبُ بَيْدَبَا وَالشَّبَابَ مَعَهُ: وَكَمَا ذَكَرْتُ لَكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فَإِنَّ
السَّيِّدَ الْمَكِّيَّ كَانَ مَعْرُوفًا بَيْنَ إِخْوَانِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْخُلُقِ الْحَسَنِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ.

وقِصَّتُهُ كَمَا رَوَاهَا ذَلِكَ الْمُعَلِّمُ الْفَاضِلُ لِتَلَامِيذِهِ وَسَمِعْتُهَا مِنْهُ هِيَ أَنَّ زَوْجَةَ السَّيِّدِ
الْمَكِّيِّ غَضِبَتْ ذَاتَ يَوْمٍ أَشَدَّ الْغَضَبِ وَانْفَعَلَتْ أَشَدَّ الْانْفِعَالِ وَطَلَبَتْ الطَّلَاقَ وَبَدَتْ جَادَّةً

غَاضِبَةً، عَلَى رَغْمِ أَنَّ مَا تَشْكُومِنَهُ لَا يَتَعَدَّى بَعْضَ مَسْئُولِيَّاتِهَا الْأَسْرِيَّةِ الَّتِي لَا مَفْرَءَ لِلْأُمَّ مِنْهَا
تِجَاهَ دَارِهَا وَصِغَارِهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ لَا مُبَرَّرَ لِطَلِبِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ طَلِبُهَا الْخَطِيرُ
لَيْسَ إِلَّا تَقْلِيدًا وَمُحَاكَاةً لِكَثِيرٍ مِنَ الزَّوْجَاتِ الْجَاهِلَاتِ مِنْ بَابِ التَّحَكُّمِ وَالِدَّلَالِ.

قال الْمُعَلِّمُ: أَلَمْ حَدِيثُهَا وَطَلِبُهَا السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ، فَأَطْرَقَ صَامِتًا مُتَفَكِّرًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى

زَوْجَتِهِ وَقَالَ لَهَا: اسْمَعِي يَا زَوْجَتِي الْعَزِيزَةَ وَاعْلَمِي أَنِّي لَنْ أُطَلِّقَ أَبَدًا، فَلَسْتُ أَنَا
الَّذِي يَرْتَكِبُ الْخَطَأَ بِالزَّوْجِ لِتُدْفَعَ هَذِهِ الصَّغِيرَةُ ثَمَنَ خَطِيئِي وَغَلَطِي، وَأَنْتِ يَا
زَوْجَتِي الْعَزِيزَةَ تَعْلَمِينَ صِدْقَ قَوْلِي، وَإِنِّي لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ مَسْئُولِيَّاتِي بِالطَّلَاقِ
وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ آثَارٍ بِالْغَةِ الْأَثَرِ وَالضَّرَرِ خَاصَّةً عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَلَكِنِّي يَا زَوْجَتِي
الْعَزِيزَةَ سَأَكْتُبُ صِيغَةَ الطَّلَاقِ وَأَتْرُكُ فَرَغَاتٍ تُمَلَأُ بِالْأَسْمَاءِ، اسْمِي وَاسْمِكَ، وَإِذَا
كُنْتِ حَقًّا تُرِيدِينَ الطَّلَاقَ فَلْتَكْتُبِي وَرَقَةَ الطَّلَاقِ بِحِطِّ يَدِكَ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ سَوْفَ
أَنْزِلُ عِنْدَ طَلَبِكَ مَهْمَا كَانَ مُؤَلَّمًا، وَأَوْقِعْهَا لَكَ فِي الْحَالِ مِنْ دُونِ أَيِّ تَأْخِيرٍ، فَلَنْ أَقْبَلَ
أَنْ تَبْقَى مَعِي يَوْمًا وَاحِدًا بِغَيْرِ خِيَارِكَ وَإِرَادَتِكَ وَرَغْبَةٍ مِنْكَ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ الْأَسْرِيَّةَ -بِرَغْمِ
مَا فِيهَا مِنْ مُعَانَاةٍ وَبَدَلٍ وَتَضْحِيَةٍ- يَجِبُ أَنْ تُبْنَى يَا زَوْجَتِي الْعَزِيزَةَ عَلَى الْخِيَارِ وَالرَّغْبَةِ
وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ لِتَكُونَ لِكُلِّ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ تَأْلَفًا وَسَكَنًا.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطْوَيْطَةَ: وَكَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ الْمُعَلِّمُ لِطَلَّابِهِ فَقَدْ قَامَ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ
بِكِتَابَةِ صِيغَةِ وَثِيقَةِ (وَرَقَةِ) الطَّلَاقِ وَقَدَّمَهَا لِزَوْجَتِهِ، قَالَ الْمُعَلِّمُ: وَكَمَا أَعْلَمُ أَنَّهَا
الشَّبَابُ فَإِنَّ السَّيِّدَ الْمَكِّيَّ عَلَى عُمُرِهِ الْمَدِيدِ، لَمْ يُوقِعْ تِلْكَ الرُّقْعَةَ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْ
زَوْجَتِهِ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ -مَهْمَا بَلَغَتْ بِهَا حِدَّةُ الْغَضَبِ وَعَنَاءُ وَمَتَاعِبُ الْأُمُومَةِ، خَاصَّةً



الْوَرَقَةُ الَّتِي لَمْ نُوقِعْ

بَعْدَ أَنْ اِمْتَدَّتِ الْأُلْفَةُ وَكَثُرَ الْأَبْنَاءُ- كَلِمَةَ طَلَبِ الطَّلَاقِ قَطُّ، وَهَكَذَا عَاشَ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ
وَزَوْجُهُ وَأَطْفَالُهُمَا مُتَأَلِّفِينَ سَعْدَاءَ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ شِيَمَةِ السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ يَا بَيْدِيَا أَنْ يُطَلِّقَ
زَوْجَتَهُ وَأَنْ يُفَرِّطَ فِي مَسْئُولِيَّاتِهِ، وَيَهْدِمَ أَسْرَتَهُ، وَيُيْتِمَ أَبْنَاءَهُ، وَلِأَنَّ زَوْجَتَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، لَمْ
تَطْلُبِ الطَّلَاقَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطْوَيْطَةَ: وَالدَّرْسُ هُنَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكُمْ هُوَ
أَنَّ الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ السَّعِيدَةَ الْمُسْتَقْرَّةَ تَنْبِي عَلَى الْخُلُقِ الْكَرِيمِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ
وَالْإِحْتِرَامِ الْمُتَبَادَلِ لِسَانًا وَيَدًا، وَبِالصَّبْرِ وَتَقْدِيرِ مَشَاعِرِ الْآخِرِ، وَإِذَا وَثِقَ الرَّجُلُ بِكَرَامَةِ
زَوْجَتِهِ وَعِفَّتِهَا، وَأَمِنَتْ الزَّوْجَةَ جَانِبَ الزَّوْجِ وَإِخْلَاصَهُ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَخَلَّى عَنْهَا أَوْ يَغْدِرُ بِهَا أَبَدًا،
كَانَتْ هُنَاكَ أَسْرَةٌ سَعِيدَةٌ قَوِيَّةٌ مَتِينَةٌ يَعِيشُ أَفْرَادُهَا ظَهْرًا إِلَى ظَهْرٍ، وَلِجَمِيعِهِمْ مَصْلَحَةٌ
وَاحِدَةٌ وَكَيَانٌ وَاحِدٌ يُحَسُّ فِيهِ الْأَزْوَاجُ وَالْأَبْنَاءُ بِالثِّقَةِ وَالْأَمَانِ، وَتَتَوَحَّدُ مَصَالِحُهُمْ
وَجُهُودُهُمْ لِلتَّغْلِبِ عَلَى مَا يُوَاجِهُونَ مِنْ مَصَاعِبِ الْحَيَاةِ، وَمَا مِنْ مَصَاعِبٍ إِذَا خِيَمَ الْوُدُّ،
وَصَحَّ الْعَزْمُ وَتَكَاتَفَتِ الْجُهُودُ وَسَادَ الْحِرْصُ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمَجْمُوعِ إِلَّا أَمَكْنَ حَلَّهَا
وَالتَّغْلِبُ عَلَيْهَا.

أَطْرَقَ الشَّيْخُ بُرْهَةً وَهُوَ يَرِيْتُ عَلَى فَرَوْ قِطَّتِهِ الْجَمِيلَةَ، وَأَطَالَ التَّفَكِيرَ وَأَخَذَ الشَّبَابُ

يَتَبَادَلُونَ النَّظْرَاتِ، وَكَأَنَّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ عَمَّا أَهَمَّ الشَّيْخَ وَدَعَاهُ إِلَى إِطَالَةِ التَّفْكِيرِ.
وَهُنَا لَمْ يَتَمَالِكْ بَيَدَبَا أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى الشَّيْخِ بِالسُّؤَالِ عَمَّا أَهَمَّهُ وَدَعَاهُ إِلَى إِطَالَةِ
التَّفْكِيرِ.

رَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ فِي بَطْءٍ وَتَوَدَّهَ، مُحَدِّقًا فِي وَجْهِ الْفَيْلَسُوفِ، وَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابَ
فِي صَوْتٍ عَمِيقٍ كَأَنَّهُ يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَاقِ فُؤَادِهِ وَقَالَ:

يَا بَيَدَبَا كَمْ يُؤَلِّمُنِي وَيَحْزُنُنِي فِي نَفْسِي وَيُؤَرِّقُ خَاطِرِي، أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ،
وَشَبَابِ هَذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ، لَمْ يَعُودُوا يُدْرِكُونَ مَعْنَى الْأُسْرَةِ وَلَا أَهَمِّيَّةَ الْأُسْرَةِ، وَلَا
مَعْنَى الْأُبُوَّةِ أَوْ مَعْنَى الْأُمُومَةِ، وَبِرَغْمِ أَنَّ الْأُسْرَةَ هِيَ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسُ فِي بِنَاءِ الْفَرْدِ،
وَفِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ، وَأَنَّ الْأُسْرَةَ هِيَ الْأَسَاسُ فِي تَوْفِيرِ الْأَمْنِ وَالسَّكَنِ وَالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ
النَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ مِنْ يَوْمِ يُولَدُ وَتَتَفَتَّحُ عَيْنَاهُ عَلَى الْحَيَاةِ إِلَى يَوْمِ يَقْضِي
أَجَلَهُ وَيُغَادِرُ هَذِهِ الْحَيَاةَ، وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَدْرَكَ الرَّجُلُ (الْأَبُ) -بِحَسَنِ الْبَدَلِ
وَالْمَسْئُولِيَّةِ- أَوْلِيَّاتِ الْأُبُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفِطْرِيَّةِ فِي الْأُسْرَةِ، وَإِلَّا إِذَا أَدْرَكَتِ الْمَرْأَةُ
"الْأُمَّ" -بِحَسَنِ الْبَدَلِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ أَيْضًا- أَوْلِيَّاتِ الْأُمُومَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْفِطْرِيَّةِ
الْأَسَاسِيَّةِ السُّوِيَّةِ فِي الْأُسْرَةِ، فَمَا خُلِقَتِ الْفُرُوقَاتُ فِي أَصْلِ خَلْقِ الزَّوْجَيْنِ، ذَكَرًا

وَأَنْتَى عَبَثًا، وَعَلَى أَسَاسٍ مِنْهَا، يَجِبُ أَنْ تُحَدِّدَ الْأَوْلِيَّاتُ وَالْأَدْوَارُ وَالْمَسْئُولِيَّاتُ فِي الْحَيَاةِ وَالْأُسْرَةِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ أَيْهَا الْإِخْوَةُ تَكُونُ الْفَوْضَوِيَّةُ وَالْعَبَثِيَّةُ الْمُدْمِرَةُ.

نَعَمْ أَيْهَا الْأَخْوَةُ، يَجِبُ أَلَّا يَغِيبَ عَنْ وَعَيْكُمْ أَبَدًا أَنَّ الْأُسْرَةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِكُلِّ أَفْرَادِهَا هِيَ الْمَهْدُ، وَهِيَ الْعُشُّ الدَّافِي الْوَثِيرُ، وَهِيَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ؛ الَّذِي تَتَرَعَّرُ فِيهِ الْحَيَاةُ الْأُسْرِيَّةُ الزَّوْجِيَّةُ السَّعِيدَةُ، يَجِدُ الطِّفْلُ فِيهِ مَشَاعِرَ الرَّعَايَةِ وَالْحُبِّ وَالْحَنَانِ، وَ"الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةَ" وَالْأَمَانَ وَالرَّعَايَةَ، وَيَكُونُ الزَّوْجُ فِيهِ "طِفْلًا" زَوْجَتِهِ، فَيَجِدُ فِيهِ عُمُقَ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْمَوَدَّةِ، وَلَمَسَاتِ الْمُتَعَةِ وَالرَّعَايَةَ، وَتَكُونُ الزَّوْجَةُ فِيهِ "طِفْلَةً" زَوْجِهَا، تَجِدُ فِي رُبُوعِهِ، عُمُقَ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالْمَوَدَّةِ وَالْمُتَعَةِ، وَأَمَانَ الْحَاجَةِ وَالرَّعَايَةَ، وَالْأَبُ الْهَرِمُ، وَالْأُمُّ الْمُسِنَّةُ، يَجِدَانِ فِيهِ مَشَاعِرَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ وَالْعِرْفَانِ، رِعَايَةً مِنَ الْإِبْنِ وَأُسْرَةَ الْإِبْنِ وَالْأَخْفَادِ، وَعِنَايَةً مِنَ الْإِبْنَةِ وَأُسْرَةَ الْإِبْنَةِ وَالْأَخْفَادِ، وَكَذَلِكَ الْمُجْتَمَعُ يَجِدُ فِي عِلَاقَاتِهِ تَرَاحِمَ الْأَرْحَامِ، وَصِلَةَ الْقَرَابَاتِ.

وَهَذَا بِالطَّبَعِ أَيْهَا السَّبَابُ، ثَمَرَةُ النُّضْحِ الْخُلُقِيِّ التَّرْبَوِيِّ وَالْإِجْتِمَاعِيِّ الَّذِي يُبْنَى عَلَى التَّكَامُلِ وَالْتَرَاحِمِ، وَلَا مَكَانَ فِيهِ لِعِلَاقَاتِ الْقَهْرِ وَالْقَسْوَةِ وَالتَّسَلُّطِ، وَلَا مَجَالَ فِيهِ لِأَيِّ لَوْنٍ مِنَ الْوَانِ الْعُنْفِ النَّفْسِيِّ أَوْ الْجَسَدِيِّ؛ فَتِلْكَ خُطُوطُ حَمْرَاءُ، لَيْسَ وَرَاءَهَا إِلَّا التَّفَكُّكُ

وَالشَّقَاءُ، وَمُجْتَمَعُ قُطْعَانِ الْعَبِيدِ الْأَذْلَاءِ.

وَلِكَيْ يُبْنَى ذَلِكَ الْعُشُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ، أَنْ تَتَذَكَّرُوا، وَأَلَّا تَنْسُوا أَبَدًا، أَنَّ
عَلَاقَاتِ الْأُسْرَةِ الْحَمِيمَةِ النَّاجِحَةِ، وَعَلَاقَاتِ الْمُجْتَمَعِ النَّاصِحِ، وَكُلَّ عِلَاقَةٍ نَاجِحَةٍ
نَاصِحَةٍ، هِيَ عِلَاقَةٌ تَبَادُلِيَّةٌ، فِيهَا أَخْذٌ وَعَطَاءٌ، وَإِلَّا فَيَنْ "يَدًا وَاحِدَةً لَا تُصَفِّقُ"،
وَالْخَسَارَةَ فِيهَا تَعُمُّ الْجَمِيعَ.

إِنَّ الْأُسْرَةَ أَيُّهَا الشَّبَابُ لِلْإِنْسَانِ فِي كَافَّةِ مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ هِيَ الْعِنَايَةُ، وَهِيَ الرِّعَايَةُ،
وَهِيَ الْمَوَدَّةُ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ، فَإِذَا انْهَارَتِ الْأُسْرَةُ، انْهَارَتْ قَاعِدَةُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَانْهَارَ
أَمْنُ أَفْرَادِهِ وَسَعَادَتُهُمْ وَانْهَارَ مَعْنَى الْهَيَوِيَّةِ وَمَعْنَى الْإِنْتِمَاءِ، وَالْمُؤَسِّفُ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ أَنَّهُ
لَا يُدْرِكُ، حَقَّ الْإِدْرَاكِ، مَدَى الْخَسَارَةِ الَّتِي تَلْحَقُ بِمَنْ لَمْ تَحْتَضِنْهُ أُسْرَةٌ، أَوْ بِمَنْ نَشَأَ
فِي أُسْرَةٍ مُفَكِّكَةٍ، إِلَّا مَنْ نَشَأَ فِي أُسْرَةٍ سَوِيَّةٍ، حَظِيَ فِيهَا بِالْأَمْنِ وَبِالْعِنَايَةِ وَبِالرِّعَايَةِ
وَبِمَشَاعِرِ الْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ.

لَكُمْ أَحْسُّ الْأَلَمِ أَيُّهَا الشَّبَابُ لِمَا أَرَى مِنْ قَبْلِ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ، مِنْ ضَيِّعَةِ
حَسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَضَيِّعَةِ الْوَعْيِ بِمَعْنَى الْأُسْرَةِ وَالِاسْتِهْتَارِ بِمُقَدَّرَاتِهَا، وَتَحْطِيمِ
أَوَاصِرِهَا، وَالْجِنَايَةِ بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى مَنْ تَتَعَلَّقُ بِرِقَابِهِمْ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ

لَمْ يَعُودُوا يَرُونَ مِنَ الْعَلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَسْرِيَّةِ، إِلَّا جَوَانِبَ اللَّذَّةِ الْحَسِيَّةِ، فِي طَلَبِ لَاهِثٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَسَرَابٍ ظَمًا لَا يَرْتَوِي، فِي مَسِيرَةِ ضَيَاعٍ وَشَقَاءٍ وَهَدْمٍ لِسَعَادَةِ الْفَرْدِ وَتَكَافُلِ الْجَمَاعَةِ، وَأَمِنَ الْحَيَاةِ، وَتَدْمِيرِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ، وَفِي سَيْرِ سَالِفِ الْأُمَمِ وَغَايِرِ الْحَضَارَاتِ، لِمَنْ يَعْقِلُونَ وَيَتَعَبُونَ، دُرُوسٌ وَعِبْرٌ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْ تِلْكَ الْأُمَمِ قُوَّتُهُمْ وَلَا ثُرَوَاتُهُمْ حِينَ انْهَارَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَضَيَعُوا مَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَتَنَكَّرُوا لِسَوِيِّ فِطْرَتِهِمْ، وَتَحَوَّلُوا عَنْ حُرِّيَّةِ طَلَبِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ إِلَى فَوْضَى الْخَطَا وَالْخَطِيئَةِ؛ فَضَيَعُوا -فِيمَا ضَيَعُوا- دِفْءَ وَدِّ الْأُسْرَةِ وَأَمِنَ عَشَّ صِغَارِهَا، فَهَدَمُوا أَسَاسَ بِنَاءِ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، فَزَالُوا وَزَالَتْ حَضَارَاتُهُمْ.

لِهَذَا أَيْهَا الشَّبَابُ، كَانَ مِنَ الْمُهْمِمْ، أَنْ يُرَبِّي الْأَطْفَالَ عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَأَنْ لَا يَنَالَ أَحَدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ عِلَاقَةَ الْجِنْسِ -وخاصةً الذَّكُورُ مِنْهُمْ- إِلَّا مِنْ خِلَالِ عِلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَحَمْلِ مَسْئُولِيَّاتِ الْأُسْرَةِ وَالْأَبُوءَةِ لِأَنَّ الْأُنْثَى بِفِطْرَتِهَا حَرِيصَةٌ عَلَى عَرْضِهَا وَعَرْضِ نَسْلِهَا، وَلِأَنَّ الرَّجُلَ لَوْ نَالَ غَايَتَهُ الْجِنْسِيَّةَ مِنَ الْمَرْأَةِ، مُقَابِلَ لَقِيَمَاتٍ أَوْ دُرِيَمَاتٍ، فَلِمَاذَا يَتَحَمَّلُ أَعْبَاءَ الْأُسْرَةِ وَالزَّوْجِيَّةِ وَالْأَبُوءَةِ، وَإِذَا حَمَلَتِ الْمَرْأَةُ بِالْعَمَلِ فَوْقَ طَاقَتِهَا التَّوْفِيرَ أَعْبَاءَ مَعِيشَتِهَا، فَلِمَاذَا تَزِيدُ فِي إِرْهَاقِ نَفْسِهَا بِأَعْبَاءِ الزَّوْجِيَّةِ وَالْأُمُومَةِ.

الْوَعْيُ أَيْهَا الشَّبَابُ بِأَهْمِيَّةِ فِطْرِيَّةِ الْأُسْرَةِ لِاسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَهِنَاءِ الْعَيْشِ وَسَكْنِ الْأَمْنِ وَالْمَوَدَّةِ وَبِسَلَامَةِ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ، وَحُسْنِ تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ، وَتَوْفِيرِ الْأُبْحَاثِ وَالْأَدَبِيَّاتِ الْأُسْرِيَّةِ وَالتَّرْبِيَّةِ الْوَالِدِيَّةِ، وَالَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ ثِقَافَةٍ -حَسَبَ مُعْطِيَّاتِهَا- وَأَنْ تَكُونَ مِنْ أَهَمِّ أَوْلَوِيَّاتِ جُهُودِ الْمُفَكِّرِينَ وَالتَّرْبَوِيِّينَ وَالْقَادَةَ الْإِصْلَاحِيِّينَ، وَبِكُلِّ الْوَسَائِلِ، بَدءًا بِمَكْتَبَةِ الْأُسْرَةِ وَحَوَارَاتِ الْأُسْرَةِ وَمُمَارَسَتِهَا التَّرْبَوِيَّةِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ وَوَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، لِيَتِمَّكَنَ الْأَبَاءُ مِنْ حُسْنِ بِنَاءِ نَفْسِيَّةِ الْأَبْنَاءِ، وَحُسْنِ بِنَاءِ صِفَاتِهِمْ الْخُلُقِيَّةِ وَقُدْرَاتِهِمْ الْإِنْتَاجِيَّةِ، وَأَنْ يَحْمِلُوا مَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَيُحْسِنُوا بِنَاءَ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَيُسْعِدُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَبْنَاءَهُمْ وَقَرَابَتَهُمْ وَمَنْ حَوْلَهُمْ فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ، وَيُحَقِّقُوا بِذَلِكَ ذَوَاتِهِمْ الْخَيْرَةَ، وَضَمَائِرَهُمْ الْحَيَّةَ، وَمُجْتَمَعَاتِهِمْ الْمُتَكَافِلَةَ كَمَا فَطَرَهَا اللَّهُ، اسْتِخْلَافًا وَإِعْمَارًا لِلْأَرْضِ، وَصَلَاحًا لِلْحَيَاةِ وَالْمَعَاشِ، وَفَلَاحًا فِي الْأَجَلَةِ وَالْمَعَادِ.

وَهُنَا انْتَهَزَ بَيْدَبَا تَوَقُّفَ الشَّيْخِ عَنِ الْحَدِيثِ، وَكَأَنَّهُ يَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهُ، وَيُرْتَبُّ أَفْكَارَهُ، لِيُدَاعِبَ الشَّيْخَ وَيُضْحِكَ الشَّبَابَ، قَائِلًا: يَا شَيْخَنَا الْعَزِيزَ لَقَدْ حَلَلْتَ لِي بِحَدِيثِكَ الْحَكِيمِ لُغْزًا حَيْرَنِي، حِينَ قُلْتَ: إِنَّا جَمِيعًا "أَطْفَالٌ" فِي أُسْرِنَا، فَهَذَا يَا سَيِّدِي يُفَسِّرُ

لِي لِمَاذَا أَجِدُنِي أَتَصَرَّفُ أحيانًا كَالْأَطْفَالِ، حِينَ يَجْتَمِعُ حَوْلِي الْأَحْفَادُ، وَلِذَلِكَ لَنْ أَسْمَحَ
لِأَحَدٍ أَنْ يَلُومَنِي بَعْدَ الْيَوْمِ عَنْ أَيِّ تَصَرُّفٍ "طُفُولِي" اسْتِنَادًا لِمَا قُلْتَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ.
نَظَرَ الشَّيْخُ مُنْصِتًا لِبَيْدَبَا، وَقَدْ ضَجَّ الْمَجْلِسُ بِضِحْكِ الشَّبَابِ وَشَغَبِهِمْ، لِيَرُدَّ الشَّيْخُ
عَلَى بَيْدَبَا بِمَا يُبَارَى تَعْلِيْقُهُ، مِنْ حُضُورِ الْبَدِيهَةِ، وَرُوحِ الْفُكَاهَةِ قَائِلًا بِتَصْنَعِ الْجَادِ: كَفَاكَ
"شَقَاوَةٌ" يَا صَغِيرِي بَيْدَبَا.

اشْتَدَّ ضِحْكَ الشَّبَابِ، يُشَارِكُهُمْ ضِحْكَهُمْ الشَّيْخُ وَبَيْدَبَا، إِلَى أَنْ هَدَأَ الْمَجْلِسُ، وَعَادَ
إِلَيْهِ هُدُوءُهُ وَوَقَارُهُ، وَهُنَا عَادَ الشَّيْخُ، إِلَى مُتَابَعَةِ حَدِيثِهِ قَائِلًا: إِذَا عُدْنَا أَيُّهَا الشَّبَابُ إِلَى مَا
كُنَّا نَتَحَدَّثُ فِيهِ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَقِيَ هُنَاكَ أَمْرٌ آخَرٌ مِهِمْ، لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ أَشْبَهُ
بِمِلْحِ الطَّعَامِ، الَّذِي لَا يَلْدُ الطَّعَامُ مِنْ دُونِهِ، مَهْمَا كَانَ الطَّعَامُ غَنِيًّا وَمُغْذِيًّا، وَذَلِكَ هُوَ
التَّعْبِيرُ عَنْ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ، بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ، وَبَيْنَ الْأَقْرِبَاءِ، وَالْأَصْدِقَاءِ، وَالرِّفَاقِ،
وَبَيْنَ كُلِّ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْحُبِّ وَالْمُودَّةِ وَالتَّقْدِيرِ، وَخَاصَّةً أَيُّهَا الشَّبَابُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ.

لَا يَكْفِي أَيُّهَا الشَّبَابُ؛ أَنْ نُحْسَ مَشَاعِرَ الْحُبِّ فِي نُفُوسِنَا، وَأَنْ نُضَحِّيَ بِأَنْفُسِنَا، فِي سَبِيلِ
مَنْ نُحِبُّ؛ بَلْ يَجِبُ عَلَيْنَا، أَنْ نُعْبِرَ لِمَنْ نُحِبُّ، عَنْ حُبِّنَا، وَعَنْ مَشَاعِرِنَا، وَأَلَّا نَغْفَلَ عَنْ
ذَلِكَ بِسَبَبِ غَلْبَةِ مَسْئُولِيَّاتِ الْحَيَاةِ وَمَشَاغِلِهَا، فَلَا تَتَفَتَّحُ الْوُرُودُ، وَلَا تُزْهِرُ الْأَزْهَارُ، وَبِذَلِكَ

يَضِيعُ حُبْنَا وَيَذْوِي وَيَذْبُلُ، وَيَتَفَلَّتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَيَضِيعُ، كَمَا تَجِفُّ الْجُدُورُ وَتَذْوِي
الْوُرُودُ وَالزُّهُورُ، الَّتِي حُبِسَ عَنْهَا نَدَى الْفَجْرِ، وَنَسَمَةُ رِيحِ الشَّمَالِ، وَشَمْسُ ضُحَى
الرَّبِيعِ.

إِنَّ التَّعْبِيرَ، أَيْهَا الإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، عَنْ حُبِّنَا وَتَقْدِيرِنَا لِمَنْ نُحِبُّ وَنُقَدِّرُ، أَزْوَاجًا،
وَأَبَاءً، وَأُمَّهَاتٍ، وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ، وَكُلَّ مَنْ نُحِبُّ وَنُقَدِّرُ، هُوَ مِثْلُ الْمَاءِ، الَّذِي لَا تُوجَدُ مِنْ
دُونِهِ حَيَاةٌ، وَالَّذِي إِذَا ارْتَوَتْ بِهِ الْأَزْهَارُ، وَالثِّمَارُ، وَالْأَشْجَارُ، فَاحَ أَرِيحُهَا، وَحَلَا
مَذَاقُهَا، وَازْدَادَتْ رَوْعَةً وَجَمَالًا. وَإِنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ حُبِّنَا هُوَ مِثْلُ الْهَوَاءِ؛ الَّذِي هُوَ -أَيْهَا
الْأَحْبَابُ- أَثْمَنُ شَيْءٍ فِي حَيَاتِنَا، بَرَعِمَ أَنَّهُ أَقْلَبُهَا تَكْلِفَةً، وَلَكِنْ مِنْ دُونِهِ لَا تُوجَدُ حَيَاةٌ.
وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ الْخَطِئِ الْفَادِحِ فِي حَيَاتِنَا، أَنْ نَبْخَلَ بِالْحُبِّ، وَبِالتَّعْبِيرِ عَنْ مَشَاعِرِ هَذَا
الْحُبِّ، عَلَى أَيِّ أَحَدٍ مِمَّنْ نُوَدُّ وَنُحِبُّ.

احذَرُوا أَيْهَا السَّبَابُ، وَاسْمَعُوا نَصِيحَةَ شَيْخِ مُجَرَّبٍ، أَلَّا تُعَبِّرُوا عَنْ مَشَاعِرِكُمْ،
إِلَّا فِي لَحْظَاتِ الْغَضَبِ وَالسَّخَطِ وَعَدَمِ الرِّضَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْقِدُ الْحَيَاةَ لَذَّتِهَا
وَمَعْنَاهَا، بَلْ إِنَّ طَعْمَ حَيَاةٍ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِثْلَهَا مِثْلُ مَنْ يَحْرِمُ نَفْسَهُ مِنَ الْمَاءِ
وَالْهَوَاءِ، فَهِيَ حَيَاةٌ لَا طَعْمَ لَهَا وَلَا رَوْقَ، وَيَكَادُ وُجُودُهَا أَنْ يُصْبِحَ أَحْلَكَ مِنَ الْعَدَمِ.

تَوْفِيرُ الْحَاجَاتِ وَالْخِدْمَاتِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ، أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا مُهِمًّا وَضَرُورِيًّا، إِلَّا أَنَّهَا حَاجَاتٌ وَخِدْمَاتٌ يُمَكِّنُ أَنْ تُوفَّرَ وَأَنْ تُشْتَرَى بِالْمَالِ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ إِلَّا تُنْسِينَا حَاجَاتِ الْمَعَاشِ حَاجَاتِ الْقُلُوبِ وَمَشَاعِرِ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ الزَّوْجِيَّةِ وَالْأَبَوِيَّةِ وَالْأُسْرِيَّةِ وَلَمَسَاتِهَا النَّاعِمَةَ الْحَيَاتِيَّةَ وَمَا تَوْلَدُهُ مِنْ رَوَابِطِ الْأَلْفَةِ وَالْأَمْنِ وَالثِّقَّةِ، وَهِيَ حَاجَاتٌ لَا تُشْتَرَى بِالْمَالِ، وَلَا طَعْمٌ وَلَا مَعْنَى لِلْحَيَاةِ مِنْ دُونِهَا، وَكَمَا يَقُولُونَ: "سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ".

وَالْعَجِيبُ الْعَجِيبُ يَا بَيْدَبَا: أَنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ وَاللَّمْسَةَ الْحَانِيَّةَ وَالْبَسْمَةَ الْمُشْرِقَةَ لَا تُكَلِّفُ الْمَرْأَ شَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْكَثِيرِينَ مِنَّا يَا بَيْدَبَا-رِجَالًا وَنِسَاءً، وَأَبَاءً وَأُمَّهَاتٍ، وَأَبْنَاةً وَأَبَاءَ، وَأَقْرِبَاءَ وَأَصْدِقَاءَ- يَبْخُلُونَ بِهَا أَشَدَّ الْبُخْلِ فِي وَجْهِ مَنْ يُقَدِّرُونَ وَمَنْ يُودُونَ وَيُحِبُّونَ. نَعَمْ يَا بَيْدَبَا؛ عَلَى الْأَزْوَاجِ وَعَلَى الْأَحْبَابِ، أَيُّهَا الْأَحْبَابُ، أَنْ يُعْبَرُوا عَنْ حُبِّهِمْ، لَيْسَ بِالْبَدْلِ وَالتَّضْحِيحَةِ وَالْعَطَاءِ فَقَطْ، وَلَكِنْ بِالْكَلِمَةِ الْحُلُوةِ، وَالْحَرَكَةِ الْمُعْبِرَةِ، وَاللَّمْسَةِ الْحَانِيَّةِ، لِيَدُومَ الْحُبُّ وَيَنْمُو وَيُزْهِرَ، فَيُبْهِجَ النُّفُوسَ وَالْقُلُوبَ، وَيُعِينُ بِمَشَاعِرِهِ الْحَنُونَةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ مَصَاعِبِ الْحَيَاةِ، وَيَدْمُلُ جُرُوحَهَا، وَيَمْحُو أَوْصَابَهَا.

وَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ إِلَّا تَتَرَدَّدُوا فِي طَلَبِ الْعَوْنِ وَالْمَشُورَةِ مِنَ الْحُكَمَاءِ، كُلَّمَا وَاجَهْتُمْ

أَزْمَةٌ أَوْ مُشْكِلَةٌ - أَيًّا كَانَتْ - نَفْسِيَّةٌ أَوْ جَسَدِيَّةٌ، لِتَلَا فِي تَفَاقِمِ الْأَزْمَاتِ وَالْمَتَاعِبِ
وَمُضَاعَفَاتِهَا فَيَطُولُ أَمْدُهَا وَيَصْعُبُ عِلاجُهَا.

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ إِلَى الْأَخَوَاتِ عَنِ يَسَارِ الْمَجْلِسِ قَائِلًا: إِنَّ
التَّعْبِيرَ الصَّادِقَ وَالْمُؤَثَّرَ عَنِ مَشَاعِرِ الْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ أَيْتُهَا الْأَخَوَاتُ، هُوَ "مُونَةٌ" الْبِنَاءِ،
فَلَنْ يَسْتَقِرَّ دُونَهُ طُوبُ الْبِنَاءِ وَأَحْجَارُهُ وَجُدْرَانُهُ، وَإِلَّا كَانَ الْبِنَاءُ مُهْلِكًا، مُهَدِّدًا
بِالْإِنْهِيَارِ عَلَى رُؤُوسِ أَصْحَابِهِ، كُلَّمَا هَبَّتْ عَاصِفَةٌ، أَوْ مَرَّ بِالْدِيَارِ إِعْصَارٌ، وَلِلْأَسَى
وَالْأَسْفِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الشَّبَابِ وَالْأَزْوَاجِ لَا يُدْرِكُونَ ذَلِكَ، وَإِنْ أَدْرَكَوهُ يَكُونُ ذَلِكَ فِي
كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ بَعْدَ فَوْتِ الْأَوَانِ.

أَيْتُهَا الْأَخَوَاتُ لَدَيَّ نَصِيحَةٌ عَامَّةٌ، وَلَكِنَّهَا تَخْصُكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سِوَاكُمْ، لِأَنَّكُمْ الْأُمُومَةُ
وَالْمَحْضَنُ وَالْمَسْكُنُ، لِذَلِكَ فَمِنَ الْمُهِمِّ، أَنْ تُدْرِكْنَ طَبِيعَةَ دُورِكُنَّ الْفِطْرِيِّ،
وَطَبِيعَةَ عِلَاقَتِكُنَّ بِأَزْوَاجِكُنَّ وَأَبْنَائِكُنَّ وَأَسْرِكُنَّ، وَلِهَذَا فَاحْذَرْنَ أَنْ تَقْعَنَّ بِدَوَافِعِ
الْغَضَبِ أَوْ الدَّلَالِ، أَوْ بِسَبَبِ الْإِنْصِياعِ لِنَصَائِحِ الْجَاهِلَاتِ، وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ السَّمَاعُ
لِنَصَائِحِ الْكَائِدَاتِ أَوْ مَا تَدْعُوهُنَّ "خَرَّابَاتِ الْبُيُوتِ" بِأَنْ تَعْمَلْنَ عَلَى إِثَارَةِ غَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ
بِإِبْدَاءِ الْإِعْجَابِ بِرُجُولَةِ سِوَاهُمْ مِنَ الرِّجَالِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْذُرُ بُدُورَ الشُّكِّ وَعَدَمِ الثِّقَةِ



حَرَابَاتِ البُيُوتِ

الْمُدْمِرَةَ، وَيُزَلِّزُ مَشَاعِرَ الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي نُفُوسِ الْأَزْوَاجِ، فَالثِّقَّةُ فِي إِخْلَاصِ الزَّوْجَةِ لِزَوْجِهَا هُوَ الْأَسَاسُ الْأَهْمُّ لِبِنَاءِ الْأُسْرَةِ وَدَوَامِهَا، احذَرُوا أَيُّهَا الشَّبَابُ وَالشَّبَابَاتُ أَنْ تَسْمَعُوا لِكُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، وَاطْلُبُوا النُّصْحَ الْمُخْلِصَ دَائِمًا مِنْ أَهْلِهِ.

قَالَ بَيْدِيَا: نَعَمْ لَقَدْ أَصَبْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ كَبِدَ الْحَقِيقَةِ فِي نُصْحِكَ لِأَخَوَاتِنَا، وَلَكِنْ مَاذَا عَنِ الْأَزْوَاجِ؟ وَمَاذَا عَنِ اسْتِهَانَةِ كَثِيرٍ مِنْهُنَّ بِمَشَاعِرِ زَوْجَاتِهِمْ وَكِرَامَتِهِنَّ بِالتَّحْدِيقِ وَ"الْبَحْلَقَةِ" فِي كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، مِمَّنْ تَطُولُهُ أَعْيُنُهُمْ مِنَ النِّسَاءِ؟ فَيَتَسَلَّلُ الشُّكُّ إِلَى قَلْبِ الزَّوْجَةِ، وَتَفْقَدُ حِسَّ الثِّقَّةِ وَالْأَمْنِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ: نَعَمْ يَا بَيْدِيَا مَا تَقُولُهُ صَوَابٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى جَهْلٍ وَاسْتِهَانَةٍ مِنْ قِبَلِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ بِكِرَامَتِهِمْ وَكِرَامَةِ زَوْجَاتِهِمْ، وَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ - كَمَا ذَكَرْتَ - يَا بَيْدِيَا تَتْرُكُ فِي نُفُوسِ الزَّوْجَاتِ جُرُوحًا نَفْسِيَّةً غَائِرَةً، تُزَلِّزُ حِسَّ الْأَمْنِ وَالثِّقَّةِ فِي نُفُوسِهِنَّ وَفِي بِنَاءِ الْأُسْرَةِ، وَكَمَا تَنَالُ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الْحَمَقَاءَ مِنْ حِسِّ الْمَرَأَةِ فَإِنَّهَا تَنَالُ مِنْ كِرَامَةِ الرَّجُلِ، وَمَا أَشَدَّ وَقَعَ ذَلِكَ عَلَى نُفُوسِ الْأَبْنَاءِ، وَأَثَارُهُ السَّلْبِيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ عَلَى نَفْسِيَّاتِهِمْ، وَأَخْلَاقِيَّاتِهِمْ، وَحِسِّيَّاتِهِمْ بِكِرَامَتِهِمْ، وَكِرَامَةِ أُسْرِهِمْ.

مَنْ يُرِدُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ، أَنْ يَمْشِيَ رَافِعَ الرَّأْسِ، مَوْفُودَ الْكِرَامَةِ وَاثِقًا مُطْمَئِنًّا، يَسْعَى

وَزَوْجُهُ مَشْوَارَ الْحَيَاةِ ظَهْرًا إِلَى ظَهْرٍ فَلْيَحْفَظْ أَسْرَتَهُ وَيَسْعَ -بِكُلِّ وَسِيلَةٍ حَكِيمَةٍ مُمَكِّنَةٍ- فِي صَلَاحِهَا، عِشْرَةَ بَعْدِلٍ وَكَرَمٍ وَ"مَعْرُوفٍ"، وَتَفْرِيقٍ إِذَا كَانَ -حَمَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ- لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، أَيًّا كَانَ السَّبَبُ، أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ بَعْدِلٍ وَكَرَمٍ وَ"إِحْسَانٍ"، رِعَايَةً لِلرَّحِمِ، وَمَشَاعِرِ الْأَبْنَاءِ وَصِلَاتِ الْأَقْرِبَاءِ.

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَرْجُو أَنْ يُدْرِكَ شَبَابُنَا وَشَابَاتُنَا، أَهْمِيَّةٌ هَذِهِ النَّصَائِحِ، وَأَنْ يُقَدِّرُوهَا، حَقَّ قَدْرِهَا.

وَنَصِيحَةٌ لَكُمْ مِنِّي؛ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ، وَأَيُّهَا الْأَبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ، تَتَعَلَّقُ بِاسْتِقْرَارِ عِلَاقَاتِكُمْ، وَفَاعِلِيَّةِ تَرْبِيَّتِكُمْ، عَلَيْكُمْ بِالتَّسَامُحِ، وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ، وَالسَّمَّاحِ بِمَا لَا يَضُرُّ، وَدَعَاؤِ الصِّغَارِ لِيَتَعَلَّمُوا مِنْ أَخْطَائِهِمُ الصَّغِيرَةِ، وَاحْذَرُوا الْعُنْفَ وَالتَّعَسُّفَ الْمَادِيَّ وَالنَّفْسِيَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو إِمَّا إِلَى الْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ، وَإِمَّا يُورِثُ الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ، وَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ وَالْأَبَاءُ أَنْ تَهَدَّدُوا أَوْ تَتَوَعَّدُوا، بِمَا لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ لَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، أَوْ لَا تَنُوءُونَ فِعْلَهُ وَنَفَاذَهُ، فَلَا يَعْلَمُ عِنْدَهَا الزَّوْجُ، أَوْ الزَّوْجَةُ، وَالصَّغِيرُ أَوْ الْكَبِيرُ، جِدَّكُمْ مِنْ هَزْلِكُمْ؛ وَهَذَا قَدْ يَضْطَرُّكُمْ -حِينَ تَتَفَاقَمُ الْأُمُورُ- إِلَى مَا لَا تُحِبُّونَ، وَلَا تَرْغَبُونَ، كَالرَّاعِي الَّذِي اسْتَصْرَخَ الْقَرْيَةَ هَازِلًا هَجْمَةَ الذِّئَابِ عَلَيْهِ وَعَلَى غَنَمِهِ،

فَلَمَّا تَسَابَقُوا، بِرِمَاحِهِمْ، وَعَصِيهِمْ، إِلَى نَجْدَتِهِ، وَجَدُوا صَرَخْتَهُ كَذِبًا وَهَزَلًا، لَا جِدَّ فِيهِ،
فَلَمَّا اسْتَصْرَخَهُمْ ذَلِكَ الرَّاعِي الْأَحْمَقُ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْأَمْرُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ جِدُّ كُلِّ الْجِدِّ،
وَالْهَجْمَةُ حَقِيقَةٌ، فَلَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ صَرَخْتَهُ مَا أَخَذَ الْجِدِّ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا يَعْلَمُونَ جِدَّهُ مِنْ
هَزَلِهِ، وَلَا صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، "لِيَنْدَمَ وَلَاتَ سَاعَةَ مَنْدَمٍ" كَمَا يَقُولُونَ.

كَذَلِكَ أَيْهَا الشَّبَابُ، فَإِنَّ مَنْ يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ، بِمَا لَا يَرْغَبُ، أَوْ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَازِهِ،
وَيَتْرِكُ الْمُخَاطَبَ، لَا يَعْلَمُ الْجِدَّ مِنْ غَيْرِ الْجِدِّ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ لِلِكَلِمَاتِ مَعْنَى أَوْ دَلَالَةً، وَتَصْبِحُ
الْعَلَاقَاتُ فِي مَوْجِ لُجِّي حَالِكٍ، دُونَ مُرْشِدٍ وَلَا دَلِيلٍ.
وَبِالْمِثْلِ أَيْهَا الشَّبَابُ وَالشَّابَاتُ، أَزْوَاجًا وَأَبَاءً وَأُمَّهَاتٍ، إِذَا وَعَدْتُمْ خَيْرًا، فَاحْرِصُوا عَلَى
الْوَفَاءِ، وَ"خَيْرُ الْبَرِّ عَاجِلُهُ".

هُنَا وَقَفَ أَحَدُ الشَّبَابِ رَافِعًا يَدَهُ يَطْلُبُ الْكَلِمَةَ، وَهُنَا عَاجَلَهُ الْفَيْلَسُوفُ بِيَدَبَا بِالْكَلامِ
رَحْمَةً بِالشَّيْخِ مِنْ نَهَمِ الشَّبَابِ إِلَى مَزِيدٍ مِنْ فَهْمِ الْمَعْرِفَةِ وَالْخَبِيرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَطَمَعًا فِي حُبِّ
الشَّيْخِ لِلشَّبَابِ، وَرَغْبَةً فِي إِفَادَتِهِمْ مَا أَمَكَّنَهُ وَالْجُهْدُ، لِذَلِكَ التَّفَتِ الشَّيْخُ إِلَى بِيَدَبَا كَمَا هِيَ
عَادَتُهُ فِي إِكْرَامِ تَلَامِيذَتِهِ قَائِلًا لَهُ: هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا بِيَدَبَا، وَشُكْرًا لَكَ فِي حِرْصِكَ عَلَى رَاحَتِي،
وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ أَيْضًا شَدِيدَ الْحُبِّ وَالرَّعَايَةِ لِلشَّبَابِ، وَأَنَّكَ حَرِيصٌ عَلَى السَّمَاعِ لَهُمْ

وَإِفَادَتِهِمْ، فَدَعْنَا نَسْمَعُ مِنْ أَحِينَا الْعَزِيزِ مَسْأَلَتَهُ وَمَا يَرُغَبُ فِي إِثَارَتِهِ وَمَعْرِفَةِ رَأِينَا وَنُصْحِنَا فِيهِ. ثُمَّ التَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى السَّبَابِ وَقَالَ: هَاتِ أَيُّهَا الْفَتَى مَسْأَلَتَكَ.

قَالَ الشَّابُّ وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَظْرَاتُهُ وَنَظَرَاتُ إِخْوَانِهِ بِالشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ لِكَرَمِ الشَّيْخِ وَسَعَةِ صَدْرِهِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لَقَدْ تَكَرَّمْتَ بِالْقَوْلِ فِي سِيَاقِ حَدِيثِكَ الثَّمِينِ عَنِ الْأُسْرَةِ، وَسُبُلِ هِنَائِهَا، وَالْحِفَاطِ عَلَى كِيَانِهَا، عِبَارَةً أَوْدُ وَإِخْوَانِي تَوْضِيحَهَا، وَكُلُّنَا يَطْمَعُ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ فِيهَا؟

قَالَ الشَّيْخُ: وَمَا هِيَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الَّتِي تَوَدُّ تَوْضِيحَهَا وَتَرُغَبُ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ بِشَأْنِهَا.

قَالَ الشَّابُّ: قُلْتَ يَا سَيِّدِي فِيمَا قُلْتَ عَنْ عِلَاقَاتِ الْأُسْرَةِ (عِشْرَةَ بَعْدِلٍ وَكَرَمٍ وَمَعْرُوفٍ، وَتَفْرِيقٍ - إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ - بَعْدِلٍ وَكَرَمٍ وَإِحْسَانٍ، رِعَايَةً لِلرَّحِمِ وَمَشَاعِرِ الْأَبْنَاءِ وَصِلَاتِ الْقُرْبَى). وَإِنَّا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ نَطْمَعُ فِي كَرَمِكَ بِمَزِيدٍ مِنْ تَوْضِيحِ الْأَمْرِ وَتَفْصِيلِهِ، فَكَثِيرًا مَا يَجْرُفُ فِرَاقُ الْأَزْوَاجِ مَعَهُ عَدَاوَاتٍ وَنَزَاعَاتٍ، لَا تَكُونُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ فَحَسَبٌ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَسْرِ الْأَزْوَاجِ وَقَرَابَاتِهِمْ؛ لِتُصْبِحَ الْمَحَاكِمُ سَاحَةً لِلْمَكَايِدِ وَالْعِرَاكِ، وَلِتَتَحَوَّلَ جَلَسَاتُ السَّمَرِ إِلَى نَدَوَاتٍ فِي تَعْدَادِ مَثَالِبِ الْآخِرِ؛ تَبْرِيرًا

لَمَّا حَدَثَ، وَتَجْمِيلًا - بِحَقِّ أَوْ بَبَاطِلٍ - لِلذَّاتِ، وَتَنْصَلًا مِنْ مَسْئُولِيَّةِ مَا حَدَثَ مِنْ أَخْطَاءٍ
وَتَعَدِّيَّاتٍ؛ الأَمْرُ الَّذِي يَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَيُشَوِّهُ السَّيْرَ، وَيُدْمِي قُلُوبَ الأَبْنَاءِ، وَيُدْمِرُهَا فِي صِرَاعِ
الوَلَاءِ بَيْنَ الأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَكَرَامَةِ الإِنْتِمَاءِ.

فَكَيْفَ يُمَكِّنُ، يَا سَيِّدِي، أَنْ يَتَحَقَّقَ "الإِحْسَانُ" وَبِمَاذَا تَنْصَحُ بِهِ؟ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ
وَهَذِهِ المُمَارَسَاتِ؟ هَذَا مَا نَوَدُّ أَنْ نَسْمَعَ مِنْكَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّوْضِيحِ وَالتَّفْصِيلِ.
وَعِنْدَ ذَلِكَ الحَدِّ مِنَ السُّؤَالِ جَلَسَ الشَّابُّ، وَالجَمِيعُ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى سَمَاعِ الشَّيْخِ وَهُمْ
وَاجِمُونَ مِمَّا يَعْلَمُونَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ المَآسِي الَّتِي تَفَاقَمَ مِنْ آثَارِ انْهِدَامِ عَاشِ الأُسْرَةِ، وَمُعَانَاةِ
أَبْنَائِهَا، وَلَا سِيَّما زَغَبُ الحَوَاصِلِ مِنْ صِغَارِهَا.

ظَلَّ الشَّيْخُ بُرْهَةً خَافِضَ الرَّأْسِ فِي صَمْتٍ عَمِيقٍ، لِيَرْفَعَ رَأْسَهُ فِي بُطءٍ وَهُوَ يُجِيلُ بَصَرَهُ
فِي وُجُوهِ الحَاضِرِينَ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، مَا ذَكَرَهُ أَحُوكُمْ شَيْءٌ يَسْتَحِقُّ الوُقُوفَ عِنْدَهُ
وَبَسْطَ بَعْضِ جَوَانِبِهِ؛ لِأَنَّ آثَارَهُ النَّفْسِيَّةَ وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ - حِينَ يَتَحَوَّلُ فِرَاقُ الأَزْوَاجِ إِلَى سَاحَةِ
نِزَاعٍ وَعِرَاكِ - لَهُ وَلَا شَكَّ آثَارٌ سَلْبِيَّةٌ مُدْمِرَةٌ عَلَى الأَطْرَافِ كَافَّةً، وَخَاصَّةً عَلَى الأَبْنَاءِ وَمَسِيرَةِ
حَيَاتِهِمْ؛ لِفِدَا حَةِ آثَارِ انْهِدَامِ أُسْرَتِهِمْ، وَتَشَوُّهُ سُمْعَةِ وَالِدِيهِمْ، وَتَنَازُعِ وَلائِهِمْ بَيْنَ الأَبِّ وَالْأُمِّ
وَأُسْرَةِ الأَبِّ وَأُسْرَةِ الأُمِّ، وَمَا يَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ جِرَاحٍ وَآلَمٍ، فِي آتُونِ هَذِهِ المَعَارِكِ.

وَلَا أَجِدُ أَيْهَا الشَّبَابُ، أَنَّ أَحَدًا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُعْبَرَ بِأَوْجَزَ وَأَحْكَمَ، لِتَوْضِيحِ الأُسْلُوبِ الصَّحِيحِ، فِي مُعَالَجَةِ آثَارِ فِرَاقِ الوَالِدَيْنِ، وَانْهَادِ العُشِّ، بِأَقْلِ الأَضْرَارِ المُمَكِّنَةِ، خَاصَّةً عَلَى نَفْسِيَّاتِ الأَبْنَاءِ، مِمَّا أَفَادَنَا بِهِ السَّيِّدُ المَكِّيُّ، إِجَابَةً عَن سُؤَالِ المُعَلِّمِ فِيمَا دَارَ بَيْنَهُمْ بِهَذَا الشَّانِ ذَاتِهِ مِنْ أَحَادِيثَ.

فَمَاذَا قَالَ السَّيِّدُ المَكِّيُّ إِجَابَةً لِلسَّيِّدِ المُعَلِّمِ فِي هَذَا الشَّانِ أَيْهَا الشَّبَابُ؟!
بَدَأَ السَّيِّدُ المُعَلِّمُ بِتَقْرِيرِ الأَمْرِ كَمَا صَوَّرَهُ السَّيِّدُ المَكِّيُّ، فَخَاطَبَنِي قَائِلًا: كُلُّنَا يَعْلَمُ أَيْهَا السَّيِّدُ المُعَلِّمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي أَيِّ مُجْتَمَعٍ مِنْ وَقُوعِ حَالَاتٍ مِنَ الفِرَاقِ، وَلَكِنْ مِنَ المُهِمِّ أَنْ تَكُونَ مَآسِي حَالَاتِ الفِرَاقِ قَلِيلَةً وَاسْتِثْنَائِيَّةً وَأَنْ يَتِمَّ عِلاجُهَا بِالأُسْلُوبِ الصَّحِيحِ، وَالنُّصْحِ السَّلِيمِ، لِجَمِيعِ أَطْرَافِ العِلاقَةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ بِذَلِكَ تَلَافِي جُلِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْ أَضْرَارِهَا وَآثَارِهَا، أَمَّا إِذَا شَاعَتْ ظَاهِرَةُ الطَّلَاقِ، وَتَفَاقَمَتْ ظَاهِرَةُ الفِرَاقِ، فَإِنَّ الأَمْرَ يَتَعَلَّقُ حِينَئِذٍ بِأَبْعَادِ أَخلاقِيَّةِ وَثقَافِيَّةِ وَاجْتِمَاعِيَّةِ وَنَفْسِيَّةِ وَتَرْبَوِيَّةِ، يَجِبُ العَمَلُ عَلَى مُوَاجَهَتِهَا وَإِصْلاحِهَا وَالقَضَاءِ عَلَيْهَا فِي جُذُورِهَا.

وَتَابَعَ السَّيِّدُ المَكِّيُّ حَدِيثَهُ إِلَى السَّيِّدِ المُعَلِّمِ قَائِلًا: لَقَدْ مَرَّبِي شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الحَالَاتِ، وَأَمَكَّنَ بِحَمْدِ اللَّهِ، إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ إِخْمَادُ النَّارِ، وَالتَّخْفِيفُ مِنْ آثَارِهَا المُدْمِرَةِ

عَلَى أَطْرَافِ الْعَلَاقَةِ، وَخَاصَّةً عَلَى الْأَبْنَاءِ الْأَبْرِيَاءِ، وَإِنَّ النُّصْحَ الْمَطْلُوبَ لِأَطْرَافِ النَّزَاعِ وَالْفِرَاقِ وَالَّذِي يَجِبُ الْبَدْءُ بِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، هُوَ تَذْكَيرُ أَطْرَافِ الْعَلَاقَةِ، الَّذِينَ هُمْ الْوَالِدَانِ وَأُسْرَتَاهُمَا، بَأَنَّ مَا حَدَثَ -بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الْأَسْبَابِ- قَدْ حَدَثَ، وَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ إِعَادَةَ عَقَارِبِ السَّاعَةِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَأَنَّ مِنَ الْمُهْمِّ لِمُوَاجَهَةِ الْمَوْقِفِ -بَعْدَ حُدُوثِ مَا حَدَثَ- هُوَ الْحَدُّ مِنَ الْأَضْرَارِ، خَاصَّةً عَلَى الْأَبْنَاءِ، لِأَنَّ فِرَاقَ وَالِدَيْهِمْ، وَكُلَّ مَا يَمَسُّ سُمْعَةَ أَبْوَيْهِمْ يُؤْذِيهِمْ أَشَدَّ الْأَذَى، وَلَنْ يُفِيدَ النَّزَاعُ وَالصِّرَاعُ وَالْإِنْتِقَامُ أَيَّ أَحَدٍ مِنَ الْوَالِدَيْنِ، وَلَنْ يُعِيدَ عَقَارِبِ السَّاعَةِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ انْصِرَافُ فِكْرِ الْأَطْرَافِ إِلَى التَّفْكِيرِ وَالتَّدْبِيرِ -قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ- إِلَى مَا يُخَفِّفُ مِنْ آثَارِ كَارِثَةِ الْفِرَاقِ، وَهَدْمِ عُنَى الْأُسْرَةِ، عَلَى رُؤُوسِ الْأَبْنَاءِ وَعَلَى عِلَاقَاتِ الرَّحِمِ وَالْقَرَابَاتِ وَالْمَصَالِحِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَجْنِيبِ جَمِيعِ الْأَطْرَافِ الصِّرَاعَاتِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ مِنْهَا وَلَا جَدْوَى مِنْ وِرَائِهَا.

يَقُولُ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ: إِنَّ مِنَ الْمُهْمِّ أَنْ يَتَّضِحَ لِكُلِّ الطَّرْفَيْنِ وَضُوحًا تَامًا أَنَّ أَيَّ تَشْوِيهِ بِحَقِّ أَوْ بَاطِلٍ - مِنْ أَحَدِ الْأَطْرَافِ لِسُمْعَةِ الطَّرْفِ الْآخَرِ إِنَّمَا هُوَ تَشْوِيهِ لِسُمْعَةِ الْأَبِّ وَسَيْرَتِهِ، أَوْ تَشْوِيهِ لِسُمْعَةِ الْأُمِّ وَسَيْرَتِهَا، وَهَذَا يُؤْذِي قَبْلَ أَيِّ أَحَدٍ آخَرَ مَشَاعِرَ الْأَبْنَاءِ وَيُشَوِّهُ سَيْرَتَهُمْ وَمُسْتَقْبَلَ حَيَاتِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا يُؤْذِي مَشَاعِرَ الْقَرَابَاتِ، فَيَكُونُ الْإِنْتِقَامُ



كَالْخَنْجَرِ يَغْمِدُهُ الْإِنْسَانُ فِي صَدْرِهِ وَصَدْرٍ أَحْبَابِهِ وَأَعْرَائِهِ.
 يَقُولُ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ: إِنَّ خُلَاصَةَ هَذَا الْفَهْمِ فِي مُعَالَجَةِ كَارِثَةِ فِرَاقِ الْأَزْوَاجِ، هُوَ
 ضَرُورَةُ الْفِرَاقِ "بِإِحْسَانٍ"، وَذَلِكَ بِأَنْ يُؤَفِّيَ كُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ مَسْئُولِيَّاتِهِ، وَيُؤَدِّيَ
 حُقُوقَ الطَّرْفِ الْآخَرِ، وَأَنْ يَزْعَى الْحُرْمَاتِ، وَلَا يَتَحَدَّثَ عَنِ الْآخَرِ بِشَيْءٍ مِنَ السُّوءِ؛
 لِأَنَّ مَا حَدَثَ قَدْ حَدَثَ، وَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَلَا جَدْوَى مِنَ الْأَحْقَادِ وَالصِّرَاعِ، وَلَا يُؤَدِّي ذَلِكَ
 إِلَّا إِلَى مَزِيدٍ مِنَ أذى الْأَبْنَاءِ وَتَقْطِيعِ الْأَرْحَامِ وَالْعَلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَمَزِيدٍ مِنَ مَرَارَةِ
 الذِّكْرِيَّاتِ وَأَحْقَادِهَا وَالْأَمَهَا وَجِرَاحَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ، لِيَكُونَ الْحَالُ "كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضُهَا
 إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ".

إِنَّ هَذَا السُّلُوكُ أَهْيَا الشَّبَابِ وَالشَّبَابَاتِ، هُوَ السُّلُوكُ الَّذِي يَلِيْقُ بِالْكَرَامِ وَالْعُقَلَاءِ،
 وَهُوَ "التَّسْرِيحُ وَالْفِرَاقُ بِإِحْسَانٍ". وَالْأُولَى بِالْأَطْرَافِ كَافَّةً نَسِيَانُ مَا حَدَثَ، وَطَرْحُهُ
 وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ: لَا أَظُنُّ أَنَّ عِنْدِي مَا أُضِيفُهُ إِلَى حِكْمَةِ
 السَّيِّدِ مَكِّيِّ؛ بِخُصُوصِ السُّلُوكِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يُعِينَ الْفِرَقَاءَ عَلَى حُسْنِ فَهْمِ
 قَضِيَّتِهِمْ، وَالْحَدِّ مِنْ آثَارِ مُصِيبَتِهِمْ، وَالْحَثِّ عَلَى حَمْلِ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَرِعَايَةِ حُرْمَاتِ
 عِلَاقَاتِ الْقُرْبَى وَالرَّحِمِ بَيْنَهُمْ.



صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ قَالَ: أَرْجُو أَنْ يَكُونَ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ قَدْ أَجَابَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ عَنْ سُؤَالِكُمْ وَقَدَّمَ لَكُمْ النُّصْحَ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ الصَّحِيحِ مَعَ مَا يَنْزِلُ بِهِ أَوْ يَنْزِلُ بِأَحَدٍ مِمَّنْ حَوْلَهُ نَازِلَةٌ مِنْ هَذِهِ النَّوَازِلِ؟ وَقَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ السَّوَاءَ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ سَارَعَ بِيَدَبَا إِلَى الْقَوْلِ، وَهُوَ يُخَاطِبُ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ لَقَدْ وَفَّيْتَ، وَوَفَى السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ، تَوْضِيحَ الْأَمْرِ، فَجَزَاكُمَا اللَّهُ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وَمَا إِنْ انْتَهَى بِيَدَبَا مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى رَدَّدَ الشَّبَابُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ كَلِمَاتِ الْفَيْلَسُوفِ بِيَدَبَا، نَعَمْ جَزَاكُمَا اللَّهُ عَنَّا خَيْرَ الْجَزَاءِ.

اِنْتَظَرَ الشَّيْخُ حَتَّى هَدَأَ الْمَجْلِسُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَإِنَّكُمْ قَدْ قَدَّرْتُمْ نُصْحَ السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ حَقَّ قَدْرِهِ، فَإِنِّي أَوْدُ أَلَا يَفُوتَنِي فِي هَذِهِ الْجَلْسَةِ أَيُّهَا الشَّبَابُ؛ أَنْ أُعِيدَ عَلَيَّ مَسَامِعَكُمْ الْقَاعِدَةَ الذَّهَبِيَّةَ الَّتِي رَوَاهَا لِي الْمُعَلِّمُ عَنِ السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ وَمَنْهَجِهِ الْحَكِيمِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ الَّذِي شَهِدَ لَهُ الْمُعَلِّمُ بِنَجَاحِهَا وَطَيَّبَ ثَمَرَهَا فِيمَا رَأَاهُ مِنْ حَالِ أَبْنَائِهِ.

قَالَ الْمُعَلِّمُ: قُلْتُ لِلْسَّيِّدِ الْمَكِّيِّ: لَقَدْ سَعِدْتُ بِمَا سَمِعْتُ مِنْكَ، وَمَا رَأَيْتُ فِي تَعَامُلِكَ مَعَ زَوْجِكَ وَأَبْنَائِكَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ حَالِهِمْ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي عَنْ بَعْضِ أَهَمِّ مَا تَنْصَحُ بِهِ فِي

تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ؟

قَالَ الْمُعَلِّمُ: أَجَابَنِي السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ قَائِلًا: "حُبًّا وَكَرَامَةً" فَقَدْ سَأَلْتَ يَسِيرًا، وَمَا أَشَدَّ حَاجَةَ الشَّبَابِ الْيَوْمِ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكِهِ، وَهُوَ أَسَاسٌ لِحُسْنِ تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ.
قَالَ الْمُعَلِّمُ: قُلْتُ لِلْسَّيِّدِ الْمَكِّيِّ: أَفَعَلَ أَيُّهَا السَّيِّدُ وَأَخْبِرْنِي فَأَنَا فِي أَشَدِّ الشُّوقِ لِسَمَاعِ مَا لَدَيْكَ، لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ بِهِ كَثِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الزَّمَانِ وَشَبَابِهِ.
قَالَ السَّيِّدُ الْمَكِّيُّ: الْقَاعِدَةُ الذَّهَبِيَّةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي تَرْبِيَةِ الْأَبْنَاءِ أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ هُوَ "أَنْ تَعَامَلَ الطِّفْلَ وَتَتَعَامَلَ مَعَهُ فِي طُفُولَتِهِ بِمَا تُحِبُّ أَنْ تَرَاهُ يُعَامَلُ بِهِ وَيَتَعَامَلُ بِهِ مَعَ الْآخَرِينَ وَهُوَ إِنْسَانٌ بَالِغٌ".

فَإِنَّ أَنْتَ أَيُّهَا الْوَالِدُ (أَبًا أَوْ أُمًّا) عَامَلْتَ طِفْلَكَ عَلَى أَنَّهُ كَأَنَّ قَاصِرًا لَا يَعِي وَلَا يُدْرِكُ، فَتَأْخُذُهُ بِالْأَمْرِ وَالْقَسْرِ، وَبِالصَّفْعِ وَالضَّرْبِ وَالْإِهَانَةِ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْهُ مِنْ هَفَوَاتٍ وَزَلَّاتٍ وَجَهَالَاتٍ؛ الْأَمْرُ الَّذِي يُفْقِدُهُ الثِّقَّةَ بِنَفْسِهِ، وَاحْتِرَامَ ذَاتِهِ، وَيَقْضِي عَلَى مَنَابِعِ الْجَرَائِدِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمُبَادَرَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِي أَصْلِ بِنَاءِ وَجْدَانِهِ، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَأَنْتَ أَيُّهَا الْمُرَبِّي تَظُنُّ وَتَحْلُمُ أَنَّ ذَلِكَ الطِّفْلَ إِذَا بَلَغَ الرُّشْدَ رَجُلًا كَانَ أُمِّ امْرَأَةٍ سَيَكُونُ ذَلِكَ الْإِنْسَانَ الْوَائِقَ مِنْ نَفْسِهِ، الْمُعْتَدِّ بِكَرَامَتِهِ، وَالَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ الْآخَرِينَ مُعَامَلَةً

الأنداد، فلا يخني الرأس للإهانات، ولا يدل لأصحاب الجاه والرئاسات، ولا يتابع خضوعاً وتزلفاً دون اقتناع، إذا ظننت ذلك أيها الوالد والمربي وحلمت به في جهلك وجهالتك فأنت واهم، "فمن شب على شيء شاب عليه"، و"لا يستقيم الظل والعود أعوج".

على الوالد والمربي أيها المعلم أن يعامل الطفل بكرامة واقتناع وأن يفسح له للحوار والنقاش والنقد، والتعبير عن الذات، وأن يفسح ويرحب بما يبدي من مبادرات.

وهذا لا يعني أن يتغاضى المربي عن الزلات والأخطاء، بل عليه أن يقومها بالترشيد والتعويد والإصرار على التزام الآداب وقواعد الأخلاق، وإذا احتاج الأمر إلى التعبير عن عدم الرضا عن بعض الأخطاء والزلات فلا بأس من العقاب، إذا كان ضرورياً، شريطة أن يأتي ذلك العقاب بعد الحوار والشرح والتوضيح، وبنبرة حازمة رصينة، وليس بصراخ الضعف والشكوى، وأن يأتي العقاب محتملاً؛ حتى لا يدفع الطفل إلى حماية نفسه بالكذب؛ لأن جوهر عقاب الوالد والمربي، أيها المعلم، إذا دعت إليه الضرورة القصوى، لسوء الزلة، أو لعداقتها، ليس في عنف العقاب، ولكن في تغييره الهادي الحازم الرصين، الدال على عدم رضا الوالد والمربي عن تلك الزلات، فالطفل الذي يحظى بالعناية والرعاية في بيئة نظيفة، يكون شديد الولع برضا والديه، وتكفي الطفل "الحر" من المربي الإشارة.

كَمَا يَجِبُ عَلَى الْمُرْتَبِيِّ أَنْ يَغْرِسَ فِي قَرَارَةِ ضَمِيرِ النَّاشِئِ وَقَرَارَةِ وَعْيِهِ مَبْدَأَ السُّلُوكِ
السَّوِيِّ وَمِيزَانَ الْخُلُقِ الرَّفِيعِ، وَهُوَ أَنْ "يُعَامَلَ النَّاسَ، بِمَا يَجِبُ أَنْ يُعَامَلُوهُ بِهِ"، وَأَنَّ
مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْعَارِ وَأَنْحِطَاطِ الْمَعْدِنِ وَالْخُلُقِ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ مَا لَا يَفْعَلُ.
وَبِذَلِكَ، أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ، يَكْبُرُ الطِّفْلُ فَيَكُونُ بِالِغَا رَاشِدًا، كَرِيمَ النَّفْسِ قَوِيًّا صَادِقًا،
يَأْنَفُ الْكُذِبَ وَالْغِشَّ وَالنِّفَاقَ وَالرِّيَاءَ، وَيَكُونُ مِقْدَامًا يُقَدِّرُ الْمَسْئُولِيَّةَ، حَسَنَ الْخُلُقِ
مَرْضِيَّ الشَّمَائِلِ.

فَمَنْ نَشَأَ عُوْدُهُ أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ قَوِيًّا مُسْتَقِيمًا، سَتَرْتَفِعُ قَامَتُهُ رَاشِدًا، عُوْدًا سَامِقًا قَوِيًّا
مُسْتَقِيمًا، وَمَنْ يَرْفَعُ عُوْدَ قَامَتِهِ هَزِيلاً مُعَوَجًّا، سَيَبْقَى حَتَّى الْمَشِيْبِ ظِلًّا قَامَةً هَزِيلاً
مُعَوَجًّا، "فَلَنْ يَسْتَقِيمَ عُوْدُ شَبَابِ الْإِبْنِ" أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ "وَجُذْرُنْبِتُ الطُّفُولَةِ أَعْوَجٌ".
هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الذَّهَبِيَّةُ فِي أَدَاءِ وَاجِبِ حُسْنِ تَرْبِيَةِ النَّشْءِ لَنْ تَتَأْتِيَ، أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ،
إِلَّا بِالْعِلْمِيَّةِ وَالْجَدِيَّةِ وَبِالصَّبْرِ فِي التَّرْبِيَةِ، وَالثَّمَرَةُ حِينِيذٍ لِلْوَالِدِ وَالْمُرْتَبِيِّ سَعَادَةٌ
"الْعَاجِلَةُ" وَ"الْأَجَلَةُ".

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَقَفَ أَحَدُ الشَّبَابِ وَاسْتَأْذَنَ الشَّيْخَ فِي الْحَدِيثِ.
قَالَ الشَّابُّ يُخَاطَبُ الشَّيْخَ: كُلُّ مَا قُلْتَهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ حَقٌّ لَا أَظُنُّ أَحَدًا مِنَّا
يُخَالِفُكَ فِيهِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ حَالَةٌ أَوْدُ أَنْ أَطْرَحَهَا أَمَامَكَ لِأَرَى رَأْيَكَ الْحَكِيمَ فِيهَا.

قَالَ الشَّيْخُ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْفَتَى، هَاتِ مَا عِنْدَكَ فَإِنَّهُ يُهْمُنِي أَنْ تَتَّضِحَ لِلشَّبَابِ رَجَالًا وَنِسَاءً كُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالأُسْرَةِ وَعَلاَقَاتِهَا لِتَحْقِيقِ هَنَائِهَا، وَتَجَنَّبِ كُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَكِّرَ صَفْوَهَا وَيُهَيِّدَ أَمْنَهَا، فَالأُسْرَةُ هِيَ الأَسَاسُ المَكِينُ لِكُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَمَا دَمَّرَ الحَضَارَاتِ السَّالِفَةَ، مُنْذُ عَهْدِ عَادٍ وَثَمُودَ وَالفِرَاعِينَ، إِلَّا انْهِيَارُ الأُسْرَةِ وَأَخْلَاقِيَّاتِهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا رَجْعَةَ وَلَا دَوَاءً.

قَالَ الْفَتَى: يَا سَيِّدِي هُنَاكَ البَعْضُ مِمَّنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ نَزَوَاتُهُ، وَيَتَطَلَّعُ إِلَى تَعَدُّدِ العَلاَقَاتِ وَمَزِيدٍ مِنَ المَلَذَّاتِ، أَفَلَيْسَ الأَوَّلَى أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ بَدَلًا مِنْ تَعَدُّدِ الخَلِيلَاتِ، فَمَا رَأَيْ شَيْخَنَا الجَلِيلِ فِي هَذِهِ المُشْكِلَةِ المُحَيَّرَةِ. عِنْدَ هَذَا الحَدِّ أَخَذَ الشَّابُّ مَجْلِسَهُ، مُنْتَظِرًا مَعَ الحَاضِرِينَ جَوَابَ الشَّيْخِ عَنِ المُشْكِلَةِ الَّتِي طَرَحَهَا هَذَا الشَّابُّ الجَرِيءُ عَلَى مَسَامِعِ الشَّيْخِ الجَلِيلِ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَيُّهَا الْفَتَى لَوْ كَانَ الخِيَارُ مَحْصُورًا بَيْنَ اتِّخَاذِ الزَّوْجَاتِ أَوْ اتِّخَاذِ الخَلِيلَاتِ، فَلَا شَكَّ أَنَّ اتِّخَاذَ الزَّوْجَاتِ وَحَمْلَ مَسئُولِيَّةِ المَرَاةِ وَمَا قَدْ يَنْجُمُ عَنْ هَذِهِ العَلاَقَاتِ مِنْ أَطْفَالٍ، أَوْلَى وَأَخْفُ ضَرَرًا مِنْ اتِّخَاذِ الخَلِيلَاتِ، وَمَا يَعْنِيهِ ذَلِكَ مِنْ انْهِيَارِ كَامِلِ لِنِظَامِ الأُسْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَانْهِيَارِ أخْلَاقِيَّاتِهَا.

وَتَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: وَلَكِنَّ الْأَمْرَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ لَيْسَ فِي جَوْهَرِهِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ، وَلَا عَلَى هَذَا الْخِيَارِ؛ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ نُنْذِرَ أَوْلَاءَ أَنْ هَذِهِ النِّزَوَاتِ الَّتِي تُزَلِّزُ كَيَانَ الْأُسْرَةِ بِتَعَدُّدِ الْعِلَاقَاتِ يُنْبِئُ عَنِ أَمْرٍ خَطِيرٍ، هُوَ خَلَلٌ فِي الْمَفَاهِيمِ وَفِي التَّرْبِيَةِ وَتَبَلُّدٌ فِي حِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَعِلَاجُ هَذِهِ الْحَالَاتِ بِالذَّرَجَةِ الْأُولَى لَا يَكُونُ بِتَرْكِ الْحَبْلِ عَلَى الْغَارِبِ، بَلْ بِالتَّنْبِهِ إِلَى أَصْلِ الدَّاءِ، وَهُوَ خَلَلُ التَّرْبِيَةِ وَمَا يَنْجُمُ عَنْهَا، لَيْسَ فَقَطْ بِضَعْفِ حِسِّ الْمَسْئُولِيَّةِ فِي شُئُونِ الْأُسْرَةِ وَحَقِّ الزَّوْجَةِ وَالْأَبْنَاءِ بِالتَّعَدُّدِ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُ هُوَ ذَاتُهُ السَّبَبُ خَلْفَ مَا تُعَانِي مِنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ مِنَ الْآفَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، فِي الْإِسْتِخْفَافِ بِالْأُسْرَةِ وَبِمَسْئُولِيَّاتِهَا، وَبِالْآثَارِ النَّاجِمَةِ عَنْ تَفَكُّكِهَا، مِنْ مِثْلِ انْتِشَارِ الطَّلَاقِ وَتَفَكُّكِ عُرَى رَوَابِطِ وَلَائِ الْأُسْرَةِ وَالتَّقْصِيرِ فِي آدَاءِ الْحُقُوقِ وَحَمَلِ الْمَسْئُولِيَّةِ نَحْوَ أَعْضَاءِ الْأُسْرَةِ الضَّعَافِ وَالصِّغَارِ، وَمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ شُئُونِ الْأُسْرَةِ فِي جَوَانِبِ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَالِإِسْتِهَانَةِ بِهَا.

صَمَتَ الشَّيْخُ بَعْدَ ذَلِكَ لِحُظَّةٍ ثُمَّ تَابَعَ حَدِيثَهُ إِلَى الشَّبَابِ قَائِلًا: إِنَّ مِنَ الْخَطَايَا أَيُّهَا الشَّبَابُ أَنْ نُحَاوِلَ حَلَّ مُشْكِلَةٍ بِخَلْقِ مُشْكِلَةٍ أُخْرَى، كَأَنْ نُحَلَّ الْمَشْكِلَةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ، كَمَا يَحْدُثُ فِي بَعْضِ الْمُجْتَمَعَاتِ، عَلَى حِسَابِ الْأُسْرَةِ وَحِسَابِ أَوْلِيَّيَّةِ

حُقُوقِ الْأُمُومَةِ، أَوْ بِمُحَاوَلَةِ حَلِّ مُشْكِلَةِ ضَعْفِ التَّرْبِيَةِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ لَدَى
النَّاسِئَةِ بِتَسْهِيلِ الْاِسْتِجَابَةِ لِدَوَاعِي النَّزَوَاتِ.

بِهَذَا السُّلُوكِ يُصْبِحُ لَدَيْنَا أَيُّهَا الشَّبَابُ عِوَضَ الْإِشْكَالِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ
نُوَاجِهَهُ وَنَحُلَّ مُعْضِلَتَهُ فِي مَجَالِهِ وَجْهًا لِرُؤْيِهِ إِشْكَالًا، كَمَا نَحُلُّ الْمُسْكِلَ
الْاِقْتِصَادِيَّ فِي ضَعْفِ الْقُدْرَاتِ بِسَبَبِ ضَعْفِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّخْطِيطِ، وَبِالتَّالِي
ضَعْفِ الْإِنْتَاجِيَّةِ، فَنَلْجَأُ إِلَى إِخْرَاجِ النِّسَاءِ الشَّابَّاتِ، وَهُنَّ فِي سِنِّ الْأُمُومَةِ، لِلْعَمَلِ
أَسْوَأَ بِالرِّجَالِ بَدَلًا مِنْ أَوْلِيَّةِ الْأُمُومَةِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ حَيَاةِ الْمَرْأَةِ، فَتَضَعُفُ
عِنَايَةُ الْأُمِّ بِالْأَبْنَاءِ، إِنْ أَنْجَبْتَهُمْ، وَتَشْغَلُ عَنْهُمْ، فَيَزْدَادُ ضَعْفُ تَرْبِيَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ
وَقُدْرَاتِهِمْ وَإِنْتَاجِهِمْ، وَيَزْدَادُ بِذَلِكَ تَدَهُورُ قُدْرَاتِ أَبْنَاءِ الْمُجْتَمَعِ وَتَدَهُورُ أَخْلَاقِيَّاتِ
الْمُجْتَمَعِ، وَيَزْدَادُ تَفَكُّكُ بِنَائِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَبِالتَّالِي يَزْدَادُ ضَعْفُ بِنَائِهِ الْإِنْتَاجِيِّ
وَالْاِقْتِصَادِيِّ؛ فَتَكُونُ حَرَكَةُ الْأُمَّةِ، حَرَكَةً سُفْلِيَّةً حَلْزُونِيَّةً، تَزْدَادُ ضَيْقًا، وَآلِي
الْأَسْفَلِ وَالْأَسْوَأِ، وَتُصْبِحُ الْأُمَّةُ فَرِيْسَةً لِكُلِّ طَامِعٍ فِيهَا، يَنْهَبُ خَيْرَاتِهَا، وَيَسْتَبِيحُ
دِمَاءَهَا، وَيُذِلُّ رِقَابَ أَبْنَائِهَا.

وَمِثْلُ ذَلِكَ أَنْ نَحُلَّ ضَعْفَ حَسَنِ التَّرْبِيَةِ وَحَسَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ بِتَيْسِيرِ النَّزَوَاتِ

بِالْخَلِيلَاتِ، أَوْ بَتَعَدُّ الزَّوْجَاتِ مِنْ دُونِ ضَرُورَةٍ، بَدَلًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالتَّرْبَوِيَّةِ، وَحَلِّهَا فِي جُذُورِهَا، وَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ وَمَا فِي حُكْمِهِمَا، نَحْنُ
-بِهَذَا التَّصَرُّفِ الْهَرُوبِيِّ الْعَاجِزِ السَّيِّئِ- لَا نَحُلُّ الْمُسْكِةَ الْأَصْلِيَّةَ، وَلَكِنَّا نُوَلِّدُ إِلَى
جَانِبِ الْمُسْكِةِ مُسْكِةً أُخْرَى أَعْوَصَ مِنْهَا وَأَكْبَرَ وَأَخْطَرَ.

فَالْحَلُّ الصَّحِيحُ، وَالْخِيَارُ الصَّحِيحُ، أَيُّهَا الشَّبَابُ، لَيْسَ فِي حَلِّ الْمُسْكِةِ بِمُسْكِةٍ
آخَرَ؛ لِيُصْبِحَ لَدَيْنَا بَدَلُ الْمُسْكِةِ الْوَاحِدِ مُسْكِانِ، وَيُصْبِحَ لَدَيْنَا بَدَلُ الدَّاءِ الْوَاحِدِ
دَاءَانِ، وَلَكِنَّ الْحَلَّ الصَّحِيحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِمُوَاجَهَةِ الْمُسْكِةِ الْأَسَاسِ، وَحَلِّهِ بِمَا يُحَقِّقُ
إِصْلَاحَ أَصْلِ الدَّاءِ، وَيُحَقِّقُ عِلَاقَاتِ الْمُجْتَمَعِ السَّلِيمَةِ، وَيَحْفَظُ مَصَالِحَ الْفَرْدِ
وَالْمُجْتَمَعِ وَقِيَمَهُمُ الْأَخْلَاقِيَّةَ الْقَوِيمَةَ.

صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ تَوَجَّهَ بِالْحَدِيثِ إِلَى جَمِيعِ الشَّبَابِ وَالشَّابَّاتِ فِي الْمَجْلِسِ
قَائِلًا: أَيُّهَا الشَّبَابُ؛ مَنْ مِنْكُمْ الَّذِي يَرْضَى أَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ لِابْنَتِهِ أَوْ لِابْنِهِ؟ مَنْ مِنْكُمْ
مَنْ يَرْضَى أَنْ يُشَارِكَ ابْنَتَهُ زَوْجَاتٍ أُخْرِيَّاتٍ، أَوْ أَنْ تَتَوَزَّعَ أُسْرَةُ ابْنِهِ وَأَطْفَالُهُ بَيْنَ
زَوْجَاتٍ مُتَشَاكِسَاتٍ؟ مَنْ يَرْضَى ذَلِكَ مِنْكُمْ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ وَيُوضِّحْ لَنَا بِالرَّحْبِ
وَالسَّعَةِ وَجِهَةَ نَظَرِهِ، فَكُلِّي، أَنَا وَبَيْدَبَا، أَسْمَاعُ صَاغِيَّةٌ؟

خِيَمَ الصَّمْتُ عَلَى الْمَجْلِسِ، وَلَكِنَّ أَحَدًا مِنَ الْجَالِسِينَ لَمْ يَرْفَعْ يَدَهُ.

عِنْدَ ذَلِكَ تَابَعَ الشَّيْخُ الخِطَابَ إِلَى الشَّبَابِ قَائِلًا: أَجِيبُونِي أَيُّهَا الشَّبَابُ هَلْ تَرْضَوْنَ هَذَا لِأُمَّهَاتِكُمْ، هَلْ تَرْضَوْنَ هَذَا لِبنَاتِكُمْ أَوْ لِأبنَائِكُمْ.

هنا ضجَّتِ القَاعَةُ بِأصواتِ الشَّبَابِ مُجَلِّجَةً بِكَلِمَةِ "لا"، وَارْتَفَعَتْ جَمِيعُ أَيْدِيهِمْ تَلَوِّحُ مُشِيرَةً بِ(لا لا)؛ رَفْضًا لِهَذَا السُّلُوكِ، وَإِنْكَارًا لِهَذَا الحَلِّ المُتَقَلِّبِ المُزَلْزِلِ لِرُوحِ الأُسْرَةِ وَسَعَادَتِهَا، وَذَلِكَ حِينَ لا يَكُونُ لَهُ مُبَرَّرٌ يَدْعِمُ الأُسْرَةَ وَيُشِيعُ فِيهَا مَزِيدًا مِنْ رُوحِ الأَمَانِ وَالإِخْلاصِ وَالسَّعَادَةِ.

عِنْدَ ذَلِكَ أَشارَ الشَّيْخُ إِلَى الشَّبَابِ لِيَعُودَ الهُدُوءُ إِلَى القَاعَةِ، ثُمَّ قالَ: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ، نَعَمْ ما قُلْتُمْ، وَبارَكَ اللهُ فِيكُمْ، نَعَمْ، "عَلَيْنَا أَنْ نَعامِلَ النَّاسَ بِما نُحِبُّ أَنْ نَعامَلَ بِهِ"، فَلا نَرْضَى لِأزْواجِنَا وَأَسْرِ أبنائِنَا، ما لا نَرْضاهُ لِبناتِنَا وَأَسْرِ أبنائِنَا.

صَمَتَ الشَّيْخُ لِحِظَةً أُخْرَى ثُمَّ تَابَعَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: لَعَلِّي أَيُّهَا الشَّبَابُ بِما ذَكَرْتُ لَكُمْ قَدْ وَضَّحْتُ الأَمْرَ، وَوَضَّحْتُ ضَرُورَةَ أَنْ نُواجِهَ مَسْئُولِيَّاتِنَا الأخْلاقِيَّةَ وَالاجْتِماعِيَّةَ، بِكُلِّ أَنْواعِها، بِما يُحَقِّقُ سَعادَتِنَا وَسَعادَةَ مُجْتَمَعِنَا، وَيَحْمِي أبنائِنَا وَشَبابِنَا؛ لِيَعِيشُوا فِي أَسْرٍ وَعَلاقاتِ إنْسانِيَّةٍ قِيَمَةِ الأُسُسِ مَتِينَةِ البُنْيَانِ.

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ التَّفَتَّ الشَّيْخُ نَحْوَ الفَتاةِ الَّتِي رَغِبَتْ أَنْ تَكُونَ زَوْجَةً لَهُ، وَوَجَّهَ إِلَيْها

حَدِيثُهُ قَائِلًا: أَيَّتُهَا الْأُخْتُ الْكَرِيمَةُ أَرْجُو بَعْدَ أَنْ سَمِعْتِ إِلَى مَا دَارَ مِنْ حِوَارَاتِ بِشَأْنِ
الْأُسْرَةِ أَنْ تَعْلَمِي أَنِّي -كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكَ- لَسْتُ بِالزَّوْجِ الْمُنَاسِبِ لَكَ، فَلَسْتُ
كَمَا تَرَيْنِ، أَيَّتُهَا الْإِبْنَةُ الْكَرِيمَةُ، فِي السِّنِّ الَّتِي يَلِيقُ بِشَيْخٍ مِثْلِي أَنْ يَكُونَ فِيهَا زَوْجًا -عَلَى
أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ- لِفَتَاةٍ جَمِيلَةٍ مُهَذَّبَةٍ فِي مُقْتَبَلِ الْعُمُرِ مِثْلِكَ، وَلَكِنِّي أَسْتَأْذِنُكَ أَنْ
تَقْبَلِي بِي أَبَا، وَأَنْ أَخْطُبَكَ لِمَنْ أَظُنُّهُ -بِمَا رَأَيْتُ فِي شَخْصِهِ مِنْ مَخَايِلِ الذِّكَاةِ وَالْقُدْرَةِ
وَكَرِيمِ الْخُلُقِ، وَمَا رَأَيْتُ لَكَ فِي عَيْنَيْهِ مِنْ مَشَاعِرِ الْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ- خَيْرَ زَوْجٍ لَكَ، وَخَيْرَ أَبٍ
لِأَبْنَائِكَ، وَخَيْرِ أَلْفٍ وَرَفِيقٍ لَكَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى شَابٍّ حَسَنِ الطَّلَعَةِ وَالْهِنْدَامِ، كَانَ يَجْلِسُ إِلَى يَمِينِ الْمَجْلِسِ،
فَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ وَيَجْلِسَ إِلَى جَانِبِهَا، فَأَسْرَعَ الشَّابُّ مُلَبِّيًا الطَّلَبَ، ثُمَّ نَظَرَ الشَّيْخُ
إِلَى شَابٍّ آخَرَ يُضَاهِيهِ طَلَعَةً وَهِنْدَامًا وَيَقْظَةً وَذِكَاءً، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَيضًا، وَأَنْ
يَجْلِسَ إِلَى جَانِبِهِ الْأَيْسَرِ، فَلَبَّى الشَّابُّ فِي سُرْعَةٍ وَحَجَلَ طَلَبَ الشَّيْخِ.

نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى فَتَاةٍ أُخْرَى شَابَّةٍ جَمِيلَةٍ تُضَاهِي الْأُولَى بِهَاءٍ وَجَمَالًا،
وَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَجْلِسَ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ إِلَى جَانِبِهِ، ثُمَّ قَالَ مُخَاطِبًا الشَّابَّ إِلَى يَمِينِهِ:
لَمْ يَفْتِنِي يَا فَتَى مَا كُنْتَ تُرْسِلُهُ مِنَ النَّظَرَاتِ الْوَالِهَةِ إِلَى فَتَاتِكَ الَّتِي إِلَى جَانِبِكَ، وَلَمْ

يَغِيبُ عَن فِطْنَتِي نَظَرَاتُ حَيَائِهَا وَخَجَلِهَا مِنِ اخْتِلَاسَاتِ نَظَرَاتِكَ، فَهَلْ تَأْذِنِينَ لِي يَا فَتَاتِي أَنْ أَخْطُبُكَ إِلَى الشَّابِّ النَّابِهِ الْجَالِسِ إِلَى جَانِبِكَ؟.

أَرْخَتِ الْفَتَاةُ رَأْسَهَا، وَاحْمَرَّتْ وَجْنَتَاهَا وَكَانَ صَمْتُهَا أَبْلَغَ فِي التَّعْبِيرِ عَن رِضَاهَا. ثُمَّ التَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى الشَّابِّ الْأَخْرَجِ إِلَى يَسَارِهِ، وَقَالَ لَهُ: هَلْ تَأْذِنُ لِي أَيْضًا يَا بُنَيَّ أَنْ أَخْطُبَ لَكَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَتَاتِكَ الْجَمِيلَةَ الَّتِي إِلَى جَانِبِكَ؟ فَمَا أَظُنُّ شَابِّينَ نَابِهَيْنِ مِثْلُكُمَا يَجِدَانِ خَيْرًا مِنْ فَتَاتَيْكُمَا زَوْجَتَيْنِ صَالِحَتَيْنِ لَكُمَا، وَمَا أَظُنُّهُمَا سَتَجِدَانِ خَيْرًا مِنْكُمَا زَوْجَيْنِ صَالِحَيْنِ لَهُمَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ التَّفَتَ الشَّيْخُ إِلَى الْفَتَاةِ وَقَالَ: هَلْ تَقْبَلِينَ يَا فَتَاتِي خِطْبَتِي لَكَ لِهَذَا الشَّابِّ الْجَالِسِ إِلَى جَانِبِكَ؟ وَجَاءَ جَوَابُهَا حَيَاءً وَخَفَرًا وَصَمْتًا أَبْلَغَ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفَرَحَةِ وَالرِّضَا.

أَمَّا الشَّابُّ فَقَدْ خَفَّضُوا رُؤُوسَهُمْ وَنَظَرَاتِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ لَنَا جَمِيعًا، وَكُلُّنَا نَرْضَى بِمَا تَرْضَاهُ لَنَا، وَلَنْ يَعْصِي أَحَدٌ مِنَّا لَكَ أَمْرًا.

التَّفَتَ الشَّيْخُ ابْنَ بَطُوطَةَ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ: سَأَبْعَثُ مَعَكَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ فَتَاتِي

لِيَتَدَبَّرَ أَمْرَ أَفْرَاحِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَزَوْاجِ هَذَيْنِ الشَّابَّيْنِ مِنْ هَاتَيْنِ الْفَتَاتَيْنِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ،
وَسَيَكُونُ الْعُرْسُ فِي دَارِي، فِي لَيْلَتِنَا بَعْدَ الْقَادِمَةِ وَعَلَى نَفَقَتِي، فَأَحْضِرْ مَعَكَ
"الْمَأْذُونَ"، وَادْعُ الْأَهْلَ وَالْأَحْبَابَ وَكُلَّ مَنْ تَشَاءُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَوَارِ وَالْحَيِّ، وَسَاكُونَ أَنَا
وَأَنْتَ يَا بَيْدَبَا شُهُودًا عَلَى هَذَا الزَّوْاجِ الْمُبَارَكِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا تَنْسَ يَا بَيْدَبَا أَنْ
تُحْضِرَ أَرْيَابَ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ وَالطَّرَبِ وَالسَّمْرِ لِتَكُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ لَيْلَةَ فَرَحٍ وَمَرَحٍ نَخْتِمُ بِهَا
لِقَاءَاتِنَا الْمُبَارَكَةَ.

إِنِّي يَا بَيْدَبَا أُرِيدُ أَنْ أَكْفِي بِأَفْرَاحِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ صَبْرَكَ وَصَبْرَ إِخْوَانِكَ وَأَخَوَاتِكَ مِنْ
عَنَاءِ الْجَوَارِ وَالْفِكْرِ وَالدَّرْسِ، خِلَالَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي الْمَاضِيَةِ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِيهَا خَيْرَ
الْمُحَاوِرِينَ، وَخَيْرَ الْمُسْتَمِعِينَ.

وَبِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْحَكِيمَةِ النَّاصِحَةِ وَالكَرَمِ الْأَبْوِيِّ وَقَفَ الشَّيْخُ وَقَالَ: كَفَانَا أَيُّهَا
الإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مَا تَحَدَّثْنَا بِهِ الْيَوْمَ وَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ لِئِنْهِيَ جَلْسَةَ هَذَا الْيَوْمِ قَبْلَ أَنْ
يَنَالَ مِنَّا التَّعَبُ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ.

أُمِّي الَّتِي لَمْ تَلِدْنِي

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي تَوَافَدَ السَّبَابُ كَالْمُعْتَادِ، وَأَخَذُوا وَأَخَذَ الشَّيْخُ وَبَيَدَبَا وَقِطَّةُ الشَّيْخِ مَجْلِسَهُمْ، اسْتَعْدَادًا لِلْجَوَارِ وَالْمُدَارَسَةِ، وَفَجْأَةً اهْتَزَّ الْمَجْلِسُ بِضَجَّةٍ وَصُرَاخٍ غَاضِبٍ وَبُكَاءٍ وَعَوِيلٍ مُجْهِشٍ يَصْدُرُ عَنِ الدَّارِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَجْلِسِ الشَّيْخِ، مِمَّا أَثَارَ دَهْشَةَ الشَّيْخِ وَأَفْرَعَ مَشَاعِرَهُ، وَرَفَعَ عَيْنَاهُ إِلَى بَيَدَبَا مُتَسَائِلًا عَنِ مَصْدَرِ هَذِهِ الضَّجَّةِ وَالْعَوِيلِ وَأَسْبَابِهَا.

نَادَى بَيَدَبَا عَلَى الْفَتَى سَعِيدٍ قَيِّمِ الْمَنْزِلِ وَالْمُشْرِفِ عَلَيْهِ طَالِبًا يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ سَبَبَ هَذِهِ الضَّجَّةِ، وَلَمَّا لَمْ يُبَادِرِ الرَّجُلُ بِالْحَرَكَةِ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ مَا يَحْدُثُ، وَلَمَّا سَأَلَهُ الشَّيْخُ لِمَاذَا لَمْ يُبَادِرْ بِالْحَرَكَةِ وَالذَّهَابِ لِمَعْرِفَةِ مَا يَحْدُثُ؟ أَجَابَ الرَّجُلُ قَائِلًا: لَا تَفْرَعُ يَا سَيِّدِي فَهَذَا أَمْرٌ يَحْدُثُ كَثِيرًا مِنْ حِينِ لِأَخْرَفِي دَارِ جَارِنَا، لِأَنَّ لِهَذِهِ الْجَارَةَ أَبْنَاءً لِرُؤُوسِهَا، وَهِيَ مِثْلُ سِوَاهَا مِنْ زُوجَاتِ الْأَبَاءِ، تَضِيقُ ذُرْعًا بِهَوْلَاءِ الْأَطْفَالِ، وَهِيَ لِذَلِكَ تَنْهَالُ عَلَيْهِمْ تَعْنِيفًا وَضَرْبًا كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لِأَحَدِ إِخْوَانِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهَا، أَوْ كُلَّمَا ارْتَكَبُوا شَيْئًا مِنْ أَخْطَاءِ الْأَطْفَالِ وَزَلَّاتِهِمْ، تَأْدِيبًا لَهُمْ وَتَنْفِيسًا عَنِ ضِيقِ صَدْرِهَا وَمَشَاعِرِ كَرْهِيهَا لَهُمْ كَزُوجَةِ أَبِي ابْتُلَيْتَ بِمَسْئُولِيَّةِ تَرْبِيَةِ أَطْفَالٍ لَيْسُوا بِأَطْفَالِهَا.

قَالَ: أَحَدُ الشَّبَابِ، لَا أَرَى يَا شَيْخَنَا الْجَلِيلَ إِلَّا أَنْ نُوَاصِلَ عَمَلِنَا فَلَا أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ مَا يُمَكِّنُنَا فِعْلُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ.

قَالَ الشَّيْخُ: لَا يَا بُنَيَّ، بَلْ هُنَاكَ مَا يُمَكِّنُ فِعْلُهُ، لِأَنَّ مَا يَحْدُثُ فِعْلُهُ هُوَ تَصَرُّفُ جَاهِلٍ، يَضُرُّ الْمَرْأَةَ وَأَطْفَالَهَا، كَمَا يَضُرُّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ إِخْوَتُهُمْ.

قَالَ بَيْدَبَا: لَكُمْ هُوَ مُؤَلِّمٌ حَالٌ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ، لَيْسَ فَقَطٌ، لِفَقْدِ حِضْنِ الْأُمِّ، بَلْ وَلِقَسْوَةِ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ زَوَاجَاتِ الْأَبَاءِ الْجَاهِلَاتِ، اللَّاتِي لَا يَحْتَمِلْنَ رِعَايَةَ أَبْنَاءِ الزَّوْجِ، وَيَكْرَهُونَ مُشَارَكَةَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ، دُورَهُنَّ وَدُورَ أَطْفَالِهِنَّ، لِمَا فِي فِطْرَتِهِنَّ مِنَ الْأَنَانِيَّةِ، وَالْحِرْصِ عَلَى كُلِّ مَا تَطُولُهُ أَيْدِيهِمْ، مِنَ النَّفْعِ وَالرِّفَافِ لِيَكُونَ لَهُنَّ وَلِأَبْنَائِهِنَّ فَقَطٌ.

قَالَ الشَّيْخُ: مَا تَقُولُهُ يَا بَيْدَبَا صَحِيحٌ، وَهُوَ لِلْأَسْفِ، الْفَهْمُ وَالْإِحْسَاسُ الْخَاطِئُ، الْمُسَيِّطِرُ عَلَى أَكْثَرِ النِّسَاءِ، مِنْ زَوَاجَاتِ الْأَبَاءِ، بَلْ وَالْحَالُ صَحِيحٌ أَيْضًا، عَلَى تَصَرُّفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَزْوَاجِ الْأُمَّهَاتِ نَحْوَ أَبْنَاءِ زَوَاجَاتِهِنَّ، وَإِنْ يَكُنْ فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ بِقَدْرِ أَقَلِّ سُوْءًا، لِأَنَّ دَوْرَ الرَّجُلِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ، وَمُعَانَاةِ حَاجَاتِهِمْ، وَحَمْلِ مَسْئُولِيَّاتِهِمْ، بِأَقْلٍ وَأَهْوَنَ كَثِيرًا مِنْ حَالِ الْأُمَّهَاتِ.

وَتَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: إِنَّ مَا أَرْجُوهُ يَا بَيْدَبَا، أَنْ تَبْعَثَ بِثَلَاثٍ مِنَ السَّيِّدَاتِ إِلَى هَذِهِ الْجَارَةِ لِيَدْعُوْنَهَا وَزَوْجَهَا إِلَى حُضُورِ مَجْلِسِنَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا أُمٌّ وَأَخْتُ أَوْ أَخَوَاتٌ فَإِنَّ مِنَ الْأَفْضَلِ، دَعْوَتُهُنَّ مَعَهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَفْضَلَ لِمَا أُرِيدُ الْحَدِيثُ مَعَهَا بِشَأْنِ الْأَطْفَالِ مِنْ أَبْنَاءِ زَوْجِهَا وَبَنَاتِهِ.

اخْتَارَ بَيْدَبَا ثَلَاثًا مِنَ السَّيِّدَاتِ الْمُتَقَدِّمَاتِ فِي السِّنِّ، لِيَزِيْرَةَ دَارِ السَّيِّدَةِ، وَدَعَوْتَهَا وَزَوْجَهَا لِمَجْلِسِ دَرْسِ الشَّيْخِ، فَذَهَبُوا إِلَيْهَا، وَتَلَطَّفُوا فِي دَعْوَتِهَا، وَشَرَحُوا مَا لِلشَّيْخِ مِنْ عِلْمٍ وَفَضْلٍ سَوْفَ يُعِينُهَا عَلَى مَا تُعَانِي مِنْ أَمْرِ أَبْنَاءِ زَوْجِهَا، وَمَا يُسَبِّبُونَهُ لَهَا، مِنْ الْمَتَاعِبِ.

رَحَّبَتِ الزَّوْجَةُ، وَوَعَدَتْ بِحُضُورِهَا وَزَوْجِهَا، وَبِحُضُورِ أُمَّهَا وَأُخْتِهَا إِلَى مَجْلِسِ الشَّيْخِ فِي جَلْسَةِ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، وَفِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، انْتَضَمَ الْمَجْلِسُ كَالْمُعْتَادِ، وَكَانَ مَوْضِعُ حَدِيثِ الشَّيْخِ عَنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَعَنْ مَثُوبَةِ الْعَطْفِ عَلَى الْاَيْتَامِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْيَتَامَى، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ مُعَانَاتِهِمْ، وَكَانَ حَدِيثًا مُؤَثِّرًا أَدْمَعَ الْعُيُونَ خَاصَّةً عُيُونَ السَّيِّدَاتِ، وَخَتَمَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ إِلَى الْمَجْلِسِ، طَالِبًا مِنْهُمْ الْاِذْنَ، بِأَنْ يَخْلُومَعَ أُسْرَةَ الْجَارِ لِبَعْضِ الْحَدِيثِ.

انْتَقَلَ الشَّيْخُ وَمَعَهُ بَيْدَا وَزَوْجَتُهُ، وَالْجَارُ وَزَوْجَتُهُ، بِصُحْبَةِ أُمِّهَا وَأُخْتِهَا، وَمَعَهُمُ
 السَّيِّدَاتُ الثَّلَاثُ، اللَّائِي قُمْنَ بِزِيَارَةِ أُسْرَةِ الْجَارِ، وَدَعَوْتَهَا، وَذَلِكَ لِغَايَةٍ فِي نَفْسِ
 الشَّيْخِ، لَمْ يَشَأْ أَنْ يُفْصِحَ عَنْهَا، إِلَّا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَجْلِسِ، وَالْحَدِيثِ إِلَى أُسْرَةِ الْجَارِ.
 تَوَجَّهَ الشَّيْخُ إِلَى أُسْرَةِ الْجَارِ، وَخَاصَّةً زَوْجَةَ الْجَارِ، وَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ ضُحَى الْيَوْمِ
 مَا حَدَّثَ لَدَيْكَ بِالْدارِ، مَعَ أَبْنَاءِ زَوْجِكَ، قَصِدَ تَأْذِيهِمْ، وَقَدْ أَحْسَسْتُ بِمَا أَحْسَسْتُ
 بِهِ مِنْ إِجْهَادٍ وَمُعَانَاةٍ، بِسَبَبِ عِبءِ مَسْئُولِيَّاتِكَ الْأَسْرِيَّةِ، نَحْوَ زَوْجِكَ، وَبَيْتِكَ،
 وَأَبْنَائِكَ، مُضَافًا إِلَيْهَا فَوْقَ ذَلِكَ عِبءُ مَسْئُولِيَّاتِكَ، بِخِدْمَةِ أَبْنَاءِ زَوْجِكَ، وَمَسْئُولِيَّةِ
 تَرْبِيَتِهِمْ وَهُمْ أَبْنَاءُ امْرَأَةٍ أُخْرَى، لِتَكُونِي، دُونَ خِيَارِ مَنْكَ، بَدِيلًا لِأُمِّهِمْ، وَرَغْمَ صُعُوبَةِ
 تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ، وَلَوْ كَانُوا أَبْنَاءَكَ، فَإِنَّ صُعُوبَةَ تَرْبِيَةِ أَبْنَاءِ الزَّوْجِ، لَا شَكَّ صُعُوبَةٌ
 مُضَاعَفَةٌ، لِأَنَّهِمْ وَلَا شَكَّ يَعْتَبِرُونَكَ، بِشَكْلِ وَاعٍ أَوْ غَيْرِ وَاعٍ، الْمَرْأَةُ الَّتِي اغْتَصَبَتْ
 مَكَانَ أُمِّهِمْ، وَحَرَمَتْهُمْ دِفءَ عَشِيرَتِهِمْ.

وَإِذَا كَانَتْ أُمُّهُمْ، أَيْهَا الْمُعَلِّمُ أَيْضًا امْرَأَةً غَيْرَ وَاعِيَةٍ، وَلَجَّاتُ إِلَى تَأْجِيحِ هَذَا الشُّعُورِ
 الْعَدَائِيِّ فِي نَفْسِهِمْ نَحْوِكَ، وَتَزْيِيفِ دَوْرِكَ فِي مَسْئُولِيَّةِ مَا أَصَابَهُمْ بِسَبَبِ فِرَاقِهِمْ
 لِأُمِّهِمْ، إِضَافَةً إِلَى مَا قَدْ تُرِدُّهُ أُمُّهُمْ أَيْضًا عَلَى مَسَامِعِهِمْ، مِنْ تَشْوِيهِ سِيرَتِكَ وَسِيرَةِ

أبيهم، انتقاماً منه وكذلك منك، وظناً منها، أنها بذلك تكسبُ وُدَّهُمْ وولاءَهُمْ، وكلُّ ذلك يزيدُ أيضاً ولا شكَّ من متاعيك وثقل أعبائك، ممَّا يضاعفُ شقاءك وشقاء هؤلاء الأطفال، فليس من مصلحتهم على كلِّ الأحوال إزدراءُ أمهم أو أبيهم.

صمَّت الشيخُ لحظةً، وذلك حتى يتيحَ للزوجةِ والزوجِ فرصةً لاستيعابِ ما تحدت به، والقصدُ من ذلك أن يوضَّحَ حُسنَ فهمِهِ لمُعانةِ الزوجةِ، وتعاطفَهُ معها ومع معاناتها، ولتكونَ وأسرَّتُها أكثرَ قبولاً وتفهماً لما يقصدُ إليه الشيخُ وينصحُ به، ولا يتحوَّلُ إلى ما سيقدِّمه من نصحٍ لدى أيِّ أحدٍ منهم خصوصاً زوجِ الجارةِ وأبو أولئك الأطفال، إلى إحساسِ سلبِيٍّ، أو موقفٍ لومٍ وإذانةٍ لزوجتهِ، لما يراهُ تفعلهُ بأبنائه. تابعَ الشيخُ حديثهُ قائلاً: والسؤالُ المهمُّ أيُّها الإخوةُ والأخواتُ، بعدَ كلِّ ما تحدتْنَا عنه، هو كيفَ نتعاملُ مع هذهِ المُعضلةِ، وكيفَ نخففُ من آثارها المأساويَّةِ، على كلِّ الأطرافِ خاصَّةً هؤلاءِ الأطفالِ الصِّغارَ وزوجةِ الأبِ وهي الإنسانُ الذي يقعُ عليها عبءُ مسؤوليَّةِ تربيَتهم ورعايتهم، ونقضي على ما يواجهونه من متاعبٍ وسلبِيَّاتٍ، بل وكيفَ نحوِّلُ السلبِيَّاتِ إلى إيجابِيَّاتٍ.

صمَّت الشيخُ مرَّةً أُخرى، وأعينُ الجميعِ تتطلَّعُ إليه، وكلُّها لهفةٌ لما سيَقولهُ

الشَّيْخُ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ بَعْدَ كُلِّ مَا قِيلَ وَوَصَفِ تَحْوِيلِ تِلْكَ السَّلْبِيَّاتِ إِلَى إِجَابِيَّاتٍ.
 تَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ وَقَالَ: مِنَ الْمُهْمِّ أُمَّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، أَنْ نَعْلَمَ وَأَنْ نَتَيَقَّنَ أَوْلَا
 أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ الصِّغَارَهُمْ أَطْفَالَ صِغَارِ السِّنِّ، أَبْرِيَاءُ، وَعَلَيْنَا نَحْنُ الْكِبَارَ أَنْ
 نَعْرِفَ كَيْفَ نَحْتَوِيهِمْ وَنَتَعَامَلُ مَعَهُمْ، وَكَيْفَ نُرْشِدُهُمْ وَنَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ، وَنَكْسِبُ
 ثِقَتَهُمْ، وَنَتَغَلَّبُ عَلَى مَا يُعَانُونَ مِنَ الْآمِ، وَمَشَاعِرَ نَفْسِيَّةٍ مَرِيْرَةٍ، وَبِذَلِكَ نُسَهِّمُ كَثِيرًا فِي
 تَخْفِيفِ أَعْبَاءِ زَوْجَةِ الْأَبِ الَّتِي تَحْمِلُ أَعْبَاءَ مَسْئُولِيَّةِ تَرْبِيَةِ أَبْنَاءِ الزَّوْجِ وَبَنَاتِهِ.
 وَالسُّؤَالُ الْمُهْمُّ الثَّانِي الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا أُمَّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ أَنْ نَسْأَلَهُ لِأَنْفُسِنَا،
 هُوَ: كَيْفَ يُمَكِّنُ لِمَنْ يَقْمَنَ مِنْ زَوَّجَاتِ الْأَبَاءِ عَلَى أَمْرِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَيَحْمِلْنَ
 مَسْئُولِيَّةَ تَرْبِيَتِهِمْ أَنْ يَكْسِبْنَ مَعْرَكَةَ ثِقَةِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَمَوَدَّتِهِمْ، وَهُنَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا
 مِنْ فِطْرَةٍ وَمَا يَتَحَمَّلْنَ مِنْ أَعْبَاءِ مَسْئُولِيَّاتِهِنَّ وَحِرْصِهِنَّ الْبَالِغِ عَلَى مَصَالِحِ أَبْنَائِهِنَّ.
 وَتَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: السُّؤَالُ الصَّعْبُ أُمَّهَا الْأَصْدِقَاءُ هُوَ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ
 يَحْدُثَ ذَلِكَ، إِذَا كَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى جُلِّ النُّفُوسِ، نِسَاءً أَوْ رِجَالًا، تَحْمِلُ مِثْلَ هَذَا
 الْقَدْرِ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ وَالْعَنَاءِ، لِغَيْرِ أَبْنَائِهِمْ إِضَافَةً إِلَى مَا يُثْقِلُ كَاهِلَهُمْ مِنْ مَسْئُولِيَّاتِ
 أَبْنَائِهِمْ.

وَالْجَوَابُ أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، هُوَ أَنَّهُ لَا يَسْهَلُ تَقَبُّلُ مِثْلِ هَذَا الْعِبَاءِ عَلَى أَحَدٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ فِي فِطْرَتِهِ أَوْ مَصْلَحَةٌ لَهُ فِي الْقِيَامِ بِهِ وَتَحْمَلِ أَعْبَائِهِ. وَلَكِنْ دَعَوْنَا أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ نَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ نَظْرَةً ثَانِيَةً مُتَانِيَةً، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَسْهَلُ التَّنَبُّهُ إِلَيْهِ مِنَ النَّظْرَةِ السَّطْحِيَّةِ الْمُتَعَجَّلَةِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَرَى كَيْفَ أَنَّ لِرِزْوَجَةِ الْأَبِّ، فِي حُسْنِ رِعَايَةِ أَبْنَاءِ زَوْجِهَا، أَصْلًا فِي فِطْرَتِهَا، وَمَصْلَحَةً كُبْرَى لَهَا، وَلَا أَبْنَاءَهَا، بِشَرْطِ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَتَتَنَبَّهُ إِلَيْهِ وَتَعْلَمَهُ، وَحِينَئِذٍ سَوْفَ يَنَالُ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ مِنْ عِنَايَتِهَا وَرِعَايَتِهَا، بَلْ وَمِنْ جُهْدِهَا وَحِرْصِهَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى حُسْنِ تَنْشِئَتِهِمْ مِثْلَ مَا يَنَالُ أَبْنَاءَ لَحْمِهَا وَدَمِهَا.

اتَّسَعَتْ أَعْيُنُ الْحَاضِرِينَ دَهْشَةً وَتَرْقُبًا لِمَا سَيَقُولُهُ الشَّيْخُ، شَرْحًا لِمَا أَجْمَلَ، وَتَوْضِيحًا لِكَيْفِيَّةِ حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ الْعَجِيبِ الْمُحَيَّرِ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعْلَمُ جَمِيعًا أَيْهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ بِمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا، أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ الصِّغَارَ هُمْ ضَحَايَا بَرِيئَةٌ، لِأَخْطَاءِ وَأَحْدَاثٍ لَا يَدَ لَهُمْ فِيهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، أَنْ لَا تُرَاعَى ظُرُوفُهُمْ، أَوْ أَنْ يُعَاقَبُوا عَلَى حَمَاقَاتِ غَيْرِهِمْ وَأَخْطَاءِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.

كَذَلِكَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ فَإِنَّا نَعْلَمُ فِيمَا ذَكَرْنَا أَيضًا، مَا فِي حُسْنِ رِعَايَةِ مِثْلِ هَؤُلَاءِ وَتَخْفِيفِ أَلَمِهِمْ وَدَمَلِ جِرَاحَاتِهِمْ مِنْ سُمِّ النَّبْلِ، وَعِظَمِ الْأَجْرِ.
قَالَ بَيْدَبَا: صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَلَكِنْ مَا هُوَ الْجَدِيدُ فِي كُلِّ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّا لَا نَرَى فِي ذَلِكَ حَلًّا لِلْغُرِّ الَّذِي طَرَحْتَ، أَوْ سَبَبًا حَقِيقِيًّا لِكَيْ يُغَيِّرَ زَوْجَاتُ الْأَبَاءِ مَوْقِفَهُنَّ وَمُعَامَلَتَهُنَّ لِأَبْنَاءِ أَزْوَاجِهِنَّ.

قَالَ الشَّيْخُ بِاسْمًا: هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا بَيْدَبَا وَلَا تَعْجَلْ، فَسَتَسْمَعُ الْجَدِيدَ الَّذِي يُجِيبُ عَلَى سُؤَالِكَ الصَّعْبِ، وَيَحُلُّ ذَلِكَ اللُّغْزَ الَّذِي شَهِدْتَ شَخْصِيًّا آثَارَهُ الرَّائِعَةَ، فِي حَيَاةِ نِسَاءٍ وَزَوْجَاتِ آبَاءٍ كَثِيرَاتٍ، مِنْ اللَّائِي كُنَّ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ ضَيْقًا وَشَقَاءً، بِأَبْنَاءِ أَزْوَاجِهِنَّ، بَلْ وَكَانَ بَعْضُهُنَّ عَلَى قَدَرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْقَسْوَةِ عَلَى مِثْلِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ، لِيُصْبِحْنَ أَكْثَرَ النَّاسِ عِنَايَةً وَرِعَايَةً لِأَبْنَاءِ أَزْوَاجِهِنَّ.

إِنَّ الْجَدِيدَ يَا بَيْدَبَا، هُوَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ، لَيْسُوا فَقَطُ أَبْنَاءِ الزَّوْجِ، بَلْ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ وَأَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّهُمْ أَيضًا إِخْوَانُ أَطْفَالِ زَوْجَاتِ الْأَبَاءِ، يَرْتَبِطُهُمُ النَّسَبُ بِإِخْوَانِهِمْ مِنْ أَبِيهِمْ بِرِبَاطِ مُقَدَّسٍ مِنْ صِلَةِ الدَّمِ، وَهُوَ رِبَاطٌ لَا يَنْفَصِمُ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ وَالْأَيَّامِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مَا يُصِيبُ أَيًّا مِنْهُمْ مِنْ ضَرَرٍ فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْمَعَاشِ أَوْ فِي السَّمْعَةِ

بَيْنَ النَّاسِ يَنَالُ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَانِهِ، وَمِنْ شَرَفِهِمْ وَسُمْعَتِهِمْ بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا أَنَّ مَا يَنَالُ
أَيَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَجَاهٍ وَسُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ، يُشْرِفُ كُلَّ إِخْوَانِهِ وَيُدْعِمُهُمْ، لَا فَرْقَ بَيْنَ
شَقِيقٍ، أَوْ غَيْرِ شَقِيقٍ.

وَلِذَلِكَ يَا بَيْدَبَا فَإِنَّهُمْ إِذَا حَسُنَتْ تَرْبِيَّتُهُمْ، مَتَنَّتْ رَابِطَةُ الْمَحَبَّةِ وَالتَّأَزُّرِ بَيْنَهُمْ، لِأَنَّ
الْأُمُومَةَ وَالْأُخُوَّةَ لَيْسَ لِمَنْ جَرَتْ دِمَاؤُهَا فِي الْعُرُوقِ فَقَطُّ، بَلْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ
وَبِالدَّرَجَةِ الْأُولَى، لِمَنْ تَفْتَحَتِ الْعَيْنُ عَلَى حُبِّهِ وَرِعَايَتِهِ، وَذَلِكَ أَقْرَبُ بِالْفِطْرَةِ إِلَى
الْقَلْبِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ حِينَ يَنْتَصِبُ الْعُودُ وَيَكْبُرُ الصَّغِيرُ، وَيُدْرِكُ قِيَمَةَ مَا نَالَ مِنْ حُبِّ،
وَعِنَايَةٍ، وَرِعَايَةٍ، تَجْعَلُ لِلْأُمِّ الْمُرِّيَّةِ، النَّصِيبَ الْأَكْبَرَ مِنَ الْحُبِّ وَالتَّعَلُّقِ وَالْعِرْفَانِ
بِالْجَمِيلِ، وَهُوَ مَا رَأَيْتُهُ يَا بَيْدَبَا، مِنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ نَالَ هَذِهِ الْعِنَايَةَ وَالرِّعَايَةَ الْأُمُومِيَّةَ
الصَّادِقَةَ مِنَ الْعَاقِلَاتِ النَّاضِجَاتِ مِنْ زُوجَاتِ الْأَبَاءِ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهَا
وَلِأَبْنَائِهَا، وَتَخْفِيفًا لِأَعْبَائِهَا، وَمَزِيدًا مِنَ الْحُبِّ وَالْعِرْفَانِ مِنْ قِبَلِ زَوْجِهَا.

إِنَّ الْمَسْئُولَ يَا بَيْدَبَا، عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا نَرَى، مِنْ سُلُوكِيَّاتِ حَمَقَاءِ طَائِشَةٍ مِنْ زُوجَاتِ
الْأَبَاءِ، وَأَزْوَاجِ الْأُمَّهَاتِ يَرْجِعُ إِلَى سَطْحِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ، وَعَدَمِ الْخَوْضِ إِلَى جَوْهَرِ الْأُمُورِ،
وَالْإِلْرَاتِ وَتَيَقَّنَتْ مَنْ تَحَمَّلَتْ مَسْئُولِيَّةَ إِخْوَانِ أبنَائِهَا وَجَهَ النَّبْلِ وَالْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ،

فِيمَا تُقَدِّمُهُ لَهُمْ وَمَا تَحْمِلُهُ مِنْ مَسْئُولِيَّةِ تَرْبِيَّتِهِمْ.
صَمَتَ الشَّيْخُ بُرْهَةً ثُمَّ قَالَ: لِدَلِكِ يَا أَيَّتْهَا الْجَارَةُ الْعَزِيْزَةُ، لَوْلَمْ سَ هُوَلَاءِ الصِّغَارُ
مِنْكَ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالْمُدَارَاةِ وَالْحُبِّ وَالْحِرْصِ الْأُمُوْمِيِّ عَلَيْهِمْ، فَسَوْفَ وَلَا شَكَّ،
تَتَغَلَّبِينَ عَلَى خَوْفِهِمْ، وَعَلَى تَوْجُّسِهِمْ وَعَلَى آلامِ جِرَاحِهِمْ، وَسَوْفَ تَنَالِينَ مِنْهُمْ كُلَّ
مَشَاعِرِ حُبِّ الْبُنُوَّةِ وَجَمِيْلِ الْعِرْفَانِ فِي "الْعَاجِلَةِ" وَعِظَمِ الْأَجْرِ، لِمَا قَدَّمْتِ مِنْ صَادِقِ
الْبَدْلِ وَنَبِيْلِ الْمَشَاعِرِ لَهُوَلَاءِ الزُّغْبِ الضِّعَافِ فِي "الْأَجَلَةِ".

دَمَعَتْ أَعْيُنُ السَّيِّدَاتِ، وَسَالَتْ عَيْنُ الْجَارَةِ، وَنَهَضَتْ تَبَغِي تَقْبِيْلَ يَدِ الشَّيْخِ
وَرَأْسِهِ، لِمَا سَمِعَتْ وَوَعَتْ، فَأَجْلَسَهَا الشَّيْخُ بِرَفْقٍ وَقَالَ: لِي، أَيَّتْهَا الْأَخْتُ الْعَزِيْزَةُ،
طَلَبًا أَطْلُبُهُ مِنْكَ قَبْلَ أَيِّ أَحَدٍ آخَرَ، وَذَلِكَ لِمَا أَرَى فِيكَ، وَفِيمَا عَبَّرْتِ عَنْهُ بِدَمْعِ
مَشَاعِرِكَ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى نَبِيْلِ مَعْدِنِكَ، وَهُوَ مَا أَطْلُبُهُ أَيْضًا مِنْ بَقِيَّةِ الْأَخَوَاتِ
الْحَاضِرَاتِ، فِي هَذَا الْمَجْلِسِ وَفِي مَجْلِسِ طُلَّابِنَا، وَمَنْ تَرُونَ وَيَرْغَبُ مِنْ سَيِّدَاتِ
الْمُجْتَمَعِ سِوَاهُنَّ، وَطَلَبِي هُوَ: أَنْ تُنْشِئُوا جَمْعِيَّةً خَيْرِيَّةً تَطَوُّعِيَّةً تَتَوَلَّى أَمْرَ تَوْعِيَّةِ
زَوْجَاتِ الْأَبَاءِ اللَّاتِي يَزْعُونَ الصِّغَارَ الضُّعَفَاءَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَزْوَاجِ الَّذِينَ هُمْ فِي حُكْمِ
الْيَتَامَى، وَتَبْصِيْرِهِنَّ بِقِيْمَةِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّبْلِ وَالْمَصْلَحَةِ لِيَكُنَّ فِي
"الْعَاجِلَةِ" أُمَّهَاتٍ صَالِحَاتٍ وَاعِيَاتٍ، وَفِي "الْأَجَلَةِ" أُمَّهَاتٍ مَأْجُورَاتٍ مُكْرَمَاتٍ.

وَأَرَى أَنْ تَبْدَأَ جَمْعِيَّتُكُمْ التَّطَوُّعِيَّةَ الْخَيْرِيَّةَ النَّبِيلَةَ، بِالْتَّرْفُقِ وَالِاتِّصَالِ بِطَلِيقَةِ زَوْجِكَ وَهِيَ أُمٌّ مَنْ لَدَيْكَ مِنْ أَبْنَاءِ زَوْجِكَ، لِكَيْ تُبَصِّرَبِأَنَّ تَنْتَهِيَّ عَنْ كُلِّ مَا يُشَوِّهُ صُورَةَ أَبِيهِمْ وَزَوْجَةِ أَبِيهِمْ فِي عَيْنِ أَبْنَائِهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ يُسِيءُ إِلَى أَطْفَالِهَا، وَيُشَوِّهُ نَفْسِيَّاتِهِمْ، وَيُنْهِي مَشَاعِرَ النِّقْمَةِ، لَيْسَ عَلَى أَبِيهِمْ وَزَوْجَةِ أَبِيهِمْ فَقَطُّ، بَلْ يَمْتَدُّ ذَلِكَ إِلَى كُلِّ مَنْ حَوْلَهُمْ، لَيْسِبُؤَا مِنَ النَّاقِمِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى الْمُجْتَمَعِ، بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ ذَلِكَ لَهُمْ، مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْأَضْرَارِ، فَتَكُونُ تِلْكَ الْأُمُّ، مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي، بِجَهْلِهَا، كَمَنْ يَغْمِدُ نَصْلَ سِلَاحِهِ فِي صَدْرِهِ، وَكَانَ الْأُولَى بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ أَنْ يِنَالَهَا، وَيِنَالَ كُلَّ مَنْ حَوْلَهَا، حُبُّهُمْ وَتَقْدِيرُهُمْ نَفْسِيًّا وَعَاطِفِيًّا، وَمَادِيًّا، إِنْ اقْتَضَى الْأَمْرُ، وَدَعَتِ الْحَاجَةُ. عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ صَمَتَ الشَّيْخُ وَاکْتَفَى بِمَا قَالَ وَلْتَقِفَ الْجَارَةُ وَمَنْ مَعَهَا وَتَقُولُ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا يَا سَيِّدِي خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَطَلَبُكَ يَا سَيِّدِي مُطَاعٌ، فَقَدْ بَصَّرْتَنَا وَأَنْرْتَ الطَّرِيقَ أَمَامَنَا، وَمَا أَظُنُّ أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرَاتِ، لَا يَرْغَبُ فِي الْقِيَامِ بِمِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ النَّبِيلِ.

وَهُنَا قَالَتْ جَمَاعَةُ الْحَاضِرَاتِ وَعَلَى صَوْتٍ وَاحِدٍ، نَعَمْ يَسُرُّنَا وَيُسْعِدُنَا يَا شَيْخَنَا الْجَلِيلِ، أَنْ نَتَطَوَّعَ لِمِثْلِ هَذَا الْمَشْرُوعِ الْخَيْرِيِّ النَّبِيلِ، وَنَحْنُ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ الْكَثِيرَاتِ

سَيَنْضَمُونَ إِلَى صُفُوفِنَا فِي هَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ الرَّائِعَةِ، الَّتِي سَتُرْعَى جَمِيعَ الْأَطْفَالِ الضُّعَفَاءِ، وَأَسْرَهُمْ. نَعَمْ يَا سَيِّدِي بِالْمُؤَسَّسَاتِ تَدُومُ الْأَعْمَالُ، وَيَعْمُ النِّفْعُ. نَظَرَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْدَبَا، وَرَأَى عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةً مَآكِرَةً، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: مَاذَا يَدُورُ بِرَأْسِكَ، أَيُّهَا الْحَكِيمُ بَيْدِيَا، فَإِنِّي أَرَى عَلَى مُحْيَاكَ، لَمِحَةَ ابْتِسَامَةٍ مَآكِرَةٍ، فَمَاذَا عِنْدَكَ. اتَّسَعَتْ بِسْمَةِ الْحَكِيمِ بَيْدَبَا وَقَالَ: تَذَكَّرْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ قِصَّةَ زَوْاهَا لِي أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ عَنْ رَجُلٍ كَانَ فِي كِفَالَتِهِ بَعْضُ أَبْنَاءِ زَوْجَتِهِ، وَكَانَ يُصِرُّ عَلَى أَنْ يَضَعَ "صِهْنِيَّةً" أَوْانِي الطَّعَامِ عَلَى رَأْسِهِ، فِي صَبْرٍ، وَذَلِكَ كُلَّمَا أَرَادَ أَبْنَاءُ زَوْجَتِهِ تَنَاوُلَ الطَّعَامِ بِحَضْرَتِهِ، وَمِنَ الْعَجِيبِ يَا سَيِّدِي، أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ، كَانَ لَا يُجِيبُ عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ هَذَا الْإِكْرَامِ وَالْعِنَاءِ الْمُبَالِغِ فِيهِ، فِي إِطْعَامِ أَبْنَاءِ زَوْجَتِهِ، وَخِدْمَتِهِمْ، وَكَانَ يَكْتَفِي بِأَنْ يَخْفِضَ نَظْرَهُ وَبَصَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَا يُجِيبُ. فَسَارَتْ بِسِيرَةٍ كَرَمِهِ وَنُبْلِهِ الرُّكْبَانُ كَمَا يَقُولُونَ.

سَكَتَ بَيْدَبَا لِحُظَّةٍ نَاطِرًا إِلَى وُجُوهِ الْحَاضِرِينَ وَخَاصَّةً وُجُوهُ السَّيِّدَاتِ وَنَظَرَاتِ الْإِعْجَابِ وَالتَّقْدِيرِ فِي أَعْيُنِهِمْ مَصْحُوبَةً بِقَطْرَاتٍ مِنَ الدَّمْعِ عَلَى وَجَنَاتِهِمْ.

قَالَ بَيْدَبَا يُخَاطِبُ السَّيِّدَاتِ: إِنِّي أَرَى نَظَرَاتِ الإِعْجَابِ وَالتَّقْدِيرِ عَلَى قَسَمَاتِ
 وَجُوهِكُمْ، مِمَّا يُعْبِرُ عَنْ نُبْلِ مَشَاعِرِكُمْ، وَتَقْدِيرِكُمْ لِهَذَا الرَّجُلِ.
 أَجَابَتِ السَّيِّدَاتُ قَائِلَاتٍ: يَا حَكِيمَنَا الْعَزِيزَ، إِنَّ مَنْ يُطِيقُ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الصَّبْرِ
 وَالتَّوَاضُّعِ وَالإِكْرَامِ، لَا يَكُونُ إِلا كَرِيمًا، حَنُونًا، نَبِيلَ الشَّمَائِلِ.
 وَعِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتِّ بَيْدَبَا إِلَى الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ قَائِلًا: لَمْ أَسْمَعْ بَعْدُ رَأْيَكَ أَيُّهَا
 الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فِيمَا سَمِعْتَ مِنِّي، وَمَا سَمِعْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّيِّدَاتِ الْكَرِيمَاتِ.
 أَجَابَ الشَّيْخُ وَهُوَ يُرْسِلُ نَظْرَةَ تَفَكُّرٍ وَتَمَعْنٍ وَقَالَ: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ يَا بَيْدَبَا يُثِيرُ عِنْدِي،
 رَغْمَ مَا يَبْدُو فِي ظَاهِرِهِ مِنْ كَرَمِ الرَّجُلِ وَتَوَاضُّعِهِ، مِنَ الأَسْئَلَةِ، أَكْثَرِ مِمَّا يُمِدُّنِي
 بِالْأَجُوبَةِ، لِأَنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِهَذَا العِنَاءِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ وَرَائِهِ غِنَاءٌ، كَمَا لَا أَفْهَمُ مَعْنَى
 لِلْإِصْرَارِ عَلَى الصَّمْتِ وَإِرْخَاءِ الطَّرْفِ.

قَالَ بَيْدَبَا: نَعَمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، إِنَّ مَنْ يَرَى فِيمَا يَفْعَلُهُ زَوْجُ الأُمِّ، عَلَى أَنَّهُ كَرَمٌ
 وَتَوَاضُّعٌ فَلَهُ أَسْبَابُهُ الظَّاهِرَةُ، أَمَا مَنْ كَانَ بِخِبْرَةِ شَيْخٍ جَالِ الأَفَاقِ وَخَبَرَ الرَّجَالَ فَلَا
 غَرَابَةَ أَنْ لَا يَأْخُذَ بِظَاهِرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ.
 أَثَارَ قَوْلِ الفَيْلَسُوفِ دَهْشَةَ الحَاضِرِينَ، وَاشْرَأَبَتْ أَعْنَاقَهُمْ، وَسَارَعَتِ الحَاضِرَاتُ

قَائِلَاتٍ: مَاذَا تَعْنِي بِمَا تَقُولُ أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ، أَخْبِرْنَا بِمَا لَدَيْكَ مِنْ مَزِيدِ الْغَرَائِبِ؟
بَعْدَ أَنْ أَطَالَ بَيْدَبَا الصَّمْتَ رَغْبَةً فِي مَزِيدٍ مِنَ التَّشْوِيقِ قَالَ لَمَّا أَلَحَّ أَحَدُ أَصْدِقَاءِ زَوْجِ
الْأُمِّ، عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ لِمَا يَعْرِفُهُ ذَلِكَ الصَّدِيقُ مِنْ طِبَاعِهِ وَخِصَالِهِ الَّتِي لَا مَجَالَ لِذَلِكَ
النُّبْلِ فِيهَا: اضْطَرَّ الرَّجُلُ أَنْ يُسِرَّ إِلَى ذَلِكَ الصَّدِيقِ بِمَا كَانَ يُخْفِيهِ فِي نَفْسِهِ وَيَدْعُوهُ إِلَى
حَمْلِ الطَّعَامِ عَلَى رَأْسِهِ، حِينَ يَتَنَاوَلُ أَبْنَاءُ زَوْجَتِهِ الطَّعَامَ بِحَضْرَتِهِ.

وَهَذَا السِّرُّ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ، ثُمَّ سَكَتَ بَيْدَبَا مُجَدِّدًا، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَاضِرِينَ
مُبْتَسِمًا، دُونَ أَنْ يَنْبُسَ بِبَنْتِ شَفَةِ، وَلَمَّا طَالَ صَمْتُ بَيْدَبَا، صَرَخَ الْجَالِسُونَ وَالْجَالِسَاتُ
فِي وَجْهِهِ قَائِلِينَ: هَيَّا أَخْبِرْنَا أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ بِمَا لَدَيْكَ، وَإِلَّا فَإِنَّا لَنْ نَدَعَكَ تُغَادِرَ هَذَا
الْمَجْلِسَ حَتَّى تُخْبِرَنَا بِمَا أَسْرَبَهُ إِلَيْكَ صَدِيقُ ذَلِكَ الرَّجُلِ.
قَالَ بَيْدَبَا ضَاحِكًا: عَلَى هَوْنِكُمْ أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ سَأُخْبِرُكُمْ إِنْ وَعَدْتُمُونِي بِقِطْعَةٍ إِضَافِيَّةٍ
مِنَ الْفَالْوَدَجِ هَذَا الْمَسَاءِ.

سَارَعَتِ السَّيِّدَاتُ إِلَى وَعْدِهِ بِقِطْعَتَيْنِ بَدَلًا مِنْ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ.
عِنْدَهَا قَالَ بَيْدَبَا: السِّرُّ أَيُّهَا السَّادَةُ وَالسَّيِّدَاتُ الَّذِي بَاحَ بِهِ الرَّجُلُ إِلَى صَدِيقِهِ، هُوَ أَنَّهُ
مَا كَانَ يُطِيقُ أَنْ يَرَى أَبْنَاءَ زَوْجَتِهِ يَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ أَمَامَهُ، فَكَانَ لِذَلِكَ يَضَعُهُ عَلَى رَأْسِهِ
حَتَّى لَا يَرَاهُمْ وَهُمْ يَأْكُلُونَ.



بيدبا وقيم الدار يتذكرون أفضال الشيخ

أَخَذَتِ الدَّهْشَةَ نُفُوسَ السَّامِعِينَ، لِيَضِحَّ الْمَجْلِسُ بَعْدَ أَنْ أَفَاقُوا مِنْ غَرَابَةِ الْمُفَاجَأَةِ،
بِالضَّحِكِ وَتَقْبِيحِ وَجْهِ الرَّجُلِ لِبُخْلِهِ وَأَنَانِيَّتِهِ.

وَبَعْدَ أَنْ هَدَأَ الْمَجْلِسُ قَالَ الْجَارُ مُخَاطِبًا الشَّيْخَ ابْنَ بَطُوطَةَ: إِنَّهُ سَوْفَ يُكُونُ هُوَ أَيْضًا
جَمْعِيَّةً خَيْرِيَّةً لِتُبَصِّرَ الْأَزْوَاجَ مِنَ الرِّجَالِ مِمَّنْ يَعُولُونَ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الْمَحْرُومِينَ
مِنْ رِعَايَةِ آبَائِهِمْ، بِمَا بَصَّرَ بِهِ شَيْخُنَا الْجَلِيلُ أَخَوَاتِنَا السَّيِّدَاتِ.

شَكَرَ الشَّيْخُ لِلْجَمِيعِ مَشَاعِرَهُمْ، وَوَقَفَ إِيْذَانًا بِالْخُرُوجِ إِلَى مَجْلِسِ الْجَمَاعَةِ، لِيَتَنَاوَلَ
وَأَيَّاهُمْ، مَا تَيْسَّرَ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، يَخْلُدُ بَعْدَهُ إِلَى خَاصَّةِ دَارِهِ، طَلَبًا لِلرَّاحَةِ وَاسْتِعْدَادًا
لِيَوْمٍ وَلِقَاءٍ جَدِيدٍ، مِنَ التَّدَارُسِ وَالتَّحَاوُرِ مَعَ الشَّبَابِ، فِيمَا يَشْغَلُ بِهِمْ، وَيَحْتَاجُونَ فِيهِ
لِبَعْضِ مَا لَدَى الشَّيْخِ مِنْ عِلْمٍ، وَخِبْرَةٍ، وَتَجْرِبَةٍ.

وَيَتَذَكَّرُ بِيَدْبَا ذِكْرِيَاتِهِ بَعْدَ أَنْ مَضَتِ السُّنُونَ، وَتَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِالْقِيَمِ سَعِيدٍ قِيَمِ دَارِ
الشَّيْخِ حِينَ زَارَ الْجَزِيرَةَ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَقْبَلَ الْقِيَمِ وَهُوَ يَمْشِي بِبُطْءٍ، وَالْبَسْمَةَ تَمْلَأُ وَجْهَهُ
الْمُتَغَضِّبْنَ، وَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَصَدَّرُ الْمَجْلِسَ إِلَى جَانِبِ بَيْدْبَا، وَقَدْ كَانَ مَجْلِسَ عُرْسِ
صُغْرَى بَنَاتِ جَارِ دَارِ الشَّيْخِ ابْنَ بَطُوطَةَ حِينَ نَزَلَ الْجَزِيرَةَ، وَقَالَ يَتَحَدَّثُ إِلَى بَيْدْبَا قَائِلًا:
جَزَى اللَّهُ الشَّيْخَ ابْنَ بَطُوطَةَ خَيْرًا عَنِ هَذِهِ الْفَتَاةِ الَّتِي نَحْتَفِلُ الْيَوْمَ بِزَوَاجِهَا هِيَ وَأَخَوَاتِهَا

وَإِخْوَانِهَا، فَمُنْذُ الْيَوْمِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ إِلَى أَهْلِ دَارِ جِوَارِ الشَّيْخِ، لَمْ أَسْمَعْ عَلَى مَرِّ كُلِّ هَذِهِ السِّنِينَ، إِلَّا أَضْحُوكَاتِ السُّرُورِ وَالسَّعَادَةِ فِي دَارِهِمْ، وَكَمْ كَانَ سَارًا وَمُفْرِحًا، وَأَنَا أَرَى هَذِهِ الْعَرُوسَ، وَهِيَ تَحْضُنُ زَوْجَةَ أَبِيهَا الَّتِي هِيَ "أُمُّ" الرِّبَايَةِ وَالْبَدَلِ، كَمَا تَحْضُنُ أُمَّهَا، أُمَّ الْحَمْلِ وَالنَّسَبِ، وَتُقَبِّلُ رُؤُوسَ كِلْتَيْهِمَا، وَمَا بَيْنَ حَاجِبَيْهِمَا، وَمَا أَسْعَدَ الْعَرُوسَيْنِ وَالْإِخْوَةَ وَالْأَخَوَاتِ جَمِيعَهُمْ وَهُمْ يَحْفُونَ بِهِمْ يَمَنَةً وَيَسْرَةً.

إِنِّي كُلَّمَا رَأَيْتُ الْبَسْمَةَ وَالْهِنَاءَ، عَلَى وَجْهِ الصِّغَارِ، مِنَ الْأَيْتَامِ وَالضُّعْفَاءِ وَالْمَحْرُومِينَ، الَّذِينَ أَخَذَتِ الْجَمْعِيَّاتُ الَّتِي اقْتَرَحَ فِكْرَتَهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ، هَفَا قَلْبِي إِلَى الشَّيْخِ، وَهَزَّتُهُ ذِكْرِي صُحْبَتِهِ، وَلَهَجَ قَلْبِي وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِي لَهُ بِالْدُّعَاءِ بِعَظِيمِ الْمَثُوبَةِ وَالْأَجْرِ.

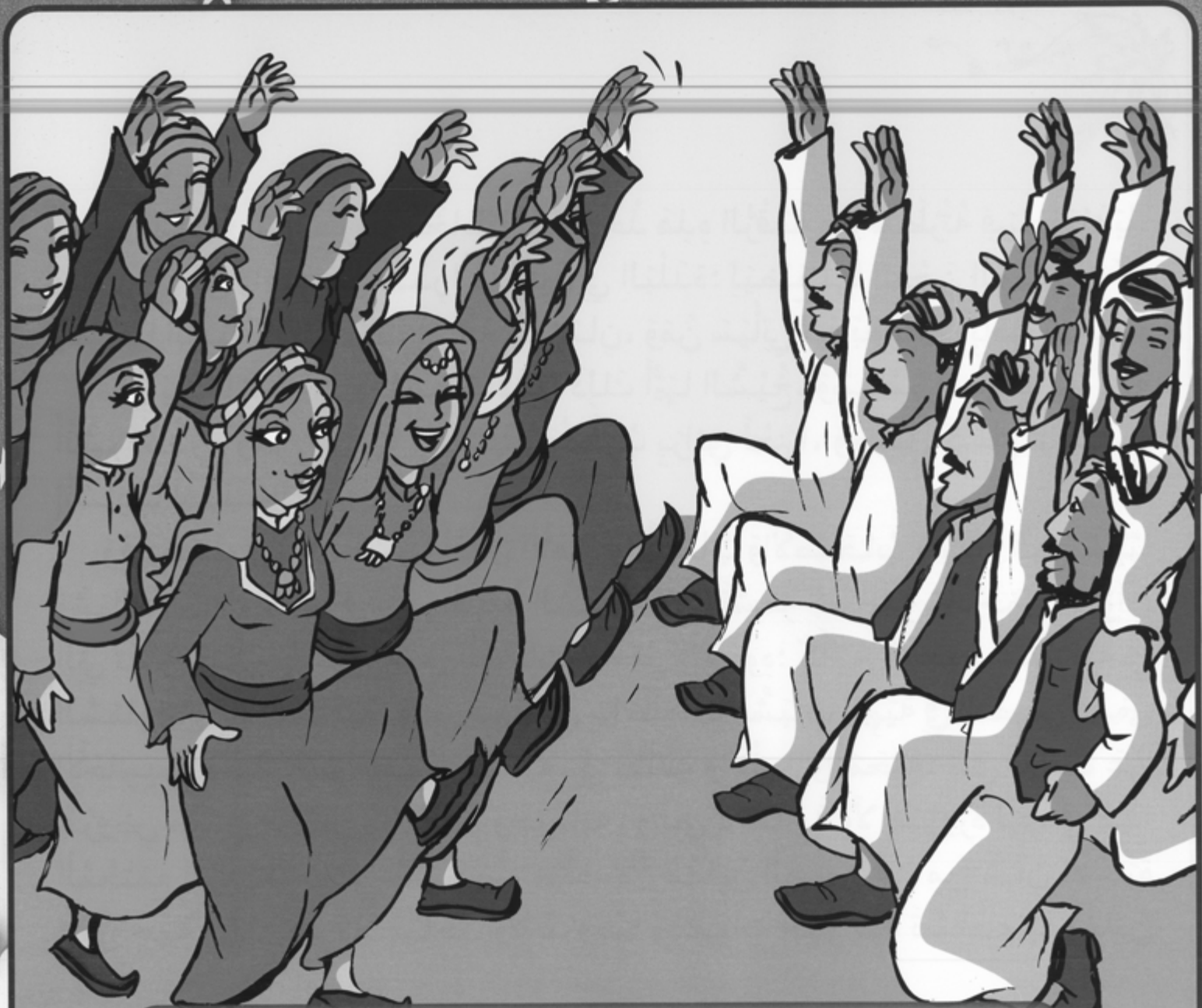
الشَّيْخُ شَاعِرًا

قَالَ بَيْدَبَا وَهُوَ يَتَوَجَّهُ إِلَى زِيَارَةِ الشَّيْخِ فِي دَارِهِ فِي صُحْبَةِ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ: لَقَدْ سُرِرْتُ بِمَا أَبْدَاهُ الشَّبَابُ مِنْ إِعْجَابٍ، بِقِصَّةِ السَّيِّدِ الْمَكِّيِّ، وَمَا فِيهَا مِنْ حِكْمٍ وَفَهْمٍ لِأَسْسِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَدَعَائِمِ اسْتِقْرَارِ أَفْرَادِهَا، وَأَمْنِهِمْ، وَتَعَاوُنِهِمْ، وَتَكَامُلِ أَدْوَارِهِمْ، بِمَا يُحَقِّقُ فِطْرَتَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ، وَبِمَا أَيَّدُوهُ مِنْ تَقْدِيرِ نَصِيحَةِ الشَّيْخِ عَنْ أَهَمِّيَّةِ التَّعْبِيرِ عَنْ مَشَاعِرِ الْحُبِّ لِإِمْتِنَاعِ الْحَيَاةِ، وَدَوَامِ بَهْجَتِهَا، وَتَقْوِيَةِ أَوَاصِرِ عِلَاقَاتِهَا، وَكَذَلِكَ نَصَائِحُهُ لِزَوْجَاتِ الْأَبَاءِ، بِمَا يُسْعِدُهُنَّ، وَيُسْعِدُ أَبْنَاءَهُنَّ، وَأَبْنَاءَ أَزْوَاجِهِنَّ.

يَقُولُ بَيْدَبَا حِينَ جَمَعْنَا إِلَى مَجْلِسِ الشَّيْخِ وَأَخَذْنَا نَتَّبَادَلُ الْحَدِيثَ وَنَتَنَاوَلُ مَا تَيْسَّرَ مِنَ الْحَلْوَى وَالْمَشْرُوبَاتِ، التَّفَتَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ إِلَى وَدَسَّ فِي يَدِي وَرَقَةً فِيهَا أَهْزُوجَةٌ غِنَائِيَّةٌ بِمُنَاسَبَةِ الْعُرْسِ الَّذِي قَرَّبَ مَوْعِدُهُ، وَالَّتِي كَانَ الشَّيْخُ قَدْ أَمْضَى لَيْلَتَهُ فِي تَسْطِيرِهَا، لِكَيْ يَزُفَ عَلَى كَلِمَاتِهَا الْعُرْسَانَ؛ تَعْبِيرًا مِنْهُ عَنِ الْفَرَحَةِ وَالسُّرُورِ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ السَّعِيدَةِ، وَلِيَهْدِيَ بِهَا أَطْيَبَ التَّمَنِّيَاتِ لِلْعُرْسَانَ، وَيَرْجُو لَهُمْ فِيهَا كُلَّ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالرِّفَاهِ.

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُّوطةَ مُخَاطِبًا بَيْدَبَا: خُذْ هَذِهِ الرُّقْعَةَ وَمَا سَطَّرْتُهُ فِيهَا يَا بَيْدَبَا،
وَادْفَعْ بِهَا إِلَى وَاحِدٍ مِنْ أَقْدَرِ الْمُلْحِنِينَ فِي الْبَلَدَةِ؛ لِيَضَعَ لَهَا اللَّحْنَ الْمُنَاسِبَ كَيْ
يُنْشِدَهَا الشَّبَابُ وَالشَّابَّاتُ فِي زَفَةِ الْعُرْسَانِ، وَمَنْ سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ، بِإِذْنِ اللَّهِ.
قَالَ بَيْدَبَا تَبَسَّمْتُ وَقُلْتُ: سَأَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْهَا الشَّيْخُ، وَسَتَسْمَعُ مِنْهَا بِإِذْنِ اللَّهِ
أَنْشُودَةَ فَرَحٍ وَمَرِحٍ تَهْزُبُهَا عِمَامَتُكَ، وَتُطْرِبُ بِرَائِقِ لَحْنِهَا، وَجَمِيلِ كَلِمَاتِهَا، وَعَذْبِ
إِنْشَادِهَا أُذُنِيكَ.

وَفِي مَسَاءِ (يَوْمِ الْعُرْسِ) أَقْبَلَ الْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ وَالْأَصْحَابُ وَأَبْنَاءُ الْحَيِّ شَيْبَا
وَشَبَابًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، فِي أَزْهَى حُلِيِّهِمُ الشَّعْبِيَّةِ الْمُحْتَشِمَةِ السَّابِغَةِ، وَبِأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ
الَّتِي تَتَأَلَّقُ وَتَتَأَرْجَحُ عَلَى أَرْشِقِ الْقَامَاتِ وَأَجْمَلِ الْوُجُوهِ؛ كَأَنَّهُمْ النُّجُومُ الْمُتَلَالِنَةُ فِي
السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الصَّافِيَةِ، وَالَّتِي تَسْتَدْعِي بِهَا طَلَعَاتُ الشَّبَابِ الْبَهِيَّةِ فِي النُّفُوسِ أَسْمَى
الْأَحَاسِيْسِ وَأَنْبَلِ الْعَوَاطِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فِي الْأُلْفَةِ وَالْأُنْسِ وَالْمَحَبَّةِ؛ الَّتِي تَنْزَهَتْ عَنْ
عُرُوضِ مَفَاتِنِ الْجِنْسِ وَالْجَسَدِ وَحُرْمَاتِهِ، وَالَّتِي لَا حَاجَةَ وَلَا ضَرُورَةَ لَهَا، فِي هَذَا
الْمُجْتَمَعِ الرَّاقِي الْأَخْلَاقِيِّ الْمُتَحَضَّرِ حَقًّا، لِأَنَّ مَفَاتِنَ الْجِنْسِ هِيَ مِنْ شَأْنِ الْأُسْرَةِ
وَالزَّوْجِيَّةِ، وَلَيْسَتْ كَلَامًا مُبَاحًا، وَلَا عُرُوضًا وَدَعَاوَاتٍ حَيَوَانِيَّةً تَسْتَدْعِيهَا مَفَاتِنُ



الْفَتِيَانِ وَالْفَتَيَاتِ لِأَدَاءِ رَقَصَاتِهِمُ الشَّعْبِيَّةِ

الْجَسَدِ الْعَارِي بِقَصْدٍ أَوْ بغيرِ قَصْدٍ، لَتَسْتَثِيرَ لَوَاعِجَ وَخَيَالَاتٍ كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، وَتُثِيرَ تَطَلُّعَاتِهِ، وَتَتَسَّعَ بِهَا - مِنْ دُونِ حَاجَةٍ أَوْ ضَرُورَةٍ - خُرُوقُ الْإِنْجِرَافَاتِ، وَانْفِلَاتِ النَّوَازِعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَتَوَجَّجَهَا.

وَلِذَلِكَ يَقُولُ بَيْدَبَا فَإِنَّ أَحَدًا فِي مِثْلِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ الْمُحْتَشِمِ الرَّاقِي، لَا يَرَى مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ - فِي مَلَابِسِهِنَّ السَّابِغَةِ الْمُحْتَشِمَةِ الْجَمِيلَةِ - إِلَّا وُجُوهُنَّ الْوَضَاءَةَ وَأَيْدِيَهُنَّ؛ لِأَنَّ يَدَ الْإِنْسَانِ أَدَاةَ عَمَلِهِ وَتَصَرُّفِهِ، وَلِأَنَّ وَجْهَ الْإِنْسَانِ هُوَ شَخْصِيَّتُهُ وَإِرَادَتُهُ وَحَقُّهُ الْمُقَدَّسُ؛ وَالَّذِي لَا يَصِحُّ طَمَسُهُ وَحَجْبُهُ وَالْعُدْوَانُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحْبَسَ وَيُسْجَنَ فَهُوَ الْأَخْرَقُ الْمُعْتَدِي وَلَيْسَ الْمُحْتَشِمَةُ الْمُهْدَبَةُ الْمُعْتَدَى عَلَيْهَا، وَالْإِنْسَانُ السَّوِيُّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُسِيءَ إِلَى الْمُحْتَشِمَةِ، وَمَرِيضُ النَّفْسِ وَالَّذِي لَا يَرُدُّعُهُ حِجَابٌ وَوَلِبَاسٌ سَابِغٌ فَلَيْسَ لِمِثْلِهِ إِلَّا إِعَادَةُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبُ وَالْعِقَابُ إِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْهُ.

بِهَذِهِ الْحُلَلِ الْجَمِيلَةِ، وَالْخُطُوبَاتِ الْفَرِحَةِ الرَّشِيقَةِ، انْتَشَرَتْ جُمُوعُ الشَّبَابِ فِي فَرَحٍ وَمَرَحٍ؛ اسْتَعْدَادًا لِلْإِنْشَادِ وَالْغِنَاءِ بِأَجْمَلِ الْأَغَانِي وَأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ، وَمَلَأُوا السَّاحَةَ الْوَاسِعَةَ الْمُمتَدَّةَ أَمَامَ الدَّارِ، وَاصْطَفَوْا فِي السَّاحَةِ صُفُوفًا مُتَقَابِلَةً مِنْ

الْفَتِيَانِ وَالْفَتِيَاتِ لِأَدَاءِ رَقَصَاتِهِمُ الشَّعْبِيَّةِ فِيمَا يُشْبِهُ مَا يَعْرِفُهُ بَعْضُ أَهْلِ بِلَادِ
الْجَنُوبِ، بِرُقْصَةِ "الدَّبْكَةِ" الَّتِي تَتَمَيَّزُ بِحَسَنِ الْأَنْفَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَمَعَانِي الْإِبَاءِ
وَالشَّجَاعَةِ، بِكُلِّ الْمَرْحِ وَالْخِفَّةِ وَالرَّشَاقَةِ.

وَكَمْ كَانَ مَنْظَرًا شَبَابِيًّا رَائِعًا حِينَ أَخَذَ الشَّبَابُ فِي "الدَّبِكِ" وَالرَّقْصِ الشَّعْبِيِّ؛
حَيْثُ تَقْتَرِبُ صُفُوفُهُمْ وَتَبْتَعِدُ عَلَى وَقْعِ الْأَلْحَانِ، ثُمَّ تَلْتَفُّ فِي حَرَكَةٍ رَشِيقَةٍ دَائِبَةٍ عَلَى
شَكْلِ دَوَائِرٍ مِنَ الْفَتِيَانِ، وَدَوَائِرٍ مِنَ الْفَتِيَاتِ، مُتَقَابِلَةً مُتتَالِيَةً، لَتَنْفَرِجَ مِنْ جَدِيدٍ فِي
صُفُوفٍ مُتَقَابِلَةٍ، وَلَتَعُودَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى صُفُوفٍ مِنَ الْفَتِيَانِ وَصُفُوفٍ مِنَ الْفَتِيَاتِ،
مُتَوَازِيَةً مُتتَالِيَةً مُتَبَاعِدَةً؛ لِتُوفَرَ فُسْحَةٌ كَافِيَةٌ لِحُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ الْإِيقَاعِيَّةِ الشَّبَابِيَّةِ
الْمُتَالِقَةِ الرَّشِيقَةِ، وَلَتَنْفَرِطَ الدَّوَائِرُ كُلُّهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي دَائِرَةٍ كَبِيرَةٍ، فِي جَانِبٍ مِنْهَا
الْفَتِيَانُ، وَفِي الْجَانِبِ الْأَخْرَمِنْهَا الْفَتِيَاتُ؛ لَتَنْفَرِطَ مِنْ جَدِيدٍ فِي صَفِّينِ مُتَقَابِلَيْنِ،
تَقْتَرِبُ وَتَتَبَاعَدُ عَلَى أَنْغَامِ الْمَوْسِيقَا وَوَقْعِ الطُّبُولِ، صَفٌّ مِنَ الشَّبَابِ، وَصَفٌّ مِنَ
الشَّبَابَاتِ، وَهَكَذَا دَوَالِيكَ فِي غِنَاءٍ وَطَرْبٍ وَفَرْحٍ وَمَرْحٍ وَنَشْوَةٍ إِيقَاعِيَّةِ شَبَابِيَّةِ بَرِيئَةٍ
رَشِيقَةٍ، وَلِيَمْتَدَّ إِلَى ذَلِكَ مَنْتَصِفِ اللَّيْلِ حِينَ أَقْبَلَ أَرْبَابُ الدُّفُوفِ يَتَقَدَّمُونَ
الْعُرْسَانَ الَّذِينَ بَدَوْا عَلَى أْتَمِّ مَا يَكُونُونَ مِنَ التَّالِقِ وَالْجَمَالِ، كَالْأَقْمَارِ فِي لَيْلَةِ التَّمَامِ
بِهَاءٍ وَجَمَالًا وَحَيَاءً، وَالْفَرْحَةَ الْغَامِرَةَ تَشْعُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَتَفِيضُ بِهَا وَجَنَاتِهِمْ.

وَمَعَ حُضُورِ الْعِرْسَانِ، تَوَقَّفَ الشَّبَابُ وَالشَّابَّاتُ، عَنِ "الدَّبْكِ" وَاصْطَفُوا فِي
صَفَّيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ، وَأَخَذُوا يُنْشِدُونَ فِي اسْتِقبالِ الْعِرْسَانِ الْأَنْشُودَةَ التَّرَائِيهَةَ الَّتِي رَوَتْهَا
لَهُمْ كُتُبُ التَّارِيخِ وَالرَّحَالَةُ أَمْثَالُ الشَّيْخِ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي التَّرْحِيبِ بِمَقْدَمِ النَّبِيِّ
الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ؛ حِينَ قَدِمَ إِلَى حَاضِرَةِ الْمَدِينَةِ
الْمُنَوَّرَةِ لِيَنْبَلِجَ فَجْرُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَتَسْطَعُ شَمْسُهُ فِي سَمَاءِ الْبَشَرِيَّةِ، لِيُنِيرَ بِلَادَ
الْجَنُوبِ وَبِقَاعِ الشَّمَالِ وَذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّغْيِيرِ عَنْ حُبِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، وَالتَّيْمُنِ بِذِكْرِهِ فِي تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ السَّعِيدَةِ، فَانشِدُوا قَائِلِينَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا
مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا
جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ



وَمَا إِنِ اسْتَقَرَّ الْمَقَامُ بِالْعَرْسَانِ عَلَى أَرَائِكِهِمْ تَقَدَّمَ أَصْحَابُ الدُّفُوفِ

وَمَا إِنْ اسْتَقَرَّ الْمَقَامُ بِالْعِرْسَانِ عَلَى أَرَائِكِهِمْ تَقَدَّمَ أَصْحَابُ الدُّفُوفِ، وَتَقَدَّمَ
الْمُنْشِدُونَ، وَوَقَفُوا وَسَطَ الصُّفُوفِ أَمَامَ مَجْلِسِ الْعِرْسَانِ، وَأَخَذُوا فِي التَّرْنِيمِ
وَالهَزْجِ، فِي خُطُواتِ فَرِحَةٍ رَاقِصَةٍ بِالْأَنْشُودَةِ الْأُخْرَى الَّتِي نَظَمَهَا لِهَذَا الْعُرْسِ الشَّيْخُ
ابْنُ بَطُوطَةَ الَّذِي جَلَسَ فِي مُقَدِّمَةِ الصُّفُوفِ هُوَ وَبَيْدَبَا وَقِيَمُ دَارِ الشَّيْخِ، يُحِيطُ بِهِمْ
خَاصَّةً أَهْلَ الْعِرْسَانِ:

تَقُولُ أَنْشُودَةُ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ تَعْبِيرًا عَنِ فَرِحَتِهِ وَفَرِحَةِ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ بِالْمُنَاسَبَةِ
السَّعِيدَةِ.

يَا أَهْلَ هَذَا الْحَيِّ
يَا أَهْلَ هَذِي الدَّارِ
صَلُّوا عَلَى الْمُخْتَارِ
وَصَحْبِهِ الْأَخْيَارِ
صَلُّوا

يَا أَهْلَ حَارَتِنَا
يَا أَهْلَ بَلَدَتِنَا
اللَّيْلَةُ لَيْلَتُنَا
اللَّيْلَةُ فَرَحَتُنَا
بِأَجْمَلِ الْعِرْسَانِ
وَأَنْبَلِ الْعِرْسَانِ
فِي كُلِّ بَلَدَتِنَا

يَا أَهْلَ هَذَا الْحَيِّ
يَا أَهْلَ هَذِي الدَّارِ
يَا أَهْلَ حَارَتِنَا
يَا أَهْلَ دِيرَتِنَا
غَنُّوا لَهُمْ غَنُّوا
بِأَجْمَلِ الْأَلْحَانِ

وَأَجْمَلِ الْأَشْعَارِ
غَنُّوا لَهُمْ غَنُّوا
وَأَطْرِبُوا السُّمَّارَ

يَا كُلَّ أَحْبَابِنَا
يَا كُلَّ أَصْحَابِنَا
دُقُّوا طُبُولَ الْفَرْحِ
فِي فَرْحَةِ الْأَحْبَابِ

يَا أَهْلَنَا

قُلُوبَنَا

نَشْوَةَ وَفَرْحِ

فِي لَيْلِ فَرْحَتِنَا

بِزِينَةِ الْعَرَسَانِ

فِي كُلِّ بَلَدَتِنَا

فِي كُلِّ دِيرَتِنَا

يَا نَسَمَةَ النَّوَارِ
وَعُنُودَةَ الْأَطْيَارِ
فِي لَيْلَةِ الْأَفْرَاحِ
هَنُّوا حَبَائِبِنَا
وَعَنُّوا لِحَبَائِبِنَا
وَجُمِّعَةَ حَبَائِبِنَا

يَا أَهْلَ بَلَدَتِنَا
وَكُلَّ أَحْبَابِنَا
بِالْحُبِّ وَالْأَشْعَارِ
وَالْوَرْدِ وَالْأَزْهَارِ
حَيُّوا حَبَائِبِنَا
وَهَنُّوا حَبَائِبِنَا

يَا أَهْلَ حَارْتِنَا
وَأَهْلَ بَلَدَتِنَا
وَأَهْلَ دِيرَتِنَا
شُوفُوا حَبَائِبَنَا
نَالُوا الْمُنَى نَالُوا
نَالُوا الْهِنَا نَالُوا
وَفَرَّحُوا الْأَحْبَابُ
هَنُّوا حَبَائِبَنَا
وَعَنَّوا لِحَبَائِبِنَا

دُقُّوا طُبُولَ الْفَرْحِ
غَنُّوا أَغَانِي الْفَرْحِ
فِي فَرْحَةِ الْأَحْبَابِ
فِي لَيْلِ فَرْحَتِنَا
غَنُّوا لِحَبَائِبِنَا
وَهَنُّوا حَبَائِبِنَا

يَا رَبِّ تَحْمِيهِمْ
يَا رَبِّ تُسْعِدُهُمْ
تُسْعِدُ لِيَالِيَهُمْ
مَا حَطَّ طَيْرٌ وَطَارَ
وَوَطَّلَعَتِ الْأَزْهَارُ
وَوَغَنَّتِ الْأَطْيَارُ
وَوَطَّلَ نُورُ الضُّحَى
وَوَهَلَّتِ الْأَقْمَارُ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَسَمَاءٍ
فِي كُلِّ لَيْلٍ وَنَهَارٍ
غَنُّوا لِحَبَائِبِنَا
وَهَنُّوا حَبَائِبِنَا
وَادْعُوا لِحَبَائِبِنَا

يَا أَهْلَ كُلِّ الْحَيِّ
وَكُلِّ أَحْبَابِنَا
صَلُّوا عَلَي الْمُخْتَارِ
وَالِهِ الْأَطْهَارِ
وَصَحْبِهِ الْأَخْيَارِ
صَلُّوا عَلَيْهِ صَلُّوا
صَلُّوا عَلَي الْمُخْتَارِ
مَا ذَرَّقَرْنُ الشَّمْسِ
وَطَلَّ نُورُ الْفَجْرِ
يُفْتَحُ الْأَزْهَارَ
وَيُزْهِرُ النَّوَارَ
صَلُّوا عَلَي الْمُخْتَارِ
يَا أَهْلَ بَلَدَتِنَا
وَأَهْلَ حَارَتِنَا
وَأَهْلَ دِيرَتِنَا

صَلُّوا عَلَيْهِ صَلُّوا
صَلُّوا

عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْجَمِيعُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ:
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ

وَمَعَ انْتِهَاءِ الْأَنْشُودَةِ قَامَ الْعَرِسَانُ يَتَّبِعُهُمُ الشَّيْخُ ابْنُ بَطُوطَةَ وَبَيْدَبَا، وَالْأَهْلُ
وَالْمَدْعُوعُونَ كَافَّةً إِلَى مَوَائِدِ الطَّعَامِ الشَّهِيِّ الَّذِي أَبَدَعَ بَيْدَبَا فِي حُسْنِ اخْتِيَارِهِ؛ لِتَكُونَ
حَقًّا لَيْلَةً فَرِحَ وَمَرِحَ لِالأَحْبَابِ وَالْأَصْحَابِ كَافَّةً.

وَرَغِمَ وَفَرَّةِ الطَّعَامِ الشَّهِيِّ، فَإِنَّ حَظَّ الشَّيْخِ الْعَاثِرِ قَدْ أَجْلَسَ قَيْمَ دَارِهِ إِلَى جَانِبِهِ،
وَقَدْ انْتَهَزَ الْقَيْمُ سَعِيدُ الْفُرْصَةِ لِيَتَحَدَّثَ إِلَى الشَّيْخِ، فِي أَمْرِ شَغَلَ بِأَلْهِ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ
مَشَاغِلِ الشَّيْخِ فِي مَجَالِسِ عِلْمِهِ، وَاسْتِقْبَالِ زَائِرِيهِ وَمُحِبِّيهِ، مِنْ جَانِبٍ، وَلِكَثْرَةِ
مَشَاغِلِ قَيْمِ الدَّارِ، فِي خِدْمَةِ ضَيْوْفِ الشَّيْخِ، وَفِي تَدْبِيرِ أُمُورِ الدَّارِ، وَالَّتِي تَمْتَدُّ عَادَةً،
إِلَى وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ، مِمَّا لَمْ يُتَخَ لِلْقَيْمِ فُرْصَةً مُنَاسِبَةً، لِلْحَدِيثِ إِلَى الشَّيْخِ،

فَظَلَّ يَتَرَدَّدُ بُرْهَةً فِي طَرِحِ الْأَمْرِ عَلَى الشَّيْخِ، وَطَلَبَ نُصْحَهُ، وَالْإِفَادَةَ مِنْ عِلْمِهِ، وَخَبْرَتِهِ بِشُئُونِ النَّاسِ وَالْحَيَاةِ.

انْتَهَزَ الْقِيَمُ الْفُرْصَةَ، وَمَالَ إِلَى الشَّيْخِ الْجَالِسِ إِلَى يَمِينِهِ هَامِسًا وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ، أَنْتَ تَعْلَمُ مَدَى انْشِغَالِكَ بِطُلَّابِكَ وَزُورَارِكَ، وَمَدَى انْشِغَالِي بِتَدْبِيرِ ضِيَافَتِهِمْ وَتَدْبِيرِ شُئُونِ الدَّارِ، وَأَنَا يَا سَيِّدِي مَسْرُورٌ بِخِدْمَتِكَ وَخِدْمَةِ زُورَارِكَ الْكِرَامِ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ أَمْرًا يَشْغُلُ بَالِي، وَأَوَدُّ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ فِيهِ النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ، وَقَدْ سَنَحْتُ لِي الْيَوْمَ الْفُرْصَةَ لِلْجُلُوسِ إِلَى جَانِبِكَ، وَالنَّاسُ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ بِالطَّعَامِ، وَالِاحْتِفَاءِ بِالْعَرِسَانِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِمَبَاهِجِ الْفَرَحِ، وَالتَّعَارُفِ بَيْنَهُمْ، وَالْحَدِيثِ إِلَى بَعْضِهِمْ الْبَعْضِ، حَتَّى الْأُمَمَاتُ يَجِدْنَ فِي هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ فُرْصَةً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الْفَتَيَاتِ لِتَخْتَارَ كُلُّ أُمَّ مَنْ تَظُنُّهَا صَالِحَةً لِابْنِهَا، وَتُتَاحَ لِلْفَتِيَةِ وَالْفَتَيَاتِ فُرْصَةٌ أُسْرِيَّةٌ لِلْحَدِيثِ وَالتَّعَارُفِ مِمَّا يُعِينُ عِنْدَ الزَّوْاجِ عَلَى تَوْافُقِ أَكْبَرِ لَهُؤُلَاءِ الشَّبَابِ وَتَكْوِينِ أُسْرِ سَعِيدَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَاصَلَ الْقِيَمُ حَدِيثَهُ الْهَامِسَ إِلَى الشَّيْخِ قَائِلًا: وَلَمَّا أَعْرِفُهُ أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ فِيكَ مِنْ كَرَمٍ وَسَمَاحَةٍ وَتَضْحِيَةٍ، فَإِنِّي أَمَلُ أَنْ أَنْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ وَأَفْضِي إِلَيْكَ بِمَا يُهْمُنِي وَيُقْلِقُ خَاطِرِي.

قَالَ الشَّيْخُ: لَا تَأْبَهُ يَا أَخِي الْكَرِيمِ بِأَمْرِ الطَّعَامِ وَأَنْشَغَالِنَا عَنْهُ، بِالْحَدِيثِ وَالتَّفَكُّرِ
فِيمَا يُهْمُكَ وَيُقْلِقُ بِأَلِكِ، وَالْأَمْرُ الْأَهْمُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ لَدَيَّ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- مَا يُيسِّرُ الْأَمْرَ
عَلَيْكَ وَيُزِيلُ عَنْكَ الْهَمَّ وَالْقَلْقَ، فَأَنْتَ صَاحِبُ فَضْلٍ بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ إِخْلَاصِكَ وَتَفَانِيكَ
فِي عَمَلِكَ، وَهِيَ صِفَةٌ كَرِيمَةٌ يَسْتَحِقُّ مَنْ يَتَحَلَّى بِهَا أَعْظَمَ الْإِكْرَامِ، فَلَا تَتَرَدَّدْ وَهَاتِ مَا
عِنْدَكَ.

قَالَ الْقِيَمِيُّ: إِنَّ مَا رَأَيْتُهُ وَسَمِعْتُهُ مِنْكَ، بِشَأْنِ أُسْرَةِ جَارِنَا، وَكَيْفَ كَانَ عِلْمُكَ
وَحِكْمَتُكَ، سَبَبًا فِي وَضْعِ حَدِّ لِحْظِهِمْ وَمُعَانَاتِهِمْ وَمُعَانَاتِ أَبْنَائِهِمْ، وَكَيْفَ أَمْكَنَ أَنْ
تَجْعَلَ سَيِّدَاتِ بَلَدِنَا، يَبْدَعُونَ مَشْرُوعًا، لَا يَقِفُ أَثَرُهُ عِنْدَ أُسْرَةِ جَارِنَا، وَلَكِنْ لِيَمْتَدَّ
لِيَشْمَلَ حَالَ الْأَطْفَالِ الْبُؤْسَاءِ بَيْنَنَا وَيُحِيلُ شَقَاءَهُمْ سَعَادَةً وَهَنَاءً.

وَوَاصَلَ الْقِيَمِيُّ حَدِيثَهُ قَائِلًا: لَيْسَ هَذَا فَقَطُ يَا سَيِّدِي فَأَنْتَ أَيْضًا هُوَ الَّذِي أَسْعَدَ
هَذِهِ الْقُلُوبَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَأَقَامَ سُنَّةَ فَرَحِ عُرْسِ جَمَاعِي فِي بَلَدِنَا، سَيَكُونُ بِإِذْنِ
اللَّهِ، مِثَالًا فِي التَّعَاوُنِ وَالتَّكَاتُفِ وَتَيْسِيرِ أَمْرِ الزَّوْاجِ الَّذِي يُثْقِلُ كَاهِلَ كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَابِ
وَأَسْرِهِمْ وَيَكُونُ سَبَبًا فِي تَأْخِيرِ الزَّوْاجِ وَمُعَانَاتِهِمْ.

كُلُّ هَذَا يَا سَيِّدِي هُوَ السَّبَبُ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ، لِعَرْضِ الْأَمْرِ عَلَيْكَ، وَالْحِرْصِ عَلَيَّ
سَمَاعَ رَأْيِكَ وَنُصْحِكَ بِشَأْنِ مَا أَعَانِي مِنْهُ.

قَالَ الشَّيْخُ: لَا تُضِعِ الْوَقْتَ أَهْمًا الْأَخَ الْكَرِيمُ وَهَاتِ مَا عِنْدَكَ وَكُلِّي آذَانَ صَاغِيَةً.
قَالَ الْقَيِّمُ: أَنْتَ قَدْ لَا تَعْلَمُ يَا سَيِّدِي أَنَّ لِي إِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ، وَأَنَا أَسْعَى لِمُسَاعَدَتِهِمْ
وَتَوْفِيرِكُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَكُلُّ هَمِّي هُوَ أَنْ أَوْفِرَ لَهُمْ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْهِنَاءِ،
فَهُمْ جَمِيعًا وَدِيعةُ أُمِّي وَأَبِي وَالَّتِي لَا هَمَّ لِي الْيَوْمَ فِي الْحَيَاةِ سِوَاهَا.

وَأَنْتَ تَعْلَمُ يَا سَيِّدِي أَنَّ عَلَيَّ أَنْ أُعِدَّ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةَ وَالْأَخَوَاتِ لِلْحَيَاةِ بِالتَّعْلِيمِ الَّذِي
يُفِيدُهُمْ وَيُوَهِّلُهُمْ لِلْحَيَاةِ، وَالَّذِي يُمَكِّنُ فِي نُفُوسِهِمْ حَسَّ الْكِرَامَةِ وَالثِّقَةِ بِالنَّفْسِ،
وَالْقُدْرَةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ وَغَوَائِلِ الدَّهْرِ. وَعِلَاوَةً عَلَيَّ ذَلِكَ عَلَيَّ أَنْ أَسْعَى
إِلَى تَزْوِيجِ الْأَخَوَاتِ إِلَى أَزْوَاجٍ مِنْ خَيْرَةِ الشَّبَابِ لِتُقِيمَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَسْرَتَهَا
السَّعِيدَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَالسُّؤَالُ يَا سَيِّدِي الْفَاضِلَ، مَتَى وَفِي أَيِّ سِنٍّ يَحْسُنُ الْإِهْتِمَامُ وَالْإِجْتِهَادُ فِي أَمْرِ
زَوَاجِهِنَّ، وَفِي أَيِّ مُسْتَوَى مِنْ مُسْتَوِيَاتِ التَّعْلِيمِ وَالْإِعْدَادِ وَالتَّدْرِيبِ أَكْتَفِي بِهِ فِي
إِعْدَادِهِنَّ مِنْ قَبْلِ الزَّوْاجِ، لِتَبْدَأَ بِقُدْرَةٍ وَكِفَاءَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ حِمْلَ حَيَاتِهَا

الأسريّة بكلّ أعبائها ومسئولياتها؟ وكما ذكرتُ لك يا سيّدي، فإنّ أبي وأمّي لم يعودا معنا، ولو كانوا معنا فلعلّهم بسنّهم وخبرتهم كفّوني مئونة مثل هذه القرارات، فهل لك يا سيّدي بما لك من علمٍ وخبرةٍ وحكمةٍ، أن تُرشدني وتشير عليّ.

قال الشيخُ يُخاطبُ القَيِّمَ: بارك اللهُ فيك يا أخي، ما أئمن معدنك، وجزّاك اللهُ عن والديك وإخوانك وأخواتك كلّ خيرٍ. وسؤالك يدلُّ يا بُنيّ على ذكائك وحُسنِ تصرّفك وتسدّدِ قراراتك والتخيطِ الجيّدِ لما يلقي على عاتقك من المهام. صمّت الشيخُ بعد ذلك برهةً، ثمّ تابع حديثه إلى قَيِّم الدار قائلاً: نعم يا بُنيّ، فإنّ لديّ ما أقوله لك ولكلِّ والدٍ ووالدةٍ في هذا الشان.

إنّ المهمّ في الأمر أن تعلم يا بُنيّ، وأنّ يعلم الوالدان والأبناء ما هي المعايير التي تؤخذ في الحُسبان، لاتبّخاذ قرارٍ توقيتِ الزّواج وبناءِ الأسرة، وخاصّةً فيما يتعلّق بالفتيات، لأهميّة دور الأمومة، وبناءِ الأسرة، وثقلِ عبءِ مسؤوليتها عند المرأة.

وتابع الشيخُ حديثه قائلاً: إنّ تقاليد الشعوب وإمكاناتها يا بُنيّ، تختلفُ من بلدٍ إلى بلدٍ ومن شعبٍ إلى آخر، فمن كان من هذه البلاد والشعوب موفور القدرة ومُعِيناً على توفيرِ متطلّباتِ الأسرة والزّواج للشباب، فإنّ من الممكن أن تكمل الزّوجة

تَعْلِيمَهَا الْعَالِي الْأَسَاسِيَّ إِنْ تَزَوَّجَتْ قَبْلَ إِكْمَالِهِ قَبْلَ الزَّوْاجِ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ تَكُونُ عَادَةً
أَصْغَرَسِنًا مِنَ الزَّوْجِ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِمْكَانَاتِ الزَّوْجِ وَمَا يَتَوَقَّرُ لَهُ مِنْ دَعْمِ أُسْرَتِهِ مِمَّا
يُمْكِنُ الزَّوْجَةَ مِنْ إِكْمَالِ تَعْلِيمِهَا.

أَمَّا الشُّعُوبُ الَّتِي هِيَ أَقَلُّ قُدْرَةً وَمَوَارِدَ، فَإِنَّهَا تُؤَخَّرُ سِنَّ الزَّوْاجِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ
مُتَّسِعٌ مِنَ الْوَقْتِ لِكَيْ تُكْمَلَ الْفَتَاةُ تَعْلِيمِهَا وَتَدْرِيْبَهَا وَإِعْدَادَ ذَاتِهَا، وَهِيَ بِذَلِكَ تُعِدُّ
نَفْسَهَا لِلْعَمَلِ وَلَوْ مِنَ الْمَنْزِلِ أَوْ جُزْءًا مِنَ الْوَقْتِ لِتُسَاعِدَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ فِي
تَحْمُلِ بَعْضِ أَعْبَاءِ الْأُسْرَةِ إِنْ لَزِمَ الْأَمْرُ، وَلِتَكُونَ بِذَلِكَ عَامِلًا مُنْتِجًا بَعْدَ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِهَا
السِّنُّ وَقَدْ شَبَّ الْأَبْنَاءُ، وَأَوْفَتْ مَسْئُولِيَّاتِ الْأُمُومَةِ، فَتُسَهِّمُ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ فِي خِدْمَةِ
الْمُجْتَمَعِ وَرَفَاهِيَةِ الْأَبْنَاءِ وَعَوْنِهِمْ عَلَى تَكَالِيفِ بَدءِ مَشْوَارِ حَيَاتِهِمْ.

قَالَ قَيْمُ الدَّارِ: نَعَمْ يَا سَيِّدِي إِنَّي أَدْرِكُ مَا تَقُولُ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِكْمَةٍ وَخَبْرَةٍ،
وَلَكِنِّي مَا زِلْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّوْضِيحِ.

قَالَ الشَّيْخُ: صَبْرًا يَا بُنَيَّ فَإِنَّ هُنَاكَ الْمَزِيدَ الَّذِي يُجِيبُ عَلَى تَسَاؤُلَاتِكَ، وَيُعِينُكَ
عَلَى حُسْنِ اتِّخَاذِ قَرَارَاتِكَ فِيمَا يَخُصُّ زَوَاجَ أَخَوَاتِكَ السَّعِيدَ بِإِذْنِ اللَّهِ.
تَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: مَا يُسْتَفَادُ مِمَّا ذَكَرْتُ لَكَ أَيُّ الْأَخِ الْكَرِيمِ، هُوَ أَنَّهُ يَجِبُ

حُسْنُ اخْتِيَارِ الْوَقْتِ لِعَرْضِ الْفَتَاةِ لِلزَّوْاجِ وَالْأَيْتَمَ ذَلِكَ أَبَدًا قَبْلَ بُلُوغِهَا سِنَّ
النُّضُجِ، فِي جَسَدِهَا وَنَفْسِيَّتِهَا وَتَعْلِيمِهَا، وَأَنْ يُرَاعَى فِي زَوَاجِهَا مَا أَمَكْنَ أَنْ لَا يَزِيدَ سِنَّ
"العَرِيسِ" الْمَنْشُودِ كَثِيرًا عَنْ عَشْرِ سِنِينَ مِنْ سِنَّ "العَرُوسِ"، فَإِنَّ غَيْرَ ذَلِكَ لَهُ
-عَادَةً- عَوَاقِبُهُ فِي التَّوَاصُلِ نَفْسِيًّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، بَلْ وَقَدْ يَكُونُ لَهُ أَثَارُهُ الْجَسَدِيَّةُ
عِنْدَ تَقَدُّمِ سِنَّ الزَّوْجِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّهُ لَا مَجَالَ لِزَوَاجِ الْفَتَاةِ النَّاضِجِ السَّعِيدِ يَا بُنَيَّ، دُونَ بُلُوغِ الْفَتَاةِ الْحَدِّ
الْأَدْنَى لِلنُّضُجِ الْجِنْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ وَالْقَدْرِ التَّعْلِيمِيِّ الْعَامِّ فِي الْمُجْتَمَعِ وَهَذَا لَا يَكُونُ
كَمَا يَقُولُ الْخَبْرَاءُ دُونَ سِنَّ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ، وَهِيَ سِنَّ إِنْهَاءِ التَّعْلِيمِ الْعَامِّ لَدَى جُلِّ
الشُّعُوبِ الْمُقْتَدِرَةِ افْتِصَادِيًّا، وَالْمُلْتَزِمَةِ بِأَخْلَاقِيَّاتِ الْأُسْرَةِ، حَيْثُ يَكُونُ سِنَّ الْأَزْوَاجِ
عِنْدَ الْفَتَيَانِ عَادَةً هُوَمَا بَيْنَ الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ وَالرَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ، وَهُوَ السِّنُّ الَّذِي
يُكْمَلُ فِيهِ الْفَتَى الدَّرَجَةَ الْأَسَاسِيَّةَ الْعَالِيَةَ فِي إِعْدَادِهِ الْعِلْمِيِّ وَالْمِهْنِيِّ، وَيُصْبِحُ مُؤَهَّلًا
لِدُخُولِ سُوقِ الْعَمَلِ وَتَحْمَلِ مَسْئُولِيَّاتِ الْأُسْرَةِ.

أَمَّا فِي حَالَةِ الشُّعُوبِ الَّتِي تَكُونُ لِلْأَسْفِ، الْأَقَلَّ قُدْرَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِنْتِاجِيَّةِ
وَالِاِقْتِصَادِيَّةِ، فَإِنَّ سِنَّ الزَّوْاجِ يَا بُنَيَّ، تَتَأَخَّرُ لِلْجِنْسَيْنِ، حَيْثُ قَدْ يَصِلُ سِنَّ الْفَتَاةِ

إِلَى الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ أَوْ الثَّلَاثِينَ وَإِلَى سِنِّ الثَّلَاثِينَ أَوْ الْخَامِسَةِ وَالْثَّلَاثِينَ لِفَتَى،
وَهِيَ سِنُّ تَنْبِيٍّ عَنْ حَالِ إِنْتَاجِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ يُعَانِي وَيَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ، وَإِلَّا
فَإِنَّ الْمُجْتَمَعَ يَنْتَهِي بِالتَّضْحِيَةِ بِسَعَادَةِ الْأُسْرَةِ وَتَهْدِيدِ أُسُسِ بِنَائِهِ وَبِنَائِهَا، وَذَلِكَ
بِضَعْفِ الإِقْبَالِ عَلَى الزَّوْجِ، وَانْتِشَارِ الْعُنُوسَةِ بَيْنَ الْفَتَيَاتِ، مِمَّا لَا يَحُلُّ الإِشْكَالَ
الْمَادِّيَّ بَلْ يُضِيفُ إِلَى ذَلِكَ الإِشْكَالِ إِشْكَالَاتٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ أُخْرَى شَدِيدَةَ الْخُطُورَةِ،
لِتَوْلَدَ بِدَوْرَهَا مَزِيدًا مِنَ الْمَشَاكِلِ الَّتِي سَوْفَ تَنْخَرِفُ فِي أُسَاسِ الْمُجْتَمَعَ وَثَقَافَتِهِ
وَهَوِيَّتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ وَمَقْوَمَاتِ وَجُودِهِ.

صَمَتَ الشَّيْخُ قَلِيلًا ثُمَّ وَاصَلَ حَدِيثَهُ إِلَى الْقِيَمِ قَائِلًا: مَا عَلَيْنَا الْآنَ أَيُّهَا الْفَتَى مِنْ
هُمُومِ الْمُجْتَمَعَ، وَدَعْنَا نَتَحَدَّثُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَمِّكَ وَمَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ
تَأْخُذَهُ فِي الإِعْتِبَارِ، فِي حُدُودِ حَالِ مُجْتَمَعِكَ، لِتَقْرِيرِ تَوْقِيَّتِ زَوْجِ أَحْوَاتِكَ، وَالْكِيفِيَّةِ
الَّتِي تُعِينُ عَلَيْهِ.

إِنَّ أَهَمَّ مَا يَجِبُ أَنْ نُذَرِكَهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا يَا بُنَيَّ هُوَ أَنْ نُذَرِكَ أَنَّ أَمْرَ الزَّوْجِ
وَبِنَاءِ الْأُسْرَةِ يَخْضَعُ مِثْلَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ لِقَانُونِ الْعَرْضِ وَالطَّلَبِ.
وَهُنَا ارْتَفَعَتْ حَاجِبِي الْقِيَمِ، دَهْشَةً وَاسْتِغْرَابًا مِنْ حَدِيثِ الشَّيْخِ عَنِ الْعَرْضِ

وَالطَّلَبِ فِي أَمْرِ الزَّوْاجِ.

تَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ قَائِلًا: الْعَرَضُ وَالطَّلَبُ فِي هَذِهِ الْحَالِ يَا بُنَيَّ هُوَ مَتَى تُصْبِحُ الْفَتَاةَ مُؤَهَّلَةً لِلزَّوْاجِ وَيَسْعَى الْأَبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ لِلزَّوْاجِ الْفَتَيَاتِ وَتُعَدُّ الْفَتَاةُ نَفْسَهَا لِلزَّوْاجِ وَبِنَاءِ الْأُسْرَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الزَّوْاجَ، كَمَا ذَكَرْنَا، يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ فِي السِّنِّ الَّذِي يُصْبِحُ فِيهِ الْفَتَيَانُ وَالْفَتَيَاتُ مُؤَهَّلِينَ وَقَادِرِينَ عَلَى بِنَاءِ الْأُسْرَةِ وَحَمْلِ مَسْئُولِيَّاتِهَا، أَمَا مَنْ لَا يَلْحَظُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِثْلُ مَنْ يَقْصِدُ السُّوقَ بَائِعًا أَوْ شَارِيًا، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْبَائِعُونَ وَالشَّارُونَ قَدْ أَقْفَلُوا مَتَاجِرَهُمْ وَهَجَعُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ، فَلَنْ يَجِدَ الْبَائِعُ شَارِيًا مُهِمًّا اِزْدَانَتْ وَحَسُنَتْ بِضَاعَتُهُ، وَلَنْ يَجِدَ الشَّارِي بِضَاعَةً يَحْصُلُ عَلَيْهَا مَهْمًا كَانَتْ وَفَرَةً مَا مَعَهُ مِنْ نُقُودٍ.

هَذِهِ أَيْهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ أَهْمُ قَاعِدَةٍ وَأَهْمُ مُؤَشِّرٍ يَجِبُ أَنْ يَلْحَظَهَا الْوَالِدَانِ وَعَلَى الْفَتَيَاتِ وَالْفَتَيَانِ فَهْمُهَا وَمُرَاعَاتُهَا، لِيُنزِلُوا إِلَى السُّوقِ وَهِيَ مُشْرَعَةٌ لِيَكُونَ لَهُمْ حُسْنُ الْإِخْتِيَارِ، وَلِيَحْصُلُوا عَلَى خَيْرِ مَا يُرِيدُونَ، لِأَنَّ غَيْرَ ذَلِكَ لَا يَتَحَقَّقُ مَعَهُ الْمَطْلُوبُ يَا بُنَيَّ إِلَّا مُصَادَفَةً وَإِلَّا "رَمِيَةً مِنْ غَيْرِ رَامٍ"، مِمَّا يُقَلِّلُ فُرْصَ الزَّوْاجِ النَّاجِحِ، وَكَمَا يَقُولُ خُبْرَاءُ الْأَسْوَاقِ "حُسْنُ السُّوقِ وَلَا حُسْنُ الْبِضَاعَةِ".

صَمَتَ الشَّيْخُ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى عَيْنِي الْقَيِّمِ وَقَالَ لَهُ: أَرَجُوا أَنْ تَكُونَ قَدْ أَدْرَكْتَ مَعْنَى مَا حَدَّثْتُكَ بِهِ، وَأَعْرِفُ أَيْضًا سُوقَكَ الَّتِي بِهَا طَلَبْتُكَ فَلَا تَطْلُبُ الذَّهَبَ وَاللُّؤْلُؤَ مِنْ مَتَجَرِ الْجَزَارِ، أَوْ مِنْ سُوقِ الْخُضَارِ، وَأَعْرِفُ مَتَى يُشْرَعُ السُّوقُ أَبْوَابَهُ، فَتَتَّجِهَ إِلَى السُّوقِ الَّتِي تَجِدُ فِيهَا مَا تُرِيدُ بَيْعَهُ أَوْ شِرَاءَهُ، لَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْوَاقِ، لِأَنَّ لِكُلِّ بَضَاعَةٍ سُوقًا، وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ السُّوقَ الْمُنَاسِبَةَ، وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْحَالِ أَيُّهَا الْحَبِيبُ، هُوَ الدَّائِرَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي يُنَاسِبُ أَبْنَاءَهَا مَا تُرِيدُهُ لِابْنِكَ أَوْ ابْنَتِكَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ السُّوقُ مُشْرَعَةً وَيَمْلَأُهَا رُؤَادُ الْعَرْضِ وَالطَّلَبِ مِنْ فَتَيَاتٍ وَفَتَيَانٍ فِي سِنِّ الزَّوْاجِ وَمِنْ أُمَّهَاتٍ وَأَبَاءٍ يَسْعَوْنَ لِلْبَحْثِ عَنِ شُرَكَاءِ الْحَيَاةِ لِأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَبِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَحْصُلُ عَلَى خَيْرِ مَا يُمَكِّنُ لِطَلَبَتِكَ.

وَإِنِّي يَا بُنَيَّ عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي ذَكَائِكَ وَنَبَاهَتِكَ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَعْرِفُ الدَّوَائِرَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الْمُنَاسِبَةَ لِأُسْرَتِهِ، وَأَنْ يَسْعَى إِلَى تَوْسُّعِ دَائِرَةِ التَّوَاصُلِ مَعَهَا، وَأَنْ يَرْتَادَهَا وَأُسْرَتَهُ عَلَى أَحْسَنِ هَيْئَةٍ تُنَاسِبُ الْحَالَ مِمَّا يَجْعَلُ فُرْصَةَ التَّوْفِيقِ وَالنَّجَاحِ مُتَوَفِّرَةً بِأَكْبَرِ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ بِإِذْنِ اللَّهِ.

عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَادَرَ الْقَيِّمُ بِشُكْرِ الشَّيْخِ وَالِدُعَاءِ لَهُ لِمَا قَدَّمَ لَهُ مِنَ النُّصْحِ فِي مَا

أَهْمَهُ، فِي أَيْنَ يَنْظُرُ، وَأَيْنَ يَبْحَثُ، وَمَتَى يَرْتَادُ.
وَقَفَ الْقَيِّمُ، وَأَدَارَ بَصَرَهُ، لِيَجِدَ الْقَوْمَ قَدْ قَارَبُوا انْتِهَاءَ احْتِفَالِهِمْ، وَاسْتَعَدَّ
الْعُرْسَانَ لِمُغَادَرَةِ سَاحَةِ الْحَفْلِ، وَهُوَ قَدْ أَشْغَلَ الشَّيْخَ عَنِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، فَقَامَ
بِخَفَةِ الْغَزَالِ، لِيَحْمِلَ لِلشَّيْخِ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ، وَهُوَ لَا يَكُلُّ عَنِ الدُّعَاءِ لِلشَّيْخِ،
لِيَحْمِلَ مَعَهُ مَا جَمَعَ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ إِلَى الدَّارِ يَتَنَاوَلُهُ الشَّيْخُ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ الطَّوِيلِ
الْمُضْنِيِّ.

وَهُنَا أَقْبَلَ بِيَدَبًا عَلَى الشَّيْخِ وَالْقَيِّمِ إِلَى جَانِبِهِ يَحْمِلُ الطَّعَامَ، وَأَذْرَكَ مَا حَاقَ
بِالشَّيْخِ حِينَ انْفَرَدَ الْقَيِّمُ بِالشَّيْخِ، وَقَالَ يُخَاطِبُ الشَّيْخَ إِنِّي أَتَحَمَّلُ شَيْئًا مِنْ
مَسْئُولِيَّةِ مَا حَدَثَ لَكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، حِينَ انْفَرَدَ بِكَ أَحُونَا الْقَيِّمِ، وَلَكِنْ لَا بَأْسَ فَلَنْ
أَدَعَ مِثْلَ هَذَا يَحْدُثُ لَكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ بَعْدَ الْيَوْمِ مَرَّةً أُخْرَى ضَحِكَ الشَّيْخُ وَضَحِكَ
الْقَيِّمُ وَيَمَّمُوا جَمِيعًا نَحْوَ مَجْلِسِ الْعُرْسَانِ لِتَهْنِئَتِهِمْ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ بِالسَّعَادَةِ
وَالتَّوْفِيقِ، وَلِيَنْصَرِفُوا بَعْدَ ذَلِكَ، اسْتَعْدَادًا لِيَوْمٍ جَدِيدٍ مِنْ دُرُوسِ الشَّيْخِ
وَمُدَارَسَاتِهِ وَحِوَارَاتِهِ.

يَقُولُ بِيَدَبَا: لَقَدْ كَانَتْ لَيْلَةٌ بِكُلِّ الْمَقَائِسِ سَعِيدَةً لَا يَنْسَاهَا أَحَدٌ مِمَّنْ حَضَرَهَا،
وَقَدْ ضَاعَفَتْ مَسْرَاتِنَا، وَضَاعَفَتْ حُبَّنَا لِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ، وَجَعَلَتْ رَحِيلَهُ وَوَدَاعَهُ مِنْ
بَعْدِ أَشَدِّ وَقَعًا عَلَى النُّفُوسِ وَالْمَا لِلْقُلُوبِ، وَلَكِنَّهَا أَبَقَتْ لَهُ فِي نُفُوسِنَا أَطْيَبَ مَا
يَسْتَحِقُّ مِنْ ذِكْرِى الْحُبِّ وَالْإِعْزَازِ وَالتَّقْدِيرِ.



حَلُّ لُغْزِ الْكَنْزِ

حَلُّ نَغْرِ الْكَنْزِ

هَمَسَ بِيَدَبًا فِي نَفْسِهِ وَهُوَ يَرَى قَائِدَ الشَّرْطَةِ يَهْرُولُ عَابِسًا مُقْتَرِبًا مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ: مَا لِي أَرَى قَائِدَ الشَّرْطَةِ عَابِسًا وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ، أَرْجُو أَلَّا يُعَكِّرَ صَفْوَ الْمَسْرَاتِ مُعَكِّرٌ.

وَلِحُسْنِ الْحِظِّ، أَنَّ قَائِدَ الشَّرْطَةِ لِفِطْنَتِهِ لَمْ يَهْرُولْ إِلَى مَقَامِ الشَّيْخِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ انْفَضَّ الْحَفْلُ بِكُلِّ الْفَرَحِ وَالْبَهْجَةِ، فَاقْتَرَبَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ الْقَائِدِ وَنَحْنُ نَهْمُ بِالْخُرُوجِ، لِأَصْحَبِ الشَّيْخِ إِلَى دَارِهِ قَبْلَ أَنْ أَنْصَرِفَ إِلَى دَارِي.

أَقْبَلَ قَائِدَ الشَّرْطَةِ وَمَعَهُ رَجُلٌ الْحِرَاسَةِ وَالْأَمْنِ عَلَى الشَّيْخِ لِيُخْبِرَهُ أَنَّهُمْ قَدْ قَبَضُوا عَلَى الْمُتَسَلِّلِ إِلَى دَارِهِ الَّذِي اعْتَادَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَنْ يُبَعِثَ اثْنَا الدَّارِ، وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ فِيهِ عَنْ شَيْءٍ ثَمِينٍ أَوْ خَطِيرٍ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْأَمْرَ أَنْ يَضْرِبَ بِهَرَاوَتِهِ الْجِدَارَ، وَكَأَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ كُوَّةٍ أَوْ مَكَانٍ سَرِيٍّ فِي الْجِدَارِ، قَدْ يَجِدُ فِيهِ مَا يَسْعَى إِلَيْهِ فِي دَارِ الشَّيْخِ.

قَالَ قَائِدَ الشَّرْطَةِ: مَا يَسْرُنَا وَيُؤَسِفُنَا يَا سَيِّدِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ الْمُتَسَلِّلَ لَيْسَ مِنْ أَبْنَاءِ بَلَدِنَا، وَلَكِنَّهُ الْبَحَّارُ مَسْعُودٌ الَّذِي صَحِبَكَ عَلَى الْمَرْكَبِ الَّذِي حَمَلَكَ إِلَى بَلَدِنَا، وَالَّذِي كَانَ مِنْ بَيْنِ رُؤَادِ مَجْلِسِكَ الْمُوَظِّبِينَ عَلَى حُضُورِ دُرُوسِكَ وَحَوَارَاتِكَ.

إِنَّا لَمْ نُصَدِّقْ يَا سَيِّدِي أَعْيُنَنَا حِينَ قَبَضْنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ سَوْفَ يَلْقَى، عَلَى أَيِّ حَالٍ، عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ السَّيِّئَةِ أَشَدَّ الْعِقَابِ.
قَالَ بَيْدَبَا: لَقَدْ عَلَتِ الدَّهْشَةُ وَجْهَ الشَّيْخِ، فَقَدْ فُوجِيَ بِالْأَمْرِ كَمَا فُوجِئْنَا نَحْنُ بِهِ جَمِيعًا.

قَالَ الشَّيْخُ بِهُدُوئِهِ الْمُعْتَادِ: لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ، وَأَرْجُوا أَنْ تَأْخُذُونِي إِلَى حَيْثُ أَوْقَفْتُمُ الرَّجُلَ لِأَتَحَدَّثَ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَنَتَشَاوَرُ بِشَأْنِ مَصِيرِهِ بِمَا فِيهِ الْخَيْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. سَارَ قَائِدُ الشَّرْطَةِ يَتَّبِعُهُ الشَّيْخُ، وَإِلَى جَانِبِهِ بَيْدَبَا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحَاوِلُ فِي رَأْسِهِ أَنْ يُخَمِّنَ مَعْنَى مَا حَدَثَ وَأَسْبَابَهُ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

وَصَلَ الشَّيْخُ إِلَى مَرْكَزِ الشَّرْطَةِ؛ حَيْثُ رَحَّبَ رَئِيسُ الدَّائِرَةِ بِهِ وَبِالْحَكِيمِ بَيْدَبَا، وَأَجْلَسَهُمَا عَلَى مَقَاعِدَ أَعِدَّتْ لِاسْتِقْبَالِ الضُّيُوفِ، وَأَمَرَ بِأَحْضَارِ الْبَحَّارِ مَسْعُودٍ. يَقُولُ بَيْدَبَا: أَحْضَرَ الْبَحَّارُ مَسْعُودٌ وَهُوَ مُقَيَّدُ الْيَدَيْنِ بِأَصْفَادٍ حَدِيدِيَّةٍ، وَوَقَفَ أَمَامَ الشَّيْخِ مُحَمَّرَ الْوَجْهِ، خَافِضَ الْبَصَرِ؛ خِزْيًا مِمَّا اقْتَرَفَتْ يَدَاهُ فِي حَقِّ الشَّيْخِ. طَلَبَ الشَّيْخُ لِمَسْعُودٍ كُرْسِيًّا، وَطَلَبَ إِلَى مُدِيرِ الْمَرْكَزِ أَنْ يَأْمُرَ بِفَكَ أَعْلَالِ مَسْعُودٍ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ.

جَلَسَ مَسْعُودٌ عَلَى طَرَفِ الْكُرْسِيِّ خَوْفًا وَخَجَلًا مِنَ الشَّيْخِ، عِنْدَهَا تَوَجَّهَ الشَّيْخُ
إِلَى مَسْعُودٍ يَسْأَلُهُ عَنِ السَّبَبِ فِي اقْتِرَافِ مَا فَعَلَ، وَعَنِ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ يَبْحَثُ عَنْهُ
مِنْ دُونِ كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ، مَا تَسَبَّبَ فِي كُلِّ مَا أَصَابَ دَارَ الشَّيْخِ وَغُرْفَةَ نَوْمِهِ مِنَ الْعَبَثِ
وَالضَّرْرِ.

قَالَ الشَّيْخُ لِمَسْعُودٍ، أَنْتَ كُنْتَ مَعِيَ عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ الَّذِي حَمَلْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ،
وَأَنْتَ صَاحِبِي طَوَالَ السَّفَرِ، وَكُنْتَ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا تَكَادُ تُفَارِقُنِي، وَبَقِيتُ
عَلَى قُرْبِكَ وَصُحْبَتِكَ بَعْدَ أَنْ بَلَّغْنَا هَذِهِ الْبِلَادَ، وَكُنْتَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ وَالطَّلَابِ
مُوَظَبَةً عَلَى حُضُورِ دُرُوسِنَا وَحِوَارَاتِنَا، فَكُنْتَ الْأَجْدَرَ أَنْ تَعْلَمَ أَكْثَرُ مَنْ أَيَّ أَحَدٍ آخَرَ
أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ أَحَدٌ أَوْ يَرْجُو الْحُصُولَ عَلَيْهِ، فَأَنَا كَمَا يَعْلَمُ الْجَمِيعُ
أَكَادُ لَا أَمْلِكُ إِلَّا مَا يَفِي بِأَقْلِ الْحَاجَةِ وَسَدِّ الرَّمَقِ، فَلِمَ آذَا يَا مَسْعُودُ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ،
وَجَنَيْتَ مَا جَنَيْتَ؟ وَمَاذَا كُنْتَ تَطْلُبُ؟ لَقَدْ أَثَارَتْ تِلْكَ التَّصَرُّفَاتِ الْعَجِيبَةَ فِي نَفْسِي،
مُنْذُ أَنْ جِئْنَا إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ، الْحَيْرَةَ وَالْقَلْقَ، وَأَنَا الْيَوْمَ أَشَدُّ حَيْرَةً فِي أَمْرِ تَصَرُّفِكَ.
بَقِيَ مَسْعُودٌ صَامِتًا يَكَادُ لَا يُحِيرُ جَوَابًا، قَالَ الشَّيْخُ لِمَسْعُودٍ، أَجِبْنِي عَمَّا سَأَلْتُكَ
عَنْهُ يَا مَسْعُودُ، وَفَسِّرْ لِي لُغْزَ فِعْلِكَ؛ فَذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ، إِنْ صَدَقْتَنَا الْقَوْلَ، إِلَى

نَجَاتِكَ مِمَّا قَدْ يَنْتَظِرُكَ مِنَ الْعِقَابِ.

قَالَ مَسْعُودٌ: يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ أَخْشَى أَلَّا تُصَدِّقَنِي لَوْ أَخْبَرْتُكَ بِالْحَقِيقَةِ.
قَالَ الشَّيْخُ: لَا عَلَيْكَ، فَقَطُّ أَخْبَرْنَا بِالْحَقِيقَةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَفْضَلُ فِي مِثْلِ
هَذَا الْمَوْقِفِ مِنَ الصِّدْقِ.

قَالَ الْبَحَّارُ: السَّبَبُ يَا سَيِّدِي أَنِّي رَجُلٌ فَقِيرٌ، وَخَلْفِي زَوْجَةٌ وَأُمٌّ وَصِغَارٌ أَكُودُ
وَأَشْقَى مِنْ أَجْلِهِمْ وَأَغْيِبُ الشُّهُورَ الطُّوَالَ فِي الْبَحْرِ لِأَوْفَرِ لَهُمْ لُقْمَةَ الْعَيْشِ، وَقَدْ
سَمِعْتُكَ يَا سَيِّدِي حِينَ كُنَّا عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ، فِي عَرْضِ الْبَحْرِ، تَتَحَدَّثُ إِلَى أَحَدِ
رُكَّابِ السَّفِينَةِ عَنْ كَنْزٍ عَزِيزٍ عَلَيْكَ لَا تَكَادُ تُفَارِقُهُ قَطُّ فِي حَلِّكَ وَتَرْحَالِكَ، وَلَا تَعْدِلُ بِهِ
الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ مَهْمَا كَثُرَتْ.

كَانَتْ اللَّيْلَةُ الْأَخِيرَةُ قَبْلَ وُصُولِنَا إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ وَقَدْ انْتَهَزْتُ
فُرْصَةَ ذَهَابِكَ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَجُسْتُ فِي مَتَاعِكَ أَفْتِشُ عَنْ هَذَا
الْكَنْزِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَعْثُرْ عَلَى شَيْءٍ.

قَالَ الشَّيْخُ: نَعَمْ أَذْكَرُ أَنِّي حِينَ عُدْتُ إِلَى مَرْقَدِي فِي الْمَرْكَبِ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ،
وَجَدْتُ مَتَاعِي مُبْعَثَرًا، وَلَكِنِّي لَمْ أَلِقْ لِدَلِكِ بَالًا، وَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ بِسَبَبِ حَرَكَةِ

المَرْكَبِ وَالرِّيَّاحِ الْبَحْرِيَّةِ الْمُتَقَلِّبَةِ.

ثُمَّ تَابَعَ الشَّيْخُ قَائِلًا: نَعَمْ أَكْمِلْ أَيْهَا الْفَتَى، وَمَاذَا حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

قَالَ مَسْعُودٌ: لِذَلِكَ حَرَصْتُ مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى صُحْبَتِكَ وَتَتَبَعْتُ خُطُواتِكَ لِعَلِّي أَعْتَرَعَلَى كِنزِكَ، وَأَقْضِي عَلَى حَيَاةِ الْعَوَزِ وَالْفَقْرِ؛ وَلِذَلِكَ كُنْتُ أَتَرَقَّبُ غِيَابَكَ وَغِيَابَ مُرَافِقِكَ وَأَتَسَلَّلُ إِلَى الدَّارِ، وَأَفْتِشُ فِيهَا عَنْ ذَلِكَ الْكَنْزِ حَتَّى أَنْبِي حَرَصْتُ فَحَرَصْتُ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ عَلَى الذَّهَابِ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى دَارِكَ مُنْتَهِزًا فُرْصَةَ انْشِغَالِكَ بِطُلَّابِ عِلْمِكَ وَمُرِيدِكَ، وَبِأَفْرَاحِ زَوَاجِهِمْ لِعَلِّي أَصِلُ إِلَى الْكَنْزِ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ قَدْ آنَ أَوَانُ الرَّحِيلِ، وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَضِيعَ مِنِّي الْكَنْزُ.

لَقَدْ كَانَتْ مُخَاطَرَةٌ حَمَقَاءَ يَا سَيِّدِي أَنْ أَتَسَلَّلَ إِلَى دَارِكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى رَغْمِ أَنِّي كُنْتُ أَحْسُّ حُضُورَ رِجَالِ الْأَمْنِ حَوْلَ الدَّارِ وَتَشْدِيدَ الْحِرَاسَةِ فِي الْمِنْطَقَةِ، وَلَكِنَّهَا الْحَاجَةُ وَالْعَوَزُ وَالطَّمَعُ وَالْأَمَلُ يَا سَيِّدِي.

التَفَّتَ الْجَمِيعُ إِلَى الشَّيْخِ وَأَعْيُنُهُمْ تَسْتَفْسِرُ عَنْ هَذَا الْكَنْزِ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الْبَحَّارُ مَسْعُودٌ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْجَمِيعِ بُرْهَةً فِي انْتِظَارِ مَا سَيَقُولُهُ الشَّيْخُ وَيُفَسِّرُ بِهِ هَذِهِ الْأَلْغَازَ

وَالْأَحَاجِيَّ الَّتِي سَمِعُوهَا، مِنْ دُونِ أَنْ يَفْقَهُوهَا مِنْهَا شَيْئًا أَوْ يُصَدِّقُوهَا.
انْفَجَرَ الشَّيْخُ ضَاحِكًا مُقَهِّقَهَا حَتَّى كَادَتْ عِمَامَتُهُ أَنْ تَسْقُطَ مِنْ عَلَى رَأْسِهِ، لَوْلَا
أَنَّهُ سَارَعَ وَأَمْسَكَهَا.

زَادَتْ دَهْشَةُ الْحَاضِرِينَ، مِمَّا يَرُونَ وَيَسْمَعُونَ، فَقَدْ كَانَ ضَحِكُ الشَّيْخِ مُفَاجَأَةً
أُخْرَى لَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَوَقَّعُونَهَا وَلَا يُدْرِكُونَ مَا الَّذِي أَضْحَكَ الشَّيْخَ وَسَطَ هَذِهِ الْحَيْرَةِ
وَالْأَلْغَازِ.

قَالَ بَيْدَبَا: التَفْتُ إِلَى شَيْخِنَا الْجَلِيلِ وَكُلِّي دَهْشَةً وَاسْتِغْرَابًا، وَقُلْتُ لَهُ: أَضْحَكَ
اللَّهُ سِنَّكَ يَا سَيِّدِي، وَلَكِنَّا لَا نَدْرِي مَا الَّذِي يُضْحِكُكَ فِيمَا قَالَهُ مَسْعُودٌ، وَمَا هُوَ أَمْرٌ
هَذَا الْكَنْزِ الَّذِي ذَكَرَ مَسْعُودٌ أَنَّكَ تَحَدَّثْتَ عَنْهُ وَأَنْتَ عَلَى ظَهْرِ الْمَرْكَبِ؟
قَالَ الشَّيْخُ: عَلَى رِسْلِكُمْ؛ فَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلِي مَنْ يَمْلِكُ الْأَمْوَالَ وَيَكْنِزُ
الْجَوَاهِرَ وَالْمَعَادِنَ النَّفِيسَةَ، وَلَكِنِّي الْآنَ أَذْرِكُ لِمَاذَا ظَنَّ هَذَا الْبَائِسُ لِحَمَلِهِ بِأَمْرِي،
أَنِّي أَمْلِكُ كَنْزًا مِنَ الْمَالِ، لَقَدْ أَضْنَى هَذَا الْمَسْكِينُ نَفْسَهُ فِي الْبَحْثِ عَنْ كَنْزٍ مِنَ الْمَالِ
لَا وُجُودَ لَهُ، وَأَزْعَجَنِي وَأَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي وَرْطَةٍ بِفُضُولِهِ وَطَمَعِهِ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى ذَرَّةٍ مِنْ
عَقْلِ وَفِطْنَةٍ لَأَذْرَكَ أَنِّي لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَكُونَ أَتَحَدَّثُ بِمَا قُلْتُ عَنْ مَالٍ أَوْ جَوَاهِرٍ.

الكَنْزُ الْعَزِيزُ الْغَالِي عَلَى نَفْسِي، وَالَّذِي لَا تَعْدِلُهُ الْأَمْوَالُ الطَّائِلَةُ عِنْدِي أَيُّهَا السَّادَةُ؛ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُصْحَفًا وَسَجَّادَةً لِلصَّلَاةِ، هُمَا أَعَزُّ وَأَعْلَى مَا تَرَكَهُ لِي أَبِي وَأُمِّي، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْمُصْحَفُ وَتِلْكَ السَّجَّادَةُ رَفِيقَيْنِ لِيُحْمَا فِي عِبَادَتِهِمَا وَقِرَاءَتِهِمَا وَصَلَاتِهِمَا وَتَهْجُدِهِمَا، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ وَأَنَا طِفْلٌ صَغِيرٌ أَشَارِكُهُمَا السَّجَّادَةَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَحْيَانًا أَنَامُ عَلَيَّهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، وَكَثِيرًا مَا شَارِكْتُهُمَا الْقِرَاءَةَ وَتَعَلَّمُ الْقِرَاءَةَ فِي ذَلِكَ الْمُصْحَفِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ لِي تِلْكَ السَّجَّادَةَ وَذَلِكَ الْمُصْحَفِ، ذِكْرِيَّاتٍ عَزِيزَةً فِي نَفْسِي، وَأَنَا أَجِدُ فِيهِمَا رَائِحَةً وَالِدِي الَّتِي لَا أَعْدِلُ بِهِمَا شَيْئًا مِنَ الْمَتَاعِ وَالذِّكْرِيَّاتِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. إِنِّي أَسْتَعِيدُ، وَهَذَا الْمُصْحَفُ وَهَذِهِ السَّجَّادَةُ مَعِي وَبَيْنَ يَدَيَّ، ذِكْرِيَّاتِ طُفُولَتِي، وَذِكْرِيَّاتِ صُحْبَتِهِمَا الْحَبِيبَةِ إِلَى نَفْسِي، وَكَأَنِّي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ سِنِّي وَشَيْخُوخَتِي أَدُسُّ رَأْسِي فِي حِضْنِهِمَا كَعَهْدِي بِهِمَا فِي طُفُولَتِي.

لَقَدْ كَانَ كَنْزِي أَمَامَ عَيْنِيهِ عَلَى "الْخَوَانِ" فِي مَجْلِسِي، وَلَكِنْ هَمَّاتٌ أَنْ يَرَى مَنْ اسْتَوْلَى الْجَهْلُ وَالطَّمَعُ عَلَى نَفْسِهِ مِثْلَ هَذَا الْكَنْزِ؟
قَالَ بَيْدَبَا: أَخَذْتَنَا إِجَابَةُ الشَّيْخِ إِلَى دَهْشَةٍ أَعْظَمَ مِمَّا مَرَّبْنَا فِي يَوْمِنَا الْمُفَاجَأَاتِ
وَمِنَ الدَّهْشَاتِ.

قَالَ بِيَدَبَا: لَقَدْ أَذْهَلْتَنَا حَقًّا الْمُفَاجَأَةَ، الَّتِي لَا يُدَانِيهَا الْخِيَالُ، وَفَعَرْنَا أَفْوَاهَنَا، لَا نَعْلَمُ مَا نَقُولُ، وَلَكِنْ بَعْدَ لَحْظَةٍ صَمْتٍ انْفَجَرْنَا جَمِيعًا فِي ضَحِكٍ عَالٍ تَجَمَّعَ مَعَهُ مَنْ فِي الْمَرْكَزِ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا يَجْرِي بَانِدِهَاشٍ وَاسْتِغْرَابٍ، وَنَحْنُ لَا نَكْفُ عَنِ الضَّحِكِ.

جَمَعْنَا أَشْتَاتَ نُفُوسِنَا لِيَقُولَ الشَّيْخُ لِقَائِدِ الشَّرْطَةِ: لَقَدْ سَمِعْتَ يَا سَيِّدِي مَا جَرَى، وَقَدْ تَمَّ حَلُّ اللُّغْزِ الَّذِي حَيَّرَنِي وَحَيَّرَكُمْ، وَمَا أَرْجُوهُ يَا سَيِّدِي أَنْ تُخْلِيَ سَبِيلَ الْبَحَّارِ لِمَا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ وَحَالِ صِغَارِهِ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّهُ قَدْ تَعَلَّمَ دَرْسَهُ، وَلَنْ يَعُودَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَمَاقَةِ، وَأَنْ يَقْنَعَ بِالْكَسْبِ الْحَلَالِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

انْكَفَأَ مَسْعُودٌ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ يُرِيدُ أَنْ يُقْبَلَهَا، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ احْتِرَامًا لِكِرَامَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَمْ يُمْكِنَهُ مِنْهَا، وَرَفَعَهُ إِلَى كُرْسِيِّهِ.

قَالَ مَسْعُودٌ: أَعَاهِدُكَ اللَّهُ يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ عَلَى التَّوْبَةِ، وَأَنْ أَكُونَ التِّلْمِيذَ وَالتَّابِعَ الْمُخْلِصَ لَكَ، وَأَنْ أُزِيلَ الطَّمَعُ مِنْ نَفْسِي، وَأَحِلَّ الْقِنَاعَةَ فِيهَا بِالْحَلَالِ، وَأَنْ أَجِدَّ فِي الْعَمَلِ وَأَنْ أُقْلِعَ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ أَدَى لِلنَّفْسِ وَهَدْرٌ لِلْمَالِ، وَلَنْ يُخَيِّبَ اللَّهُ سَعْيِي وَهُوَ يَرْزُقُنِي حَاجَتِي وَحَاجَةَ مَنْ وَرَائِي.

قَالَ قَائِدُ الشَّرْطَةِ: لَقَدْ عَفَوْنَا عَنْكَ يَا مَسْعُودُ إِكْرَامًا لِلشَّيْخِ وَرَأْفَةً بِصِغَارِكَ،

وِثْقَةً بِتَوْبَتِكَ.

قَالَ بَيْدَبَا: مَا أَعْظَمَ خُلُقِ الشَّيْخِ وَكَرَمِهِ، وَكَمْ تَعَلَّمْنَا مِمَّا حَدَّثَ مَدَى سَمَاحَةِ كِبَارِ
النُّفُوسِ وَتَسَامُحِهِمْ، وَتَعَلَّمْنَا مَعْنَى حُبِّ الْوَالِدَيْنِ وَمَكَانَتِهِمَا لَدَى كِرَامِ النُّفُوسِ مِنَ
الْبَشَرِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: بِهَذَا انْتَهَتْ قِصَّتُنَا مَعَ الشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ الْحَكِيمِ ابْنِ بَطُوطَةَ، وَإِنِّي أَرْجُو
بِمَا بَدَلْتُ مِنَ الْجُهْدِ فِي كِتَابَتِهَا وَحِكَايَتِهَا أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّيْتُ بِوَعْدِي لِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ،
وَأَنْ أَكُونَ قَدْ يَسَّرْتُ بِهَا أَمْرَ الْإِفَادَةِ مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَتَجْرِبَتِهِ لِكُلِّ مَنْ يَقْرُؤُهَا مِنْ
أَبْنَاءِ الْأَجْيَالِ الْمُقْبِلَةِ مِنْ بَعْدِنَا؛ لِتَكُونَ عَوْنًا لَهُمْ فِي وُضُوحِ الرُّؤْيَا الَّتِي تُعِينُهُمْ عَلَى
فَهْمِ مَعْنَى حَيَاتِهِمْ، وَبُلُوغِ غَايَتِهَا الْخَيْرَةَ فِي تَحْقِيقِ الذَّاتِ وَتَوْفِيرِ الْحَاجَاتِ بِالْجِدِّ
وَالْإِبْدَاعِ؛ فِي سَبِيلِ الْإِصْلَاحِ وَالْفَلَاحِ، وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ، وَبِنَاءِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ لِخَيْرِ الْبَشَرِ
مِنْ جَمَالَاتِ الْعُمْرَانِ، وَمَنَافِعِ الْحَضَارَةِ وَمُتَعِبِهَا الطَّيِّبَةِ الْفِطْرِيَّةِ الْحَلَالِ، بِإِذْنِ اللَّهِ.



شَرَاءُ الرَّحَالَةِ يَمْصِدُ الْجَنُوبَ

شِرَاعُ الرَّحَالَةِ يَقْصِدُ الْجَنُوبَ

حَانَتْ لِحِظَةَ الرَّحِيلِ، وَكَانَتْ الرِّيحُ سَاكِنَةً، وَالْأُفُقُ شَاحِبًا، وَقُرْصُ عَيْنِ الشَّمْسِ مُحْمَرًّا، وَكَانَ السُّحْبُ مِنْ حَوْلِ عَيْنِ الشَّمْسِ وَعَلَى صَفْحَتَيْهَا، دُمُوعُ أَسَى وَحُزْنٍ تَتَسَاقَطُ عَلَى وَجْنَتَيْهَا، وَقَدْ وَقَفَ الْمُودَعُونَ يُلْقُونَ النَّظْرَةَ الْأَخِيرَةَ إِلَى الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، وَقَدْ وَقَفَ الْبَحَّارُ مَسْعُودٌ خَلْفَهُ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ مَمْلُوءَةً بِالْأَسَى وَالْحُزْنِ لِفِرَاقِهِ، وَأَخَذُوا جَمِيعًا صِغَارًا وَكِبَارًا، رِجَالًا وَنِسَاءً يُلَوِّحُونَ لَهُ بِأَيْدِيهِمْ حُبًّا وَوَدَاعًا لَطَّلَعَتِهِ الْجَلِيلَةَ، وَهُوَ يَمْتَطِي مَرْكَبَ الرَّحِيلِ؛ الَّذِي سَوْفَ يَحْمِلُهُ الْمَوْجُ، وَيُبْعِدُهُ الشِّرَاعُ، إِلَى عُمُقِ الْأُفُقِ الْحَزِينِ، وَقَدْ وَدَّعَ مِنْ أَرْضِهِمُ الْأَحْبَابَ عَلَى أَمَلٍ لِقَاءٍ مَنْ سَلَفَ فِي أَرْضِهِ مِنَ الْأَحْبَابِ، وَلَيْسَ مِنْ أَمَلٍ فِي الْعُودَةِ وَاللِّقَاءِ.

يَقُولُ بَيْدَبَا: لَقَدْ أَصْبَحَ فِيمَا عَلِمْنَا أَنَّ الْبَحَّارَ مَسْعُودًا مِنْ خَيْرَةِ تَلَامِيذَةِ الشَّيْخِ، وَأَصْبَحَ مُخْلِصًا فِي عَمَلِهِ، كَمَا أَصْبَحَ عَلَى خَيْرِ حَالٍ، فَقَدْ أَصْبَحَ رُبَّانَ سَفِينَةٍ مِنْ أَكْبَرِ سُفُنِ بَحَارِ الْجَنُوبِ، الَّتِي كَثِيرًا مَا كَانَ الشَّيْخُ يَرْكَبُهَا فِي أَسْفَارِهِ الْمُدَوَّنَةِ الشَّهِيرَةِ بَاحِثًا مُنْقِبًا فِي بِلَادِ اللَّهِ، وَمُتَعَرِّفًا عَلَى شُعُوبِ الْأَرْضِ وَثِقَافَاتِهِمْ، نَاشِرًا الْعِلْمَ وَالِدَّعْوَةَ بَيْنَهُمْ، وَزَاوِيًا أَخْبَارَهُمْ لِبَنِي قَوْمِهِ لِلْعِبْرَةِ وَالتَّوَاصُلِ وَتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ، وَكَانَ مَسْعُودٌ

خَيْرَ رَفِيقٍ لِلشَّيْخِ، وَهَذَا حَالُ كُلِّ مَنْ أَتَقَنَ وَأَخْلَصَ فِي عَمَلِهِ، وَحَرَصَ عَلَى صُحْبَةِ
الأَخْيَارِ مِنَ النَّاسِ. فَرَائِحَةُ مَنْ صَاحَبَ "الزَّبَالَ" لَيْسَتْ كَرَائِحَةِ مَنْ صَاحَبَ
"العَطَارَ".

وَهَكَذَا أَيْهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ؛ وَدَعَ الشَّيْخُ ابْنَ بَطُوطَةَ الْحَكِيمُ بَيْدَبَا وَأَصْحَابَهُ،
مُتَّجِهًا إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ وَكُلُّهُمْ حُبُّ لَهُ، وَحُزْنٌ عَلَى فِرَاقِهِ.
يَقُولُ بَيْدَبَا: لَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ أَخْبَارِ الشَّيْخِ أَنَّ قِطْعَتَهُ الْمُدْهَشَةَ "فُلَّةً" قَدْ أَنْجَبَتْ
عَدَدًا مِنَ الصِّغَارِ، وَاحْتَلَّتْ وَصِغَارُهَا رُكْنًا وَاسِعًا فِي غُرْفَةِ نَوْمِ الشَّيْخِ تَتَرَقَّبُ الْفِئْرَانَ
وَالهَوَامَ لَوْ سَاوَرَتْهَا نُفُوسُهَا أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ غُرْفَةِ الشَّيْخِ، وَلَكِنْ كَمْ أَصْبَحَ الشَّيْخُ يُعَانِي
مِنْ "شَقَاوَةِ" الصِّغَارِ الَّذِينَ يُذَكِّرُونَهُ بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ "فُلَّةً" وَهِيَ صَغِيرَةٌ مِنْ شَقَاوَةِ
وَمُطَارَدَةِ كُلِّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَيْلَهَا.

كَمَا عَلِمْتُ مِنْ أَخْبَارِ الشَّيْخِ أَنَّ "فُلَّةً" لَمْ تَعُدْ تَكَرَّهُ مَسْعُودًا، أَوْ تَبْتَعدُ عَنْهُ، بَلْ
إِنَّهَا كَثِيرًا مَا تَجْلِسُ فِي حِجْرِ مَسْعُودٍ تَرَقَّبُ الشَّيْخَ وَهُوَ يُلْقِي دُرُوسَهُ عَلَى طُلَّابِهِ، وَكَثِيرًا
مَا كَانَتْ تَأْتِي إِلَيْهِ بِصِغَارِهَا لِيَلَاعِبَهُمْ، وَيَمَسِّحَ فِرَاءَهُمْ، وَيَأْنَسَ بِهِمْ، فَقَدْ أَصْبَحَ
مَسْعُودٌ كَمَا ذَكَرْنَا تَلْمِيزًا وَمُرِيدًا مُجِبًّا وَمُخْلِصًا لِلشَّيْخِ؛ وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ الشَّيْخَ حَقًّا

فَقَدْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى قَلْبِ قِطْبِهِ "فُلَّةً".

يَقُولُ بِيَدَبَا: كَمْ مِنَ الْعَجَمَاوَاتِ مَنْ هُوَ أَنْبَلُ وَأَخْلَصُ مِنْ بَعْضِ بَنِي الْبَشَرِ؛ وَيَقُولُ
الْحَكِيمُ: فَلْيَنْظُرْ كُلُّ إِنْسَانٍ كَيْفَ يَفْعَلُ! وَمَاذَا يُمَثِّلُ! وَأَيْنَ يَضَعُ نَفْسَهُ! وَكَيْفَ تَكُونُ
الْعَاقِبَةُ وَالْمَنَالُ!

وَمِنَ الْمُهَيْمِ فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَلِيئَةِ بِالْحِكْمِ وَالْعِبَرِ مِنْ رُؤُوسِ خَطِّهَا الشَّيْبُ،
وَطَالَ بِهَا السَّفَرُ وَالسَّهْرُ، أَنْ تَعْلَمَ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزَانْنَا، بَعْدَ أَنْ زُرْنَا جَزِيرَةَ الْبَنَائِينَ
وَشَاهَدْنَا بِأَمِّ أَعْيُنِنَا وَوَادِيهِمُ الْأَخْضَرَ الْجَمِيلَ؛ وَجَدْنَا صِدْقَ مَا حَدَّثْنَا بِهِ الشَّيْخُ
الْجَلِيلُ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ، وَرَوَاهُ لَنَا الْحَكِيمُ بِيَدَبَا، عَنْ أَبْنَاءِ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينَ،
وَوَادِيهِمُ الْمُزْهَرِ الْأَخْضَرَ الْمُثْمِرِ الْجَمِيلِ، وَمُوَاطِنِيهِمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ؛ بِسُمُومِ
غَايَتِهِمْ، وَوُضُوحِ رُؤْيَتِهِمْ، وَسَلَامَةِ مَنَهِجِ فِكْرِهِمْ وَبِنَاءِ وَجْدَانِهِمْ، وَإِبْدَاعِ أَدَائِهِمْ،
وَإِخْلَاصِهِمْ فِي عَمَلِهِمْ، وَعَلِمْنَا أَنَّهُ قَدْ تَمَكَّنَ شَبَابُ تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْ أَخْذِ الْمُبَادَرَاتِ،
وَإِقَامَةِ الْمُؤَسَّسَاتِ وَالْمَشَارِيعِ الَّتِي أَسْهَمَتْ فِعْلًا فِي إِعْمَارِ بِلَادِهِمْ، وَتَسْخِيرِ مَوَارِدِهَا،
وَتَجْلِيلِ رَوْعَتِهَا وَجَمَالِهَا، وَرَأَيْنَا كَيْفَ نَظَّمْ أَبْنَاءُ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ مُجْتَمَعَهُمْ، وَأَقَامُوا
سُلْطَاتِهِمْ السِّتَّ، وَنَظَّمُوا دَوْلَتَهُمْ وَحُكُومَتَهُمْ، وَمَكَّنُوا جُهُودَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ

وَالِصَّلَاحِ بَيْنَ أبنَاءِ جَزِيرَتِهِمْ ، وَبِذَلِكَ تَمَكَّنُوا مِنْ طَرْدِ أَعْدَائِهِمْ؛ لِيَعِيشُوا فِي حُبِّ
وَتَعَاوُنٍ، وَرَعْدٍ وَنُموٍ وَأَمْنٍ وَسَلَامٍ، وَكَمَا تَقُولُ الأَمْثَالُ الحَكِيمَةُ (مَنْ جَدَّ وَجَدَ) وَ (مَنْ
زَرَعَ حَصَدَ)، وَ (مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ) وَ (كَمَا تَكُونُوا يُوَلِّ عَلَيْكُمْ).

وَيَخْتَتِمُ الحَكِيمُ بِنِدْبَا رِوَايَةِ قِصَّتِهِ عَن جَزِيرَةِ البَنَائِينَ وَرِحْلَةِ الشَّيخِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ
بَطْوَطَةَ إِلَى أَرْضِهَا السَّعِيدَةِ قَائِلًا: إِنَّ الدَّرْسَ الَّذِي يَتَعَلَّمُهُ المُصْلِحُونَ مِنْ رِحْلَةِ
حَكِيمِنَا الرَّحَّالَةِ إِلَى جَزِيرَةِ البَنَائِينَ هُوَ أَنَّ بِنَاءَ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالحَضَارَاتِ
الإنْسَانِيَّةِ الرُّوحيَّةِ الإِعْمَارِيَّةِ السَّامِيَّةِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهَا رُؤْيَةٌ كُونيَّةٌ رُوحيَّةٌ غَائِبَةٌ
أَخْلَاقِيَّةٌ غَيْرُ مُشَوَّهَةٍ، تَقُومُ عَلَى قِيَمِ العَدْلِ وَالإِخَاءِ وَالتَّكَامُلِ وَالتَّكَاثُلِ وَالتَّرَاحُمِ
وَالسَّلَامِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهَجٌ عَقْلِيٌّ سُنَنِيٌّ لَا تُشَوِّبُهُ شَوَائِبُ الخُرَافَةِ
وَالخُزَعْبَلَاتِ، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ كَفَاءَةَ مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ وَشُمُولِيَّتَهُ فِي كَافَةِ مَرَاجِلِ
التَّعْلِيمِ وَالتَّأهِيلِ وَالتَّدْرِيبِ المَعْرِفِيِّ وَالمِهْنِيِّ بَدءًا بِالطُّفُولَةِ حَتَّى أَعْلَى دَرَجَاتِ
التَّعْلِيمِ وَالبَحْثِ العِلْمِيِّ وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَنْفَصِمُ عَن حُسْنِ إِعْدَادِ المُعَلِّمِ وَالمُدَرِّبِ،
فَبِقُدْرِمَا لَدَى هَؤُلَاءِ مِنْ حَمَاسٍ وَقُدْرَةٍ وَإِخْلَاصٍ، بِقُدْرِمَا يَحْسُنُ تَأهِيلُ الكَوَادِرِ
العِلْمِيَّةِ وَالمِهْنِيَّةِ وَالقِيَادِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فَبِقُدْرِمَا يُحْسِنُ إِعْدَادَ كَوَادِرِ المُعَلِّمِينَ

وَالْمُرَبِّينَ وَيُكْرَمُونَ بِقَدْرِ مَا يُقْبَلُ أَكْثَرُ شَبَابِ الْأُمَّةِ قُدْرَةً إِلَى مِيدَانِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ
وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ وَهُوَ أخطرُ مَيَادِينِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَنَجَاحِهَا وَسَدَادِ مَسِيرَتِهَا وَبِنَاءِ
حَضَارَتِهَا.

وَيَسْتَطِرِدُ الْحَكِيمُ بِيَدِهَا لِيَقُولَ: وَإِذَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّعْلِيمُ هُمَا أَسَاسُ مُهِمِّ
لِبِنَاءِ قُدْرَةِ الْأَدَاءِ وَالبِنَاءِ، فَإِنَّ سَلَامَةَ التَّرْبِيَةِ وَحُسْنَ بِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ وَطَاقَاتِهَا
الْوُجْدَانِيَّةِ هُوَ الْأَسَاسُ الْأَهْمُّ لِمَتَانَةِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ وَمَصْدَرُهُ هُوَ الْأُسْرَةُ وَعَلَاقَاتِهَا
وَتَفَاعُلَاتِهَا الْوُجْدَانِيَّةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ بِرُوحِ الْقِنَاعَةِ وَالْجَوَارِ وَالْإِنْضِبَاطِ مِمَّا يُورِثُ الْأَبْنَاءَ
الثِّقَةَ بِالنَّفْسِ وَعِزَّتِهَا، وَيُنْعِي رُوحَ الْمُبَادَرَةِ وَالْإِبْدَاعِ وَإِتْقَانِ الْأَدَاءِ فِي نَفُوسِ الْأَبْنَاءِ،
وَهُوَ النَّقِيضُ لِلْمُمَارَسَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الْجَاهِلَةِ الْمَشُوْهَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْعُنْفِ وَإِرْهَابِ
السُّلْطَوِيَّةِ الَّتِي تُورِثُ التَّهَيُّبَ وَالْخَوْفَ وَالدُّلَّ وَالْيَاتِ الْكُذِبِ، وَيُمْكِنُ لِصِفَاتِ
الْخُضُوعِ وَالنِّفَاقِ لِحِمَايَةِ الذَّاتِ مِنْ أَلْوَانِ مَا يُلَاقُونَهُ مِنَ التَّرْوِيعِ وَالْعُنْفِ أَنَّهُ يَجِبُ
أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُمَكِنُ لِلْأُمَّةِ أَنْ تُحْسِنَ التَّرْبِيَةَ إِلَّا بِاهْتِمَامِ الْمُفَكِّرِينَ وَالتَّرْبَوِيِّينَ
بِالْأَدَبِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الْوَالِدِيَّةِ، وَدُونَ تَنْمِيَةِ قُدْرَاتِ الْأُمَّهَاتِ وَالْأَبَاءِ التَّرْبَوِيَّةِ الْوَالِدِيَّةِ،
فَلَا مَجَالَ لِامْتِلَاكِ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَجُودَةِ الْأَدَاءِ، وَبِنَاءِ الْأَنْظِمَةِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ

وَتَحْقِيقِ الْغَايَاتِ وَالْمَقَاصِدِ وَالتَّفَوُّقِ فِي سَبَاقِ أَدَاءِ الْأُمَمِ وَالْحَضَارَاتِ.
وَبِكُلِّ التَّفَكُّرِ وَالتَّأَمُّلِ يَقُولُ بَيِّدَبَا: نَعَمْ، صَدَقَ الْقَائِلُ "مَنْ شَبَّ عَلَى شَيْءٍ شَابَ عَلَيْهِ".

يَقُولُ الشَّيْخُ: إِذَا رَأَيْتَ أُمَّةً، تُسِنِدُ إِلَى خَيْرَةِ شَبَابِهَا، مِهْنَةَ التَّعْلِيمِ، وَتُعِزُّهُمْ، وَتُكْرِمُهُمْ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَشَبَابَهَا، فِي خَيْرٍ، وَقِيَادَاتِهَا فِي خَيْرٍ وَمُسْتَقْبَلِهَا فِي خَيْرٍ، أَمَّا إِذَا رَأَيْتَ الْمُعَلِّمِينَ فِيهَا، الْأَقْلَّ كَفَاءَةً وَقُدْرَةً، وَالْأَقْلَّ إِكْرَامًا وَإِعْزَازًا، فَاعْلَمْ أَنَّهَا أُمَّةٌ خَاسِرَةٌ، ضَائِعَةٌ، مُضَيِّعَةٌ، وَأَنَّ حَيَاتِهَا مُتَخَبِّطَةٌ، مُظْلِمَةٌ، وَأَنَّ مُسْتَقْبَلِهَا، أَشَدُّ إِظْلَامًا، وَضَعْفًا، وَانْحِطَاطًا.

بِهَذِهِ النِّهَايَةِ السَّعِيدَةِ انْتَهَتْ أَيْهَا الْأَعْرَازُ قِصَّةُ الْحَكِيمِ بَيِّدَبَا عَنْ جَزِيرَةِ الْبَنَائِينِ، وَمَا كَانَ مِنْ حَالِ أَهْلِهَا، وَكَيْفَ -بِالتَّعَاوُنِ وَالتَّأَزُّرِ وَالتَّكَاوُلِ وَالتَّشَاوُرِ وَالْإِخْلَاصِ- غَيَّرُوا حَالَهُمُ السَّيِّئَ إِلَى أَحْسَنِ حَالٍ، هَذَا كُلُّ مَا وَجَدَ مُدَوِّنَا بِكُلِّ الدِّقَّةِ وَالْعِنَايَةِ، فِي الْقِصَّةِ الْمَفْقُودَةِ، مِنْ رَوَايَاتِ الْكِتَابِ الْقِصَصِيِّ التَّرَاثِيِّ الشَّهِيرِ "كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ"، فَعَسَى أَيْهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ أَنْ نَسْتَفِيدَ نَحْنُ أَيْضًا مِمَّا جَاءَ فِيهَا، كَمَا هِيَ غَايَةٌ مِنْ كَتَبِهَا

مِنْ نُصْحٍ وَحِكْمَةٍ وَتَبْصِيرٍ لِفَهْمِ مَعْنَى حَيَاتِنَا، وَبِنَاءِ نِظَامِنَا، وَحِمَايَةِ أَمْنِنَا وَبِلَادِنَا،
وَتَسْخِيرِ مَوَارِدِنَا لِسَدِّ حَاجَاتِنَا، وَصِيَانَةِ كِرَامَتِنَا، وَإِعْمَارِ عَالَمِنَا، وَحَقُّ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبَرَ
لِفَيْلَسُوفِنَا الْعَزِيزِ بَيْدَبَا وَلِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ وَتَقْدِيرٍ عَلَى
مَا أَسَدِيَاهُ لَنَا مِنَ التَّوْضِيحِ وَالنُّصْحِ، وَالتَّبْصِيرِ وَالتَّحْذِيرِ.

وَإِذَا تَصَوَّرْنَا أَيُّهَا الْقَارِيُّ الْعَزِيزُ، أَنَّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، حِينَ تُفَكِّرُ فِي السِّيَاحَةِ شَرْقًا
وَعَرْبًا، وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَتَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ؛ لِتَصِلَ إِلَى الْأُفُقِ الْوَاسِعِ،
خَلْفَ خَطِّ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ، عِنْدَ مَطْلِعِ الْقَمَرِ، وَتَنْزِلُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْوَادِعَةِ
الْجَمِيلَةِ؛ فَإِنَّكَ وَلَا شَكَّ، سَوْفَ تَقْضِي أَيَّامًا طَيِّبَةً، فِي ذَلِكَ الْوَادِي الْأَخْضَرَ الْبَدِيعِ،
بَيْنَ أَبْنَائِهِ الْأَقْوِيَاءِ الْعَامِلِينَ الطَّيِّبِينَ السَّلَامِيِّينَ، وَسَوْفَ تَسْتَمْتِعُ مَعَهُمْ، بِكُلِّ
الطَّيِّبَاتِ الشَّهِيَّةِ اللَّذِيذَةِ، دُونَ أَنْ يُعَكِّرَ صَفُوكَ أَحَدٌ مِنَ الْكُؤَاسِرِ الْفَتَّاكَةِ الشَّرِيرَةِ،
وَسَوْفَ تَعُودُ مِنْ بِلَادِهِمُ الْجَمِيلَةِ، بِإِذْنِ اللَّهِ، بِكَثِيرٍ مِنَ الْهَدَايَا وَالتُّحَفِ الرَّائِعَةِ
الْمُتَّقِنَةِ.

أَيُّهَا الْقَارِيُّ الْعَزِيزُ؛ فِي نِهَايَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالتِّي نَرْجُو أَنْ تَكُونَ قَدْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا،
وَاسْتَفَدْتَ مِنْ عِظَاتِهَا وَدُرُوسِهَا وَحِوَارَاتِهَا، وَبِمَا فِيهَا مِنْ حِكْمِ الْفَيْلَسُوفِ بَيْدَبَا

وَالشَّيْخِ الرَّحَّالَةِ الْحَكِيمِ ابْنِ بَطُوطَةَ، وَأَنَّنا نَتَمَنَّى لَكَ مُسْتَقْبَلًا سَعِيدًا، وَحَيَاةً
مُبْدِعَةً مُنْتِجَةً، وَمُجْتَمَعًا عَامِلًا مُتَكَافِلًا مُتَّحِدًا مُتَّازِرًا، وَأُمَّةً إِسْلَامِيَّةً عَزِيزَةً قَادِرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ."

"الْمَفْهُومُ الْقُرْآنِيُّ : أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ"

قَدَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهَا الْأَنْظِمَةُ وَالْمُؤَسَّسَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ هِدَايَةً لِلْبَشَرِيَّةِ، وَتَرَكَ لَهُمْ أَمْرًا سَلُوبًا تَحْقِيقِيًّا وَوَسَائِلَهَا الْمُتَغَيِّرَةَ الْمُتَطَوِّرَةَ، عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ تَطَوُّرُ أَحْوَالِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فِي اتِّسَاعِ سَقْفِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّقَدُّمِ الْحَضَارِيِّ الْإِنْسَانِيِّ، وَمَا يَلْحَقُ ذَلِكَ مِنْ تَغْيِرَاتٍ وَتَطَوُّرَاتٍ وَإِمْكَانَاتٍ وَتَحْدِيَّاتٍ.

وَمِنْ أُبْرَزِ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي تَنَبَّهَ لَهَا مُفَكِّرُو الْأُمَّةِ مِنْذُ أَمَدٍ لَيْسَ بِالْبَعِيدِ، "مَفْهُومُ الشُّورَى" بِصِفَتِهِ مُؤَسَّسَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ هَامَّةٌ أَهْمَلْ شَأْنُهَا، وَلَمْ تُحَوَّلْ إِلَى مُؤَسَّسَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ فَاعِلَةٍ فِي الْمَاضِي.

وَلِذَلِكَ نَحْنُ نَلْفِتُ النَّظْرَ إِلَى أَهْمِيَّةِ إِعَادَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلتَّنَبُّهِ إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الْأُخْرَى اللَّازِمَةِ لِإِبْنَاءِ النَّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الْمُعَاصِرِ، وَبِشَكْلِ فِعَالٍ سَلِيمٍ، وَهِيَ مَفَاهِيمٌ لَمْ يَتَنَبَّهَ لَهَا الْمُفَكِّرُونَ، بِالشَّكْلِ الْمُنَاسِبِ، الْيَوْمَ؛ وَذَلِكَ، إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بِسَبَبِ تَعَدُّدِ أَدْوَارِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِوَصْفِهِ رَسُولًا مُبَلِّغًا مُوحَى إِلَيْهِ، وَبِكَوْنِهِ دَاعِيَةً وَمُعَلِّمًا، وَبِكَوْنِهِ رَئِيسَ دَوْلَةٍ، وَبَنَائِي مُجْتَمَعٍ، وَهِيَ

الأدوار التي كان يجب أن يفصل المسلمون بعضها عن بعض بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فدور النبوة وبلاغ الرسالة انتهى بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولكن الصوفية والشيعية عملوا على استمرار هذا الدور في كرامات المشايخ والأولياء والمعصومين وإلهاماتهم وتواصلاتهم؛ أما دور الرسول صلى الله عليه وسلم داعية ومعلمًا فكان يجب أن يفصل عن دور رئيس الحكومة وبرامج حكوماته السياسية ومن يمثلهم بالضرورة من القوى والمصالح، وبذلك لا يوظف الدين والقدسية في خدمة المصالح السياسية الخاصة، والتي سوف تنتهي ولا شك، وكما أثبت تاريخ الأمة إلى توظيف الدين سياسيًا، وتمكين حكم الاستبداد والفساد.

إن استئصال دور التعليم والدعوة وإسنادها إلى إدارة وتنظيم مؤسسة أو مؤسسات تختار قيادتها الأمة، بشكل مباشر وتمكين دورها المستقل في بناء شخصية المسلم وعقله ووجدانه، فإن ذلك هو الذي يدعّم الوعي، ويمكّن دور الدين والقيم، ويحمي حقوق الأمة، ويجعل من الأمة وصيًا على الحكام، وموجهًا لأدائهم وبرامجهم السياسية، وليس أمة جاهلة خائفة مستعبدة وذئابًا وضباعًا

وَتَعَالِبَ أَوْصِيَاءَ.

وَهُنَا نَلْحِظُ أَنَّ الثَّبَاتَ النَّسْبِيَّ لِطَبِيعَةِ الْعَصْرِ مُنْذُ بَدَأَ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةَ وَلَا مَدِّ طَوِيلٍ تُسَاعَدَ عَلَى صَرْفِ أَنْظَارِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ، عَمَلِيًّا، إِلَى تَرْتِيبَاتِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُشْرِفَةِ الزَّمَانِيَّةِ الْمَكَانِيَّةِ فِي مُجْمَلِهَا، أَكْثَرُ مِنْهُ إِلَى اسْتِلْهَامِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِمَفَاهِيمِهِ وَأَبْعَادِهِ الْأَزْمَانِيَّةِ وَالْأَمَكَانِيَّةِ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ نَوَدُّ أَنْ نَلْفِتَ النَّظْرَ إِلَى آيَتَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ، تَتَعَلَّقَانِ بِمَفْهُومِ الدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ الدِّيْنِيِّ، بِوَصْفِهِ مُؤَسَّسَةً اجْتِمَاعِيَّةً تَرْبَوِيَّةً هَامَّةً، كَانَ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ إِقَامَتُهَا مُؤَسَّسَةً مُسْتَقْلَلَةً، وَتَكُونُ لَهَا جَمِيعُ ضَمَانَاتِ الْإِسْتِقْلَالِ، عَلَى قَدَمِ الْمُسَاوَاةِ مَعَ مُؤَسَّسَةِ الدُّسْتُورِ، وَمُؤَسَّسَةِ الشُّورَى، وَمُؤَسَّسَةِ الْقَضَاءِ، وَمَعَ بَقِيَّةِ مُؤَسَّسَاتِ النِّظَامِ الْجَمَاعِيِّ الْأَسَاسِيَّةِ، حَتَّى تَبْقَى عَلَى غِرَارِهَا، مُؤَسَّسَةً مُسْتَقْلَلَةً تُؤَدِّي دَوْرَهَا الْبِنَاءَ الْفَعَّالَ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ الدِّيْنِيِّ وَالْقِيَمِيِّ؛ بَعِيدًا عَنِ آفَةِ التَّشْوِيهِ وَالتَّهْمِيشِ، أَيًّا كَانَ نَوْعُهُ، بِالْإِلْغَاءِ، وَبِتَحْوِيلِ مَفْهُومِ الدِّيْنِ وَالدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ الْقِيَمِيِّ إِلَى مُجَرَّدِ شِعَارَاتٍ فَارِغَةٍ جَوْفَاءَ، وَإِقَامَةِ الْحَفَلَاتِ وَالْمَوَالِدِ، وَاسْتِصْدَارِ فِتَاوَى الدَّعْمِ وَالتَّيْيِيدِ لِأَصْحَابِ السُّلْطَانِ، وَمَعَارِكِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ

بِالِاسْتِغْلَالِ وَالتَّشْوِيهِ؛ وَذَلِكَ بِتَوْظِيْفِ الدِّينِ وَالْقَدَاسَةِ مِنْ قِبَلِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ
وَالسُّلْطَةِ وَالْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ؛ بِاسْتِخْدَامِ قَدَاسَةِ الدِّينِ وَسِيْلَةً لِإِشَاعَةِ الْخَوْفِ
وَالرُّعْبِ، وَتَكْمِيْمِ الْأَفْوَاهِ، وَإِلْغَاءِ الْعُقُولِ؛ خِدْمَةً لِلْسُّلْطَةِ وَسِيَاسَاتِهَا وَمَصَالِحِهَا
الْخَاصَّةِ، فِي الْأَسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ.

أَمَّا الْآيَتَانِ أَوْ الْمَفْهُومَانِ الْقُرْآنِيَّانِ فَهَمَّا قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ
أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)
آلِ عِمْرَانَ (١٠٤: ٣) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ
فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ) التَّوْبَةَ (٩: ١٢٢)، وَكَلِمَةُ (الْأُمَّةِ) هُنَا تَعْنِي فِئَةً أَوْ جَمَاعَةً أَوْ هَيْئَةً أَوْ مُؤَسَّسَةً
مُسْتَقِلَّةً، بِمَعْنَى أَنَّهَا جَمَاعَةٌ أَوْ بَلْغَةُ الْعَصْرِ مُؤَسَّسَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لَا تُرَاعِي إِلَّا مُهِمَّتَهَا،
وَالْوِظِيْفَةَ الْمَنْوُطَةَ بِهَا، مِنْ دُونِ سُلْطَةٍ وَلَا تَأْثِيرٍ مِنْ أَيِّ مَصَالِحٍ أَوْ اعْتِبَارَاتٍ، إِلَّا مِنْ
ثِقَةِ الْأُمَّةِ، وَدَعْمِهَا، وَالِاقْتِنَاعِ بِأَدَائِهَا، وَبِاقْتِنَاعِهَا، وَبِرِقَابَةِ مِنْهَا.

كَمَا نَوَدُّ أَنْ نُلْفِتَ النَّظَرَ أَيْضًا إِلَى أَنَّ هُنَاكَ مَفَاهِيمَ قُرْآنِيَّةً أُخْرَى عَدِيدَةٌ عَدَا
هَذَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ يَجِبُ التَّنَبُّهُ لَهَا، وَمَا يُهْمُنَا هُنَا هُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى مَفْهُومَيْنِ آخَرَيْنِ فِي

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعَ مَزِيدٍ مِنَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، وَالِاهْتِمَامِ؛ لِيَكُونَ
أَسَاسَ بِنَاءِ قَوَانِينِ الْأُسْرَةِ وَتَطْبِيقَاتِهَا الْمُعَاصِرَةِ، وَذَلِكَ فِي ضَوْءِ تَطَوُّرِ الْوَاقِعِ
وَالْإِمْكَانَاتِ وَالْحَاجَاتِ وَالتَّحْدِيَّاتِ، وَأَنْ يُعَادَ النَّظْرُ فِي أَمْرٍ أَيْ تَطْبِيقَاتٍ تُرَائِيَّةٍ لَا
تُحَقِّقُ -لِتَغْيِيرِ الظُّرُوفِ وَالْحَاجَاتِ وَالْإِمْكَانَاتِ وَالتَّحْدِيَّاتِ- هَذِهِ الْمَفَاهِيمَ الْقُرْآنِيَّةَ
وَالْغَايَةَ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا يَجِبُ تَعْدِيلُهَا؛ يَتِمُّ -بِشْكَلٍ حَقِيقِيٍّ وَفَعَّالٍ- تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ
وَأَهْدَافِهَا وَالْغَايَةَ مِنْهَا، فِي عِلَاقَاتِ الْأُسْرَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا.

وَهَذَانِ الْمَفْهُومَانِ الْقُرْآنِيَّانِ هُمَا: "إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ" أَوْ: "تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ"،
يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ: (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) (٦٥: ٢)، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ
فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) (٢: ٢٢٩).

وَبِرَغْمِ أَنْ عُلَمَاءَ السَّلَفِ قَدْ تَنَبَّهُوا إِلَى مَفْهُومِ تَعَدُّدِ الْأَدْوَارِ الَّتِي أَدَّاهَا الرَّسُولُ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، وَبِالذَّاتِ إِلَى دَوْرِ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَدَوْرِ
الْحُكْمِ وَبِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَلَكِنْ نَظَرًا إِلَى الظُّرُوفِ الْمُتَسَارِعَةِ، وَالْمَوْزُونَاتِ الْمُتَجَدِّدَةِ،
وَالْمَصَالِحِ الطَّاعِيَةِ، وَمَا أَلَمَّ بِالنِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ عَلَى الْعَهْدِ الْأَوَّلِ مِنْ كَوَارِثِ انْهِيَارِ

نِظَامِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَسَيْطَرَةِ مَفَاهِيمِ النَّظَامِ الْقَبَلِيِّ وَقِيَامِ نِظَامِ الْإِسْتِبْدَادِ وَالْمُلْكِ الْعَضُوضِ الْعِرْقِيِّ، وَمَا تَبِعَ ذَلِكَ مِنْ ثَقَافَاتِ الْبُلْدَانِ وَالْأُمَمِ الَّتِي دَخَلَتْ الْإِسْلَامَ، وَطُغْيَانِ رِجَالِ السُّلْطَةِ، وَمَصَالِحِهِمْ وَمَصَالِحِ أَعْوَانِهِمْ، إِلَى جَانِبِ عَزْلِ رِجَالِ الْمُفَكِّرِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ مِنْ رِجَالِ مَدْرَسَةِ الْمَدِينَةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالتَّنْكِيلِ بِهِمْ وَبِالتَّالِي عَزْلِ مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ عَنِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ، هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ، وَلِعَدَمِ تَغْيِيرِ طَبِيعَةِ الزَّمَنِ بِشَكْلِ جَذْرِيٍّ لِأَمَدٍ طَوِيلٍ مِنْ حَيْثُ الْإِمْكَانَاتِ وَالْإِحْتِيَاجَاتِ وَالتَّحَدِّيَّاتِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ قَدْ أَسْهَمَ بِصِفَةِ عَامَّةٍ وَجَوْهَرِيَّةٍ فِي مَحْدُودِيَّةِ فِكْرِ جُلِّ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَجَعَلَهُمْ يَمِيلُونَ الْيَوْمَ إِلَى التَّقْلِيدِ وَالْمُحَاكَاةِ وَالْإِعْتِمَادِ عَلَى التَّطْبِيقَاتِ التَّشْرِيعِيَّةِ لِلْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، وَسَلَفِ الْفُقَهَاءِ الَّتِي خَاطَبَتْ أَحْوَالَ الْمُجْتَمَعِ، عَلَى الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، وَقُرُونٍ لَاحِقَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَلْتَزِمُونَ حَرْفَهَا، أَكْثَرَ مِنْ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى الْمَفَاهِيمِ التَّشْرِيعِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَدَلَالَاتِهَا وَمَقَاصِدِهَا، اللَّازِمَانِيَّةِ وَاللَّامْكَانِيَّةِ، وَتَطْوِيرِ تَطْبِيقَاتِهَا؛ بِمَا يُلَاقِي جَوْهَرَ الْمُتَغْيِرَاتِ الْمُعَاصِرَةِ وَأَثَارَهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَعَرِفَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مُنْذُ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ بِظَاهِرَةِ التَّقْلِيدِ وَقَفْلِ بَابِ الْاجْتِهَادِ مِنْ جِهَةٍ، وَالَّتِي اتَّسَمَتْ بِالْمُبَالَغَةِ فِي

تَصِيدُ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ وَالتُّرَاثِيَّةِ وَالتَّسْتَرِ خَلْفَ قُدْسِيَّتَيْهَا.

وَيُهْمُنَا هُنَا أَنْ نُشِيرَ إِلَى أَنَّ نَجَاحَ عَهْدِ الْخَلِيفَتَيْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَصَدْرَ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ فَصْلِ دَوْرِ الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ عَنِ دَوْرِ السُّلْطَةِ وَالْحُكْمِ، هُوَ أَنَّ هَذِهِ الْعُهُودَ بَقِيَتْ فِيهَا تَرْتِيبَاتُ الْحُكْمِ وَرِجَالِهِ وَأَدْوَارِهِمْ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ. وَلَكِنْ مَعَ مَوْتِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، وَضَعْفِ جُلُومِهِمْ، وَتَقَدُّمِ سِنِّيهِمْ، وَمَعَ تَغْيِيرِ أَحْوَالِ النَّاسِ وَالْعَصْرِ بَعْدَ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ، وَامْتِدَادِ الْفُتُوحِ، وَدُخُولِ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ فِي الدَّوْلَةِ وَالْإِسْلَامِ، فَقَدْ أَخَذَتِ الْأَثَارُ السَّلْبِيَّةُ تَظْهَرُ فِيمَا رَأَيْنَا مِنْ حَالِ الدَّوْلَةِ وَالْحُكْمِ، وَمَا دَارَ مِنْ صِرَاعَاتٍ انْتَهَتْ بِانْتِهَاءِ عَهْدِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَتَمَكَّنِ الْقَبْلِيَّةُ وَالشُّعُوبِيَّةُ وَالْإِسْتِبْدَادُ وَالْفَسَادُ وَالْكَهَانَةُ وَالْمُلْكُ الْعَضُوضُ.

وَفِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي نَعِيشُهُ، وَالْمُتَبَاعِدِ جَذْرِيًّا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْوُجُوهِ، عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْضَاعُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، وَخَاصَّةً مَعَ تَنَامِي الْهَجْمَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ، بِفَضَائِلِهَا وَعَنْكَبُوتِيَّاتِهَا وَنُفُوذِهَا الْعِلْمِيِّ وَالتِّكْنُولُوجِيِّ وَالْإِقْتِصَادِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ، وَتَأْثِيرِهَا السَّلْبِيِّ فِي الْأُمَّةِ، وَفِي شَبَابِهَا؛ نَجِدُ أَنَّ الْأُمَّةَ بِحَاجَةٍ إِلَى مُرَاجَعَةِ

مَقُولَاتِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ عَامَّةً، وَالسِّيَاسِيِّ مِنْهُ خَاصَّةً، وَإِلَى مُرَاجَعَاتِ حَالِ مَنَاهِجِ
الْأُمَّةِ الْحَيَاتِيَّةِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ التَّشْرِيعَاتِ التَّرَاثِيَّةِ، وَذَلِكَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى مُنْطَلَقِ
الْمَفَاهِيمِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَمَقَاصِدِهَا، وَإِلَى الاسْتِفَادَةِ مِنْ حِكْمَةِ التَّنْزِيلِ النَّبَوِيِّ وَالْعَهْدِ
الرَّاشِدِ عَلَى حَالِ زَمَانِهِمْ وَمَكَانِهِمْ لِتَوَاكِبِ تَطَوُّرَاتِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِمْكَانَاتِهَا
وَتَحْدِيثَاتِهَا؛ بِحَيْثُ تُحَدِّدُ الثَّوَابِتُ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَتُوضِّحُ مَقَاصِدُهَا، وَيُجَدِّدُ خَطَابُهَا؛
فَلَا تُخْلَطُ الثَّوَابِتُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِغَيْرِ الثَّوَابِتِ أَوْ يُسَاءُ فَهْمُهَا؛ طَلَبًا لِتَحْقِيقِ غَايَاتِ
الْهُدَايَةِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَمَاكِنِ وَالْأَزْمَانِ، وَاخْتِلَافِهَا.

وَفِي هَذَا الصِّدَدِ مِنَ الْمُهَيْمِ أَنْ نُنْذِرَ أَنَّ مُؤَسَّسَاتِ التَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ وَالتَّبَشِيرِ لِلْأَدْيَانِ
الْإِبْرَاهِيمِيَّةِ السَّالِفَةِ، الَّتِي هِيَ الْمَعْبُدُ وَالْكَنَيْسَةُ، كَانَتْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ تَأْثِيرُهَا
وَعَطَاؤُهَا مُضَاعَفًا وَأَعْظَمَ فَاعِلِيَّةً رُوحِيَّةً، لَوْلَا مَا أَصَابَ هَذِهِ الْأَدْيَانِ مِنْ انْحِرَافَاتٍ
وَتَحْرِيفَاتٍ وَخُرَافَاتٍ، مَا جَاءَ الْإِسْلَامُ إِلَّا لِيُصَحِّحَهَا، وَلِيُرْشِدَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي مَرَحَلَةِ
الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَالَمِيَّةِ وَتَحْدِيدَاتِهَا.

وَالْإِسْلَامُ بِاعْتِبَارِهِ الرِّسَالَةَ الْإِلَهِيَّةَ الْخَاتِمَةَ، الْمُهَيْمِنَةَ، عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْأَدْيَانِ،
وَخَاصَّةً أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الْأَسَاسُ وَالْأَوَّلُ لِهَذَا الدِّيْنِ،

"وَالْمُهَيْمِنُ" الْمُصَحِّحُ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الرِّسَالَاتِ (وَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (الْمَائِدَة: ٤٨)، كَمَا حَفِظَتْ جُهُودُ الْعُلَمَاءِ الْكَثِيرِ مِنْ صَحِيحِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ: رَوَايَةً وَمَثَنًا مِنْ دَاءِ التَّحْرِيفِ وَالْخُرَافَةِ وَالشَّعْوَذَةِ؛ كُلُّ ذَلِكَ يَجْعَلُ بِنَاءَ مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ عَامَّةً وَمُؤَسَّسَاتِ الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ وَالدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ خَاصَّةً، وَفَصْلَهَا عَنِ مُؤَسَّسَةِ السُّلْطَةِ وَالْحُكْمِ، ضَرْوْرَةً شَدِيدَةً، وَعَنْصُرًا مُهِمًّا لِلْقَضَاءِ عَلَى الْإِسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ، وَإِلِنْهَاضِ الْأُمَّةِ وَإِصْلَاحِ رُؤْيَيْهَا وَفِكْرَهَا وَمَنَهِجِ تَعْلِيمِ وَتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا بَعِيدًا عَنِ آيَةِ مُؤَثِّرَاتٍ خَاصَّةٍ أَوْ سَلْبِيَّةٍ، تُؤَظَّفُ الدِّينَ أَوْ تُهَمِّشُهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْجِدُ وَالْمَدْرَسَةُ، وَتَكُونُ مَنَهِجُ الدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مِمَّا تَخْتَصُّ بِهِ وَحْدَهَا، غَيْرَ خَاضِعَةٍ لِلْسُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ وَمَا لَهَا أَيْ تَحْكُمُ فِيهَا، أَوْ سُلْطَةِ عَلَمِيَّاتِهَا؛ وَبِحَيْثُ لَا تَكُونُ هُنَاكَ رِقَابَةٌ عَلَى هَذِهِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهَا وَالْخَاصَّةِ، وَلَا عَلَى وَسَائِلِهَا وَنَشَاطَاتِهَا، إِلَّا رِقَابَةُ الْأُمَّةِ وَمُؤَسَّسَاتِهَا وَمُمَثِّلِيهَا الْمُؤَهَّلِينَ الْمُنتَخَبِينَ لِهَذَا الْغَرَضِ وَحْدَهُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ تَصْفُو الرُّؤْيَةُ، وَيَسْتَقِيمَ الْفِكْرُ وَيُقْضَى عَلَى الْإِسْتِبْدَادِ وَالْفَسَادِ، وَيَسْتَقِيمَ بِنَاءُ مُؤَسَّسَاتِ الْحُكْمِ وَالْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، عَلَى أُسُسٍ وَمَقَاصِدٍ رُوحِيَّةٍ حَضَارِيَّةٍ.

وَمَلْحُوظَةٌ آخِرَةٌ، وَهِيَ أَنَّ مِنَ الْمُهْمِّ أَلَّا يَسْتَمِرَّ خَلْطُ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ السِّيَاسِيِّ
 بِشَأْنِ عِلَاقَةِ، الدِّينِ بِالدَّوْلَةِ وَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِعِلَاقَةِ سُلْطَةِ الْحُكْمِ (السُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ)
 بِالدِّينِ وَالدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ الدِّيْنِيِّ وَالتَّعْلِيمِ الْعَامِّ، وَهَلْ يُعَدُّ كَفُّ يَدِ السُّلْطَةِ
 وَمَصَالِحِهَا عَنِ السَّيْطَرَةِ عَلَى دُورِ الدِّينِ وَالدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ، فِي
 الدَّوْلَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، أَمْرًا إِيْجَابِيًّا؟ أَهَوْ فَصْلٌ لِلدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ أَمْ هُوَ كَفُّ لِيَدِ السُّلْطَةِ
 عَنِ تَشْوِيهِ الدِّينِ بِالتَّهْمِيْشِ أَوْ بِالتَّوْظِيْفِ وَالاِسْتِغْلَالِ لِخِدْمَةِ مَصَالِحِ الْحُكْمِ
 وَالْحُكَّامِ وَأَصْحَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ؟ فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ اخْتَلَطَ فِيهَا الْأَمْرُ عَلَى الْكَثِيرِينَ،
 وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مِنَ الْمُهْمِّ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ فَصْلَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ عَنِ
 السُّلْطَةِ التَّنْفِيْذِيَّةِ، وَعَنْ بَرَامِجِهَا الْحَيَاتِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَعَنْ الْمَصَالِحِ الَّتِي تُمَثِّلُهَا
 وَتَنْحَازُ إِلَيْهَا، لَيْسَ فَصْلًا لِلدِّينِ عَنِ الدَّوْلَةِ، وَلَكِنَّهُ خِدْمَةٌ لِلْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ، وَحِفْظٌ
 لِلدِّينِ وَالْعَقَائِدِ وَالْقَدَاسَةِ عَنِ التَّهْمِيْشِ أَوْ التَّوْظِيْفِ لِخِدْمَةِ السُّلْطَةِ وَرِجَالِهَا
 وَالْمَصَالِحِ وَالْفَنَاتِ الَّتِي تَنْحَازُ إِلَيْهَا، فَسُلْطَةُ الْحُكْمِ لَيْسَتْ الدَّوْلَةُ، بَلْ إِنَّ الشَّعْبَ هُوَ
 الْأَسَاسُ وَالْأَهْمُّ فِي تَكْوِينِ الدَّوْلَةِ، وَتُسْتَمَدُّ مِنْ خِيَارِهِ شَرْعِيَّةُ الْحُكَّامِ، فَالْمَطْلُوبُ هُوَ
 أَنْ يُجْعَلَ أَمْرُ الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي يَدِ الْأُمَّةِ لِتَكْوِينِ كَوَادِرِهَا، وَتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا،
 عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيْحِ، بَعِيدًا عَنِ مُؤَثِّرَاتِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ.

فَالأَمْرُ هُوَ إِسْنَادُ الدِّينِ وَالْقِيَمِ وَالِدَّعْوَةَ وَالتَّرْبِيَةَ وَالتَّعْلِيمِ الدِّيْنِيَّ إِلَى الأُمَّةِ؛ لِكَيْ تُعَدَّ
أَبْنَاءَهَا لِأَدَاءِ أَدْوَارِهِمْ، وَإِصْلَاحِ مُؤَسَّسَاتِ حَيَاتِهِمُ العَامَّةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ مُؤَسَّسَةُ الحُكْمِ
وَالسُّلْطَةِ، وَفَقَ أَوْلِيَّاتِهِمُ المَبْنِيَّةِ عَلَى مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَمَبَادِيئِهِ وَقِيَمِهِ السَّامِيَةِ.

إِنَّ تَعْلِيمَ الدِّينِ وَالعَقَائِدِ وَالأَخْلَاقِ، تَكُونُ خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِِبِ وَالمَآرِبِ هُوَ أَفْضَلُ
السُّبُلِ لِخِدْمَةِ الدِّينِ وَالعَقَائِدِ وَالقِيَمِ فِي المُجْتَمَعِ وَالدَّوْلَةِ، وَأَهْمُ خُطْوَةٍ لِبِنَاءِ قَاعِدَةِ
الْوَعْيِ السِّيَاسِيِّ وَالجَمَاعِيِّ السَّلِيمِ الَّذِي يُرْشِدُ خِيَارَاتِ المُوَاطِنِينَ بِشَأْنِ التَّشْرِيعَاتِ
الجَمَاعِيَّةِ وَالبَرَامِجِ الحَيَاتِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَيُوعِيهِمْ بِشَكْلِ تَوَافُقِيٍّ إِلَى تَحْقِيقِ مَقَاصِدِ
الدِّينِ، وَإِعْلَاءِ شَأْنِ القِيَمِ وَالأَخْلَاقِ فِي المُجْتَمَعِ.

وَهَذَا يَعْني بِاخْتِصَارٍ أَنَّ فَصْلَ الدِّينِ وَالقَدَاسَةِ عَنِ السُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ هُوَ حِمَايَةُ
لِلدِّينِ وَالقَدَاسَةِ مِنَ التَّهْمِيشِ وَالتَّشْوِيهِ وَالإِسْتِغْلَالِ، وَتَحْقِيقِ مَقَاصِدِهَا، وَإِعْلَاءِ
مَكَانَتِهَا فِي الدَّوْلَةِ وَالمُجْتَمَعِ، أَيَّ أَنَّ فَصْلَ الدِّينِ وَالقَدَاسَةِ سَطْوَةً عَنِ السُّلْطَةِ
التَّنْفِيذِيَّةِ وَليْسَ فَصْلًا لِهَمَا عَنِ الدَّوْلَةِ، بَلْ هُوَ قُوَّةٌ وَتَمَكِينٌ لِهَمَا فِي الدَّوْلَةِ وَالمُجْتَمَعِ.

وَمِنَ المُهْمِ الإِشَارَةُ هُنَا إِلَى أَنَّهُ لِكَيْ تَكُونَ الأُمَّةُ هِيَ الوَصِيُّ عَلَى السُّلْطَةِ وَمَنْبَعِ
الشَّرْعِيَّةِ فِي وَاقِعِ العَالَمِ المُعَاصِرِ، فَإِنَّ قِيَامَ مُؤَسَّسَاتِ إِعْلَامِيَّةِ مُسْتَقْلِلَةٍ تَخْدُمُ إِرَادَةَ

الأُمَّة وتُعَبِّرُ عَنْ مَصَالِحِهَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ، عَلَى غِرَارِ مُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِ الدِّيْنِيِّ الْمُسْتَقْلَةِ الَّتِي تُمَدُّ الْأُمَّةَ بِالرُّؤْيَةِ وَالْقِيَمِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْإِعْلَامِيَّةَ الْمُسْتَقْلَةَ الْعَامِلَةَ مِنْ أَجْلِ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَحَدَهَا، وَالْمُمَوَّلَةَ مِنْ قِبَلِ الْأَوْقَافِ وَالْمَالِ الْعَامِّ، هِيَ الَّتِي تُمَدُّ الْأُمَّةَ بِالْحَقَائِقِ، وَتُقَدِّمُ لَهَا الدَّلِيلَ الْمُرْشِدَ، فِي مُوَاجَهَةِ مَصَالِحِ الْإِعْلَامِ الْخَاصِّ وَالتَّجَارِي وَتَضْلِيلَاتِهِ، وَفِي مُوَاجَهَةِ الْإِعْلَامِ الْحُكُومِيِّ (السُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ) وَتَحْيُزَاتِهِ، وَكَذَلِكَ فِي مُوَاجَهَةِ مَصَالِحِ الْإِعْلَامِ الْأَجْنَبِيِّ وَشِرَاكِه.

إِنَّ دَوْرَ الْإِعْلَامِ فِي تَرْشِيدِ الْأُمَّةِ أَمَامَ قَنَوَاتِ أَبْوَابِ الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ وَالسُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ إِذَا لَمْ يُوَاجَهْ بِإِعْلَامٍ عَامٍّ مِهْنِيٍّ جَيِّدٍ مُسْتَقِلٍّ، فَإِنَّ الْإِعْلَامَ الْخَاصَّ وَإِعْلَامَ السُّلْطَةِ التَّنْفِيذِيَّةِ الْمُرْوَجِينَ لِوَجْهَةِ نَظَرِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَهُوَ الدَّاءُ الَّذِي تُوَاجِهُهُ مَا يُسَمَّى بِالْأَنْظِمَةِ الدِّيْمُقْرَاطِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَالَّتِي إِذَا وُجِدَ فِيهَا قَنَوَاتُ إِعْلَامٍ عَامٍّ مُسْتَقِلٍّ فَهُوَ لَيْسَ عَلَى الْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ قُدْرَةً وَكِفَاءَةً وَتَمْوِيلاً مِمَّا تَدْفَعُ مَعَهُ هَذِهِ الشُّعُوبُ ثَمَنًا غَالِيًا مِنْ مَوَارِدِهَا وَدِمَائِهَا وَإِنْسَانِيَّتِهَا ثَمَنًا لِلتَّفْرِيطِ فِيهِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ قَنَوَاتِ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِعْلَامِ الْمِهْنِيِّ الْجَيِّدِ الْعَامِّ الْمُسْتَقِلِّ الْمُمَوَّلِ تَمْوِيلاً جَيِّدًا، أَمْرٌ إِلَى جَانِبِ التَّعْلِيمِ الْعَامِّ وَالْمِهْنِيِّ وَالِدِّيْنِيِّ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، أَمْرٌ اسْتِرَاتِيجِيٌّ لَا غِنَى

عَنْهُ لِحِمَايَةِ الْأُمَّةِ وَمَصَالِحِهَا وَرَأْيُهَا الْعَامُّ مِنَ الْمُصَادِرَةِ وَالتَّضَلُّيلِ وَقَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّ مِنَ الْمُهِّمِّ أَنْ يَصْلُحَ النِّظَامُ الْاِقْتِصَادِيَّ وَأَسْوَاقَ الْمَالِ الَّذِي مَكَّنَ الْقِلَّةَ مِنْ نَهْبِ أَمْوَالِ الْأُمَّةِ وَثَرَوَاتِهَا وَشِرَاءِ سَاسَتِهَا وَجَرَّ شُعُوبَهَا إِلَى الْفَقْرِ وَالْحُرُوبِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَعِنْدَيْدِ فَقْطُ تَأْتِي رُؤْيَةُ الْأُمَّةِ وَقَرَارَاتُهَا رَشِيدَةً تَخْدُمُ مَصَالِحَهَا الْحَقِيقِيَّةَ الْمَشْرُوعَةَ، وَلَا تُسَيِّرُ عَلَيْهَا الْمَصَالِحَ الْخَاصَّةَ، وَلَا يَسْهَلُ مَعَهَا شِرَاءُ السَّاسَةِ وَرِجَالِ السُّلْطَةِ، وَبِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَغَوَّلُوا وَيَقْهَرُوا الْأُمَّةَ؛ خِدْمَةٌ لِلْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ وَالْحِزْبِيَّةِ تَبَعًا لَهَا، وَهُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ الدُّوَلُ الْمُعَاصِرَةُ، "وَاللِّبْرَالِيُّ وَالِدِيمُوقْرَاطِيُّ" الْغَرْبِيُّ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

وَلَيْسَ أَسْوَأُ مِنْ تِلْكَ الدُّوَلِ إِلَّا الدُّوَلُ الْمُتَخَلِّفَةُ الْمَشُوْهَةَ الرُّؤْيَةَ وَالثَّقَافَةَ، وَالَّتِي تَفْتَقِدُ الْمَوْسَسَاتِ الْعَامَّةَ الْفَاعِلَةَ، وَالَّتِي تَقْهَرُنْخَبَهَا إِرَادَةَ أُمَّمِهِمْ وَتَسْتَعْبِدُهَا، وَتَسْتَأْثِرُ فِيهَا بِالسُّلْطَةِ وَالتَّرْوَةِ؛ لِتَقَعْ هَذِهِ الْأُمَّةُ فَرِيْسَةَ الْفَقْرِ وَالْجَهْلِ وَالذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ وَلِتُصْبِحَ لُقْمَةً سَائِغَةً لِلْأَعْدَاءِ وَالْمُتْرِيْصِينَ بِهَا، حَاكِمًا وَمَحْكُومًا.

(٢) الْمُحَقُّ التَّوْضِيحِيُّ الثَّانِي:

مَفْهُومُ الْقَانُونِ : إِقْلِيمِيَّةُ الْقَانُونِ ، وَشَخْصِيَّةُ الْقَانُونِ

كَمَا يَعْلَمُ الْقَارِئُ يَكُونُ الْقَانُونُ عَلَى نَوْعَيْنِ: قَانُونِ الدَّوْلَةِ أَوْ الإِقْلِيمِ (إِقْلِيمِيَّةُ الْقَانُونِ) (State law)، وَشَخْصِيَّةُ الْقَانُونِ (Personal law).

وَقَانُونِ الدَّوْلَةِ أَوْ الإِقْلِيمِ (إِقْلِيمِيَّةُ الْقَانُونِ)؛ هُوَ قَانُونٌ أَوْرُبِيٌّ نَتَجَ عَنْ تَطَوُّرِ الْمُجْتَمَعِ الأُورُوبِيِّ وَمَا ثَارَ فِيهِ مِنْ صِرَاعَاتٍ دِينِيَّةٍ، وَخَاصَّةً بَيْنَ الكَاتُولِيكِ التَّقْلِيدِيِّينَ وَالإِصْلَاحِيِّينَ البُرُوتِسْتَانْتِ، وَمَا تَرْتَبَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ صِرَاعَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ بَيْنَ الأَمْرَاءِ، انْتَهَتْ بِالتَّسْلِيمِ لِلْمُلُوكِ وَالأَمْرَاءِ بِأَنْ يَفْرِضُوا عَلَى سُكَّانِ مَمَالِكِهِمْ وَبِلَادِهِمْ الْقَوَانِينَ الَّتِي يُصْدِرُونَهَا لِتُطَبَّقَ عَلَى جَمِيعِ سُكَّانِ الإِقْلِيمِ أَوْ المَمْلَكَةِ أَوْ الإِمَارَةِ مِنْ دُونِ تَمْيِيزٍ أَوْ اسْتِثْنَاءٍ، وَيُعَامَلُ المُواطِنُونَ بِمُوجِبِهَا مُعَامَلَةَ الأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَا خِيَارَ لَهُمْ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ انْتِمَاءَاتِهِمْ وَهُوِّيَاتِهِمْ وَأَوْضَاعِهِمْ الخَاصَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ.

أَمَّا الْقَانُونُ الشَّخْصِيُّ أَوْ شَخْصِيَّةُ الْقَانُونِ؛ فَهُوَ الْقَانُونُ الَّذِي يَرَعَى انْتِمَاءَاتِ أَفْرَادِ رَعِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَهُوِّيَاتِهِمْ وَخُصُوصِيَّاتِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ، مَا أَمَكْنَ ذَلِكَ، فَتَتَعَدَّدُ فِي هَذَا النِّظَامِ الْقَوَانِينُ -فِيمَا لَا ضَرُورَةَ وَلَا مَصْلَحَةَ عَامَّةً فِي تَوْحِيدِهَا- بِتَعَدُّدِ الإِنْتِمَاءَاتِ وَالخُصُوصِيَّاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَالمَصَالِحِ، انْطِلَاقًا مِنْ مَفْهُومِ احْتِرَامِ

إِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ، وَحُرِّيَّاتِهِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَحُقُوقِهِ وَخُصُوصِيَّاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مُنْطَلَقَ شَخْصِيَّةِ الْقَانُونِ أَوْ الْقَانُونِ الشَّخْصِيِّ فِي مَدَاهُ وَأَفَاقِهِ هُوَ أَكْثَرُ قَابِلِيَّةٍ لِلتَّوَافُقِ وَاحْتِرَامِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَخُصُوصِيَّاتِهِ وَإِنْتِمَاءَاتِهِ مِنْ مُنْطَلَقِ قَانُونِ الدَّوْلَةِ أَوْ إِقْلِيمِيَّةِ الْقَانُونِ.

وَمِنْ مُفَارَقَاتِ إِقْلِيمِيَّةِ الْقَانُونِ -عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ- أَنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ فِي بَعْضِ هَذِهِ الدُّوَلِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ لَوْ ثَبَتَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ زَوْجًا إِسْلَامِيًّا شَرْعِيًّا بِأَكْثَرِ مِنْ امْرَأَةٍ، بَعْضِ النَّظَرِ عَنْ أَسْبَابِهِ، لَعُدَّ مُخَالَفًا لِقَانُونِ الدَّوْلَةِ أَوْ قَانُونِ الْإِقْلِيمِ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ مُعَرَّضًا لِلْعِقَابِ، فِي حِينٍ لَوْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَوْ أَيُّ أَحَدٍ آخَرَ قَدْ اتَّخَذَ خَلِيلَةً، أَوْ مَارَسَ عِلَاقَةً غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ، لَمَا عُدَّ مُخَالَفًا لِلْقَانُونِ، وَلَا يَكُونُ مُعَرَّضًا لِلْعُقُوبَاتِ.

وَإِقْلِيمِيَّةِ الْقَانُونِ تُوجِبُ عَلَى كُلِّ الْمُوَاطِنِينَ طَاعَتَهُ فِي كُلِّ شَأْنِهِ، بَعْضِ النَّظَرِ عَنِ الْخُصُوصِيَّاتِ وَالْإِنْتِمَاءَاتِ؛ وَهَذَا يَعْنِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ عُدْوَانَ الْأَغْلَبِيَّةِ عَلَى حُقُوقِ الْأَقْلِيَّاتِ وَحُرِّيَّاتِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ، وَمِنْ مُفَارَقَاتِ هَذَا الْقَانُونِ مَا شَرَعَتْهُ أُمَّ الْحُرِّيَّاتِ الْأَوْرُبِيَّةِ بِشَأْنِ إِظْهَارِ بَعْضِ الشَّارَاتِ الَّتِي تُعْلِنُ هُوِيَّةَ الْأَشْخَاصِ وَتُظْهِرُ إِنْتِمَاءَاتِهِمْ الدِّيْنِيَّةَ؛ فَأَبَاحَتْ ارْتِدَاءَ الصَّلِيبِ مَا دَامَ صَغِيرَ الْحَجْمِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ فِي حَدِّ

ذَاتِهِ يَكْفِي لِإِعْلَانِ الْإِنْتِمَاءِ وَالْهُوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ؛ وَلَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَا تَسْمَحُ لِلْفَتَاةِ الْمُسْلِمَةِ الْمُوَاطِنَةِ بِارْتِدَاءِ الْحِجَابِ فِي الْمَدَارِسِ وَفِي مُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّهُ يَنْمُو عَنِ الْإِنْتِمَاءِ وَالْهُوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ جُمْهُورَ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَعْذُونَ الْحِجَابَ وَاجِبًا دِينِيًّا، وَبِذَلِكَ يُنْكَرُ الْقَانُونُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الْمُوَاطِنَةِ خَاصَّةً، وَعَلَى فِئَاتٍ دِينِيَّةٍ أُخْرَى غَيْرَ مَسِيحِيَّةٍ، حُقُوقًا إِنْسَانِيَّةً، وَهَذَا يُمَثِّلُ فِي الْحَقِيقَةِ اعْتِدَاءً مِمَّنْ يَدْعُونَهَا "أُمَّ الْحُرِّيَّاتِ" عَلَى الْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ لِلْمُوَاطِنِ الْمُسْلِمِ؛ وَذَلِكَ بِعَدَمِ السَّمَاحِ بِارْتِدَاءِ مَا يُعَدُّ وَاجِبًا دِينِيًّا؛ بِزَعْمِ أَنَّ ذَلِكَ يُفْهَمُ مِنْهُ الْإِنْتِمَاءُ الدِّينِيُّ وَالثَّقَافِيُّ، وَالَّذِي هُوَ حَقٌّ إِنْسَانِيٌّ طَبِيعِيٌّ، وَلَا يُمَثِّلُ ضَرَرًا وَلَا عُدْوَانًا عَلَى أَحَدٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ التَّشْرِيْعَ قَدْ أَبَاحَ لِلْمَسِيحِيِّ ارْتِدَاءَ الصَّلِيْبِ مَا دَامَ صَغِيرَ الْحَجْمِ، وَهُوَ يُعْلَنُ وَلَا شَكَّ -صَغَرًا أَمْ كَبْرًا- الْهُوِيَّةَ الْمَسِيحِيَّةَ الَّتِي تُمَثِّلُ هُوِيَّةَ الْأَغْلَبِيَّةِ وَمَوْرُوثَهَا الثَّقَافِيَّ، وَهُوَ انْتِهَاكٌ لِحَقِّ مِنَ الْحُقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ مِنْ قِبَلِ الْأَغْلَبِيَّةِ لِلْحُرِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَحْيِزٌ ضِدَّ الْمُوَاطِنِ الْمُخْتَلَفِ الْآخَرَ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ قَضِيَّةَ الْمَآذِنِ، وَقَضِيَّةَ انْتِهَاكِ حُرْمَاتِ مُقَدَّسَاتِهِمُ الرُّوحِيَّةِ

بِالرَّوَايَاتِ وَالرُّسُومِ وَالْأَغَانِي وَالْأَفْلَامِ وَصِرَاعِ بَعْضِ دَوْلِ الْغَرْبِ مَعَ الْعَدِيدِ مِنَ الشُّعُوبِ
الْمُسْلِمَةِ، وَالْعُدْوَانِ عَلَيْهَا، لَا تَكْمُنُ الْإِجَابَةُ عَلَيْهِ فِي السَّمَّاحِ لَهُمْ بِمَزِيدٍ مِنَ الْعُدْوَانِ مِنْ
هَذِهِ الدُّوَلِ عَلَى حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَأَوْطَانِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، بَلْ أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ يَكْمُنُ فِي
إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي السِّيَاسَاتِ الْعُدْوَانِيَّةِ الْخَاطِئَةِ فِي حَقِّ أبنَاءِ تِلْكَ الشُّعُوبِ، وَمُقَدَّرَاتِهِمْ،
فَالْمُغَالَطَاتُ وَالتَّمَادِي فِي الْعُدْوَانِ وَالتَّدْمِيرِ لِنُ يَزِيدَ الطِّينَ إِلَّا بِلَّةً، وَيَدْفَعُ الْجَمِيعُ
بِحِمَاقَاتِهِمْ ثَمَنَهُ الْغَالِي الْمُتَّفَاقِمَ، إِلَّا أَنْ يَثُوبَ الْمُعْتَدِي وَيَكْفَّ عَنْ عُدْوَانِهِ، وَيُعِيدَ
النَّظَرَ فِي سِيَاسَاتِهِ الْحَمَقَاءِ، وَمَوَاقِفِهِ الْمُؤَيَّدَةِ وَالِدَّاعِمَةِ لِإِنْتِهَاكِ حُقُوقِ هَذِهِ الشُّعُوبِ؛
فِيخْمِدَ نَارَ الرَّفْضِ وَالثَّارِ وَدَوَافِعَهُمَا فِي النَّفُوسِ، وَمَا تَدْفَعُ إِلَيْهِ بَشْرِيًّا مِنْ حَمَاقَاتِ
وَقَسْوَةٍ وَتَعَدِّيَاتٍ غَيْرِ إِنْسَانِيَّةٍ مُمَائِلَةٍ، وَآلِي سَقَطَ وَمَا يَزَالُ يَسْقُطُ ضَحِيَّتُهَا عَلَى
الْجَانِبِينَ آفَ الضَّحَايَا الْأَبْرِيَاءِ.

وَعَلَى عَكْسِ مَفْهُومِ إِقْلِيمِيَّةِ الْقَانُونِ فَمِنَ الْمُلَاحَظِ هُنَا، أَنَّهُ فِي ظِلِّ مَفْهُومِ شَخْصِيَّةِ
الْقَانُونِ، يَتَوَجَّبُ إِعْطَاءُ كُلِّ فِئَةٍ فِي هَذَا النِّظَامِ حَقَّهَا الدِّينِيَّ وَالثَّقَافِيَّ وَحُرِّيَّاتِهَا الْعَقْدِيَّةِ
وَالشَّخْصِيَّةِ فِي الْمُمَارَسَاتِ الَّتِي تَتَوَجَّبُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْغَبُ فِيهَا أَتْبَاعُهَا مِنْ أَصْحَابِ
الْإِنْتِمَاءَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ مَا دَامَ ذَلِكَ لَا يَسْتَتْبِعُ ضَرَّرًا وَلَا عُدْوَانًا عَلَى أَحَدٍ، وَيُخْضِعُ الْجَمِيعَ

لِمَبْدَأِ الْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالتَّمَتُّعِ بِالْحُقُوقِ وَالْحُرِّيَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّوِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ.
وَمِنَ الْمُفِيدِ الْإِشَارَةَ هُنَا إِلَى أَنَّ أَهَمَّ حَضَارَةِ التَّرَمَّتْ مَفْهُومَ شَخْصِيَّةِ الْقَانُونِ هِيَ
الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، مِنْ مُنْطَلَقِ دِينِ الْإِسْلَامِ فِي احْتِرَامِ إِنْسَانِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَحَقِّهِ فِي
الِاخْتِلَافِ وَالتَّمَايُزِ وَالْخِيَارِ، وَتَحْقِيقًا لِمَبْدَأِ "الْعَدْلِ" الَّذِي هُوَ أَهَمُّ مَبْدَأِ التَّرَمَّةِ
الْإِسْلَامِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ، وَلِأَنَّ التَّمَايُزَ وَالْخِيَارَ هُوَ جَوْهَرُ الْإِسْتِخْلَافِ
وَالْأَمَانَةِ وَالْإِعْمَارِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْأَرْضِ، وَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ مِيزَانُ الْحِسَابِ وَالْمَالِ فِي عَالَمِ
الرُّوحِ وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ.

وَقَدْ التَّرَمَّتْ دَوْلُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَمَالِكُهَا فِيمَا مَضَى هَذَا الْمَبْدَأَ وَعُرفَ هَذَا
الْمَبْدَأُ فِي الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ آخِرُ دَوْلِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِاسْمِ "قَانُونِ الْمِلَّةِ"،
أَوْ "نِظَامِ الْمِلَّةِ".

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْعَدِمُ مَفْهُومُ شَخْصِيَّةِ الْقَانُونِ فِي عَالَمِ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ
وَالدَّوْلَةِ الْقَوْمِيَّةِ، فَإِنَّا مَا نَزَالُ نَرَى بَعْضَ آثَارِهِ الْإِجَابِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْقَوْمِيَّةِ
الْهَجِينَةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَخَاصَّةً فِي التَّشْرِيعَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِاتِّبَاعِ الْأَدْيَانِ فِي هَذِهِ
الدُّوَلِ، فِيمَا يُسَمَّى "قَوَانِينُ الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ".

وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَالْهُدَايَةُ وَالرَّشَادُ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مؤسسة فكرية إسلامية ثقافية مستقلة،
أنشئت في الولايات المتحدة في مطلع القرن
الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ/١٩٨١م)
من أهدافه:

- توفير الرؤية الإسلامية الشاملة، في تأصيل
قضايا الإسلام الكلية وتوضيحها، وربط
الجزئيات بالكليات والمقاصد والغايات
الإسلامية العامة.

- استعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية
للأمة الإسلامية، من خلال جهود إسلامية
العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومعالجة قضايا
الفكر الإسلامي.

- إصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر،
لتمكين الأمة من استئناف حياتها الإسلامية
ودورها في توجيه مسيرة الحضارة الإنسانية
وترشيدها وربطها بقيم الإسلام وغاياته.
ويستعين المعهد لتحقيق أهدافه بوسائل
عديدة منها:

- عقد المؤتمرات والندوات العلمية والفكرية
المتخصصة.

- دعم جهود العلماء والباحثين في الجامعات
ومراكز البحث العلمي ونشر النتائج العلمي
المتميز.

- توجيه الدراسات العلمية والأكاديمية لخدمة
قضايا الفكر والمعرفة.

وللمعهد مكاتب وفروع في عدد من العواصم
العربية والإسلامية وغيرها، يمارس من خلالها
أنشطته المختلفة، كما أن له اتفاقيات للتعاون
العلمي المشترك مع عدد من الجامعات العربية
والإسلامية والغربية في مختلف أنحاء العالم.

هذه القصة

تروى أحداث هذه القصة على لسان الفيلسوف الحكيم بيدبا على هيئة حوارات فكرية معمقة بين الفيلسوف بيدبا والشيخ الرحالة ابن بطوطة وتلامذتهم.

وحوارات هذه القصة وقضاياها هي امتداد لقضايا قصة جزيرة البنائين التربوية العامة الموجهة لتكوين عقلية الناشئة والشباب.

إن الغاية من حوارات هذه القصة الموجهة إلى الشباب والآباء والمربين هو طرح قضايا الأمة الاجتماعية، وإعادة صياغة مفاهيمها ورؤيتها الكونية على ضوء الرؤية الكونية القرآنية الحضارية وحكمة التطبيقات النبوية على واقع عهد الرسالة، وإزالة ما أصاب فكر الأمة وثقافتها وسلوكها وممارستها من تشوه في عصور الجمود والتخلف. إن من أهم ما يميز منهج أسلوب حوارات القصة هو إدراك ما يواجهه الآباء والمربون من قضايا تتعلق بتربية الأبناء، بما يعنيهم على تفعيل العقيدة الاستخلافية السمحة بأسلوب قصصي حوارى علمي مقنع، يسهم في جعلها فعلاً واقعياً إيجابياً مؤثراً في حياة الأمة وسلوك ناشئة أجيالها وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية، وفي أسلوب أداء مؤسساتهم التربوية والعلمية والتعليمية وجهودهم الدعوية.



١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي